التاريخ الإسلامى (٣)

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

الإسلام والمسلمون فى مصر



موسوعة
الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية
التاريخ الإسلامى

المجلد الثالث
الإسلام والمسلمون فى مصر

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥
٦ أ شارع جواد حسنى - ت. ٢٣٩٣٠١٦٧
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

٩٥٦ موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية-التاريخ الإسلامى.

م و ت ا الإسلام والمسلمون فى مصر/ تأليف مجموعة من المؤلفين. -
القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٨.

٥ ج: ٢٤ سم. - (موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية؛ ٣).

تدمك: ٩ - ٢٢٨٤ - ١٠ - ٩٧٧.

المحتويات: ج١ - الفتح الإسلامى لمصر.

ج٢ - مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية.

ج٣ - الدولة الفاطمية (نشأتها - سياستها الداخلية - سياستها الخارجية).

ج٤ - القاهرة المعزية (تأسيسها ودورها الحضارى فى العصر الإسلامى).

ج٥ - الأزهر الشريف: منارة العلوم والمعارف الإسلامية.

المحتويات

الفتح الإسلامى لمصر.

د. حامد زيان

مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية.

د. عصام الدين عبد الرؤوف

الدولة الفاطمية (نشأتها - سياستها الداخلية - سياستها الخارجية).

د. صابر دياب

القاهرة المعزية: تأسيسها ودورها الحضارى فى العصر الإسلامى.

د. عطية القوصى

الأزهر الشريف منارة العلوم والمعارف الإسلامية.

د. عصام الدين عبد الرؤوف

اللجنة الاستشارية
لموسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

جميع المراسلات والاتصالات على العنوان التالى:

دار الفكر العربى

موسوعة الثقافة التاريخية والأثرية والحضارية

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

تقديم

يمتد التاريخ الإسلامى أكاديميا منذ مولد الـرسول ﷺ سنة ٥٧١م حتى الحكم العثمانى لمصر وبعض البلاد الإسلامية سنة ١٥١٧م مرورا بعصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين والعصرين الأموى والعباسى، وفى خلال هذه الفترة ساهم المسلمون بعد أن هداهم الله إلى الإسلام ساهموا بنصيب كبـيرفى تقـدم وازدهار الثقـافة الإنسانـية، واعتـمد الأوربيـون فى نهضتـهم الحديثـة على العلوم الإسلامـية . والدول التى أقامـها المسلمـون ، دولا قوية لها نظمـها الإدارية والماليـة، ويسود بين أفرادها العـدل والمساواة، لأن دسـتور هذه الدول هو القـرآن الكريم، الذى حقق للإنسـان العدل والمساواة والشـورى، وبه الحدود التى تمنع الجرائم التى تؤدى إلى اضـطراب المجتمعـات، والمبادئ التى أقـرها الإسلام، تحـقق للإنسان السـعادة والسـلام والطمأنـينة، وتمنع الرذائل التى تؤدى إلى اضطراب المجتمعات، وانتشار الفساد فيها.

أ.د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى



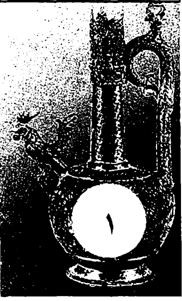
تأليف

د. حامد زيان غانم

أستاذ ورئيس قسم التاريخ

كلية الآداب - جامعة القاهرة





مقدمة

تعاقب على حكم مصر - عبر تاريخها الطويل - عدد كبير من الحكومات والعهود، وخلال هذه العصور احتفظت مصر بهويتها وشخصيتها المتميزة. فلم يستطع أى من هذه الحكومات التى شهدتها مصر التأثير على شخصيتها، فعلى سبيل المثال لم يستطع الفرس ولا الإغريق ولا الرومان التأثير على مصر، حيث احتفظت مصر بتراثها وهويتها دون أن تذوب فى حضارة هذه الدول.

ثم كان الفتح الإسلامى لمصر، وما صاحبه من انتشار الإسلام واللغة العربية بين أهالى مصر ليؤثر تأثيرا كبيرا على تاريخ مصر، لدرجة أننا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن الفتح الإسلامى لمصر كان نقطة تحول خطيرة فى تاريخ مصر.

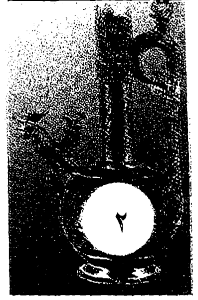
وقد وضع الولاة المسلمون الأوائل سياسة عامة فى حكم مصر سار عليها سائر الولاة فيما بعد، وهى سياسة قامت على أساس ترك الحرية الدينية لأهالى مصر فى المعتقدات وإقامة الشعائر الدينية وعدم المساس بدور العبادة أو الانتقاص منها، وزادوا على ذلك برعاية هذه الدور وإنشاء كنائس جديدة فى مختلف أنحاء الديار المصرية.

وكان لتلك السياسة القائمة على أساس التسامح الدينى، أثرها فى محبة أهالى مصر لذلك الدين الجديد، فدخل عدد كبير من المصريين فى الدين الإسلامى، أما من أراد الاحتفاظ بدينه وعقيدته فقد عاش جنبا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين فى سلام، وعاش حياة طيبة هانئة آمنة، مما أكسب المجتمع المصرى فى ظل الحكم الإسلامى طابعا خاصا تميز بعدم التعصب أو التمرد، وأكسبته الهدوء والسكينة.

وقد ساعد ذلك بالإضافة إلى ما تمتعت به مصر من موقع جغرافى ممتاز، ومناخ معتدل على ازدهار الحضارة بمصر ازدهارا كبيرا جعلها قبلة للكافة.

وهكذا كان الفتح الإسلامى لمصر نقطة تحول خطير فى تاريخها الطويل.

المؤلف



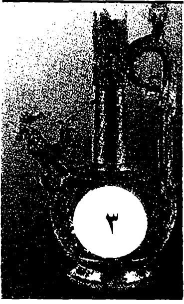
لم تكن الرسالة المحمدية قاصرة على عرب الجزيرة، وإنما هى رسالة لكل البشر. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً** ... ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ]، لذلك عمل الرسول ﷺ على نشرها خارج حدود الجزيرة العربية حيث أرسل رسله إلى حكام تلك البلاد لدعوتهم إلى الدخول فى الإسلام. وكانت مصر من بين تلك البلاد التى أرسل إليها الرسول ﷺ عام ٦هـ / ٦٢٧م لدعوة حكامها إلى الدخول فى الإسلام، وكان رسوله فى ذلك حاطب بن أبى بلتعة الذى حمل كتابا إلى حاكمها قيرس الذى تسميه المصادر العربية «المقوقس»، وقد أوردت المصادر نص هذا الكتاب وهو على النحو التالى: «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، فأسْلِم تسلم، وأسْلِم يؤتك الله أجرك مرتين، يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

المقوقس يقرأ الرسالة:

• أكرم (المقوقس) حاطب بن أبى بلتعة حامل كتاب رسول الله ﷺ، وبعث معه برسالة إلى الرسول ﷺ تحتوى على رد كريم جاء فيها: «لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام، أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها، والسلام». أما هاتان الجاريتان فكانتا مارية القبطية التى اتخذها الرسول ﷺ جارية له وتسرى بها وولدت له ابنه إبراهيم وأختها سيرين التى جعلها الرسول جارية لحسان بن ثابت فولدت له ابنه عبد الرحمن.

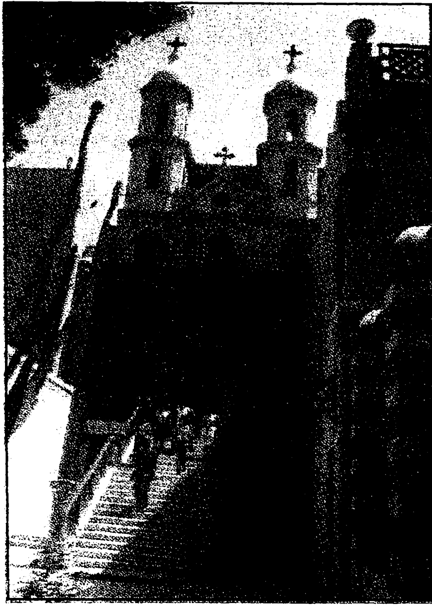
أوصى الرسول ﷺ أصحابه بأهل مصر خيرا، فقد روى عنه ﷺ أنه قال لأصحابه: «إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بقبطها خيرا، فإن لكم فيهم صهرا وذمة». كما أوصى أصحابه أن يتخذوا منها الجند «فذلك الجند خير أجناد الأرض»؛ «لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة».

وقد سار الخلفاء الراشدون على نفس سياسة الرسول فى نشر الدين الإسلامى خارج الجزيرة العربية، وتابع أبو بكر الصديق أول خليفة لرسول الله مسيرة الفتوح الإسلامية.



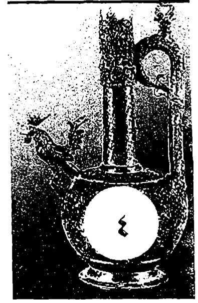
ولابد لنا أن نقـرر عدة حـقائق هامـة تدور حول حـركة الفـتوحـات الإسلامية. أولى هذه الحـقائق أنه كان وراء تلك الحركة أسبـاب مباشرة أدت إليها. أولهـا، الحماسة الدينيـة التى بثها الرسول ﷺ والصحـابة من بعده فى نفوس المسلمين، خاصة مـا جاء فى القرآن الكريم من أن الإسلام إنما هو دين عالمى ورسالة عامة لابد من تبليغها إلـى كافة البشر. بالإضافة إلى هذا السبب الرئيسى كـان هناك مجمـوعة من الأسبـاب غير المبـاشرة تتـمثل فى النواحى السياسية والاقتصادية.

وثانى هذه الحقائق، أن هناك بعض الباحـثين المستشرقين استندوا على تلك الفـتوحات وما تبعها من معارك ضارية، ونادوا برأى غير صحيح وهو أن الإسلام انتـشر بحد السيف، وهو قـول مردود، به مغالطة للحـقيقة والتاريخ، وخاصـة أن تعاليم الإسلام تنفى عنه هذه الصفة، فقـد جاء فى التنزيل العزيز ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾**﴾ [**البقرة**]. كما نصت الشـريعة الإسـلامية علـى ضرورة معـاملة أهل الذمة الخاضـعين للحكم الإسلامى معاملة طيـبة، فإذا دخلوا فى الإسلام فلا يفرض عليهم سوى الخراج، أما إذا فضلوا البـقاء على دينهم فلهم حرية ممارسة شـعائر دينهم على أن يؤدوا الجزية، ومعنى هذا أن الإسلام لم يشتـرط ضرورة اعتناق أهل البـلاد المفتوحـة من يهود ونصارى للإسلام.



الكنيسة المعلقة ق ٥م مبنية على قواعد برج من حصن بلبليون

وعلى هذا النحو فـإن القول بأن الإسلام انتـشر بحد السيف هو افتراء مبـين على هذا الدين؛ والحقيقة التاريخيـة تؤكد أن الحروب التى قام بهـا المسلمون إنما كانت موجهة ضد حكام هذه البلاد الذين وقفوا حـجر عثرة أمام نشر الدين الإسلامى، وأصبحوا مانعـا يمنع تعرف أهالـى هذه البلدان على الدين الإسلامى، فكان على المـسلمين محـاربة هؤلاء الحكام حتى يزيلوا هذا المانع، وليـتمكن أهالى البلاد من التعـرف على الدين الإسلامى، والدليل على ذلك أنه بعد انتصار المسلمين على حكام هذه البلدان تركوا حرية العقيدة لأهلها، وذهبوا إلى أكثر من هذا فأعـطوهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وأماكن عـبادتهم. ومن الأنسب أن نقول: إن



الذى انتشـر بحد السيف هو النفوذ الإسـلامى فقط، أما الدين الإسلامـى فقد أخذ طريقـه فى نفوس أهالى البلدان المفتوحـة بعد أن تعرفوا عليـه عن قرب، وأدركوا ما يـدعو إليه من تسامح ورفع الظلم وإقـامة علاقات قـوية بين أفراد المجتـمع، وخيـر ما يمثـل هذا انتشار الديـن الإسلامى فى أماكن لم تـصلها الجيـوش الإسلامـية، وإنما تعـرف أهالى هذه البـلاد البعيـدة على ما جـاء به الإسلام من شرائع عن طريق القوافل التجارية.

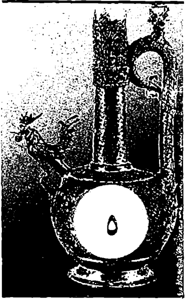
أنظار المسلمين تتجه نحو مصر

مسجد عمر بالقدس:

بعد أن أتم المسلمون فتح بلاد الشام، وتوجـه الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٤م) إلى الجـابية أواخر عـام ١٥هـ (٦٣٥م) لتـسلم بيت المقدس بعـد أن رفض بطريرك بيت المقدس تسليـمها إلا للخلـيفة، وما حـدث فى الجابيـة من كتابة كـتاب أو أمان يؤمنهم فـيه على أنفسهـم وأموالهم وأماكن عبـادتهم وأشهد عليه قـواد المسلمين. أخذ عمـرو بن العاص يفكر فى تأمين بلاد الشام حتى لا يعاود الروم مهاجمتها مرة أخرى. والمعروف أن عمرو بن العاص كان هو القائد الذى تولى فتح فلسطين وبيت المقدس تحت إمرة أبى عبيدة بن الجراح والى الشام.

أما عمرو بن العاص فهو أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم وينتهى نسبه إلى قريش. أسلم بعـد صلح الحديبيـة ٦هـ/ ٦٢٧م، وحسن إسلامـه، وقد اشتهـر بالدهاء والجلادة والحزم وصواب الرأى والفصاحة، ولاه الرسـول ﷺ قيادة غزوة ذات السلاسل عام ٨ هـ/ ٦٢٩م وذلك على الرغم من أن هذا الجيش ضم كبار الصحابة أمثال أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وذلك بطبيعة الحال لخبرته بالحرب وما يتمتع به من دهاء. ثم تولى قيادة الجيوش أثناء فتح الشام. وبعد أن تم فتح بلاد الشـام أخذ عمرو بن العاص يفكر فى تأمين هذا الفـتح عن طريق مد النفوذ الإسلامى إلى مصر التى كانت تابعة للروم؛ وذلك حتى يأمن جانبهم من ناحية مصر.

وتروى المصادر التـاريخية أن عَمْرا انتهز فرصة حضور الخليفة عمر بن الخطاب إلى الجـابيـة عـام ١٨هـ/ ٦٣٩م وحـدثه فى أمر المسيـر صوب مصـر؛ ويذكر ابن عـبد الحكم أن عـمرو بن العاص قال لأميـر المؤمنين عمر بن الخطاب: «ائذن لى أن أسير إلى مصر، وحرضـه عليها وقال: إنك إن فتـحتـها كانت قـوة للمسلمـين وعونا، وهى أكـثر الأرض أموالا وأعـجزها من القـتال والحرب».

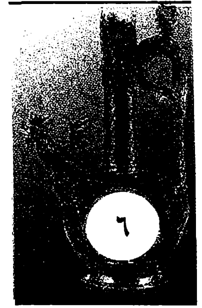


عمرو يقتل الأفعى وينقذ الرجل:

ويفهم من ذلك أنه كانت لدى عمرو بن العاص دوافع جعلته يتجه ببصره نحو مصر. وأول هذه الدوافع هو تأمين الفتوحات الإسلامية ببلاد الشام من ناحية مصر، وأن بقاء مصر بيد الروم يعرض الوجود الإسلامى ببلاد الشام إلى تهديد مستمر، وخاصة أن «الأرطبون» حاكم الروم ببيت المقدس فر من بيت المقدس إلى مصر قبل وصول عمر بن الخطاب إلى الجابية لتسلمها حيث أخذ فى إعداد العدة لمهاجمة المسلمين بالشام. والدافع الثانى هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأموال، وخاصة أن مصر بلد عظيم الخيرات. والدافع الثالث هو إيقان عمرو بن العاص أن فتح مصر سيكون أمرا سهلا وأن القتال لن يطول بها؛ لأن الانقسامات والاختلافات الدينية تسود بين أهلها والحكام الروم. وتروى المصادر التاريخية أن عمرو بن العاص شاهد بنفسه أثناء زيارته للإسكندرية قبل اعتناقه الإسلام ما كان يسود بأرض مصر من فوضى سياسية وخلافات دينية. أما سبب زيارة عمرو بن العاص للإسكندرية فتعود إلى أيام وجوده ببلاد الشام قبل الإسلام عندما كان يقوم برعى الأغنام، وهناك أنقذ حياة أحد رجال الدين المصريين مرتين، الأولى عندما كاد هذا الرجل يموت عطشا فسقاه عمرو بن العاص، والمرة الثانية عندما نام هذا الرجل واقتربت منه أفعى فقتلها عمرو بن العاص، مما دفع هذا الرجل المصرى لدعوة عمرو بن العاص للحضور معه إلى مصر ليسلمه جائزة قدرها ألفا دينار مكافأة له على هذا الصنيع، فوافق عمرو بن العاص وذهب إلى الإسكندرية ليتسلم هذه المكافأة، وشاهد أثناء وجوده بالإسكندرية عظمة هذه المدينة وما تتمتع به من غنى، كما تعرف عمرو بن العاص أثناء وجوده بالإسكندرية على مداخلها ومخارجها، بالإضافة إلى أنه شاهد بها تلك الاضطرابات والانقسامات الدينية التى شملت كافة أنحاء البلاد.

موقف الخليفة عمر بن الخطاب

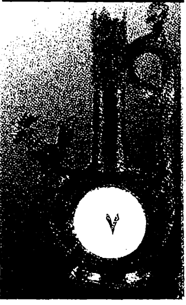
عُرف عن الخليفة عمر بن الخطاب خوفه على المسلمين من أن يلحق بهم أذى، وازداد خوفه على جيوش المسلمين. وكان يدرك تماما مدى الجهد التى بذلته جيوش المسلمين خلال فتح العراق والشام، لذلك عندما عرض عليه عمرو بن العاص فكرة التوجه لفتح مصر لم يوافق عليها على الفور؛ وذلك لعلمه بمدى التعب الذى حل بالجند على إثر المعارك المستمرة ببلاد الشام، ومن ناحية أخرى لإدراكه أن الروم لن يفرطوا فى سهولة ويسر بمصر. لكن عمرو بن العاص أخذ يهون على الخليفة أمر فتح مصر.



وبعد أن فكر عـمر بن الخطاب فى أمر فتح مـصر أصدر قراره بالموافـقة على سير عمرو بن العاص إلى مصر. وكـان عمرو بن العاص حينئذ محاصرا لقيسـارية، فأرسل إليه شريك بن عبـدة، يحمل له أمر المسير إلى مـصر، وقد جاء فيه: «سر وأنا مستخير الله فى سيرك، وسيأتيك كتابى سريعا إن شاء الله، فإن أدركك كتابى آمـرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلهـا أو شيئا من أرضهـا فانصـرف، وإن أنت دخلتهـا قبل أن يأتيك كـتابى، فامـض لوجهك واستـعن بالله واستنصره». كـما أمر الخليفـة أن يخرج عمـرو بن العاص على رأس جيش مقداره أربعة آلاف جندى ويقال ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى.

ولكن ما هى الحكمـة من وراء هذا الشرط الذى اشترطه الخليـفة فى رسالته إلى عـمرو بن العاص وهو «إن أدركك كتابى آمـرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شـيئا من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتهـا قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستـعن بالله واستنصره». يتضح من هذا الشرط مدى ذكاء عمـر بن الخطاب فى اختبار قدرة الجيش الإسلامى فى مـتابعة عمليات الفتوح الإسـلامية فى مصر بعد مـعاركهم فى بلاد الشام. فقد أيقن عـمر بن الخطاب أنه إذا كان الجيش المصاحب لعمرو بن العاص المتجه إلى مصر فى كامل لياقته العسكرية وقدرته على مواصلة القتال فإنه سوف يسير بسرعة وهمة، أمـا إذا كانت لياقته العسكرية قد تأثرت بما بذل من جهد فى معارك الشام فإنه لن يتابع السير صوب مصر بنفس الحماس والسرعة، لذلك رأى عمر بن الخطاب أن يرسل رسالة بعد فترة معينة فإذا وصلت رسالته ولم يكن الجيش قد وصل بعد إلى حدود مصر فإن معنى ذلك أن هذا الجيش لا يتمتع بلياقة عسكرية كاملة تؤهله للدخول فى معارك جديدة على أرض مصر، لذلك أمر عـمرو بن العاص أن يعود بالجيش لأنه لا يصح المغـامرة بالجنود المسلمين وهم على هذه الحالة من الإعـياء والتعب؛ أما إذا وصـلت رسالته بعد أن يكون الجـيش قد وصل إلى حدود مـصر فـمعنى ذلك أن الجيـش فى كامل لياقـته العـسكرية وقادر على خـوض المعارك الجديدة على أرض مـصر، لذلك أمر عـمرو بن العاص أن يسـير فى هذه الحالـة على بركة الله. ويبدو أن كثـيرا من المؤرخين لم يفهموا هذا القـصد الذى قصده الخليفة عـمر بن الخطاب، وأخذ يتأوّل على عمرو بن العاص لدرجة أن البعض ذكر أن عـمرا خرج بدون استئذان الخليفة، لكن لا صحة لهذا الرأى.

وعلى هذا النحو يتضح لنا أن الذى فكر فى المسـير إلى مصر وفتحهـا هو القائد عمرو بن العاص الذى نظر إلى هذا الفتح بعـين القائد العسكرى الذى تحتاج فتـوحاته فى الشام إلى خطوط دفاع وعمق يؤمنها، ولا يتأتى ذلك إلا بمد النفوذ الإسلامى إلى مصر، ثم أشار بذلك على الخليفة الذى فكر فى الأمر مليا ثم أصدر قراره بقيام حملة عمرو بن العاص أثناء وجود الأخير بقيسارية. لذلك فنحن نؤكد مرة أخرى أنه لا عبرة لمن تأول على القـائد عمرو بن العاص وذكر أنه اتجه إلى

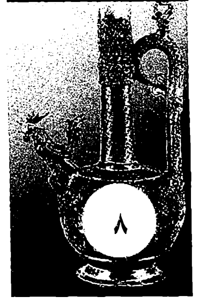


مصـر بدون علم الخليفة وغـرر بالجند وسار بهم صوب مـصر دون استـئذان الخليفة؛ لأن عمرو بن العـاص لم يكن بالرجل العادى الذى لا يقدر الأمور، وإنما هو ذو ذكاء سـياسى ومهـارة عسكرية، وكـان يعلم جيدا أن المسـير إلى مصر يتطلب تكاتف الجـهود والمدد المستمر والدعم الكثير من الخليـفة عمر بن الخطاب.

أما عمرو بن العـاص فما إن وصله أمر الخليفة بالمسيـر إلى مصر حتى خرج مجدا حتى يصل إلى أرض مصر قـبل أن يصله كتاب الخليفة، فى حين أخـذ الخليفـة عمـر بن الخطاب يرقب الموقف وهو فى نفس الـوقت حريص على سـلامة جـيش المسلمين المتـجه صوب مصر، وازداد حـرصه عندما حدثه عثـمان بن عفان عن جـرأة عمرو التى يخشى مـعها تعرض الجـيش للخطر بقوله: «إن عمـرو بن العاص به جرأة وإقـدام وحب للإمارة ويخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعـة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا». لذلك ازداد تخوف عمر بن الخطاب على جيش المسلمين فسارع بإرسال رسالته إلى عمرو بن العاص يأمـره فيـها بالعودة إذا لم يكن قـد دخل أرض مصـر، ووصلت هذه الرسالة وعـمرو بن العاص برفح فلم يتسلمها وجَدَّ فى السير حتى وصل إلى قرية على مقربة من العريش، وسأل عنها فقـيل له إنها من أرض مصر، هـنا تسلم عمرو بن العاص الـرسالة وقرأها، وقال لأصـحابه: أية أرض هذه؟ قالوا: من مصر. فتقدم نحو مصر، وذلك بناء على ما جاء فى الرسالة بأن يسير على بركة الله مادام قد دخل أرض مصر.

أحوال مصر السياسية والدينية قبل الفتح الإسلامى

بوقوع مصر تحت الحكم الرومانى بعد هزيمة كليوباترا السابعة فى معركة أكتيوم البحرية عام ٣١ ق م، أحكمت الإمبراطورية الرومانية قبضتها على مصر، وذلك خوفا من قيام حركات مناوئة للحكم الرومـانى من جهة، وحـرصا على ما تنتـجه مصـر من منتجـات، وخاصة القـمح حيث أصبحت مصر بمثـابة المخزن الرئيسى الذى يمد الإمبراطورية الرومانيـة بما يلزمها من قمح، لذلك وضع أباطرة الإمبراطوريـة الرومانية الأوائل نظاما فريدا لحكم مـصر بحيث أصبـحت مصر ولاية رومانية تابعـة لسلطة الإمبراطور مبـاشرة؛ كذلك وضع لها نظاما إداريا يكـفل الإشراف التام على شئـونها، ويلاحظ أن كافة التـعديلات التى طرأت على النظام الإدارى بمصر فى عـصور الأباطرة المخـتلفة إنما قـصد به إحكام السـيطرة على كل أنحـاء مصـر، من ذلك مثـلا قيـام الإمبـراطور

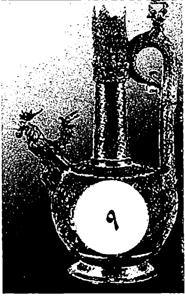


تيودسيوس (٣٧٨ ـ ٣٩٥م) بإعادة إشراف الإمبراطور على مصر إشرافا مباشرا بعد إلغاء التعديلات التى قام بها الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م) من جعل مصر ولاية تابعة لدوق الشرق، ثم رأى الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) تفتيت السلطة فى مصر حتى يضمن عدم قيام قوة بها تتطلع للانفصال عن حكم الإمبراطورية الرومانية، فقسم مصر إلى خمس دوقيات ثم قسم هذه الدوقيات إلى أبرشيات. وأصبحت السمة الغالبة على التنظيمات الإدارية بمصر زمن جستنيان هى القضاء على وحدة البلاد السياسية، وبذلك ضمن جستنيان عدم قيام الثورات بمصر ضد الإمبراطورية الرومانية.

أما عن أحوال مصر الدينية، فبعد انتشار المسيحية بمصر أخذت مظاهر الانقسام تأخذ طريقها بين أبناء مصر، حيث ظهر بكنيسة الإسكندرية مذهبان كنسيان لكل منهما رأيه فى طبيعة السيد المسيح؛ ومن ثم أخذ الصراع المذهبى طريقه إلى مصر.

وبدأ هذا الصراع فى كنيسة الإسكندرية فمنذ ظهور القديس آريوس وهو أحد قساوسة الإسكندرية الذى أعلن رأيه فى طبيعة السيد المسيح وهى الآراء التى خالفت ما نادى به القديس أثناسيوس من آراء فى طبيعة السيد المسيح وهو أيضا أحد أساقفة كنيسة الإسكندرية.

ولم يلبث أن التف حول كل من هؤلاء الأساقفة مجموعة من المؤيدين وأصبحت الكنيسة المسيحية فى مصر فى صراع بين أتباع آريوس وهم الذين أطلق عليهم اسم «الأريوسيين»، واتباع اثناسيوس وهم الذين اطلق عليهم اسم «الأثناسيوسيين»، وانشق بذلك المجتمع المصرى. وقد حاول الإمبراطور قسطنطين (٣٢٣ ـ ٣٣٧) حل هذا النزاع بعقد مجمع دينى فى نيقيه عام ٣٢٥م حيث أدان هذا المجمع أريوس وتقرر نفيه هو وأتباعه وتحريم النقاش حول مذهبه، وتقرر أن يكون المذهب الرسمى الوحيد هو الموافق لرأى القديس أثناسيوس، ثم عاد قسطنطين مرة أخرى وعقد مجمعا دينيا آخر فى مدينة صور عام ٣٣٤م أدان فيه أثناسيوس وقرر إعادة مذهب آريوس؛ والواضح أن النواحى السياسية كانت هى التى تحرك قسطنطين، وكانت وراء إصدار قرارات المجامع الدينية، لكن المهم لدينا أنه نتج عن ذلك اشتداد الصراع بين الأريوسيين والأثناسوسيين، وتبع ذلك زيادة الاضطهاد الدينى بمصر. ومما زاد هذا الصراع الدينى وأدى إلى حدة الاضطهادات الدينية ظهور مذاهب دينية أخرى، من ذلك ظهور المذهب الملكانى أو المركانى أو الملكى نسبة إلى الإمبراطور الرومانى (وهو المذهب الكاثوليكى القائل بأن للسيد المسيح طبيعتين: إلهية وبشرية) والمذهب المعارض له وهو الذى أطلق عليه المذهب اليعقوبى، وذلك نسبة إلى يعقوب البردعى الذى تزعم هذا المذهب (وهو المذهب المنادى بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة) وهو مذهب أغلبية أهالى مصر، وقد تعرض اليعاقبة للاضطهاد من قبل الأباطرة البيزنطيين.

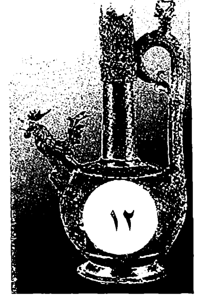




وبعـد أن تولى الإمـبـراطور هرقـل (٦١٠ ـ ٦٤١م) عـــرش الإمبراطورية البيزنطية حاول التوفيق بين أتباع مـذهب الطبيعـتين وأتباع مذهب الطبيعـة الواحدة فى مذهب واحـد هو مـذهب الإرادة الواحـدة (المونوثولستية) وكـان هذا المذهب الجديد هو وليد أفكار بطريرك القـسطنطينة سـرجيـوس. غيـر أن هذا المذهب الجديـد لم يحز رضـا أهالى مصـر ووقفـوا منه موقـفا معاديا.

وإذا كان الإمـبراطور هرقل فى تلك المـرحلة قد بذل جهدا فى سبيل استعادة قوة الإمبراطورية، فإنه لم يكن على استعداد بالتضحية بانفصال مصر عن الإمـبـراطورية، لذلك فكر فى وسـيلة لـلضرب بـها علـى يد المصـريين وقـمع تلك الفـتنة والاضطرابات التى سادت أنحاء الديار المصـرية. لذلك أرسل إلى مصر عام ٦٣١م حاكـما يجمع فى يديه السلطتـين السياسـية لكونه واليـا على الإسكندرية، والدينية لـكونه بطريركا على كنيـسة الإسكندرية، وذلك حتى يضمن عدم خروج مصر عن طاعته.

أمـا هذا الوالى والبطريرك الجـديد فكان قيـرس Cyrus الذى اشـتهـر فى كتب التـاريخ الإسلامى باسم المقوقس؛ وقد عرف عن المقوقس هذا الصلابة والرعونة والقسوة، وهو الأمر الذى زاد من حدة الاضطرابات، وخـاصة أن المصـريين رفضوا الانصـياع لأوامر المقـوقس وأعلنوا راية العصيان، وكان زعـيمهم فى ذلك البطريرك بنيامين أسقف كنيسة اليعـاقبة الذى فضل الهروب من الإسكندرية قبل وصول المقوقـس إليها ولجأ إلى صحراء وادى النطرون ومنها اتجـه إلى طيبة حيث أخذ فى تدبير الوسائل لمناهضة المقوقس والحد من سطـوته وتعكير صفوفه، بينما بذل المقوقس كل جهده فى القبض على بنياميـن لكنه فشل فى ذلك؛ لأن بنيامين كان دائم التنقل من دير إلى آخر، فى حين دبر اليعـاقبة أمر اغتيال المـقوقس لكنهم فشلوا فى ذلك أيضا. وهكذا عاشت مـصر فترة عصيبة من تاريخها كان أهم سماتها الاضطهاد الدينى.



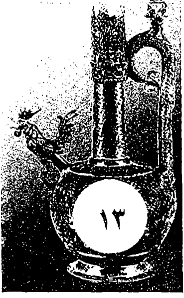
(قيرس) بتقديم النجدة اللازمة للحامية الموجودة بالفرما، أثره فى استسلام هذه الحامية واستيلاء المسلمين عليها، على الرغم من قلة عددهم وعتادهم.

بفتح الفرما ضمن عمرو بن العاص تأمين الطريق إلى مصر، وتابع زحفه نحو مصر مارا بعدة بلاد لم يحارب بها إلا إذا لزم الأمر حتى وصل إلى بلبيس التى كانت بها حامية عسكرية بيزنطية، فقاتلها عمرو بن العاص قرابة شهر واستطاع الاستيلاء عليها. ويذكر البعض أن الأرطبون ـ قائد جيوش الروم بالشام ـ الذى سبق أن هرب بعد تسليم بيت المقدس للمسلمين كان ببلبيس فى تلك الفترة، وهو الذى حاربه عمرو بن العاص حتى ألحق به الهزيمة واستولى منه على بلبيس. كما ذكرت بعض المراجع أن ابنة المقوقس كانت فى طريقها إلى قيصرية وعندما علمت بزحف جيوش المسلمين احتمت ببلبيس، وبعد سقوط بلبيس فى يد عمرو بن العاص أحسن إليها عمرو وأرسلها معززة مكرمة إلى أبيها وأرسل معها ما كانت تحمله من جواهر؛ ولا شك فى أن معاملة المسلمين الطيبة لابنة المقوقس قد أثرت كثيرا فى نفوس القبط، وأدركوا بصفة عملية سماحة الإسلام وتسامح المسلمين.

ثم تابع عمرو بن العاص زحفه حتى وصل إلى قرية أم دنين، وفى نفس الوقت كان المقوقس بعد علمه بزحف جيش عمرو بن العاص داخل الأراضى المصرية، قد غادر الإسكندرية واتجه صوب حصن بابليون وشحنه بالجنود والأسلحة، كما زود قرية أم دنين القريبة من حصن بابليون بما يلزمها من السلاح والرجال، وعهد بقيادة الروم إلى القائد تيودور.

وكان من نتيجة هذه الاستعدادات التى قام بها المقوقس وشحن قرية أم دنين وحصن بابليون بالجنود والسلاح أن عجز عمرو بن العاص عن التقدم و«أبطأ عليه الفتح» ولم يستطع الاستيلاء على أم دنين، لذلك سارع بطلب المعونة العسكرية من الخليفة عمر بن الخطاب، وأجابه الخليفة بنفس السرعة وبعث إليه أربعة آلاف جندى على رأسهم أربعة من الصحابة الذى عرف عنهم الجرأة والمهارة العسكرية وهم الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد والمقداد بن الأسود، وأرسل معهم رسالة إلى القائد عمرو بن العاص جاء فيها: «إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل مقام الألف..»

ويعنى عمر بن الخطاب بذلك أن كفاءة هؤلاء القواد الأربعة تعدل أربعة آلاف جندى، هذا بالإضافة إلى الأربعة آلاف السابقة، لذلك ختم رسالته بقوله: «إن معك اثنى عشر ألفا..». ومن هنا حدث خلط عند بعض المؤرخين فاعتقدوا أن عمر أرسل ثمانية آلاف رجل بالإضافة إلى الأربعة آلاف السابقة.

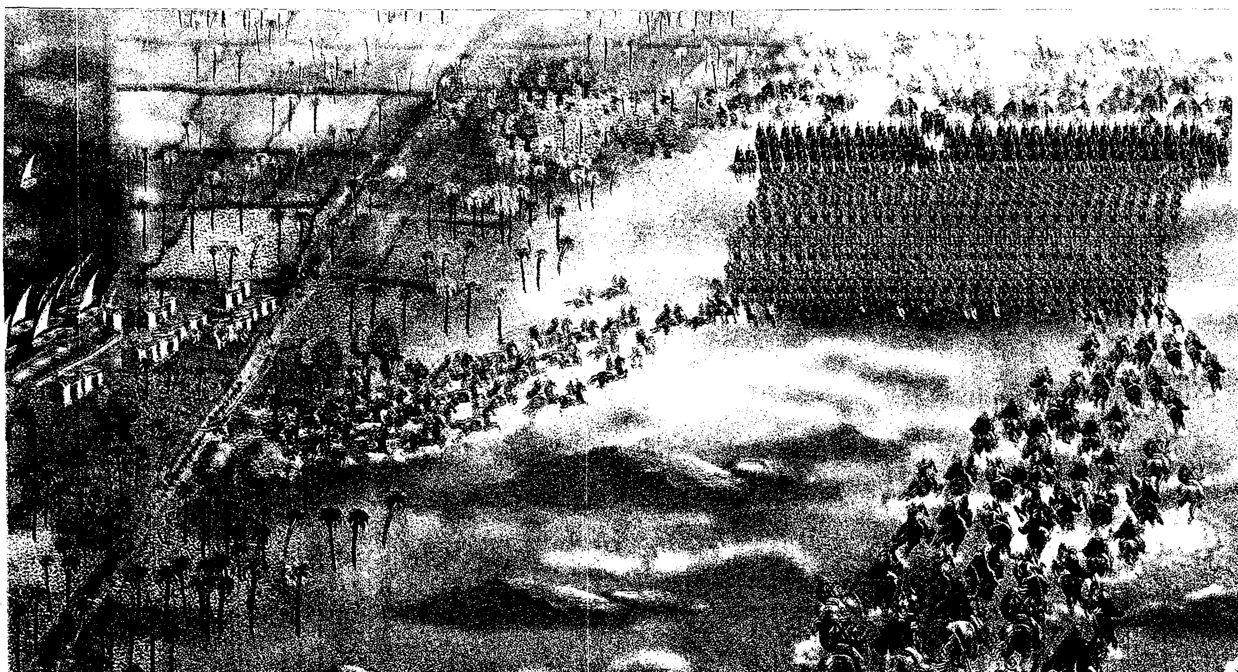


استطاع عـمرو بن العاص بهذه المعـونة العسكرية إنزال الهزيمـة بقوات المقوقس واستـولى على كل من أم دنين وعين شمس كما زحـفت قواته أيضا إلى الفيوم. أما بقايا قوات الروم فقد هربوا إلى حصن بابليون.

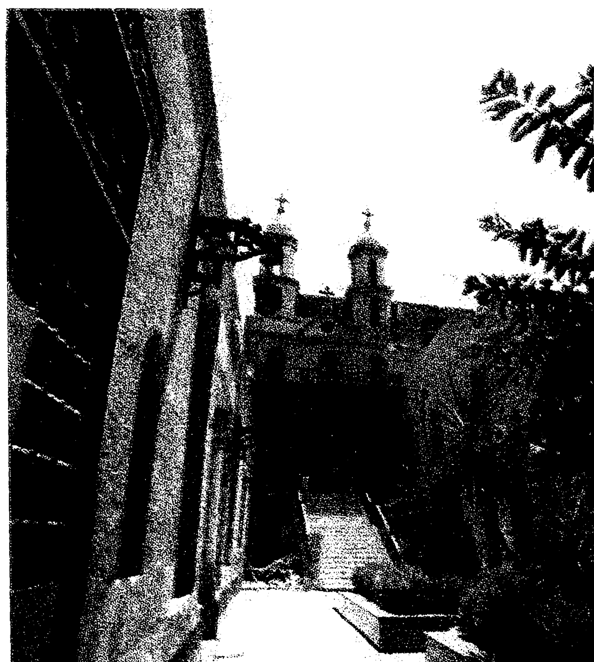
أما حـصن بابليـون هذا فيـرجع بناؤه إلى أيام الحكم الفارسى لمـصر، حيث أسس بخـتنصر هذا الحـصن وأقام به هيكلا للنار على نهـر النيل (وهو يقع الآن فى مـصر القديمـة)، وبعد أن اسـتعـاد الرومان حكم مـصر من يد الفرس، أكمل الإمبراطور تراجـان (٩٨ ـ ١١٧) بناء هذا الحصن، وكان يوقد على صروح هذا الحصن العالية النيران والشمـوع، وذلك لتهدى السفن المارة فى نهر النيل. وكان يطلق على هذا الحصن اسم حصن بابليون وهى تسمية قبطية، أما العرب فأطلقوا عليه اسم «قصر الشمع» نـسبة إلى تلك الشـموع التى كـانت توقد فى أعلى أبراجـه. وكانت أسـوار هذا الحصن عالية، وتتمتع بمناعة قوية، كما كانت بداخله الكنائس، مثل كنيسة «أبو سرجة» والكنيسة «المعلقة» اللتين ما زالتـا باقيتين من آثار هذا الحصـن إلى الآن، كما كان به بيـعتان لليهـود هدمهما اليـهود بأنفسهم.

تولى قيـادة الحامية العسكـرية البيزنطية الموجـودة بحصن بابليون قائد تمتع بكفـاءة عسكرية أطلقت المصادر عليـه اسم الأعيرج، استطاع أن يشحن الحـصن بالجنود والسلاح استعـدادا لحصار المسلمين للحصن. ونتيجة ذلك لم يستطع عمرو بن العاص اقتحام الحصن، ففرض عليه الحصار؛ ودام الحصـار قرابة سبـعة أشهـر. ويعود طول مدة حـصار الحصن وعـدم سقوطه بسـرعة فى يد المسلمـين ليس إلى حصـانته وشحنـه بالرجال والسلاح فـقط، وإنما يعود فى المـقام الأول إلى أن المسلمين لم تكن لديهم المعدات الكافـية لدك الحصون مثل المجانيق، لذلك اعتـمدوا على بسالتهم وشجاعتهم التى كانت الحماسة الدينية هى الدافع لها.

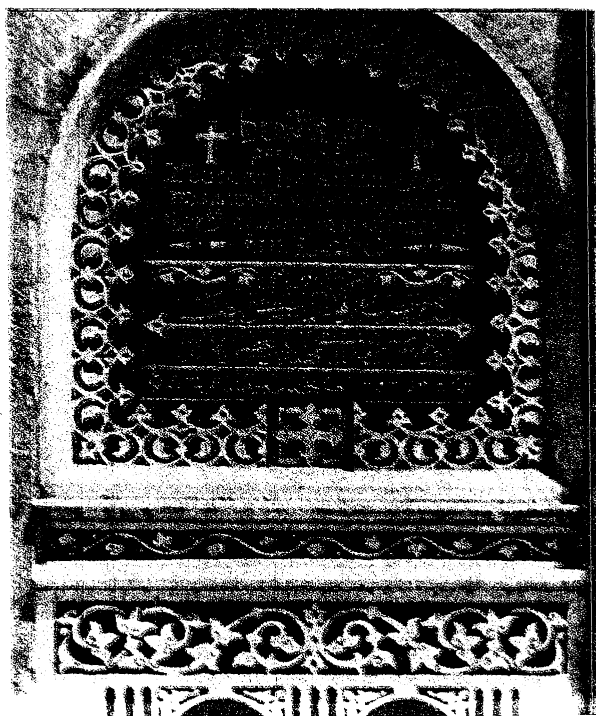
وعندما أدرك المقوقس والأعيرج تصميم عـمرو بن العاص على اقتحام الحصن هربا منه إلى جزيرة الروضة، ومن هناك أرسل إلى عمرو بن العاص يطلب فتح باب المفاوضات وعقد الصلح، فوافق عـمرو بن العـاص على هذا الطلب وأرسل إلى المقـوقس وفدا برئاسـة عبادة بن الـصامت لعرض شروط الصلح. وقد بدأ المقوقس المفـاوضات بمحاولة إرهاب عـبادة بن الصامت وبالتلويح له بما عزمت عليه الدولة البيـزنطية من إرسال الجيوش لإخراج المسلميـن من مصر، وبالتقليل من قوة المسلمين وقلة عددهم، وضـعفهم، وكيف أنهم فشلوا فى اقتحام الحصن واسـتمروا فى القتال عدة أشهر، ثم مـا حدث لهم أثناء ذلك من ضيق فى العيش. ثم عرض على عـبادة أن يصالحهم فى نظير دفع مبلغ من المال يقدر على أساس أن لكل فرد من المسلمين دينارين ولأميرهم مائة دينار وللخليفة ألف دينار، وذلك فى مقابل رحيل المسلمين عن مصر. ويبدو أن المقوقس لم يفهم جليا



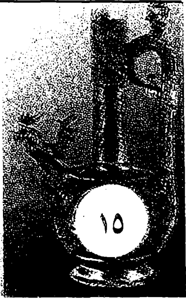
موقعة عين شمس كما وضعت فى أطلس الفتوحات الإسلامية



كنائس مصر العتيقة - الكنيسة المعلقة - ق٥م

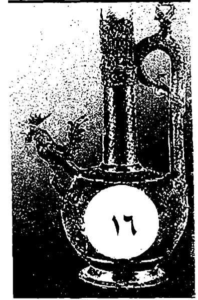


سبيل ماء على جدار الكنيسة المعلقة



الأسباب الأساسية التى من أجلها خرج المسلمون لفتح مصر، واعتقد أن العامل الاقتصادى والرغبة فى الحصول على المال كانت هى الدافع وراء هذه الفتوحات، ولم يدرك أن هناك دافعا قويا هو الذى وراء هذه الفتوحات وهو الدافع الدينى، وهو ما أفصح عنه عبادة بن الصامت عندما رد على المقوقس بقوله أنهم ـ أى المسلمين ـ لا يخشون من الموت، فهى شهادة لهم، ولا عبرة لقلة عددهم فهذا لا يقلل من همتهم ولا يفت من عزيمتهم لأنهم مؤمنون بما جاء فى كتاب الله: ﴿ ... **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]، وأنهم ما حضروا إلى مصر إلا لنشر الإسلام. وعرض عبادة ابن الصامت على المقوقس قبول واحدة من ثلاثة: إما الدخول فى الإسلام، أو دفع الجزية، أو الحرب. واستشار المقوقس أصحابه فيما عرضه عليه عبادة بن الصامت، وكان من رأى المقوقس قبول العرض الثانى وهو دفع الجزية؛ ولكن أصحابه رفضوا وقالوا: «أفنكون لهم عبيدا أبدا». غير أن المقوقس أصر على رأيه فى ضرورة مصالحة المسلمين؛ لأنه أدرك أنه لا قبل لهم بمحاربتهم؛ ولذلك أرسل إلى عمرو بن العاص أن يمهله بعض الوقت حتى يأخذ رأى إمبراطور الدولة

العرب يقتحمون حصن بابليون



البيزنطية هرقل؛ ثم توجه المقوقس إلى الإسكندرية حيث عكف على كتابة رسالة إلى الإمبراطور هرقل شرح له فيها حقيقة الوضع بمصر والأسباب التى من أجلها عرض الصلح على المسلمين.

أما هرقل فما إن وصلت إليه رسالة المقوقس والتى تحتوى على إقامة الصلح مع المسلمين وتسليم مصر إليهم، حتى ثار ثورة عارمة، وغضب غضبا شديدا، وأصر على مواصلة القتال، وشرع فى إعداد حملة عسكرية لإرسالها إلى مصر، كما أصدر أمرا بعزل المقوقس عن ولاية مصر. لكن الأيام لم تطل بالإمبراطور هرقل لنرى ما هو فاعله فى مصر، وهل سيكون حظه أفضل مما كان بالشام!! فقد توفى فى ١١ فبراير عام ٦٤١م.

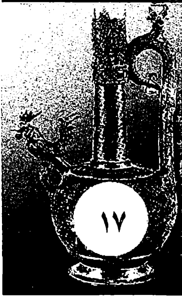
النسر رمز الحصن:

ونتيجة رفض هرقل الصلح مع المسلمين تابع الروم القتال مع المسلمين حيث أغاروا فجأة على جنود المسلمين، لكن المسلمين ردوهم على أعقابهم وأنزلوا بهم هزيمة كبيرة، غير أن وفاة هرقل أثرت على الروح المعنوية للحامية العسكرية بحصن بابليون، فى حين زاد هذا الخبر المسلمين تصميما على اقتحام حصن بابليون عن طريق القيام بعمل فدائى؛ وهذا هو ما قام به الزبير بن العوام من تسلقه الحصن عن طريق سلم وصعد إلى السور؛ وعندما أدرك أهل الحصن أن نهايتهم قريبة طلبوا من عمرو بن العاص الصلح، وفتحوا له باب الحصن؛ فوافق عمرو بن العاص على عقد الصلح معهم، وعقد لهم أمانا واصطلحوا «على أن يفرض على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط ديناران عن كل نفس، شريفهم ووضيعهم، من بلغ الحُلم منهم، ليس على الشيخ الفانى، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا النساء شيء» فى حين نزل الزبير بن العوام إلى داخل الحصن عنوة وخرج إلى عمرو بن العاص من الباب مع من خرج من أهل الحصن.

حصار الحصن:

ومعنى ذلك أنه حدث صلحان بين المسلمين والروم أثناء حصار حصن بابليون الأول كان صلحا مؤقتا (لم ينفذ) عقده المقوقس مع عمرو بن العاص وأرجأ تنفيذه بعد أخذ رأى الإمبراطور هرقل، لكن كلا من الإمبراطور والروم الموجودين بمصر لم يوافقوا عليه؛ واستمر القتال حتى كاد المسلمون أن يفتحوا الحصن فطلب الأعيرج أو قائد الحصن من عمرو بن العاص عقد الصلح، وهو الصلح الثانى فوافق عمرو بن العاص، وهذا الصلح الأخير هو الذى أصدر بمقتضاه عمرو بن العاص الأمان الذى سبق ذكره.

وقد أدى فتح حصن بابليون بهذه الطريقة إلى حدوث خلط بين المؤرخين فمنهم من قال إن مصر فتحت صلحا، ومنهم من قال إنها فتحت عنوة، وسوف نناقش هذا الموضوع عند الحديث عن فتح الإسكندرية وإتمام الفتح الإسلامى لمصر.



فتح الإسكندرية

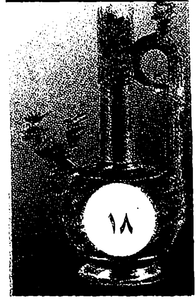
بعد وصول الوالى الجـديد عقب عزل المقوقس، أخذت الاسـتعدادات الحربية تسير على قدم وساق من أجل شـحن الإسكندرية بالرجال والسلاح، كما عمل هذا الوالى على تحصين أهم المدن الواقـعة على الطريق إلى الإسكندرية وذلك لإعاقة مسـير الجيش الإسلامى إليها؛ لأن هذا الوالى توقع عدم اكتفاء عمرو بن العـاص بالاستيلاء على ما استولى عليه من بلاد من الديار المصـرية، وتوقع مسـيره إلى الإسكنـدرية؛ لأن الإسكندرية كانت هى عـاصمـة الديار المصرية فى تلك الفترة، واستمرار بقائها فى يد الروم يعنى استمرار بقاء الروم بالديار المصرية.

والحديث عن الإسكندرية حـديث طويل يعود إلى زمن الإسكندر الأكبـر فبعد أن اسـتسلم والى مـصر الفـارسى فى خريف عـام ٣٣٢ق م للإسكندر الأكبـر، دخل الإسكندر الأكبـر منف عاصمة مـصر فى تلك الفترة، حيث اتخـذ نفس عوايد فراعنة مصر السابقـين من تقديم القرابين للآلهة الوطنيـة مما حدا بأهل مصـر إلى الترحيب به ملكا عليـهم، ثم اتجه الإسكندر غربا قـاصدا كانوب «أبو قير الحاليـة» حيث شيد فوق شريط من الأرض الرملية يقع بين بحـيرة مريوط والبحر مدينة يونانية حملت اسمه ألا وهى مدينة الإسكندرية.

وقد سـاعد موقع هذه المدينة على أن تسـتمر مـزدهرة نشطة طوال تاريخهـا، فهى تقع فى الجهـة الشرقـية من ساحل البـحر المتـوسط قريبة من شـواطئ بلاد الشام واليـونان حيث مـراكز الحضارة، كـما أنها تتمـتع بمناخ طيب هو مناخ البحر المتـوسط مما ساعد على طيب الإقـامة بها. بالإضافة إلى ذلك لم يبخل الإسكندر ومن جاء بعده من حكام مصر من البطالمة من الإنفاق عليها لتصبح أهم مدينة على ساحل البحر المتوسط.

وأصبحـت الإسكندرية عاصمة مـصر منذ أيام البطالمة حيث انتـقل إليها البطالمة بعد انـتهاء مرحلة التأسيس، وأخذت بوصفها ميناء فى استقبال كافة السفن المحملة بالبضائع والتجار والعلماء مما ساعد على ازدهارها ونشاطها حيث وصلت إلى درجة متقدمة فى مجال العلم والثقافة.

ولم يؤثر سقوط حكم الـبطالمة فى مصر عقب هزيمة أسـاطيل كليوباترا السابعة فى مـوقعة أكتيوم البحرية عام ٣١ق م على وضع الإسكندرية، والمعروف أنه بعد سقوط مصر فى يد الرومان أصبحت الإسكندرية هى ثانى مدن الإمبراطورية الرومانية، واستمر الاهتمام بالعلماء والأدباء قائما بالإسكندرية.



وبعد انتشار المسيحية فى مصر لعبت الإسكندرية دورا كبيرا فى تلك الفترة التى يطلق عليها اسم العصر البيزنطى، حيث تم تأسيس عدد كبير من المدارس المسيحية بها وأهمها المدرسة المسيحية الكبرى بالإسكندرية على يد بنتانيوس Pentaenus فى القرن الثانى الميلادى، تلك المدرسة التى قامت بالتوفيق بين الديانة المسيحية والفكر الإغريقى، وإلى جانب هذه المدرسة وجدت مدارس أخرى مثل مدرسة المتحف ومدرسة السرابيوم. هذا بالطبع بالإضافة إلى ما شهدته الإسكندرية من نهضة اقتصادية شاملة ونهضة عمرانية أذهلت العالم المعاصر لها ومن بينهم المسلمون الذين تم لهم بعد ذلك فتحها كما سنرى فيما بعد.



رسم لعملة تحمل وجه الإسكندر الأكبر

تابع عمرو بن العاص زحفه على عاصمة مصر مدينة الإسكندرية، وكانت أول المدن التى وجدها فى طريقه مدينة نقيوس وهى مدينة ذات حصون قوية شحنها الروم بالجند والسلاح، وكانت هذه المدينة ذات شهرة فى الديانة المسيحية حيث كانت مقرا لأحد كبار رجال الدين المسيحى، كما أن لها أهمية حربية فى حراسة الطريق المؤدى إلى الإسكندرية. ونتيجة كل ذلك اندفع عمرو بن العاص بجيشه فى اتجاه مدينة نقيوس مما أثار الخوف فى نفس قائدها الرومانى، على الرغم من تلك الاستعدادات الحربية التى تمت قبل وصول عمرو بن العاص إليها، ولم يسع هذا القائد إلا الفرار إلى الإسكندرية لينجو بنفسه، ولم يلبث أن تبعه سائر جند الروم تاركين أسلحتهم خلفهم، وفعل مثل ذلك البحارة تاركين سفنهم؛ فما كان من عمرو بن العاص إلا أن انقض على البقية الباقية من الحامية العسكرية وأعمل فيها القتل واستولى على المدينة بدون مقاومة تذكر.

وبعد أن فتح المسلمون مدينة نقيوس أصبح الطريق مفتوحا أمامهم، فجدّوا فى السير فى اتجاه الإسكندرية وأوقعوا الهزائم وهم فى طريقهم إليها بالقوات الرومانية التى تحصنت ببعض المواقع مثل سنطيس وكريون، بينما أخذت جنود القائد الرومانى تيودور توالى فرارها إلى الإسكندرية.

وبوصول عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وجد الروم قد تحصنوا بحصونها القوية ففرض عليها الحصار؛ ولما كانت المدينة تشرف على البحر فإن الإمدادات كانت تصلها عن طريق البحر، وبذلك لم يكن حصار المسلمين لها كاملا، وتوقع عمرو أن يطول الحصار بعض الشىء. لذلك ترك عمرو جزءا من جيشه يحاصر المدينة واتجه هو بجزء من هذا الجيش إلى حصن بابليون لتأمين الوجود الإسلامى به، كما أرسل بعضا من قادته إلى سائر قرى مصر فى الوجه القبلى لفتحها، وبذلك يأمن من عدم مهاجمة الروم له من ناحية، ومن ناحية أخرى ليضع الخراج على أراضى مصر ليتقوى به أثناء حصار الإسكندرية.

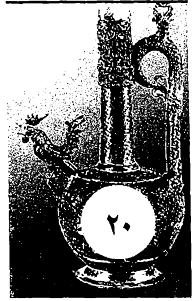
هروب الروم

ضرب الإسكندرية:



غيـر أن طول حصـار الإسكندرية وهو الذى استمر قـرابة أربعة أشهر أزعج الخليـفة عـمر بن الخطاب، فـأرسل إلى عمـرو بن العاص خطابا يحثه فـيه على تكثـيف القـتـال لـلانتـهـاء مـن فـتح الإسكندرية، ومما جـاء فـيه: «فـإذا أتاك كتابى هذا فـاخطب الناس وحضهم على قـتـال عـدوهم ورغـبــهم فى الصـبـر والمنية..». وبالفعل قرأ عمرو بن العاص هذا الـكتـاب عـلى جنوده فـــازدادت حماستهم الدينية وتولى عبادة بن الصامت قيادة الجولة القادمة حيث حمل على الروم بالإسكندرية حملة شديدة.

وفى نفس الوقت حدثت بالدولة البـيزنطية عدة تطورات أثـرت بصورة كبيرة عـلى مصر؛ ذلك أن الإمبراطور هرقل لم يلبث أن توفى فى ١١ فبراير عام ٦٤١م (٢٣صفر عام ٢٠هـ) وتولى بعده ابنه الصغيـر هرقلوناس حيث تولت الوصاية عليه أمه مارتينا واشـترك معهم فى الحكم الابن



الأكبـر لهرقل وهو قـسطنطين، وآثرت مـارتينا أن تعيـد الهدوء للإمبـراطورية البيزنطية وأن تنهى حالة الحرب مع المسلمين خاصة بعد أن أقنعها المقوقس الذى أعادته مارتينا إلى القسطنطينة من منفاه بعد عـزله من حكم مصر، أقنعها بعدم جدوى محاربة المسلـمين، لذلك رأت أن تعيد المقوقس إلى حكم مصـر ليعقد الصلح مع المسلمين ويُنهى حالة الحرب معهم.

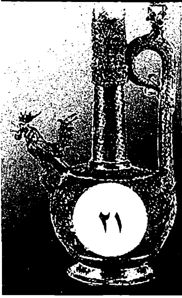
ويعلق بتلر على ذلك مـتأثرا بما صاحب تسليـم الإسكندرية من أحداث فيذكـر أن المقوقس قد خان دولة الروم منذ البداية أى منذ أن صـالح عمرو بن العاص عند حصن بابليون، وأنه استطاع إقناع مارتينا والإمـبراطور قسطنطين بعدم جدوى محاربة المسلمين، والأفضل تسليـمهم الإسكنـدرية وعقد الصلح معهم، ويصل بتلر فى اتهـامه للمقوقس إلى درجة تواطئـه مع عمرو بن العاص واتفـاقه معه سـرا فى مقابل أن يطلق عمـرو له بعد ذلك الإشراف على الكنيسة المصرية، غير أن بتلر لم يدرك تمامـا أن المقوقس كان أدرى من غيره بشعور أهالى مصـر المعادى لدولة الروم وجنوحهم إلـى الحكم الإسلامى، وهو الأمر الذى تتـوقف عليه نتائج الصـراع الدائر بين المسلمين والروم، وقد سبق أن أشـرنا إلى أن المصريين قد سئـموا الحكم الرومانى نتيـجة ذلك التعسف الشديد الذى قـامت به الإدارة البيزنطية فى مصـر؛ سواء فى جمع الضرائب التى أعـيت كاهل المصـريين، أو فى ذلك الاضطهاد الدينى الشديـد الذى وقع عليهم، لذلك وجدوا فى الحكم الإسـلامى خير وسيلة تنـجيهم من ذلك التعـسف؛ وبطبيعة الحـال كيف ينتصر الروم على المسلمين، والمصريون يقـفون بقلوبهم إلى جانب المسلمين؛ لذلك أدرك المقوقس عدم جدوى المقاومة وأنه من الأصلح تسليم الإسكندرية للمسلمين.

وبالفعل عاد المقوقس إلى مصر حيث وصـل إلى الإسكندرية فى ١٤ سبتمبر عام٦٤١م (٢ شوال ٢٠هـ) ومنها اتجـه إلى حصن بابليون حيث كـان يقيم عمرو بن العـاص، ورحب به عمرو ترحيبا كبيرا بعد أن علم أنه حضر لإتمام الصلح، وانتهت المفاوضات بين الجانبين بعقد الصلح فى نوفمبـر من نفس العام (ذو الحجة عام ٢٠هـ). وقد جـرى العرف أن يطلق على هذا الصلح اسم صلح الإسكندرية على الرغم أنه عـقد فى حصن بابليون وذلك لـتمييـزه عن الصلح السابق وهو صلح بابليون، كذلك لأن هذا الصلح الأخيـر كان يخص فى معظم بنوده مدينة الإسكندرية ومن أهم بنوده:

أولا: أن يؤدى الجزية كل من دخل فى هذا العقد.

ثانيا: تعقد هدنة لمدة أحد عشر شهرا.

ثالثا: خلال هذه الهدنة يبقى المسلمون فى أماكنهم ولا يتقدمون.



رابعا: تغادر الإسكندرية الحامية الرومانية ويسمح لهم بحمل أمتعتهم وأموالهم وذلك عن طريق البحر.

خامسا: ليس من حق الدولة البيزنطية استرداد مصر ثانية.

سادسا: أن يترك للمسيحيين فى مصر حرية العبادة ولا يتدخل المسلمون فى شئونهم.

سابعا: أن يترك لليهود حرية الإقامة فى الإسكندرية.

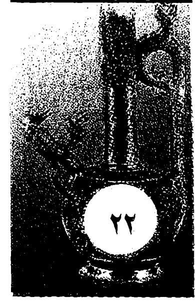
ثامنا: يؤخذ من الروم رهينة قدرها ١٥٠ جنديا و٥٠ من أهل المدينة لضمان تنفيذ هذا العقد. وأن تكون هناك هدنة لمدة أحد عشر شهرا ليتسنى لجيوش الروم الرحيل عن الإسكندرية.

وعلى هذا النحو تم فتح مصر على يد عمرو بن العاص وأصبحت مصر جزءا من الدولة الإسلامية، وأخذت تنعم بانتشار الإسلام بين ربوعها.

وقد أثير بين المؤرخين خلاف حول طبيعة فتح مصر، هل فتحت صلحا أم فتحت عنوة؟ وتختلف النتائج تبعا لكل حالة، ففى الحالة الأولى تكون قد فتحت وفق شروط معينة تحدد مقدار الجزية والخراج، وتظل الأراضى ملكا لأهل مصر. أما فى الحالة الثانية فتكون كافة الأراضى غنيمة للمسلمين الفاتحين. وقد اختلف المؤرخون فى هذا الصدد فمنهم من قال إنها فتحت صلحا، ومنهم من قال إنها فتحت عنوة!! ويعود سبب هذا الخلاف إلى ما حدث أثناء عمليات الفتح، فبالنسبة لحصن بابليون، فقد سبق أن ذكرنا أنه حدث اتفاق، أى صلح بين عمرو بن العاص وبين المقوقس حول تسليم حصن بابليون، لكن هرقل والروم رفضوا شروط هذا الصلح مما دفع المسلمين إلى اقتحام الحصن والاستيلاء عليه بالقوة، كذلك فى فتح الإسكندرية ثم عقد صلح بين الطرفين لكن قبله بقليل شدد المسلمون هجماتهم عليها وكادت تسقط فى أيديهم.

ومما زاد الخلاف فى أمر الإسكندرية أن الروم عادوا عام ٢٥هـ/ ٦٤٥م وأغاروا على مدينة الإسكندرية ـ بعد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ـ واستطاعوا الاستيلاء عليها، وكان والى مصر فى ذلك الوقت عبد الله بن سعد من قبل الخليفة عثمان بن عفان، فتم إعادة عمرو بن العاص إلى مصر لمحاربة الروم؛ لأن له خبرة ودراية فى حربهم، وبالفعل استطاع عمرو بن العاص فتح الإسكندرية للمرة الثانية، ولكن هذه المرة بالقوة واستردها من يد الروم وأجلاهم عنها.

وهكذا أخذ الاختلاف بين المؤرخين طريقه فى طبيعة الفتح الإسلامى لمصر، لكن من الثابت أن مصر فتحت منذ البداية أى منذ بداية فتح حصن بابليون وفق الأمان الذى أعطاه عمرو ابن العاص لأهل مصر والذى سبق ذكره. وقد تركت الأرض لأهلها، وقد وافق الخليفة عمر بن الخطاب على ذلك بعد أن استشاره عمرو بن العاص حيث قال عمر بن الخطاب: «لا تقسمها وذرهم يكون خراجهم فيئا للمسلمين وقوة لهم على جهاد عدوكم» .



التعريف بالإسلام

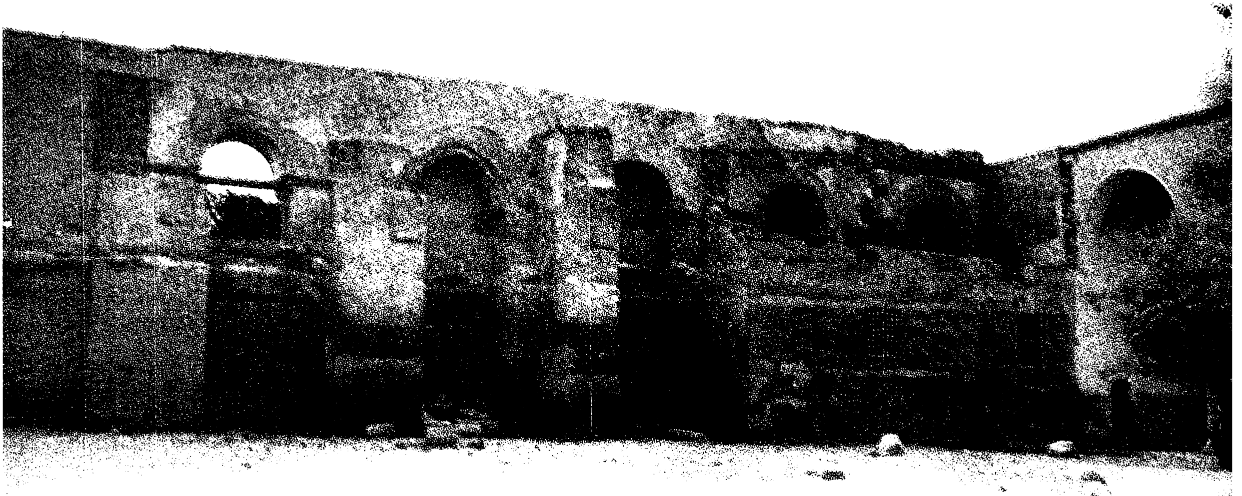
أولا - تشييد العاصمة الجديدة (الفسطاط):

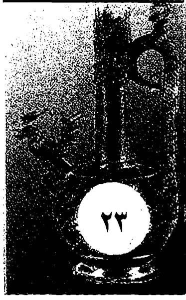
بعد أن أتم المسلمون فتح مصر، أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب رسالة شفوية مع معاوية بن خديج يبشره فيها بإتمام فتح مصر، فلما بُشر عمر بذلك خر ساجدا لله وقال: الحمد لله؛ وتوجه إلى المسجد بصحبة معاوية بن خديج ودعا المؤذن يؤذن للصلاة، فلما اجتمع الناس أمر معاوية بن حديج أن يخبر الناس بفتح الإسكندرية.

كما أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يصف له فيها الإسكندرية التى بهرت - بما تمتعت به من ازدهار حضارى - أنظار المسلمين ويتضح ذلك مما جاء فى هذه الرسالة:

«أما بعد، فإنى فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف منية بأربعة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للملوك». كما أحصى عمرو بن

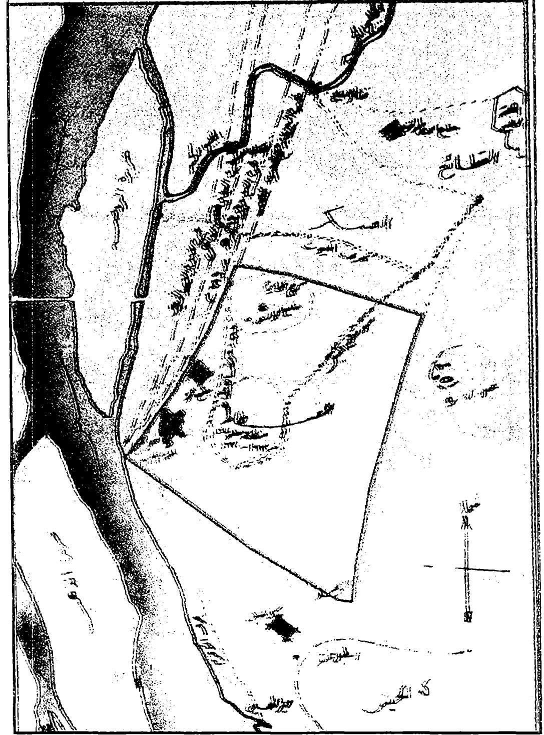
أحد حصون مسجد الفسطاط





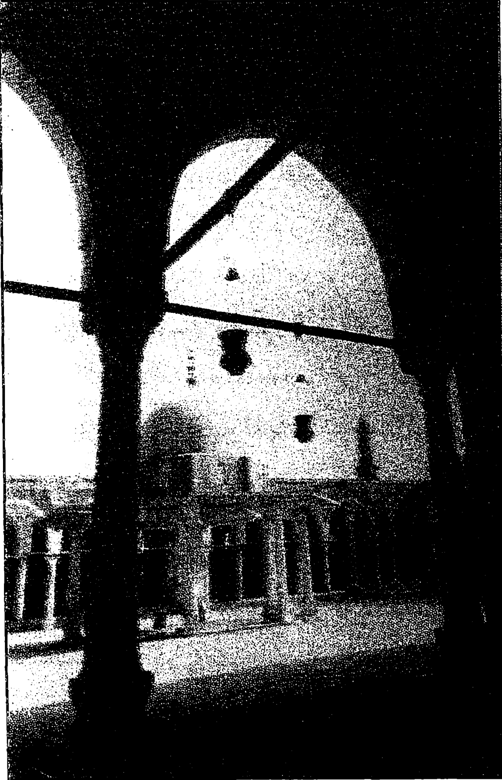
العاص بعض المنشآت التى وجدها بالإسكندرية فوجد بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر، ومن الحمامات اثنى عشر ديماسا أصغر ديماس (الحمام) فيها يسع ألف مجلس، كل مجلس فيها يسع جماعة نفر..».

ويبدو أن عمرو بن العاص قد أعجب إعجابا شديدا بالإسكندرية وبما بها من مبان ومنشآت فرأى أن يتخذها عاصمة للدولة الإسلامية الناشئة، وقال: «مساكن قد كفيناها» وأرسل إلى عمر بن الخطاب رسولا يستأذنه فى ذلك، فسأل عمر بن الخطاب الرسول: هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص يقول: «إنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف».

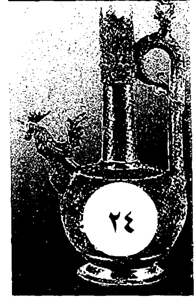


موقع مدينة الفسطاط

ونتيجة رفض الخليفة اتخاذ الإسكندرية عاصمة للدولة الإسلامية بمصر، تحول عمرو بن العاص إلى المكان الفسيح المجاور لحصن بابليون وكان عبارة عن أرض فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف باسم المقطم ولم يكن



حصن جامع عمرو - ٢١هـ/ ٦٤١م

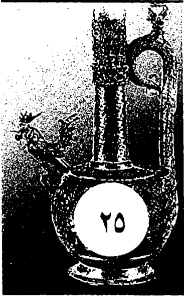


به بناء سوى حصن بابليون. وكان هذا المكان قد عسكر فيه المسلمون سابقا أثناء حصارهم لحصن بابليون، وقد أقيم لعمرو بن العاص فيه فسطاط أى خيمة، فلما انتهى فتح حصن بابليون وأراد عمرو بن العاص التوجه إلى الإسكندرية لفتحها أمر بنزع فسطاطه فوجد فيه يماما قد فرخ، فأمر عمرو بن العاص ألا ينزع ويستبقى إكراما لهذا الطير، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى رقة عمرو بن العاص ومن معه من المسلمين، فلما عاد عمرو بن العاص من الإسكندرية بعد إتمام فتحها قالوا: أين ننزل، قالوا: الفسطاط نسبة إلى فسطاط عمرو الذى تركوه بجوار حصن بابليون، وبالفعل تم إنشاء العاصمة الجديدة فى هذا الموضع وأطلق عليه اسم الفسطاط. وقد اختلف المؤرخون فى تفسير كلمة الفسطاط فهناك من يرى أنها غير عربية اشتقت من اللفظ اللاتينى Fossatum الذى أطلقه الرومان على معسكراتهم الحربية، ومنهم من يرى أنها عربية وأن كلمة فسطاط تعنى المدينة، وأن كل مدينة فسطاط، ومنهم من ينسبونها إلى فسطاط عمرو بن العاص الذى تركه بجوار حصن بابليون قبل التوجه إلى الإسكندرية.

وسارعت القبائل العربية المصاحبة لعمرو بن العاص فى اختطاط المنازل لها فى هذا المكان الجديد، ويقال إن عمرو بن العاص أوكل أمر وضع خطط الفسطاط إلى جماعة من أصحابه، بالإضافة إلى مشاركة بعض قبط مصر فى وضع هذه الخطط. ومما يذكر أن الزبير بن العوام بنى له دارا فى هذه المدينة الجديدة ووضع به السلم الذى صعد به إلى سور حصن بابليون ليكون شاهدا على ما تم أثناء فتح حصن بابليون من جهد. كذلك بنى عمرو بن العاص بالفسطاط دارا للخليفة عمر بن الخطاب بجوار الجامع، وأرسل إلى الخليفة يخبره بذلك، فكتب إليه عمر يقول: «أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين»؛ وبالفعل أصبحت هذه الدار سوقا. كذلك اختط عمرو بن العاص داره عند باب المسجد. وبمرور الوقت عمرت الفسطاط وأصبحت عاصمة مصر الإسلامية فى هذه الفترة. وجدير بالذكر أنه لا يعنى اتخاذ عمرو بن العاص الفسطاط عاصمة لمصر أن الإسكندرية أهملت أو فقدت أهميتها ولكنها استمرت مزدهرة، وذلك بفضل أهمية موقعها وأصبحت بمثابة العاصمة الثانية لمصر الإسلامية.

ثانيا - جامع عمرو أو الجامع العتيق:

من أهم المنشآت التى شيدها المسلمون بمصر عقب الفتح ذلك الجامع الذى عرف باسم جامع عمرو نسبة إلى عمرو بن العاص، أو باسم الجامع العتيق أو تاج الجوامع. والمعروف أن المسجد يلعب دورا كبيرا فى حياة المسلمين، فبالإضافة إلى دوره الدينى فى إقامة الصلاة فهو المركز الرئيسى الذى يجتمع داخله المسلمون للتشاور فى مختلف الأمور، ومقر الدعوة الإسلامية. ولذلك كان أول اهتمامات الرسول ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة تأسيسه المسجد النبوى بها. كذلك سارع عمرو بن العاص بعد إتمام فتح مصر واختطاط العاصمة الجديدة (الفسطاط) إلى أن

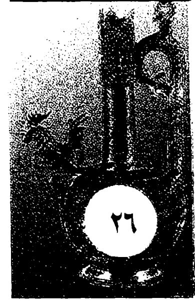


يشيد عام ٢١هـ/ ٦٤١م مسجدا جامعا بالفسطاط. والمعروف أن معظم القبائل التى كانت مصاحبة لعمرو بن العاص والتى اختطت لنفسها منازل بالفسطاط أقامت لها مساجد بجوار هذه المنازل، لذلك رأى عمرو أن يشيد مسجدا جامعا تجتمع فيه كافة القبائل للصلاة، وخاصة صلاة الجمعة، وللاجتماع إذا لزم الأمر. وذلك سيرا على ما اتبع فى كافة البلدان التى تم فتحها، فقد أشار المؤرخون إلى أنه: «لما فتح عمر البلدان كتب إلى أبى موسى وهو على البصرة يأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ويتخذ القبائل مساجد، فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى مسجد الجماعة، وكتب إلى سعد بن أبى وقاص وهو بالكوفة بمثل ذلك، وكتب إلى عمرو بن العاص وهو على مصر بمثل ذلك..».

وقد أقيم هذا الجامع على أرض حازها قيسبة بن كلثوم التجيبى الذى استقر بها أثناء حصار حصن بابليون وكانت مزروعة بالأعناب، ولما رأى عمرو بن العاص أن يشيد المسجد على هذه الأرض تصدق قيسبة بها؛ وكانت مساحة المسجد عند إنشائه خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا، وكان الطريق يطيف به من كل جانب، كما كان له ستة أبواب اثنان يقابلان دار عمرو بن العاص واثنان فى بحريه واثنان فى غربيه، كما أقيم على طراز المسجد الحرام. وقد اتخذ فيه عمرو بن العاص منبرا، فلما عرف بذلك الخليفة عمر بن الخطاب أرسل إلى عمرو بن العاص ينهاه عن اتخاذ المنبر وارتقاء رقاب المسلمين ويأمره بتكسيره، ومما جاء فى رسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص فى هذا الشأن «أما بعد، فإنه بلغنى أنك اتخذت منبرا ترقى به على المسلمين، أو ما يحسبك أن تقوم قائما، والمسلمون تحت عقبيك، فعزمت عليك لما كسرته».

ويعتبر جامع عمرو هو أول جامع أنشئ فى مصر الإسلامية؛ لذلك أطلق عليه اسم الجامع العتيق، كما أطلق عليه أيضا اسم تاج الجوامع ومسجد أهل الراية، كما اهتم به من تولى ولاية مصر بعد ذلك فعملوا على توسعته وتزيينه وفرش أرضيته. وقد ذكرت المصادر أنه حضر إقامة القبلة فى هذا الجامع ثمانون رجلا من صحابة رسول الله ﷺ من بينهم الزبير بن العوام والمقداد وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وغيرهم.

ولقد لعب جامع عمرو دورا كبيرا فى مصر، فبالإضافة إلى دوره الدينى كان له دور كبير فى الحركة العلمية بمصر حيث كانت تقام فيه الدروس الدينية، كما كان مركزا للقضاء والإدارة، وظل هذا الجامع هو المسجد الجامع الوحيد بمصر الإسلامية إلى أن بنى جامع العسكر عام ١٦٩هـ/ ٧٨٥م. وقد مدحه كثير من الرحالة والمؤرخين الذين شاهدوه أثناء زيارتهم لمصر بقولهم: «هو إمام المساجد، ومقدم المعابد، قطب سماء الجوامع، ومطلع الأنوار اللوامع، عين قلادة البنيان، وعقيلة بيوت الملك الديان».





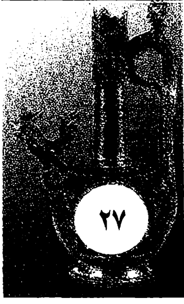
جامع عمرو من الداخل

ثالثا - تشييد مدينة الجيزة:

إذا كانت معظم القبائل العربية المصاحبة لعمرو بن العاص قد نزلت بالفسطاط وشيدت منازلها بها، فإن بعض القبائل الأخرى قد نزلت بموضع الجيزة ورغبت فى الاستقرار بها، فكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة عمرو بن الخطاب يعلمه بذلك، فرد عليه الخليفة بأن يعمل على جمع كافة القبائل العربية وإنزالهم معه وألا يكون هناك ما يشتت شملهم أو يفرق بينهم مثل وجود ماء. وفى حالة إصرار هذه القبائل على الاستقرار بالجيزة فلابد من بناء حصن لهم فى هذا المكان يكون لهم مأمنا.

عرض عمرو بن العاص ما ورد إليه من عند الخليفة على القبائل المستقرة بالجيزة، وعرض عليهم الإقامة بالفسطاط والنزول مع بقية القبائل العربية، لكنهم رفضوا وأصروا على البقاء فى الجيزة، فشرع عمرو بن العاص فى بناء حصن لهم بالجيزة انتهى منه عام ٢٢هـ.

أما سبب استقرار هذه القبائل بالجيزة فيعود إلى الوقت الذى شرع فيه عمرو بن العاص فى الاستقرار بمصر بعد إتمام فتح الإسكندرية وأخذ فى تشييد وبناء عاصمته الجديدة الفسطاط، وقد خشى عمرو بن العاص من مداهمة عدو له من الناحية الجنوبية؛ لذلك عهد إلى بعض القبائل العربية وهى ذى أصبح من حمير وهمدان وآل رعين وطائفة من الأزد وطائفة من الحبشة، بالإقامة فى الجيزة ليكونوا بمثابة خط دفاع من الناحية الجنوبية. وبعد أن أتم بناء العاصمة عرض عليهم العودة إلى الفسطاط لكنهم رفضوا، خاصة بعد أن وجدوا راحتهم فى الإقامة فى هذه المنطقة وقالوا: «هذا مقدم قدمناه فى سبيل الله وأقمنا به، ما كنا بالذين نرغب عنه ونحن به منذ أشهر».



وأخذت هذه القبائل فى تخطيط مدينة الجيزة حيث نزلت كل قبيلة فى منازل لها.

والجيزة فى لغة العرب. تعنى الوادى أو أفضل موضع فيه. ويشير المقريزى إلى أنها تعنى الناحية أو الجانب وجمعها جِيَز، والجيز هو جانب الوادى.

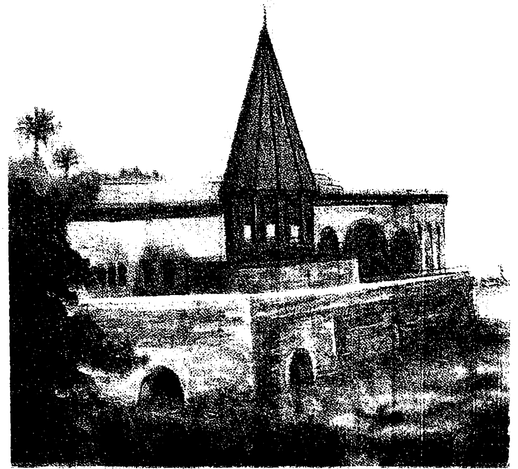
وعلى هذا النحو تعتبر مدينة الجيزة مدينة إسلامية تم بناؤها عام ٢١هـ، ثم تطورت ونمت بعد ذلك على مر مراحل تاريخ مصر الإسلامية.

رابعا - المسلمون والنيل:

أدرك المسلمون منذ البداية أهمية النيل بالنسبة لمصر، فهو الذى يمد أرض مصر بالحياة، وقد نسب إلى عمرو بن العاص إحدى القطع الأدبية وهى بمثابة رسالة أرسلها إلى

«حابى» - إله النيل -

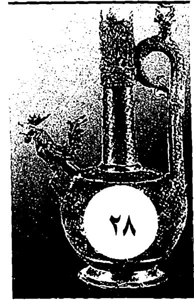




مقياس النيل بمصر القديمة



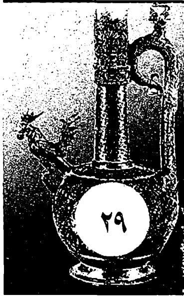
فرس النهر بتميمة زرقاء ترمز للنماء والإخصاب (إله الولادة)



الخليفة عمر بن الخطاب يصف له فيها أرض مصر ونيلها. ومما جاء فيها: «يخط وسطها ـ أى مصر ـ نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر، له أوان، يدر حلابه، ويكثر فيه دُبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اضلخم عجاجه وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب، وخفاف القوارب. . .، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته، وطما فى درته. .».

وبطبيعة الحال اعتنى المسلمون بأمر هذا النهر المبارك، حيث قام عمرو بن العاص ببناء عدة مقاييس عند حلوان وأسوان ودندرة للوقوف على حال نهر النيل من زيادة ونقصان؛ لأنه ترتب على زيادة أو نقصان ماء النيل تحصيل الخراج؛ لأنه إذا نقص الماء عن حد معين وهو الحد الذى يعجز أهالى مصر عن زراعة أراضيهم، أو زاد الماء إلى الحد الذى تستبحر معه الأراضى فتفسد المزروعات، وفى كلتا الحالتين لا يتم تحصيل الخراج. أما إذا كانت الزيادة بالدرجة التى تكفى لرى الأراضى بدون نقصان أو زيادة فى هذه الحالة يتم تحصيل الخراج.

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن عبد الحكم ذكر رواية نقلها عنه معظم من جاء بعده من المؤرخين، هذه الرواية تقول أنه بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح مصر وحل شهر بؤونة جاء بعض أهالى مصر إلى عمرو بن العاص وقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا سُنّة لا يجرى إلا بها، فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان لاثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر ـ أى شهر بؤونة ـ عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها، وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل». لكن عمرو بن العاص رفض الانصياع وراء هذا القول ورد قائلا: «إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله». ولكن حدث نقصان ماء النيل وتأخر فيضانه، مما أدى إلى قلق كثير من أهالى مصر، فأرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بما حدث من أهل مصر وما حدث من نقصان لمياه النيل. فأرسل الخليفة كتابا إلى عمرو بن العاص قال له فيه: «قد أصبت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى». وقد جاء فى هذه البطاقة: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك». فألقى عمرو بن العاص هذه البطاقة فى النيل ففاض ماء النيل وبلغ ستة عشر ذراعا، وعم الفرح كافة أرجاء الديار المصرية.



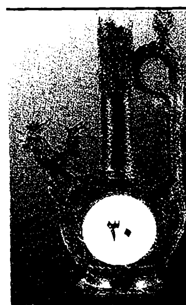
وقصة إلقاء فتاة بكر فى النيل هى قصة خرافية، فلم يثبت فى أى عصر من عصور تاريخ مصر القديم أن ألقى عروس فى مجرى النيل، لكن كانت تجرى بعض الطقوس الدينية لهذا النهر، ويتم قذف الكعك وحيوانات الضحية والفاكهة والغنائم وكذلك تماثيل الإناث وذلك لإخصاب النيل. ووصلت أهمية النيل عند قدماء المصريين أن صوروه على أنه إله اسمه «حابى»، لكنه لم يكن إلها ذا عبادة منتظمة، ولكن كانت له أناشيد ترتل فى أوقات معينة، ويحتفل بتقديم القرابين له فى أوقات معينة أيضا، وكانت هذه القرابين لاتخرج عن إلقاء بعض حيوانات الضحية والحلوى والتماثيل وخاصة تماثيل الإناث.

الاحتفال بالنيل:

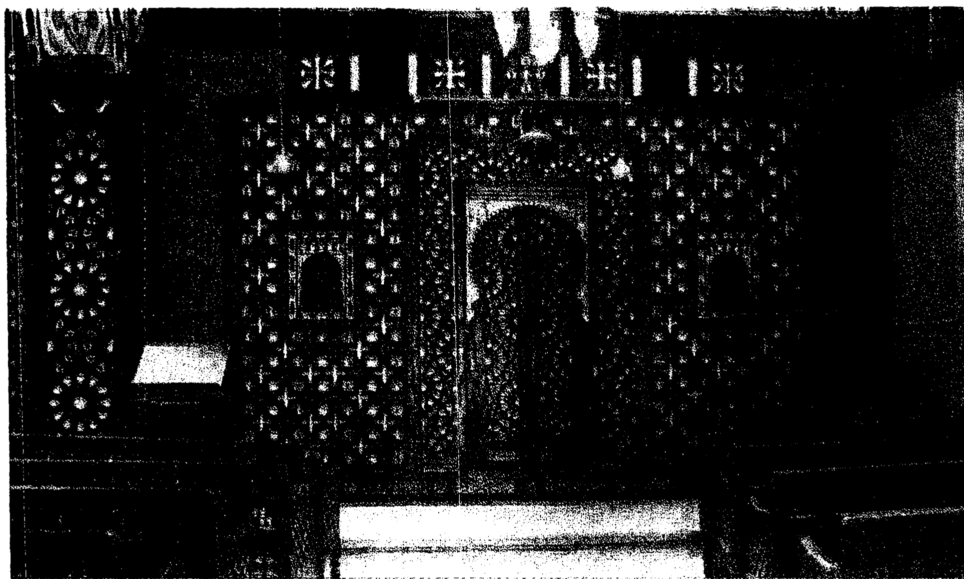
وبعد انتشار الديانة المسيحية بمصر احتفل بالنيل فى عيد أطلقوا عليه اسم «عيد الشهيد» فى اليوم الثامن من شهر بشنس، وكانوا يلقون تابوتا من الخشب به أحد أصابع موتاهم، ويقيمون فى هذا اليوم احتفالا ضخما حيث يخرج كافة أهالى مصر وينصبون الخيام على شاطئ النيل، ويبدو أنه خلال هذا الاحتفال كان يستفيد التجار (خاصة تجار الخمور) وأصحاب الملاهى استفادة كبيرة مما جعلهم يصرون على إقامة هذا الاحتفال. ويذكر المقريزى أنه «يباع من الخمر فى ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة. . » ونتيجة ذلك استمر إقامة هذا العيد فى بعض عصور مصر الإسلامية إلى أن تم إبطاله نهائيا عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م فى زمن السلطان الصالح صالح بن محمد ابن قلاوون (٧٥٢ ـ ٧٥٥هـ).

خامسا - الأقباط فى ظل الحكم الإسلامى:

تمتع قبط مصر أو بمعنى آخر أهالى مصر الذين تمسكوا بالديانة المسيحية بكامل حريتهم سواء فى ناحية العقيدة أو فى الممتلكات، وشاركوا مشاركة فعالة فى مختلف أنشطة الحياة فى مصر فى ظل الحكم الإسلامى. وقد ساعد على ذلك الأمان الذى أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم ـ لصوصهم ـ فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا



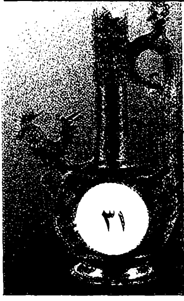
انتهى رفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثا فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم، على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين».



من كنائس مصر القديمة العصر القبطى

وهكذا حرص عمرو بن العاص على تأمين أهالى مصر الذين فضلوا الاحتفاظ بمسيحيتهم فأمنهم على أنفسهم أى ضمن لهم الحياة الكريمة وألا يمسهم أحد بسوء، كما أمنهم على ملتهم أى منحهم حرية العبادة وألا يتعرض لهم أحد، وأن يمارسوا شعائر دينهم بكل حرية وألا يتعرض أحد لكنائسهم وصلبانهم وألا تنتقص من هذه الكنائس أو الصلبان أى شىء. ومعنى ذلك أن المسلمين تركوا حرية العقيدة تماما لأهل مصر ولم يجبروهم على اعتناق الإسلام. وكان عمرو بن العاص يتصرف وفق ما تمليه عليه الشريعة الإسلامية، فقد ورد فى التنزيل العزيز: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ... ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة]، ولذلك لم يجبر المسلمون أهالى البلاد المفتوحة لاعتناق الإسلام، وهو ما سبق أن أشرنا إليه.

ومن ناحية أخرى أمن عمرو بن العاص كنائس أقباط مصر بحيث لا تمس ولا تتعرض لمكروه ولا ينتقص منها شىء لا هى ولا صلبانها، والأكثر من ذلك فقد سمح عمرو بن العاص



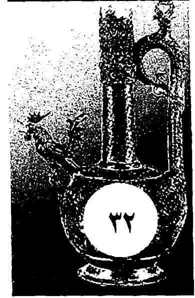


محراب الكنيسة المعلقة -
العصر القبطى

ومن جاء بعده من ولاة مصر ببناء كنائس فى عاصمة مصر الإسلامية الفسطاط، ويذكر ابن عبد الحكم أن أول كنيسة بنيت بالفسطاط كانت الكنيسة التى خلف القنطرة فى زمن ولاية مسلمة بن مخلد على مصر (٤٧ ـ ٦٢هـ) وقد أصر مسلمة على بنائها على الرغم من معارضة بعض الجند،

تصوير جدارى - الزراعة فى مصر منذ فجر الحضارة
الدولة القديمة مقبرة تيتى إكر





وتبع ذلك تشييد عدد كبير من الكنائس بالديار المصرية. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الحرية الدينية التى تمتع بها أقباط مصر فى ظل الحكم الإسلامى. وذلك بطبيعة الحال على عكس ما تعرضوا له من اضطهاد شديد على يد الحكام الرومان الذين أذاقوا أقباط مصر ـ خاصة أتباع المذهب اليعقوبى ـ كل ألوان العذاب.

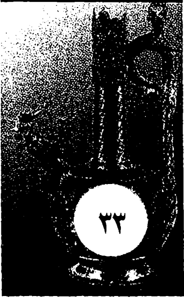
ومن ناحية ثالثة فإن عمرو بن العاص قرب إليه بنيامين بطريرك اليعاقبة ومنحه أمانا عام ٢٠هـ أى بعد إتمام فتح مصر مباشرة، وأعاده إلى كرسى بطريركية الكنيسة اليعقوبية بعد أن كان مختفيا نتيجة اضطهاد الروم له. ومنذ ذلك الحين استعاد اليعاقبة دورهم فى تاريخ الكنيسة المصرية.

ومن ناحية رابعة اشترك أقباط مصر فى مختلف شئون الحياة الخاصة فى مجال الحكم والإدارة، واعتمد الحكام المسلمون اعتمادا كبيرا على الأقباط فى مختلف دواوين الحكم، كما اعتمدوا على عدد منهم فى مجالات الصناعة والطب، ونبغ عدد كبير من العلماء الأقباط فى ظل الحكم الإسلامى.

ومن ناحية خامسة لم يستول المسلمون على ممتلكات أقباط مصر، بل تركوها لهم، فهذا هو الأمان ينص على تأمين أموالهم وممتلكاتهم وبرهم وبحرهم.

وقد فرض على أقباط مصر فى مقابل حماية المسلمين لهم قدر ضئيل من المال هو مقدار الجزية، وذلك إذا قورن بالضرائب الباهظة التى كان يدفعها أقباط مصر للرومان. بالإضافة إلى قيمة الخراج المفروضة على الأراضى الزراعية، ومن الجدير بالذكر أن مقدار الخراج لم يكن ثابتا وإنما يتغير بحسب حالة ماء النيل وما يعتريه من زيادة أو نقصان، فلم يكن يجبى الخراج إلا إذا فاض النيل، وإذا قل ماؤه نقص مقدار الخراج. هذا مع ملاحظة أن الجزية لم تفرض على كل أهالى مصر، وإنما فرضت فقط على الرجال القادرين على العمل، فلم تفرض على النساء والأطفال والشيوخ. وكان لهذه المعاملة الطيبة التى عامل بها المسلمون أهالى مصر أثرها الكبير فى ميل أهالى مصر إلى هؤلاء الفاتحين الجدد وميلهم إلى هذا الدين الجديد، فتحول عدد كبير منهم إلى الإسلام واعتنقوه عن طيب خاطر بعد أن تعرفوا عليه عن قرب.

وخير دليل على ما تمتع به أقباط مصر من حرية فى امتلاك الأراضى وزراعتها بدون تضييق عليهم وما تمتعوا به من ثروات ضخمة، ما ذكره المقريزى ما حدث للخليفة العباسى المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ/ ٨١٣ ـ ٨٣٣م) عندما زار مصر عام ٢١٧هـ/ ٨٣٢م ومروره بمعظم قرى مصر، لكنه

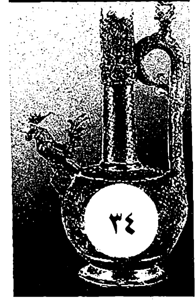


تخطى إحدى القرى ظنا منه أنها قليلة الأهمية، لكن خرجت إليه صاحبة هذه القرية وكانت امرأة قبطية اسمها مارية القبطية وسألت الخليفة أن ينزل بضيعتها، وأعدت لهم أصنافا عديدة من الطعام ثم أهدت الخليفة ومن معه هدايا ثمينة كان فيها أطباق فى كل طبق كيس من ذهب ضرب كله فى عام واحد، وعندما رفض الخليفة أن يأخذ هذه الهدايا، استعطفته ليأخذها، وأخذت قطعة من الأرض وقالت: «يا أمير المؤمنين هذا ـ وأشارت إلى الذهب ـ من هذا ـ وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض، تعنى أن هذا الذهب حصلت عليه من زراعة هذه الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا شىء كثير.

سادسا - انتشار الإسلام واللغة العربية:

أما عن انتشار الدين الإسلامى بمصر والأسباب التى أدت إلى انتشاره بسرعة كبيرة فهو حديث طويل، ويعود سبب انتشار الإسلام فى مصر بهذه السرعة إلى مجموعة من العوامل يأتى فى مقدمتها ما سبق أن سمع به أهالى مصر من سماحة هذا الدين وذلك من إخوانهم ببلاد الشام، والمعروف أن المسلمين بعد فتح بلاد الشام تركوا الحرية الدينية لأهالى الشام، لذلك تمنى أهالى مصر الواقعون تحت ظلم الروم الخلاص من هذا الحكم على يد المسلمين، وهذا هو ما يفسر لنا موقف البطريرك بنيامين المرحب بقوات عمرو بن العاص. وبعد أن أتم المسلمون فتح مصر تركوا لأهلها كما سبق أن أوضحنا حرية العقيدة لهم فى مقابل مبلغ ضئيل من المال ـ الجزية ـ وذلك للدفاع عنهم وحمايتهم. ومن ثم عاش أهالى مصر فى كنف ورعاية الدولة الإسلامية، وتعرفوا عن قرب على هذا الدين ولمسوا ما يتمتع به من مبادئ تدعو للعدالة وإزالة الظلم والمساواة بين الناس وتنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع تنظيما دقيقا، هذا بالإضافة إلى ما يدعو إليه من عبادة الله الواحد القهار، لذلك انخرط عدد كبير من أهالى مصر معتنقين هذا الدين عن طيب خاطر؛ ومن ناحية ثانية فإن رغبة عدد من أهالى مصر فى التخلص من دفع الجزية ـ وإن كانت كما ذكرنا مبلغا ضئيلا ـ دفعهم إلى اعتناق الإسلام؛ ومن ناحية ثالثة فإن رغبة البعض فى المشاركة الفعالة فى مختلف نواحى الحياة خاصة الاشتغال فى دواوين الدولة دفعهم إلى اعتناق دين الفاتحين، على الرغم من أن القيادة الإسلامية فى مصر لم تفرق بين من اعتنق الإسلام ومن ظل على مسيحيته، والجميع كانت أمامهم فرص المشاركة فى دواوين الدولة، وخاصة أن اللغة التى استخدمت فى دواوين مصر فى تلك الفترة كانت اللغة القبطية. لكن البعض رأى أنه من الأفضل أن يدين بالإسلام حتى يكون أكثر قربا من القيادة الإسلامية.

وفى نفس الوقت أخذت اللغة العربية فى الانتشار بمصر، ويعود ذلك إلى أنها لغة الفاتحين الذين أصبحوا حكام مصر، حيث سعى الكثير من أهالى مصر لتعلم اللغة العربية حتى يستطيع



التحدث وفهم قيادة البلاد؛ ومن ناحية ثانية فإنها لغة القرآن الكريم، وأصبح على كل مسلم أن يعرف اللغة العربية حتى يؤدى شعائر دينه على خير وجه، وحتى يفهم معانى القرآن الكريم، ومن ناحية ثالثة كان استخدام اللغة العربية فى الدواوين الحكومية، ثم جعلها بعد ذلك اللغة الرسمية فى تلك الدواوين عام ٨٧هـ/ ٧٠٦م، بعد أن كانت هذه الدواوين تكتب باللغة القبطية؛ لذلك أخذ الأقباط العاملون فى دواوين الدولة فى تعلم اللغة العربية؛ ومن ناحية رابعة فإن ما حدث من اختلاط اجتماعى بين العرب الفاتحين وبين أقباط مصر، وهو الاختلاط الذى ساعد على انتشار اللغة العربية بصورة كبيرة بين أهالى مصر. كل هذه العوامل ساعدت مجتمعة على انتشار اللغة العربية بمصر.

أما هذا الاختلاط الاجتماعى، الذى بدأ متأخرا بعض الشيء حيث لم يبدأ إلا بعد مرور ما يقرب من ثمانين عاما، ففى البداية كان المسلمون الفاتحون لا يقومون بالاشتغال بالزراعة فى مصر، لكن مع بداية القرن الثانى الهجرى وفى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م) تغيرت هذه السياسة حيث قرر الخليفة هشام إنزال بعض القبائل العربية ريف مصر وسمح لها بالاشتغال فى الزراعة؛ وقد ساعد توطين العرب بريف مصر على حدوث الاختلاط الاجتماعى بين المسلمين الفاتحين وأهالى مصر، وخاصة أن الإسلام يدعو إلى المساواة وعدم الترفع والكبرياء، وفى نفس الوقت لا يحرم الزواج من أهل الكتاب، ومن ثم أخذ العرب يتزوجون من مصريات؛ وساعد ذلك على سرعة انتشار الإسلام بمصر، وساعد أيضا على انتشار اللغة العربية، وأدى إلى حدوث مزج بين المسلمين الفاتحين وأهالى مصر.

سابعا - مكتبة الإسكندرية:

وإذا تكلمنا عن الحياة الثقافية بمصر بعد الفتح الإسلامى لها، فإنه حديث طويل؛ ذلك لأن مصر فى الفترة السابقة على دخولها فى ظل الدولة الإسلامية كانت مركزا ثقافيا مزدهرا خاصة خلال العصرين البطلمى والرومانى، وتبوأت الإسكندرية عاصمة مصر فى تلك الفترة النشاط الثقافى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، ووفد عليها العلماء من شتى البلاد ينهلون من علومها ويشاركون فى محافلها العلمية. وخير ما يمثل ذلك ما وصلت إليه مكتبة الإسكندرية من شهرة عالمية جذبت معها العلماء من كل حدب وصوب. ومن الجدير بالذكر أنه بعد الفتح الإسلامى لمصر ثم توجيه اتهام للفاتحين بأنهم دمروا هذه المكتبة وجعلوها وقودا لأفران حمامات الإسكندرية!! فهل فعلا قضى المسلمون على هذا الصرح العلمى الذى طالما تغنت به الإسكندرية ومصر؛ ومن ثم سوف نتحدث عن هذه المكتبة ومصيرها بشيء من التفصيل .



نشأة مكتبة الإسكندرية:

بعد دخول الإسكندر الأكبر مصر واندحار الفرس عام ٣٣٢ ق م، رأى تشييـد عاصمة جـديدة له بها، فسار فى النيل حـيث الساحل ورأى أن أنسب مكان هو مكان قرية قديمة تسمى راقودة تواجهها فى البحر جزيرة تعرف باسم فاروس وتقع إلى الجنوب منها بحيرة ماريا أو مريوط. غير أن هذه المدينة التى اشتقت اسمها من اسم مؤسسها لم يتم استكمال عمارتها زمن الإسكندر، بل تم تأسيسها فقط على يديه فلم يلـبث الإسكندر أن غادر مصر فى العام التالى (٣٣١ ق م) ليواصل معاركه ضد الملك الفارسى فى الشرق، ثم ما حدث من وفاته فجأة فى يونيه عام ٣٢٣ ق م فى مدينة بابل.

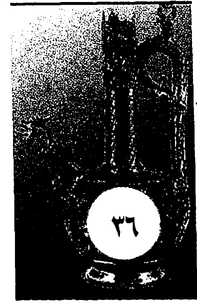
وقد ترك الإسكندر من خلفه إمبراطورية مترامية الأطراف حيث طمع قادته فى اقتسامها فيما بينهم، وكانت مصر مـن نصيب قائده بطليموس بن لاجوس. ولم يلبث بطليـموس أن أنشأ بمصر دولة حملت اسمه (دولة البطالمة).

وكان أهم ما شغل بطليموس هو إتمام بناء الإسكندرية التى اتخذها عاصمة له.

ولم يكن بطليمـوس قائدا عسكريا فحـسب، وإنما كان أيضا على درجـة كبيرة من الثـقافة والعلم لدرجة أنه ألف كتابا عن تاريخ الإسكندر، كما اعتمـد على عدد من الشخصيات الإغريقية اللامعة فى إدارة مصر، ومن بين هذه الشخصيات كان ديمتريوس الفاليرى الأثينى الذى جمع بين الفلسفة والسيـاسة، وكان أحد تلاميذ أرسطو، ولم يلبث ديمتـريوس أن أشار على بطليموس بأن ينشئ بالإسكندرية مجمعا علميا ويلحق به مكتبـة تجمع فيها مختلف الكتب من سائر بلدان العالم المعروف. وقد وافق بطليموس على هذا الاقتراح يدفعـه فى ذلك رغبته فى التفوق على سائر قادة الإسكندر، وفى أن تصبح مصر هى درة بلدان الشرق.

أطلق على هذا المجمع العلمى اسم «موسيون» Mouseion وهى كلمة يونانية بمعنى «معبد ربات الفنون والعلوم»، وتـولى ديمتـريوس الإشـراف على هذا المجمع، ومـن الجدير بالذكـر أن بطليموس، ومن بعده خلفاءه لم يبخلوا على هذا المعهد العلمى بالمال، حيث رصدت مبالغ طائلة لشراء الكتب واجتذاب العلماء من كل مكان.

أما مكان هذا الموسـيون الذى اشتمل على المكتـبة فكان داخل القصور الملكيـة على شاطئ الميناء الشرقى حيث يقع الحى الملكى المـسمى بروشيون Bruchion حيث يشاهد فى وسط المعابد والبساتين الشاسعة القصر الملكى والمتحف والمكتبة. (انظر الخريطة التالية).

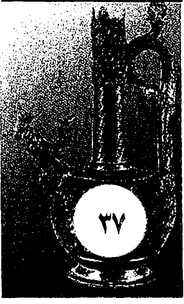


وقد احتوت هذه المكتبة على عدد ضخم من الكتب لدرجة أنه قيل إن عددها وصل فى نهاية العصر البطلمى إلى ٧٠٠,٠٠٠ سبعمائة ألف مخطوط، وهذا عدد ضخم بالنسبة لهذا العصر القديم الذى لم يعرف طباعة الكتب، حيث كانت هذه الكتب تنسخ باليد.



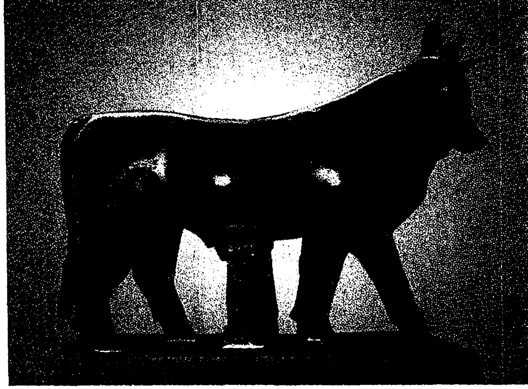
تمثال للإسكندر الأكبر

مدينة الإسكندرية فى العهد البطلمى - الإسكندرية

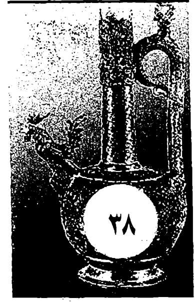


ويبدو أن بطليموس ومن خلفه من بعده من ملوك البطالمة أراد أن يجعل من مكتبة الإسكندرية مكتبة عالمية تضم تراث الإنسانية بصرف النظر عن كونه إغريقيا، فاشتملت مكتبة الإسكندرية على كتب من مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك، وبذل فى ذلك كل الطرق للحصول على هذه الكتب، حيث تم إرسال المبعوثين إلى مختلف أسواق الكتب خاصة فى أثينا ورودس لشراء الكتب القيمة الموجودة بأسواقها، ومن بين المكتبات التى تم شراؤها وضمها إلى مكتبة الإسكندرية مكتبة الفيلسوف الشهير أرسطو حيث تم شراؤها بمبلغ ضخم ووضعت فى مكتبة الإسكندرية، مما أضفى عليها أهمية كبيرة، لدرجة أنه حدث خلط عند الكثير من الكتاب ووصفوا مكتبة الإسكندرية بأنها مكتبة أرسطو.

ومن الجدير بالذكر أن البطالمة حرصوا على أن تضم مكتبة الإسكندرية المجموعات الأصلية للكتب ورفضوا اقتناء نسخ خطية منها، من ذلك أن بطليموس الثالث أرسل إلى أثينا يطلب المخطوطات الأصلية لمسرحيات أيسخولوس وسوفوكليس ويوربيديس ليقوم بنسخها وردها ثانية لخزانة مدينة أثينا ودفع تأمينا لهذه النسخ الأصلية قدره خمسة عشر مليون تالنت من الفضة ضمانا لسلامة هذه المخطوطات، لكن سرعان ما فضل بطليموس الثالث الاحتفاظ بالنسخ الأصلية مضحيا بمبلغ التأمين الضخم؛ مما يدل على ما بذله البطالمة من تضحيات فى سبيل اقتناء المجموعات النادرة والأصلية من الكتب وضمها إلى مكتبة الإسكندرية.


تمثال سيرابيس - العهد البطلمى


يوليوس قيصر



وبطبيعة الحال تبع وجود هذه المكتبة الضخمة نشاط علمى مزدهر، حيث جذبت هـذه المكتبة عـددا كبـيرا من العلمـاء والأدباء والباحـثين، وأصـبحت الإسكندرية بذلك منارة للعلم فى الحوض الشرقى من البحر المتوسط.

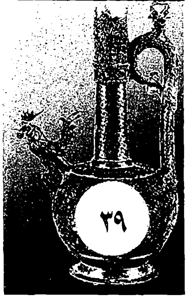
ومن الجـدير بالذكر أنه وجـدت إلى جانب مكتـبة الإسكندرية الكـبرى الموجودة داخل القصور الملكية ـ وهى التى تحـدثنا عنها توا ـ مكتبة أخرى لكن أصغر منها وهى التى عرفت باسم مكتبة السيرابيـوم. نسبة إلى معبد السيرابيوم الذى أنشأه بطـليموس الثـالث للإله سيـرابيس وهو الإله الرسمى الجـديد لدولة البطالمة!!. ويقع معـبد السيرابيـوم فى الحى الشعبى بالإسكندرية، وهو الذى يـطلق عليه الآن حى كوم الشقـافة، ووصلت شهرة هذا المعبد إلى كل أنحاء العالم القديم، وقـد ضم هذا المعبد مكتبة كما كان الحال فى كل المعابد القديمة.

وهكذا وجد فى الإسكندرية فى العـصر البطلمى مكتبتان، الأولى وهى المكتـبة الكبرى فى الموسيون والأخرى أصغر منها وهى مكتبة السيرابيوم.

فما هو مصير هاتين المكتبتين؟ المكتـبة الكبرى وهى مكتبة الموسيون وهى التى عرفت باسم مكتبة الإسكندرية، ثم مكتبة السيرابيوم.

يحـدثنا التاريخ أنه فى نهـاية العـصر البطلمى حـدث صـراع بين الدولة الرومانيـة ودولة البطالمة، حيث أخذت الدولة الرومانية فى التوسع وفـرض نفوذها على الحوض الشرقى من البحر المتوسط، ولذلك رأى قـادتها ضرورة الاستيـلاء على مصر؛ وكان حكام البطالمة فى تـلك الفترة يمـرون بمرحلة من مراحـل الضعف والانهـيار، ونـشبت الحـروب الأهلية بـينهم، وخاصـة بين كليوباترا السابعة وأخيها بطليموس الثالث عشر حول العرش.

ولم تجد كليوباترا نصـيرا لها سوى القائد الرومانى يوليوس قـيصر، على الرغم من أنه من الناحية الرسمية عدو لمصر، ما حضر إلى الشرق إلا ليستولى على مصر، لكن كليوباترا السابعة بما أوتيت به من ذكاء وجـمال استطاعت أن تؤثر على يوليـوس قيصر وتجـعله يقف إلى جوارها فى صراعـها مع أخيـها، ومن ناحيـة أخرى فإن يوليـوس قيصـر لم يجد أية غضـاضة فى مسـاعدة كليوباترا مـا دام سيحـقق نصرا يضمن به فـى النهاية وضع يده على مصـر ثم ضمهـا إلى حوزة الدولة الرومانية.



لكن خصوم كليوباترا السابعة ناضلوا بشدة ضدها وضد حليفها يوليوس قيصر وكادوا أن يحققوا النصر والاستيلاء على السفن الموجودة بميناء الإسكندرية، ولو حدث ذلك لازدادت قوتهم ولأصبح النصر مؤكدا لهم، هنا سارع يوليوس قيصر بإشعال النار فى هذه السفن حتى لا تقع فى يد أعدائه، وبذلك تحقق له ولكليوباترا السابعة النصر.

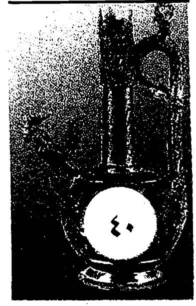
حريق ميناء الإسكندرية:

ومن الملاحظ أن إحراق السفن امتدت ناره إلى داخل الميناء حيث ألحقت أضرارا بالغة بالمبانى والقصوز الملكية التى كانت تطل على الميناء، ومن بين هذه المبانى تلك التى ضمت الموسيون ومكتبة الإسكندرية، وقد أكد هذه الحقيقة عدد من المؤرخين القدماء الذين أشاروا إلى أن عددا كبيرا من كتب الموسيون يقدر بحوالى ٤٠٠,٠٠٠ أربعمائة ألف كتاب قد أحرق أثناء الحريق الذى أشعله يوليوس قيصر فى الميناء.

وعلى هذا النحو دمرت مكتبة الموسيون أو مكتبة الإسكندرية الكبرى على يد يوليوس قيصر، ولم يعد لها وجود فى الموسيون.

لكن هل معنى ذلك أن الإسكندرية فقدت أهميتها العلمية ولم تعد مركزا للنشاط الثقافى؟ تأتى الإجابة بالنفى، فقد استمرت الإسكندرية رغم حريق مكتبة الموسيون تؤدى دورها فى المجال العلمى، وذلك لأننا سبق أن أشرنا إلى وجود مكتبة أخرى هى مكتبة السيرابيوم، وإن كانت أصغر من تلك التى أحرقت على يد يوليوس قيصر، وقد نمت مكتبة السيرابيوم نموا كبيرا بعد حريق مكتبة الموسيون؛ كذلك أنشأت كليوباترا معبدا يسمى معبد القيصرون الجديد، وأهم ما احتواه هذا المعبد مكتبة كبيرة؛ بالإضافة إلى ذلك فبعد اغتيال يوليوس قيصر عام ٤٤ ق م وحضور القائد الرومانى أنطونيوس إلى الشرق ثم وقوعه فى غرام كليوباترا السابعة أهدى إليها مكتبة كبيرة هى مكتبة مدينة برغامة وبلغ عدد كتبها ٢٠٠,٠٠٠ مائتى ألف كتاب، وذلك على سبيل التعويض عن إحراق مكتبة الموسيون.

وعلى هذا النحو عادت الإسكندرية مرة أخرى إلى ما كانت عليه مركزا ثقافيا نشطا بفضل تلك المكتبات العامرة التى تمتعت بها، كذلك استمرت تؤدى دورها الرائد فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وأصبحت ثانى المدن بعد روما فى الإمبراطورية الرومانية.

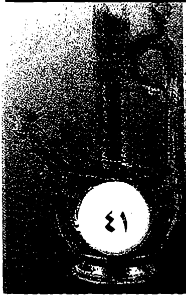


ومن هنا يأتى التساؤل؛ أين ذهبت هذه الكتب بعد الفتح الإسلامى؟ لأن هناك من اتهم المسلمين بأنهم أحرقوا هذه الكتب عقب فتحهم لمدينة الإسكندرية!!

للإجابة على هذا التساؤل نعود بتاريخ مصر والإسكندرية قليلا إلى الوراء، خاصة بعد انتشار الديانة المسيحية فى مصر وغيرها من بلدان الإمبراطورية الرومانية، ووقوف الأباطرة الرومان موقف المعارضة من هذا الدين الجديد؛ حيث أنزلوا أشد ألوان الاضطهاد والعذاب بكل من اعتنق هذه الديانة، وكانت مصر وأهلها هدفا للأباطرة الرومان حيث انتشرت المسيحية بها بصورة كبيرة؛ وقد أنزل الإمبراطور كاركلا (٢١٢ ـ ٢١٧م) والإمبراطور جالينوس (٢٦٠ ـ ٢٦٨م) والإمبراطور أورليانوس (٢٧٠ ـ ٢٧٥م) والإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)، أشد ألوان التنكيل والتعذيب لمسيحى مصر، وقد صاحبت هذه الموجة من الاضطهادات تدمير وتخريب لكثير من المبانى والمنشآت خاصة ما تبقى من الموسيون، ثم ما حدث زمن دقلديانوس من حرق جميع الكتب التى تتحدث عن صناعة المعادن مثل الذهب والفضة؛ وذلك حتى لا يستفيد بها المصريون فى صنع الذهب الذى يتقوون به ويساعدهم ذلك على الثورة ضده. وهكذا كان موقف الأباطرة الرومان المعادى للمسيحية ذا أثر سيئ على مبانى الموسيون وما به من أرفف حاوية أعدادا لابأس بها من الكتب بحيث لم يعد للموسيون دور بعد هذا التاريخ، كذلك فى تدمير عدد كبير من كتب صناعة المعادن.

أما مكتبة السيرابيوم فقد استمرت تؤدى دورها فى العصر الوثنى وساعدها فى ذلك وجودها داخل المعبد، حيث حالت قدسية المعبد من امتداد الأيدى إليها. ولكن بعد انتشار المسيحية، أصبحت المعابد هدفا للمسيحيين حيث بدأت سلسلة من الهجمات المنظمة على هذه المعابد بقصد القضاء عليها، والقضاء على الوثنية جميعا؛ وتم التركيز على المعابد التى تضم مجموعات كتب تعود أصولها إلى الوثنية، وبذلك لم تسلم مكتبة السيرابيوم ومكتبة معبد القيصرون من هذا الهجوم.

أما الفترة التى حدث فيها هذا الهجوم على المعابد وتدمير ما بها من كتب فكانت خلال القرن الرابع الميلادى أى قبل الفتح الإسلامى لمصر بقرنين من الزمان، وذلك بعد أن انتصرت المسيحية على يد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٢٣م) حيث أصدر مرسوم ميلان عام ٣١٣ م

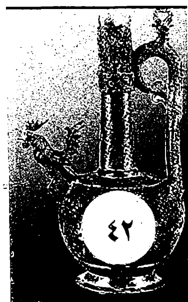


الذى سمح بمقتضـاه للمسيحيين بحرية ممارسة شـعائر دينهم بلا خوف بعد أن كانت المسـيحية ديانة مـضطهدة؛ ثم حقـقت المسيحـية انتصارا أكـبر على يد الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) عندما جعلها الديانة الرسمية الوحيدة بالدولة عـام ٣٩٢ م، وبذلك نالت المـسيـحـيـة كل مـا تتـمناه، ثم أعـقب ثيودسيوس قراره بإصدار قرار أخطر وهو تدمـير معابد الإسكندرية وما تحتويه من كتب وثنية، وسارع الأسقف تيوفيليوس بتنفيذ هذا القرار بحماس شديد، وبذلك تم تدميـر معابد الإسكندرية وما بهـا من كتب ومن بينها مكتـبة السيرابيـوم ومكتبة مـعبد القيصرون.

وعلى هذا النحو تم تدمير مكتبة الإسكندرية الكبـرى (مكتبة الموسيون) أثناء حريق يوليوس قيصر للسفن الراسية فى ميناء الإسكندرية، ثم تدمير مكتبة السيرابيوم ومكتبة معبد القيصرون زمن انتشار المسـيحية، خاصة بعـد قرار الإمبراطور ثيورسيـوس. ومعنى ذلك أنه لم يكن بالإسكندرية أثناء الفتح الإسلامى مكتبة يتحدث عنها أحد؛ فلماذا إذن اتهم المسلمون بأنهم قاموا بإحراق مكتبة الإسكندرية؟ ومن الذى وجه الاتهام إليهم؟

بالبـحث فى المصادر الـتاريخـية اتضح أن المـؤرخين الأوائل الذين تنـاولوا قصـة الفتـوح الإسلامية بصفة عامة وفتح مصر بصفة خاصة أمثال ابن عبد الحكم (توفى ٢٥٧هـ) فى كتابه فتوح مصر والمغـرب، والبلاذرى (توفى ٢٧٩هـ) فى كتابه فـتوح البلدان، والكندى (توفى ٣٥٠هـ) فى كتابه الولاة والقضـاة، وكذلك تلك المصادر التى تناولت التاريخ الإسلامى العام أمـثال خليفة بن خيـاط (توفى ٢٤٠هـ) فى تاريخه، واليعـقوبى (توفى ٢٨٢هـ) فى تاريخه، والطبـرى (توفى عام ٣١٠هـ) فى كتابه تاريخ الرسل والملوك، كذلك المؤرخ القبطى المـعاصر لأحداث الفتح الإسلامى لمصر والقريب العهد منها وهو يوحنا النقـيوسى (عاش فى القرن الأول من الهجرة). أقول إننا لم نجد فى هذه المصادر إشارة واحـدة إلى اتهام عمرو بن العاص بحرق مكتـبة الإسكندرية، ولم نجد ذكر لمكتبة الإسكندرية أصلا.

واستمرت المـصادر لا تذكر شيئا عن هذه القـصة حتى القرن السادس الهجـرى وبالتحديد عندما ذكـر عبد اللطيف البغـدادى (٥٥٧ ـ ٦٢٩هـ) وهو طبيب ورحالة طاف بالبـلاد وزار مصر وأقام بهـا على فترات، أورد فى كـتابه «الإفادة والاعـتبار فـى الأمور المشاهدة والحـوادث المعاينة



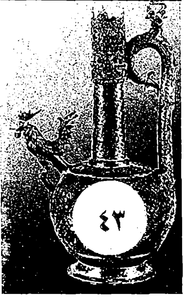
بأرض مصر» بعض مشاهداته فى مصر وقام بالتعليق عليها، ويهمنا منها حديثه عن الإسكندرية، حيث ذكر عنها: «...وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه». وهى أول مرة يتم ذكر حريق المسلمين لهذه المكتبة التى أثبتنا سابقا أنها لم تكن موجوده أثناء الفتح الإسلامى لمدينة الإسكندرية.

ثم أورد نفس هذه القصة كاتب وأديب عاش فى نفس فترة عبد اللطيف البغدادى وإن كان متأخرا عدة سنوات وهو ابن القفطى (٥٦٥ ـ ٦٤٦هـ) حيث ذكر فى كتابه تاريخ الحكماء هذه القصة وزاد عليها بالكيفية التى تم التخلص بها من تلك المكتبة حيث روى أن عمرو بن العاص بعد فتح الإسكندرية طلب منه أحد قساوسة القبط وهو يحيى النحوى والذى كان بينه وبين عمرو بن العاص مودة، أن يسمح له بالاستفادة مما تحتويه الخزانة الملكية من كتب الحكمة، فرد عمرو بن العاص بأنه لابد من استئذان الخليفة فى هذا الأمر، فكتب إلى عمر بن الخطاب بشأنها فرد عليه الخليفة بقوله: «وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله، ففى كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقوم بإعدامها»، ويروى ابن القفطى الكيفية التى تم التخلص بها من المكتبة، حيث قام عمرو بن العاص بتوزيعها على حمامات الإسكندرية لتحرق فى أفرانها، ويذكر ابن القفطى أن المدة التى استغرقتها حرق هذه الكتب كانت ستة أشهر.

ثم ردد هذه القصة بعد ذلك ابن العبرى (٦٢٤ ـ ٦٨٥هـ) وهو طبيب كان والده يهوديا ثم اعتنق المسيحية لذا سمى بابن العبرى، حيث ذكر فى كتابه «تاريخ مختصر الدول» نفس هذه القصة كما وردت عند ابن القفطى.

ثم أخذت المصادر تردد هذه القصة إما نقلا عن عبد اللطيف البغدادى أو نقلا عن ابن القفطى وابن العبرى دون التحقق من صحتها.

لكننا إذا دققنا النظر نجد ـ وبدون شك ـ أن مكتبة الإسكندرية الكبرى كذلك مكتبة السيرابيوم ومكتبة معبد القيصرون قد تم تدميرها جميعا قبل الفتح الإسلامى للإسكندرية بفترة طويلة ـ كما سبق أن أوضحنا ـ ولم يتحدث أحد من المؤرخين المسلمين الأوائل عن قصة هذا الحريق لا من قريب ولا من بعيد، كذلك فإن المؤرخ القبطى يوحنا النقيوسى القريب العهد من

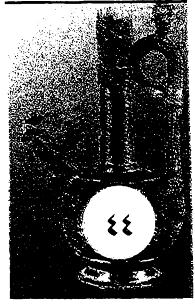


الفتح الإسلامى للإسكندرية والذى عاش فى القرن الأول الهجرى لم يذكر شيئا عن قصة حرق المسلمين لمكتبة الإسكندرية، ولو كان حدث مثل هذا الأمر لما سكت عليه يوحنا، وخاصة أنه كثيرا ما وجه انتقادات واتهامات لعمرو بن العاص والمسلمين المصاحبين له أثناء فتحهم لبلدان مصر. وهذا ما يؤكد بما لا يدع مجالا للشك براءة المسلمين من هذه التهمة.

لكن إذا كان الأمر كذلك فلماذا ذكرت هذه القصة. أو إن شئت الدقة فلماذا ذكرها مؤرخو القرن السادس الهجرى والسابع الهجرى؟.

إن القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى هو الذى شهد موجة الحروب الصليبية واشتداد أمرها زمن الأيوبيين الذين بذلوا كل جهدهم فى الجهاد ضد العدوان الصليبى، وشهد العصر الأيوبى هزائم كبيرة للصليبيين حيث جاءت حطين (عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م) على رأسها، وهى المعركة التى كان من أهم نتائجها استرداد المسلمين بيت المقدس. ونتيجة ما أمسى فيه الصليبيون من انهيار، لا يستبعد أن يكون الغرب الأوروبى قد أخذ يحيك بعض الاتهامات التى وجهها للمسلمين لتشويه صورتهم ولتأليب الرأى العام ضدهم، وذلك باتهامهم بحرق مكتبة الإسكندرية، وربما سمع عبد اللطيف البغدادى هذه الادعاءات المغرضة وصدقها ودوّنها فى كتابه دون تحقيق، ومن الجدير بالذكر أن القسيس يحيى النحوى الذى أورد ذكره القفطى والذى طلب من عمرو بن العاص أن يمنحه هذه الكتب أثبت بتلر عدم وجوده على قيد الحياة فى هذه الفترة، مما يقلل أو يبطل رواية ابن القفطى من أساسها. ثم جاء بعده ابن القفطى وسمعها لأنه أيضا معاصر لفترة الحروب الصليبية فرددها هو أيضا فى كتابه. والمعروف أن عبد اللطيف البغدادى اعتمد على السمع أكثر من المشاهدة، لذلك جاءت معظم معلوماته خاطئة، أما ابن العبرى فلم يكن فى حاجة لمن يدفعه لاتهام المسلمين وخاصة أن معظم كتاباته مليئة بالتهم التى وجهها إلى المسلمين ولا ننسى أن والده كان يهوديا. ثم جاء المؤرخون المتأخرون ليرددوا ما ورد فى كتابات مؤرخى القرن السادس والسابع دون وعى ولا تحقيق.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء المؤرخين المتأخرين الذين رددوا هذه القصة دون وعى كان من الممكن قيامهم بدحضها وعدم قبولها ببساطة، لأنها احتوت على ما ينفى صحتها، حيث تذكر القصة الطريقة التى تم التخلص بها من هذه المكتبة، وهو قيام عمرو بن العاص بتوزيعها على



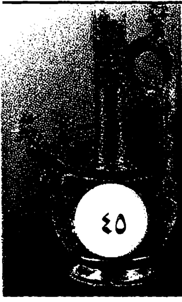
أفران حمامات الإسكندرية لحرقها، واستمر ذلك لمدة ستة أشهر!! فكيف يستقيم هذا الأمر مع رغبة عمرو بن العاص - فى رأى هذا الفريق من المؤرخين - فى تدمير هذه المكتبة التى تحتوى على الكتب المخالفة للشريعة الإسلامية وفى نفس الوقت يتركها فى أفران الحمامات لمدة ستة أشهر وهى مدة كفيلة بتهريب هذه الكتب خارج الحمامات، ووصولها إلى أيدى من يرغب فى اقتنائها، وخاصة أن الإسلام مازال حديث العهد بمصر، ولم يزل غالبية أهالى مصر على مسيحيتهم. وكان أولى بعمرو بن العاص أن يسارع بحرقها فى أسرع وقت ممكن حتى ولو فى مكانها.

ومن جهة أخرى فإن اتهام عمرو بن العاص بإحراق مكتبة الإسكندرية يتنافى مع مبادئ الدين الإسلامى الداعى إلى العلم والتعلم، وخير شاهد على ذلك ما قام به العلماء المسلمون من المحافظة على التراث اليونانى القديم ودراسته وترجمته إلى اللغة العربية وشرحه، ولا نبالغ إذا قلنا أنه لولا ما قام به علماء المسلمين من جهد فى ترجمة هذا التراث وشرحه والإضافة إليه ونقده إذا لزم الأمر لضاع هذا التراث، وإن أوروبا فى عصر النهضة لم تعرف هذا التراث إلا عن طريق المسلمين. فكيف والحال هذه يتم تصديق ادعاء كاذب بأن المسلمين قاموا بإحراق نفائس الكتب التى كانت تحتويها مكتبة الإسكندرية.



صنع مصر حشوة خشبية
من القرن الأول للهجرة

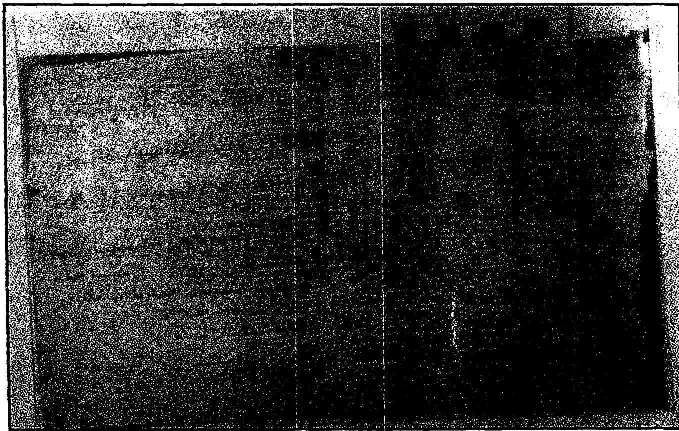
وهكذا يتضح لنا براءة عمرو بن العاص والمسلمين من تهمة تدمير مكتبة الإسكندرية وحرقها.



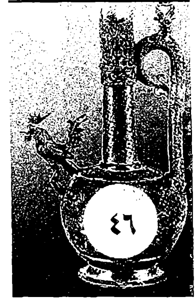
ثامنا - النشاط الاقتصادى:

اهتم المسلمون الفاتحون لمصر بكافة نواحى النشاط الحضارى بمصر، وأخذ النشاط الاقتصادى جانبا كبيرا من هذا الاهتمام، والمعروف أن معظم القبائل العربية التى شاركت فى عمليات فتح مصر ثم استقرت بها كانت من القبائل اليمنية؛ وقد عرف عن اليمن أنها كانت ذات حضارة زاهرة وعرف اليمن باسم اليمن السعيد؛ ولاشك فى أن هذه القبائل اليمنية التى استقرت بمصر كانت عاملا مساعدا فى ذلك النشاط الاقتصادى الذى شهدته مصر بعد الفتح الإسلامى؛ هذا بالإضافة إلى ما تمتعت به مصر من مناخ طيب ساعد على جودة الزراعة بها، وذلك النهر المبارك الذى كان وما زال عاملا فاعلا فى الخير العميم الذى تتمتع به مصر، وما تمتعت به أرض مصر من جودة عالية ساعدتها فى زراعة مختلف المحاصيل.

وخير ما قيل فى وصف مصر وما تمتعت به من خير عميم ما ذكره المسعودى بقوله: «ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء. فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، .. وأما المسكة السوداء حيث ينكشف الماء عنها وينضب عن أرضها فتصير أرضا سوداء، وفيها تقع الزراعات، وأما الزمردة الخضراء حيث يكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء، وأما السبيكة الحمراء حيث يبيض الزرع ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة».



أقدم بردية عربية عُثر عليها – مصر ٢٣ هـ بردية أهناسيا



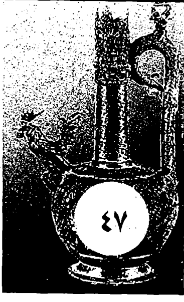
وقد أدرك عمرو بن العاص هذه الحقيقة منذ البداية فعمل على الاهتمام بالثروة الزراعية والوصول بها إلى أقصى درجات الازدهار والتقدم، فاهتم بأمر النيل وعمل على حفر الترع وتشييد الجسور والاهتمام بزراعة المحاصيل الجديدة، كما اهتم بقياس النيل للوقوف على مدى نقصان وزيادة مياهه، وذلك لتحديد مقدار الخراج، والمعروف أن عمرو بن العاص هو أول من أمر ببناء مقياس للنيل فى العصر الإسلامى حيث بني مقاييس عند حلوان وأسوان ودندرة.

كما اهتم المسلمون أيضا بالصناعة المصرية، والمعروف أنه كان بمصر قبل الفتح الإسلامى لها صناعات قديمة مزدهرة مثل صناعة دبغ الجلود والورق والنسيج والأخشاب والزجاج والفخار وأدوات الزينة والعطور؛ فعمل المسلمون على تطويرها بحيث وصلت هذه الصناعات وغيرها إلى درجة متقدمة.

كما عمل المسلمون على الاهتمام بالنشاط التجارى، وخاصة أن موقع مصر الجغرافى ساعد كثيرا على ذلك النشاط، وفى نفس الوقت أعاد عمرو بن العاص حفر الخليج الذى كان يربط بين نهر النيل والبحر الأحمر، وسمى هذا الخليج باسم خليج أمير المؤمنين، وقد سهل هذا الخليج نقل البضائع إلى البحر الأحمر ثم إلى الشرق الأقصى، وساعد على تنشيط تجارة الشرق بصفة عامة. وتذكر بعض المصادر أن سبب حفر هذا الخليج هو ما أصاب بلاد الحجاز من قحط عام الرمادة فى العام الثامن عشر للهجرة، فأمر عمر بن الخطاب عامله على مصر عمرو بن العاص بحفر هذا الخليج حتى يسهل نقل المؤن من مصر إلى الحجاز.

وخلاصة القول أنه كان لاهتمام المسلمين بكل من الزراعة والصناعة والتجارة أثره فى ازدهار الأحوال الاقتصادية بمصر بعد الفتح الإسلامى لها.

ومن الجدير بالذكر أنه بعد الفتح الإسلامى لمصر ظهرت بمصر حضارة ذات خصائص جديدة، كان عمادها الدين الإسلامى واللغة العربية، وأخذت الحضارة المصرية القديمة تذوب بالتدريج فى ظل العقيدة الجديدة واللغة الجديدة، وهى المرة الأولى التى بدأت فيها الحضارة المصرية القديمة فى التراجع أمام أى غزو حضارى وفد على مصر، فقد سبق للفرس أن استولوا على مصر لكن دون أن يؤثروا على الحضارة المصرية، وكذلك استولى الرومان على مصر وظلوا بها لأكثر من ستة قرون، ورغم ذلك احتفظت مصر بتراثها وحضارتها، حتى كان الفتح الإسلامى حيث أخذت الحضارة المصرية تنصهر بالتدريج فى ظل الدين الجديد واللغة الجديدة لتظهر بها حضارة جديدة هى التى نطلق عليها اسم الحضارة الإسلامية.



المصادر والمراجع

أولا ـ المصادر:

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ ابن الأثير (ت. ٦٣٠هـ) أبو الحسن على بن محمد
أسد الغابة فى معرفة الصحابة. بيروت ١٩٨٩.

٣ ـ ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) شهاب الدين أحمد بن على
الإصابة فى تمييز الصحابة. كلكتا ١٨٥٣

٤ ـ ابن الخياط (ت. ٢٤٠هـ) أبو عمرو بن أبى هبيرة
تاريخ ابن الخياط. بيروت ١٩٧٧م

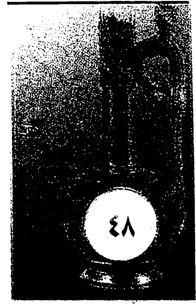
٥ ـ ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ) إبراهيم بن محمد بن أيدمر
الانتصار لواسطة عقد الأمصار. بولاق ١٣١٠هـ

٦ ـ ابن سعيد الأندلسى (ت ٦٨٥هـ) على بن موسى
المغرب فى حلى المغرب القاهرة ١٩٥٣م.

٧ ـ ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ) عبدالرحمن بن عبد الله
مصر والمغرب. القاهرة ١٩٦١.

٨ ـ ابن العبرى (ت ٦٨٥هـ) أبو الفرح بن هرون
تاريخ مختصر الدول. لبنان ١٩٨٣.

٩ ـ ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) أبو عبد الله محمد بن أبى بكر
أحكام أهل الذمة. بيروت ١٩٦١.



١٠ ـ ابن المقفع (ساويرس)

سير الآباء البطاركة منشور فى Patrologia Orientalis, vol I, paris 1904.

١١ ـ أبو الفدا (ت٧٣٢هـ) عماد الدين إسماعيل

المختصر فى أخبار البشر. القاهرة ١٣٢٥هـ.

١٢ ـ أبو المحاسن (ت ٨١٣) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى

النجوم الزاهرة فى محاسن مصر والقاهرة. القاهرة.

١٣ ـ أبو يوسف (١٨٢هـ) يعقوب بن إبراهيم

كتاب الخراج. القاهرة ١٣٩٦هـ.

١٤ ـ البلاذرى (٢٧٩هـ) أحمد بن يحيى بن جابر

فتوح البلدان. القاهرة ١٩٥٦م.

١٥ ـ الطبرى (٣١٠هـ) أبو جعفر محمد بن جرير

تاريخ الرسل والملوك. القاهرة ١٩٧٧م

١٦ ـ السيوطى (ت٩١١) جلال الدين عبد الرحمن

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة. القاهرة ١٩٦٧.

١٧ ـ القفطى (٦٤٦هـ) جمال الدين على بن يوسف

إخبار العلماء بأخبار الحكماء. القاهرة ١٣٢٦.

١٨ ـ القلقشندى (ت ٨٢١ هـ) أبو العباس أحمد

قلائد الجمان فى التعريف بقبائل غرب الزمان. القاهرة ١٩٦٣ م.



١٩ ـ الكندى (ت٣٥٠هـ) أبو عمر محمد بن يوسف

كتاب الولاة والقضاة، بيروت ١٩٠٨.

٢٠ ـ الماوردى (ت٤٥٠هـ) على بن محمد بن حبيب

الأحكام السلطانية والولايات الدينية. القاهرة ١٩٧٨.

٢١ ـ المسعودى (٣٤٦هـ) أبو الحسن على بن الحسين

مروج الذهب ومعادن الجوهر. بيروت ١٩٨٣.

٢٢ ـ المقريزى (٨٤٥هـ) تقى الدين أحمد بن على

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. بولاق ١٢٧٠هـ.

٢٣ ـ الواقدى (ت ٢٠٧هـ) محمد بن عمر بن واقد

كتاب المغازى. لندن ١٩٦٦.

٢٤ ـ ياقوت (ت ٦٢٦هـ) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى

معجم البلدان بيروت ١٩٦٨.

٢٥ ـ اليعقوبى (ت٢٨٢هـ) أحمد بن أبى يعقوب

تاريخ اليعقوبى. بيروت.

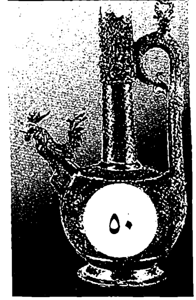
ثانيا ـ المراجع العربية:

١ ـ إبراهيم نصحى: تاريخ مصر فى عصر البطالمة. القاهرة ١٩٦٥.

٢ ـ أيدرس بل: مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى. بيروت ١٩٨٨.

٣ ـ أحمد أمين: فجر الإسلام. القاهرة ١٩٨٢.

٤ ـ أحمد أمين سليم: حضارة الشرق الأدنى القديم. بيروت ١٩٩٢.



٥ ـ السيد الباز العرينى: الدولة البيزنطية. بيروت ١٩٨٢.

٦ ـ الفريد بتلر: فتح العرب لمصر. القاهرة ١٩٩٠.

٧ ـ جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية. القاهرة ١٩٦٠.

٨ ـ جمال الدين سرور: قيام الدولة العربية. القاهرة ١٩٦٤.

٩ ـ جمال الشيال: الإسكندرية طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر. القاهرة ١٩٥٥.

١٠ ـ جورج بوزنوو: معجم الحضارة المصرية القديمة. القاهرة ١٩٩٦.

١١ ـ جوستاف لوبون: حضارة العرب. القاهرة ١٩٦٩.

١٢ ـ حامد زيان: الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى مصر. القاهرة ١٩٧٦.

١٣ ـ حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية. القاهرة ١٩٨٣.

١٤ ـ حسين مؤنس: الإسلام الفاتح. القاهرة ١٩٨٧.

١٥ ـ سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون. القاهرة ١٩٧٣.

١٦ ـ سيد الناصرى: الشرق الأدنى فى العصر الهلنستى. القاهرة ١٩٩٦.

١٧ - طه الولى : المساجد فى الإسلام. بيروت ١٩٨٨.

١٨ ـ عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية. بيروت ١٩٨٨.

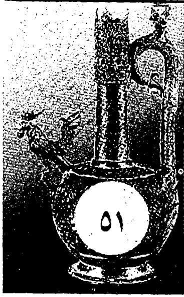
١٩ ـ لطفى عبد الوهاب: دراسات فى العصر الهلنستى. بيروت ١٩٨٨.

٢٠ ـ ليلى عبد الجواد: الدولة البيزنطية فى عصر الإمبراطور هرقل. القاهرة ١٩٨٥.

٢١ ـ محمد رمزى: القاموس الجغرافى. القاهرة ١٩٩٤.

٢٢ ـ مصطفى شيحة: دراسات فى العمارة والفنون القبطية. القاهرة ١٩٨٨.

٢٣ ـ مصطفى العبادى: العصر الهلنستى فى مصر. بيروت ١٩٨٨.

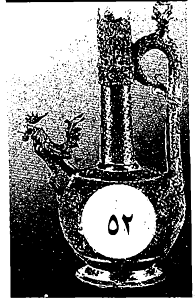


ثالثا ـ المراجع الأجنبية:

1 - Ostrogorvowski (c) History of the Byzantine state, (oxford, 1956)

2 - Stephenson (c): Mediaval history (New York, 1943)

3 - Vasiliev (A): The Byzantine Empire (madison, 1953).



المحتويات

الموضوع	الصفحة
- مقدمة.	١
- تمهيد.	٢
- أنظار المسلمين تتجه نحو مصر.	٤
- موقف الخليفة عمر بن الخطاب.	٥
- أحوال مصر السياسية والدينية قبل الفتح الإسلام.	٧
- سير عمرو بن العاص إلى مصر.	١٠
- فتح الإسكندرية.	١٧
- التعريف بالإسلام.	٢٢
أولا: تشييد العاصمة الجديدة (الفسطاط).	٢٢
ثانيا: جامع عمرو أو (الجامع العتيق).	٢٤
ثالثا: تشييد مدينة الجيزة.	٢٦
رابعا: المسلمون والنيل.	٢٧
خامسا: الأقباط فى ظل الحكم الإسلامى.	٢٩
سادسا: انتشار الإسلام واللغة العربية.	٣٣
سابعا: مكتبة الإسكندرية.	٣٤
ثامنا: النشاط الاقتصادى.	٤٥
- المصادر وامراجع.	٤٧
- المحتويات.	٥٢

Abstract

This work handles the history of the Arab conquest of Egypt in an objective approach. The author refutes the claims of some orientalists and their prejudiced verdicts regarding the spread of Islam. The book highlights that the events of the conquest were based on mutual agreement and not force.

The issue of the burning of the Bibliotheca Alexandrina is equally handed to prove that Amr Ibn El-As is completely innocent of this charge.

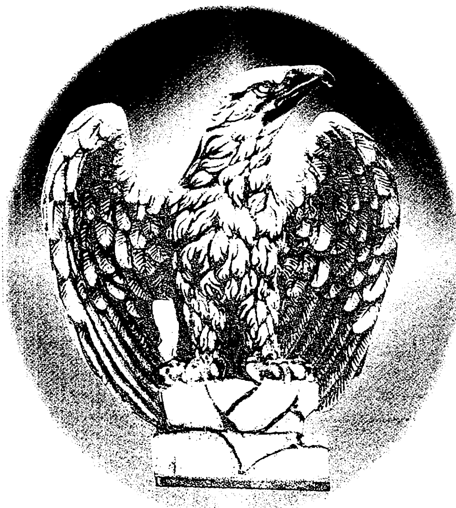
The Copts have enjoyed religious freedom under the Arab rule, after being harassed and persecuted for centuries by the Byzantine Empire. Further more, there are details about the different constructions in Egypt. Including the establishment of the new capital of "Fustat", the magnificent mosque, and the planning of the Giza area. Arab accomplishments in the spheres of agriculture, industry, and commerce are equally highlighted.

Dr. Hamid Zayan

(11)

The Islamic Conquest of Egypt

Dr. Hamid Zayan



(١٢)

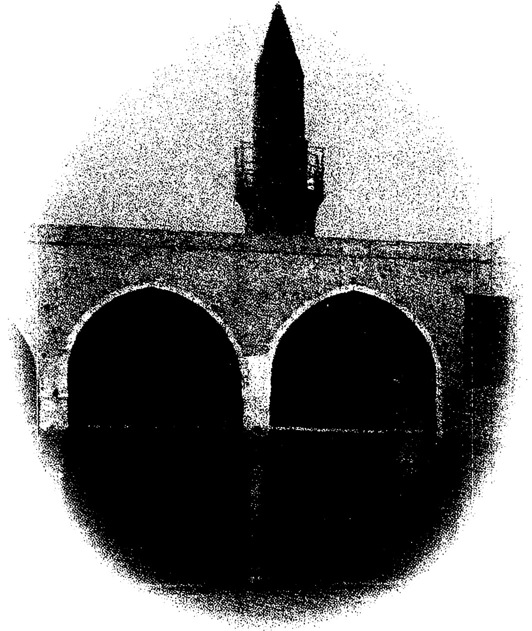
مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى قيام الدولة الفاطمية

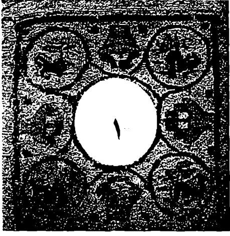
تأليف

د. عصام الدين عبد الرءوف الفقى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة





مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين، وبعد.

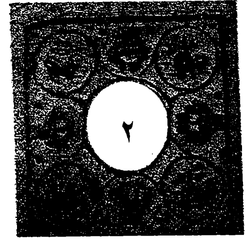
لقد قضيت عدة عقود أكتب فى التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، فكتبت عن تاريخ بعض البلاد الإسلامية؛ مثل المغرب والأندلس واليمن، ثم اتجهت إلى الكتابة عن المشرق الإسلامى، (أقصد بلاد وسط آسيا) فكتبت عن هذه المنطقة العديد من البحوث، فضلاً عن بعض الكتب، وكنت أول من تصدى لدراسة هذه المنطقة تفصيلاً على اعتبار أنها لعبت دوراً كبيراً فى ازدهار الفكر الإسلامى؛ ثم واصلت الدراسة فكتبت عن الإسلام فى الهند أكثر من كتاب.

وتوَّجت دراساتى بتأليف كتاب «تاريخ الفكر الإسلامى» أوضحت فيه كيف أدى الإسلام إلى ازدهار الحضارة الإسلامية، وتقدم الفكر الإسلامى، وظهور علماء مسلمين كتبوا فى جميع فروع العلم، وتأثرت أوروبا بدراساتهم.

ومن خلال هذه الرحلة الطويلة شعرت بالتقصير؛ لأنى لم أكتب عن مصر التى نشأت فى قرية من قراها، وعشت أجمل أيامى وأحلى الليالى القمرية فى القرية والريف المصرى، وأنا من أسرة نشأ رجالها فى أحضان الأزهر الشريف، وتخرجوا منه علماء ذاعت شهرتهم فى أنحاء مصر.

لذلك رأيت أن أكتب عن مصر الإسلامية، والتى ينقسم تاريخها إلى مراحل؛ منها المرحلة الأولى وهى عصر الولاة، والمرحلة الثانية وهى العصر الفاطمى.

وهذا الكتاب يتضمن عصر الولاة فى مصر الذى أعقب الفتح العربى لهذا البلد الجميل على يد القائد العظيم عمرو بن العاص.



وحينما أكـتب عن مصر، أكتب عن تاريخـها السياسى وحـضارتها الإسلامية ودورها الرئيسى فى ازدهار الفكر الإسلامى.

وفى الخـتـام أرجـو أن يوفـقنى الله إلى مـواصلة دراسـة التـاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية.

هذا وبالله التوفيق

المؤلف

أ. د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

٣

الإسلام ومصر

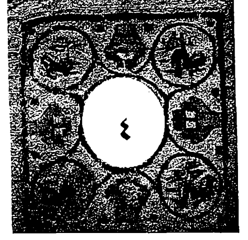
لما أعلن الرسول ﷺ دعوته فى مكة، كذَّبه القرشيون وتمادوا فى كفرهم، واضطهدوا من دخل فى الإسلام، وقاطعوا المسلمين، فهاجر الرسول ﷺ وقومه من المؤمنين إلى المدينة، ورحب به وبهم أهلها من الأوس والخزرج. وأقام الرسول فى المدينة - نواة الدولة العربية الإسلامية - التى تتكون من المهاجرين والأنصار. والأنصار هم أهل المدينة الذين نصروا الرسول ﷺ وأيدوه.

وكان طبيعياً أن تحدث حروب بين المسلمين من الأنصار والمهاجرين، وأهل قريش. وحدثت فعلاً غزوة بدر سنة ٢هـ، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً رائعاً على كفار قريش رغم قلة عددهم وعتادهم، واشتبك المسلمون مع كفار قريش فى غزوة أحد سنة ٣هـ. وفى سنة ٥هـ حاصر القرشيون وأعوانهم المدينة؛ ولكن هبَّت ريح عاتية عصفت بخيامهم، واختلف الأحزاب، ورفعوا الحصار عن المدينة. وخرج الرسول ﷺ من هذه الغزوة ظافراً منتصراً، ونصَر الله الإسلام وقوى شأنه بين العرب.

لما اطمأن الرسول ﷺ إلى تفوق المسلمين على أعدائهم، أمر أصحابه فى ذى القعدة سنة ٦هـ بالمسير إلى مكة لأداء العمرة، فخرج هو ومن معه من المسلمين - ألف وأربعمائة رجل - وساق القوم معهم الهَدْى (الذبائح) دلالة على أنهم لا يقصدون حرباً، ولا يبغون إلا زيارة البيت الحرام. وفى أثناء الطريق بلغهم أن قريشاً تأهبت لمنعهم من دخول مكة. وكادت تنشب الحرب بين المسلمين وكفار قريش؛ ولكن تفاوض الطرفان، وانتهت المفاوضات بعقد صلح الحديبية بين الطرفين.

ويتضمن الصلح عقد هدنة بين المسلمين وكفار قريش لمدة عشر سنين. ويعود الرسول ﷺ وقومه هذا العام دون تأدية العمرة. على أن يؤدوها فى العام التالى.

رأى الرسول ﷺ بعد تأمين المدينة من الأخطار التى كانت تهددها أن يوجه دعوته إلى الملوك والأمراء المعاصرين له داخل الجزيرة العربية وخارجها، فأرسل رسله إلى مختلف البلاد، يحملون كتباً منه إلى ملوكهم وأمرائهم، يدعوهم إلى اعتناق الإسلام. ومن بين هؤلاء الملوك: هرقل - إمبراطور الروم -، والمقوقس - حاكم مصر من قبل هرقل -.



جاء فى خطاب الرسول ﷺ إلى المقوقس:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبد الله نبى الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط: سلام على من اتبع الهدى؛ أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم الأريسيين. **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾** [آل عمران].

استقبل المقوقس مندوب الرسول ﷺ استقبالاً حسناً وقبَّل كتابه، وأجابه بواسطة كاتب له يعرف اللغة العربية كتاباً جاء فيه:

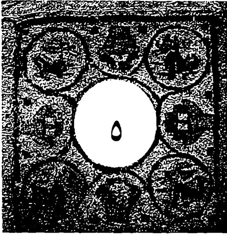
«إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط فى مصر. سلام: فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقى وكنت أظن أنه يُبعَث من الشام. وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج من جزيرة العرب فى أرض جدب وبؤس والقبط لا تطاوعنى فى اتباعه».

وأرسل المقوقس للرسول ﷺ هدية تشتمل على كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين، إحداهما مارية التى أنجب منها الرسول ﷺ ولده إبراهيم، والأخرى شيرين. أهداها الرسول ﷺ إلى حسان بن ثابت - الشاعر -، فأنجب منها عبد الرحمن.

وتتضمن الكسوة عشرين ثوباً من نسيج مصر، وخصى. وكانت مارية جعدة بيضاء جميلة، أعتقها الرسول ﷺ وتزوجها، وأنجب منها ولده إبراهيم سنة ٨هـ، وتوفى هذا الطفل فى العام الثانى من مولده، وقد حزن عليه الرسول ﷺ وقال: «يا إبراهيم: لولا أنه أمر حق ووعد صدق وأن آخرنا سيلحق أولنا لحَزِنَّا حزناً هو أشد من هذا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون، تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب». وتوفيت مارية سنة ١٦هـ فى خلافة عمر بن الخطاب، فصلى عليها، ودعا الناس إلى المشاركة فى تشييع جنازتها؛ لأنها من أمهات المؤمنين.

تدل الكتب التى أرسلها الرسول ﷺ إلى ملوك وأمراء دول العالم على عالمية الدعوة الإسلامية، فالإسلام لم ينزل إلى العرب فقط، بل للناس جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها. وهناك أكثر من أربعين آية فى القرآن الكريم يُذكَر فيها اسم الله باسم «رب العالمين». منها:

﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ [البقرة].



﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾ [الأعراف].

﴿ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩)﴾ [فصلت].

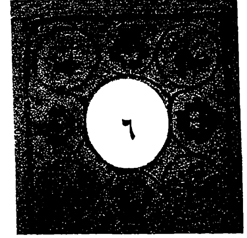
ومن خلال رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس يمكن القول:

تمتعت مصر بمكانة كبيرة عند العرب، فقد تزوج منها الرسول ﷺ ورحل إليها العرب للتجارة، والرخاء الذى يعمها؛ حيث يجرى فيها نهر النيل الذى يغطى حاجة البلاد من الماء، ويحول أرضها إلى بستان ينمو فيه مختلف الزروع والأشجار، فيجد الإنسان فيها كل ما يريده وما يشتهيه؛ كما أن مصر أرض الأنبياء، وُلِد فيها من الأنبياء: موسى، وهارون، ويوشع، ودانيال، ولقمان. وتزوج نبى الله إبراهيم من هاجر - أم إسماعيل - وتزوج يوسف من ابنة صاحب عين شمس.

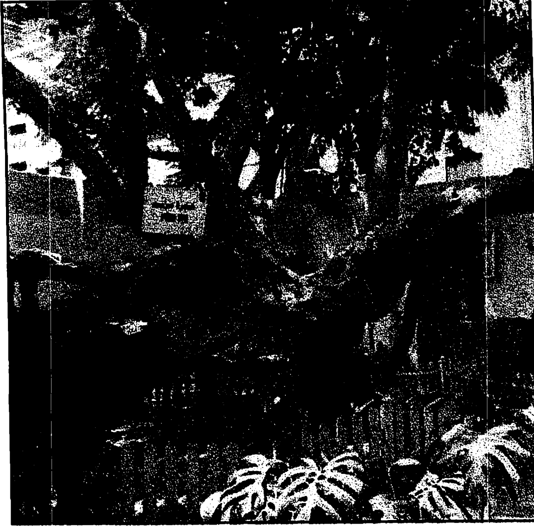
وفد إبراهيم إلى مصر فى طريقه إلى وادٍ غير ذى زرع - وهو مكة - حيث شيَّد الكعبة هو وابنه إسماعيل. ووفد إلى مصر كذلك نبى الله يوسف وأقام بها، ولما علم عزيز مصر (مَلِكُها) بصدقه وأمانته وتقواه، عهد إليه بإدارة الشئون المالية فى دولته. ونشأ نبى الله موسى فى مصر، وطالب فرعون بعبادة الله الواحد الأحد والتخلى عن كبريائه وجبروته، لأن العظمة لله وحده، فطارده فرعون؛ ولكن الله أنقذ موسى من الغرق، وغرق فرعون. ورحل نبى الله عيسى إلى مصر مع أمه مريم فراراً من بطش الرومان.

عَهِد القائد الرومانى إلى هيرودس بحكم فلسطين - وكان حاكماً ظالماً غاشماً - تزوج عشر زوجات وقتل بعضهن وبعض أولاده وأقاربه ورجاله فى القدس، وساءت سمعته واشتد بطشه وظلمه للناس، وتطلع الناس إلى التخلص منه. وفى غضون ذلك وُلِدَ المسيح فى ذلك العصر المضطرب، وملأ صيته الآفاق، فخاف الملك هيرودس على عرشه، وأمر جنده باقتحام بيوت بيت لحم لتفتيش ما قد يوجد فيها من أطفال وقتلهم؛ لأنه يخشى على ملكه من الطفل الذى أُشيعَ نبأ مولده وشهرته، فقد يصل إلى المُلك بفضل تأييد الناس له، وخلعه من الحكم وتولية هذا الطفل بدلاً منه، هنا رأت والدته السيدة مريم بنت عمران ويوسف النجار الارتحال بعيسى والنجاة به إلى أرض آمنة بعيدة عن أعين هيرودس وبطش رجاله وجبروتهم.

عبرت العائلة المقدسة إلى مصر، من العريش إلى الفرما ثم تل بسطا إلى مسطرد إلى بلبيس إلى دقادوس (قرب ميت غمر) ثم إلى سمنود إلى البرلس. ثم اتجهت العائلة إلى سخا، ومنها إلى وادى النطرون ومنها إلى المطرية. ثم واصلت الأسرة رحلتها إلى بابليون مروراً بمنطقة الزيتون وحارة زويلة بالقرب من الغورية، ثم اتجهت العائلة إلى المعادى، ثم واصلت رحلتها إلى مصر العليا، ونزلت بمدينة منف (ميت رهينة بمركز البدرشين الآن)، ثم رحلت إلى هيراكليوبولس (بنى سويف الآن)، ومنها إلى مغاغة والبهنسا - التابعة للمنيا - ثم اتجهت إلى سمالوط والأشمونية،



ثم اتجهت فى رحلتها من ملوى وديروط ثم أسيوط ثم نزلت فيما يُعرَف الآن بدير المحرق. استغرقت إقامة العائلة المقدسة فى مصر ثلاث سنوات نعمت فيها بالأمن والسلام؛ لأن من تقاليد المصريين إكرام الغرباء خصوصاً إذا كانوا من رجال الدين. وعادت العائلة المقدسة إلى فلسطين بعد أن هدأت فيها الأحوال، وخفَّت حِدَّة التوتر وانتهى الاضطهاد للأطفال.

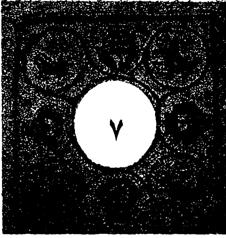


شجرة مريم بالمطرية (مصر)



دير المحرق – مصر القديمة

كان لمصر تقدير عميق فى الفترة التى ظهر فيها الإسلام، ولا أدل على ذلك من أن اسم مصر ورد فى القرآن الكريم ثمان وعشرين مرة، مثل قوله تعالى مخبراً عن فرعون ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ**... (٥١)﴾ [الزخرف]، ﴿**وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ**... (٢٠)﴾ [القصص]، ﴿**وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ**... (٢١)﴾ [يوسف]، والمُلاحَظ أن الأحداث التى وردت فى سورة يوسف حدث معظمها فى مصر.



ورُوى عن رسول الله ﷺ أحاديث عن فضل مصر منها: «ستُفتَح عليكم بعدى مصر، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لكم منهم ذمة ورحماً». وفى حديث آخر «إذا فتح الله عليكم بعدى مصر، فاتخذوا بها جنداً، فذلك الجند خير أجناد الأرض؛ لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة».

والجدير بالذكر أن كلمة مصر مشتقة من كلمة آرامية قديمة هى (مزر)، ومعناها الحد أو الحدود؛ لأنه لما كثرت غارات الغزاة على مصر من ناحية حدودها الغربية، أقام الفراعنة القدماء حصوناً وحواجز لحماية الحدود. سُميت مزر ثم أُطلقت الكلمة على مصر كلها. وفى مطلع تاريخ الفراعنة كانت مصر تُسمى (كيمى) أو (شيمى) أو (خيمى) بمعنى الأرض الحمراء.

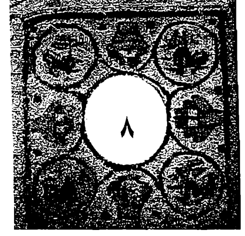


مصر قبل الفتح العربى

تُوِّج هرقل إمبراطوراً على الدولة البيزنطية خلفاً لفوقاس سنة ٦١٠م. وفى سنة ٦١٣م شنَّت الإمبراطورية الفارسية حرباً على الدولة البيزنطية، وهاجم الفرس أنطاكية وحمص وقيسارية، وهزم الفرس البيزنطيين على أبواب أنطاكية. ولما احتل الفرس أنطاكية، استولوا على دمشق ثم طرسوس، وطردوا البيزنطيين من أرمينية، وازداد موقف البيزنطيين سوءاً بعد أن تعرضوا لمجاعة شديدة، ولم يجد هرقل فى ميزانيته ما ينفقه فى الحرب، فاستولى على أموال الكنائس فى العاصمة والأقاليم والمدن الأخرى لتغطية نفقات الحرب. ولم يلبث الجيش الفارسى أن ظهر أمام أسوار بيت المقدس فى عام ٦١٤م، واستسلمت القدس للقائد الفارسى، واستولى الفرس على صليب الصلبوت (الصليب المقدس) وأشعلوا النار فى المدينة المقدسة.

وبعد أن استولى الفرس على الشام، زحفوا إلى مصر، واستولوا على الإسكندرية سنة ٦١٨م. وبإتمام سيطرة الفرس على مصر، حُرِمت الإمبراطورية البيزنطية من الغلال التى كانت تمد بها مصر هذه الدولة.

أعاد هرقل تنظيم جيشه وتزويده بالأسلحة الكافية، وتمكن من تخليص آسيا الصغرى من قبضة الفرس. وفى سنة ٦٢٧م طارد هرقل كسرى إلى المدائن - عاصمة الإمبراطورية الفارسية - وفرَّ منها كسرى لما علم باقتراب الجيش البيزنطى من المدائن. على أن شيرويه لم يوافق على سياسة أبيه كسرى، فقبض على أبيه وعزله وحل محله فى حكم إمبراطورية الفرس. وعرض شيرويه



الصلح على هرقل فوافق الأخير بشرط جلاء الفرس عن آسيا الصغرى والشام ومصر، وتسليم صليب الصلبوت إلى الحكومة البيزنطية. وتم الصلح فعلاً، وعاد هرقل إلى عاصمته ظافراً منتصراً، وابتهج الروم لهذا النصر، واستقبلوا الإمبراطور استقبال الفاتحين الذى فاقت أعماله وانتصاراته بطولات تراجان (TraJan). وعادت مصر - كما كانت - ولاية بيزنطية.

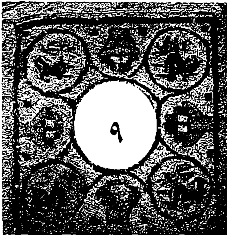
دمر الفرس - أثناء تواجدهم فى مصر - بعض الكنائس والأديرة. وفى أحد الأديرة التى دمرها الفرس، عاش شاب يسمى بنيامين من سلالة أسرة قبطية غنية، عاشت فى قرية فى البحيرة، طلب هذا الشاب العلم حتى نبغ وفاق زملاءه، وكان ورعاً تقياً، يقوم الليل فى كنيسة الدير ويقضى كل وقته فى العبادة والتأمل والتفكير فى قدرة الله فى خلقه وسمائه وأرضه وفى نفسه وجسده أيضاً.

تدرج بنيامين فى سلك الوظائف الكنسية حتى خلف البطريق أندرو نيكوس، وأُقيم حفل تنصيبه بطريقاً فى كنيسة القديس مرقص. وأحبه الناس وتأثروا به. وكانت فترة ولايته للبطريركية مضطربة؛ إلا أنه لم يتساهل فى عقيدته، ولم يتهاون فى الرذائل التى تفشَّت بين الناس، فلم يتساهل مع قساوسته فيما قد يصدر منهم من أخطاء. وحاول القضاء على الفساد الذى ظهر فى أيامه. وبقى على هذا الحال، يطهِّر الكنيسة ويعاقب المسيء من أهلها، فعرف الناس فضله وقدره. كذلك عمل بنيامين على وحدة الكنيسة القبطية، وأعاد إليها استقرارها واطمئنانها بعد أن زعزعتها الأحداث السياسية فى ذلك العصر.

لما استرد هرقل مصر، عَهِد إلى قيرس (المقوقس) بحكم مصر نيابة عنه. وكان المسيحيون قد التفوا حول هرقل الذى حرر بلادهم من الكفار الفرس، واسترد بيت المقدس وصليب الصلبوت. إلا أن الخلافات المذهبية اشتدت بين المسيحيين فى الإمبراطورية البيزنطية (إمبراطورية الروم) وفشل هرقل فى إنهاء الخلاف المذهبى بين المصريين والروم، وأمعن فى اضطهاد المصريين عشر سنوات، حتى كره المصريون القبط الدولة البيزنطية (دولة الروم) ومذهبها الملكانى الذى ابتدعه هرقل.

اعتزم المقوقس - حاكم مصر - فرض مذهب الدولة البيزنطية الملكانى على المصريين، وكان المقوقس ظالماً عنيفاً فى تطبيق مذهب دولته، واضطهد المصريين المتمسكين بمذهبهم، فكرهه الناس، وتمنوا زوال الدولة البيزنطية.

لما قدم المقوقس إلى مصر سنة ٦٣١م بمذهبه الملكانى لم يحسن القبط (أهل مصر) استقباله، وتصدى لمعارضته البطريق القبطى، ولما خشى على نفسه من الاضطهاد، هرب من الإسكندرية وجاهر بمعارضته المذهب الملكانى. وطلب بنيامين من القساوسة الثبات على معارضتهم للمذهب



الملكانى حتى الموت، وأمر الأساقفة بالهجرة إلى الجبال والبوادى، حتى يرفع الله عنهم غضبه. وهاجر البطريرك بنيامين إلى جبل يرنوج، واقترب بذلك من وادى النطرون وأديرته العديدة. وبعد فترة قليلة واصل القديس رحلته إلى صعيد مصر، حتى وصل إلى قوص، وأقام هناك فى دير صغير بالصحراء، وفرَّ الكثير من القساوسة من الإسكندرية بعد وصول المقوقس إليها.

وازداد نفوذ المقوقس فى مصر، بعد أن ولاه هرقل الشئون الدينية والسياسية فى هذه البلاد. وتظاهر المقوقس بأنه جاء إلى مصر لإصلاحها وتصحيح عقيدة أهلها، وحاول أن يوضح للناس فى مصر أصول المذهب الملكانى - مذهب الدولة البيزنطية - ويزيل شكوكهم. ولكن القبط أساءوا الظن بمذهب الدولة الجديد، وتمسكوا بمذهبهم اليعقوبى الذى يقول بأن للمسيح طبيعة واحدة (وهى الإلهية) بينما يقول أصحاب المذهب الملكانى بأن للمسيح طبيعتين: إلهية وبشرية؛ فهو على الأرض بشر، وفى السماء إله.

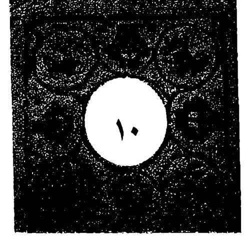
فشل المقوقس فى حمل المصريين على اعتناق المذهب الملكانى، ورأى تمسكاً شديداً بمذهبهم. هنا حاول هرقل توحيد مذاهب الدولة، فأوجد عقيدة تجمع بين الآراء المختلفة، فأقر أن الله له إرادة واحدة؛ وأما المسألة الأخرى - وهى نفاذ تلك الإرادة بالفعل، وهل ذلك الفعل واحد أو مزدوج - فيُرجَأ القول فيه. ويُمنَع الناس من الخوض فى هذه المشكلة.

عارض المصريون القول بالطبيعتين، واتخذ المقوقس سياسة غاشمة مع المصريين وهى: إما قبول مذهب الإمبراطور أو التعرض للاضطهاد والتعذيب.

حكم المقوقس مصر عشر سنوات، اضطهد خلالها المصريين، وأذاقهم سوء العذاب، إما القتل أو الحرق أو الغرق أو قطع بعض أطراف الجسم أو الضرب بالسياط. وبذلك كانت سنوات حكمه كلها إرهاب للقبط. وسعى المصريون إلى التخلص من المقوقس الذى تحملوا منه ألوان البؤس والظلم، والذى نهب تحف كنائسهم وأموالها، فاجتمع بعض القبط فى كنيسة فى مريوط، وتآمروا على قتل حاكمهم الظالم (المقوقس)، ولكن المقوقس علم بالمؤامرة، فأمر بقتل المتآمرين. وعاش المصريون فى إحباط، وفقدوا كل أمل فى الحياة المستقرة الآمنة.

وهكذا دفع سوء الحكم البيزنطى لمصر إلى فقدان الثقة بين القبط والحكومة البيزنطية. وقد أخطأ هرقل بسياسته الهادفة إلى فرض مذهبه على الناس، لأنه لم يدرك أن شعب مصر شعب متدين لا يتحول بسهولة عن عقيدته، ولم يدرك تغلغل الدين فى نفوسهم. فأمعن المقوقس فى اضطهاد المصريين.

وتطلع المصريون إلى الخلاص من هذا الحكم الغاشم.



وبذلك مهَّد الروم (البيزنطيون) إلى الفتح العربى لمصر.

والجدير بالذكر أن التفرقة الصحيحة بين المذهبين هى التفرقة بين القول بطبيعة واحدة للإله وبين القول بطبيعتين: إحداهما إلهية والأخرى بشرية. ولما استعصى على الدولة أن ترغم المصريين على اتباع مذهبها، توسط بعض الرؤساء الدينيين فى حسم الشقاق بترك الخلاف على الطبيعة أو الطبيعتين. ووصف الإله بأنه ذو مشيئة واحدة، وقدروا بأن القول بالطبيعة الواحدة، ولا يسخط القول بأصحاب الطبيعتين، لأنهم يقولون: إن الطبيعتين تتفقان فى المشيئة الواحدة. غير أن هذا التوفيق لم يحسم الشقاق، وأثار الخلاف حول الفرق بين الطبيعة والمشيئة.

الفتح العربى الإسلامى لمصر

شرع العرب بعد أن أعزهم الله بالإسلام فى غزو الأطراف الجنوبية لبلاد الشام فى حياة النبى ﷺ. ولما ولى أبو بكر الصديق الخلافة، واستقرت دولته بعد أن فرغ من حروب الردة وجَّه جيوشه إلى الشام، ليحقق بذلك سياسة التوسع للدولة العربية الإسلامية التى وضع أساسها الرسول ﷺ قبل وفاته، وعقد الخليفة الأول (أبو بكر) أربعة ألوية لأربعة من أكبر قادة المسلمين وهم: يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حسنة ووجهته الأردن، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين. وعهد إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح بالمسير إلى حمص.

فتح العرب المسلمون بلاد الشام، وكانت موقعة اليرموك سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م هى المعركة الفاصلة التى حددت مصير بلاد الشام، إذ تساقطت مدن الشام على إثرها فى أيدى العرب، كما تتساقط أوراق الخريف. ولما علم هرقل - إمبراطور الروم - بهزيمة جيشه قال فى حسرة وألم: عليكِ السلام يا سورية، لقد كنت سلَّمت عليك تسليم المسافر؛ فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليمَ المفارق، ولا يعود رومى إليك أبداً إلا خائفاً. ودخلت بلاد الشام كلها فى حوزة العرب بما فى ذلك مدينة القدس.

أسباب الفتح العربى لمصر:

تطلع العرب المسلمون إلى فتح مصر بعد أن فتحوا بلاد الشام تمشياً مع سياستهم الرامية إلى نشر الإسلام فى غير بلاد الإسلام، وواجب المسلم أن يخرج مجاهداً لدعوة الناس إلى الإسلام الذى أقره الله ديناً للعالمين، وبعث رسوله مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا.

ومن أسباب فتح العرب المسلمين لمصر، الرخاء الاقتصادى الذى تتمتع به مصر، فالنيل يعطى مصر ما تحتاجه من ماء، وبالتالى تتحول مصر إلى بستان ينمو فيه مختلف الزروع والأشجار، فيتوافر فى مصر كل ما يطلبه أهلها من غذاء وماء.

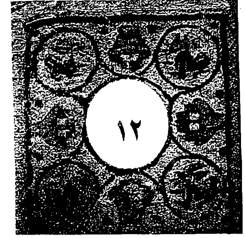
وهناك أسباب إستراتيجية لفتح مصر، وحيث تم للمسلمين فتح بلاد الشام فى أوائل عهد عمر بن الخطاب - كما ذكرنا - وكانت مصر تقاسى من ظلم الروم، وتطلعوا إلى حكم جديد يخلصهم مما يقاسونه من بؤس وتعذيب. ولا ننسى أنه من أهم أسباب فتح العرب لمصر، نشر الإسلام فى مصر.

استأذن عمرو بن العاص من الخليفة عمر بن الخطاب بالموافقة على فتح مصر، عندما التقى به فى الاجتماع الذى عقده مع قادة الجيوش العربية فى الجابية قرب دمشق. وتردد عمر بن الخطاب فى فتح مصر؛ لأن جيوش المسلمين كانت متفرقة فى البلاد. ومن الصعب جمع قوة كافية لفتح هذه البلاد الشاسعة، كما أن الحكم الإسلامى فى البلاد التى فتحها المسلمون لم يستقر بعد. وكان عمر بن الخطاب حذراً، يخشى دفع المسلمين إلى أراض جديدة واسعة فى معارك لا يتأكد من نتيجتها. ولكن عمرو بن العاص ألحَّ على الخليفة بضرورة فتح مصر، لأن مصر غنية بمواردها الاقتصادية، وكان عمرو بن العاص قد زار مصر قبل الإسلام، ويدرك أهميتها الاقتصادية، كما أن أهل مصر - وهم القبط - قد يرحبون بالعرب لتخليصهم من نير حكامهم الروم.

ومن الناحية الإستراتيجية فإن فتح مصر ضرورى للعرب، لتأمين حكمهم فى بلاد الشام وفلسطين من ناحية الجنوب، حيث يوجد الروم الذين قد يتخذون من مصر قاعدة لشن الهجمات على بلاد الشام واستردادها. كما أن أرطبون - حاكم بيت المقدس - هرب منها إلى مصر بعد هزيمة العرب لجيوشه، وجمع جنداً لاسترداد بلاد الشام وعلى العرب عدم إضاعة الوقت، وتعجل فتح مصر.

إذن لن يسلم الفتح العربى لبلاد الشام؛ لأن الروم فى موطنهم الأصلى - آسيا الصغرى - وفى مصر كذلك، فقد يحاصرون العرب من الموقعين، ويتيسر لهم بذلك استرداد بلاد الشام، ويسيطر الروم كذلك على البحر المتوسط. فمن السهل عليهم اتخاذ موانى مصر وآسيا الصغرى قواعد لمهاجمة بلاد الشام واستردادها.

وقبل أن نواصل حديثنا عن فتح مصر، يجب أن نشير إلى حياة الرجل العظيم والقائد الشجاع الذى فتح هذه البلاد، واقترن اسمه بظهور الإسلام وانتشاره فى مصر. هذا القائد هو عمرو بن العاص.



عـمرو بن العـاص من بنى سـهم - وهى بطن من بطون قـريش - وعُـرف عن بنى سـهم اللبـاقـة فى حـسم الأمـور، والتلطف فى حـسم المنازعات، والتغـلب على حرج النفوس، والمقدرة على الإقناع فـيما يمس المروءة والعقيدة.

ومن المرجح أن عمرو بن العاص، وُلد فى السنة التى وُلد فيها عمر ابن الخطاب أى قبل الهجرة بحوالى أربع وأربعين عاماً حوالى سنة ٥٨٠م، وتوفى فى الثمانين من عمره، ولم يبلغ المائة عام - كما يذكر البعض - ومن صفـاته المهابة، وفيه شمائل نباهة وسيادة، حتى قال عنه عمـر بن الخطاب: «ما ينبغى أن يمشى عمرو بن العاص إلا أميـراً». وكان عمرو بن العاص من أصحاب القوة الحيوية، حاضر الذهن، قوى العزيمة.

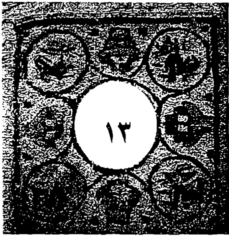
اعتنق عمرو بن العاص الإسلام سنة ٨هـ، وأرسله رسول الله ﷺ على رأس سرية، وقدم إلى دمشق مبعوثاً من الرسول ﷺ إلى هـرقل - إمبراطور الروم - وكان عمر بن الخطاب إذا رأى رجلاً يتلعثم فى كلامه يقول: «خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد».

وكان عمرو بن العاص أحد القادة الأربعة الذين أرسلهم أبو بكر الصديق إلى الشام، وفتح عـمرو بـن العاص فلـسطين، وفتح الـقدس وأرسل إلى عـمـر بن الخطاب يطلب منـه الحضـور لاستلامها.

ولم يكن هناك رجل أقرأ لكتاب الله من عمرو، ولا أفقه منه، وتوفى فى عيد الفطر ٤٣هـ / ٦٦٣م فصلى عليه ابنه، ثم صلى بالناس صلاة العيد.

وحينما اشـتدت الفتنة بين علىّ بن أبى طالب ومعـاوية بن أبى سفيان، اعـتكف عمرو فى مكة، واعتزل الناس، وقال لابنه عبد الله: لا أرضـى بما يجرى، فإلى أى الفريقين أنضم ؟ فأشار عليه ابنـه بالانضمام إلى علىّ بن أبى طـالب. فقال عـمرو: «إنى إن أتيت عليـاً، فأنا رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية يخلطنى بنفسه، ويشركنى فى أمره» وانضم إلى معاوية.

وكان عمـرو بن العاص يدرك سبق علىّ فى الإسلام وفـضله وقدره؛ ومع ذلك ارتحل إلى معاوية، لأن عنده متاع الدنيا، وقال لمعاوية: أنا فضلتك على عَلِىٍّ بن أبى طالب، وليس لفضلك عليه، ولكن من أجل الدنيا التى نتكالب عليهـا. وقال له: «لتقطعن لى دنيا من دنياك، أو أتخلى عنك». وكان معاوية يدرك أن عمرو بن العاص هو صاحب فكرة رفع المصاحف على أسنة الرماح فى معركة صـفين مطالباً بتحكيم كتاب الله بين طرفى النزاع - عَلِىٌّ ومـعاوية - ونجح بخطته هذه فى إحداث فرقة فى جيش عَلِىّ. وانتدبه معاوية للتحكيم، فخدع أبا موسى الأشعرى، ومهد ذلك لتدهور حكم عَلِىّ ووصول معاوية إلى الخلافة.



ويُروى أن عَلِيّ بن أبى طالب أرسل إلى عمرو بن العاص كتاباً يطلب منه الانضمام إليه فى نزاعه ضد معاوية، فأظهر عمرو الكتاب إلى معاوية وقال له: إما أن ترضينى أو أنضم إلى عَلِيّ. فطلب منه معاوية تحديد ما يريد، فطلب مصر، فجعلها له معاوية طعمة. وأدرك عمرو بن العاص أن الدولة الأموية قامت بتدبيره وحنكته. فطلب الشام بالإضافة إلى مصر، فرفض معاوية. وبذلك ساءت العلاقات بين الرجلين، وأغلظ كل منهما لصاحبه ثم اصطلحا، على أن يستمر عمرو بن العاص فى حكم مصر سبع سنين، وحكم عمرو بن العاص مصر ثلاث سنين، وهى ما تبقى له من عمر، وتوفى سنة ٤٣هـ / ٦٦٣م.

خطوات فتح مصر:

سبق القول بأن عمرو بن العاص ألحّ على عمر بن الخطاب كثيراً. وتروى كتب التاريخ بأن عمر بن الخطاب كان متردداً فى عملية فتح مصر خوفاً من تفرق المجاهدين المسلمين فى البلاد وعدم استقرار الحكم الإسلامى فى هذه البلاد. وتذكر الرواية التاريخية بأن عمر بن الخطاب لما طلب من عمرو بن العاص المسير إلى مصر، أخبره بأنه سيرسل إليه كتاباً يطلب منه العودة وعدم مواصلة الفتح. فإذا وصله الكتاب قبل دخوله حدود مصر فعليه بالعودة بجيشه وإنهاء فكرة الفتح، وإذا وصله الكتاب بعد اجتيازه حدود مصر، فعليه مواصلة الفتح على بركة الله.

وتتضارب الروايات التاريخية حتى أن هناك رواية تقول بأن الكتاب وصل إلى عمرو بن العاص قبل دخوله مصر، يأمره بالعودة وعدم مواصلة فتح مصر، فأمر عمرو حامل الكتاب بالعودة وإنكار لقائه بعمرو. ولا يمكن قبول هذه الرواية، لأن مسألة كبرى مثل فتح مصر لا يمكن أن تُترك للصدف مثل وصول خطاب أو عدم وصوله. وإنما قرار فتح مصر قرار خطير لا يُتخَذ إلا بعد دراسة عميقة ومتأنية.

إذن المعقول بأن عمرو بن العاص اتجه إلى مصر بجيشه مدعماً بقرار واضح وقوى من الخليفة عمر بن الخطاب. ولا يستطيع عمرو بن العاص أن يزحف إلى مصر فاتحاً غازياً دون أن يستأذن من الخليفة عمر بن الخطاب. وهو الخليفة المهاب القوى وصاحب تأثير قوى فى نفوس المسلمين، والجميع - بمن فيهم كبار القادة - يخشون بأسه وعقابه الصارم.

ومهما يكن من أمر، فقد أمد عمر بن الخطاب قائده عمرو بن العاص بجيش قوى قوامه ثلاثة آلاف جندى، واتجه عمرو بن العاص إلى مصر سنة ١٨هـ / ٦٣٩م وفتح المسلمون العريش بعد أن اجتازوا حدود مصر دون مقاومة فى أوائل ذى الحجة فى عيد الأضحى، وصلى المسلمون صلاة العيد. وبعد ذلك سلك عمرو بن العاص وجنده من المجاهدين الطريق القديم الذى سلكه الهكسوس وقمبيز - ملك الفرس - والإسكندر المقدونى - ملك اليونان - وغيرهم من الغزاة.

١٤

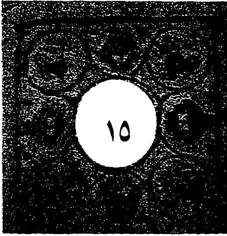
واصل عمرو بن العاص الزحف بجيشه فى الأراضى المصرية حتى وصل إلى الفرما، وهى مدينة حصينة، وتعتبر مفتاح مصر وتسمى (بلوزيم)، وتقع هذه المدينة على ساحل البحر المتوسط فى موضع مدينة بور سعيد الحالية، ويحميها البحر وفرع من فروع النيل. وقد حاصرها عمرو بن العاص شهراً ولقى مساعدة كبيرة من القبط الذين تطلعوا إلى تخليص العرب لهم من نير وظلم الروم. وهدم عمرو بن العاص أسوار المدينة وحصونها، ولم يكن لديه من الجند ما يكفى لاقتحامها؛ ومع ذلك تمكن عمرو بن العاص وجنده المجاهدون إتمام فتح الفرما.

وواصل عمرو بن العاص زحفه فى الأراضى المصرية حتى وصل بجيشه بلبيس. وهناك تصدى له القائد البيزنطى أرطبون الذى غادر فلسطين حينما اشتد الحصار على بيت المقدس سنة ١٥هـ وهزمه عمرو بن العاص وقضى على كل مقاومة اعترضته فى بلبيس حتى استولى عليها فى مدة لا تزيد على شهر. ويُقال أنه وجد ابنة المقوقس فى بلبيس، فأرسلها إلى أبيها معززة مكرمة.

سار عمرو بن العاص بجيشه بعد ذلك إلى قرية تندونياس، وأسماها العرب أم دنين فى موضع الأزبكية الحالى أو قريبة منه، ولم يجد عمرو بن العاص صعوبة فى الاستيلاء عليها، ثم واصل زحفه إلى حصن بابليون وأسماه العرب الحصن أو قصر الشمع؛ لأن الروم كانوا يوقدون عليه الشمع فى رأس كل شهر، ليعلم الناس أن الشمس انتقلت إلى البرج التى حلَّت فيه إلى برج غيره. والمُلاحَظ أنه كان أهم قاعدة عسكرية فى مصر فى العصر الرومانى. وهذا ينطبق مع وضع مصر؛ لأن التقاء النيلين أو فرعى النيل - الدلتا والصعيد - خير موضع لإيجاد عاصمة فى مصر، أو حصن حصين لحمايتها من العدو.



بقايا حصن بابليون - مصر القديمة

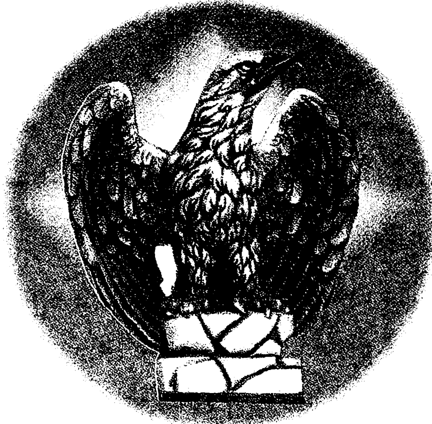


وكانت منف عاصمة الفراعنة قديماً عند التقاء النيلين. واتخذ العرب حواضر مصر فى هذا الموضع الفسطاط والقطائع والعسكر ثم القاهرة.

لما اختبر عمرو بن العاص حصانة حصن بابليون، ومقدرة جنده على القتال ومقاومة العرب، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يطلب منه مدداً من قوة عسكرية كافية لفتح هذا الحصن، وإتمام فتح مصر، وهزيمة الروم، والتغلب على عناصر المقاومة.

أرسل عمر بن الخطاب إلى مصر قوة عسكرية تتألف من أربعة آلاف جندى، على رأسها أربعة من صناديد الرجال ومشاهير القواد، الواحد منهم يعادل فى قوته ألف جندى - حسب تقدير العرب المعاصرين - وهم: الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت والمقداد بن عمرو التميمى، ومسلمة بن مخلد الأنصارى، وغيرهم.

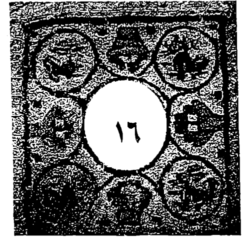
وصل المدد بلدة أون وأسماها العرب عين شمس وفى مواجهة جزيرة الروضة قام حصن بابليون والمعتقد أن اسمه تحريف لكلمة، هابى. ن. أون.
.Hapy. n. on



النسر الرومانى الذى كان رمزًا لحصن بابليون

ويقال بأن هذا الاسم كان يطلق على جزيرة الروضة، بمعنى جزيرة الروضة النيلية. ولكن بتلر ينفى هذه التسمية التى حُرفت إلى بابليون، اسم الحصن أى حصن بابليون، ويقول: إن البابليين لما فتحوا مصر شيدوا هذا الحصن وسُمى بهذا الاسم نسبة إليهم بل امتدت تسمية بابليون إلى مصر فأطلق الأوربيون على مصر كلها فى العصور الوسطى «بابليونا» نسبة إلى بابل. ولكن العرب - كما قلنا - أطلقوا على حصن بابليون «قصر الشمع».

ومهما يكن من أمر فقد وصل المدد العربى إلى عين شمس وكانت فى ذلك الوقت عظيمة متسعة متصلة بما نسميه الآن مصر القديمة، التى شُيدت فيها الفسطاط، فخرج تيودور - قائد جيش الروم - على رأس عشرين ألف مقاتل، فهزمه عمرو بن العاص بجزء من جيشه، وعسكر الجزء الآخر من جيش عمرو بن العاص فى الجبل الأحمر - موضع العباسية الآن - وهاجم الجيش العربى - الكامن فى العباسية - جيش الروم،



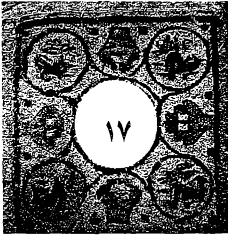
وخرج فريق من جيش العرب كان كامناً فى أم دنين. وبذلك انحصر جيش الروم بين الجيوش العربية الثلاثة، وقُتل عدد كبير من جند الروم، ونجا فريق من المعركة لاذ بالفرار إلى حصن بابليون، وقُتل فى هذه المعركة الكثير من الروم. ومن نتيجة هذه المعركة، ازدياد قوة العرب وضعف الروم، وامتلكوا السيطرة على نهر النيل، وعسكروا فى منطقة الحصن وهو ما عُرف بالفسطاط فيما بعد، وضيقوا الحصار على الحصن، واشتد ضيق الروم المعسكرين فى الحصن، وأصبحت مصر على وشك السقوط فى أيدى العرب، كما أن النيل من أسفله وأعلاه أصبح فعلاً فى قبضة العرب، ولم يعد فى استطاعة الروم المحاصرين فى الحصن الدفاع عن أنفسهم من هجمات العرب القوية.

ولا يمكن قبول الرواية التاريخية بأن عمرو بن العاص أرسل فرقاً من جيشه لفتح الفيوم وبعض مدن الوجه البحرى مثل منوف؛ لأن جهود عمرو بن العاص الحقيقية تركزت حول اقتحام حصن بابليون - قاعدة مقاومة الروم الرئيسية - ولم يكن من الممكن تفريق قواته فى البلاد المصرية. والواقع أن عمرو بن العاص تفرغ لهذا العمل بعد اقتحام جنده حصن بابليون وانسحاب الروم منه.

لم يكن من اليسير على العرب الاستيلاء على حصن بابليون لقوة تحصيناته وصمود حاميته؛ لذلك طال حصار العرب له حتى زاد على سبعة أشهر. ولما طال حصار العرب للحصن طلب المقوقس الصلح، وأرسل رسالة بذلك إلى عمرو بن العاص.

أرسل عمرو بن العاص إلى المقوقس وفداً يتكون من عشرة رجال للتفاوض حول شروط الصلح، وأوضح عبادة بن الصامت إلى المقوقس شروط الصلح وهى: الإسلام أو الجزية أو القتال. فوافق المقوقس على الجزية، وتعهد إلى عمرو بن العاص بتنفيذ الصلح إذا ما وافق عليه هرقل - إمبراطور الروم - غير أن الإمبراطور استنكر الصلح، واعتبره خيانة وطنية، واستدعى المقوقس إلى القسطنطينية، وظل العرب يحاصرون الحصن، واستطاعوا بفضل ما أظهره الزبير بن العوام من جرأة وشجاعة أن يقتحموه عنوة، واضطر القائد البيزنطى إلى عقد معاهدة مع العرب، اشترط فيها أن يخرج أهل الحصن فى ثلاثة أيام، لا يحملون معهم إلا أقواتهم، وأن يتعهدوا بدفع الجزية. وبذلك تسلم العرب الحصن فى أبريل سنة ٢٠هـ / ٦٤١م.

ومن الأمور التى أضعفت الروم اثناء الحصار موت هرقل فى فبراير ٦٤١م (٢٠هـ) وضعف الروح المعنوية لدى الروم المدافعين عن الحصن، واستفاد العرب من هذا الضعف، وصعد الزبير بن العوام سور الحصن وكبَّر، وكبَّر المسلمون معه، وارتاع المدافعون عن الحصن، وخُيِّل إليهم أن العرب فتحوه، وانتابهم الفزع والهلع، وسلموا الحصن فى أبريل ٦٤١م (٢٠هـ). ويجب أن



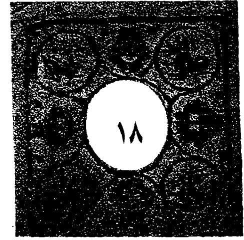
نضيف هنا أسباباً لضعف الروم واستسلامهم وهو انتشار الأمراض بينهم، وقلة الأقوات، وموت عدد كبير من جند الروم المدافعين عن الحصن.

أعطى عمرو بن العاص الأمان إلى الجند الروم الذين سلَّموه الحصن على حياتهم، ووافق على جلاء الجند الروم عن الحصن حاملين معهم أقواتهم. وأما الحصن وما فيه من الأسلحة والذخائر وأمتعة الحرب فتبقى للعرب، وعلى أن يدفع أهل مصر وهم السكان المجاورون للحصن الجزية. وبذلك ازداد نفوذ عمرو بن العاص فى مصر وفى المنطقة الشرقية من مصر السفلى، واستطاع أن يشرف على السفن التى تنقل البضائع فى النيل.

وأما نص الكتاب الذى كتبه عمرو بن العاص لأهل مصر فهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شىء من ذلك ولا يُنتقص. وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم، خمسين ألف ألف، وعليهم ما جنى لصوتهم فإن أبى أحد منهم أن يجيب، رُفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رُفع عنهم بقدر ذلك، ومن دخل فى صلحهم من الروم فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا عليهم ما علينا أثلاثاً فى كل ثلث جباية، ثلث ما عليهم. على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين، وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا فرساً على ألا يغزو ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه».

وافق أهل مصر على هذا الصلح، والتزموا بتنفيذه. وإذا قمنا بتحليل بنود هذا الصلح فإننا نلمس فيه العدالة المطلقة والتسامح والكرم وهى المعانى التى التزم بها الفاتحون المسلمون فى كل مكان فى الأرض. فكفل المسلمون لأهل مصر حرية العبادة والبقاء على دينهم بعد أداء الجزية، وأبقى الفاتحون الأرض الزراعية فى أيدى أهلها يزرعونها ويعيشون من دخلها بشرط أداء جزء من المحصول للدولة فى حالة فيضان النيل بشكل مناسب للزراعة، وإذا نقص ماء النيل يؤدون من المحصول ما يتناسب مع هذا الانخفاض. وأصبح فى مقدور بقايا الروم فى مصر البقاء فى مصر فى ظل عدالة الإسلام وتسامحه، وإذا أرادوا الخروج من مصر فلهم ذلك. وأبقى هذا الصلح لأهل النوبة حرية التجارة فى مصر ببعض الشروط، وبذلك كفل هذا الصلح للقبط العيش فى مصر فى ظل الحكم الجديد بحرية كاملة. وقد أدى هذا الصلح إلى ترحيب المصريين القبط بالحكم الجديد، فعاشوا فى العهد الجديد فى أمن واطمئنان. ومكن هذا الصلح العرب من مواصلة الفتح فى أرض مصر.



فتح الإسكندرية:

لما حقق العرب انتصاراتهم على الروم فى مصر، واستولوا على حصن بابليون زحفوا إلى الإسكندرية - عاصمة مصر البيزنطية - وهى تتصل بالقسطنطينية عن طريق البحر المتوسط، وانضم القبط إلى العرب كقوات مساعدة فى طريقهم إلى الإسكندرية وفى حصارهم لها، وأقاموا الجسور والأسواق، وتطوع فريق منهم للعرب كأدلاَّء على الطرق إلى الإسكندرية.

واجه العرب فى طريقهم إلى الإسكندرية مقاومة من مراكب رومية تعبر النيل فى كوم حمادة، فهزمهم العرب، وواجه العرب مقاومة عنيدة فى النيل عند نقيوس وكفر الدوار ودمنهور، هزمها العرب. وقاد تيودور - قائد الروم القوىّ - فرقة كبيرة فى الطريق إلى الإسكندرية هزمها العرب. وواصل العرب الظافرون زحفهم إلى الإسكندرية حتى بلغوا أسوارها، واستعدوا للحصار؛ ولكن الروم فى الإسكندرية قد ضعفوا بعد وفاة هرقل.. ويزعم بتلر أن القبط قد انضموا إلى الروم فى مقاومة العرب. وهذا القول يتنافى مع الحقيقة التاريخية التى تروى أن القبط تعجلوا

رسم صعود الحصن

التخلص من حكم الروم الظالم المعارض لعقيدتهم، ورأوا فى العرب خلاصاً لهم من نير وظلم الروم.

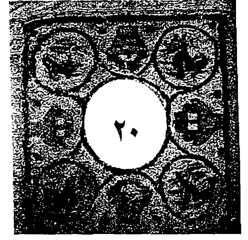
ومهما يكن من أمر فقد هاجم العرب الإسكندرية، وكان هناك اعتقاد بأن المدينة الكبيرة تستطيع الصمود والتصدى للعرب. ومن الطبيعى أن يكون حصار العرب للإسكندرية من ناحية الشرق والجنوب الشرقى؛ إذ إن الشمال مفتوح على البحر، والغرب محاط بالترعة الآتية من النيل، وتردد عمرو بن العاص بسبب أول هجوم قام به على الإسكندرية، واضطر العرب إلى التمركز قرب الإسكندرية، يقطعون حركة الدخول والخروج من وإلى المدينة الساحلية، وعسكر العرب قرب الحصن الذى أسماه العرب حصن فارس، وقدَّم رؤساء القبط للعرب ما يحتاجونه من مؤونة وعتاد وطعام، وحدثت مناوشات بين الفريقين - العرب والروم - كانت تنتهى عادة بعودة الروم إلى المدينة، والعرب إلى خيامهم.

شدَّد عمرو بن العاص هجماته على الإسكندرية حتى هزم الروم عدة مرات، فضعفوا ووهنوا، وتوالت هزائم الروم؛ حتى أن الإمبراطور الجديد الذى خلف أباه هرقل وهو هرقلوناس قرر إرجاع المقوقس الذى استدعاه هرقل للتحقيق معه حول تهاونه فى الدفاع عن مصر وهُزِم أمام العرب وأرسله ليبرم الصلح مع العرب.

طال حصار العرب للإسكندرية حتى زاد على تسعة أشهر مما أقلق بال الخليفة عمر بن الخطاب، فبعث كتاباً إلى عمرو بن العاص يؤنبه على عدم تمكنه من فتح الإسكندرية ويقول: «ولقد عُجبت لإبطائكم عن فتح مصر. إنكم تقاتلون منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحبَّ عدوكم، فإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم. فإذا أتاك كتابى هذا، فاخطب فى الناس وحُضَّهم على قتال عدوهم ورغِّبهم فى الصبر والنية».

اشترك هرقلوناس بن هرقل مع أخيه قسطنطين فى حكم الإمبراطورية البيزنطية بعد وفاة أبيهما هرقل، وأوصى الأخير باشتراك مارتينا - أم الرجلين - معهما فى حكم الدولة. ولم يمض غير قليل حتى توفى قسطنطين، فسعت الإمبراطورة مارتينا على إنهاء حالة الحرب فى مصر حتى تتفرغ لشئون الإمبراطورية وحكمت باسم ابنها هرقلوناس، فأعادت المقوقس إلى مصر، فالتقى بعمرو بن العاص، وعرض عليه الصلح فرحَّب عمرو بن العاص بالصلح، وعُقدت بين العرب والروم معاهدة الإسكندرية، تم بمقتضاها جلاء حامية الروم من الإسكندرية.

من شروط هذا الصلح أن يدفع الجزية كل من يدخل فى العقد - أى العقد المبرم مع القبط والذى يتضمن بقاءهم على دينهم بشرط أداء الجزية - ومن شروط الصلح أن يؤدى القبط الخراج عن أرضهم الزراعية، وعقد هدنة أحد عشر شهراً؛ يرحل خلالها جند الروم من الإسكندرية إلى البحر عائدين إلى بلادهم، وألا يعود الروم بعد ذلك إلى أرض مصر، وكفل العرب لهم حرية



العبادة، والبقاء على الكنائس يؤدى فيهـا القبط شعائرهم بحرية وطمأنينة. وتم الاتفاق على السماح لليهود بالبقاء فى الإسكندرية والإقامة بها. ولكى يضـمن العرب تنفـيذ شـروط الهدنة؛ أخـذوا منهم من الرهائن مـا يكفى لضمان تنفيذه وتطبيقه.

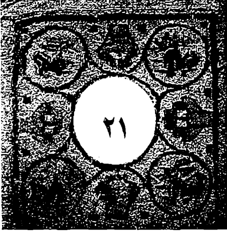
ومات المقوقس خلال شهور الهدنة؛ ولكن فريقاً من الروم ممن غادر الإسكندرية عبر البـحر عاد إلى مهاجـمتها بكل قـوة وعنف، فهزمهم عمـرو بن العاص، وأعاد سيطرته على الإسكندرية. وهذا يدل على قوة العرب وضعف الروم.

اختلف المؤرخـون حول الفتح العربى للإسكـندرية، فبينما يذكـر البعض أن مصر فُـتحت صلحاً؛ إلا أن هناك خـلاف حول فتح الإسكندرية. هل فُـتحت صلحاً أم فُتـحت عنوة، وذكروا آراءً كثيرة فى هذا الموضوع خـلاصتها أن مصر فُتحت صلحاً بدلـيل أن أسرى من القبط وقعوا فى أيدى المسلمين رجالاً ونساءً وصبياناً، وطلب الفـاتحون من عمرو بن العاص أن يقسِّم هؤلاء الناس بينهم على اعتبار أن مـصر فُتحت عنوة، فرفض عمرو بـن العاص، وأرسل إلى عمر بن الخطاب يطلب منه الرأى فى ذلك. فرفض الخليـفة القسمـة، وقال: ذرهم فيئاً للمـسلمين وقوة لكم على جهاد أعدائكم؛ لذلك فرض عمرو بن العاص الخراج على أهل مصر زُرَّاع الأراضى. والجزية على القبط المسـيحيين المصـريين، يؤدى كل رجل دينارين، لا يزاد على واحد منهم، ويُفـرض الخراج على الزُّرَّاع حسب جودة الأرض وخصوبتها وكمية المحصول ونوعه. وبذلك فُتحت مصر صلحاً، واستـثنى فى ذلك الإسكندرية وثلاث قـرى؛ لأن أهل هذه البلاد قـاوموا المسلمين وانضـموا إلى الروم فى التـصدى للعـرب؛ لذلك فإن الإسكندريـة فُتـحت عنوة. على أن العرب عـاملوا أهل الإسكندرية نفس مـعـاملتهم لأهل مـصـر، فأبقـاهم العـرب فى ديارهم، وأبقـوا لهم ممتلكاتهم ونساءهم، وعليهم الخراج والجزية.

والخلاصة أن الإسكندرية رغم فتحها عنوة فإن الـعرب عاملوا أهلها معاملة أهل مصر، أى معاملة البلاد التى فُتحت صلحاً.

ذكر المقريزى أن عمـرو أُعجب بمدينة الإسكندرية ففكر فى اتخاذها عاصـمة لمصر، وكتب بذلك إلى عـمر بن الخطاب، ولما علم الخليـفة أن الماء يحول بـين المسلمين وبين الوصول إليـها، رفض الموافقة على اتخاذ الإسكندرية عاصمة لمصر.

عاد عمـرو بن العاص إلى بابليون من الإسكندرية، ولما كثرت إغـارات بدو الصحراء على منطقة بابليون، أقام حـصناً فى الجيزة لصد هجمات البدو، وعهـد إلى بعض قواده بإخضاع بلاد الصعيد. ولم تنته سنة ٢١هـ / ٦٤٢م حتى أصبحت مصر كلها فى قبضة العرب.



بعد أن أتم عمرو بن العاص فتح الإسكندرية، رأى ضرورة فتح باقى أقاليم مصر، فأرسل إلى الصعيد حملة بقيادة خارجة بن حذافة نجحت فى فتح الصعيد، وإخراج الروم من هذه البلاد سنة ٦٤١م، ولم يبق فى صعيد مصر إلا القليل من الروم. ويمكن القول بأن الصعيد تم خضوعه للعرب دون مقاومة تُذكر.

بقيت بعض البلاد فى شمال مصر السفلى لم تدخل فى الصلح مع العرب وخصوصاً البلاد التى تقع على شاطئ البحر المتوسط، فرأى عمرو بن العاص ضرورة إخضاعها، وأرسل إليها جيشاً، فاتجه إلى الحوف الغربى، وأخضع مدينة إخنا القريبة من الإسكندرية، وأرغمها على التسليم، ثم واصل العرب زحفهم إلى بلهيب فى جنوب رشيد، ودعا العرب أهلها إلى الإسلام، فاعتنقه الكثير منهم، وكلما أسلم فرد حمد العرب الله وكبَّروا فرحاً وسروراً بنصر الله، ودخل أهل رشيد والبرلس فى الصلح مع العرب، وواصل العرب مسيرتهم على شاطئ البحر حتى وصلوا دمياط. وبذلك سيطروا على منافذ النيل إلى البحر، ثم فتح العرب إقليم الحوف قرب دمياط.

كان العرب أثناء وبعد الفتوح لا يعرفون شيئاً عن الفيوم حتى أتاهم رجل من أهلها القبط وذكرها لهم، فأرسل معه عمرو بن العاص جيشاً بقيادة ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصفدى، وهاجم العرب الفيوم على حين غفلة من أهلها، ولم يكن لديهم سلاح ولا جند يدافعون به عن البلدة، فطلبوا الصلح واستسلموا للمسلمين. وتتكون الفيوم من ثلاثمائة قرية، وبعث عمرو بن العاص قيس بن الحارث إلى الصعيد، فسار حتى بلغ موضعاً سُمى القيس باسمه.

الدلتا والصعيد:

قلنا إن العرب وضعوا فى حسبانهم ضرورة إتمام فتح مصر ففتحوا بلاد الصعيد، وفتحوا بعض بلدان الدلتا، ولم يبق لهم سوى دمياط والمنزلة والقرى التابعة لهما على اعتبار أن هذه البلاد لها أهمية إستراتيجية، وخصوصاً دمياط التى تقع على البحر المتوسط الذى يسيطر عليه الروم، وقد يتخذونه وسيلة لمهاجمة مصر من ناحية دمياط كما حدث فيما بعد من الروم والصليبيين.

كان الهاموك يحكم دمياط نيابة عن المقوقس، وفى أثناء الفتح العربى امتنع الهاموك فى دمياط، وقاوم المسلمين، فأرسل إليه عمرو بن العاص جيشاً بقيادة المقداد بن عمرو التميمى - أحد كبار القادة المسلمين الذين اقتحموا حصن بابليون - وهزم العرب الهاموك. ولما أشار أصحابه بأن العرب لم ترد لهم راية منذ أن قدموا إلى مصر، وأنهم هزموا كل جيوش الروم التى اعترضتهم فى بلاد الشام ومصر، رأى الهاموك مصالحة العرب حقناً للدماء وحماية للحريم، وحفاظاً على الأمن والممتلكات، ولكنه عاد وأغلق المدينة، فوثب العرب على سورها، وكبَّروا، وانضم شطا بن

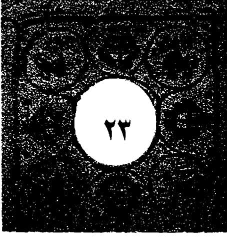
الهاموك إلى العرب، وما زال بأبيه حتى استسلم. وكتب عمرو بن العاص بالنصر إلى الخليفة عمر بن الخطاب. وبذلك فتح العرب بقيادة المقداد بن عمرو دمياط، وترك المقداد حامية عربية فى دمياط، وانتقل مع جيشه إلى البلاد المجاورة لفتحها وضمها إلى ولاية مصر الإسلامية، وواصل مسيرته مجاهداً فى سبيل نشر الإسلام حتى فتح دميرة وأشمون وطناح ودقهلة، واشترك شطا بن الهاموك فى حركة الجهاد. وكان يحكم تنيس رجل يُسمى أبو ثور. قاوم المسلمين بكل عنف وضراوة، ولكنه هُزم هو وجنده، واستسلموا للعرب، ودخلت تنيس فى حوزة جند الإسلام. أما شطا فظل يقاتل أهل تنيس حتى استُشهد قرب دمياط، وقبره يُزار حتى اليوم. على أن الروم لم يستسلموا لفقدانهم دمياط لأهميتها الإستراتيجية وموقعها الفريد على البحر المتوسط، فتعددت هجماتهم عليها فى عصر الأمويين والعباسيين وخطفوا النساء والأطفال. ولكن انتهت هذه الحملات بالفشل، ورُدوا على أعقابهم خاسرين.

أما المقداد بن عمرو، فقد خرج مجاهداً فى المنزلة وما حولها - وهى بلاد كثيرة المستنقعات - فتغلب على كل مقاومة اعترضته، وسيطر على بحيرة المنزلة، وظل يجاهد حتى استُشهد، وأسفرت جهوده العظيمة على سيطرة العرب على شمال الدلتا. وتوفى هذا المجاهد فى أرض المنزلة، ولا تُعرف سنة وفاته، وإن كان أهل المنزلة يقدرون سنة وشهر وفاته تقديراً نشك فى صحته. ويخلطون بين المقداد والقعقاع، ويزعمون أن القبر للقعقاع وليس للمقداد.

وأكمل العرب فتح الدلتا، فاستولوا على دميرة وهرقلة وطناح ومنوف. وبذلك تم فتح مصر فى فترة سنتين وأربعة أشهر.

على أن نفوذ العرب لم يستقر فى مصر إلا فى سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م، فقد نقض الروم صلحهم مع العرب، وعادوا إلى مهاجمة الإسكندرية وسيطروا عليها، ثم تابع الروم زحفهم، وتوغلوا فى بلدان الوجه البحرى. ولما تحرج موقف العرب فى مصر، سأل أهل مصر الخليفة عثمان بن عفان بأن يرسل عمرو بن العاص إلى مصر لإنقاذها من توغل الروم فيها، واقتنع عثمان برغبة أهل مصر وأرسل عمرو بن العاص، وولاه الإسكندرية لأنه يعلم مع معاصريه من العرب بأنه يمتلك خبرة كبيرة فى محاربة الروم، وصاحب مقدرة قتالية جعلته من كبار قواد عصره. وفعلاً تمكَّن عمرو بن العاص من إخراج الروم من مصر مخذولين مدحورين، وطردهم من الإسكندرية، وعادت مصر إلى وضعها الأول ولاية عربية خالية من كل نفوذ للروم. وبذلك تم فتح مصر فى سنتين وشهرين.

كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يصف مصر قائلاً:

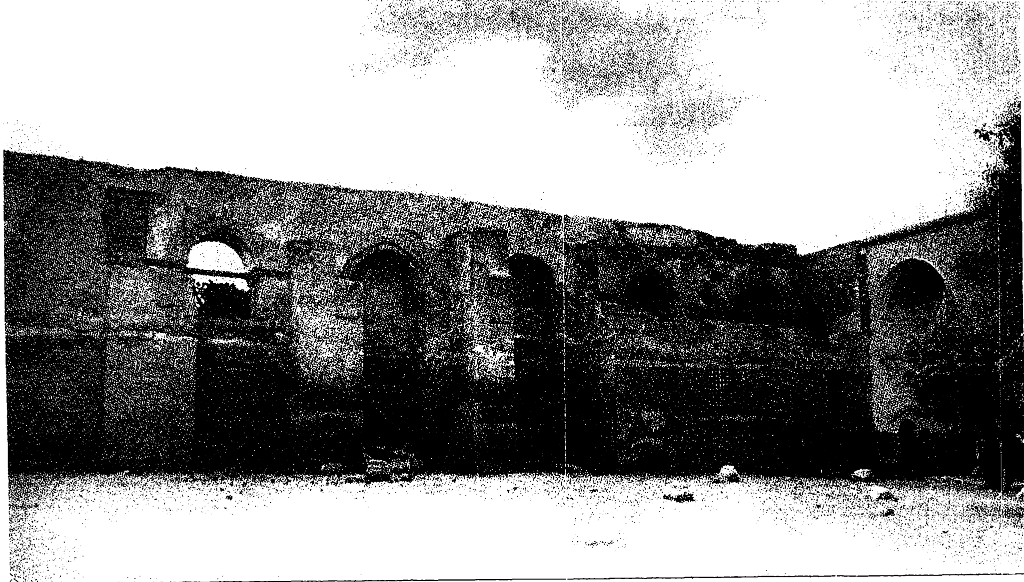


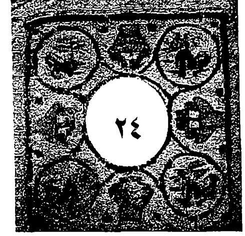
«ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألنى عن مصر: اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر؛ يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر؛ يخط وسطها نيل مبارك الغدوات، ميمون الروحات؛ تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر؛ له أوان يدر حلابه، ويكثر فيه دبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم عجاجه، وتعظمت أمواجه فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن فى المخايل ورق الأصائل؛ فإذا تكامل فى زيادته، نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته، وطما فى درته؛ فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب؛ لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم، فإذا أحدق الزرع وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى؛ فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هى عنبرة سوداء، فإذا هى زمردة خضراء، فإذا هى ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء، الذى يُصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها، ألا يُقبل قول خسيسها فى رئيسها، وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يُصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها؛ فإذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال؛ والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل».

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لى خبراً كأنى أشاهده.

أتم العرب فتح الصعيد حتى وصلوا أسوان، ولم يستطيعوا إخضاع النوبة وتعددت إغاراتهم على مصر. وكان لا بد للعرب بعد أن أتموا فتح مصر؛ إخضاع بلاد النوبة لتأمين حدود مصر الجنوبية، وكان أهل النوبة يشنون الغارات على مصر لنهب محاصيلها وثرواتها.

حصن مسجد عمرو بن العاص





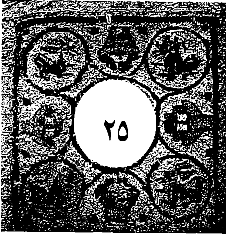
أرسل عمرو بن العاص، عبـد الله بن سعد بن أبى سَرْح إلى النوبة سنة ٢٠هـ أو ٢١هـ فى عشرين ألف مقاتل، فقضى فيها وقتاً طويلاً يعمل على إخضاع أهلها، فاستدعاه عمـرو بن العاص فعقد معهم صلحاً، وعاد إلى مصـر؛ ولكنهم نكثوا الصلـح بعد عزل عـمرو بن العـاص، وتعددت غزواتهم وأعمالهم التـخريبية فى الصعيد، فخربوا البـلاد وقتلوا الكثير من أهل الصعيد، فغزاهم عـبد الله بن سعد مرة أخرى، وكان وقتها أميراً على مـصر من قبل عثمان ابن عفـان سنة ٣١هـ، وحاصرهم فى مديـنة دنقلة حصاراً شديداً، ورمـاهم بالمنجنيق، ولم يكن لهم عهد به فـضعفوا ووهنوا، وطلب ملكهـم قليدوروت الصلح، وخرج إلى عبـد الله بن سعد يُلِحُّ عليه فى الصلح، فـصالحه على ثلاثمـائة وستين عبداً فـى السنة، ووعده عبد الله بن سـعد بحبوب يرسلها إليه لما شكا إليه قلة القوت، وجاء فى كتاب الصلح:

«أن عبد الله بن سعد جعل لأهل النوبة أماناً وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة، إنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى ﷺ ألا نحاربكم، ولا ننصب لكم حرباً ولا نغزوكم؛ ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم. على أن تدخلوا بلدنا مجـتازين غير مقـيمين فيه، وندخل بلدكم مجتـازين غير مقـيمين فيـه، وعليكم إعادة كل مسـلم أو معاهد يلجـأ إليكم هارباً من مصـر، وعليكم حفظ المسجـد الذى بناه المسلمـون فى فناء مدينتكم، ولا تمنعـوا منه مصليـاً، وعليكم تنظيفـه وإنارته، وعليكم بتقديم ٣٦٠ رأساً من العبيد من الشـباب، لا يكون فيهم شيخ ولا طفل، وتدفعون ذلك إلى والى أسوان. وإذا أتانا نوبى ثائر عليكم فلن نلتـزم برده إليكم، وإذا خرجتم على هذا الصلح عدنا إلى ما كنا عليه».

وهذه المعاهدة سميت بالبقط وهو ما يُرسـل إلى والى مصر من الدقيق. والجدير بالذكر أن النوبة أرسلوا إلى عمـرو بن العاص أربعين رأساً من الرقيق، وبعث إلـيهم عبد الله بن سـعد ما وعدهم به من الحبوب كالقمح والشعير والعدس والثياب والخيل، وأرسل النوبة إلى مصر ثلاثمائة وستين رأسـاً من الذكور والإنـاث، ولوالى مصر أربـعين رأساً، ويدفع والى مـصر لهم الحـبوب الواردة فى كتاب الصلح.

ولما انتصر العرب فى مصر، ولُّوا وجوههم شطر الغرب حتى لا يعاود الروم مهاجمتهم من هذه الناحية. وبذلك فإن الضـرورة الحربية والإستراتيجية التى اضطرت العـرب إلى فتح مصر من أجل المحافظة على امتلاكهم لبلاد الشام، هى نفس الضرورة التى حملت العرب على غزو برقة.

وكان فتح برقـة سهلاً ميـسوراً، فالطريق إليها بـه مدائن ومنازل تيسر للفـاتحين تحركاتهم، وكان هذا الطريق بمثـابة نزهة للفرسان العرب. ولم يـواجه العرب مقـاومة تُذكر، وفتحـوا برقة،



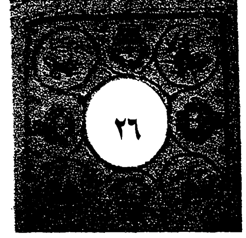
واستسلمت بصلح، على أن تؤدى للعرب ثلاثة عشر ألف دينار جزية سنوية. وبفتح برقة أصبحت حدود مصر الغربية آمنة من خطر بيزنطى محتمل.

تابع العرب مسيرتهم حتى بلغوا طرابلس الغرب - وهى مدينة حصينة - فتحها العرب عنوة، وأرسل عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى مواصلة الفتح فى بلاد المغرب والمسير إلى إفريقية (تونس) وبينها وبين طرابلس تسعة أيام. على أن الخليفة عمر بن الخطاب رفض، وخشى من توغل العرب فى بلاد المغرب، لما قد يواجهونه من مقاومة أهل إفريقية العنيدة، وحدث ذلك سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م.

نتائج الفتح العربى لمصر:

تعرضت مصر طوال تاريخها لكثير من الغزوات لعظم موقعها وعبقرية مكانها، فتعرضت لغزوات الهكسوس والفرس واليونان والرومان والبيزنطيين؛ ولكنها قاومت الغزاة، فطرد المصريون الهكسوس، وحرروا أنفسهم من باقى الغزاة، واحتفظت مصر بقوميتها، ولم تستسلم لمستعمر أو تنقاد لدخيل. وإذا كان المصريون قد تمسكوا بعقيدتهم المسيحية القائلة بأن للمسيح طبيعة واحدة، ورفضوا مذهب الدولة البيزنطية التى حاولت فرضه عليهم فإن ذلك كله يرجع بالإضافة إلى العوامل العقائدية، إلى عوامل قومية هامة؛ إذ حافظ المصريون على عقيدتهم النابعة من أنفسهم، ورفضوا عقيدة المستعمر الدخيل، وتحملوا فى سبيل ذلك التضحيات وألوان التعذيب والذل. ولكن المصريين رحبوا بالحكم العربى الجديد، ورأوا فيه خلاصاً مما يقاسونه من بطش الروم. ولما لمسوا من العرب تسامحهم وعدم تدخلهم فى معتقداتهم، وأنهم لم يفرضوا دينهم على القبط.. رحبوا بالعرب، واندمجوا معهم، وأقبلوا على دخول الإسلام بحرية واقتناع.

وبمرور الزمن دخلت فى القومية المصرية خصائص جديدة، تتمثل فى **دخول معظم المصريين فى الإسلام**، واندماجهم فى الثقافة العربية، فأصبحت شخصية مصر بعناصرها الأساسية التى ورثتها عبر القرون، وتأثرت فيها بالشعوب التى اختلطت بها؛ تضيف إليها فكراً جديداً وهو الإسلام، وثقافة عربية، ولغة جديدة هى العربية. **إذن تغيرت الشخصية المصرية وأصبحت شخصية مصرية عربية إسلامية**، واندمجت بسببها فى الدولة العربية الإسلامية، الأموية أو العباسية؛ لذلك تغيرت نظرة المصريين إلى العرب، ورأوا فيهم إخوة يعيشون معهم على قدم المساواة فى الدولة الإسلامية الكبرى وفى عالم الإسلام الكبير، يشتركون معهم فى المحافظة على الإسلام وفكره وثقافته ولغته العربية. وبمرور الزمن أصبحت مصر قبلة لطلاب العلم يفدون إليها من مختلف بلاد الإسلام.



تغير الوضع السياسى لمصر بعد الفتح العربى، فبعد أن كانت ولاية بيزنطية يحكمها الروم - وعاصمتهم القسطنطينية - أصبحت ولاية عربية إسلامية يحكمها والٍ من قِبل الخليفة فى المدينة المنورة - حاضرة الدولة العربية الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين - أو دمشق - حاضرة الدولة الأموية - أو بغداد - حاضرة الدولة العباسية - ولم تكن صلة الولاية بالدولة صلة الحاكم بالمحكوم؛ بل كانت الولاية تتساوى مع الدولة فى الحقوق والواجبات. وهذا ما وجد فيه المصريون أنفسهم أفضل حالاً وأرفع قدراً مما كانوا عليه فى عصور الرومان واليونان والبيزنطيين؛ فلقد ساوى الإسلام بين المسلمين فى كل مكان. وبمرور الزمن عادت إلى مصر شخصيتها المستقلة، فقامت فيها الدولتان الطولونية والإخشيدية، ترتبطان ببغداد برباط شكلى. وعادت مصر إلى استقلالها عن الدولة الإسلامية فى العصر الفاطمى؛ بل أصبحت مصر دولة كبرى، تسيطر على كثير من الولايات.

حدث تغير اجتماعى واقتصادى فى مصر، فمن الناحية الاجتماعية بعد أن كانت عناصر السكان فى مصر هى الروم والقبط واليهود، ولا توجد ثقة بين هذه العناصر لأن القبط - كما أشرنا - يكرهون الروم المخالفين لهم فى المذهب والعقيدة، والذين اضطهدوا رؤساءهم الروحيين. أما اليهود فيتبعون عادة المستعمر القوى حرصاً على مصالحهم الاقتصادية.

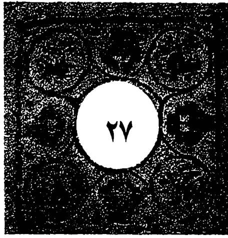
وتغير الوضع الاجتماعى فى ظل الحكم العربى، فأصبح المجتمع يتكون من العرب والقبط الذين بقوا على دينهم، والمسلمين المصريين الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً، والمولدين - خلاصة اندماج العرب بالقبط -. وضم هذا المجتمع بقايا الروم فى مصر، وأصبحوا مواطنين عاديين فى ظل الحكم العربى، ولم يعودوا سادة يعززهم ويقويهم المستعمر الرومى.

والعلاقة بين العرب والقبط حددها تسامح الإسلام، فعاشوا فى ظل الحكم العربى فى عدل وكرم.. من شاء دخل الإسلام، ومن شاء بقى على دينه، وتم الإفراج عن رجال الكنيسة وعادوا إلى مناصبهم، وعاد رئيسهم البطريرك بنيامين إلى كرسيِّه البابوى.

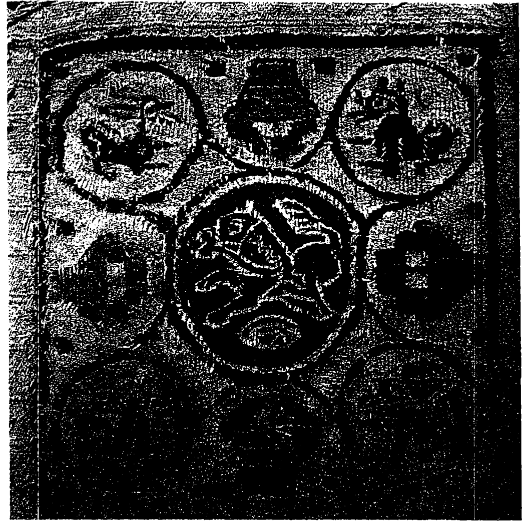
كذلك تغيرت العادات الاجتماعية فى ظل الإسلام؛ فحدد الإسلام العلاقة بين الناس على أسس أخلاقية سليمة، وساد الحكم بين الناس بالأسس والشريعة الإسلامية، وساد العدل، وانتهى الظلم. وظهرت عادات لقيت ترحيباً من المصريين مثل الزهد فى الدنيا والتصوف.

أما عنصر المولدين فهو عنصر متميز يجمع بين العادات المصرية الأصيلة والتقاليد العربية والأخلاق الإسلامية، وهذا العنصر هو حامل شعلة الحضارة الإسلامية فى مصر.

كذلك تغير الوضع الاقتصادى فى مصر، فأصبحت مصر جزءاً من الدولة الإسلامية الكبرى، يتنقل فيها التجار بحرية كاملة وتتبادل الولايات السلع فيما بينها، فازدهرت التجارة

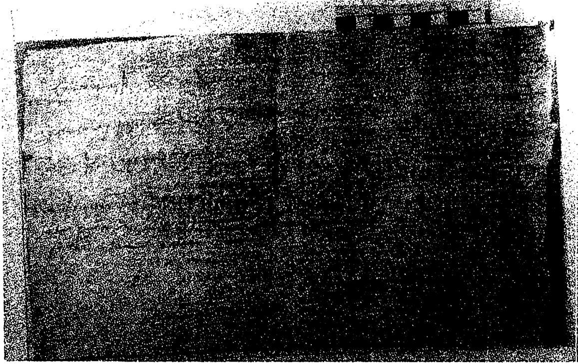


وراجت فى مصر؛ لأن مجال التجارة اتسع أمام التجار المصريين، فتعددت سلع التجار من كافة بلاد الإسلام فى مصر، واشترت الولايات الإسلامية السلع المصرية مثل: ورق البردى والأقمشة الحريرية والقطنية والكتانية، وشعر الفلاح المصرى



قطعة من الأقمشة المصرية

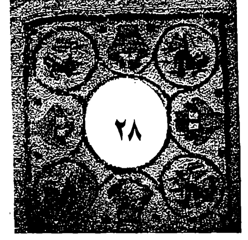
بالأمان بعد أن ترك العرب الأرض فى أيدى المصريين يزرعونها ويؤدون خراجها، فازدادت الثروة الزراعية. كما عاش الصناع فى أمان واطمئنان فراجت مصنوعاتهم، وشقَّت طريقها إلى الأسواق فى الدولة الإسلامية الكبرى وغيرها.



أقدم بردية فى العهد العربى – أهناسيا مصر – القرن الأول الهجرى

ومصر بحكم موقعها الفريد أو العبقرى، بعد أن اعتنقت الإسلام، وتحررت من حكم الروم؛ كان عليها أن تؤدى رسالتها العالمية فى نشر الإسلام واللغة العربية والفكر الإسلامى فى العالم المحيط بها. **فمن مصر عرف الإسلام ولغته العربية** طريقه إلى بلاد المغرب، برقة وطرابلس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وعبوراً بجبل طارق إلى شبه الجزيرة الأيبيرية أو ما سُمى بالأندلس، وانطلق الفكر الإسلامى عابراً من بغداد والمشرق إلى المغرب والأندلس بعد أن مر بمصر وتشبَّع بثقافتها وفكرها.

ولم يقتصر دور مصر فى نقل الإسلام وثقافته ولغته إلى المغرب؛ بل عبر – من بلاد المغرب – الصحراء جنوباً وافداً إلى أفريقيا السوداء، وانتشر الإسلام وفكره ولغته فى أفريقيا حيث نشأت فيها دول إسلامية يزدهر فيها الفكر الإسلامى.



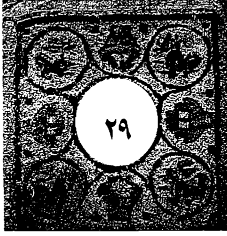
ومن نتائج الفتح العربى لمصر، **إبراز عبقرية ومقدرة عمرو بن العاص** الذى تمكن من فتح مصر على الرغم من اتساع أراضيها وصعوبة مسالكها، وتعدُّد فروع النيل التى تعرقل حركة الجيش الفاتح خصوصاً أيام الفيضان. ونضيف إلى ذلك تفوق جند الروم فى السلاح والعتاد. ويعتقد البعض أن العرب الفاتحين كانوا مجرد رجال متحمسين ساعدهم الحظ وتفكُّك جند الروم، وعدم انضمام القبط إليهم فى عملية الفتوح.

ولكن الحقيقة التاريخية أثبتت عكس ذلك، وأثبتت أن العرب بقيادة قائدهم عمرو بن العاص خططوا لهذا الفتح، ودرسوا مسالك مصر وطرقاتها وأحوال المصريين وجغرافية البلاد المصرية، واتخذوا رجالاً يعرفون اللغتين العربية والقبطية لغة المصريين، واليونانية لغة الروم؛ ليسهل عليهم الاتصال بهؤلاء الناس، كما اتخذوا الأدلاَّء لتيسير وصولهم إلى المواقع التى يعتزمون الوصول إليها. ويؤيد ذلك توغلهم فى الأراضى المصرية حسب ترتيبها من العريش إلى حصن بابليون أو عين شمس ثم الإسكندرية. كما أن العرب اصطنعوا عملاء يتجسسون أخبار العدو، ويبلغون العرب عن خططهم وتحركاتهم، واتخذوا رجالاً يمهدون الطرق ويزيلون ما بها من عقبات ويحفرون الآبار لتيسير استخدام الماء للإنسان والحيوان.

ولا يغيب عن أذهاننا أن العرب الزاحفين إلى مصر زحفوا إليها كمجاهدين يدافعون عن دينهم، ويسعون إلى نشره؛ لأن الإسلام أقرَّه الله للعالم أجمع، فواجب المسلم أن يخرج من جزيرة العرب مجاهداً لنصرة دينه الذى أعزَّه الله به. والإنسان إذا حارب من أجل عقيدة أو دين يكون أقوى من الذى يحارب كجندى مرتزق يتقاضى راتباً على عمله ويخشى الموت ويحرص على الحياة. أما المسلم الذى يحارب من أجل دينه فهدفه السامى يكسبه قوة ومقدرة، ولا يخشى ما يخشاه الجندى المرتزق؛ لا يخشى الموت، لأن الله بشَّر المجاهدين فى سبيله والذين يُقتلون فى سبيله بأنهم أحياء عند ربهم يُرزقون، فإذا استُشهدوا فى القتال فمأواهم الجنة ثواباً من عند الله، والله عنده حسن الثواب.

ارتبط تاريخ مصر الإسلامية بعمرو بن العاص، وهو أحد القادة المسلمين الذين غيَّروا مجرى تاريخ البشرية، **وأعادوا رسم الخريطة العالمية**. فبعد أن كان العالم يضم إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم، ودولاً أوروبية مثل دولة الفرنجة ودولة القوط، تغيَّر شكل العالم بواسطة هؤلاء القادة الذين أعزَّهم الإسلام.

سقطت إمبراطورية الفرس، وتحولت إلى ولايات تتبع الدولة العربية الإسلامية، وفقدت إمبراطورية الروم أهم بلدانها وهى الشام ومصر ثم بلاد المغرب. وسقطت فيما بعد دولة القوط فى الأندلس، وحارب المسلمون دولة الفرنجة.



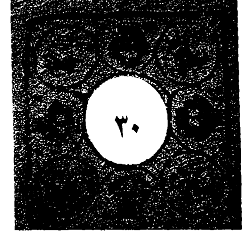
والخلاصة أن هؤلاء القادة - مثل سعد بن أبى وقّاص وخالد بن الوليد وأبى عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص - كانوا العامل الرئيسى فى قيام الدولة العربية الإسلامية التى تمتد من الصين شرقاً إلى جنوب فرنسا غرباً.

ومن هؤلاء القادة العظام عمرو بن العاص - موضوع حديثنا - فتح فلسطين بما فيها القدس ثم فتح مصر، وكان تأثيره فى مصر قوياً، فارتبطت أعماله ومواقفه بالحياة المصرية، حوّلها إلى ولاية عربية إسلامية. والذى يتأمل فى حياة المصريين يلاحظ الارتباط القوى بينها وبين عمرو بن العاص. فإذا شاهدت مساجد مصر ومآذنها، وإقبال الناس عليها يؤدون فرائضهم الدينية، وازدحام المساجد فى صلاة الجمعة، ورحلات الحج، وتحوُّل المساجد الكبرى فى مصر إلى جامعات لدراسة علوم الدين واللغة؛ فاعلم أن الفضل فى ذلك يرجع إلى عمرو بن العاص. والملاحظ أن لغة المصريين تحولت من القبطية واليونانية إلى العربية. والغالبية العظمى فى مصر تعتنق الإسلام. وعامة الناس فى مصر مخلصون لدينهم ولعقيدة التوحيد. والمآذن ينطلق من فوقها أصوات المؤذنين خمس مرات فى اليوم. وأخلاقيات الناس بصفة عامة تنبثق وتتأثر بدين الله. والفضل فى ذلك يرجع إلى عمرو بن العاص منشئ مصر الإسلامية.

لذلك ارتبط تاريخ مصر بعمرو بن العاص، وهذه حقيقة لا يعيها ولا يفهمها العوام من أهل مصر. وقد يصلُّون فى جامع عمرو بن العاص - الذى شيده - دون أن يذكروا هذا القائد العظيم.

وشهدت مصر غزوات الكثير من الطامعين؛ ولكنهم لم يتركوا آثاراً تُذكر فى تاريخ مصر؛ لذلك يمكن القول بأن عمرو بن العاص فتح مصر ولم يستول عليها، لأن فتح مصر يعنى أنه أتى إليها مُبشِّراً بدين جديد وعهد جديد، والدين الجديد فيه الخير والصلاح والأمن للمصريين. أما الغزو - مثل الغزو الرومانى - فالمقصود منه الاستيلاء على البلاد والانتفاع بخيراتها وثرواتها، ولا يهمه إجراء تغييرات تنفع الناس؛ لأنه يستخدم الناس والبلاد لمطامعه الشخصية.

وهناك نظرية خاطئة تقول بأن انتصارات العرب وتفوقهم تعود إلى التغير الحضارى وانتقاله من شعب إلى شعب أو من أمة إلى أمة، كما حدث للمتبربرين فى أوروبا الذين أسقطوا الإمبراطورية الرومانية، وأقاموا دولاً مثل الدولة المروفنجية والدولة الكارولنجية ودولة القوط. والعرب أسقطوا الإمبراطورية الفارسية، وانتزعوا من الدولة البيزنطية أهم ممتلكاتها؛ فلا صحة لنظرية أن هناك تطوراً يتمثل فى غزو بدو الصحراء للأرض الخضراء. والفتح العربى تم بسبب تفوق العرب الذين ازدادوا قوة ومقدرة بفضل الإسلام، وهو الدين العالمى الذى يجب على كل مسلم الجهاد لنشره والدفاع عنه.



كان لا بد لعمرو بن العاص - بعد أن أتم فتح مصر - أن يتخذ لها حاضرة يتركز فيها العرب الفاتحون، وتكون لهم قاعدة لحكم مصر ومقراً لنشر الإسلام ورسالته بين أهلها. والإسكندرية لا تصلح لأنها تقع على البحر المتوسط الذى يسيطر عليه الروم، فقد يهاجمون الإسكندرية من هذا البحر. ويفصل الإسكندرية عن المدينة المنورة - حاضرة دولة الخلافة - ماء؛ لذلك اختار عمرو بن العاص حاضرة جديدة لمصر فى الأراضى المحيطة بحصن بابليون أو ما يُسمى الآن مصر القديمة. وهذا الاختيار يتمشى مع الحقيقة القائلة بأن أفضل مكان يصلح لأن يكون حاضرة لمصر هو موضع التقاء الوجهين البحرى والقبلى، فاتخذ الفراعنة فى معظم عصورهم منف أو منفيس، واتخذ العباسيون العسكر بعد الفسطاط، واتخذ الطولونيون القطائع، وأخيراً اتخذ الفاطميون القاهرة ولا زالت عاصمة الدولة إلى اليوم.

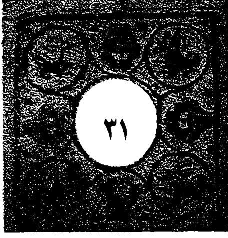
ومهما يكن من أمر فقد حدد عمرو بن العاص موقع الحاضرة الجديدة، وشرع فى ذلك سنة ٢١هـ / ٦٤٢م، وعهد إلى بعض رجاله بتحديد خطط القبائل، ومنها خطط أهل الراية - جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وأشجع وغفار وجهينة وثقيف وعبس - وسُموا بذلك لأن كل جماعة من هؤلاء لا تكفى للانفراد بخطة خاصة بها، فجمعهم عمرو بن العاص فى خطة محيطة بالمسجد.

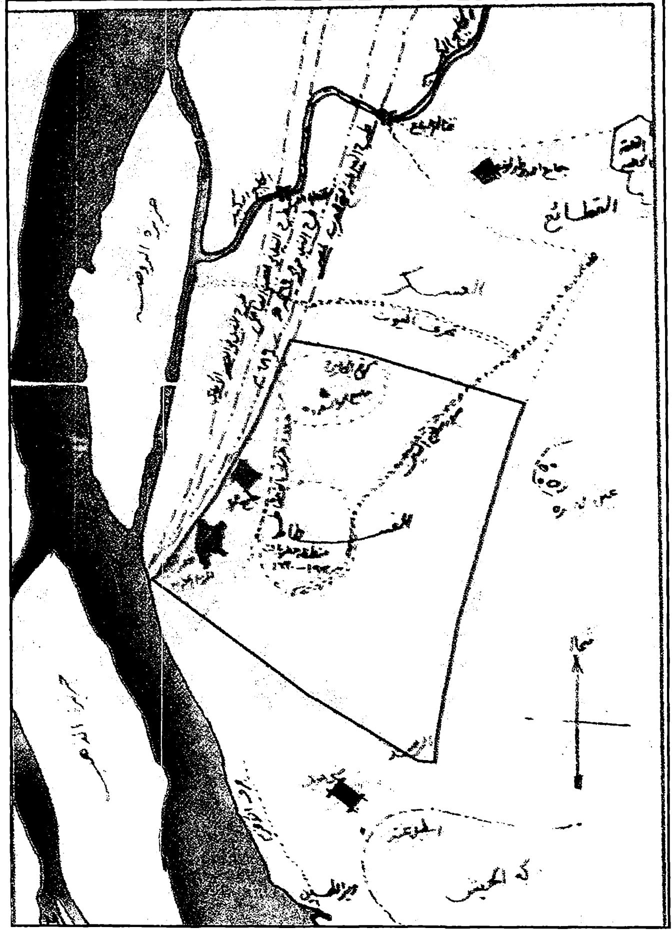
يلى خطة الراية خطة مهرة - قوم من قضاعة - وتقع خطتها قبلى خطة الراية، يليها خطة تجيب وأفرادها من بنى عدى؛ ثم خطة لخم وخطة جذام، وبطن من لخم سُموا راشنة، وهى متاخمة للخطة التى قبلها؛ ثم خطط أهل الظاهر وينزل فيها العتقاء، وكانوا أسرى عند الرسول ﷺ وأعتقهم، ونزل بها جماعة من العراق أُبعدوا عن البصرة.

يلى ذلك خطة الفارسيين - بقايا جند باذان عامل كسرى على اليمن - وقد أسلم وأسلم قومه بعد أن دعاه الرسول إلى الإسلام.

يلى تلك الخطط خطة مذحج ثم خطة غطيف وخطة وعلان وخطة يحصب وخطة رعين وخطة ذى القلاع وخطة المفاخر وخطة سبأ وخطة الرحبة وخطة بنى وائل وخطط الحمراوات الثلاثة.

اختلف المؤرخون حول تسمية **الفسطاط**، فيرى البعض أن موضع الفسطاط كان مدينة يونانية قديمة تُسمى Fustatum، ولكن الأصح أن هذه الحاضرة الجديدة سُميت باسمها هذا نسبة إلى فسطاط عمرو بن العاص الذى هو أهم فساطيط أى مخيمات الجند المقيمين حوله. وكانت خيمة أو فسطاط عمرو بن العاص مركز القيادة؛ لذلك سُميت الحاضرة الجديدة بهذا الاسم؛ إذن الفسطاط أول حاضرة لمصر الإسلامية.

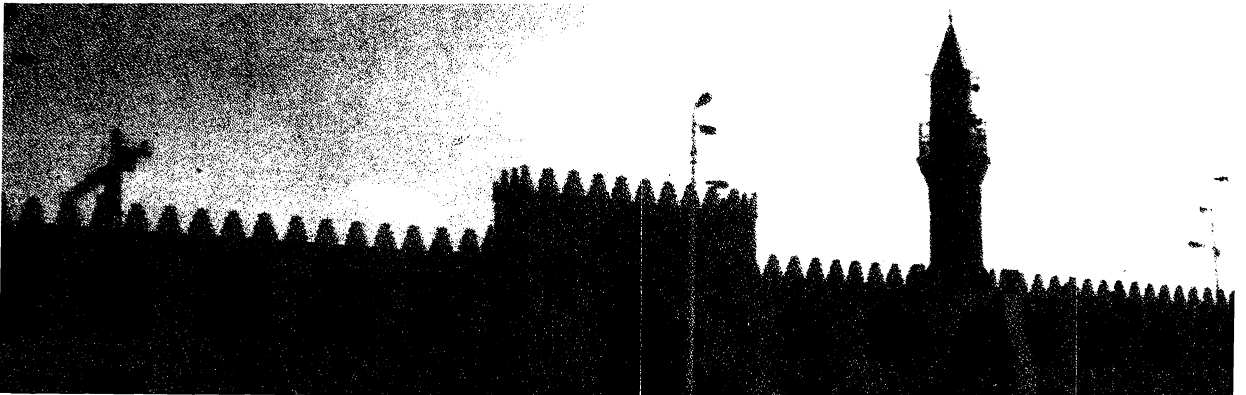


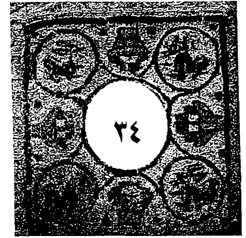


خريطة منطقة مصر القديمة - الفسطاط

والفسطاط فى طريق الصحراء، واتصالها بالمدينة المنورة سهل ميسور. وأقامت القبائل فى الخطط التى حددها لهم عمرو بن العاص، وأقاموا الدور، وشيَّد عمرو بن العاص داراً بجوار مسجده. وموضع الفسطاط مجاور لحصن بابليون، ويقيم فيه أصلاً بعض القبط من أهل مصر، وامتدت حول الجامع من ناحية الشرق والشمال والجنوب، واتسعت خطط الفسطاط بعد هجرة العرب إليها بعد الفتح. وأقام بين هذه الخطط أو حولها الذين كانوا فى هذه المواضع قبل الفتح، أو الذين اجتذبتهم الحركة العمرانية فى الحاضرة الجديدة ونشاط حركة التجارة، واشتغلوا بالزراعة والصناعة. وأبقى العرب على الكنائس والأديرة فى الحاضرة الجديدة.

جامع عمرو بن العاص





من شرقيه مما يلى دار عمرو بن العاص، وزاد من بحريه، وجعل له رحبة فى الناحية البحرية منه، كان الناس يجلسون فيها. وجعل مسلمة بن مخلد للمسجد فى أركانه الأربعة أربع مآذن، وفرشه بالحصر بدلاً من الحصاة. وزاد فيه من ناحية الغرب - أمير مصر عبد العزيز بن مروان - وأدخل فيه الرحبة التى كانت بحريه، ولم يجد فى شرقيه موضعاً يوسِّعه به. وأمر والى مصر عبد الله بن عبد الملك بن مروان برفع سقف الجامع وإعادة بنائه سنة ٩٤هـ / ٧١٣م.

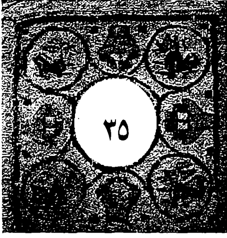
وزاد فيه عبد الله بن طاهر بن الحسين - أمير المؤمنين فى عهد الخليفة المأمون - سنة ٢١٢هـ / ٧٩٧م، ونشب فيه حريق فى عهد أحمد بن طولون، خرَّب بعض جوانبه. وأعاده خمارويه بن أحمد بن طولون إلى ما كان عليه، ونُقشت أكثر عمده فى عصر الإخشيديين، وطُوِّقت بأطواق من الفضة. وفى القرن الرابع الهجرى كان المسجد مزخرفاً وفى حالة جيدة من نقش وزخرفة.

أدى جامع عمرو بن العاص دوره فى ازدهار الفكر الإسلامى، فكانت مجالس العلم تُعقد فيه طوال اليوم، ويقبل طلاب العلم إلى هذا المسجد منذ فجر تاريخه لتلقى العلوم وحضور مجالس العلم التى كانت تُعقد فيه طوال اليوم منذ صلاة الفجر حتى صلاة العشاء. ولا يزال هذا المسجد إلى اليوم قائماً كمركز لتاريخ الإسلام فى مصر وازدهار الفكر الإسلامى فيه.

وبعد أن أتم عمرو بن العاص تشييد مسجده، خطب فى الناس قائلاً: «إن رسول الله ﷺ قال: إن الله سيفتح عليكم مصر، فاستوصوا بقبطها خيراً، فإن لكم منهم صهراً وذمة، فكُفُوا أيديكم وعفُّوا فروجكم، وغُضُّوا أبصاركم، ولا أعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه، واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك، واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة، لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم إليكم وإلى داركم - معدن الزرع والمال والخير - فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد الأرض؛ لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم، فإذا يبس الزرع وانقطع الورد من الشجر فحيَّ إلى فسطاطكم على بركة الله. ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق من سعته أو عسرته».

الجيزة:

لم تكن الفسطاط هى المدينة الوحيدة التى أنشأها عمرو بن العاص، بل شيَّد مدينة الجيزة، ومعناها الناحية والجانب، وجمعها جيز، والجيز جانب الوادى، وقد يُقال الجيزة. والجيزة اسم لقرية بجانب النيل من ناحية الغرب تجاه الفسطاط، سوقها يوم الأحد؛ حيث يجتمع فيه الكثير من الناس.



فضلت قبـائل همدان اليمنية ومن والاها، الجيزة، فكتب عـمرو بن العاص بذلك إلى عـمـر بن الخطاب، فـجـاء جـوابه: «كـيف رضـيت أن تفـرق أصـحابـك، وكيف ترضـى أن يكون بينك وبينهم بحـراً، ولا تقـدر على إغاثـتـهم إذا نزل بهم مكروه، فاجمـعهم إليك». ولكن القـوم أصروا على البقاء فى الجيزة، وشيَّـد لهم عمرو بن العاص حصناً سنة ٢١هـ / ٦٤٢م، وأتمه سنة ٢٢هـ / ٦٤٣م، ونزل بالجـيزة - بالإضافـة إلى همدان - يافع وذو أصـبح وطائفة من الحجـر، وجعل عمـرو بن العاص حامـية فى الجيـزة لحماية العـرب، وتكون خطاً دفاعـياً لمدينة الفسـطاط. وتضم هذه الحامـية جنداً من همـدان وذى أصبح ويافع بن زيد بن رعين وطائـفة من الأزديين من بنى حجر وطائفة من جيشه.

اتخذ عمـرو بن العاص خطة ذى أصبح من الشرق، وامتدوا إلى الغـرب حتى بلغوا أرض الحرث والزرع، واختط يافع بن الحارث بن رعين وسط الجيزة، وبُنى الحصن فى خطتهم.

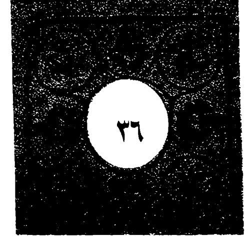
واختـطت بكيل بن جشم بن نوف - من همـدان - جنوب الجيـزة. واختطت حـاشم بن جشم بن نوف فى الشـمال الغربى من الجيـزة. واختطت بنو حجـر بن أرحب بن بكيل فى قبلى الجيزة. واختط بنو كعب بن مالك بن الحجر من الأزد فيما بين بكيل ويافع. واختط الأحباش لهم خطة فى الشارع الأعظم.

أما المسجد الجامع فى الجيزة، فقد أمر ببنائه على بن الإخشيد سنة ٣٥٠هـ / ٩٦٢م، حيث أمر محمد بن عبد الله بن الخازن ببنائه، وكان أهل الجيزة يُصلُّون من قبل فى جامع آل همدان.

ويفصل النيل بين الفسطاط والجيزة، وقد ارتبطت الجـيزة بالفسطاط بجسرَ أُقيم على النيل. وازدهرت أهمية الجيزة كخط دفاعى عن الفسطاط، وأدى وقوعها على النيل إلى أهميتها التجارية، فالمراكب تأتى من الصعيد عبر النيل، وترسـو فى الجيزة على النيل، ومنه تتجه إلى فروع أو فرعى النيل فى الدلتا إلى البحر المتـوسط. وبذلك تُتاح للجيزة فرصة استقبـال البضائع القادمة من النيل عبر الصعيد أو الآتية من النيل عبر فروعه القادمة من البحر المتوسط. وتزداد أهمية الجيزة التجارية باتصالها بالقرى الكثيرة المحيطة بها، والتى يحرص أهلها على بيع سلعهم القروية فى الجيزة

انتشار الإسلام فى مصر:

ومن أهم نتائج الفتح العربى لمصر، انتشار الإسلام. ومن أسباب انتشار الإسلام فى مصر، ترحيب الـقبط فى مصـر بالفتح العـربى وكراهتـهم للحكم البيـزنطى الذى ألحق بهم ألوان الظلم والاضطهاد، واضطهد البيزنطيون علماء اللاهوت المصـريين المخالفين لهم فى المذهب، فإن اليعاقبة الذين يكونون مـعظم سكان مـصـر لقـوا صنوف العـذاب من حكامـهم الروم المخـالفين لهم فى



المذهب، واضطهد حكام الروم زعماء مصر، وزجُّوا بهم فى السجون أو نفوهم أو أحرقوهم أو ألقوهم فى النهر أو قطعوا بعض أطرافهم. لذلك رحب القبط بالعرب، ورأوا فيهم خير مُخلِّص لهم من نير الروم.

وقد ضرب العرب أروع المثل فى التسامح مع القبط فى مصر، فكفلوا لهم الحرية الدينية، ولم يرغموهم على اعتناق الإسلام، وفرضوا عليهم الجزية التى تتناسب مع دخولهم، ويُعفى منها النساء والأطفال وغير القادرين على العمل، والرهبان فى الأديرة، وأبقوا على كنائسهم يمارسون فيها شعائرهم الدينية بحرية كاملة.

دخل المصريون الإسلام عقب الفتح العربى لمصر بأعداد كبيرة، وتناقصت الجزية تبعاً لذلك. وقد شكا والى مصر فى نهاية القرن الأول الهجرى من نقص الجزية بسبب ازدياد دخول القبط فى الإسلام، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه الخليفة يؤنبه على مقولته ويقول: «إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً». وأمره بإعفاء من يدخل الإسلام من الجزية.

ومن الصعب تفسير حماس المصريين للمسيحية فى القرن الرابع الميلادى، وتعصبهم الشديد لهذا الدين، وتمسكهم به، وتحولهم بعد ذلك - بسرعة - إلى الإسلام. وبنفس الحماس دخل المصريون المسيحية بدون جماعات تبشيرية، بعد أن سقط الكثير من الشهداء المسيحيين فى عصر الوثنية - عصر دقلديانوس - وضحُّوا بأنفسهم فى سبيل الدين الجديد. ولكن اضطهاد الحكومة البيزنطية المذهبى، أضعف من حماس المصريين لدينهم الجديد، وبحثوا عن الخلاص من هذا الدين، والدخول فى الدين الذى أتى به العرب؛ لذلك دخل أهل مصر القبط بسرعة شديدة وبأعداد كبيرة فى الإسلام، تخلُّصاً من دينهم الذى لاقوا فى سبيله ألوان الاضطهاد من جانب حكامهم الروم، وفرضوا عليهم عقائد مُبهمة غامضة، ووجدوا فى الإسلام - دين الوحدانية - عقيدة واضحة بسيطة خالية من الجدل الفلسفى والسفسطة البيزنطية.

فسيفساء رومانى يوضح تعذيب المسيحيين فى عصر الاضطهاد - حيث أطلقوا عليهم الوحوش



كما أن حياة الزهد والتقشف فى الحياة المسيحية (الرهبانية) وجدت مثيلاً لها فى الإسلام. وأدى فساد الكنيسة والصراع بين رجالها، وانتشار الرذائل الأخلاقية بينهم إلى اتجاه الكثير من القبط إلى اعتناق الإسلام؛ الذى يدعو إلى التمسك بمكارم الأخلاق، ونبذ الرذائل. ولا ننسى أن الإسلام دين الحكام، فكل من يريد أن يقترب من الحكام أو يشغل منصباً يعتنق الإسلام، حتى لا يقف الدين الجديد عقبة فى سبيل تحقيق طموحاته. وقد دخل البعض الإسلام نفاقاً؛ ولكن بمرور الزمن نشأ أولادهم على الإسلام وتحمسوا لإسلامهم، ودرسوا علومه حتى كان منهم الفقهاء والعلماء. وهذا يفسر وجود أسر مصرية مسلمة كثيرة من أصول قبطية أو مسيحية.

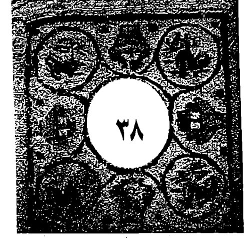
ونلاحظ أن بعض القبط دخل الإسلام تخلُّصاً من ضريبة الجزية التى لا يستطيع أداءها؛ فضلاً عن أن البعض دخل الإسلام للحصول على بعض الوظائف أو الامتيازات التجارية والاجتماعية والاقتصادية.

وكان لظهور الزُّهَّاد والمتصوفين فى مصر أثره فى انتشار الإسلام، لأن حياة الزهد والتصوف، وما يُنسب إلى أصحابها من كرامات ومقامات، تتمشى مع الذوق المصرى، وتجد استجابة من المصريين الذين يؤمنون بالغيبيات. ومن كبار الصوفية الأوائل فى مصر، ذو النون المصرى (ت ٢٤٥هـ / ٨٥٩م)، كان حكيماً زاهداً، عاش بين أقباط مصر، وانحدر هو نفسه من أصل نوبى، وتأثر به الناس خصوصاً بعد موته، وحذا حذوه الكثيرون فى الزهد والتصوف. ومما لا شك فيه أن حركة التصوف التى تأثرت بالرهبنة أدت إلى إقبال الناس على الإسلام.

وكان لوفود الكثير من الفقهاء والعلماء على مصر منذ فجر الإسلام أثره فى انتشار الإسلام، ووفد على مصر الإمام الشافعى، وعقد المناظرات والندوات فيها حتى وفاته سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م. كذلك وفد على مصر الكثير من الفقهاء والمفكرين منذ فجر الإسلام، وجلسوا فى جامع عمرو بن العاص، يعلمون طلاب العلم علوم الإسلام واللغة، ويُبصِّرون الناس بشئون دينهم، ويعلمون من يعتزم الدخول فى الإسلام، قواعد ومبادئ الدين الجديد.

وكثرت رحلات العلماء وطلاب العلم إلى مصر أو غير مصر من بلاد المغرب والأندلس أو صقلية أو من الأندلس والمغرب إلى العراق والمشرق والحجاز عبر مصر. وازدهار الفكر الإسلامى فى مصر يؤدى بالضرورة إلى انتشار الإسلام، وممن وفد إلى مصر الإمام محمد بن جرير الطبرى، والإمام البخارى، والإمام النسائى، وأسد بن الفرات، والشاعر المتنبى، وغيرهم كثير.

تحوَّل جامع عمرو بن العاص إلى جامعة، يجلس فيه شيوخ العلم فى التفسير والفقه والحديث واللغة والأدب، ويفد إليهم الطلاب من كل بلد فى مصر وبلاد الإسلام الأخرى للتزود



بالعلم. ويعودون إلى بلدانهم فى مصر، دعاة إلى الإسلام، يسعون إلى نشره بين الناس.

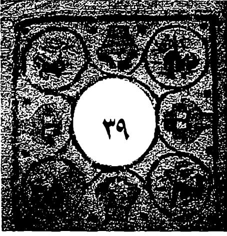
وانتشرت فى مصر المدارس على المذاهب الأربعة، ووجد الطلاب فيها الرعاية، وأُقيمت الأوقاف للإنفاق على المدارس وطلاب العلم وشيوخه وموظفيه وعماله، وانتشر العلماء فى مصر وكثُر حفظة القرآن الكريم؛ كل ذلك أدى إلى انتشار الإسلام.

ونلاحظ أن القبط فى مصر تمتعوا بتسامح كبير، ولم يُجبروا على الإسلام؛ لأنه لا إكراه فى الدين، وشغلوا العديد من الوظائف، وامتلكوا الأراضى الشاسعة والعقارات، وعاشوا فى حرية كاملة، وساهم الولاة وكبار رجال الدولة وعامة الناس فى احتفالاتهم، واتخذت مصر صورتها الإسلامية الرائعة فى العصر الفاطمى، وحدث تغير شامل فى حياة الناس الاجتماعية، واصطبغت حياة الناس بالصبغة الإسلامية، وأقام السلاطين المماليك فى مصر المساجد العديدة، حتى أصبحت مصر مدينة الألف مئذنة.

وكان لهجرة القبائل العربية إلى مصر منذ فجر الإسلام، واستقرارهم فى مدن مصر وقراها، واختلاطهم بالمصريين أثر كبير فى انتشار الإسلام. والعرب منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب كانوا يتلقون عطاءً من الدولة مقابل التفرغ للجهاد. وألغى الخليفة العباسى المعتصم العطاء، وسرَّح العرب من الجيش، فساحوا فى البلاد ومنها مصر؛ يلتمسون الرزق من كل سبيل، واشتغلوا بالزراعة والتجارة، وأدى ذلك إلى اختلاطهم بأهل مصر، والتزوج منهم؛ مما أدى إلى انتشار الإسلام.

ودخل بعض القبط فى الإسلام، حتى يتمتعوا بالمواطنة الإسلامية التى تعطى لصاحبها الحق فى التجول فى بلدان الدولة الإسلامية الكبرى للعمل أو التجارة بحرية كاملة فى الوطن الإسلامى الكبير. والدخول فى الإسلام يعفى القبطى من الجزية، ومن جزء من ضريبة الخراج والمتأخرات الضريبية التى عليه. وعلى وجه التحديد كانت سنة ٣٣٩هـ / ٩٥٠م أغلبية سكان مصر من المسلمين، واتخذت مصر صورتها العربية الإسلامية.

وانتشرت الطرق الصوفية فى مصر، والتفَّ حولهم العامة، ونسبوا إليهم الكرامات، ونسجوا حول تصرفاتهم وسلوكهم القصص والأساطير. ولكل شيخ أتباع يأخذون العهد عليه، ويشتركون معه فى قراءة الأوراد والأذكار والاحتفالات الدينية، وازداد تعلق العامة بشيوخ الصوفية بعد وفاتهم، فشيَّدوا لهم الأضرحة ونذروا لهم النذور، واحتفلوا بموالدهم احتفالات كبيرة. كل ذلك أحيا الشعور الدينى، وإن كان على غير أساس سليم ويتنافى مع آراء أهل السُّنة والجماعة السليمة من الخطأ والانحراف.



وأصبح حب الولى والاعتقاد فى كراماته عاطفة عند العامة. ولما كانت طبيعة المسلمين على اختلاف مللهم تنقاد إلى هذه العواطف، وتنسب إلى الموتى من الصالحين ما ليس فى صفاتهم، فقد تأثر القبط فى مصر بهذه العادات، وشاركوا المصريين فيها؛ بل ودخل الكثير منهم فى الإسلام متأثراً بمعتقدات الطرق الصوفية.

أدى **انتشار اللغة العربية** إلى انتشار الإسلام؛ لأن تعلم اللغة العربية يَسَّر للناس فَهم مبادئ الدين الجديد. ومن عوامل انتشار الإسلام نظام الارتباع، فإذا جاء وقت الربيع نمت الزروع والنباتات والأشجار، فأذن حكام مصر للعرب بالانتقال إلى القرى وقضاء فصل الربيع فيها؛ حتى يأكل الخيل علف الربيع، وتدر اللبن، وتقوى أجسادها. ومن البلاد التى لجأ العرب إليها فى فصل الربيع: أهناسيا ومنوف ومنف وأوسيم وبوصير وعين شمس والفيوم، وكان والى مصر يحدد لكل قبيلة البلدة أو القرية التى ترتبع فيها، حتى لا يحدث نزاع بين القبائل حول الارتباع.

ويهمنا من موضوع الارتباع أنه أدى إلى اختلاط العرب بقبط مصر، فعرفوا منهم حقيقة الإسلام ومبادئه، ومن ثم أدى الارتباع إلى نشر الإسلام بين القبط فى القرى والريف.

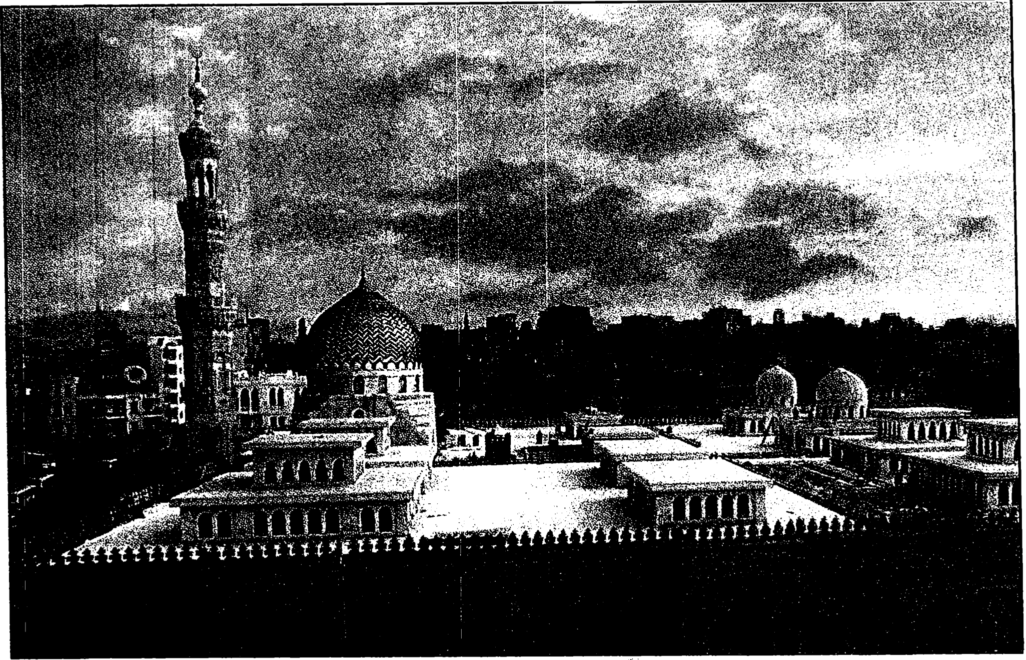
ومن أهم نتائج الفتح العربى، **انتشار اللغة العربية**، لغة شبه الجزيرة العربية، وهى لغة أدب وشعر، وقويت بظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم على نبى الإسلام ﷺ بلسان عربى مبين. واللغة العربية - لغة الإسلام - تُؤدَّى بها الشعائر الإسلامية؛ لذلك ازدادت أهمية اللغة العربية؛ لغة الإسلام ولغة القرآن الكريم.

ولما فتح العرب مصر، انتشرت فيها اللغة العربية بسبب حركة التبادل التجارى بين العرب ومصر؛ الذى حدث قبل وبعد ظهور الإسلام فى مصر، وانتشرت اللغة العربية فى مصر؛ لأنها لغة الحاكمين، كل من يريد أن يتولى منصباً هاماً فى مصر أو يحصل على امتيازات تجارية أو تسهيلات إدارية ومالية، لا بد وأن يعرف اللغة العربية - لغة القرآن ولغة الإسلام - وكل من يريد أن يتعلم مبادئ الإسلام والتفقه فيه، لا بد وأن يتعلم اللغة العربية؛ فضلاً عن أن شعائر الإسلام مثل الصلاة تُؤدَّى باللغة العربية.

وأدى تعريب الدواوين إلى انتشار اللغة العربية فى مصر. ففى سنة ٨٦هـ / ٧١٥م قرر الخليفة عبد الملك بن مروان تعريب الدواوين. وكانت الدواوين تُكتب بلغات السكان الأصليين. تُكتب فى مصر بالقبطية. وفى ظل التعريب أصبحت الدواوين تُكتب باللغة العربية؛ لذلك حرص كل من أراد أن يشغل وظيفة فى الدولة على تعلم اللغة العربية، حتى يضمن العمل فى الديوان.

وأثناء وعقب الفتح هاجرت بعض القبائل العربية إلى مصر، بعد تحولها إلى ولاية عربية إسلامية، وانتشر العرب المهاجرون فى قرى مصر وريفها، واختلطوا بأهلها، مما أدى إلى انتشار اللغة العربية.

وجدير بالذكر أن بعض أفراد بيت رسول الله ﷺ، هاجر إلى مصر بعد المحن التى حلَّت بهم، وأقاموا فيها، مثل السيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة عائشة بنت جعفر الصادق وغيرهم، وأحَبَّ الناس - على اختلاف معتقداتهم - آل البيت، وتأثروا بهم، وحضروا مجالسهم، وتعلموا منهم اللغة العربية، ودانوا بالإسلام بتأثيرهم.



مسجد السيدة زينب بالقاهرة

ولما سرَّح الخليفة المعتصم العرب من الديوان، وحرمهم من العطاء، ساحوا فى الأرض ومن بينها أرض مصر، واختلطوا بالناس، وتزوجوا منهم، وأدى هذا الاختلاط إلى انتشار اللغة العربية بين المصريين.

وأدى إنشاء الحواضر الإسلامية فى مصر مثل الفسطاط والجيزة وحلوان والعسكر والقطائع، وبها مساجد يجلس فيها الفقهاء والقُراء والوعَّاظ، أدى ذلك إلى هجرة أهل القرى والريف إلى المدن الإسلامية للعمل أو التجارة أو طلب العلم أو التماس الوظائف والأعمال الأخرى. وأدى ذلك إلى انتشار اللغة العربية.

كان انتشار الإسلام أسرع من انتشار اللغة العربية؛ ففى القرن الثالث الهجرى زار الخليفة العباسى - المأمون - مصر، واللغة العربية لم تكن منتشرة بين المصريين؛ بل تكلم المصريون بلغات

متعددة مثل القبطية واليونانية، فكان الخليفة المأمون يتجول فى مصر، والتراجمة بين يديه من كل جنس.

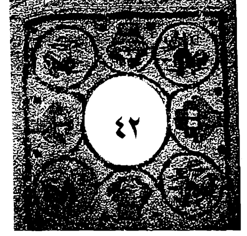
إن اعتناق الناس للإسلام كان أسبق من تعلمهم اللغة العربية. وفى القرن الرابع الهجرى - العاشر الميلادى - أصبحت اللغة العربية هى اللغة السائدة فى مصر بين المسلمين والأقباط، وتلاشت اللغة اليونانية من مصر التى عرفها المصريون فى العصرين الهلينستى والبيزنطى، وتلاشت اللغة القبطية فى مصر بين العوام من القبط، ولم يعد يفهمها إلا رجال الدين وأهل التخصص فى علم اللاهوت، وأُقيمت الطقوس الدينية فى الكنائس باللغة العربية التى يفهمها الأقباط. والمُلاحَظ أن ساويرس بن المقفع - أسقف الأشمونية - يؤرخ للبطاركة فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية، وقام بترجمة الوثائق اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية؛ لعدم وجود من يفهم اللغتين القبطية واليونانية، وكتب سعيد بن البطريق كتاب «التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» باللغة العربية. ومعنى هذا أن اللغة العربية أصبحت لغة المصريين على اختلاف طوائفهم ومعتقداتهم.

اتخذت مصر شخصيتها العربية الإسلامية بقيام دول شبه مستقلة فيها مثل: الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم الفاطمية والأيوبية والمملوكية بعد ذلك. وكانت مصر تابعة لدولة الخلافة، سواء دولة الخلفاء الراشدين أو الدولة الأموية أو الدولة العباسية، وهى دول عربية فى ثقافتها وسياستها. والخليفة فى كل هذه الدول عربى هاشمى، وجند هذه الدول الذين عسكروا فى مصر، كان معظمهم يتكلم اللغة العربية، وانتشروا فى مدن وقرى مصر وريفها، واختلطوا بسكان مصر، وتأثروا بهم، وأثروا فيهم، فتعلم المصريون عنهم اللغة العربية.

أدى اندماج المصريين مع العرب المهاجرين إليها، والتزاوج بين الفريقين، أدى ذلك كله إلى نشأة جيل جديد من المولدين، وهم خلاصة اندماج العنصرين.

حدث تغير اجتماعى فى مصر بعد الفتح العربى، وأصبحت العناصر الرئيسية فى مصر: العرب والمولدون والقبط والروم واليهود

نشأ مجتمع جديد يدين بالإسلام ويتكلم العربية، ويساهم بكل اقتدار فى ازدهار الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية، وأصبحت الفسطاط - حاضرة مصر - بدلاً من الإسكندرية، وقويت العلاقة بين مصر وبلاد الحجاز. والحج إلى مكة المكرمة فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقويت العلاقة كذلك بين مصر والشام؛ بعد أن انتقل مركز الثقل فى الدولة الإسلامية إلى بلاد الشام، وأصبحت دمشق حاضرة بنى أمية، ثم قويت العلاقة بين مصر والعراق،؛ حيث اتخذ العباسيون من بغداد حاضرة لدولتهم. واستفادت مصر من انضمامها إلى الدولة الإسلامية الكبرى التى تضم الكثير من الأقطار فى المشرق والمغرب، واتسع العالم أمام المصريين، يتنقلون فى هذا العالم الكبير دون قيود، ويعملون بالتجارة فى هذا العالم الكبير، أو يرحلون لطلب العلم فى المراكز العلمية الكبرى فى الدولة الإسلامية.



ويجب أن نشير هنا إلى أن علاقة مصر بالدولة الإسلامية لم تكن علاقة ولاية خاضعة لدولة مستعمرة كما كان الحال أيام الرومان والبيزنطيين؛ بل كانت مصر تقف جنباً إلى جنب مع الدولة الإسلامية، لأن الإسلام وحَّد بين المسلمين. والجماعة الإسلامية فى مصر تشكِّل جزءاً من الجماعة الإسلامية الكبرى فى أنحاء العالم، فالمؤمنون إخوة.

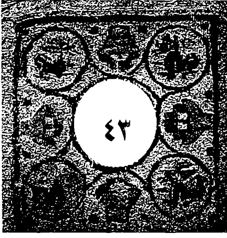
أما عن موقف أهل مصر من الفتح العربى، فهو يتمشى مع ما تعوَّد عليه المصريون، يتعاقب عليها الفاتحون دون أن يعوا المصدر الذى جاءوا منه، فتعاقب الغزاة على مصر من فارس ووسط آسيا واليونان وبلاد الرومان وغيرها. وأخيراً قدم العرب كفاتحين وليسوا غزاة، فاستبشروا بمقدمهم ودخلوا فى دينهم، وتكلموا لغتهم.

قصة مكتبة الإسكندرية:

نُسب إلى عمرو بن العاص رواية تقول أن هذا القائد أحرق مكتبة الإسكندرية بعد فتحها، وأول من روى هذه القصة الرحالة عبد اللطيف البغدادى فى أواخر القرن السادس الهجرى رواها بإيجاز، ثم روتها كتب التاريخ فى القرن السابع الهجرى بشكل أكثر تفصيلاً. ومن بين هذه الكتب كتاب «تاريخ مختصر الدول» لابن العبرى ونقلها عنه أبو الفدا فى كتابه «المختصر فى تاريخ البشر» فى القرن الرابع عشر الميلادى، وتعاقب المتأخرون على نقلها. يقول عبد اللطيف البغدادى فى كتابه «الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» يقول: «رأيت أيضاً حول عمود السوارى فى الإسكندرية أعمدة بعضها صحيح وبعضها مكسور، ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف، وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها، وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطوطاليس وشيعته من بعده، وأنه دار العلم التى بناها للإسكندرية حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن من عمر بن الخطاب رضى الله عنه».

وقصة حرق العرب لمكتبة الإسكندرية غير صحيحة للأسباب الآتية:

لم يذكر الرواة فى القرون الأولى للإسلام قصة عبد اللطيف البغدادى التى لم يسمعوا عنها أو يعرفوها؛ رغم أنهم نقلوا كل ما يتعلق بالإسكندرية حتى القصص والأساطير التى تتعلق بها. ولم يعرف العرب أعمال التخريب والتدمير، خصوصاً ما يتعلق بالعلم والفكر. والإسلام دعا المسلمين إلى العلم والتأمل فى خلق السموات والأرض، وميَّز الإسلام أهل العلم، ورفعهم درجات. وقد يُقال أن العرب أحرقوا هذه الكتب التى تتضمن آراءً إلحادية وعبارات وثنية. والعرب احترموا علوم اليونان وفلسفتهم، ولو أرادوا التخلص من الكتب جميعها لما تجشموا حملها إلى الحمامات وإشعال النار فيها لمدة ستة أشهر - كما تذكر بعض الروايات - لإتمام حرقها. وقد يكون



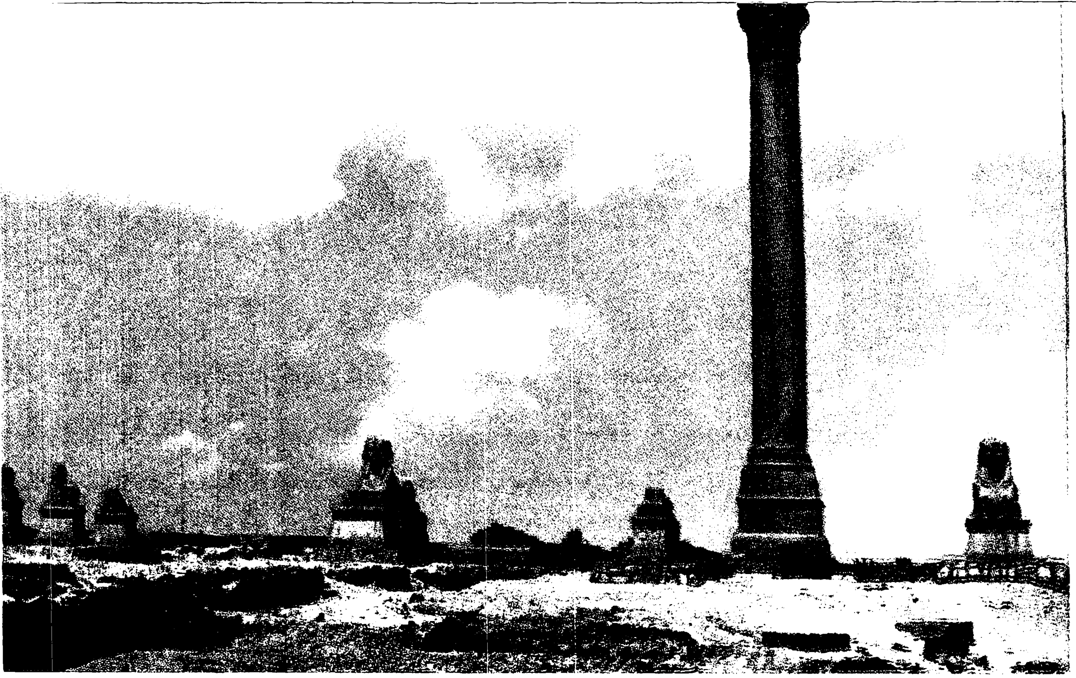
صاحب هذه القصة قد استمع إلى حكاية مماثلة، وخلط بينها وبين ما اعتقده خاص بالإسكندرية، أو ربما رأى أوراقاً تحترق فاعتقد أنها كتب مكتبة الإسكندرية.

ومما يؤكد عدم حرق مكتبة الإسكندرية لهذه المكتبة أن الكثير من المؤرخين أكد أن يوحنا النحوى، الذى قابل عمرو بن العاص، وكلمه فى شأن هذه المكتبة، توفى قبل استيلاء العرب على الإسكندرية بحوالى ثلاثين أو أربعين عاماً؛ فإن صح هذا القول لعلمنا أن عمرو بن العاص لم يقدم على حرق هذه المكتبة.

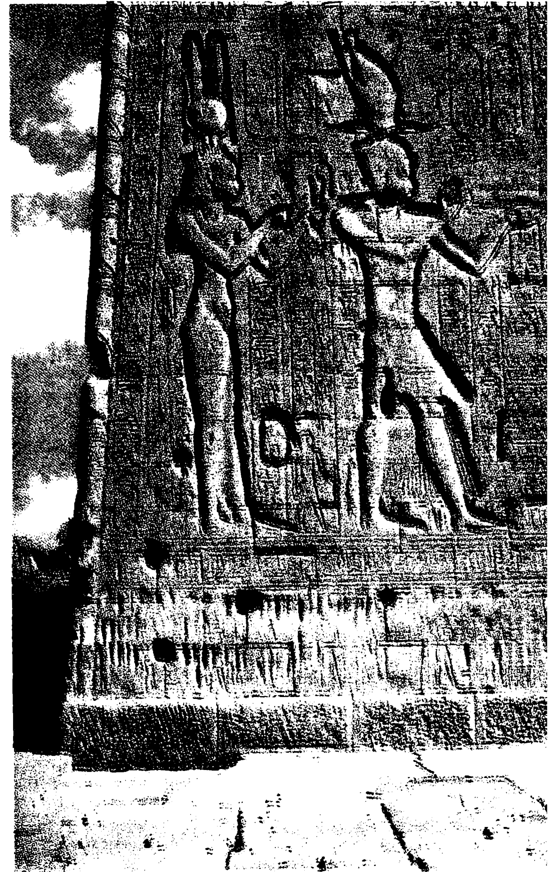
والواقع أن حالة مكتبة الإسكندرية انحطت كثيراً قبل الفتح العربى للإسكندرية. وفى أثناء القرن الثانى الميلادى فى العهد الرومانى، بسبب نقل الكثير من كتب المكتبة إلى روما، وبسبب أعمال السلب والنهب فى عصر الإمبراطور كراكلا، واضطراب الوضع السياسى فى الإسكندرية، جعل المكتبة فى حالة سيئة من الركود والإهمال، وزاد الأمر سوءاً انتشار المسيحية فى مصر، وما قام به المسيحيون من هدم آثار الوثنية والتخلص منها، ومن بينها مكتبة الإسكندرية. وحينما لجأ رجال الوثنية إلى معبد السيرابيوم، أمر البطريق - بناءً على أمر من الإمبراطور - بهدم هذا المعبد، وكسر صنم السيرابيس الشهير، وأضرم النار فى آخر مظهر من مظاهر الوثنية، وأُحرقت كتب كثيرة فى مكتبة الإسكندرية. وبذلك يتضح لنا براءة عمرو بن العاص من التهمة التى وجهها إليه عبد اللطيف البغدادى.

أسس بطليموس الأول مكتبة الإسكندرية، وكانت تشغل جزءاً كبيراً من السيرابيوم، حيث يوجد هيكل سيرابيس القريب من عمود السوارى فى كرموز، ووفد عليها الكثير من طلاب العلم والمفكرين. وقام بإدارتها كاليماخس وهو عالم وفيلسوف قام بوضع دليل واف للمكتبة، يسَّر على روادها الحصول على الكتب التى يريدون الاطلاع عليها، ومعظم كتب هذه المكتبة تتكون من لفائف من البردى، نُسخت عليه أكثر المؤلفات القيمة القديمة. ويرجع الفضل إلى هذه المكتبة فى ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية فى عهد بطليموس الثانى، لتكون إحدى ذخائر المكتبة. وضمت هذه المكتبة فى عهد البطالمة أمهات الكتب النادرة والقيمة، حتى بلغ عدد مجلداتها أربعة آلاف، بالإضافة إلى تسعة آلاف مجلد كانت فى القصور الملكية.

وعندما قدم يوليوس قيصر إلى مصر سنة ٤٨ ق م، لتأييد ومساندة كليوباترا ضد أخيها صاحب الحق الشرعى فى عرش مصر، ولجأ يوليوس قيصر إلى شعب الإسكندرية لنصرته ضد الغاصب، وهنا قامت حرب فى الإسكندرية، وحاصر القائد المصرى أخيلاس، وأضرم النار فى الإسكندرية، وكان لهيب النيران شديداً، لدرجة أنها وصلت إلى الأرصفة، وأُحرقت خزائن الإسكندرية، ومنها مخازن المكتبة التى حافظت على التراث اليونانى سنوات طوال.

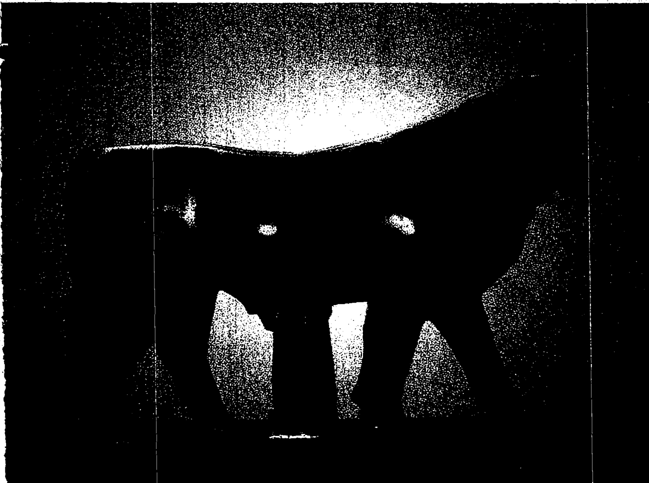


عمود السوارى - الإسكندرية



نحت بارز على واجهة معبد إدفو

يوليوس قيصر وكليوباترا



سيرابيس - إله يونانى

مقتبس من الإله المصرى أبيس

٤٥

التطور السياسى فى مصر فى عصر الولاة

[٢٠ - ٢٥٤هـ / ٦٤٠ - ٨٦٨م]

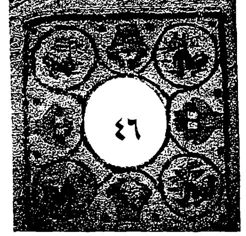
أصبحت مصر ولاية عربية تتبع الدولة العربية الإسلامية، وحاضرتها المدينة المنورة. والخليفة فى المدينة المنورة يعهد إلى والٍ بحكم ولاية مصر نيابة عنه. والوالى له فى مصر اختصاصات الخليفة يباشر الشئون الدينية والإدارية لمصر، ويدافع عنها ضد ما قد تتعرض له من غزو خارجى، ويحافظ على الأمن والنظام فى مصر، ويقيم العدل بين الناس، ويصلى بالناس، ويُبصِّرهم بشئون دينهم، ويدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة. والوالى يجمع الضرائب من الناس، وينفق مما جمعه على الولاية، ويرسل الفائض إلى بيت المال فى المدينة المنورة حاضرة الدولة العربية الإسلامية.

حكم مصر فى عصر الولاة الذى يمتد من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية ٦٥ أو ٦٦ والياً، أولهم فاتح مصر عمرو بن العاص، وأربعة عشر من بنى هاشم، وعشرة من قريش وأربعون من الموالى.

وقد يسند الخليفة شئون المال فى الولاية إلى والٍ مستقل عن الولاية، مما يقيد من سلطة الوالى، وتحدث خلافات بين الرجلين؛ لذلك فإن بعض الولاة كان يسعى للانفراد بالسلطتين المالية والإدارية. والوالى لا بد وأن يكون من قادة الجيوش المتميزين؛ ذلك لأن ولاية مصر بعد أن فارقها الروم، ظلت مطمعاً للروم، يسعون إلى استعادتها.

أول من ولى مصر عمرو بن العاص، الولاية الأولى كانت من قِبَل الخليفة عمر بن الخطاب، وفيها حاول عمرو بن العاص المحافظة على الأمن والنظام فى مصر وضمان ولاء أهل الولاية.

وقد أثبتت مصر أهميتها الاقتصادية فى الدولة الإسلامية، ففى عام الرمادة الذى يلى الفتح بعام أو أكثر، حدثت مجاعة فى المدينة المنورة، فبعث عمر بن الخطاب إلى واليه فى مصر - عمرو ابن العاص - يستغيث به ويأمره بسرعة إرسال الطعام والمواد الغذائية إلى المدينة المنورة وقال: «لعمرى لا تبالى إذا سمنت أنت ومن معك أن أعجف أنا ومن قبلى، فيا غوثاه ثم يا غوثاه». فكتب إليه عمرو بن العاص يظهر تلبيته السريعة إلى طلب الخليفة ويقول: «لبيك أتتك عير أولها عندى وآخرها عندك مع أنى أرجو أن أجد السبيل إلى أن أحمل إليك فى البحر». وأرسل عمرو



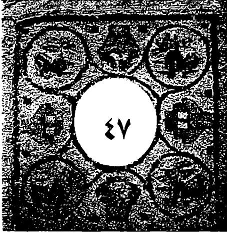
ابن العاص الإمدادات الغذائية إلى المدينة المنورة بسرعة، وانتهت الأزمة فى المدينة المنورة، وكثر القمح بها حتى أصبح سعره فى المدينة يساوى سعره فى مصر. ولم ير أهل المدينة شدة تضاهى الشدة التى حدثت فى عام الرمادة.

عهد عمر بن الخطاب فى أواخر أيامه بولاية صعيد مصر إلى عبد الله بن سعد بن أبى سرح. وبذلك تضاءل نفوذ عمرو بن العاص فى مصر، فلم يعد يحكم مصر كلها، إنما حكم قسماً منها فلما توفى عمر بن الخطاب سنة ٢٣هـ وخلفه عثمان بن عفان، ضم الأخير ولاية مصر كلها لعبد الله بن سعد بن أبى سرح، وعزل عمرو بن العاص. وبذلك انتهت فترة ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر والتى استمرت أربع سنين وأشهر.

ولَّى عثمان بن عفان عبد الله بن سعد بن أبى سرح ولاية مصر كلها، صلاتها وخراجها. وعاد عمرو بن العاص إلى المدينة المنورة يراقب أحوال مصر، ولما علم بنبأ غزو الروم للإسكندرية أقنع عثمان بن عفان بإعادته إلى مصر لصد الروم، ومنعهم من الزحف داخل الأراضى المصرية، فعهد إليه الخليفة بحكم الإسكندرية، وفتح عمرو بن العاص الإسكندرية الفتح الثانى، وعبد الله ابن سعد مقيم فى الفسطاط سنة ٢٥هـ / ٦٤٥م. وصد عمرو بن العاص الروم واسترد الإسكندرية، وانسحبوا إلى حيث أتوا بقيادة قائدهم مانويل.

قلنا إن عمرو بن العاص بعد أن أتم فتح مصر، والإسكندرية بالذات، قرر فتح برقة وطرابلس لتأمين حدود مصر الغربية، ذلك لأن البيزنطيين أو الروم يحكمون المغرب، ومن الممكن اتخاذها قاعدة لاسترداد مصر من العرب، ففتح عمرو بن العاص برقة، وشن عدة غارات على طرابلس، وخلفه فى ولاية مصر - عبد الله بن سعد بن أبى سرح - فقرر مواصلة سياسة سلفه، ومواصلة فتح المغرب، فاجتاز هذا الوالى سنة ٢٧هـ / ٦٤٨م طرابلس، واستولى على سفن الروم التى كانت راسية فى الشواطئ المغربية. وفى سبيطلة فى تونس التقى الجيش العربى بجيش الروم بقيادة جريجوريس - الذى يسميه العرب جرجير - وأظهر عبد الله بن الزبير مقدرة وبطولة فى الاشتباكات التى حدثت بين الروم والمسلمين، وقُتل جرجير فى المعركة بيد عبد الله بن الزبير. وعلى الرغم من الانتصار الكبير الذى حققه العرب فى هذه الاشتباكات، إلا أن الوالى عبد الله ابن سعد بن أبى سرح انسحب من المعركة، لصد غارات النوبيين فى جنوب مصر، وعقد معاهدة مع الروم، ينسحب بموجبها من المغرب، مقابل جزية سنوية كبيرة يؤدونها للعرب.

حقق العرب فى مصر انتصارات رائعة على الروم بعد سنوات قليلة من إتمام فتح مصر، وبطل هذا النصر المؤزر هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح - والى مصر - ففى سنة ٣٤هـ



٦٥٤م، ولا توضح المصادر التاريخية أسباب هذه المعركة البحرية؛ إلا أنه يمكن القول أن هذه الموقعة حلقة من سلسلة الصراع الطويل بين العرب والروم، ذلك الصراع الذى قاده عبد الله بن سعد سنة ٢٥هـ، ثم تابعه فى **سبيطلة** سنة ٢٧هـ / ٦٤٨م.

أعد عبد الله بن سعد جيشاً بقيادة بسر بن أرطأة - من أبطال حرب الروم فى المغرب - وكان أسطول مصر الذى خرج للقاء الروم فى المغرب يتكون من أكثر من مائتى سفينة، وخرج عبد الله بن سعد فى مركب القيادة مع زوجته. وهذا يدل على أن العرب ألفوا بسرعة ركوب البحر. أما سفن الروم فخرجت بقيادة الإمبراطور قسطنطين ابن هرقل، وبدأت معركة حامية بين السفن العربية وسفن الروم، وكان القتال فى بدايته تراشقاً بالنبال والنشاب، فلما نفذت السهام اقتتل الفريقان - العرب والروم - بالحجارة واتخذ العرب خطة حربية قوية، فربطوا سفنهم بعضها ببعض بالسلاسل، مما جعل من المتعذر والصعب على الروم اختراق صفوفهم.

كذلك استخدم العرب فى نفس الوقت خطاطيف طويلة، كانوا يقذفونها على سفن العدو، فيصيبون بها صواريهم، ثم يجرونها إلى جوار سفنهم؛ فأصبحت المعركة وكأنها معركة برية. وتقاتل العرب والروم، وتبارزوا بالسيوف، وأظهر العرب شجاعة منقطعة النظير وبسالة نادرة، وبينما كان عبد الله بن سعد يخوض غمار المعركة بنفسه، متعرضاً هو وامرأته لخطر الموت؛ كان إمبراطور الروم يقف فى مركب قيادته بعيداً، وتأتيه أخبار المعركة تباعاً. وانتهت المعركة بهزيمة الأسطول البيزنطى الذى واجهته أثناء انسحابه ريحاً عاتية قضت ودمرت معظم سفن أسطول الروم، وهرب الإمبراطور بسفينته إلى صقلية.

اختلف المؤرخون حول مكان المعركة، فيرى البعض أنها باتجاه المغرب، وهناك من يرى أن المعركة دارت عند شواطئ كيليكيا قرب سواحل الأناضول، الذى تنمو فيه بكثرة الغابات، التى يُستخرج منها الخشب الصالح لبناء السفن وصواريها.

ومهما يكن من أمر، فقد قُتل الإمبراطور. ومن نتائج هذه المعركة ازدياد قوة العرب وتثبيت أقدامهم فى مصر، وازدياد قوة العرب البحرية. ومهّد ذلك إلى إدراك العرب لأهمية البحر، فأنشأوا الأساطيل لحماية الشواطئ المصرية والشامية والمغربية، والسيطرة تدريجياً على البحر المتوسط، وانتزاع السيادة عليه من الدولة البيزنطية.

لم يكتف عبد الله بن سعد بتأمين حدود مصر من ناحية البحر المتوسط، ومن جوانبها الغربية، بل تطلّع إلى تأمين حدود مصر الجنوبية، فكانت مملكة النوبة فى جنوب مصر تشن الغارات تباعاً على هذه البلاد بقصد السلب والنهب، فأرسل عبد الله بن سعد جيشاً إلى النوبة لإخضاعها، وواصل بذلك سياسة عمرو بن العاص، واشتبك الجيش العربى مع أهل النوبة فى

معركـة قرب دنقلة، انتهت بعقد معـاهدة بين الطرفين - العربى والنوبى - بموجبها ترسل النوبة إلى مصر ما تحتاجه من رقيق فى مقابل أن ترسل مصر الحبوب إلى النوبة، ويكف أهل النوبة عن شن الغارات على مصر.

وعلى الرغم من الإنجازات العسكرية التى حققها عبد الله بن سعد، إلا أنه كـان ظالماً، يتشـدد على الناس فى فـرض الضـرائب، فضـلاً عن قسوته. ولم يشغل الفراغ الذى تركه عمرو بن العاص. والجدير بالذكر أن الخليفة عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص من مصر، جرياً على سياسته فى تولية أقاربه، فولَّى عبد الله بن سعد أخاه فى الرضاعة؛ لذلك جلب الخليفة على نفسه انضمام مصر إلى حركة المعارضة ضده.

وأظهر سكان الولايـات الإسلاميـة المعارضة ضـد حكم عثمـان بن عفـان الذى انحاز إلى أقاربه، وأسند إليهم الوظائف الرئـيسية فى الدولة وقاد حركـة المعارضة ضد عثمـان، بعض كبار رجال الـدولة الإسلاميـة، ومن بينهم عـبد الله بن سـبأ، وهو رجل يهـودى من صنعاء، اعـتنق الإسلام فى عهـد عثمان بن عفـان، ويطالب بتولية علىّ بن أبى طالب، ولم يجد اسـتجابة هذه البلاد، فانتقل إلى مصـر، ووجد فيها أرضاً صالحة لنشر دعوته، واتخـذها قاعدة لنشر دعوته فى البلاد الإسلامية، وكان يقول بأن لكل نبى وصىّ وأن محـمداً خاتم الأنبياء وعليًا خاتم الأوصياء، وقال بأن عثمـان اغتصب حق علىّ فى الخلافة، ودعا الناس إلى التحرك لـلمطالبة بتولية علىّ بن أبى طالب؛ لأن فى ذلك صلاح الأمة، وأثار الناس عـلى عثمان وولاته وقال: إن عثـمان أخذها بغـير حق من علىّ بن أبى طالب، فـانهضـوا فى هذا الأمر فـحركـوه وابدأوا معـه بالطعن على أمرائكم، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تستميلوا الناس.

وبالغ ابن سبأ وأنصاره فى شـخص علىّ، وقالوا: الرعد صوته والبرق تبسُّـمه. وانتعشت دعوة ابن سبأ فى مصر، وانضم إليها الكثيـر من المصريين الذين كرهوا والى عثمان - عبد الله بن سعد - الذى اضطهدهم، وأساء السـيرة فيهم، وتزعم حركة المعارضة ضد عثـمان محمد بن أبى حذيفة، وكانت وفـود مصر والبصرة والكوفة اجـتمعت فى المدينة للمطالبة بعزل عـثمان، فأرسل عثمان بن عفـان إلى الثوار وفداً أقنعهم بأنه عزل عبد الله بن سـعد، وبدأ الثوار فى عودتهم إلى مصر، وتخلوا عن معارضتهم لحكم عثمـان، ولكنهم فى الطريق إلى مصر قابلوا رجلاً معه رسالة من عثمان بن عفان تتضمن الإبقاء على ولاية عبد الله بن سعد بن أبى السرح.

والمعروف أن أهل مـصر لا يوافقـون على سياسـة عثمـان بن عفان التى تـتسم بطابع التردد والضعف والمحاباة لأقاربه، وإغـفال الشورى، وعدم الالتزام بسياسة سلفيـه أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب، وتزعم محمد بن أبى بكر حـركة المعارضة ضد عثمان بن عفـان، وانضم إليه محمد ابن أبى حذيفة، كما كان عمرو بن العاص يؤلِّب الناس فى مصر على سياسة عثمان بن عفان وواليه عبد الله بن سعد، كما أن خطاب عثمان الذى وقع فى أيدى الثوار - كما أشرنا - ينفى ما جاء فى

كتابه الأول الذى كتبه بضغط من الثوار، ويتضمن تولية محمد بن أبى بكر بدلاً من عبد الله بن سعد، وتضمن الكتاب الذى وقع فى أيدى الثوار الإبقاء على ولاية عبد الله بن سعد، ورفضه لولاية محمد بن أبى بكر.

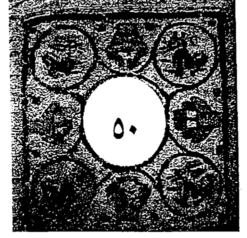
لذلك عاد الثوار إلى المدينة المنورة، وانضموا إلى الثوار الآخرين، وقُتل عثمان بن عفان بيد أحد من عرب مصر فى ذى الحجة ٣٥هـ، وولى علىّ بن أبى طالب الخلافة، فنصَّب محمد بن أبى حذيفة والياً على مصر، وطرد منها عبد الله بن سعد بن أبى السرح، ولما علم معاوية بن أبى سفيان بانضمام مصر إلى علىّ بن أبى طالب، تطلع إلى ضمها لملكه، فسار مع عمرو بن العاص إلى مصر، وأخرج منها محمد بن أبى حذيفة ونكَّل به وبأصحابه.

وعهد علىّ بن أبى طالب إلى قيس بن سعد بن عبادة بحكم مصر، وصعد المنبر وخطب فى الناس، ودعاهم إلى بيعة علىّ بن أبى طالب والطاعة لواليه الجديد. ولكن جماعة من عرب مصر عارضوا الوالى الجديد، واستنكروا حادث مقتل عثمان بن عفان، وتزعم هذه المعارضة بسر ابن أرطأة ومسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج. ولكن الوالى الجديد تغاضى عن معارضتهم، وحكم مصر بالعدل، وأحسن إدارة البلاد، وسار فى الناس سيرة حسنة.

على أن علىّ بن أبى طالب عزل قيس بن سعد رغم كفاءته، لأنه اعتقد أنه يهادن معاوية ويرفض محاربته، ثم ولى مصر محمد بن أبى بكر، وقُرئ كتاب أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب

قبر عثمان بن عفان - المدينة المنورة





على أهل مصر فى المسجد الجامع، جاء فيه ضرورة العدل بين الناس، وتجنب الظلم، والعدل على أهل المدينة، وإنصاف المظلوم، والشدة على الظالم، والإحسان إلى الناس؛ لأن الله يحب المحسنين، وأبلغ الناس تعليمات أمير المؤمنين بجباية الخراج بالعدل كما كان الحال من قبل، وأمره أن يحكم بالقسط ولا يخاف فى الله لومة لائم. وتعهد الوالى الجديد بحكم الناس بالعهد والمساواة طبقاً لتعاليم الإسلام.

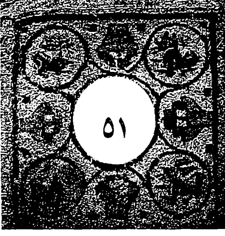
ومع ذلك استخفَّ الناس بهذا الوالى - محمد بن أبى بكر - فعهد علىّ بن أبى طالب بولاية مصر إلى الأشتر النخعى، وكان شاباً متهوراً عديم الخبرة، سيئ السيرة جموحاً. وقد توجس معاوية بن أبى سفيان خيفة من هذا الوالى، وتطلع إلى غزو مصر وانتزاعها منه لضعفه، وأمر - أى معاوية - واليه على القلزم باستقبال الأشتر، وتقديم الطعام له وبه سُم، فمات منه الأشتر، فلما بلغ معاوية ذلك قال: إن لله جنداً من عسل.

لذلك قرر علىَ بن أبى طالب الإبقاء على محمد بن أبى بكر والياً على مصر، وكتب معاوية فى صراعه الشديد ضد علىّ بن أبى طالب ومحاولته انتزاع الخلافة منه إلى العثمانية فى مصر، والاستعداد لاستقبال جند معاوية بن أبى سفيان بقيادة عمرو بن العاص، وعلى رأس العثمانية مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج، وقدم عمرو بن العاص إلى مصر، وحارب جند أبى بكر، وطلب منه الاستسلام، لأنه يكره قتاله أو إيذاءه، ولكنه لم يستسلم

ودارت الحرب بين فريق معاوية وفريق محمد بن أبى بكر، انتهت بهزيمة محمد بن أبى بكر، وقُتل ووضع فى جيفة حمار سنة ٣٨هـ، ونجح معاوية فى انتزاع ولاية مصر من دولة الخلافة التى يحكمها علىّ بن أبى طالب. وتوالت الأحداث وانتهت بمقتل على بن أبى طالب سنة ٤٠هـ ٦٦٠م، فأقام عبد الرحمن بن ملجم المرادى بالكوفة يراقب خروج علىّ، فلما خرج للصلاة وثب عليه وقال: الحكم لله ياعلىّ لا لك وضربه بسيفه.

وبمقتله انتهت دولة الخلفاء الراشدين سنة ٤٠هـ، وتنازل الحسن بن على عن الخلافة، وقامت الدولة الأموية ومعاوية بن أبى سفيان أول خليفة لها، وأصبحت مصر ولاية أموية سنة ٤١هـ / ٦٦١م.

كان عمرو بن العاص أول والٍ على مصر فى عهد بنى أمية، وتلك هى ولايته الثانية، وقد وعده معاوية نظير الوقوف إلى جانبه فى حربه ضد علىّ بن أبى طالب وفى استعادة مصر إلى حوزته أن يعطيه مصر طعمة يحكمها، ويجمع خراجها وينفق عليها من الأموال التى يجمعها، وظل عمرو يحكم مصر منذ سنة ٤٠هـ حتى وفاته سنة ٤٣هـ / ٦٦٣م.



وكان على عمرو بن العاص فى ولايتـه الثانية أن ينهى الخلافات بين أنصار علىّ وأنصار عثمان حـتى يسود الوئام بين الناس، وتنتهى الصراعات الداخليـة بين عرب مـصر. وقـد تمكن عمـرو بن العاص من ذلك بفـضل حنكته السياسية وفهمه العميق لطبيعة عرب مصر. أما المصريون جميعاً فقد سعـدوا بعودة عمـرو بن العاص إلى حكمهم، بعـد أن التمسـوا منه العدل والكفاءة فى إدارة البلاد وحكمها.

وتختلف ولاية عمرو الثانية عن ولايتـه الأولى، ففى ولايته الأولى كان يفيض حيوية ونشاطاً، أما فى ولايته الثانية فقد كبر سنه وأنهكتـه الأيام، وأضعفته السنون، وعبثت به وبصحته الشيخوخة، ففقد مقدرته القوية التى عرفها المصريون عنه.

على أن عمرو بن العاص لم يكتف بأن تكون مـصر طعمة له، فطمع فى المزيد من الملك، وتطلع إلى حكم الشام، وضمها إلى مصـر. ولكن معاوية بن أبى سفيان لم يوافق على ذلك؛ بل تطلع إلى عزله عن ولاية مصـر التى حُرم من ثروتها. واشتـد الخلاف بين الرجلين وكادت تنشب الحرب بينهما، ولكن بعض زعماء المسلمين أصلحوا بين الرجلين، على أن تظل مصر طعمة لعمرو ابن العـاص، ويتخلى عن أطمـاعه فى بلاد الشـام. وأخضع عمـرو بن العاص بعض الـثوار فى الصعيد، وفرض عليهم الولاء والطاعة للحكم العربى.

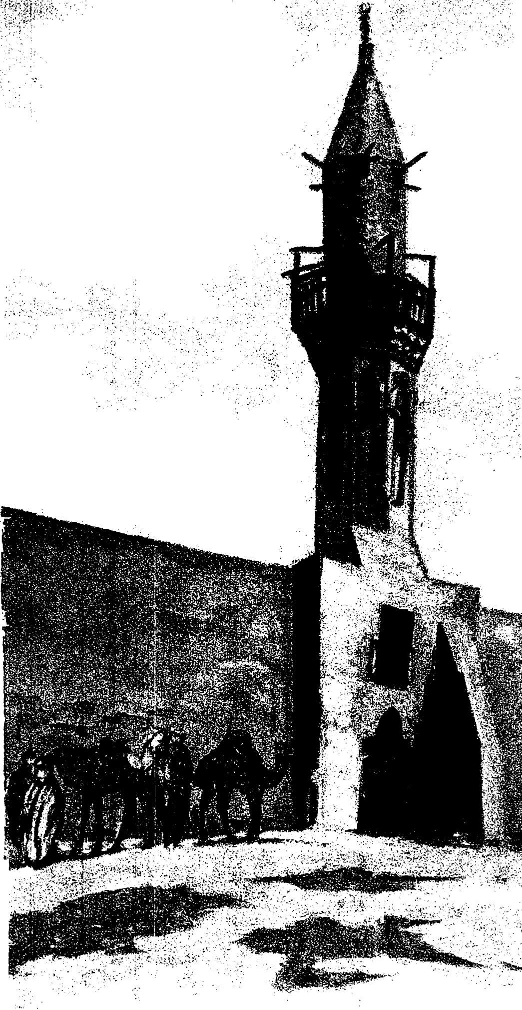
حكم عمرو بن العاص مصر ثلاث سنوات، ومات فى عيد الفطر سنة ٤٣هـ / ٦٦٣م، ولما حضـرته الوفـاة شهده ابنه يبكـى خوفا من يوم الحساب، فطمأنه ابنه، وذكَّره بصحـبته لرسول الله ﷺ، وفتـحه فلسطين ومصـر، ونشر الإسلام فى ربوع هذه البـلاد. فقال له عمـرو: أفضل من ذلك، وهو شهـادة أن لا إله إلا الله؛ ولـم يزل يرددها حتى مـات، وصلَّى عليه ابنه عـبد الله مع المصلين.

وكان عمرو بن العاص قد أوصى ابنه أن يكفِّنه فى ثلاثة أثواب ويؤزر فى أحدهم، وأوصاه بأن يشقُّوا الأرض عليه شقًّا، ويسنوا عليه التراب سنا. وقال: اللهم إنك قد أمرت بأمور، ونهيت عن أمـور، اللهم لا إله إلا أنت. ودُفن فى المقطم فى طريق الوافـدين إلى مكة للحج؛ حـتى إذا مروا بقبره دعوا له. وفى ذلك يقول عبد الله بن الزبير:

ألـم تـر أن الـدهـر أخنـت ريـوبـه عـلـى ... عـمـرو الـسـهـمـى تُجـبـى لـه مـصـر
فـأضـحـى نبـيـذاً بـالعـراء وضُـللت ... مـكـائـده عـنـه وأمـوالـه الدثـر
ولـم يُغْـنِ عنه جـمـعـه للمـال برهة ... ولا كـيـده حـتى أُتيـح له الدهـر

٥٢

ومن أبرز من حكم مصر من الولاة: **مسلمة بن مخلد الأنصارى**، وجمع له معاوية الصلاة والخراج وحكم المغرب (برقة وطرابلس). ومن الإصلاحات التى قام بها فى مصر، زيادة المسجد الجامع، وأقام المنارات للمساجد، وأمر مؤذنو جامع عمرو بن العاص بالأذان فى الليل فإذا فرغوا، يتبعهم مؤذنو المساجد فى الفسطاط. وظل هذا التقليد قائماً حتى انضمت مصر إلى الدولة العباسية. ومن سياسته عدم الإبقاء على صاحب الشرطة مدة طويلة، فيعزله ويعهد بها إلى غيره؛ حتى لا يزداد نفوذه وينافس الوالى فى حكمه. وفى عهده توفى الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وولى الخلافة ابنه يزيد، فأبقى على مسلمة فى مصر، فأخذ له البيعة من سائر المسلمين.



منارة جامع عمرو

أقام مسلمة بن مخلد فى الروضة مقياساً للنيل، وداراً للصناعة، وعامل القبط معاملة حسنة، وحكمهم بالعدل، وشملهم بالرعاية، وسمح لهم بإقامة كنيسة فى الفسطاط، ولم يبال بمعارضة بعض جنده، وعُنى ببناء المساجد وإصلاحها، وفى سنة ٥٣هـ / ٦٧٢م هدم جامع عمرو بن العاص الذى تداعى بناؤه، وأعاد بنيانه من جديد بالآجر بعد أن كان مبنياً باللبن فى عهد عمرو بن العاص، وكان يصلى بالناس منذ ولايته اتباعاً لسنة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، وأمر بعدم ضرب النواقيس بعد صلاة الفجر، لأنها تعطل أذان المؤذنين.

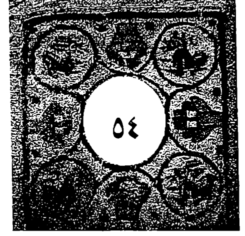
وفى عهد مسلمة بن مخلد حدث حادث جلل فى الدولة الإسلامية، اهتزت بسببه أرجاء الأرض الإسلامية؛ وهذا الحدث هو مقتل الحسين بن علىّ بن أبى طالب فى معركة كربلاء، بعد أن خرج الحسين مطالباً بحقه فى الخلافة، وتوجه إلى الكوفة، وفى الطريق أرسل والى الكوفة - عبيد الله بن زياد - جيشاً التقى بالحسين ورجاله، وقُتل الحسين وبعض أولاده - حفدة رسول الله - سنة ٦١هـ أى بعد خمسين عاماً من وفاة الرسول ﷺ.

سيقت السيدة زينب مع الأسـرى من آل البيت إلى الكوفة، فأرسلهم عبيـد الله بن زياد إلى الخليفة الأموى فى دمـشق - يزيد بن معاوية - ودار حوار طويل بين يزيد والسـيدة زينب، تأثر يزيد لما سمع من مـأساة كربلاء ولعن عبيد الله بن زياد المسئول عنهـا. وأمر بترحيلها إلى المدينة المنورة هى وأهلها. ولكن والى المدينة خاف من بقاء السيدة زينب (أم هاشم) فى المدينة حتى لا تلهب مشاعر أهلها بالحديث عن كـربلاء، وقتْل حفدة رسول الله ﷺ فطلب منها الرحيل إلى أى بلد تشاء، فرحلت إلى مصر، ووصلتها فى شعبان سنة ٦١هـ، فاستقبلها مسلمة بن مخلد والى مصر فى الفسطاط، وأنزلها بداره فأقامـت به ما يقرب من عام، ولم تغادر الدار حتى ماتت به سنة ٦٢هـ. وهذا الدار هو مـسجد السيـدة زينب الآن. وتوفى مسلمـة سنة ٦٢هـ بعد أن ولى مصر خمسة عشر عاماً.

ومن أبرز ولاة بنى أمية، **عبد العـزيز بن مروان** (٦٥ - ٨٦) حكم مصر واحـدا وعشرين سنة، وهو من أفضل ولاة هذا العصر، وظهرت فى عهده حركة معادية لبنى أمية، ذلك أن معاوية الثانى الذى خلف أباه - يزيد بن معاوية - تنازل عن الحكم لعدم شعوره بتحمل المسئولية، وبموته حدث فراغ فى السلطة السياسية، فتطلع القـيسية إلى الوصول إلى الحكم. وبايع اليمنية مروان بن الحكم لأنه شيخ، ولما بويع هذا الأخير بالخلافة، خرج من الجـابية - ضاحية بدمشق - فى جموع اليمنية إلى مرج راهط حيث تجمع القيسية، ونشب قتال بين الفريقين، انتهى بانتصار مروان وتثبيت أقدامه فى الخلافة سنة ٦٤هـ. عَهِد مروان بن الحكم بالخـلافة من بعده إلى ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز على التعاقب.

عهد مروان بن الحكم إلى ابنه عبد العزيز بولاية مصر، ورسم له الخطة التى يجب أن يسير عليهـا فى حكمه، ويقـضى بها على مـعارضة بعـض أهل مصر للحكم الأمـوى. وطلب منه أن يجـذب الناس إليه بعـدله وإحسـانه «يكونوا كلهم بنى أبيك، واجـعل وجهك طلقـاً، تَصْفُ لك مودتُهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم، أنه من خاصتك دون غيرك يكن عبداً لك على غيرك وينقاد قومـه إليك، وما عليك يا بنى بعد ذلـك إلا أن تكون أميراً بأقـصى الأرض، أليس لك أسوأ من إغلاق بابك وخمولك فى منزلك». وأوصاه كذلك بتقوى الله فى السر والعلانية، والبر بالفقراء، وإنجـاز الوعد بما وعـد، وأن يعقـد مجـلس الشورى للنظر فى أمـور البـلاد، وبذلك يأمن الفتن والدسائس وتلـهج الألسنة له بالدعاء. وأوصاه بـتقوى الله؛ لأن الله مع الذين اتـقوا والذين هم محسنون.

وخرج مروان من مـصر سنة ٦٥هـ، ولما ولى عبد الملك بن مـروان الخلافة، أقر أخـاه عبد العزيز واليـاً على مصر، أمـر عبد العـزيز بن مروان ببناء الدار المذهبة فـى الفسطاط سنة ٦٧هـ - غربى المسجد الجـامع - وتُدعى المدينة. وفى سنة ٧٠هـ وقع طاعون فى مصر، فشـرع عبد العزيز



ابن مروان فى بناء مدينة حلوان، واتخذ بها الدور والمساجد، وغرس فيها النخل والكروم ومختلف الزروع والأشجار، وجعل بها الحرس والأعوان، واتخذ الشرطة لحماية الأمن والنظام فيها، واتخذ معدِّية لتوصيل الناس ودوابهم وأمتعتهم من البر الشرقى إلى البر الغربى فى النيل.

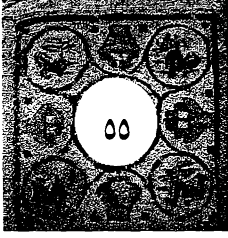
أسس عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان فى الصحراء الممتدة إلى الفسطاط، والموضع يُسمى أبو قرقورة، وهى رأس العين التى احتفرها عبد العزيز بن مروان وساقها إلى نخيله التى غرسها بحلوان. وعَمّر عبد العزيز حلوان أحسن عمارة، وشيَّد بها الدور والمساجد والحمامات والأسواق.

أرسل عبد العزيز بن مروان فرقة من جيشه إلى مكة المكرمة لقتال عبد الله بن الزبير الذى دعا لنفسه بالخلافة، ودعا إلى بطلان حكم بنى أمية وإسقاطه. وضم جيشه عبد الرحمن بن بحنس وهو الذى قتل ابن الزبير. ولتوضيح ذلك يمكن القول: رفض زعماء الحجاز مبايعة معاوية، لأنهم يعترضون على نظام الوراثة الذى فرضه معاوية بن أبى سفيان، وخرج الحسين بن علىَ بن أبى طالب داعياً لنفسه بالإمامة، واتجه إلى الكوفة حيث يوجد أنصاره، ولكن جند عبيد الله بن زياد - والى الكوفة - تصدوا للحسين فى كربلاء وقتلوه سنة ٦١هـ، فخلا الجو لعبد الله ابن الزبير ودعا لنفسه بالخلافة، وأسمى نفسه «العائذ بالبيت». واعتكف فى بيت الله الحرام فى مكة، وأرسل ولاة من قبله على الأمصار الإسلامية، وقويت حركة عبد الله بن الزبير بعد وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م، وانضمت الخوارج فى مصر إلى دعوة عبد الله بن الزبير، وكانوا يعتقدون أنه على مذهبهم، وأرسلوا وفداً إلى عبد الله بن الزبير لمبايعته، فأرسل معهم إلى مصر أميراً من قِبَله يُسمى عبد الرحمن بن جحدم الفهرى، فقدمها فى طائفة من الخوارج، ولم يستطع والى مصر الأموى التخلص منهم وإخضاعهم.

قدم والى مصر الزبيرى مع جمع كبير من الخوارج إلى مصر سنة ٦٤هـ. ورأى الخليفة الأموى - مروان بن الحكم - ضرورة التخلص من حركة ابن الزبير فى مصر، فسار على رأس جند الشام إلى مصر، وهزم أنصار عبد الله بن الزبير سنة ٦٥هـ / ٦٨٥م، وقبض على زعماء الفتنة وقتلهم. ومن القتلى عبد الرحمن بن جحدم الفهرى والى مصر من قِبَل ابن الزبير. وانتهت حركة ابن الزبير بمقتله سنة ٧٣هـ / ٦٩٣م.

ولأمير مصر الكثير من الإصلاحات والإنجازات، ومن إصلاحاته هدم ما تصدع من بنيان جامع عمرو بن العاص، وإعادة بنائه من جديد.

والأيام لا تبتسم دائماً لفرد، إنما تأتى للإنسان بالمصائب من حيث لا يدرى، فبينما عبد العزيز بن مروان يعيش فى مصر فى سعادة واطمئنان، توفى ابنه الأصبغ فى ٨٦هـ، فمرض على إثر ذلك وتوفى بعد ما يقرب من شهرين فى نفس السنة أى سنة ٨٦هـ.



وأنجز عبـد العزيز بن مروان الكثيـر من الإصلاحات، فبنى مـقياس النيل، ونظر فى مشاكل القـبط وحلَّها بالعدل، وأنشأ بركة كبـيرة ساق إليه الماء من العيون القريبة من جبل المقطم وهى قناطر مُقامة على أعمدة. وهذا النوع من القناطر كـان شائعاً فى الإمـبراطورية الرومـانية منذ القـرن الثانى الميلادى، واهتم بالعـمارة؛ فشيد فى الفـسطاط حماماً لأحـد أبنائه ويُسمى زيان وعلى باب الحمام تمثـال عجيب من زجاج على شكل امـرأة، وقد أُطلق اسم «أبى مرة» على القيسارية التى شيدها عبد العزيز بن مروان فـكانت تُعرف بقيسارية «أبى مرة»، وعُرف الحمام بعد ذلك بـ «حمام بثينة».

وكان عبـد العزيز بن مروان يتـصرف فى شئون مـصر كما يشـاء، وأصبحت مصـر مزرعة خاصـة به، واستطاعت أن تظهر بمظاهر النشـاط الأدبى والمادى، وتحدث المؤرخون عن كرم عـبد العزيز بن مروان وبِرِّه بالناس، وتحدث الناس عن كرمه وجوده. وقال الشاعر:

كـل يوم كـــــأنه يـوم أضـــــحى   عنـد عـــبــــد العـــزيـز أو يوم فـطر

وعلى الرغم من أن خراج مصر كله كان يئول لعبد العزيز بن مروان؛ إلا أنه لم يدخر مالاً لنفسه، وإنما أنـفق ما حصل عليه من مال عـلى أهل مصر وإصلاح البلاد، ولم يتـرك عند وفاته سوى سبعـة آلاف دينار، عدا بعض أملاك فى حلوان وعدداً من الخيل والرقـيق. لذلك أحبه أهل مصر، ورضوا عن ولايته، ورثَاه الشعراء بعد موته:

مـن ذا الـذى يـبـنـى المكـــارم والـعـلـى   ومن ذا الذى عـندى له بعـدك الشـعـر
فكنت حـليف العــرف والخيــر والندى   فـمُـتْن جـمـيـعـاً حين غـيَّبـك القـبـر

ولى **عبد الله بن عبد الملك** حكم مصر بعد وفاة عبـد العزيز بن مروان، وبايعه أهل مصر، وصدر مرسوم الخليفة الأموى - الوليد بن عبد الملك - بتولية أخيه عبد الله وأقرَّه على صلاة مصر وخراجها، ونفَّذ عبد الله بن عبد الملك خطة الدولة الأموية فى تعريب الدواوين، فعُرِّبت الدواوين فى مصر، وكـانت تُكتب بالقبطية، وصرف عبد اللـه بن عبد الملك أشناش من الدواوين، وأسند إدارة الدواوين إلى ابن يربوع الفزارى - من أهل حمص - وشـيَّد عبد الله بن عبد المـلك مسجداً سُمى باسـمه. وفى ولايته ارتفعت الأسـعار فى مصـر، وتشاءم منه أهل مصر. ومن إصـلاحاته إصلاح سقف مسجد عمرو بن العاص سنة ٨٩هـ.

ولى **قــــرة بـن شريك** بعد عبد الله بن عبد الملك، وله إنجازات كثيـرة فى مجال المال - نتحدث عنها فيما بعد - وزاد فى المسجد الجامع، وأصلح منبره.



مقياس النيل

وولى مصر فى عهد الخليفة عمر بن عـبد العـزيز، **أيوب بن شـرحـبيل**، فزاد فى أعطيـات الناس سنة ٩٩هـ، وحُـرِّمت الخمـر، وكُـســرت الحـانات، وزاد فـى رواتب الجند، ومُنعت النساء من دخول الحمامات.

سقف جامع عمرو بن العاص

ولما ولى يزيد بن عبد الملك عَهِد إلى بشـر بن صفوان بولاية مصر، فألغى الزيادة التى قررها عمر بن عـبد العزيز للعرب المُسجَّلين فى الديوان، وأضاف يزيد بن عبد الملك ولاية إفريقية (برقة وطرابلس وجزءاً من تونس) إلى بشر بن صفوان.

وأمر يزيد بن عبد الملك واليه فى مصر **عقبة بن مـسلم التجيبى** سنة ١٠٤هـ بكسـر الأصنام وتحطيم التمـاثيل فدمرهـا، وكُسر التـمثـال المقام على حـمام زيان. وفى العشـرين سنة الأولى بعد وفـاة عمر بن عـبد العزيز حـدثت عدة ثورات من القبط بـسبب تحطيم الأصنام وزيادة الجزية والخـراج وقمعهـا الولاة. كما أن الوالى حفص بن الوليـد زاد ما نقص من أرزاق المسلمين، فـأعادها إلى ما كـانت عليه أى اثنى عـشر إردباً، وكـانت قد نقـصت وصارت عشرة، فهدأ العرب المسلمون وسعدوا بهذا القرار الجديد.

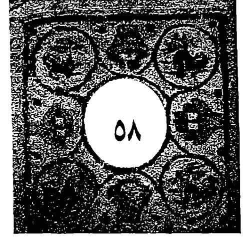
اضطربت الدولة الأموية بـعد وفاة هشام بن عـبد الملك سنة ١٢٥هـ وتوليـة الوليد بن يزيد الخلافة، قضى معظم أيام حكمه فى البادية، وبقـى فى الحكم سنة وشهرين، ثم قُتل لسوء سيرته سنة ١٢٦هـ، وخلفـه يزيد بن الوليد الذى توفى بعـد خمسـة أشهر، وبُويع أخـوه إبراهيم، وفى عهده تجلى الاضطراب فى البيت الأموى، فلم يكن هناك إجـماع على توليته، فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة، وناس بالإمارة، وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما. وانتهى الأمر بعزله وقتله.

ولما آلت الخلافـة إلى مروان بن محمـد، تعصب للقيسـية، وطالب اليمنيـة بدم الوليد بن يزيد، فثار عليه يزيد بن خـالد القسرى بدمشق، وانضمت إليه اليمنيـة، فأرسل مروان إلى دمشق جيشـاً أخمد الثورة، وخلصت له دمشق. كـما قضى على ثورات أخرى قام بهـا اليمنية فى بلاد الشام.

ولـم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد فى بلاد الشام، حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك، ودعـا أهلها إلى خلعه، وانضمت إليه اليـمنية، فهزمه مـروان. وقضى مروان سنوات حكمه فى محاربة الثوار ضد الدولة، خصوصاً أنصار الدعوة العباسية.

وانعكس ضعف الخـلافة على الولايات، فضعف ولاة مـصر. وتميزت فترة الوالـى بالقصر تبعاً لقـصر فترة حكم الخلفاء، وأصـبح والى مصر لا يخشى من الخليفـة الذى انشغل بالأحداث الداخلية فى الدولة بمراقبة أعمال الولاة.

ازدادت الدولة الأموية ضـعفاً وتدهوراً؛ فـبينما قـويت الدعوة العباسـية، وكثـر أنصارها، وأعلن أبو العبـاس الملقب بالسفاح قيـام الدولة العباسـية فى الكوفة، وبُويع كأول خليـفة للدولة العباسية الجديدة سنة ١٣٢هـ.



كان لا بد لأبى العبـاس بعد توليته الخلافـة من القضاء على الدولة الأموية، والتخلص من خليفتها مروان بن محمد، واشتبك الجيش العباسى مع جيش مروان بن محمد على ضفاف نهـر الزاب - أحد روافد دجلة - فى معركة حامية الوطيس، انهزم فيها جند مروان، وكان من غرق أكثر ممن قُتل، وهرب مروان تاركاً معسكره لأيدى الجيش العباسى، وفيه من السلاح والمال الشيء الكثير.

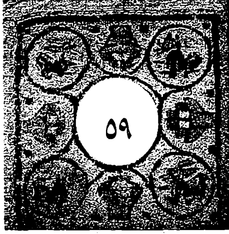
أما مروان بن محمد - آخر خلفاء بنى أمية - فظل يضرب فى الأرض، وينتقل من بلد إلى بلد، وجند العباسيين تطارده، فتوجه إلى الرقة ومنها إلى حرَّان، ثم إلى قنسرين ومنهـا إلى حمص، ومر بدمشق والأردن وفلسطين. ولما ضاقت عليه الأرض بما رحبت لجأ إلى مصر، ونزل بالعريش، وواصل سيره مع رجاله فى أرض مصر يحرق مخازن الغلال والعلف، وأشعل الحرائق فى كل بلد نزل فيه، واشتبك مع جند صالح بن على العباس - والى مصر من قِبل العباسيين، ووجد العباسيون صعوبة فى تتبعه والتخلص منه.

وما زال مروان يناوش ويحاور جند العباسيين ويجول ويصول على شواطئ النيل حتى نزل كنيسة فى بوصير فعلم جند العباسيين بمكانه، فاقتحموا الكنيسة، فهرب منها جند مروان بن محمد، وهاجمه الجند العباسى وقتلوه فى ذى الحجة سنة ١٣٢هـ، وأرسلوا رأسه إلى صالح بن على - الوالى العباسى - فأرسلها إلى الخليفة أبى العباس. وبمقتل مروان بن محمد سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية. وأصبحت مصر ولاية تتبع الدولة العباسية بعد أن كانت تتبع الدولة الأموية.



من الطبيعى أن يكون فى مصر الإسلامية رد فعل لسقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية، فقد تأثر المصريون بالحكم الأموى، ووُجد أنصار فى مصر للحكم الأموى، وثاروا ضد الحكم العباسى مطالبين بعودة بنى أمية إلى الحكم. كما أن أهل مصر أحبوا آل بيت رسول الله ﷺ، ونزل فى مصر عدد من رجال ونساء آل البيت، التفَّ حولهم المصريون وأحبوهم.

ولما قامت الدولة العباسية كان المفروض أن الدعوة لقيام هذه الدولة كانت دعوة لحكم آل البيت الذين لقوا الاضطهاد من بنى أمية، وتحولت الدعوة إلى العباسيين، وخدعوا العلويين،

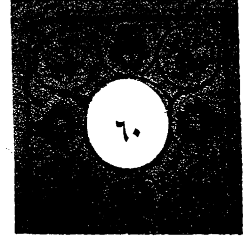


وادَّعوا أنهم يدعون إلى الرضا من آل محمد، ولما استطاع العباسيون إقامة دولتهم تنكروا للعلويين تماماً، وتحول العلويون إلى حزب معارض للحكم العباسى، كما كانوا معارضين للحكم الأموى من قبل، فقام شيوخ العلويين بثورات ضد بنى العباس مطالبين بحقهم فى الإمامة، ومن أهم هذه الثورات: ثورة الإخوة الأربعة (محمد ذو النفس الزكية وإبراهيم، ويحيى، وإدريس أبناء عبد الله بن الحسن بن الحسن)، يُضاف إلى ذلك العديد من الثورات حتى لا يكاد يخلو عصر خليفة من ثورة من هذه الثورات، وتصدى لها العباسيون بكل عنف، وقُتل الكثير من شيوخ وشباب آل البيت.

تعددت ثورات العلويين فى مصر، وقضى عليها العباسيون بكل عنف. ففى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ - ١٦٩هـ) وفى ولاية إبراهيم بن صالح على مصر من قبل هذا الخليفة، ثار أحد شيوخ الأمويين ضد الحكم العباسى، وهو دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وقام بثورته فى صعيد مصر، بعيداً عن مقر الوالى العباسى، فتهاون الوالى العباسى مع هذا الثائر، وتغاضى عنه، وقلَّل من أهمية ثورته فقوى شأن الثائر الأموى، وازداد خطره، وسيطر على معظم بلاد الصعيد، وبلغ من ازدياد نفوذه أنه كاد أن يستقل بالبلاد التى سيطر عليها. ولما علم الخليفة العباسى المهدى بأخبار هذه الثورة التى ازداد أمرها بسبب تهاون واليه أمر بعزله، وعَهِد إلى موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمى بولاية مصر، فأرسل جيشاً قوياً لقمع هذه الثورة قاده عبد الرحمن بن موسى اللخمى. على أن هذا الوالى قُتل بأيدى اليمنية والقيسية الذين تكتلوا ضده، فعَهِد الخليفة بولاية مصر إلى عسامة بن عمرو، وأمره بمحاربة دحية وقمع ثورته.

ولم يتمكن هذا الوالى من إخضاع الثورة، فعزله الخليفة، وعَهِد إلى الفضل بن صالح بن على العباسى بولاية مصر سنة ١٦٩هـ، وكانت مهمته صعبة، فكان سبب فشل الولاة فى قمع ثورة الصعيد ازدياد نفوذ دحية، وكثرة أتباعه، وانتشار ثورته فى مصر، حتى طالبه أهل الفسطاط بالقدوم إليهم، وتخليصهم من الحكم العباسى.

أمدَّت الدولة العباسية الوالى الجديد بجيوش من الشام، وهاجم الوالى العباسى قوات دحية فى ديروط، فتقهقر دحية وأنصاره إلى الواحات حيث الخوارج أهلها، فدعاهم إلى نصرته، ولكنهم طلبوا منه اعتناق مذهبهم كشرط لنصرته فأخبرهم أنه على مذهبهم، فانضموا إليه وقاتلوا معه يوم الدير، فأرسل إليه الوالى العباسى جيشاً لقتاله، فهزمه دحية بسبب انضمام أهل الواحات إليه. غير أن أهل الواحات ما لبثوا أن تخلوا عن دحية؛ لأنه فضَّل العرب على الموالى، كما أنه رفض التبرؤ من قتل عثمان، فاتضح لأهل الواحات أن دحية وأنصاره لا يعتقدون بمذهب الخوارج أى أنهم مخالفون له فى المذهب، وأنه خدعهم بادِّعائه أنه من الخوارج فتخلوا عن نصرته، وانسحبوا من جيشه. فلما علم الجيش العباسى بانسحاب أهل الواحات من جيش دحية، وأنه

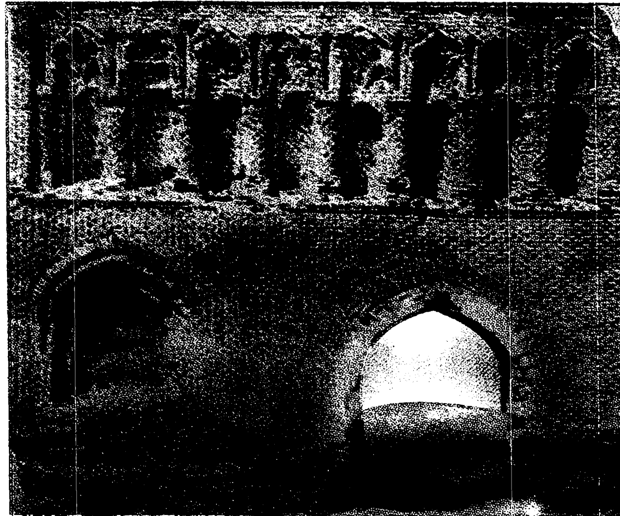


ضعف تبعاً لذلك عاد القائد العباسى وهاجم دحية بكل قوة وضراوة، وشدد هجماته على الثوار حتى هزمهم، وقبض على زعيم الثوار - دحية - وسِيق إلى الفسطاط فقتله، وأرسل رأسه إلى الخليفة الهادى فى بغداد سنة ١٦٩هـ.

أدى فشل الأمويين فى ثورتهم فى مصر إلى توقف القادة الأمويين عن المطالبة بعودة الحكم الأموى، والقضاء على العباسيين الذين اغتصبوا الحكم منهم. ولجأ أنصار بنى أمية فى مصر إلى التعبير عن عدم رضاهم عن الحكم العباسى بالانضمام إلى الثورات العلوية وتأييدها ومناصرتها.

قامت ثورات علوية فى مصر فى العصر العباسى الأول، وتعددت ثوراتهم ضد هذه الدولة، ومن هذه الثورات ثورة على بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ودعا إلى أبيه ذى النفس الزكية، ثم عمه إبراهيم بن عبد الله، وكانت دعوة ذى النفس الزكية التى ظهرت فى المدينة المنورة قد انتشرت فى العالم الإسلامى، ولكن المنصور قضى عليها بواسطة قائده عيسى بن موسى، وقُتل ذو النفس الزكية. أما إبراهيم فقد ثار فى البصرة وانضم إلى ثورته العديد من الناس فى العراق والمشرق الإسلامى، وانتهت هذه الثورة بالفشل سنة ١٤٥هـ، وقُتل إبراهيم فى باخمرى؛ لذلك سُمى شهيد باخمرى.

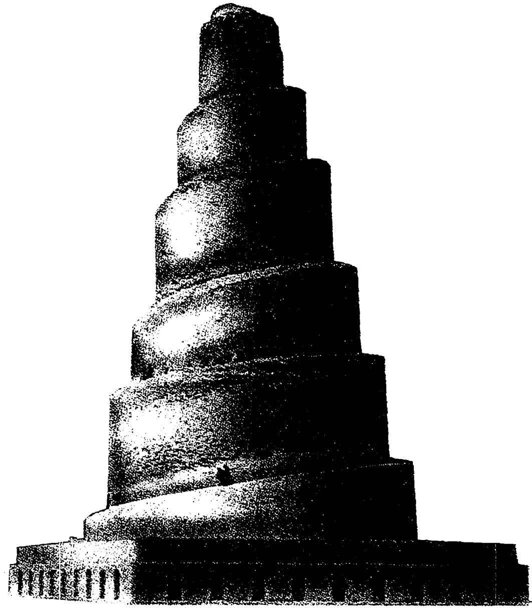
بعد هذه المحن التى لحقت بآل البيت، لجأ علىّ بن محمد ذو النفس الزكية إلى مصر، دعا لآل البيت، ولكن والى مصر حميد بن قحطبة تساهل فى أمر هذه الثورة وتغاضى عنها، وبعث إلى أبى جعفر المنصور يخبره بخبر هذه الثورة، فعزله المنصور لتهاونه مع الثائر العلوى، وعَهِد إلى يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبى صفرة بولاية مصر [١٤٤ - ١٥٢هـ] وفى غضون ذلك انتشرت دعوة على بن محمد ذو النفس الزكية فى مصر، ودخل فيها كثيرون؛ لأن المصريين - كما تعلمون - يحبون آل البيت ويقدِّرون النسب الشريف حق قدره؛ ولكن الجيش العباسى فى مصر قضى على أنصار العلويين وقتل زعماءهم وقادتهم سنة ١٦٠هـ. أما الإمام علىّ



بوابة مدينة بغداد حاضرة العباسيين

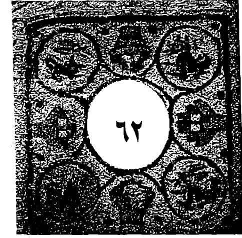
ابن محمد ذو النفس الزكية - الداعية وقائد الثورة - فقد اختفى بمصر عند عسامة بن عمرو، واستضافه فى بيته، وكفل له الراحة والطمأنينة والأمن والسلام، وظل مقيماً فى بيته حتى مرض ومات. وبذلك فشلت هذه الثورة العلوية.

قام الحسين بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بثورة فى المدينة المنورة يدعو إلى إمامة آل البيت، والانتقام لمقتل شيوخهم، وبايعه الناس، وامتدت ثورته إلى مكة المكرمة. وفى موسم الحج أثناء خروج الناس إلى عرفة لأداء فريضة الحج استولى على مكة، واتجه إلى منى فى يوم التروية، وانضم إلى ثورته أئمة وشيوخ آل البيت مثل: يحيى بن عبد الله، وإدريس بن عبد الله. وتصدى الجيش العباسى للثوار، ودخل فى قتال مع آل البيت وأنصارهم فى فخ، وقُتل فى هذه المعركة الكثير من رجال آل البيت، فلجأ يحيى إلى بلاد الديلم بعيداً عن العباسيين، وقام بثورته، فأرسل إليه الخليفة الرشيد، الفضل بن يحيى البرمكى، فأعطاه أماناً، وقَّع عليه الفقهاء والقضاة فكف عن الثورة، ولجأ إلى بغداد، وأنزله الرشيد فى بيت يليق به، وما لبث أن أرسل إليه من قتله؛ لأنه اعتقد أن بقاءه قد يؤدى به إلى العودة إلى الثورة.


مئذنة مسجد سامراء

أما إدريس بن عبد الله فقد توجه إلى بلاد المغرب الأقصى والتف البربر حوله ونصَّبوه إماماً عليهم. وبذلك تحقق حلم العلويين، وأقاموا دولة يحكمها إمام من آل البيت، هو إدريس بن عبد الله سنة ١٧٢هـ.

مر إدريس بن عبد الله بمصر أثناء سفره إلى المغرب، فاستضافه الوالى العباسى ولم يفصح عن أمره، بل يسَّر له أمر رحلته إلى المغرب، بعد أن استراح بعض الوقت فى مصر. ولما ازداد اضطهاد العباسيين لآل البيت وفد الكثير منهم إلى مصر ووجدوا فيها الأمن والأمان وحسن الرعاية، لأن المصريين - كما نعرف - يحبون آل البيت. وممن وفد على مصر السيدة نفيسة - رضى الله عنها - بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب، وهى زوجة إسحاق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علىّ زين العابدين بن



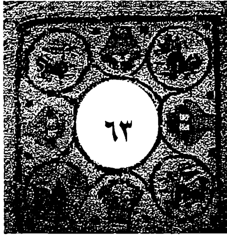
الحسين بن علىّ بن أبى طالب، وقد لجأت إلى مصر من المدينة المنورة بعيداً عن بطش وملاحقة العباسيين لآل البيت، وكانت فقيهة عالمة تناظر الإمام الشافعى فى الفقه، ويقول إنه تعلم منها الكثير من المسائل، وكانت تعقد فى بيتها مجلساً يضم الفقهاء وتناظرهم من وراء ستار. وظلت مقيمة فى مصر حتى وفاتها سنة ٢٠٨هـ، وقد أحبها المصريون، ورفضوا رغبة زوجها فى دفنها فى المدينة المنورة، ودُفنت فى موضع مسجدها الحالى.

وعاش العلويون فى مصر فى رعاية شعبها، ولم يتعرض لهم العباسيون بسوء حتى ولى المتوكل الخلافة (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) فأرسل كتاباً هو وابنه المنتصر - صاحب إقطاع مصر فى ذلك الوقت - إلى إسحاق بن يحيى - والى مصر - يأمره بإخراج العلويين من مصر، حتى لا يزداد نفوذهم فيها، وأخرجهم الوالى العباسى من مصر حتى لم يبق فيها إلا القليل، وقد اختفوا بعيداً عن أعين العباسيين.

اضطُّهد العلويون والشيعة فى مصر منذ عهد المتوكل، وتعقبهم الوالى - يزيد بن عبد الله - وأرسل بعضهم إلى العراق والبعض الآخر إلى الحجاز. ولما قُتل المتوكل سنة ٢٤٧هـ، وولى ابنه المنتصر الخلافة، بالغ الخليفة الجديد فى اضطهاد العلويين، وأرسل إلى واليه - يزيد بن عبد الله - منشوراً باضطهاد العلويين والإساءة إليهم. يتضمن المنشور ألا يمتلك العلوى ضيعة، ولا يركب فرساً، ولا يغادر الفسطاط إلى بلد آخر، ولا يتخذ أكثر من عبد واحد، ولو تخاصم أحد العلويين مع غيره يُحكَم لغيره ولا يُحكَم للعلوى حتى ولو لديه دليل.

وعلى الرغم من هذه القيود التى فُرضت على العلويين فى مصر؛ إلا أنهم التفوا حول رجل منهم يُسمى محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب وبايعوه إماماً، فقبض عليه الوالى العباسى - يزيد بن عبد الله - وما زال به حتى أقرَّ بأسماء أنصاره، فقبض عليهم الوالى العباسى، وضربهم بالسياط، وأرسلهم إلى العراق، وحدث هذا فى خلافة المستعين سنة ٢٤٨هـ.

اضطربت الدولة العباسية بعد أن استعان الخليفة المعتصم بالترك، وأسند إليهم أمر الجيش، وولاهم المناصب الكبيرة. والترك كثيرو الفتن والشغب، ومصدر من مصادر القلاقل والاضطرابات. لذلك سيطروا على الخلافة العباسية، وتدخلوا فى الشئون السياسية، وسيطروا على الخلافة حتى أصبح الخليفة أُلعوبة فى أيديهم؛ يولونه أو يقتلونه أو يعزلونه، وسيطروا على الجيش، وتولوا حكم الولايات. لذلك أصبحت سامرَّاء ثم بغداد من مصادر الاضطرابات، وضعفت الدولة العباسية تبعاً لذلك، وقتلوا الخليفة المتوكل على الله سنة ٢٤٧هـ، وحاربوا الخليفة المستعين. وقد انعكس على الدولة العباسية وولاياتها الاضطرابات والقلاقل التى تسبب فيها الترك.



أدى ضعف الخلافة العباسية وضعف الخليفة إلى عودة العلويين فى مصر إلى الثورة، والتعبير عن غضبهم من الخلافة العباسية، والسعى إلى تحقيق هدفهم الرامى إلى إقامة دولة يحكمها رجل من آل بيت رسول الله ﷺ.

ففى خلافة المعتز ثار فى الإسكندرية جابر بن الوليد المدلجى سنة ٢٥٢هـ، وقوى بأسه، واشتدت قوته، وازداد نفوذه. وما زال سلطانه فى ازدياد وقوته فى الانتشار حتى سيطر على الكثير من بلدان مصر، وجبى منها الخراج. وبذلك كثرت لديه الأموال، وأصبح لديه المقدرة على حماية ممتلكاته فى مصر، وعجز والى مصر - يزيد بن عبد الله - فى القضاء على ثورته، فأرسل الخليفة العباسى جيشاً قوياً إلى مصر بقيادة مزاحم بن خاقان، وهاجم جيش الخليفة الثائر عدة هجمات حتى لحقت به الهزيمة سنة ٢٥٢هـ، وأسر القائد العباسى مزاحم الثائر جابرا. وبذلك فشلت هذه الثورة العلوية، وكافأ الخليفة العباسى قائده مزاحم بأن أسند إليه ولاية مصر، بعد أن عزل واليها يزيد بن عبد الله.

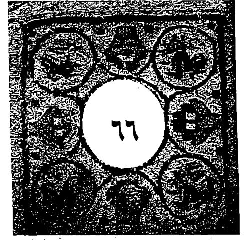
وحركة جابر بن الوليد، حركة علوية قويت بفضل انضمام بعض العلويين إليها. وتلت هذه الثورة، ثورة علوية أخرى قادها سنة ٢٥٤هـ بالصعيد أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا، ويُسمى «بغا الأكبر» واندلعت هذه الثورة فى ولاية أزجور التركى، وهاجمه جند الوالى العباسى وهزموه، ومات قبل أن يسقط فى أيدى الوالى العباسى.

وأعلن بغا الأصغر ثورة علوية جديدة فيما بين الإسكندرية وبرقة فى موضع يُقال له الكنائس سنة٢٥٥هـ، ثم سار على رأس مؤيديه إلى الصعيد، فهزمه ابن طولون وقتله سنة ٢٥٥هـ. كذلك ثار بصعيد مصر سنة ٢٥٣هـ ابن الصوفى العلوى، ودخل إسنا سنة ٢٥٥هـ فخربها، وقتل أهلها، واستولى على ممتلكاتهم، فهزمه ابن طولون، وفرَّ إلى المدينة المنورة، واستقر بها. [انظر د. سيدة الكاشف: مصر فى فجر الإسلام].

وبذلك فإن العلويين انتهزوا كل الفرص الممكنة للقيام بالثورات ضد بنى العباس للانتقام مما ألحقوه من الظلم والاضطهاد لآل بيت رسول الله ﷺ وأيضاً لمحاولة تحقيق هدفهم الرامى إلى إقامة دولة يحكمها إمام من آل البيت، وثاروا فى أماكن بعيدة عن أعين الوالى العباسى مثل صعيد مصر. وعلى الرغم من التضحيات التى قدموها إلا أنهم ظلوا يتحينون الفرص المناسبة لإعلان ثوراتهم.

الصراع بين الأمين والمأمون وأثره فى مصر:

ازداد نفوذ الفرس فى الدولة العباسية، وسيطروا على الخلافة؛ بل كان شئون الحكم وإدارة البلاد وميزانيتها فى أيدى البرامكة. ولم يعد للرشيد من السلطة والنفوذ شيء يُذكر؛ لذلك حاول



الإسكندرية فعزلوه، وولـوا مكانه «الكانى». وبذلك قامت فى الإسكندرية جمهورية مـستقلة للأندلسيين. وأصبحت مصـر ولايات مستقلة يحكم كل قسم والٍ لا يدين واحد منهم بالولاء للخلافة العباسية.

لم يتغاض الجروى عن مقتل ابن هلال - عامله على الإسكندرية - من قِبَل الأندلسيين الدخـلاء، فسار إليها بجـيش كبير قوامـه خمسين ألف جندى، وحاصرها. على أنه اضطر إلى رفع الحصار بسبب خروج بعض البلاد عليه.

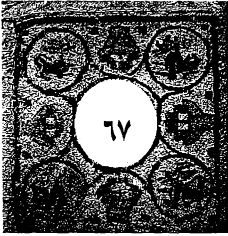
ولما بُويع المأمون بالخلافة سيطر عليه الفـضل بن سهل، وعزله فى مرو بخراسان؛ بل أقنعه بالمبايـعة لأميـر علوى وهو «على الرضا بن مـوسى الكاظم»، وأمر بارتداء الزى الأخـضر شـعار العلويين بدلاً من الزى الأسـود - شعار العـباسيين - فـاستاء البـيت العباسـى فى بغداد من هذا العمل؛ الذى فيه القضاء على الخلافة العباسية، وخلعوا المأمون، وبايعوا إبراهيم بن المهدى ولقبوه «المبارك». وبذلك أصبح فى الدولة العبـاسية خليفتان، المأمون والمبـارك. وأرسل كل واحد منهما العهد بولاية مصر إلى واحد من أنصاره، فازداد الانقسام تبعاً لذلك فى مصر، ولم يعد هناك ولاء من المصريين نحو الخلافة العباسية.

على أن هذا الانقسام فى الخـلافة انتهى بمقتل على الرضا - والى العـهد الجديد ، والوزير الفضل بن سـهل، ورحل المأمون إلى بغـداد وانفرد بالخلافـة. وفرَّ من بغداد إبـراهيم بن المهدى المُلقَّب بالمبارك.

عاد الجـروى إلى حصـار الإسكندرية للمرة الرابعـة، فأغلق الأندلسـيون حصنـها، ولكن الجروى ضيَّق عليهم الحصار، وضرب حصنهم بالمنجنيق، وظل فى حصاره سبعة أشهر حتى مقتله سنة ٢٠٥هـ.

انتهى النزاع بين الولاة فى مصر إلى خـضوعها لعبيد الله بن السرى فـيما عدا الإسكندرية التى كانت خاضعـة لسيطرة الأندلسيين. وبعد أن هدأت الأمور فى الدولة الإسلامـية تفرغ المأمون لاستعادة سيطرته على مصر، والقـضاء على الفوضى والاضطرابات التى سادت أرجاءها، فأرسل قائده عبد الله بن طاهر لإعادة الهدوء والاستقـرار إلى مصر. وكانت مصر خلال سنوات الفوضى التى زادت عن عشر سنين لا ترسل الخـراج والأموال إلى بغداد، ولا تعترف بعمـال الخليفة، ولا تخضع لأوامره وتعليماته.

لما قدم عبـد الله بن طاهر إلى مصر اسـتسلم له بعض القادة المتغلبين على نـواحى مصر، وحارب المتمـردين منهم حتى هزمهم. وبذلك قـضى على عناصر التمرد ضـد الخلافة العبـاسية، وأعاد مصر إلى حوزة بنى العباس.



أمـا الإسكندرية التى استـولى عليـها الأندلسـيون، وأقـاموا فـيهـا جمهورية مـستقلة فإن عبد الله بن طاهر حـاصرها فى سنة ٢١٢هـ، وشدد عليـها الحصـار حتى طلب الأنـدلسيون الأمـان، وصالح القـائد العبـاسى الأندلسيين على شـرط مغادرة الإسكندرية إلى أى مكان يريدون، فـخرجوا إلى جزيرة أقـريطش (كريت) وانتزعوها من حكامـها البيزنطيين بقـيادة أبى حفص عمـر بن عيسى، ثم ولَّى عـبد الله بن طاهر إلياس بن سامـان على الإسكندرية وعاد إلى الفسطاط.

وبذلك قضى عـبد الله بن طاهر على القادة الذيـن نصَّبوا أنفسـهم حكاماً على مقـاطعات مصر، وقسَّموا مـصر إلى دويلات شبه مستقلة لا تخضع للحكومة العـباسية. وكوَّن بعض هؤلاء الولاة أسراً مسـتقلة تتوارث الحكم فى الولايات التى اغتـصبوها، وحارب الولاة بعضـهم بعضاً، فضعفت البلاد، وتحولت إلى مسرح للعمليات الحربية بينهم. وانهار بذلك اقتصاد مصر، وضعفت وتدهورت حتى أعاد عبد الله بن طاهر الوحدة إليها واستقرت البلاد، وعادت إلى الدولة العباسية كولاية من ولاياتها.

كذلك اعتزم المأمون استئصال جذور الثورات التى شهدتها مصر، وإتمام مهمة واليه عبد الله ابن طاهر بن الحسين، فقدم إلى مصر، لتأكيد سيطرة العباسيين عليها سنة ٢١٧هـ.

أرسل الخليفة المأمون فرقاً من جيشه إلى جهـات مصر المختلفة لقمع ثوراتها، والقضاء على زعمائها، وقضى فى مصر تسعة وأربعين يوماً، وتجول المأمون فى أنحاء مصر، ورحَّب به المصريون على اختلاف طوائفهم، وقدموا له الهدايا النفيـسة. وممن أكرم وفادته امرأة قبطية كانت تحكم قرية فى الصعيد، فتـوسلت إلى الخليفة، وبكت بين يديه، وألحَّت عليه بقبول ضيافـتها فقَبِل، وبالغت فى إكرامه وإكرام مرافقيه، وقدمت له هدايا قيمة، فسعد المأمون لحسن استقبال هذه المرأة له، وقدَّر حسن ضـيافتهـا. والذى يعنينا من جولة المأمون فى مـصر، أنه نكَّل بالثوار، وأخـضع الثائرين، ودانت له مصر كلها بالولاء والطاعة.

محنة القول بخلق القرآن وأثرها فى مصر:

حمل المأمـون الناس على القول بخلق القـرآن، وناهض القائلين بأن القرآن قـديم قدم الله تعالى. ففى سنة ٢١٨هـ أمـر المأمون عامله على بغداد بأن يمتحـن الناس فى القول بخلق القرآن، وأمره بأن يعـاقب من يعارض هذا القـول، فكتب إليه: «إن من حق الله سـبحانه وتعـالى وأئمة المسلمين على خلفـائهم الاجـتهـاد فى إقامـة دين الله الذى استـحـفظهم، ومواريث النبـوة التى أورثهم.. وقد عرف أمـير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسـواد الأكبر من حشو الرعـية، وسفلة العامـة.. ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين مـا أُنزل من القرآن فأطبـقوا مجتـمعين واتفقوا غـير

متعاجمين على أنه قديم أو لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه. . . ثم هم الذين جادلوا بالباطل، فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة، فاستطالوا بذلك على الناس وغرروا بالجهال. . فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، فابدأ امتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه».

والمأمون أخذ هذه الآراء من المعتزلة التى انتمى إليها. وعلى الرغم من تشدد المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن؛ فإن بعض العلماء والفقهاء رفضوا رأى الخليفة، وأصروا على أن القرآن قديم، وتعرضوا للأذى بسبب إصرارهم. وتأثر به المعتصم، فلما ولى الخلافة حمل الناس على القول بخلق القرآن، واشتد فى معاقبة معارضيه، ومن بينهم أحمد بن حنبل. فعلى الرغم من تعرضه للضرب المؤلم والتعذيب؛ إلا أنه أصر على رأيه، ورفض الاستجابة لرأى الذين أشفقوا عليه من التعذيب، وطلبوا منه أن يقول بخلق القرآن تقية، فقال: «إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل فمتى يتبين الحق». وأصر على اعتقاده. وكان أحمد بن حنبل يقول بأن الله قديم ليس كمثله شىء، ولا يقول بخلق القرآن، لأن الله لم يقله. والقرآن من علم الله، ومن زعم بأن علم الله مخلوق فقد كفر بالله. . . ﴿**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا** (١٦٤)﴾ [النساء].

حمل المعتصم الناس فى سائر ولايات الدولة العباسية على القول بخلق القرآن، ومن لم يفعل يتعرض للعقاب.

وفى ولاية كيدر بن عبد الله على مصر (٢١٠ - ٢١٩هـ) وصله خطاب من المعتصم سنة ٢١٨هـ يأمره بدعوة الناس إلى القول بخلق القرآن، وأن يمتحن قاضى مصر إذ ذاك هارون بن عبد الله الزهرى، وأمر أن يمتحن المحدثين والفقهاء والعلماء والمؤذنين والقُرَّاء، وأن يعزل من يرفض القول بخلق القرآن، وطلب منه ألا يأذن لأحد فى حديث أو فتوى أو شهادة إلا إذا أقرَّ بالقول بخلق القرآن. ومن الواضح أن هذه الدعوة لم تلق فى مصر فى أول أمرها معارضة شديدة. ولم تتعرض مصر لما تعرضت له العراق من قتل واضطهاد وتعذيب للرافضين القول بخلق القرآن. ويُقال إن بعض الناس قالوا بخلق القرآن تقية لتجنب التعذيب والعزل من أعمالهم، وهرب من أصر على قوله من مصر.

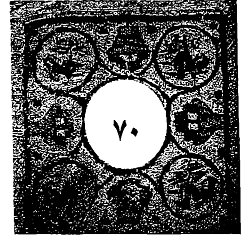
وفى عهد الخليفة الواثق أمر قاضى مصر بامتحان الناس فى القول بخلق القرآن، فامتحن الفقهاء والعلماء والمؤذنين والقُرَّاء والخطباء وسائر الناس، وهرب من لا يستطيع القول بخلق القرآن. وقد أمر القاضى ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد «لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق».

كما منع الفقهاء أصحـاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد، وأمرهم لأنه لم يكن للمـذاهب الأخرى أتباع فى مصـر. وهرب من مصر فيـمن هرب، أحد العلـماء البارزين، وهـو ذو النون الأخميـمى، ورفض العالم الشـافعى أبو يعـقوب يوسف البـويطى القول بخلق القـرآن، فأرسله القاضى ابن أبى الليث إلى بغداد، وزُجَّ به فى السجن، وظل به حتى وفاته سنة ٢٣١هـ. ومُلئت السـجـون فى مصـر بالرافـضين بالقـول بخلق القرآن، ورحـل الكثيـر من المعارضين من مصر، وقُتل وعُذب بعض الناس.

استمرت مـحنة القول بخلق القرآن حتى ولى المتوكل الخلافـة، فأصدر منشوراً سنة ٢٣٤هـ بمنع امتـحان الناس بالقول بخلق القـرآن، وتوقف الجدل فيـها. وبذلك عاد إلى مـصر كل الذين غادروها بسـبب المحنة، وخرج المسـجونون من السـجون، والمفـصولون من وظائفـهم عادوا إلى أعمالهم، وفرح الناس فرحاً شديداً بانتهاء هذه المحنة، وأثنوا على المتوكل، ومدحه الشعراء.

العسكر:

سكن ولاة مـصر العـسكر، وأول من نزلها أبو عـون. وكان مـوضعـها يُعـرف بالحـمراء القصوى، وكانـت تضم خطط بنى يشكر وبنى الأزرق وبنى روبيل، واندثرت هذه الخطط وتحولت أرضها إلى صـحراء، وملأ جند بنى العباس هذا الفضـاء، وأمر أبو عون أصحابه بالبناء فـيه فبنوا سنة ١٣٣هـ وبنى الوالى الذى خلف صالح بن علىّ وهو موسى بن عيسى الهاشمى داراً أنزل فيها حشمه وعبيده، وعـمّر الناس هذا المكان، وأذن السرى بن الحكم - والى مصر - بعد ذلك للناس بالعمارة، فبنوا الدور وكثر البناء حتى اتصل بالفـسطاط وبُنيت فيه دار للإمارة ينزلها الأمراء، كما بُنى فيها مسجد جامع عُرف بجامع العسكر ثم عُرف بجامع ساحل الغلة، وبدار الإمارة باب يؤدى إلى الجامع وسُميت الشرطة فيها بالشرطة العليا. وسُمى هذا الفضاء بالعسكر، وأقام فيه ولاة مصر العباسيـون. وصارت هذه المدينة مدينة ذات محال وأسواق ودور عظيمة ودواوين، وقـد نزل فيها أحمد بن طولون فى أول ولايته وبنى فيها مارستاناً أنفق عليه ستين ألف دينار. وقد اتصلت مبانى مدينة العسكر بمبانى مدينة القطائع التى شيدها أحمد بن طولون فيما بعد.





نشأة أحمد بن طولون:

توفى طولون - والد أحمد سنة ٢٤٠هـ، وكان أحمد فى العشرين من عمره، وأمه جارية، وولُد أحمد سنة ٢٢٠هـ. وطولون من أرقاء الترك فى بلاد ما وراء النهر، أرسله الأمير السامانى نوح بن أسد - والى خراسان وبلاد ما وراء النهر - إلى المأمون ضمن الإتاوة المقررة عليه، ونشأ أحمد بن طولون نشأة طيبة، وكان دمث الأخلاق شجاعاً متديناً، خرج إلى طرسوس عدة مرات، والتقى بشيوخها ودرس عليهم علوم الحديث والفقه والأدب، والتقى بجماعة من الزهاد، فأدَّبوه بآدابهم، فحسنت طريقته وظهر فضله، وظهرت أمانته على الأموال والأسرار ـ وارتفعت مكانته على الأتراك، وزوَّجه يارجوخ من ابنته، فأنجب منها ابنه العباس وابنته فاطمة. وأقام فى طرسوس، ولما اعتزم العودة إلى سامرا فى عهد الخليفة المستعين لزيارة أسرته التحق بقافلة تضم خمسمائة رجل.

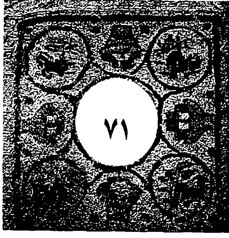
كما ضمت القافلة تحفاً رومية إلى الخليفة المستعين، وهاجم قُطَّاع الطرق القافلة، وسرقوا كل تحف الخليفة ولاذوا بالفرار، فتتبعهم أحمد بن طولون وقاتلهم، واسترد تحف الخليفة، وفرَّ اللصوص بعد أن هاجمهم أحمد بن طولون بشدة وضراوة، وأصبح أحمد بن طولون موضع تقدير الخليفة، فمنحه ألف دينار، وكان الخليفة يصل ابن طولون فى كل مناسبة، وأهداه جارية تُسمى مياس، أنجب منها ابنه أبا الجيش.

ولما عُزل المستعين، وتولى المعتز الخلافة، أبعد الأتراك المستعين ونقلوه إلى واسط، وحددوا إقامته بها، وعهدوا إلى ابن طولون بحراسة المستعين، فبالغ فى تقديره وإجلاله، وأطلق له حرية التنزه والخروج إلى الصعيد. على أن قبيحة - أم المعتز - خشيت مما قد يقوم به المستعين من محاولة لاسترداد ملكه من المعتز، فكتبت إلى أحمد بن طولون تطالبه بقتل المستعين فرفض وقال: والله لا يرانى الله أقتل خليفة له فى رقبتى بيعة وأيمان مُغلَّظة أبداً. فازدادت مكانته عند الأتراك ورجال الدولة العباسية.

تولية أحمد بن طولون مصر:

ازدادت مكانة ابن طولون فى سامرا، وكان الخلفاء يولون الولاة على الولايات، فيرسل الوالى من ينوب عنه فى حكم الولاية، ويفضِّل البقاء فى سامرا للاطلاع على ما يجرى فيها من تطورات وتقلبات سياسية، ويتجنب ما قد يُحاك فيها من دسائس ومؤامرات قد تمسه بسوء.

عَهِد باكباك - والى مصر على أحمد بن طولون بحكمها نيابة عنه، وضم إليه الجيش. ورحل ابنَ طولون إلى مصر فوصلها فى رمضان سنة ٢٥٤هـ، واصطحبه فى رحلته أحمد بن



محمد الواسطى، وظلت علاقته قوية به، ورافقه أيضاً أبو يوسف يعقوب بن إسحاق وأصبح وزيره ومستشاره.

ولى أحمد بن طولون مصر نيابة عن واليها باكباك، وقد أشرف على سياسة الدولة الداخلية والخارجية، والصلاة بالناس وتبصيرهم بشئون دينهم. أما شئون الخراج وإدارة المال فكانت فى يدى أحمد بن المدبر.

استقبل أحمد بن المدبر أحمد بن طولون استقبالاً حسناً وقدَّم له هدايا قيمتها عشرة آلاف دينار، وكان معه شقير الخادم - عامل البريد - وكان بصحبة ابن المدبر مائة غلام من مولدى الغور (فى أفغانستان) وكانوا حرسه الخاص، ويرتدون أحسن الثياب ومُسلَّحين بأسلحة قوية، وكانوا يقفون على جانبى مجلس ابن المدبر، وإذا ركب كانوا بين يديه، فكانت لهم به هيبة فى صدور الناس إذا رأوهم.

رفض أحمد بن طولون هدية ابن المدبر. هنا عرف ابن طولون وأدرك خطورته على نفوذه، فاتفق مع شقير على الدس له عند أمير المؤمنين. ولكن ابن طولون تدارك الموقف وأرسل إلى ابن المدبر يطلب منه بدلاً من الهدايا الغلمان الذين هم مصدر قوة وهيبة ابن المدبر. وعلى الرغم من أن ابن المدبر أدرك خطورة طلب ابن طولون، إلا أنه أهدى إليه غلمانه. وبذلك ازدادت هيبة وقوة ابن طولون، بينما ضعفت قوة ابن المدبر بعد أن تنازل عن غلمانه.

ازدادت مكانة وقوة ابن طولون كذلك فى مصر بعد موت الخليفة المعتز، وتولية المهتدى الذى كان ناقماً على باكباك فعزله، وعَهِد إلى يارجوخ بحكم مصر، ونحن نعرف أن ابن طولون قوى الصلة بيارجوخ لما بينهما من علاقة ومصاهرة؛ فأحمد بن طولون زوج لابنة يارجوخ، فكان الأخير أكبر عوناً لابن طولون؛ لذلك ضم يارجوخ الإسكندرية إلى أحمد بن طولون.

العقبات التى واجهها ابن طولون فى حكمه:

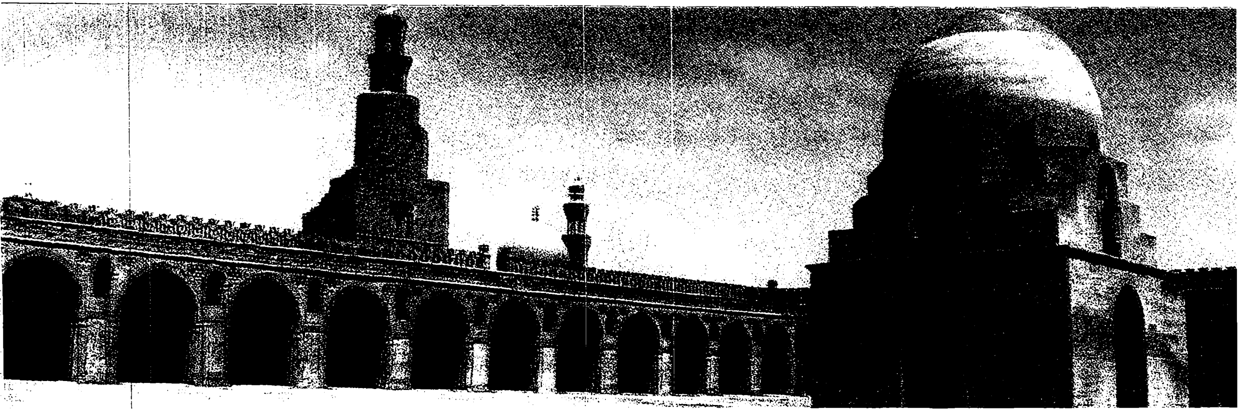
واجه أحمد بن طولون عدة عقبات للنيل منه والتخلص من حكمه، ولكنه استطاع التغلب عليها. ومن أهم هذه العقبات:

١- ابن المدبر:

وهو عامل الخراج الذى بيده ثروة مصر، ولقد عرفنا أنه حاول وضع العراقيل فى سبيل حكم ابن طولون، وسنتكلم فيما بعد عن النزاع بين ابن طولون وابن المدبر.

٢- ابن الشيخ:

لما حكم ابن طولون مصر ودانت له البلاد بالولاء والطاعة، اعتزم توسيع رقعة دولته، فتطلع إلى ضم الشام والثغور إلى ملكه، وكان أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى يتقلد جندى فلسطين والأردن، فلما مات سيطر عليهما ابن الشيخ، وحمل ابن المدبر من مصر مالاً إلى الخليفة يُقدر بسبعمائة وخمسين ألف دينار، فاستولى ابن الشيخ على المال وفرَّقه فى أصحابه، وشجعه



جامع أحمد بن طولون

على ذلك اضطراب الأمور فى الحاضرة العباسية، وقويت شوكته وجمع الجموع وقوى طمعه وتطلع إلى السيطرة على كل بلاد الشام، والزحف إلى مصر.

وفى غضون ذلك توفى الخليفة المهتدى، وتولى المعتمد الخلافة، وأرسل وفداً إلى ابن الشيخ يطلب منه مبايعة الخليفة ورد مال الخلافة وعدم الطمع؛ ولكنه رفض، فعهد إليه الخليفة بحكم أرمينية، وانتزع منه فلسطين والأردن. وبذلك تقلص نفوذ ابن الشيخ.

ولما شعر ابن طولون بقوته، اعتزم القضاء على ابن الشيخ واسترداد أموال الخلافة، ولكن ابن الشيخ رفض؛ بل أرسل جيشاً إلى مصر صَدَّه ماجور - قائد ابن طولون - وظل ماجور يطارد قوات ابن الشيخ حتى وصلت إلى دمشق، ودارت أمام أبوابها معركة عنيفة بين جند ابن طولون وجند ابن الشيخ هُزم فيها جند ابن الشيخ، وقُتل ولده وخليفته وصناديد عسكره. ودخل ماجور دمشق عزيزاً مظفراً، واضطر ابن الشيخ إلى سحب قواته من بلاد الشام، ورحل على أرمينية، ولكن ماجور أمر بملاحقته وقبض عليه، وتم انتزاع أملاكه كلها. ولهذه الموقعة أثر كبير فى تطور الدولة الطولونية، فقد اتسعت أملاكها، وانضمت بلاد الشام بما فيها فلسطين والأردن، وانضمت كذلك أرمينية والثغور إلى الدولة الطولونية، فاتسعت اتساعاً كبيراً وصارت دولة إسلامية كبيرة عاصمتها القطائع فى نطاق الدولة الإسلامية الكبرى - الدولة العباسية -.

٣- شقير الخادم:

كتب ابن المدبر وشقير - صاحب البريد - وماجور قائد جيش ابن طولون إلى الخليفة العباسى يحذرونه من ازدياد نفوذ ابن طولون، وأن ذلك قد يشكِّل خطراً على دولته، فلما أدرك ابن طولون ذلك أرسل الهدايا والأموال إلى الخليفة والوزير وسيده يارجوخ، فأدرك الخليفة أن الرسائل التى وردت ضد أحمد بن طولون تنم عن الحقد والحسد على ما بلغه هذا الرجل من نفوذ وسلطان، فأرسل الخليفة كتاباً إلى أحمد بن طولون يقره على ملك مصر والشام والثغور. وبذلك اكتسب أحمد بن طولون الصفة الشرعية فى حكم هذه البلاد من صاحب الشرعية وهو الخليفة العباسى.

كان لا بد لأحمد بن طولون من معاقبة شقير الذى تزعم حركة النَّيل من أحمد بن طولون فى الحاضـرة العباسية، فاستدعـاه إلى قصره، وخرج إليه ماشياً رغم طول المسافة، وضُرب وهو مُـجهَد بالسياط، وأُعيد إلى بيته راكباً حيث توفى. وبذلك تخلص ابن طولون من عامل البريد المنشق والذى تآمر عليه كثيراً.

ابن المدبـر:

لما شعر ابن طولون بقوته، رأى أن يتخلص من عدوه اللدود ابن المدبر، فسْعى إلى الخلافة، بعزل ابن المدبر من ولاية الخراج، وتـقليدها إلى ابن هلال - المُقرَّب إليه - فوافـقت الخلافة، وتم عزل ابن المدبر، وضعف نفـوذه، وأصبح يخشى على نفسه من ابن طولون، وقبض عليـه وحبسه فى داره. على أن الخليفة المعتمد أسند إليـه خراج فلسطين والأردن، وقلَّد أحمد بن شجاع خراج مصـر سنة ٢٥٦هـ، وتلطَّف ابن المدبر بابن طولون، وتنازل له عن ضيـاع كان يملكها فى مـصر، وزوَّج ابنته لابنه أبـى الجيش، وودَّعه ابن طولون وهو خـارج من مصر إلى الـشام، ولكنه أرسل إلى الخلافة يحذرها من ابن طولون. ولما علم الأخير أعاده إلى مصر، وحبسه فى غرفة، وظل بها حتى فقد بصره ومات.

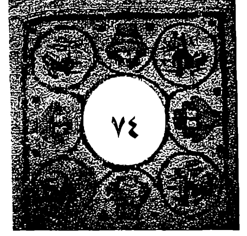
ثورة بغـا الكبيـر:

وفى سنة ٢٥٥هـ خرج علـى أحمد بن طولون رجل علوى يُسـمى بغا الكبـير ويُلقَّب بابن طباطبا بين برقة والإسكندرية، وصار إلى صعيد مصر، فوجَّه إليه أحمد بن طولون قائده «بهم بن الحسين». ودارت معركة هُزم فيها العلوى وقُتل، وانهزم أصحابه وتفرقوا.

ابن الصوفى والعمرى:

وفى سنة ٢٥٦هـ خرج على أحـمد بن طولون رجل يُسمـى ابن الصوفى، ويُنسب إلى آل بيت رسول الله ﷺ، ثار فى صعيد مصر، ودخل إسنا ونهبها وعاث فيها فساداً، فوجَّه إليه أحمد بن طولون قائداً من قواده يُسمى ابن يزداد، فظفر بـه العلوى وقطع بعض أطرافه، وصلبه، فأنفذ إليه أحمد بن طولون قائده بهم بن الحسين، فهزم القائد الطولونى ابن الصوفى فى أخميم، ونهب عسكره، وقتل الكثير من رجاله، وكافأ ابن طولون قائده الشجاع هو وجنده.

رأى ابن الصوفى أن يبتعد عن مدن الصعيد التى هى فى متناول الجيش الطولونى، ولجأ إلى الواحات، وأقام بها، ثم زاد طمعه، فظهر فى الأشمونـين، فأنفذ إليه ابن طولون جيشاً بقيادة ابن



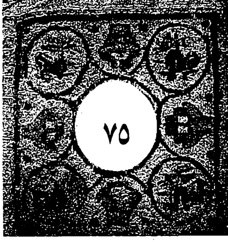
أبى المغيث، فوجـده قد ذهب إلى بلاد الصعيد لقتـال رجل يُدعى أبا عبد الرحمن، ويزعم أنه من سـلالة عمر بن الخطاب، لأن البجـة فى يوم عيد هاجموا الناس فى مصلاهم، وقتلوا فـيهم ونهبوا، وعادوا من حيث أتوا، فخرج هذا العـمرى (أبو عبد الرحمن) غضبـاً لله وللمسلمين، فكمن لهم فى طريقهم حتى أقبلوا كعادتهم، فكبسهم وقتل رئيسهم الأعور ومن معه، ودخل العمرى بلاد البجة فـقتل فيهم الكثير من الناس، وضيَّق عليهـم الحصار وبث فى نفوسهم الرعب، حتى أدوا الجزية، وأحرق العمرى قرى البجة، وسبى منهم سبياً كثيراً.

والتقى العمرى بالعلوى، وهُزم الأخير، وسار إلى ناحية أسـوان فعاث فيها فساداً، واعتزم أحمـد بن طولون التـخلص من العلوى، فأرسل إلـيه قـائده بهم بن الحسين فـرحل العلوى إلى عيذاب ومنها إلى مكة المكرمة، وتفرق عنه أصحابه، وقبض عليه حاكم مكة، وزجَّه فى السجن، وأرسله إلى ابن طولون فعاقبه ثم عفا عنه، وأرسله إلى المدينة فعاش فيها إلى أن مات.

ثـورة أبى روح:

خرج على أحمـد بن طولون، رجل فى الصعيد يُسـمى أبا روح، واسمه سكن من بوادى الإسكندرية - وهو من بقايا أصـحاب ابن الصوفى - وقطع الطريق وأخـاف السبيل، فوجَّـه إليه أحمـد بن طولون، يلبق الطرسوسى على رأس جـيش قوى، وكان الثـائر يعرف طرق ومـسالك الريف، فعسكر أصحابه فى أرض كثيرة الشقوق، وثواره من أهل الريف، أَلِفوا المشى والتنقل فى هذه الأرض الكثيرة الشـقوق، ولا عهد للجند الطرسوسيين بهـا؛ لذلك استطاع جند يلبق الثائرة مطاردة الجند الطرسوسى، وسقطت الخيول فى الشقوق هى وفرسانها، مما أدى إلى قتل الكثير من جند الدولة. وانهزم من سَلِم شر هزيمة، وعـاد يلبق بفلول جيشه إلى الحاضـرة المصرية يجر أذيال الخيبة والهزيمة، واستقبله أهل الحاضرة أسوأ استقبال.

امتدت ثورة أبى روح فى الصعيد حتى امتد نفوذه إلى نواحى الفيوم، فأرسل إليه أحمد بن طولون جيشاً بقيادة ابن جيغويه، وحذَّر القـائد جنده من الشقوق، وضيقوا الحصار على الثائر أبى روح، وهاجموهم عدة مرات حتى لاذوا بالفرار، وقُتل من الثوار خلق كثير، وطلب أبو روح من القائد الطولونى الأمان فقبل منه وأمَّنه. ولكن أحمد بن طولون لم يقبل تأمين هذا الثائر الذى قتل من جند الطولونيين الكثير، وأمر بقتله. وبذلك انتهت ثورة أبى روح بالفشل الذريع.



ثورة أهل برقة:

أعلن أهل برقة الثورة ضد الحكم الطولونى، وطالبوا بالاستقلال عن هذه الدولة، وطرد أميرهم الطولونى محمد بن فروخ الفرغانى من برقة، فلم يتغاض أحمد بن طولون عن محاولة برقة الانفصال عن دولته، فأنفذ جيشاً بقيادة أبى الأسود الغطريف ويزبك الفرغانى، وبعث أيضاً مراكب مشحونة بالرجال والسلاح، وأتبعهم بجيش آخر بقيادة غلامه لؤلؤ، وأمر قادته بمحاولة الصلح مع أهل برقة، والحرب إذا لم يمكن الصلح.

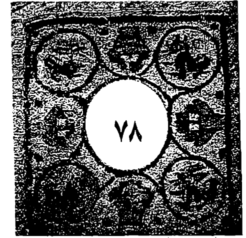
قاوم أهل برقة الجيوش الطولونية مقاومة عنيدة، وقتلوا بعض قادة أحمد بن طولون والكثير من جنده. على أن القائد لؤلؤ أعاد تنظيم صفوف جنده واشتد فى مهاجمة أهل برقة، وما زال يهاجمهم ويقاتلهم حتى استسلموا وفتحوا له أبواب برقة، فدخل الجند الطولونى البلد، وقبضوا على رؤسائهم وقادتهم، وتم استعادة السيطرة الطولونية على برقة، فعَهِد أحمد بن طولون إلى قائده لؤلؤ بحكم برقة نيابة عنه.

موسى بن بغا:

انضم أحد قادة الدولة العباسية الكبار - موسى بن بغا - إلى الموفق طلحة فى عدائه إلى أحمد بن طولون، وحرَّضه على خلعه والتخلص منه، وتولية أحد قادة الدولة الطولونية الكبار ويُسمى ماجور بدلاً منه، وكان الموفق طلحة الرجل الثانى فى الدولة العباسية، يطلب من ابن طولون المال الكثير فلا يجيبه. وكتب الموفق طلحة فعلاً إلى ماجور تقليداً بحكم مصر، ولكن ماجور خشى من مغبة إظهار الكتاب لابن طولون. ولما علم موسى بن بغا بعجز ماجور عن تسلم مصر بدلاً من ابن طولون، خرج بنفسه إلى مصر ليسلمها لماجور، ويبلِّغ أحمد بن طولون بقرار عزله من مصر.

تحصن أحمد بن طولون فى الفسطاط، وأقام حصناً على الجزيرة بين الفسطاط والجيزة، ليكون قاعدة لمهاجمة وهزيمة من يأتى لغزو مصر، وأعد أسطولاً كبيراً من مختلف السفن والمراكب.

على أن قائد الجيوش العباسية فى الرقة موسى بن بغا اضطرب أمره، بسبب ثورات الجند الترك عليه مطالبين بأرزاقهم، ولم يستطع إجابة مطالبهم لقلة ما لديه من مال، فاضطر موسى بن



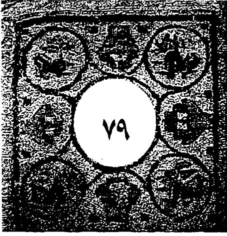
واستطاع ابن طولون من خلال هذه الكتب معرفة القادة الموالين للموفق طلحة والذين يحملون له الضغينة والحقد، وأمر بالقبض عليهم، وعاقبهم بكل شدة. على أن أحمد بن طولون أراد أن يتجنب كراهية الموفق له، وأرسل إليه مالاً، فاستقله الموفق، وأرسل إلى ابن طولون يوبخه على فعله، ويذكره بأنه يجاهد فى سبيل الله، ويحارب الزنج أعداء الإسلام وأعداء الدولة العباسية، فأرسل إليه أحمد بن طولون كتاباً يرد عليه ويقول للموفق: «لا دخل لك بمصر وبأموالها، فهى ليست فى دائرة حكمك».

ورداً على ذلك، استصدر الموفق طلحة مرسوماً من أخيه الخليفة المعتمد يتضمن خلع ابن طولون عن ولاية مصر. واشتد العداء بذلك بين ابن طولون والموفق طلحة، الذى تغلب على الخليفة المعتمد، وعَهِد إلى ابنه العباس بحكم مصر فترة غيابه، وأوصاه بأن يتخذ من الواسطى مستشاراً له فى أمور دولته، وأوصى ابنه العباس بالاقتداء برأيه، والامتثال لأمره، وألا يجاوز شيئاً برسمه أو يشير به. وفى هذه السنة استراح أحمد بن طولون من أعدائه المتربصين به، ومنهم عبيد الله بن خاقان - وزير الدولة العباسية - وموسى بن بغا وماجور الذين كانوا يسعون إلى التخلص من ابن طولون وهلاكه.

عادت الثغور إلى الطاعة والولاء لابن طولون، ودخل طرسوس فى جمع عظيم، وعز منيع؛ ولكن جنده أساءوا إلى أهل البلد، وعاثوا فيها نهباً وفساداً.

اعتمد ابن طولون على غلامه لؤلؤ فى الشئون العسكرية الهامة، فلما ثار أهل برقة ضد الحكم الطولونى، أنفذ إليها عدة حملات بقيادة لؤلؤ لإخماد ثورة أهلها، وحاصر لؤلؤ الثوار فى حصنهم الحصين، وشدد عليهم الحصار حتى ضعفوا ووهنوا واستسلموا، وكتب إلى مولاه بالنصر، وعاد إلى الفسطاط ومعه الأسرى، فلما وصل إلى الجيزة بعث إليه الأمير أحمد بن طولون بالخلع وبطوقين ثقيلين، وطاف بهم البلد، فاشتدت رهبة ابن طولون بين رعاياه. وظل لؤلؤ فى خدمة مولاه مظهراً الولاء والإخلاص له.

لم يحافظ لؤلؤ على ولائه لسيده ابن طولون، فلجأ إلى الموفق طلحة فى بغداد، وطلب الدخول فى خدمته. ولكن الموفق لم يسره ذلك، فقد احتقر خذلان لؤلؤ وخيانته لسيده؛ وقد يفعل ذلك معه، لأن الخيانة جزء من تكوينه؛ بل أعاده إلى مولاه الذى أنعم عليه بالأموال الكثيرة وربَّاه، وقلَّده المناصب الكبيرة وأولاه ثقته. وقبض عليه الموفق وأخذ جميع ما كان فى يديه، وعاد إلى مصر فى عهد هارون بن خمارويه وعاش بقية أيامه فى ذل ومهانة.

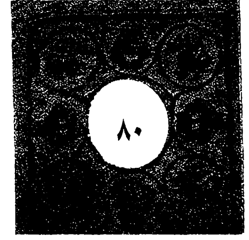


وقد اشتد عداء الموفق طلحة لابن طولون فاستصدر تقليداً من الخليفة المعتمد، بخلع ابن طولون من ولاية مصر، وتولية القائد ماجور بدلاً منه. على أن ماجور لم ينفذ القرار خوفاً من ابن طولون، فعَهِد الموفق طلحة إلى موسى بن بغا بالمسير إلى مصر، وطرد أحمد بن طولون منها، وتوليته إياها، وقاد جيشاً كبيراً عسكر فى الرقة، وحشد ابن طولون الحشود فى الروضة، وشيد حصناً بها، وأعد أسطولاً كبيراً من سفن كبيرة وصغيرة، واتخذ جنداً من طرسوس، وكتب إلى أهل الصعيد والوجه البحرى يستنفرهم، فوفد عليه الكثير من الرجال. وبينما أعد ابن طولون جيشاً قوياً؛ إلا أن جيش موسى بن بغا ضعف، بسبب انقسام الجند على أنفسهم، وتناحرهم وتنازعهم، وثار عليه الجند الترك. وتوفى موسى بن بغا - قائد جيش الموفق - سنة ٢٦٤هـ. وبذلك فشلت محاولة الموفق طلحة فى عزل أحمد بن طولون.

لم يكتف الموفق طلحة بذلك؛ بل أبلغ الخليفة المعتمد أن الثغور الشامية التابعة لأحمد بن طولون أهملها إهمالاً شديداً واضطربت، فعَهِد الخليفة إلى محمد بن هارون التغلبى بضبط الثغور وولايتها. ولكن اغتاله بعض الأتراك، فعَهِد إلى محمد بن علىّ بن يحيى بحكم الثغور، ولكنه قُتل أيضاً، فعَهِد إلى أرخوذ بن يولغ بن طرخان التركى فنهب أموال الناس، فضجوا منه، ولم يستطع صد هجمات الروم. عندئذ رأى الخليفة المعتمد أنه لا يضبطها إلا أحمد بن طولون فأعادها إليه، فعَهِد ابن طولون إلى «طخشى ابن بليردة» وأوصاه بنشر الأمن والسلام فيها، وإصلاح البلاد وحل مشاكل الناس، ونشر العدل بينهم. وأصلح هذا الوالى البلاد، وتحسنت الأحوال المعيشية للناس، وساد السلام فى ربوع البلاد، وظل والياً على الثغور ويقيم فى طرسوس حتى وفاته.

وفى سنة ٢٦٤هـ غادر ابن طولون مصر متجهاً إلى الشام فأمر أحمد بن طولون بسحب قواته من طرسوس، وصلى بجامع طرسوس، واجتمع بالناس فى المسجد، وقضى حوائجهم حتى أحبوه، وأرسل فرقاً من جيشه إلى الرقة وحرّان لتأكيد سيادته عليهما. وحرص أحمد بن طولون على ضبط الثغور فضبط الأمور فى طرسوس وغيرها من بلاد الثغور، حتى عادت البلاد إلى سابق قوتها، وأصبحت فى وضع يسمح لها بالتصدى لإمبراطور الروم الطامع فى بلادهم والمتربص بها.

لما هاب إمبراطور الروم من الثغور فى وضعها الجديد، طلب من صاحبها - أحمد بن طولون - الهدنة فوافق الأخير لأنه أيضاً فى حاجة إليها لثورة ابنه العباس، وتحفز أعدائه للنيل منه، فأمر بتحصين الثغور، وتعمير البلاد بعد أن لحقها الخراب والدمار، وأمر بتجديد القلاع وترميمها، وأنفق فى ذلك مالاً كثيراً أخذه من أيدى وكلائه على ضياعه، ووزّع الأموال على أهل الثغور المحتاجين. وبذلك تحسنت الأحوال المعيشية لأهل الثغور وأحبوا أميرهم. ومن هنا يتضح



لنا أن أحمد بن طولون أكد فى رحلته الأخيرة سيطرته على بلاد الشام والثغور الشامية.

تغلب الموفق طلحة على الخليفة المعتمد - كما رأينا - وقصَّر فى أمره وأساء إليه، حتى خشى على نفسه منه، واعتقد أنه يريد قتله، ولكن أحمد بن طولون المعروف بولائه للخلافة العباسية منذ أن تقدم إلى حاضرة الخلافة اعتزم نصرة الخليفة المعتمد، وأرسل ابن طولون إليه يعده بالخروج لنصرته وإنقاذه، واستضافته فى مصر، ووافاه بمال كثير يتقوى به.

استخلف ابن طولون ابنه أبا الجيش على مصر، ونصحه بعدم الانشغال باللهو والعبث أو بشىء غير ما قلده إياه، وترك معه جماعة من شيوخ قواده، وأوصاهم بمراعاة البلد وحسن إدارتها، والعدل بين الرعية، وحسن السياسة، والمحافظة على الأموال. وخرج إلى الشام بصحبة ابنه العباس مقيداً بالسلاسل والأغلال، ولما اقترب ابن طولون من الشام، هرب منها لؤلؤ، ولجأ إلى العراق؛ لأنه وقف مواقف عدائية من أحمد بن طولون. ووصل ابن طولون إلى دمشق، وأقام بها ينتظر مقدم الخليفة المعتمد.

على أن الموفق طلحة علم باعتزام الخليفة المعتمد اللجوء إلى الشام، والإقامة فى ضيافة أحمد بن طولون فى مصر، وخشى الموفق من ذهاب الخليفة إلى مصر؛ لأن ابن طولون سيتخذ من الخليفة وسيلة لعزله، والسيطرة على الدولة العباسية، فأرسل الموفق طلحة رسولاً إلى أحمد ابن طولون يناشده إعادة الخليفة إلى حاضرة دولته، ووعده إن ردَّ المعتمد أقطعه إقطاعاً، وسيصله بالمال الجزيل، ويزيد فى رياسته ومحله، وذلك سنة ٢٦٩هـ.

غادر الخليفة حاضرة دولته، وحمل أمتعته وأودعها فى موضع يُسمى الدواليب - بين الموصل والحديثة - وأرسل الموفق طلحة أحد قادته ويُسمى إسحاق بن كنداج الخزرى لإقناع الخليفة بالعودة إلى حاضرة دولته - دار ملك آبائه وأجداده -، وأن يكون إلى جوار أخيه (الموفق طلحة) الذى يجاهد أعداء الإسلام، وأقنع المعتمد بالعودة إلى سامرا، فخشى الخليفة من مغبة توجهه إلى مصر وقرر العودة إلى حاضرة بنى العباس، وأنشد فى ذلك شعراً يوضح مدى ضعفه، وتسلط أخيه ورجال الدولة عليه، يقول فيه:

أصبحت يملكنى من كنت أملكه ... أخشاه حقاً كما قد يخشانى
وصرت على حِجره طفلاً يروعنى ... أخشاه حقاً كما قد يخشانى
فالحمد لله شاكراً لا شريك له ... على الذى خصنى منه وأولانى

لما بلغ المعتمد سامرا، استقبله أخوه الموفق طلحة وأنزله بدار يليق به، ووكَّل به رجلاً على رأس خمسمائة جندى لحراسة الخليفة، ومنعه من مغادرة سامرا مرة أخرى، ومراقبة كل من يحاول الدخول عليه.

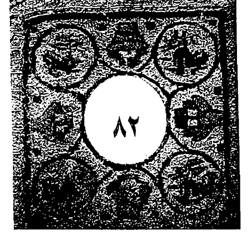
فشل أحمد بن طولون فى نقل الخليفة إلى مصر، وتحقيق طموحه فى السيطرة على الدولة العباسية من خلال ذلك، وأمر الخطباء على المنابر بالاستمرار فى الدعوة للمعتمد بعبارة «اللهم استنقذه ممن أسره، وجار عليه وقصده»، ثم يدعو للمفوض ثم لأحمد بن طولون. وأمر بالدعاء بمثل ذلك فى مصر والشام والثغور؛ ولكن خطباء مكة رفضوا الخطبة بهذه الكلمات. وأمر الموفق طلحة فى المقابل بلعن أحمد ابن طولون على المنابر وفيها: «أن عدو الله المباين لجماعة المسلمين المعروف أحمد بن طولون أظهر ما كان منه من معصية وشقاق، ومرق من الدين، وخالف أمير المؤمنين، وأخرب ثغور المسلمين، وقاتل فيها المجاهدين بأهل الفسق الملحدين، واستباح حريمهم، وسفك دماءهم. فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين، وعرف كفره، تبرأ منه ولعنه، اللهم العنه».

لم يكتف الموفق بلعن أحمد بن طولون؛ بل أمر لؤلؤ بأن يقود جيشاً إلى مصر لمحاربة ابن طولون والتخلص منه، ولكن لؤلؤ رفض لأنه يعلم أن الموفق يعتزم ذلك غيرة وحقداً على ابن طولون، وهو - أى لؤلؤ - يقر بفضل ابن طولون وقدره. على أن الموفق طلحة لما شعر بقوة ابن طولون، وتمكنه من التغلب على أعدائه، وتكوينه دولة قوية داخل الدولة العباسية؛ رأى أن يخطب وده ويتودد إليه ويتحالف معه، وأرسل إليه كتاباً يدعوه إلى الصلح والتوقف عن اللعن المتبادل على المنابر.

سعد ابن طولون من التغير المفاجئ فى موقف الموفق طلحة منه، وأرسل يبادله الرغبة فى الصلح والعودة إلى الود، ووعده بأن ما لديه من مال الخليفة محفوظ له، فأدرك الموفق طلحة أن الصلح مع أحمد بن طولون قوة وتدعيماً للدولة العباسية؛ لأن هذا الخصم القوى - ابن طولون - لو تحالف مع الموفق طلحة لأدى هذا التحالف إلى تقوية الدولة العباسية، واستطاعتها الوقوف بحزم ضد أعدائها.

كان الموفق طلحة كامل العقل، واثقاً من نفسه، حسن المعرفة، زكى الروح، فأدى هذا الصلح إلى هدوء نفسه من ناحية ابن طولون، وأمن جانبه. فأعاد الخليفة المعتمد إلى قصره ومنحه كل ما يرضيه؛ رعاية لأحمد بن طولون وكبره فى نفسه. وأرسل الموفق إلى أخيه المعتمد يعتذر عما بدر منه نحوه، وسأله العفو والصفح. وبذلك تصالح الأخوان بفضل مساندة أحمد بن طولون للخليفة المعتمد. وأرسل المعتمد إلى أحمد بن طولون يطلب منه التوقف عن لعن الموفق طلحة على المنابر، وإعادة اسمه على الطرز. ولما بلغ مندوب الخليفة الرقة علم بوفاة أحمد بن طولون، فعاد إلى حاضرة الخلافة.

أثبت الموفق حسن النية فى تنفيذ مبادئ المصالحة بينه وبين ابن طولون، فلما علم لؤلؤ الذى كثيراً ما غدر بسيده ابن طولون وباع نساءه وأولاده وأطفاله فى سوق الرقيق فى مصر، شكا



الموفق، وطلب منه إمداده بجيش للقضاء على أحمد بن طولون، ولكن الموفق رفض تلبية رغبة هذا الرجل الذى خان سيده ابن طولون، ولا يؤمن له جانب فقبض عليه، وصادر كل أملاكه فى العراق، وأرسله إلى مصر فى عهد خمارويه مخذولاً مدحوراً حقيراً فزجَّه فى السجن، وظل به حتى مات.

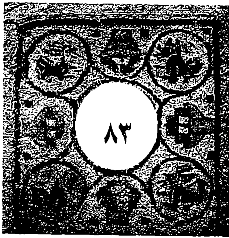
حزن الموفق طلحة لوفاة أحمد بن طولون؛ لأن الرجل الشجاع يقدِّر الشجاع مثله، ولو كان عدوه. وقال: «كان خلافه لى أحب إلىَّ ممن يخالفنى ويطمع فى أموالى، ويخرِّب بلدانى. وخلاف من يحسن تدبير ما تحت يده أحب إلىَّ من موالاة من يحتوى على ما وكلته إليه، وتذم العاقبة منه من سوء تدبيره وقبح أقواله. إنه - أى ابن طولون - أحسن تدبير ملكه، فلم يخرج عن طاعة، ولا سار فى حال مذمومة، ورعيته شاكرون لفضله وحسن سياسته، ومعاملوه حامدون حسن سياسته وكثرة معروفه».

ثورة العباس بن أحمد بن طولون:

لما ضبط ابن طولون دولته بغلامه لؤلؤ بن حيغويه وهو بطرسوس، غادرها إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس الذى قدَّره أحمد بن طولون على سائر ولده؛ لأنه أكبرهم. إلا أن بطانة السوء التى أحاطت بالعباس، كانوا يخافون أباه ويحسدونه على ما بلغه من مجد وعظمة، وتمنوا هلاكه وزواله، وتطلعوا إلى تحقيق آمالهم وأحلامهم على أيدى العباس، فانتهزوا فرصة طول غياب ابن طولون عن مصر، وحرَّضوا العباس على الثورة ضد أبيه والانحراف عنه، وأُشيع أنه مات بعد أن طالت غيبته عن مصر، وطلبوا من العباس الاستيلاء على ملك أبيه، والفتك بأحمد بن محمد الواسطى الذى طلب منه ابن طولون مساعدة ابنه العباس فى حكم البلاد، وكان شديد الولاء لابن طولون.

وكان العباس يهاب أباه، واستجاب العباس لبطانة السوء واستقل بمصر وعزل أباه، ونهاه الواسطى من مغبة هذا العمل الجسيم، وخاف من دخول الخلل فى الدولة نتيجة لهذا السلوك. وعلى الرغم من أن ابن طولون أوصى ابنه العباس بألا يتجاوز ما يشير عليه الواسطى، وقال له: «يا بنى إن الواسطى قد عرف ما يصلح الدولة فأَقبِل عليه، وفوِّض الأمر إليه، وتضافرا على ما يحسن الأثر فيما أنتما بسبيله».

ولكن بطانة السوء المحيطة بالعباس، أعملت الدس والوقيعة على الواسطى، وأوقعت بين الواسطى والعباس، وعابوا عليه أن ألفاظه عامية، وأخطاؤه اللغوية كثيرة. وكان العباس أديباً شاعراً قوياً فى اللغة. وحقد العباس على الواسطى؛ رغم أن المال فى يده والدولة له ومقاليدها بأمره.



كتب الواسطى إلى أحمد بن طولون يشكو من ابنه العباس وما يلحقه به من سوء، واعتراض العباس عليه، ومنعه من استيفاء الرسوم السلطانية، وذكر الطائفة التى استولت عليه، وتدخلها فى إدارة البلد رغم خروج ذلك عن اختصاصها.

على أن العباس بلغه ما كتبه الواسطى لأبيه، فزادت كراهيته له، فكتب ابن طولون إلى الواسطى ينصحه بمداراته حتى يمكن النيل منه، وهاجم العباس بيت الواسطى، فوجد خطابات أبيه عنده، فاشتد غضبه منه، وأخرج الواسطى من داره مقيداً بالسلاسل والأغلال، وخشى العباس من لقاء أبيه، فخرج إلى الإسكندرية، ورفض نصائح قواد أبيه بالبقاء فى القطائع - حاضرة مصر - وإرسال من ينوب عنه فى الإسكندرية لحمايتها من خطر بيزنطى متوقع، واستخلف بمصر أخاه ربيعة، وتوجه إلى الإسكندرية، وأخذ العباس كل ما فى خزانة مصر من مال ومتاع وسلاح وكراع، وأخذ معه الواسطى وأيمن الأسود - غلام أبيه - مقيدين، وبقى فى الإسكندرية أياماً معدودة، ثم تجاوزها إلى برقة.

عاد أحمد بن طولون إلى مصر، وفوجئ بأن ابنه العباس استولى على ألفى ألف دينار من أموال الدولة، ولم يكتف بذلك؛ بل اقترض من التجار ثلاثمائة ألف دينار، وأمر صاحب الخراج بأن يضمنها له فضمنه خوفاً منه.

أرسل أحمد بن طولون كتباً إلى ابنه الثائر عليه - العباس - وأظهر الود نحوه، وأرسل إليه وفداً من أبى بكرة بكار بن قتيبة والصابونى وغيرهما من كبار الدولة، وأمرهم بملاينته وملاطفته، ووعده أبوه بالعفو والصفح عما جناه وعدم المساس به بمكروه، وحلف له على ذلك بالأيمان الغلاظ. وأكرم العباس رسل أبيه، وقرأوا له رسالة أبيه «خرجت علىَّ من غير إساءة كانت منى إليك ولا خطيئة ركبتها فيك، ولم ترع حسن تربيتى لك وعِظَم إشفاقى عليك، وإنى رشحتك لمنزلتى... فأرضيت عدوى وأسخطت وليى... فإن رجعت إلىَّ فكأنك لم تذنب، وإن تمادى بك الاغترار شخصت إليك بنفسى...».

تأثر العباس برسالة أبيه، وكاد أن يقلع عن ثورته، ولكن بطانة السوء المحيطة به خشيت سوء العاقبة، إن عاد العباس إلى أبيه، وقالوا له: «أنت تعرف أباك وغدره، فارحمنا وارحم نفسك فأنت تعرف طبع أبيك، وشدة غدره، فإنه يرى أن فى استئصال شأفتك، وتقطيع قلبه عليك فيما يأتيه من أمرك وأمرنا فى السياسة وتوطيد المملكة».

استجاب العباس لنصائح بطانته التى طالما سعت إلى توسيع الخلاف بين العباس وأبيه، حتى يحققوا على أيدى العباس ما لم يستطيعوا تحقيقه على أيدى أبيه. وبعث العباس إلى أبيه رداً سيئاً يدل على استمراره فى الثورة على أبيه، واشترط شروطاً مجحفة للصلح مع أبيه، وتوالت الخطابات بين العباس وأبيه دون نتيجة.

٨٤

غادر العبـاس الإسكندرية، وزحف إلى إفريقية ومـعه الأموال التى حصل عليها من مصر، واعتقد أنه يسـتطيع انتزاعها من صاحبها - إبراهيم ابن أحمد بن الأغلب - وكاتب جموع البربر، وأسـرعت إليه جموع كثيرة طمعاً فى ماله، وفى تغييـر نظام الحكم، وفرَّق فيهم الأموال، وأرسل إلى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب رسـالة يزعم فيها أن الخليفة العبـاسى المعتمد أعطاه تقليداً بحكم إفريقية (تونس) بدلاً منه، وأمره بالانسحاب منها والإذعان لأمر الخليفة، وقدَّم له الهدايا والأموال، وهاجم حصناً رئيسياً فى إفريقـية، وقتل جنده حماة الحصن، وسبوا النساء، ونهبوا كل ما فى الحصن من مال ومتاع.

استاء أهل إفريقية من الأعمال التخريبية لجند العباس، واستغاثوا بإلياس بن منصور الزناتى - زعيم الأباضيـة - وشكوا إليه ما نالوه من العباس وجنوده من ظلم وجـور، فأعد الزناتى جنداً لطرد العـباس ورجاله من إفـريقيـة، ودار قتال مرير بين إلـيـاس - الزعيم الأباضـى - والعـباس ابن أحمـد بن طولون، وهُزم فى هذه المعركـة جند العبـاس شر هزيمة، ونجا العـباس بأعـجوبة، واستولى إلياس على كل مـا فى ميدان القتال من أموال وذخائر وسلاح وعتـاد. وبعد هذه المعركة فك العباس الطولونى القيود عن الواسطى وأيمن الأسود، وأفرج عنهما.

شاع خبر هزيمة العباس فى القطائع، وأُشيع أنه قُـتل، وحزن أحمد بن طولون بفقدان مصر لسيطرتها على برقة وطرابلس بعد هزيمة العباس، وضاعت الأموال التى استولى عليها العباس من خزانة مصر، حتى أصبحت الخزانة خاوية ومصر على وشك الإفلاس.

توجـه أحـمـد بن طولون إلى الإسكنـدرية لملاقـاة ابنه العـبـاس، وسـيَّـر إليـه جنداً من الإسكندرية، هزموا جند العباس التى أنهكتها الهزائم السابقة وعوامل الفشل والخذلان فى إفريقية، وقتلوا جماعة من غلمانه - أى غلمـان العباس - وقبض جند ابن طولون على العباس، وأرسلوه إلى قائدهم طبارجى فقيَّده، وحمله إلى أبيه.

واصل طبارجى - قائد جند ابـن طولون - زحفه حتى دخل برقة واسـتردها، وأعادها إلى حوزة الدولة الطولونيـة، وأصلح ما أفسـد من أمرها أثناء فـتنة العباس، واسـتخلف عليهـا والياً لحكمها، وبلغ العباس الجـيزة أسيراً، وزفوه وأدخلوه البلد فى قبة مكشوفة، ولقـيه أبوه، فاعتقله فى حجرة ما زال معتقلاً بها حـتى وفاة أبيه، وعاتب ابن طولون قادة العباس الذين حرَّضوه على الثورة، وكافأ رجاله الذين هزموا العباس وساقوه أسيراً إلى مصر.

وبذلك فـشلت ثورة العبـاس ضد أبيـه. وهذا يدل على قوة أحـمد بن طولون فى دولـته وسيطرته الكاملة عليهـا ومهابته، وقبضـته القوية على الدولة. ومن نتائج هذه المعركـة عودة برقة وطرابلس إلى السيـادة المصرية، بعد أن حـاول أهل البلدين انتهـاز الفرص للاسـتقلال عن الدولة الطولونية.

على أن أحمد بن طولون لما شعر بدنو أجله، أفرج عن ابنه العباس، وعفا عنه وعَهِد إليه بحكم بلاد الشام، وطلب منه أن يكون عوناً لأخيه خمارويه بعد أن يخلف أباه فى الحكم، وعدم السماح لأحد من الناس بالدخول بينهما بالوقيعة والدسيسة.

وبذلك تصدى أحمد بن طولون لكل العناصر التى حاولت النيل منه وإزاحته عن حكم مصر، وهزم كل المعارضين له، واستخدم فى ذلك أساليب اللين والود والقوة والعنف. وتوفى سنة ٢٧٠هـ وقد صفت له البلاد ودانت له بالولاء والطاعة، وتجنب معارضوه وأعداؤه إظهار نواياهم ضده بعد أن شاهدوا بأنفسهم هزيمة كل من اعترضه.

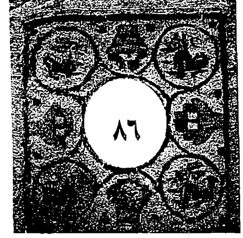
هذه الصفات التى تحلى بها ابن طولون كالشجاعة وقوة البأس، والفهم العميق لنفسيات المعارضين له، وما يجرى على الساحة الداخلية فى مصر والساحة الإسلامية فى دولة بنى العباس؛ هذه الصفات مكَّنت أحمد بن طولون من التغلب على كل العقبات التى واجهته فى حكمه. ومؤسسو الدول يتمتعون عادة بمواهب خاصة وصفات حميدة، قد لا يتحلى بها الكثير من الناس. وهذه الصفات لا يستطيع حاكم الصمود، وحكم بلاد واسعة كمصر إلا إذا اتُّصف بها. ومن هنا نجد أن خصائص أحمد بن طولون وصفاته مكَّنته من تكوين دولة قوية فى مصر، تضم إليها بلاد الشام والثغور الشامية وبرقة وطرابلس والحجاز.

تأسيس مدينة القطائع:

المعروف أن كل دولة أو ولاية لا بد وأن يكون لها حاضرة أو عاصمة تُدار منها شئونها. فاتخذ عمرو بن العاص الفسطاط حاضرة لمصر، ثم نقل عبد العزيز بن مروان حاضرة مصر إلى حلوان. ولما قامت الدولة العباسية، وحكم العباسيون مصر، اتخذوا العسكر حاضرة لمصر. ولما قامت الدولة الطولونية لم تعد الفسطاط صالحة لأن تكون حاضرة لمصر بسبب ازدحامها، ولم تعد تتسع لجنده الترك، وعادة تكون حاضرة مصر فى الموضع الذى يقع بين الوجهين البحرى والقبلى، أو بين الدلتا



بقايا مدينة القطائع



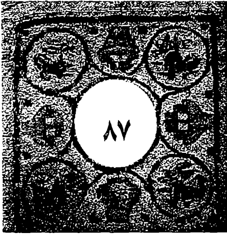
والصعيد. لذلك سار ابن طولون فى نفس سياسة أسلافه حكام مصر، فاتخذ القطائع حاضرة لدولته الجديدة لتتسع لجنده ومنشآته المعمارية. ولتجديد شخصية مصر بعد أن قامت فيها دولة تسيطر على بعض ولايات الدولة العباسية مثل الشام والثغور الشامية وبرقة وطرابلس والحجاز.

أقام ابن طولون فى مستهل ولايته على مصر فى العسكر، ونزل فى دار إمارتها، ثم شرع فى تأسيس القطائع سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٠م لتكون مركزاً وقاعدة لإدارة دولته، ومقراً لجنده ولخدمه وحشمه وغلمانه، وقسَّمها إلى قطائع، تقيم كل طائفة فى قطيعة؛ لذلك سُميت القطائع. والمعروف أن أبا عون أسس العسكر فى الجانب الشمالى من الفسطاط، بينما أسس أحمد بن طولون القطائع فى الطرف الشمالى الشرقى من العسكر.

وكانت القطائع تقع من ناحية بين جبل يشكر - الحد الشمالى للفسطاط - وبين سفح جبل المقطم فى موضع القلعة الحالى، وتُعرف فى ذلك الوقت - قبة الهواء - ومن ناحية أخرى بين الدميلة أسفل القلعة إلى مشهد زين العابدين.

لما اطمأن أحمد بن طولون إلى حسن اختياره لموقع القطائع، ركب إلى سفح الجبل، واختط فيه قصراً، وأمر أصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم حوله وبالقرب منه، فاختط الناس وبنوا، حتى اتصلت البيوت بعضها ببعض، واتصل البناء والعمارة من الجانب الآخر إلى أن جاوز المدينة، ثم قُطعت القطائع، وسُميت كل قطيعة باسم كل من يسكنها، فكانت لأهل النوبة قطيعة تُعرف بهم، وقطيعة للروم تُعرف باسمهم، وللفراشين قطيعة، ولغيرهم من كل صنف من الغلمان، وبنى القواد مواضع متعددة، فعمرت عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزقة، وبُنيت فيها المساجد والمرافق العامة مثل الطواحين والحمامات والأفران، وسُميت أسواقها؛ منها سوق العيارين (أى سماسرة البيع والشراء) والبزازين (تجار الأقمشة) والعطارين، وبائعى الحبوب، وسوق الجزارين، وسوق البقالين، وسوق الطباخين، يجتمع فيه الصيارفة والخبازين وصناع الحلوى. ولكل صنف من الصناع سوق حسنٌ عامرٌ، وأصبحت هذه المدينة من أكثر المدن الإسلامية عمراناً.

وشيد أحمد بن طولون قصراً منيعاً له فى القطائع، وبنى فيه ميداناً حسناً يُضرب فيه بالصوالجة، وسُمى القصر كله بالميدان، والميدان يقع بين قصر ابن طولون والجامع وعُمل له أبواب، وسُمى كل باب باسم؛ فمنها باب الميدان يدخل ويخرج معظم الجيش منه، وباب الصوالجة، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصته، وكان مما يلى المقطم باب الجبل، وباب للحرم لا يدخل منه إلا خادم أو حرمة، وباب سُمى باسم حاجب يجلس عليه هو الدرمون؛ لأنه رجل أسود ومهمته النظر فى أمور الغلمان السود.



وباب فى الشارع الأعظم يخرج منه الناس إلى المسجد؛ لذلك سُمى باب الصلاة، ويُعرف أيضاً بباب السباع. وكانت دروب المدينة متصلة، كل واحد إلى جانب الآخر، وكان إذا ركب أحمد بن طولون بمناسبة العيد أو غير ذلك، يخلى عسكره الشوارع، ويخرج لا يختلط به أحد. وكانت أبواب قصر ابن طولون تُفتح بعد عرض الجيش أو فى يوم صدقة، وسائر الأيام تُفتح فى مواعيد محددة، وتُغلق باقى الأوقات، وكان له فى قصره مجلس يشرف منه يوم العرض ويوم المساكين. والداخلين عليه من ذوى الحاجات يدخلون من باب الصوالجة، ويخرجون من باب السباع.

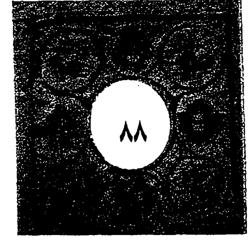
وبُنى على باب السباع مجلس يشرف منه ليلة العيد على القطائع، فيرى اضطراب الغلمان فى تأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم على مقدار كل واحد منهم، فإذا شاهد فى واحد منهم يسير من الاختلال يسَّر له أمره. ويشرف أيضاً من مجلسه هذا على النيل وعلى أبواب المدينة وما والاهما، وهى متنزهات حسنة.

كان أحمد بن طولون يصلى الجمعة فى مسجده القديم الملاصق للشرطة، فلما ضاق الجامع بالمصلين، شرع فى بناء مسجد جديد.

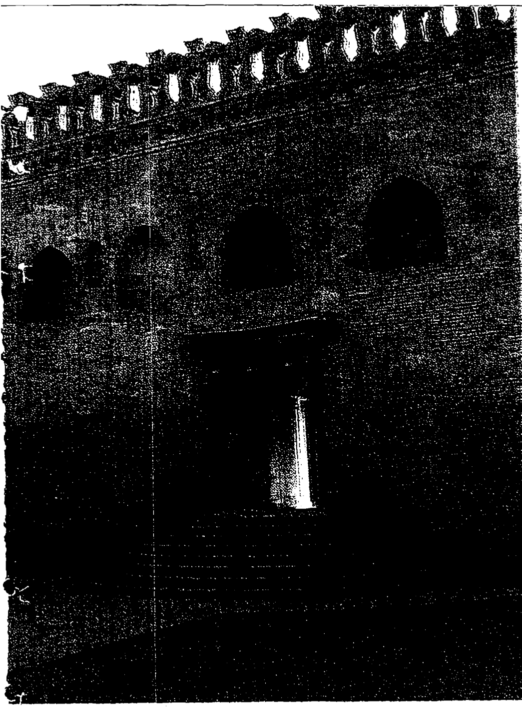
المسجد الجامع:

الحاضرة الجديدة لا يكتمل بناؤها فى عالم الإسلام بدون مسجد جامع، يجتمع فيه المسلمون للصلاة ودراسة علوم الإسلام، ورفع مظالمهم للحكام. ومن هنا شرع أحمد بن طولون أثناء تشييده لمدينة القطائع فى بناء مسجد حصين، وقال: «أردت أن أبنى بناءً لو احترقت مصر بقى، ولو غرقت بقى».

استغرق بناء المسجد ثلاث سنوات (٢٦٢ - ٢٦٥هـ)، وبُنى هذا المسجد على جبل يشكر الذى يُنسب إلى قوم قدموا إلى مصر وقت الفتح مع جيش عمرو بن العاص ونزلوا مع بنى الأزرق الجبل الذى سُمى باسمهم - أى جبل يشكر -، وفى مؤخرة المسجد ميضأة، وخزانة بها الماء البارد للشرب، والأدوية لعلاج المرضى. وللمسجد قبة مشبكة من جميع جوانبها ومذهبة، وتقوم على عشر عمد من الرخام، وجوانبها مفروشة كلها بالرخام، وتحت القبة مئذنة رخام بها فوارة ماء؛ أعاد الخليفة الفاطمى العزيز بناءها. ومساحة المسجد ستة أفدنة ونصف. والمسجد به صحن مربع وتحيط به أربعة أروقة، أكبرها رواق القبلة، ويوجد حول المسجد زيادة، تحيط بثلاثة من جوانبه. أما الجانب الرابع فهو الجانب القبلى أو الجنوب الشرقى، ويقع خلفه دار الإمارة.

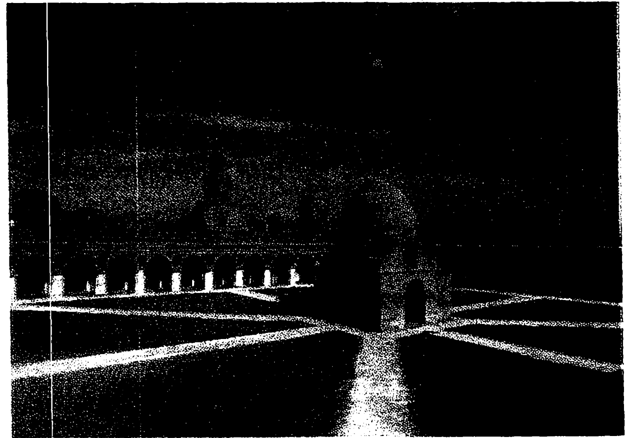


والمسجد مبنى بالطوب المحروق، وتغطى جدرانه طبقة سميكة من الملاط تعلوها طبقة بيضاء من الجص المزخرف بزخارف محفورة. وعقود المسجد من الطراز المدبب، وتتركز على دعائم ضخمة مستطيلة. وللمسجد شرفات، وفى جدران المسجد نوافذ بها زخارف جميلة محزمة. وأُسِّس المسجد على نمط مسجد سمرقند.



مدخل المسجد الجامع لابن طولون

تعرض المسجد للتخريب فى الشدة المستنصرية، فجدده السلطان المملوكى لاجين، وأزال كل ما فيه من تخريب وبلَّطه وبيَّضه ورتب فيه أربعة مجالس لدراسة الفقه على المذاهب الأربعة، وجعل له إماماً ومؤذنين وفراشين، وأسس بجواره مكتباً لتحفيظ الأيتام القرآن الكريم، وأنفق أموالاً كثيرة فى تجديد المسجد، وعَهِد إلى قاضى القضاة بإدارته.



مسجد ابن طولون

يتضمن إيوان القبلة خمسة محاريب غير مجوفة عدا المحراب الرئيسى الذى يتوسط جدار القبلة المجوف، وتعددت المحاريب بتعدد المذاهب. وعلى المسجد لوحة تتضمن تاريخ إنشائه.

أُهمل المسجد بعد عهد السلطان لاجين، وأقام فيه الغرباء المغاربة؛ وبذلك فقد رونقه. ولم يبق من آثار القطائع سوى مسجدها. مثلما لم يبق من الفسطاط كذلك سوى جامع عمرو بن العاص.

لما توفى موسى بن طولون - والى طرسوس من قِبَل أحمد بن طولون - وأخوه ثار غلامه - يازمان - واستولى على البلدة، وشق عصا الطاعة على أحمد بن طولون فراسله ابن طولون وتلطَّف به، وأبدى استعداده للعفو عنه، والبحث فى مطالبه - وكان بدمشق - وعسكر فى أذنه،

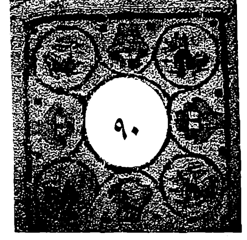
وطلب من يازمـان الولاء والطاعة، وترك الخـلاف والشقاق؛ ولكـن الثائر الطرسوسى رفـض، فحاصـره ابن طولون، فشق يازمـان الجسور الحـاجزة للمـاء، فانسـابت الماء على الجند والخـيول، وأغـرقت الكثـير، وعـرقلت تحركـات الجند، فعادوا إلى أذنه والجـو بارد لم يحتمـله الجند، ومات الجند السودانيون العراة غرقاً أو من شدة البرد، وهرب الكثير من الجند، واشتدت المعاناة بعد موت العديد من الخيول غرقاً، وانسـحب أحمد بن طولون إلى المصيصة حفاظاً على ما تبقى من جنده وخيله، وحفاظاً على طرسوس وما قد يصيبها من الأعمال القتالية.

مرض ابن طولون مـن شدة البرد، وعـاد إلى مصر وعـالجه سـعيد بن توفـيل، ولكن ابن طولون لم يستـجب للعلاج، فاجتـمع أطباء مصر، وتشـاوروا فى أمر مرضه وأساليـب علاجه، ولكن ابن طولون كان يخـفى على طبيبه مايشـير عليه طبيب جاهل يُسـمى هاشم، ويأكل الطعام الذى لا تحتمله مـعدته فاشتد به المرض؛ بل قتل طبـيبه سعيد بن توفـيل، وخرج الناس إلى جبل المقطم ومعهم المصاحف يدعون الله لأميرهم بالشفاء، لمحبتهم له وشكرهم له على جميل أفعاله، وكثرة مـعروفه وإحسـانه، والحفاظ عليهم من كل مكروه قـد يصيبهم من أحـد رجال دولته، مع أمنهم ورخص أسعارهم.

شارك الـيهود والـنصارى فى مـصر المسلمين فى صلواتهم وأدعـيتـهم من أجل شفـاء ابن طولون، وبكى ابن طولون لسـماع دعـاء الناس؛ لذلك أطلق رزق سنة لجنده حـتى يبدأوا العـهد الجديد بعد موته رابطى الجأش قنوعين أقـوياء. وأوصى ابن طولون الواسطى بالوفاء لسيده والدولة وخدمة ابنه وولى عهده بنفس الإخلاص الذى بدا منه فى عهده.



دينار طولونى باسم أحمد بن طولون سنة ٢٦٧هـ دار السك - الرافقة (بالعراق) سنة ٨٨٠م



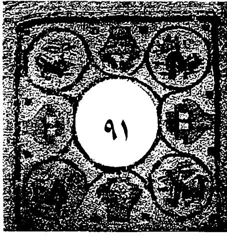
خمارويه [٢٧٠ - ٢٨٣هـ / ٨٨٣ - ٨٩٦م]:

تولى خمـارويه حكم مصـر خلفاً لأبيـه، والخزانة عـامرة، والدولة مـستـقرة، وقـد مكَّن له أبوه، فسـعى إلى تحـسين العلاقـات مع الخلافـة العباسـية، وتغلب على أعداء الدولة، وأحبط المؤامرات التى حـاكها ضده قادة الدولة، والطامعين فى الملك.

كان إسحاق بن كنداجق على الموصل والجـزيرة، وطمع هو وابن أبى الساج فى بلاد الشام التى تتبع الدولة الطولونية، واستـصغرا أمر الأمير الجديد (خمـاروية) وكاتبا الموفق طلحة بذلك، فوعد بإمدادهما بالجيوش؛ لأن الموفق يـسعى إلى القضاء على الدولة الطولونية، ويطمع فى أموال مصـر، وانضم إلى القائدين الثـائرين نائب دمشق من قِـبَل ابن طولون. ولما علم خمـارويه بهذه المؤامرات التى تسعى إلى فصل بلاد الشام عن مصر، والتمهـيد للمسير إلى مصر، وإسقاط الدولة الطولونية؛ سـار خمارويه على رأس جـيش كبير من مـصر لتأكيـد توحيد دولتـه، والتخلص من الطامعين فـيها. ولما بلغ خمارويه دمـشق فرَّ منها نائبهـا الخائن فملكها خـمارويه، على أن نواب حمص وحلب وأنطاكية وجدوا الـفرصة سانحة أمامهم للانضمام إلى أعـداء خمارويه والانفصال عن دولته - أى الطولونية -.

لما ملك خمـارويه دمشق، سار إلى شيزر لقـتال إسحاق وابن أبى السـاج، وانتظر القائدان الإمدادات من العـراق، وحلَّ فصل الشتاء، فـتوقف الفريقـان عن القتال، وأخيـراً وصل عسكر العراق بقيادة أبى العبـاس بن الموفق طلحة - المعتضد بالله فيما بعـد - وهاجم عسكر خمارويه، وباغتـهم وهم يستريحـون فى البيوت من البـرد الشديد، ووضع السـيف فيهم، فـقُتل من جند خمـارويه عدد كبيـر، وسار من سَلِم إلى دمشق فى أقـبح صورة، فتـعقبهـم المعتضد فـفروا إلى الرملة، وملك المعتـضد دمشق سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م. ولما علم خمارويه بهـزيمة جنده فى الشام، سار بنفسه إلى الشام لاستردادها.

سار المعتـضد إلى الرملة، بعد أن ملك دمشق، لـلقضاء على بقية جنـد خمارويه، ولإتمام السيطرة على الشـام، والتقى جيش خمـارويه - الذى يضم جنداً كثيـفاً - مع جيش المعتـضد فى الموقعـة التى سُمـيت بالطاحونة نسـبة إلى الماء الذى عليـه الطواحين، وملكه، وهزم أبا العـباس (المعتضد) خمارويه، فولَّى منهزمـاً، ومعه الأحداث الذين لا علم لهم بالحرب. ونزل أبو العباس فى خيـام خمـارويه وهو لا يشك فى تمام النصر. ولـكن فريقاً من جـيش خمـارويه باغت جند المعتضد، الـذى اعتقد بنهاية المعركـة، وحمل جند خمارويه على عسكر المعتـضد على حين غفلة منهم، ووضع المصـريون السيف فيـهم، فلجأ المعـتضد إلى دمـشق، ولم يفتح أهلهـا أبوابها له،



فمضى منهزماً حتى بلغ طرسوس، وبقى العسكران المتعاديان فى اضطراب شديد، والتقى الفريقان فى معركة انتهت بهزيمة جند العراق بقيادة أبى العباس (المعتضد)، وعاد خمارويه سعيداً بالنصر ومعه الأسرى وأحسن معاملتهم، فمن أراد البقاء فى مصر أبقاه فى إعزاز وإكرام، ومن أراد العودة إلى العراق هيَّأ له العودة الآمنة، ثم أرسل خمارويه جنده إلى الشام فاستردوها بلداً بلداً. وبذلك عادت الشام إلى حكم مصر، وفشلت محاولة الخلافة العباسية استردادها. وأثبت هذا النصر الذى حققه خمارويه على أعدائه قوة هذا الأمير، ومواصلة خطط أبيه فى التغلب على أعدائه والطامعين فى دولته.

فى سنة ٢٧٣هـ اشتد الخلاف بين ولاة الجزيرة، خصوصاً محمد بن أبى الساج وإسحاق بن كنداجق، وأعلن ابن أبى الساج ولاءه لخمارويه وطاعته، وخطب له فى أعماله وهى الجزيرة والموصل وقنسرين، وأرسل ولده إلى خمارويه رهينة لتأكيد ولائه فبادله خمارويه الود، وأرسل إليه مالاً كثيراً، ورأى خمارويه فى ذلك وسيلة لتوسيع رقعة دولته، وسار فعلاً إلى الشام، فاجتمع هو وابن أبى الساج. على أن الأمور تغيرت كعادة قادة ذلك العصر الذين يختلفون بسرعة مع بعضهم البعض بسبب الأطماع الدنيوية.

على كل حال التقى ابن أبى الساج مع ابن كنداجق فى الرقة، انتصر فيها الأول، واستولى على كل أموال غريمه ابن كنداجق، وانتزع منه ماردين وسنجار وسائر بلاد الجزيرة، وأقام الخطبة فيها لخمارويه. وبذلك اتسعت الدولة الطولونية فى عهد خمارويه، فانضمت إليها بلاد الموصل والجزيرة، بالإضافة إلى مصر والشام والثغور.

سار خمارويه على سياسة أبيه فى عدم التمادى فى الخلاف مع الدولة العباسية، وضرورة إظهار الولاء والطاعة للخلافة العباسية صاحبة الحق الشرعى فى حكم الدولة الإسلامية، فسعى إلى تحسين العلاقات معها.

كتب خمارويه إلى الموفق طلحة وابنه أبى العباس - المعتضد فيما بعد - يعرض عليهما الصلح وإنهاء النزاع والخصام، فأجابه إلى ذلك، وكتب له كتاباً ذكر له أن المعتمد والموفق طلحة وابنه العباس كتبوه بأيديهم. وتتضمن مرسوماً أو تقليداً بتعيين خمارويه وولده ثلاثين سنة، حكم مصر والشام والثغور. وقد سعد خمارويه بهذا الكتاب الذى أنهى الخصام وأعطاه الحق الشرعى فى حكم مصر والشام والثغور. وأمر خمارويه فى المقابل بترك الدعاء ضد الموفق طلحة على المنابر. وبُويع المعتضد بالخلافة، فجدد العهد لخمارويه، وولاه وابنه حكم مصر ثلاثين عاماً ومعها الشام والثغور. وبذلك امتد حكم خمارويه من الفرات إلى برقة، وجعل له الصلاة والخراج أى الشئون

الدينية والإدارية والمالية. على أن يحمل إلى دار الخلافة فى كل عام مائتى ألف دينار عما مضى، وثلاثمائة ألف للمستقبل.

قدم رسول من قِبَل الخليفة المعتضد إلى مصر، يحمل إلى خمارويه العقد والخلع وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح. وبذلك حافظ خمارويه على مملكة أبيه التى ورثها منه؛ بل زادت رقعتها، وازدادت مهابته فى الدولة الإسلامية الكبرى، بعد أن اعترف الخليفة العباسى بسيادته على البلاد الشاسعة التى تتكون منها الدولة الطولونية.

ازدادت العلاقات قوة بين الدولة الطولونية فى عصر خمارويه والخليفة العباسى المعتضد بعد المصاهرة التى تمت بين الرجلين، ففى سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م قدم ابن الجصاص رسولاً من مصر إلى المعتضد بهدايا كثيرة وأموال طائلة، وسعى فى تزويج ابنته قطر الندى من ابنه علىّ المكتفى، ولكن المعتضد لما سمع بجمال وذكاء قطر الندى - وهى من أجمل نساء عصرها، خفيفة الظل جذَّابة، يحبها كل من يراها - لما سمع الخليفة بذلك تطلع إلى الزواج من قطر الندى بدلاً من ابنه. فسعد خمارويه لهذا المطلب وقال المعتضد: «إنما أراد أن يتشرف بنا، وأنا أزيد فى تشريفه».

وتم الاتفاق على الزواج فعلاً، وأنفق خمارويه أموالاً طائلة فى تجهيز ابنته وحملها إلى الخليفة المعتضد، وتولى ابن الجصاص أمرها، وحمل جهازها، ويُقال إنه حمل معها جوهراً لم يُسمع بمثله عند خليفة قط، وحمل المعتضد صداق قطر الندى وهو ألف ألف درهم، وغير ذلك من المتاع والطيب ولطائف الهند والصين والعراق.

وجهَّز خمارويه ابنته جهازاً منقطع النظير، ولم يترك طرفة من لون أو جنس إلا وحمله فى جهازها، وكان فى جملة الجهاز دكة تتكون من أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط مُعلَّق فيه حبة جوهر لا يُعرف لها قيمة، ومائة هون من ذهب.

ولما فرغ خمارويه من جهاز ابنته، أمر فبُنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصراً بين مصر وبغداد، وأخرج مع ابنته أخاه شيبان فى جماعة برئاسة ابن الجصاص، فكانوا يسيرون فيها سير الطفل فى المهد، فإذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فُرش فيه ما تحتاج إليه، وعُلِّقت فيه الستور، وأُعد فيه كل ما يصلح لمثلها فى حال الإقامة. وكانت فى رحلتها من مصر إلى بغداد كأنها فى قصر أبيها، فتنتقل من قصر إلى قصر فى رحلتها، وكانت فى خلال رحلتها تجلس معها الوصيفات يسامرنها، ويقصصن لها الحكايات المسلية اللطيفة، وتترأس الوصيفات - أم آسية -، ويشرف على الموكب بعض أعمامها، وكان الحراس يحرسون موكب الأميرة، ويعزف الموسيقيون الموسيقى، وكانت الجوارى يدقون المسك بين يديها حتى تشم الروائح الطيبة.

ولما وصل الموكب شاطئ دجلة شهدت بغداد أجمل أيامها وأحلى لياليها، وعبرت السفن نهر دجلة وعليها الوصيفات والماشطات والجوارى يحملن الشموع لاستقبال قطر الندى، واستقبلها زوجها الخليفة المعتضد أحسن استقبال.

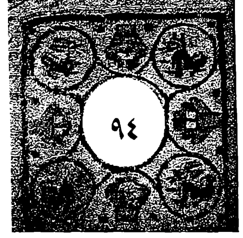
أُعجب المعتضد بزوجته وعروسه قطر الندى، ورأى ما بهره من جمالها وأدبها وكمالها وله معها حكايات لطيفة، منها أنه وضع رأسه فى حجرها فنام حتى استغرق فى النوم، فوضعت قطر الندى رأس المعتضد على مخدة فى رقة ولطف، وغادرت السرير وانتظرت أمام باب الغرفة، ولما استيقظ المعتضد وجد رأسه على مخدة وليس فى حجرها كما كان الحال قبل نومه، فاشتد غيظه وناداها، وقال لها: أترك رأسى على حجرك، وأستأمنك على نفسى فتتركينى وتمرين علىَّ. فردت قطر الندى رداً لطيفاً وقالت: «إن فيما أوصانى به أبى ألا أجلس مع النيام، ولا أنام مع الجلوس، فأُعجب المعتضد برد قطر الندى وأدبها الجم». وقالت لزوجها الخليفة: «لم أكن أبصر أبى، ولكنى تأدبت بأدب جواريه».

ولما قُتل خمارويه سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م علم بذلك المعتضد قبل قطر الندى، ودخل المعتضد على قطر الندى فى إثر ذلك، فأحست بفتور منه فيما كان يعاملها من البر، وبعد نقاش معها علم بأنها عرفت بمقتل أبيها خمارويه، فسألها من أبلغها بهذا الخبر ؟ فقالت: كان أمير المؤمنين طوال حياة خمارويه يتحرز فيما يبدى لى من الود والتلطف؛ فأعلم أن ذلك راجع إلى وجود أبى، فلما رأيتك اليوم قد استرسلت فيما عاملتنى به ولم أعمل ذنباً أستحق به ذلك فكرت، فخطر بخاطرى أن خمارويه مات. فاستحيا المعتضد واعتذر، ثم قالت له: «لم يظهر علىَّ الحزن، ولم يُسمع لى بكاء لأن فرحى بك يغلب على حزنى عليه، والرضا بحياتك يقهر السخط بموته». فقبَّل رأسها، وأقسم لها بأن يرعاها فى موت أبيها أكثر من رعايته لها فى حياته.

على كل حال فإن زواج قطر الندى من الخليفة المعتضد أدى إلى تقوية العلاقات بين الدولة الطولونية والخلافة العباسية. ولكن خمارويه أنفق فى جهاز ابنته ما يقرب من مليون دينار، وبذلك أنهك ميزانية مصر ومن الوضع المالى للفلاح المصرى الذى يدفع الضرائب للحكومة. وأدى هذا التدهور المالى إلى ضعف مصر اقتصاديًّا وسياسيًّا. وكان ذلك كله من عوامل ضعف وزوال الدولة الطولونية.

وفى سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م قام خمارويه بجولة فى صعيد مصر وفى الدلتا، ثم رحل إلى دمشق، وقتله خدمه وهو نائم، وحُمل إلى الفسطاط حيث دُفن فيها.

وصفوة القول أن خمارويه كان أميراً شجاعاً قوياً، حافظ على دولة أبيه، وزاد فى رقعتها، ونجح فى تحسين علاقته بالخلافة العباسية. ولكنه أنفق الأموال الطائلة - كما رأينا - فى زواج ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد. لذلك مات تاركاً دولة مترامية الأطراف وميزانية خاوية. أما



المواطن العادى فقد سلبه عمال الضرائب، ولم يتركوا له مالاً يعيش منه حياة كريمة أو حياة تتناسب مع عمله الشاق خصوصاً الفلاح الكادح.

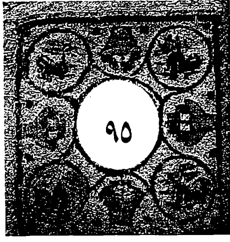
ومع ذلك فمن صفات خمارويه الكرم والأخلاق النبيلة حتى قال عنه الشاعر:

يقولون لى ما بال رحلك دائماً ... بمصر وإنى لست عن غيرها أرضى

وكيف رحيلى عن بلاد غدا بها ... أبو الجيش والنيل الذى ملأ الأرضا

ولكن يُؤخذ على خمارويه أنه أساء العلاقة مع جنده، والجند الترك - جند الدولة الطولونية - شديدو المراسى، لا يخضعون للحاكم إلا إذا أغدق عليهم الأموال وتودد إليهم. ففى سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م خرج جماعة من قواد الجيش على خمارويه، وجاهروا بالخلاف والعصيان، وقالوا: «لا نرضى بك أميراً، فاعتزلنا حتى نولى عمك الإمارة». لأنه يستمع إلى الشباب، ولا يحب سفك الدماء، ولا يصدر قراراً إلا بموافقة الجند وعقلاء الدولة. فساءت علاقة خمارويه بقواده وأصحابه، فصار يذمهم ويسعى إلى استبدالهم، ويحرمهم الأموال والصلات التى كان ينعم بها عليهم، فاتفقوا عليه ليقتلوه ويولوا عمه، فهددهم وتوعدهم، وخلعه جف بن طغج - صاحب دمشق - وخلعه كذلك الجند والكثير من القادة، وسار القواد الذين خلعوه إلى بغداد وغادروا دمشق تاركين أموالهم وأهليهم، فضلَّ بعضهم فى الطرق، ومات بعضهم من العطش، ولحقوا بالمعتضد وأكرمهم وأحسن إليهم. وبقى سائر الجنود فى مصر على خلافهم لخماروية، وقتل الثوار خمارويه فى دمشق - كما أسلفنا - وأشعلوا الحرائق فى القطائع، وأقعدوا أخاه هارون خلفاً له.

ويُنسب إلى خمارويه بعض الإصلاحات العمرانية. فقد جعل ميدان أبيه أو قصره بستاناً، وزرع فيه أصناف الرياحين وأنواع الشجر، وجلب إلى مصر أنواع الشجر وزرعها، كما زرع الزعفران وأنواع الورد، وغرس أنواع الريحان، وطعَّموا له شجر المشمش وغيره باللوز إلى جانب ابتكار أنواع من الشجر المطعم، بحيث أصبح بستانه جنة نموذجية بما فيها من أنواع الشجر والورود والزهور. وشيد فى الميدان برجاً من خشب الساج المنقوش وزوَّقه بأصناف الأصباغ، وبلَّط أرضه، وجعل فى البستان أنهاراً تتفرع منها جداول موزعة على البستان لتروى الأشجار، وجلب إلى بستانه بعض الطيور، وأقام لها أعشاشاً فى حوائط البستان لترقد وتتكاثر فيها، وأقام عيداناً تخرج من أوكار الطيور لتصيح وتغرد فيه، وجلب إلى البستان الطيور غير المألوفة فى مصر كالطواويس.

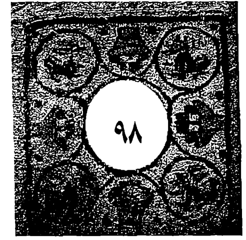


وعمل خمارويه فى بيتـه مجلساً فى رواق الدار يُسمى بيت الذهب، طُليت حيطانه كلها بالذهب المجلول باللاذورد، والمـعمول فى أحسن نقش، وأدق صناعة، وجعل فـيه على مقدار قامـة ونصف صوراً فى حيطانه بارزة من خشـب معمـول على صورته وصـور حظاياه ومغنيـاته بأحسن تـصوير وأبهج تزويق، وجعـل على رؤوسهن أكاليل من ذهب ومُـرصَّعـة بالجواهر وفى آذانها الأجـراس الثقال، ولُونت أجـسامهـا بأشباه ثياب مـن الأصباغ العجـيبة بحـيث تبدو للمُشاهد وكأنهـا عارية تماماً، مميزة بتفاصـيل جسدها، وجعل بين طرفى هذا البيت فسـقية ملأها زئبقاً، خمسين ذراعـاً طولاً فى خمسين ذراعاً عرضاً،وجعل فى أركان البـركة سككاً من الفضة، وفى السكك زنانير من الحرير مُحكمة الصنعة فى حلق من الـفضة، وجعل على هذه البركة سريراً كبيراً، حُشيت مـرتبته بحشو ناعم مريح، بحيث إذا نام تحرك السرير حركة خـفيفة تجعله ينام نوماً مريحاً. وهذه البـركة من أعجب ما بُنى فى ذلك العصـر، ففى الليالى القمرية يظهـر شكل القمر على زئبق البركة، ويمتزج نور القمر بنور الزئبق، فيظهر منظر من أجمل المناظر.

وشيد خـمارويه فى القصر قبة تـشبه قبة الهواء (القلعـة الحالية) سماها الدكـة، وجعل لها ستـائر تقى الحر والبرد، فـتميـل إذا شاء وترفع إذا أراد، وفرشـها بفرش قـيمة. وكـثيراً مـا كان خمارويه يجلس فى تلك القبة ليشرف منها على جميع ما فى داره، ويرى الصحراء والنيل والخيل وجميع المدينة، وشيد ميداناً آخر أكبر من ميدان أبيه. وكان أحمد بن طولون قد اتخذ قرب قصره المُسمى بالميدان غرفة بها رجال يُسمـون بالمكبرين، وعددهم اثنا عشر فرداً؛ يبيت منهم فى كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل بالتناوب؛ يكبِّرون ويسبِّحون ويحمدون ويهلِّلون ويقرأون القرآن بنغم جميل، ويناجون الله ويـنشدون أشعـاراً فى الزهد وفى مدح الرسـول ﷺ ويؤذنون أوقات الأذان. وأبقى خمـارويه على هؤلاء الرجال يؤدون ما كـانوا يؤدونه فى الليالى لأبيه، فـإذا جلس مع حظاياه فى الليل وقيانه تغنيه يأمر المغنيات بالتوقف عن الغناء ليستمع إلى صوت المؤذنين والمكبِّرين.

كذلك شـيد خمـارويه فى داره، داراً للسباع عـمل فيهـا بيوتاً بآزاج، كل بيت يسع سبـعاً ولبؤة، وعلى تلك البيـوت أبواباً تُفتح فى أعلاها، ولكل بيت منها طاق صـغير يدخل منه الرجل المُوكَّل بخدمة ذلك البيت لتنظيـفه وتنظيف ما فيه، وتقديم الطعام للسـبع ولبؤته، وبالبيت حوض ماء للشرب، ويُجدَّد هذا الماء كل يوم.

وتعددت بيوت السباع، ولهم أوقات تُفتح فيها بيوتهم وتتسلى فى القاعة مع بعضها، وتمرح وتلعب حتى يأتى المساء فيصيح بهم السائس، فيدخل كل سبع بيته. وتنشأ علاقات ودية بين السبع وسائسه، فـتطيع السباع السائس، وتـلتزم بتعاليمـه. ومن جملة هذه السباع سـبع يُقال له زريق؛

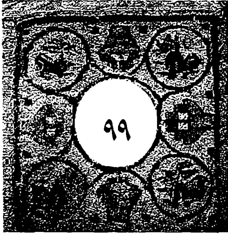


نـزل هـارون بن خـمارويه إلى العـباسـة - على الحدود بين مـصر والشام - لصد الجيش العباسي ومنعه من دخول مصر، وخروج هارون مع إخوته وأعمامه خوفاً من خلعه في غيابه، ووقعت معارك بحرية في النيل، وبرية بالقرب من دميـرة سنة ٢٩١هـ - جميانة - هُزم فيـها هارون وتفرق رجاله وتخلوا عنه، وبقي في نفر يسير، وتشاغل باللهو والطرب، فرأى عمه شيبان عدم صلاحيته للاستمرار في الحكم؛ فضلاً عن أن بقـاءه سيؤدي إلى زوال الدولة الطولونية، ودخل عليه مع نفر من أهل بيته وقتلوه سنة ٢٩٢هـ، وعمره ثمان وعشرون سنة، وحكم مصر ثماني سنوات.

خلف شيبان بن أحمد بن طولون أخاه هارون في حكم مصر، وكانت مهمته صعبة قاسية، فالدولة الطولونية تنهار، والجـيوش العباسية تسعى إلى القضـاء عليها، ولكن الجند المعسكرين في الفسطاط والذين خلعوا هارون من قـبل، خالفوا شيبان أيضاً، وسـعوا إلى إزالة الدولة الطولونية نهائيـاً، فكاتبوا الحـسين بن حمدان ابن حـمدون - من أصـحاب محـمد بن سليـمان الكاتب - وسألوه المسير إلى الفسطاط، وأقـبل محمد بن سليمان الكاتب على مصر واجـتاز حدودها، كما وصلت المراكب العباسية عبر النيل إلى الفسطاط، وعسكر شيبان قرب عين شمس.

أما محمد بن سليمان الكاتب فقد خرج القادة الطولونيون لاستقباله، وإعلان خلعهم للأمير الطولوني وولائهم للقائد العباسي والخلافة العباسيـة. ولما رأى شيبان قوة الجيش العباسي وضعف دولته، وخروج القـادة عن طاعته، أرسل إلى محـمد بن سليمان الكاتب يطلب الأمـان فأمنهم. وفي سنة ٢٩٢هـ خرج شيـبان إلى الكاتب وأعلن دخوله في طاعته، فـانصرف قادة وجند الدولة عن شـيبـان، وتفرقـوا، ثم دخل محـمـد بن سليمـان الكاتب الفـسطاط. وبذلك زالت الدولة الطولونية، وأصبحت مصر تتبع بشكل مباشر الدولة العـباسية، ولم تعد مصر دولة قائمة بذاتها، لها شخصـيتها؛ بل أصبحت ولاية من الولايات العـباسية. وكان محمـد بن سليمان الكاتب أول وال عليها بعد زوال الدولة الطولونية.

أمر مـحمـد بن سليمان الكـاتب بحرق القطائع، فـأُحرقت سنة ٢٩٢هـ، ونهب أصـحابه الفسطاط، وطاف الكاتب بالفسطاط، وأطلق سراح من في السجـون، وأمر بالدعاء للمكتفي امير المؤمنين، وعَهِد الكاتب إلى ولاة من قبله بحكم بلاد الشـام وولاياتها، وأخرج من الفسطاط ولاة بني طولون ومـواليهم، فلم يبق في مـصر منهم أحـد فخلت منهم الديار، وعـفت منهم الآثار،



وخلت منهم المنازل، وحلَّ بـهم الذل بعد العـز، والتطريد والتـشريد بعـد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام.

وفى تقييـمنا للدولة الطولونية نراها قد أعادت إلى مصر شـخصيتها القوية البارزة، بعد أن محتـها فترة حكم الولاة التابعين لدولهم؛ سواء ولاة الرومان أو ولاة البـيزنطيين أو ولاة العرب. وكـانت مصر فى عـصر الولاة بعد الفـتح الإسلامى ولاية تابعة لدولة الخـلافة الإسلاميـة الراشدية أو الأموية أو العبـاسية. ومكَّنت مصـر لأحمد بن طولون، وليس أحمـد بن طولون هو الذى مكَّن لمصر، فـمصر بإمكاناتهـا الهائلة وثروتهـا القوية واتساع رقعتها وقوتها الاقتصادية وازدهار الحياة الفكريـة فيها وأصالة أهلها وقوة مجتمعها؛ مكَّنت لأحمد بن طولون من إقامة دولة قوية وضم إليها الشام والجزيرة والثغور، فأصبحت دولة قوية فى القسم الغربى من الدولة العباسية.

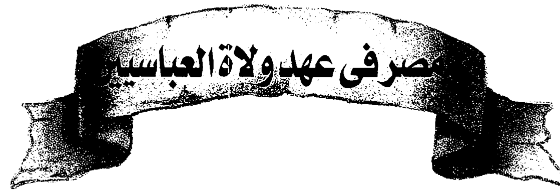
أما القـسم الشرقى فقامت فـيه دولة قوية كـذلك معاصرة للـدولة الطولونية، وهى الدولة الصفارية. دولتان قويتان فى نطاق الدولة العباسـية الكبرى، الطولونية فى مغرب الدولة الإسلامية والصفارية فى مشرقها.

قـويت الدولة الطولونيـة باقتـصـادها وازدهارها الفكرى والحـضارى وقـوتها الـسيـاسيـة والعسكرية. لكن الدولة الطولونية أنفقت الأموال الكثيرة فى إرضـاء الخلافة العباسية وفى الحروب ضد أعـدائها فى الداخل والخـارج. كما نهب العـباس بن أحـمد بن طولون كل ثروة مـصر أثناء ثورته، وأنفق خمارويه أمـوال مصر - حوالى مليون دينار - فى جهـاز ابنته قطر الندى، وضعف الحكم بعد وفاة خمارويه. كل ذلك أدى إلى إسقاط الدولة الطولونية.

والأموال الطائلة التى أنفقهـا الطولونيون فى استقرار حكمهم وفى لهوهم وعبـثهم، دفعها الفلاح المصـرى البائس الذى لا يدرى عن حكامه شـيئاً، وتمر به الأيام، ويموت الحـاكم، ويتولى حاكـم آخر، ولا يربطه بهـذا الحاكم أو الأمـير إلا عـامل الخراج الذى يقـسو عليـه فى مطالبـته بالضرائب الفادحـة والأموال الكثيرة، لينفـقها هؤلاء الحكام فى المحافظة على حكمـهم وفى حياة الترف والبذخ التى يعيشون فيها.

والخلاصة أن الدولة الطولونيـة حكمت مصر ٣٨سنة، لم يسع الطولونيون خلالهـا لتحسين الأحوال الاقتصـادية؛ ولكن قويت البلاد سياسياً وازدهر الفكر الإسـلامى فى ظل الطولونيين كما سنرى.

ومن نتـائج الحكم الطولونى لمصر، أن شـعب مصـر عرف عنـصراً جديداً انضم إليه، وهو العـنصر التركى الذى قدم إلى مصـر مع أحمد بن طولون، قَـدِموا إلـى مصـر جنوداً ومـهاجـرين وخـدماً وأعـواناً للبـيت الطولونى، وقَدِم إلى مصر مهاجراً الكثير من أهل طرسوس، واندمجوا مع الشعب المصرى، واشتغلوا بالزراعة والـتجارة والصناعة؛ فضلاً عن الجندية وأعمال الحـراسة. وهؤلاء الناس يتكلمون اللغة التـركية، فأصـبحت مصر تضم أقوامـاً يتكلمون العربية والقبطية والتركية. اندمجت هذه العناصر، وحدث تزاوج، وأقبل المصريون على الزواج أو التسرى بالبنات التركيات الجميلات، فأدى ذلك إلى تحسين النسل.



مصر فى عهد ولاة العباسيين

ضعفت مصر فـى عهد ولاة العباسيين، واضطربت البلاد بعد عـودتها إلى الحكم العباسى المباشر، وكان أول ولاتهـا محمد بن سليمان الكاتب، وكانت الدولة العبـاسية تسند ولاية الخراج إلى والٍ آخر، فضـعف الوالى العباسى بعد أن سُلبت منه الإدارة الماليـة، والناس يخطبون ود من بيده المال. من هنا ازداد نفوذ عـامل الخراج عن الوالى، والوالى أيضاً يخشى بأسـه، والخلافات تزداد عادة بـين الوالى وعامل الخـراج. كل واحد من الرجلين يتـآمر على صـاحبه، ويسـعى إلى التخلص منـه، فأدى ذلك إلى اضطِراب الدولة، واتُهم الكاتب بالرشـوة والفساد فـعزله الخليـفة العباسى، وعَهِـد إلى عيسى النوشرى بولاية مصر. وفى عـهده اجتاز عبيد الـله المهدى مصر إلى إفريقية لإقامة الدولة الفاطمية.

قبض عيسى النوشرى على أبناء البيت الطولونى وأنصـارهم ومواليهم، وسِيقوا إلى بغداد، وفى طريقهم سعى ابن الخليج إلى إعادة الحكم الطولونى إلى مصر، فـهرب من الجماعة المقبوض عليهم، وعـاد إلى مصر، وأعلن الـثورة على الحكم الجديد، وطالب بعـودة الحكم الطولونى إلى مصر؛ فانضم إليـه العديد من المصريين. والحكم البائد عادة يتطلع الكثـير من الناس إلى عودته. كثـر أنصار ابن الخليج حـتى اشتد بأسـه، وقدَّم انصاره له كل مـا لديهم من أسلحة، ولما شـعر

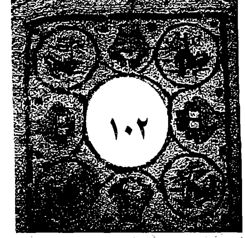
النوشرى بعــجزه هرب إلى الإسكندرية ومعــه ما فى بيت المال، ودخل ابن الخليج الفسطاط واستولى على بيت الإمارة وازدادت قوته.

لم يتغاض الخليفة العباسى عن الحركة الانفصالية فى مصر بقيادة ابن الخليج، فأرسل إلى مــصر حملة بقــيادة أحد صناديد رجاله يُســمى فاتك، وأمده بالجند والسلاح والمال. هزم الجــيش العباسى ابن الخليج، فالتــجأ إلى دار من دور الفسطاط واختبأ فيه. وعاد النوشرى من الإسكندرية إلى مصر، وبحث عن ابن الخليج وعرف مخبأه وقبض عليه، وسِيق هو ورجاله إلى بغداد.

هذه الاضطرابات التى حدثت فى مصر بعد عودتها إلى الخــلافة العباسية تثبت أن المصريين يتطلعون إلى عودة الحكــم الطولونى، الذى جعل مصر دولة قوية شــبه مستقلة، تضم فــيما تضم بلاداً شاسعة مثل الشام والجزيرة وبرقة وطرابلس والحجاز والثغور الشامية.

وفى خلال الحكم العباسى المباشر لمصر ضعفت مصرْ وأفلست ميزانيتها؛ هذا الضعف شجَّع الفاطمــيين فى المغرب على شن الحملات المتــوالية على مصر لضــمها إلى دولتهم النــاشئة. وظل النوشرى يحكــم مصر حــتى وفاته سنة ٢٩٧هـ بعد أن وليــها خــمس سنوات وعدة أشهــر، وقام بالأمر من بعده ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى، ثم توالى الولاة على حكم مصر، وساءت أحوال البلاد فى عــهودهم، حتى ولى مصــر محمد بن طغج الإخــشيد الذى وليهــا مرتين، فاســتعادت مكانتها الدولية التى حصلت عليها فى العصر الطولونى.

تعاقب الولاة على حكم مصر، ومنهم أبو منصور تكين وذكا الأعور وأبو منصور تكين ثانياً وهلال بن بدر وأحمد بن كيغلغ وأبو منصور تكين ثالثاً ومحمد بن طغج ومحمد بن تكين وأحمد ابن كيغلغ ومحمد بن طغج ثانياً.



الدولة الإخشيدية

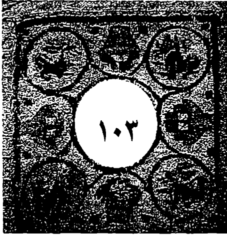
[٣٢٣-٣٥٨هـ/ ٩٣٥-٩٦٩م]

مؤسس هذه الدولة، أبو بكر محمد بن طغج بن جف بن بلتكين، وجده من ملوك فرغانة ببلاد ما وراء النهر، وغادر جف فرغانة ودخل فى خدمة الخليفة المعتصم فى بغداد، وصحب ابنه الواثق إلى أن توفى، ودخل جف فى خدمة المتوكل وتوفى فى عهده، ودخل طغج فى خدمة أحمد بن طولون وولاه مصر، ودخل فى خدمة خمارويه فولاه دمشق وطبرية، وظل فى ولايته حتى قُتل خمارويه، وأبقاه هارون بن خمارويه فى حكم دمشق وطبرية، واستطاع بشجاعته القضاء على بعض الفتن فى الدولة الطولونية، وعَهِد إليه الأمير الطولونى بالمسير إلى طرسوس للقبض على الثائر «راغب». ولكن أهل طرسوس ألحوا على طغج بعدم قتل راغب، فوافق على طلبهم وعاد إلى دمشق.

وما زال طغج يحكم الشام وطبرية حتى سقطت الدولة الطولونية ومات طغج فى سجن وزير الدولة العباسية «العباس بن الحسن» سنة ٢٩٤هـ، ودخل ابنه الإخشيد فى خدمة الدولة العباسية، ودخل فى خدمة ابن بسطام - والى مصر العباسى - ثم دخل فى خدمة تكين الذى خلف بسطام فى ولاية مصر، وولاه تكين - وهو بدمشق - عُمان وجبل السراة، وظل يحكم هذه البلاد حتى سنة ٣٠٦هـ، وفيها علم بأن الحجاج من العراق تعرضوا لبعض قطاع الطريق فهاجمهم وهزمهم واسترد منهم ما سرقوه وسلبوه، وازدادت مكانة الإخشيد حتى ولى دمشق.

وازدادت مكانة الإخشيد حتى ولاه «تكين» - والى مصر - الحوفين الشرقى والغربى؛ الشرقى من جهة الشام، والغربى من جهة دمياط، وهما متصلان. ولكن الإخشيد ترك ولايته على الحوفين، وعاد إلى دمشق وحكمها. وظل بها حتى وفاة تكين والى مصر سنة ٣٢١هـ، وتطورت الأحداث السياسية فى بغداد، وولى القاهر الخلافة، فأرسل إليه محمد بن طغج الإخشيد يلح عليه بتقليده ولاية مصر، وأرسل له مالاً كثيراً، فوافق القاهر، وأصدر تقليداً للإخشيد بولاية مصر بدلاً من محمد بن تكين، ودُعى له على المنابر. على أن القاهر عاد وأرسل تقليداً بولاية مصر لابن كيغلغ بدلاً من الإخشيد.

لم تلبث العلاقات بين محمد بن طغج الإخشيد والخلافة العباسية أن تحسنت، فتزوجت ابنة الإخشيد من ابن الفضل بن جعفر - وزير الدولة العباسية - وصدر عقب ذلك تقليد من الخلافة العباسية بعودة محمد بن طغج الإخشيد لحكم مصر، وخرج الإخشيد من الشام إلى مصر فوجد فيها الماذرائيين - وهم أسرة كبيرة كانوا يتولون خراج مصر ولهم أعوان وجند وموالى - فهزمهم



هم والمعارضين لحكمه، ودخل الفسطاط ونزل بدار الإمارة، وبايعه الكثير من المصريين ودخلوا إلى دورهم واطمأنوا بعد أن عانوا من الاضطرابات سنوات طويلة. وركب الإخشيد مع عسكره إلى جامع عمرو بن العاص بعد أول جمعة من بيعته، وعسكره بالسواد والسلاح، وسار معه جماعة من القواد على اختلاف انتماءاتهم بالسواد وخلفه أخوه عبيد الله، وأرسل فرقاً إلى معارضيه الذين عسكروا فى الفيوم، ونكَّلوا بهم.

ومن أكبر منافسيه محمد بن تكين الذى هرب إلى الصعيد ونزل بأخميم فاستدعاه الإخشيد وعفا عنه، وبذلك أمن جانبه. بعد أن عفا عنه وأحسن مكافأته، ولم يؤاخذه بما عمل فى أمره من منعه مصر رغم صدور قرار بولايته لها، وجمع العساكر لمحاربته.

ومن مراكز القوى فى مصر الماذرائيين، كانت عندهم ميزانية مصر وأموال وضياع فى مصر والشام، وكان زعيمهم محمد بن على الماذرائى يضع يده على كل هذه الأموال، وعارض تولية محمد بن طغج الإخشيد مصر، ووضع العراقيل فى سبيل حكمه، فرأى الإخشيد ضرورة التخلص منه، فصادر أمواله وضياعه فى مصر والشام. وبذلك أضعفه وقلَّل من شأنه.

بقى الوزير العباسى - الفضل بن جعفر - فترة من الزمن فى مصر يضبط أمورها ويحل مشاكلها، وعَهِدت الخلافة العباسية إلى محمد بن طغج الإخشيد بحكم مصر والصلاة والحرب والمال. وبذلك اتسع سلطانه فى مصر، ولم يعد ينازعه فى حكمها منازع.

واجه محمد بن طغج الإخشيد عقبات كثيرة تستهدف القضاء على نظام حكمه وعلى دولته فى مهدها. ومن هذه العقبات القائد العباسى ابن رائق والماذرائيين والقرامطة والحمدانيين.

أولاً: ابن رائق:

قبل أن نتكلم عن ابن رائق وموقفه من الدولة الإخشيدية، يجب أن نذكر لمحة سريعة عن الدولة العباسية فى ذلك العصر.

كثرت الحركات الانفصالية فى العصر العباسى الثانى بسبب ضعف الخلافة العباسية، وقامت الدول الطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها فى مشرق الدولة العباسية، وقامت دول أخرى فى مغرب الدولة العباسية كالطولونية والإخشيدية والحمدانية وغيرها. وكان الخليفة العباسى الراضى فى حالة من الضعف لا تسمح له بوقف هذه الحركات الانفصالية، واستعان بوزراء ضعاف لم يمكنوه من بسط سلطانه على الدولة؛ لذلك استمال ابن رائق - وكان يلى واسط والبصرة - وسلَّم إليه مقاليد الأمور، ولقَّبه أمير الأمراء، وأسند إليه كافة شئون الدولة، وعَهِد إليه بالقضاء على نفوذ الأتراك، ووقف تدخلهم فى سياسة الدولة.

ازداد نفوذ ابن رائق، وأصبح بيده تولية الولاة وعزلهم، وازدادت مكانته عند الخليفة حتى علت على مكانة الوزير، وأمر أن يُخطب له على جميع المنابر. وبذلك سيطر على الأجهزة الإدارية والمالية فى الدولة العباسية، ولم يعد الوزير ينظر فى شئون النواحى والدواوين، وزال نفوذه، واقتصر عمله على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام المواكب مرتدياً السواد. وظل ابن رائق وكاتبه يديران أمور الدولة، وصار بيده تولية الوزراء وعزلهم، وبالطبع كان يختار وزراء ضعاف حتى يضمن ولاءهم له. وبذلك أصبح ابن رائق ملكاً غير متوَّج فى الدولة العباسية.

على أن ابن رائق لم ينعم طويلاً بما بلغه من نفوذ وسلطان؛ ذلك أن الأمراء الأقوياء فى الدولة نقموا على ما بلغه من نفوذ وسلطان، فدخل أبو عبد الله البريدى - صاحب الأهواز - بغداد سنة ٣٢٦هـ. وفى العام التالى ٣٢٧هـ / ٩٢٨م خرج بجكم على ابن رائق، وقبض على زمام الأمور فى بغداد، وعاث جنده تخريباً وفساداً فى بغداد، واستصدر قراراً من الخليفة العباسى الراضى بتوليته منصب أمير الأمراء بدلاً من ابن رائق.

ولكن الخليفة الراضى عجز عن تدبير أرزاق الجند وتسديد نفقاته، وأراد أن يكفل الاستقرار لدولته ولمدينة بغداد فعقد اتفاقاً مع ابن رائق وبجكم بمقتضاه يلى ابن رائق بلاد الشام، ويبقى بجكم أميراً للأمراء فى بغداد.

سار ابن رائق إلى بلاد الشام - وهى فى حوزة الدولة الإخشيدية - وكان عليه استردادها منه، ففى سنة ٣٢٨هـ / ٩٣٩م سار ابن رائق إلى الشام ودخل مدينة حمص وانتزعها من الإخشيديين، ثم سار إلى دمشق ويحكمها بدر بن عبد الله الإخشيدى - واليها من قِبَل محمد بن طغج الإخشيد - فأخرجه ابن رائق منها وملكها، وسار منها إلى الرملة فملكها أيضاً، وطرد والى الإخشيد منها. وبعد أن ملك ابن رائق بلاد الشام وطرد منها الإخشيديين طمع فى مصر، فسار إلى العريش، والتقى بالإخشيد فى معركة هزمه فيها، ونهب جند ابن رائق مخيم الإخشيد؛ على أن جند الإخشيد نصبوا كميناً لجند ابن رائق تسبب فى قتلهم، وهرب ابن رائق فى سبعين رجلاً فى أقبح صورة.

لم يتغاض الإخشيد عن انفصال بلاد الشام عن دولته ودخولها فى حوزة ابن رائق فأرسل جيشاً بقيادة أخيه أبى نصر إلى بلاد الشام، ودارت معركة هُزم فيها الإخشيديون، وقُتل القائد الإخشيدى أبو نصر - أخو محمد بن طغج - فدفنه ابن رائق، وأرسل يعتذر إلى محمد بن طغج الإخشيد، وأرسل ابنه مزاحم إليه ليفديه به إن أحب. لكن الإخشيد أعاد مزاحم إلى أبيه وخلع عليه وقبل عذره. وتحسنت العلاقات بين الرجلين وعُقد صلح بينهما بمقتضاه تكون الرملة وما وراءها إلى مصر للإخشيد، وباقى الشام لمحمد بن رائق، ويحمل الإخشيد إليه فى كل سنة مائة

ألف وأربعين ألف دينار. وبذلك فقدت الدولة الإخشيدية الكثير من ممتلكاتها فى بلاد الشام سنة ٣٢٨هـ / ٩٣٩م.

وفى سنة ٣٢٦هـ / ٩٣٧م - كما قلنا - دخل بجكم بغداد، وقلَّده الخليفة الراضى منصب «أمير الأمراء»، ولكن قتله بعض الأمراء سنة ٣٢٩هـ، فاستدعى الخليفة ابن رائق وقلَّده إمرة الأمراء ثانية سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٠م. لكن ابن رائق لم يتمتع بهذا المنصب طويلاً، فسرعان ما أرسل إليه أبو عبد الله البريدى أخاه أبا الحسن إلى بغداد على رأس جيش من الأكراد والديلم لعزله والسيطرة على بغداد، وعاث البريديون فساداً فى بغداد، وسخط عليهم أهلها، واشتبكوا معهم فى معارك متعددة. ولم يلبث الخليفة أن استوزر أبا إسحاق الإسكافى، وعَهِد إليه بطرد البريديين من بغداد، وفعلاً طردهم وتخلص منهم ومن شرورهم وآثامهم.

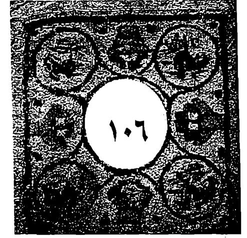
وفى غضون ذلك ارتفع شأن الحمدانيين من بنى تغلب وسطع نجمهم فى أفق الدولة العباسية، ولقَّب الخليفة العباسى الحسن بن عبد الله بـ «ناصر الدولة»، ولقَّب أخاه أبا الحسن بـ «سيف الدولة».

استنجد الخليفة العباسى بالحمدانيين لتخليص بغداد من فتن البريديين، فسار سيف الدولة الحمدانى إلى بغداد وتبعه أخوه ناصر الدولة، ودخل الحمدانيون بغداد، والتقى ناصر الدولة بابن رائق وقتله. فقلَّد الخليفة المتقى ناصر الدولة إمرة الأمراء سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٤م.

رأى الإخشيد أن مقتل ابن رائق يتيح له فرصة استرداد بلاد الشام وإعادتها إلى حوزة الدولة الإخشيدية، فسار إلى دمشق، وطرد منها والى ابن رائق واستولى عليها.

وفى سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٤م سار سيف الدولة الحمدانى إلى حلب وامتلكها وأقام بها إمارة الحمدانيين، وطرد منها الوالى الإخشيدى، وسار سيف الدولة إلى حمص، ودارت حرب بينه وبين محمد بن طغج الإخشيد - صاحب مصر والشام - وهزم الحمدانيون الأمير الإخشيدى، وانتزع سيف الدولة حمص وضمها إلى دولته الناشئة فى حلب، بينما فقد الإخشيد حمص.

على أن سيف الدولة لم يستطع فتح دمشق وضمها إلى دولته بسبب مقاومة الإخشيديين وأهل دمشق للجند الحمدانى، وعُقد صلح بين سيف الدولة ومحمد بن طغج الإخشيد بمقتضاه تنازل، وبموجب الصلح، تبقى حلب لسيف الدولة الحمدانى، ويتنازل عنها محمد بن طغج الإخشيد، ويتعهد الإخشيد بدفع جزية سنوية لسيف الدولة مقابل احتفاظ الإخشيد بدمشق وما يليها جنوباً من بلاد الشام حتى حدود مصر. وتزوج سيف الدولة من ابنة أخ الإخشيد، وقد سعد الأمير الحمدانى بهذا الصلح وتلك المصاهرة، حتى أنه فرَّق أموالاً كثيرة على الناس.



ظلت مطامع سيف الدولة فى حكم بقية بلاد الشام قائمة، فقد طمع فى الاستيلاء على ممتلكات الإخشيد فى بلاد الشام بعد وفاة الإخشيد، واستُضعف حاكم مصر الأسود - كافور - فسار إلى دمشق، واستولى عليها، ثم سار إلى الرملة وتطلع إلى المسير إلى مصر والاستيلاء عليها.

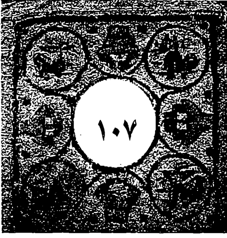
على أن كافور لم يتغاض عن مطامع سيف الدولة فى الدولة الإخشيدية، فسار إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير، والتقى جيش مصر بجيش سيف الدولة قرب الرملة، وهزم الجيش الإخشيدى جيش سيف الدولة، ودخل الجيش الإخشيدى دمشق سنة ٣٣٦هـ، ثم عُقد الصلح بين الطرفين بنفس الشروط التى تضمنها الصلح السابق ما عدا الجزية التى كان يدفعها الإخشيد لسيف الدولة. وبذلك احتفظت مصر بممتلكاتها فى الشام، أى دمشق وما يليها جنوباً حتى حدود مصر، بينما احتفظ سيف الدولة بحلب وأعمالها. وبذلك نجحت الدولة الإخشيدية فى المحافظة على ممتلكاتها فى بلاد الشام، وصدت الطامعين فيها مثل ابن رائق وسيف الدولة الحمدانى.

ثانياً: الماذرائيون:

هذه الأسرة من مراكز القوى فى عهد الإخشيديين، ويقاسمون محمد بن طغج الإخشيدى نفوذه وسلطانه فى الدولة، وهى أسرة فارسية وفدت إلى مصر فى أيام الطولونيين، ودخل بعض أفرادهم فى خدمة بنى طولون، وتكاثروا فى مصر، وأهم رجالهم أحمد بن إبراهيم والحسين بن أحمد المعروف بابن زنبور وعلىّ بن أحمد الماذرائى.

أما أحمد بن إبراهيم فقد ولى خراج مصر سنة ٢٦٦هـ / ٨٢٩م مع شريك له، ثم لم يلبث أن انفرد بشئون خراج مصر، ثم عَهِد أحمد بن طولون إلى الحسين بن أحمد - المعروف بابن زنبور - بعض أعمال الخراج فى بلاد الشام، وارتفع شأن علىّ بن أحمد الماذرائى فى أيام خمارويه، وازدادت مكانة ابن زنبور حتى عَهِد إلى ابنيه أبى بكر محمد وأبى الطيب أحمد؛ الأول بالخراج والثانى على الرسائل. وبذلك أصبحت الشئون الإدارية والمالية فى أيدى الماذرائيين.

ولما ولى هارون حكم الدولة الطولونية، تولى أبو بكر محمد مساعدته فى شئون الحكم والإدارة، وعندما انتزع محمد بن سليمان الكاتب مصر من الدولة الطولونية، دخل أبو بكر محمد الماذرائى فى خدمته، واصطحبه فى عودته إلى بغداد. ولم يلبث أن عاد إلى مصر، وتولى خراجها سنة ٣٠٤هـ / ٩١٦م فى أيام الوالى تكين، وأصبح صاحب السلطان المطلق فى مصر، وحاز ثروة كبيرة، ثم استبعد من مصر وأُعيد هو وعمه ابن زنبور إلى بغداد. ولكن أبا بكر عاد إلى خراج مصر سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م، وازداد نفوذه فى مصر حتى أصبح كما لو كان أميراً عليها، واتخذ



لنفسه حرساً خاصاً يغدق عليهم الكثير من الأموال، بعد أن طمع الكثير فى أموالهم، وتعرضوا لمصادرة بعض أموالهم من الولاة.

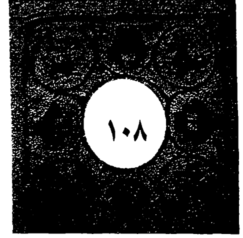
وظلت شئـون الخراج فى أيدى الماذرائيـين حتى بعد وفـاة أبى بكر. وقد ازداد جـشع الماذرائيين حتـى نهبوا أمـوال الدولة، وزوَّروا فى الأوراق على مرأى ومسمع من رجال الدولة. والمصادرات التى تعرضوا لها لم تؤثر فى ثروتهم وأخفوا أمـوالهم الطائلة فى سراديب سرية لا يعرف طـريقها أحد. واحتـاج المسئولون إلى الماذرائيين الذين ضمنوا وصـول الخراج إلى دار الخلافة أو الوالى، فيؤدون المـبلغ المتفق عليه، ويجمعون من الناس ما شاءوا من الأموال.

وكان رجـال الدولة يغضـون الطرف عن سلوكهم وتصـرفاتهم مع الناس الذين بـالغوا فى الاستيلاء على أمـوالهم. وبالرغم من علم رجال الدولة بتصرفاتهم الجشـعة؛ إلا أنهم لا يستغنون عنهم لأنهم ييسرون لهم الحصول على المال، ولم يكن يجرؤ أحد على ضمان الخراج بالقدر الذى يضمنونه.

وفى حوالى سـنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩م استدعى الإخـشيـد أبا بكر الماذرائى وفوَّض إليـه أمور المال، وخلع على ابنه الحـسين بن أبى بكر، وأصبح أبو بكر مـا يمكن أن يكون وزيراً للإخشـيد، يشرف على إدارة مصـر والشام، وكان الإخشيد لا يـصدر قراراً أو يتخذ موقـفاً إلا بمشورته، ولا يعقد مجلساً إلا بحضوره. وازدادت علاقة الإخشيد به وقويت، ولكن دوام الحال من المُحال، ففى سنة ٣٣١هـ / ٩٤٢م ساءت العلاقات بين الإخـشيد والماذرائى، فعزله عن مناصبه، وحـدَّد إقامته فى بيته، وأجرى عليه رزقاً محدوداً.

ازدادت حالة أبى بكر سوءاً، فلما توفى الإخشيـد، وخلفه ابنه أنوجور، تقرب إليه أبو بكر وأظهر ولاءه وإخـلاصه الشديد، فعـفا عنه أنوجور، وأطلق سـراحه وأعاده إلى مناصـبه؛ ولكن العـلاقات لم تلبث أن سـاءت بين الرجلين، فعـزل أنوجـور أبا بكر الماذرائى وزجَّه فى السـجن، وصادر أمـواله وممتلكاته، ولم يستمـر فى السجن طويلاً، فـقد توفى أنوجور وولى كـافور حكم مصـر، فأفرج عن أبـى بكر وأعاده إلى وظائفه التى كـان يتقلدها. وظل أبو بكر المـاذرائى يشغل مناصب رئيسـية فى الدولة الإخشيـدية؛ إدارية ومالية حـتى وفاته فى عهد كـافور سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م وقد تجاوز الثمانين، وتوقف فى أواخر أيامه عن شغل المناصب الرئيسية فى الدولة.

وكان مـحمد بن علىّ الماذرائى يتـقرب إلى الإخشيـد بكل الوسائل، فمـثلاً استضـافه فى بستانه، ونثر بين يديه الذهب والفضة والتـماثيل من الكافور والعنبر، وجمع له المغنين من الرجال والنساء، وأرسل الهدايا على الخيول إلى بيت محمد بن طغج، وهى هدايا تفوق الوصف ويصعب تقدير أثمانها.



علاقة الإخشيديين بالخلافة العباسية:

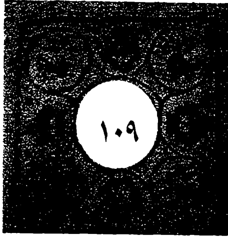
حرص الإخشيديون منذ أن حكموا مصر على اتباع سياسة الطولونيين المؤيدة للخلافة العباسية، والمعلنة لولائها وإخلاصها للخلافة. ففى شهر رمضان سنة ٣٢٤هـ / ٩٣٨م ورد إلى الإخشيد كتاب الخليفة العباسى الراضى مع رسوله «ابن الشيمى» يلقبه الإخشيد فدُعى بذلك على منبر جامع عمرو بن العاص وسائر جوامع مصر، وكُوتب به. والمعروف أن الإخشيد يعنى ملك فى بعض بلدان ما وراء النهر، وسعد الإخشيد بهذا اللقب، وكُوتب به. لذلك أرسل إلى الخليفة مالاً كثيراً وهدايا وكراعاً وثياباً وبغالاً وخيولاً. وفى سنة ٣٢٩هـ ورد على الإخشيد كتاب من دار الخلافة بوفاة الخليفة الراضى، وتولية أخيه إبراهيم بن جعفر - المتقى - فدعا له، وأرسل المتقى إلى الإخشيد كتاباً بتقليده حكم مصر والشام، ومعه الخلع، فركب إلى المسجد الجامع ولبسها، ورجع على بيته فى موكب وزُينت الطرق على الجانبين، وفرح وفرح معه الناس على اعتراف الخليفة العباسى بحكمه، وإكساب حكمه الصفة الشرعية.

ولما اشتدت وطأة الأتراك على الخليفة المتقى، رأى أن يلجأ إلى مصر، لأنه يعلم بإخلاص الإخشيد له وللخلافة، فلم ينتظر مقدم الخليفة، بل ذهب إلى الرقة لاستقباله واصطحابه إلى مصر، وحمل إليه الإخشيد من الدنانير والدراهم والجوهر والطيب والفرش والكراع والبغال ما يُقدر بحوالى مائتين وخمسين ألف دينار، وحمل مالاً إلى خواصه وحاشيته، ولما التقى الإخشيد بالخليفة ترجل، وقبَّل الأرض مراراً، وكان الإخشيد يقف بين يديه على سيفه، وإذا ركب حجبه وجعل مقرعته على كتفه، فأُعجب الخليفة من هذا الاستقبال وقال له: قد وليتك أعمالك ثلاثين سنة، ولقَّب ابنه أنوجور - أبا القاسم - فقبَّل الإخشيد الأرض مراراً، ومنح الخليفة مكافأة أخرى.

ولما شاهد الإخشيد إكرام المتقى له قال: أسير بين يدى أمير المؤمنين وأخدمه إلى بغداد، فأجابه المتقى، وتطلع الإخشيد إلى توليته إمرة الأمراء فى الدولة العباسية. ولكن الإخشيد علم باعتزام الفاطميين غزو مصر والشام، فاعتذر للمتقى، فطلب منه أن يسير إلى مصر والشام لحمايتها من الخطر الفاطمى.

لما بلغ المتقى بغداد قبض عليه أمير الأمراء توزون وسمل عينيه وتولى المستكفى الخلافة، فبكى الإخشيد لما حدث للمتقى وعاد إلى مصر، وأعلن تولية المستكفى الخلافة ودعا له على منابر مصر والشام، وأرسل إليه المستكفى ولابنه أنوجور العقد والخلع.

لما ولى أنوجور وهو فى الخامسة عشر من عمره اعترف به الخليفة العباسى المستكفى، وأرسل إليه العقد والخلع، ولما قيل له بأنه غر صغير، قال: لقد عُقد لهارون بن أبى الجيش وهوأصغر منه.



ولما ولى كافور حكم مصر استنكر الناس ذلك لأنه عبد أسود، ولكنه اكتسب الصفة الشرعية لما وردت رسل الخليفة المطيع إلى مصر بالعقد والخلع والهدايا، وأُقيمت باسمه الخطبة على المنابر بعد الخليفة العباسى. وتم لكافور ملك مصر والحرمين، ولبس الخلع ولُقِّب وطُوِّق وسُوِّر.

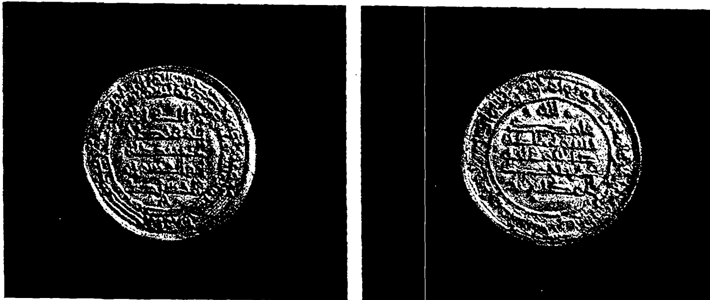
وبذلك استمرت العلاقات بين الإخشيديين والعباسيين، تنم عن الود وتبادل الثقة، وبقى الإخشيديون على ولائهم للخلفاء العباسيين، كما أن الخلفاء حرصوا على تقليد كل أمير إخشيدى الحكم، وتقديم الخلع والهدايا إليه.

حرص الإخشيد على المحافظة على الدين فى دولته، فأمر بهدم دور الخمر والقمار. وكان الإخشيد يذهب إلى صلاة الجمعة فى المسجد العتيق (عمرو بن العاص) ويصلى فى المقصورة مثل أحمد بن طولون، ويبعد الناس عنها؛ ولكنه لا يحتجب عن الناس فى شهور رجب وشعبان ورمضان. وكان يكره سفك الدماء، ويحب الصالحين ويركب إليهم، ويطلب دعاءهم. ويركب إلى جامع عمرو بن العاص فى نهاية شهر رمضان فى ليلة ختم القرآن، ويستمع إلى القُرَّاء وإلى دعواتهم. وكانت الهدايا تأتيه فى الأعياد كالنوروز (عيد الربيع) والمهرجان (حلول الشتاء).

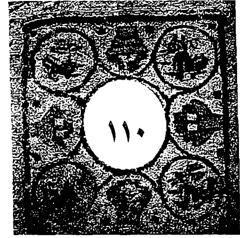
وكان الإخشيد حسن التأمل والنظر، وكان يرث كل من يموت من قواده وكتَّابه وحجَّابه ومياسير التجَّار. وتوفى الإخشيد ودُفن فى بيت المقدس وترك من المال سبع مطامير أى خزائن فى باطن الأرض، كل مطمورة بها ألف ألف دينار، لأنه كان يكثر من مصادرة أموال الناس وضمها إلى ثروته.

أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد [٣٣٤ - ٣٤٥هـ / ٩٤٥ - ٩٦٠م]:

لما توفى الإخشيد سنة ٣٢٥هـ بايع أهل مصر ابنه أبو القاسم أنوجور، وذهب إلى دار الإمارة فى موكب كبير، وقدم له الناس التهانى والتعازى، وحضر إلى دار الإمارة وجوه الناس من الأمراء والقواد والأشراف والوزراء والكُتَّاب والقضاة والشهود.



دينار إخشيدى باسم أبو القاسم أنوجور ضرب / مصر - سنة ٣٣٦هـ/ سنة ٩٤٧م



استوزر أنوجور أبا بكر الماذرائى، وتمتع بنفس النفوذ الذى كان عليه فى دولة أبيه، ولما استقرت الدولة لأنوجور طمع سيف الدولة فى دمشق، وسار إليها فعلاً، ولكن كافور الإخشيدى قاد جيشاً من مصر، وأخرج سيف الدولة من دمشق. وبذلك حافظ على دولة الإخشيد. وكان ذلك سنة ٣٣٦هـ.

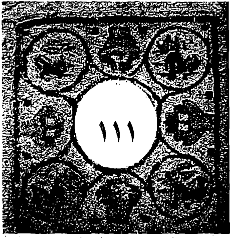
لم يستطع أنوجور القيام بشئون الحكم، وكان ضعيفاً، وكبار رجال الدولة الذين كانوا يخشون الإخشيد زاد نفوذهم حتى عجز عن إدارة البلاد.

وفى عهد أنوجور ثار غلبون حاكم الأشمونية، فأرسل أنوجور جيشاً لإخضاعه بقيادة شادن، ولكن غلبون تغلب على الجند.

لما شعر غلبون والى الأشمونية بقوته، هاجم الفسطاط فتصدى له جند الإخشيد وطاردوه حتى لحقوا به فى الشرقية فقبضوا عليه وقتلوه. وكان أنوجور يواجه العقبات فى حكمه من رجال الدولة، فكان فى خلاف دائم مع كافور الذى قوى بأسه وعظم أمره فى مصر، وكان كافور يسعى إلى إضعاف أنوجور ليخلو له الجو ويحكم مصر. وتوفى أنوجور سنة ٣٤٩هـ / ٩٦٠م، وخلفه أخوه علىّ بن الإخشيد، فضعف ولم يستطع حكم البلاد، ووضع كافور العقبات فى طريقه، وتوفى سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٥م، ودُفن فى بيت المقدس إلى جوار أبيه وأخيه.

استبد كافور بأمور البلاد بعد وفاة علىّ بن الإخشيد، ودُعى باسمه على المنابر، واعترف به الخليفة المطيع، وخلع عليه. وكافور الأسود الخصى يُعتبر من عجائب الدنيا وسيرته من أغرب السيَر، وسِيق من السودان هو وعبد أسود لبيعه فى سوق الرقيق فى مصر، ورغب الثانى فى البيع لطباخ حتى يظل شبعاناً، أما كافور فقد قال: أتمنى أن أُباع لملك حتى أتمتع بلذة الحكم والسلطان، وبلغ كل واحد غرضه.

لمس محمد بن طغج الإخشيد فى عبده كافور النجابة، وتفرس فيه الهمة العالية، لذلك برز فى دولة محمد بن طغج، وأسند إليه مقاليد الأمور، وقيادة بعض الجيوش، وهو الذى أدار دولة أنوجور، وعلىّ بن الإخشيد. ولُقِّب كافور أبو المسك للونه الأسود، وارتفعت مكانته عند الإخشيد حتى عَهِد إليه بتربية ولديه أنوجور وعلىّ، ولُقِّب بالأستاذ، وأعتقه الإخشيد، وقاد الجيوش لمحاربة الحمدانيين.



تولى كافور حكم مصر على الرغم من عدم وراثته للإخشيديين، وعهد كافور فى مصر عهد أسود كلونه، توالت فيه النكبات على مصر، فقد تعرضت بلاد الشام لغزوات القرامطة سنة ٣٥٣هـ / ٩٦٤م، ووقعت زلازل عنيفة مخربة، وشبت نيران هائلة دمرت ألوف المنازل فى الفسطاط، وأغار ملك النوبة على مصر، وعاث فى بلاد الصعيد فساداً، ونهب البلاد، وقتل العديد من الناس، وانخفض ماء النيل تسع سنين، وتبع ذلك تدهور الإنتاج الزراعى واشتداد القحط والوباء وموت الإنسان والحيوان. وكان يجالس العلماء والأدباء، ويحرص على سماع الأحداث التاريخية لمن حكم بلاد الإسلام من قبله، وله ندماء وحُجَّاب وعبيد سود ومماليك وجوارٍ مغنيات، وزاد ملكه عن ملك سيده محمد بن طغج الإخشيد.

كان يتودد إلى الخلافة العباسية، وفى نفس الوقت يتظاهر بالوفاء والإخلاص للدولة الفاطمية فى المغرب، حتى يضمن الاستقرار فى حكمه وعدم الدخول فى حروب مع إحدى هاتين الدولتين.

كان كافور يصافح الناس ويعفو عن أخطائهم حتى يقربهم إليه. وكان بمصر واعظ يقص على الناس، وقال يوماً فى قصصه: انظروا إلى هوان الدنيا على الله تعالى فإنه أعطاها لمقصوصين ضعيفين، ابن بويه ببغداد وهو أشل، وكان كافور عندنا بمصر وهو خصى، فعلم كافور، وبدلاً من أن يعاقب هذا الواعظ قدَّم له خلعة وألف دينار، وقال: لم يقل هذا إلا لجفائى له. وبالفعل نجح كافور فى استمالة هذا الرجل حتى أنه تحول إلى الثناء عليه، وكان الواعظ يقول بعد ذلك فى قصصه: ما أعجب من ولد حام إلا ثلاثة: لقمان وبلال المؤذن وكافور.

وقال عنه المتنبى:

من علم الأسود المخصى مكرمة … أقومه البيض أم آباؤه السود

وذاك أن الفحول البيض عاجزة … عن الجميل فكيف الخِصْيَة السود

وقال المتنبى فى هجاء كافور:

أريك الرضا لو أخفت النفس خافيا … وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا

أَمَينا وإخلافاً وغدراً وخِسَّة … وجُبناً أشخصا لحت لى أم مخازيا

تظن ابتسامتى رجاءً وغِبطة … وما أنا إلا ضاحك من رجائيا

ويقول فى هجائه أيضاً:

أكُلما اغتال عبد السوء سيده ... أو خانه فله فى مصر تمهيد
صار الخصىّ إمام الآبقين بها ... فالحُرُّ مُستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد

ثم يقول:

وتُعجبنى رجلاك فى النعل إننى ... رأيتك ذا نعل إذا كنت حافيا
وإنك لا تدرى ألونك أسود من ... الجهل أم قد صار أبيض صافيا

أبو الفوارس أحمد بن علىّ بن الإخشيد [٣٥٧ - ٣٥٨هـ / ٩٦٧ - ٩٦٨م]:

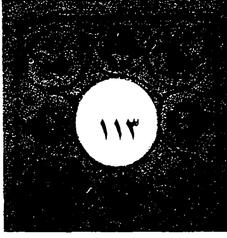
تولى حكم الدولة الإخشيدية بعد وفاة أبيه، وقد حكم بالعدل، وحسنت سيرته بين الناس، وحافظ على الدين، فأعاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأغلق محلات الخمور. ولكن فيضان النيل نقص فى عهده، فنقص القوت وكثر الوباء واشتد الغلاء، ومات الكثير من الناس. وذكر الكندى أن الناس بسبب هذه المجاعات أكلوا الكلاب والقطط.

لكن أيام هذا الأمير لم تطل، فقد خرج عليه فى الرملة الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد، وأعلن نفسه أميراً، وبايعه الناس، وقبض على أموال كافور فى الرملة. وفى غضون ذلك وفى سنة ٣٥٨هـ سار جوهر الصقلى إلى مصر وفتحها. وبذلك سقطت الدولة الإخشيدية.

علاقة الإخشيديين بالنوبة:

رأينا أن اتفاقاً عُقد بين والى مصر عبد الله بن سعد بن أبى سرح وملك النوبة، بمقتضاه يقدم ملك النوبة عدداً من العبيد إلى مصر، وظلت بنود هذا الاتفاق قائمة حتى شعر ملوك النوبة بضعف مصر فى عصر الإخشيديين، فنقضوا الاتفاق ولم يرسلوا العبيد إلى مصر، واشتدت هجمات النوبيين على جنوب مصر، وخربوا البلاد ونهبوها، وقتلوا الأبرياء.

وفى سنة ٣٣٦هـ / ٩٥٠م أغارت جيوش النوبة على الواحات، ونهبوا البلاد وسبوا النساء وقتلوا الكثير من أهلها. رأى أنوجور ضرورة قمع الأعمال التخريبية للنوبة وملكها، فأرسل سنة ٣٤٤هـ جيشاً بقيادة محمد بن عبد الله الخازن، استطاع هذا الجيش هزيمة أهل النوبة والتنكيل بهم، وفرَّ ملك النوبة من هجمات الإخشيديين القوية مع جيشه المهزوم، وتعقبه الخازن وفتح ابريم، وعاد إلى مصر سنة ٣٤٥هـ / ٩٥٦م ومعه مائة وخمسون أسيراً نوبياً، ورءوس القتلى.



وبذلك هُزم ملك النوبة واشتد ضعفه، ولم يعد قادراً على مهاجمة حدود مصر الجنوبية.

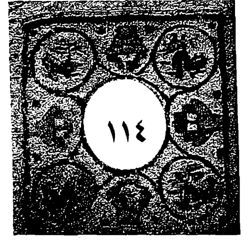
العلاقات الإخشيدية الفاطمية:

تطلع الفاطميون منذ أن قامت دولتهم فى المغرب إلى فتح مصر والسيطرة عليها؛ لأن مصر قلب العالم الإسلامى النابض، فضلاً عن قربها من بلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفين، وقربها من العدو اللدود - الدولة العباسية - فضلاً عن ثروتها وإنتاجها الهائل. كما أن شعب مصر يحب آل البيت. واستجاب المصريون للدعاة الفاطميين، ودخلوا فى المذهب الإسماعيلى. كما أن الفاطميين رأوا أن أهل المغرب شديدو المراس، ومن الصعب عليهم الاستقرار بينهم فى هدوء وسلام. أما المصريون فيمكن للفاطميين حكمهم بسهولة ويُسر، ومن مصر يمكنهم تنفيذ سياستهم الرامية إلى مد نفوذهم إلى سائر العالم الإسلامى، مثل الشام والحجاز واليمن والعراق وخراسان وغيرها. ونضيف أن الدولة الإخشيدية فى مصر ضعفت حتى أصبحت مُهيأة للغزو الفاطمى.

فى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٤م أرسل أول الأئمة الفاطميين عبيد الله المهدى قائداً من قواده يُقال له حباسة، فركب مع جنده البحر، واستولى على الإسكندرية، ثم سار منها يريد مصر، فأرسل الخليفة العباسى المقتدر جيشاً بقيادة مؤنس الخادم، ودارت حرب بين الجيش العباسى والجيش الفاطمى، هُزم حباسة هزيمة مُنكَرة، وقُتل من جنده الكثير. وبذلك فشل الفاطميون فى حملتهم الأولى، بينما استراح الخليفة العباسى من الخطر الفاطمى، وهو لا يطيق انتزاع جزء من دولته على أيدى أعدائه الفاطميين المخالفين له فى المذهب. ومهما يكن من أمر فقد عاد حُباسة بفلول جيشه المهزوم، وقتله المهدى.

وعلى الرغم من هذه الهزيمة إلا أن الخليفة المهدى الفاطمى لم يكف عن تحقيق سياسته فى فتح مصر. ففى سنة ٣٠٧هـ / ٩١٩م أعد المهدى جيشاً كثيفاً بقيادة ابنه أبى القاسم، فدخل الإسكندرية، وسار منها واتجه إلى جنوب مصر، وملك الأشمونية، وتوغل فى الصعيد، وكتب إلى أهل مكة يدعوهم إلى الدخول فى الدعوة الفاطمية؛ ولكن أهل مكة المتمسكين بالمذهب السنى رفضوا الدعوة الإسماعيلية.

لم يتغاض الخليفة المقتدر عن هذا الزحف الفاطمى على أهم بقعة فى الدولة العباسية، وهى مصر، فأرسل جيشاً بقيادة مؤنس الخادم، ودارت عدة وقائع بين العباسيين والفاطميين، فأرسل



المهدى الفاطمى إلى ابنه مـدداً بقيادة سليمان الخادم، وهُزم الفـاطميون فى هذه المعركة شر هزيمة، وقُتل وأُسر قادة المعـركة، واستولى العباسيون على أسلحتهم وعـتادهم، ومات كثير من الجند الفـاطمى بسبب الجوع والوباء، وعاد المهـزومون بقـيادة (أبو القاسم) الـقائم فى أسوأ حـال إلى إفريقـية، وخرج مؤنس الخـادم من هذه المعركة ظافراً منتـصراً، ولقَّبه الخليفـة المقتدر «المظفر».

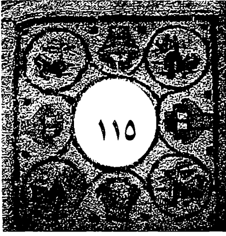
لما توفى الخليفـة العباسى المقتـدر أثار الأتراك الشغب فى الدولة العبـاسية حتى ضـعفت، فانتهـز المهدى الفاطمى الفرصة، وأرسـل جيوشه إلى مصـر سنة ٣٢١هـ / ٩٢٣م، وتصدى لها المصريون فى عدة حروب، انتهت بهدنة بين الطرفين، غير أن هذه الهدنة لم تطل لأن المصريين لم يطيقوا الجند المغـاربة المحتلين لبلادهم، وتطلعوا إلى تحريرهم من هذا العدو، فـحاربوهم فى عدة بلاد خصوصاً الجيزة وبلبيس، ثم أوقع محمد بن طغج الإخشيد الهزيمة بالجند الفاطمى، وأجبرهم على العودة من حيث أتوا. وانشغلت الدولة الفاطمية بعض الوقت عن مصر بسبب وفاة عبيد الله المهدى، وتولية ابنه القاسم الإمامة الفاطمية ولُقِّب القائم.

واصل القائم - الخليـفة الفاطمى الثـانى - سياسـة أبيه عبيـد الله المهدى فى غزو مـصر، وضمهـا إلى الدولة الفاطمية، ففى سنة ٣٢٨هـــ أرسل جيشاً قوياً إلى مـصر فدخل الإسكندرية. على أن الإخشيد أرسل جـيشاً إلى الإسكندرية، اشتبك مع الجيش الفـاطمى وهزمه، وأجلاه عن مصر.

رأى الخليفة القائم أن يلجأ إلى إقناع الإخشيـد بالصلح، والخضوع للدولة الفاطمية، وخلع طاعة بنـى العباس، فـأرسل رسالة إلى الإخـشيـد يتودد إليـه، ويدعوه إلى الدخول فـى الدعوة الفاطمية، والموافقة على ضم مصر إلى الدولة الفاطمية دون قتال.

ومما جاء فى هذه الرسالة: شـهد الله على ميلى إليك وإيثارى لك ورغبـتى فى مشاطرتك على ما حوته يمـينى واحتوى عليه ملكى. وحـذره من الانقياد إلى إخوان السوء مـن أتباعه الذين يعـرقلون المصالحـة والود بينهمـا، وقال: فـإن لم تجـد فى نفسك مـعونة على اتبـاع الحق ولزوم الصدق، فإننى أرضى منك بالمودة والأمر بالطاعة، فـإذا قبلت دعوتى إلى الصلح والطاعة، فتنعم بمجازاتى ورضائى.

لم يوافق الإخشيد على دعوة القائم الفـاطمى بالإذعان والطاعة له، لأنه يدرك مطامعه فى مصر والسيطرة عليها؛ لذلك احتج على رسول القائم بأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يدرى ما فى هذه



الرسالة، ولا يجوز أن يبوح عما فى نفسه إلى كاتب، إذا كان الصواب يقتضى ذلك، ثم قال: وأنا أتدبر الجواب فأجيب عنه، ويصل مع من أثق فيه، وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن أحد يسلكه قبلى.

وأرسل الإخشيد يحاول إظهار الود إلى القائم الفاطمى، فعرض عليه زواج ابنه المنصور من ابنته (أى ابنة الإخشيد) فوافق القائم، ولكنه أرسل رداً يؤكد فيه حكمه لمصر فقال: قد قبلت ما بذلت، وهى وديعة لنا عندك، وقد نحلناها من بيت مالنا عندك مائة ألف دينار.

لم يتم هذا الزواج لأن كتاب القائم يدل على أنه أى القائم اعتبر مصر تابعة له، والإخشيد لا بد أن يؤدى للحكومة الفاطمية الأموال. ومع ذلك فإن الإخشيد فضَّل التبعية للخلافة العباسية الضعيفة بدلاً من الخلافة الفاطمية القوية والتى هى فى ريعان شبابها.

لم يعجل الخليفة الفاطمى المنصور على مواصلة سياسة سلفيه فى ضم مصر إلى دولته بسبب انشغاله فى قمع الثورات العديدة التى قامت ضده فى بلاد المغرب.

لما ولى المعز لدين الله الفاطمى حكم الدولة الفاطمية راقب الأوضاع فى مصر، فضعفت الدولة الإخشيدية، وحكمها أنوجور ومن بعده العبد الأسود كافور، فانتشر الدعاة الإسماعيليون فى مصر، ودخل العديد منهم فى الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، رغبة منهم فى استبدال حكومتهم الضعيفة بحكم قوى يصلح البلاد ويرفع من شأنها.

حرص كافور - الذى ولى حكم مصر - على تحسين علاقته بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، فكان يهادن المعز لدين الله - الخليفة الفاطمى فى المغرب - ويظهر ميله إليه، وفى نفس الوقت يظهر الولاء والطاعة للخلافة العباسية، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء.

ومع ذلك أرسل المعز لدين الله الفاطمى جيشاً إلى مصر، استولى على واحاتها. ولكن كافور أرسل جيشاً هزمهم، وأجلاهم عن مصر. وأرسل المعز رسلاً ودعاة إلى مصر لدعوة كافور الإخشيدى للدخول فى الدعوة الفاطمية فراوغهم ولم يعطهم جواباً واضحاً. على حين دخل فى الدعوة الفاطمية الكثير من كبار رجال الدولة فى مصر وموظفيها وقادتها.

لما توفى كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧هـ اضطربت مصر وعمَّ فيها القحط والوباء، وتدهورت ميزانية الدولة حتى عجزت عن سداد رواتب الجند والموظفين والإنفاق على ما تتطلبه أوجه

الإنفاق، وفقدت الحكومة سيطرتها على البلاد، واختل الأمن والنظام فى مصر، وعجزت الدولة عن جمع الضرائب من الناس، وهرب كبار الموظفين من مصر مثل يعقوب بن كلس الذى لجأ إلى المعز فى المغرب، ولحق به بعض أغنياء مصر وكبار موظفيها، وحرضوا المعز على غزو مصر وإنقاذها مما تعانيه من بؤس وفوضى وشقاء.

نهاية الدولة الإخشيدية والفتح الفاطمى لمصر:

ضعفت الدولة الإخشيدية - كما رأينا - بسبب ما واجهته من صعاب وعقبات لم تكفل لها الاستقرار، فحاول بعض الولاة والأمراء والقادة العباسيين تحقيق أطماعهم على حساب الدولة الإخشيدية، وانتزاع بعض ممتلكاتها، وتعرضت الدولة الإخشيدية كذلك فى قسم من دولتها فى بلاد الشام للغزو الحمدانى، وغزوات القرامطة، وتعرضت لمحاولات الفاطميين السيطرة على مصر بغرض نقل دولتهم إليها.

كذلك تعرضت الدولة الإخشيدية لانخفاض ماء النيل فى بعض السنوات، مما حرمها من خيره ونعمه فجفت الأرض وانتشرت المجاعات والأوبئة، وأنفق الإخشيديون أموال مصر فى تحسين علاقتهم بالخلافة العباسية أو ادخار الأموال لإشباع نهمهم فى المال، وحرمان الشعب البائس من العيش فى رخاء. كما اضطربت إدارة البلاد فى العصر الإخشيدى وضعفت الحكومة، وسعى الماذرائيون إلى الاستحواذ على ثروات البلاد مستغلين قوة نفوذهم فى مصر، وشغلهم للوظائف الرئيسية فيها.

كذلك ضعف البيت الحاكم فى مصر، وكان لدخول العبد الأسود كافور فى القصر الحاكم وازدياد نفوذه فيه، وثقة الإخشيد الكبيرة به، واعتماده عليه فى تربية أولاده؛ وقد ربَّى كل هؤلاء الأولاد أسوأ تربية، فلم يدربهم على أساليب الحكم والقتال والفروسية وسياسة الدول؛ ولكنه هيَّأ لهم العيش فى لهو وعبث، فلم يتمكنوا من حكم البلاد، وظل مسيطراً على شئونها، ولم يستطيعوا استرداد نفوذهم أو السيطرة على الدولة، مما زاد البلاد ضعفاً وتدهوراً.

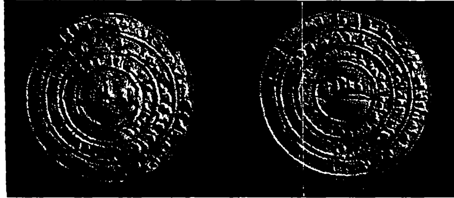
وظل الأمر كذلك حتى تمكن هذا الرجل الشؤم من حكم مصر رغم أنه عبد أسود؛ والحاكم لا بد وأن يكون ذا نسب عريق وثقافة واسعة، فاحتقره المصريون والوافدون عليها من رجال الفكر مثل الشاعر المتنبى الذى هجاه، لأنه لم يقدره التقدير الكافى لأنه غير عربى، يجهل ثقافة العرب وفكرهم. وظلت الدولة الإخشيدية فى ضعف وتدهور، وحكمت البلاد خمسة وثلاثين عاماً وآلت إلى الدولة الفاطمية.

حكم كافور مصر ٢٢ سنة، قضى معظمها حاكماً كوصىّ على أولاد الإخشيد الذين لم يعرفوا شيئاً من شئون الحكم سوى اللهو والعبث، وانفرد بحكم الدولة أكثر من عامين، واعترف به الخليفة العباسى. وهذا الحاكم أغرب ما عرفه تاريخ الإسلام حيث كان ذو لون أسود وبطن ضخم وأرجل معوجة وشفاة غليظة، وكان كافور ينعم بقدر من المعرفة والثقافة، وأحاط نفسه بالشعراء والعلماء والأدباء، يستمع إلى مناقشاتهم، ويستمع إلى روايات المعارضة عن حكام العصور السابقة، وحلقاته تجمع العلماء ورجال الفكر شأنه فى ذلك شأن العبيد الأذكياء ومنهم الكندى صاحب كتاب قضاة مصر، والبحترى النحوى المعروف، وأبو القاسم صاحب الشعر الغنائى.

وكان كافور يحب الغناء والموسيقى، وذكر البحترى أن الزلازل المتكررة فى ذلك العصر ما هى إلا رقص مصر. وكان مطبخ كافور يضم الكثير من الطعام لتوزيعه على رجال القصر والناس؛ فيطبخ فى مطبخه كل يوم مائة خروف ومائة جمل ومائتين وخمسين أوزة وخمسمائة دجاجة وألف حمامة وأكياس الحلوى. وكان الاستهلاك اليومى ألف وسبعمائة رطل من اللحم عدا الطيور والحلوى، ويستهلك القصر الكثير من عصير التفاح الذى كان يُجلب من أسيوط.

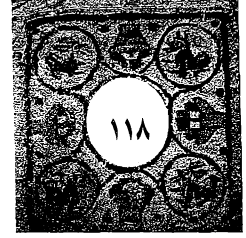
الغزو الفاطمى لمصر

فى سنة ٣٥٥هـ أعد المعز لدين الله الفاطمى العدة لغزو مصر، فأمر بحفر الآبار من المغرب إلى مصر، وأن يُبنى له فى كل محطة - إن صحّ هذا التعبير - قصر خاص به، وأمر صاحب بيت المال بوضع أربعة وعشرين ألف ألف دينار فى صندوق وتشميع الصندوق بعد إغلاقه جيداً.



دينار فاطمى باسم الخليفة المعز لدين الله

ضرب المنصورية سنة ٣٤٢هـ/ سنة ٩٥٣م



أسند المعز لدين الله الفاطمى إلى قائده جوهر الصقلى بقيادة الجيش الفاطمى إلى مصر مُدعَّماً بالمال - كما ذكرنا - والسلاح، وسار جوهر إلى مصر سنة ٣٥٨هـ وتم فتح مصر فى رمضان من هذه السنة، فسُرَّ المعز لذلك. وأنشد الشاعر ابن هانئ قصيدة قال فيها:

يقول بنو العباس هل فُتحت مصر ... فقل لبنى العباس قد قُضى الأمر

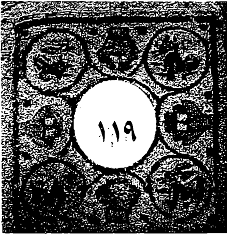
ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يجد جوهر الصقلى مقاومة فى مصر، فهرب الجند الإخشيدى منها، وأُقيمت الدعوة فى جامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، ثم سار جوهر إلى مسجد ابن طولون وأمر المؤذن باستعمال عبارة «حيَّ على خير العمل» بدلاً من «الصلاة خير من النوم». ثم صار يُؤذَّن بهذا الأذان فى مساجد مصر. وأرسل جوهر، جعفر بن فلاح الكتامى إلى الشام فى جيش كبير إلى الرملة ويحكمها الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيد فقاتله وأسره وأسر قواده، وسِيق الأسرى إلى المعز فى المغرب، وسيطر جوهر على الرملة، ودخل أهلها فى الدعوة الفاطمية، وهرب من لم يقبل الدعوة الفاطمية، ثم سار جعفر بن فلاح إلى طبرية، فوجد أهلها قد أقاموا الدعوة للدولة الفاطمية، فسار إلى دمشق فقاتله أهلها ولكنه هزمهم، ونهب الجند دمشق، ودخلت فى حوزة الدولة الفاطمية، وقاوم أهل دمشق الجيش الفاطمى بشدة وضراوة، وقُتل من الفريقين الكثير من الناس، وظل القتال مستمراً حتى تراضى الطرفان، وتم عقد صلح بين الفاطميين وأهل دمشق، وأُقيمت الدعوة الفاطمية فى دمشق. وبذلك سقطت الدولة الإخشيدية؛ ليس فى مصر فقط، بل وممتلكاتها فى الشام حتى مدينة دمشق.



كانت اللغة القبطية - لغة عامة المصريين فى جميع أنحاء مصر يتحدث بها العام والخاص حين فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م وظلت سائدة فى مصر ثلاثة أو أربعة قرون، وتلاشت خلال هذه القرون تدريجياً حتى زال استعمالها فى مصر تماماً.

عرف المصريون اللغة العربية، قبل الإسلام، فقد قصد العرب مصر للتجارة أو الإقامة، وكانت الهجرات العربية، تفد إلى مصر عن طريق جزيرة سيناء، واستقرت القبائل العربية على الضفة الغربية من البحر الأحمر، وعلى ضفاف النيل.



وكان عمرو بن العاص يفد إلى مصر للتجارة قبل الإسلام. ولما ظهر الإسلام وبدأ عصر الفتوح، وفد على مصر من بلاد الشام قبائل غسان ولخم وجذام وعاملة فى عهد عمر بن الخطاب وشكلت هذه القبائل جالية عربية تعتز بلغتها وقوميتها، وانضمت إلى عمرو بن العاص وجيشه فى فتح مصر.

أصبح في مصر بعد الفتح العربى، لغتان للتخاطب، اللغة العربية - لغة الفاتحين - وبعض المصريين الذين اعتنقوا الإسلام أو دخلوا فى خدمة الفاتحين، وشغلوا بعض وظائف الدولة، واللغة القبطية - لغة السواد الأعظم من المصريين - وهى امتداد للغة المصرية القديمة وكتاباتها الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية.

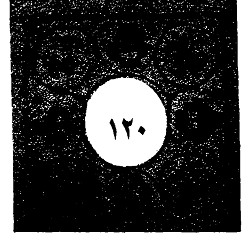
وانتشرت اللغة العربية لأسباب كثيرة - ذكرناها فيما سبق - مثل هجرة القبائل العربية، وأنها لغة الحاكمين، وقطع الخليفة المعتصم رواتب العرب من الديوان، فانطلقوا فى البلاد الإسلامية مثل مصر، وساحوا فى البلاد، لالتماس الرزق من كل سبيل، وأدى ذلك إلى اختلاطهم بالمصريين، كما أن تعريب الدواوين والدخول فى الإسلام من أهم أسباب انتشار اللغة العربية.

ضعفت اللغة القبطية أمام اللغة العربية، وقبل ذلك تعرضت للضعف أمام اللغة اليونانية - لغة العلم والثقافة ولغة البطالمة - كذلك أضعفت اللغة السريانية، اللغة القبطية التى عرفها المصريون، وكانت لغة مدرسة الإسكندرية. وتخلى المصريون عن أبجديتهم، واستعملوا الأبجدية اليونانية.

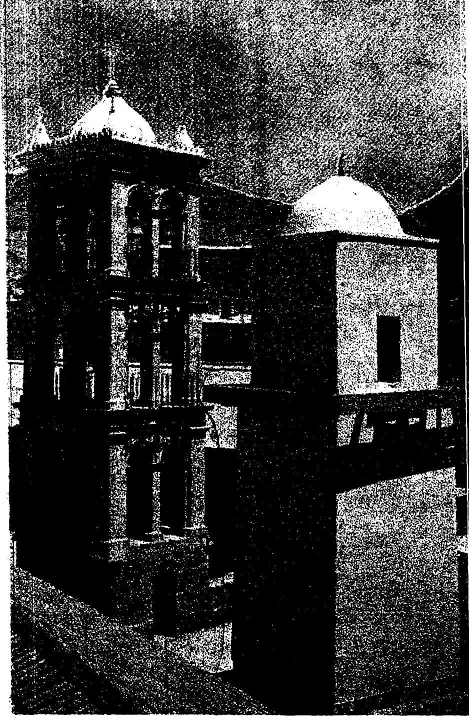
والمعروف أن هناك قرابة بين اللغتين العربية والقبطية، فهما من مجموعة واحدة، هى المجموعة الحامية السامية، لذلك فالتشابه واضح بينهما. وهناك تشابه بين الجماعات الحامية والسامية، وقد دفع هذا التشابه العالم المصرى جمال حمدان إلى القول بأن هذا التشابه أوجد تقارباً بين الحاميين والساميين، وظهر ذلك فى لغاتهم وتقاليدهم وعاداتهم. وهذا التقارب كان من أسباب اندماج المصريين (الحاميين) بالعرب (الساميين).

ومن الطبيعى أن يقل تأثير العرب فى الأقباط المصريين من الناحية اللغوية فى القرون الأولى للإسلام، فيذكر أحمد مختار عمر أن عدد العرب لم يتجاوز مائة ألف فى حين أن عدد القبط فى مصر كان يزيد على سبعة ملايين نسمة.

توالت هجرات القبائل العربية إلى مصر حتى قُدِّرت بثلاث وثلاثين قبيلة، تفرقوا فى أنحاء مصر، وأدى اندماج هؤلاء العرب بالمصريين إلى تزاوج بين الفريقين مما أدى إلى انتشار الإسلام واللغة العربية.



فشلت جميع ثورات القبط فى مصر بعد أن قمعها بكل شدة الخليفة المأمون، وكان للحاكم بأمر الله مواقف متشددة مع القبط فضعفوا واستكانوا، بل تزايد عدد الداخلين منهم فى الإسلام، والدخول فى الإسلام يؤدى بالضرورة إلى انتشار اللغة العربية.


مئذنة جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى داخل دير سانت كاترين - سيناء - مصر

وفى القرن الرابع الهجرى، أصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة لكل المصريين من العرب والقبط على السواء، يؤيد ذلك تأليف العلماء القبط باللغة العربية، مثل ساويرس بن المقفع الذى كتب كتاب «سير الآباء البطاركة» ويوحنا النقيوسى الذى وضع كتاب «تاريخ مصر» وسعيد بن البطريق مؤلف كتاب «سير الآباء البطاركة» وذكر ساويرس ابن المقفع بأنه وضع كتابه باللغة العربية، لأن أهل هذا الزمان يجهلون اللسانين القبطى واليونانى، ويشكو من أن أهل زمانه فى مصر يجهلون لغتهم القبطية، ويعرفون جيداً اللغة العربية.

وكتب ميخائيل السورى أنه لما وجد أهل مصر يجهلون اللغة القبطية واللغة اليونانية، ويتقنون اللغة العربية، ترجم التوراة والإنجيل إلى اللغة العربية.

ومنذ القرن الرابع الهجرى كان رجال الكنيسة يعظون الناس باللغة العربية، لأن القبط لا يعرفون اللغة القبطية؛ بينما يعرفون جيداً اللغة العربية، ولم يعد يعرف اللغة القبطية إلا قادة الكنيسة والمثقفون من رجال الدين المسيحى والرهبان فى الأديرة وبعض أهل القرى المنعزلة فى الصعيد. على أن بعض رجال الدين المسيحى، احتفظوا بتراثهم القبطى وإن كان استعمالها اقتصر على أداء الصلوات والدعوات وبعض المراسم الدينية.

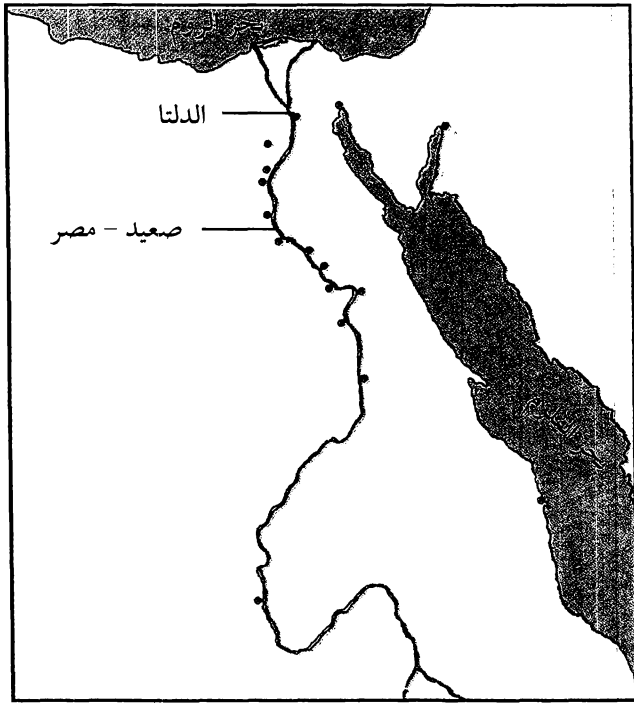
تركت اللغة القبطية تأثيرات طفيفة فى اللغة العامية المصرية، وهذا واضح فى أسماء بعض الأطعمة مثل «بصارة»، «عيش بتاو»، وأسماء أخرى مثل «ملوحة»، «بورى» «تمساح»، وأسماء نباتات أو مكاييل مثل «برسيم»، «سريس»، «شكوريا»، «بلح أمهات»، «بلاص»، «ماجور»، «إردب»، وأسماء لبعض الأمراض مثل «شوطة» «واوا»، بالإضافة إلى أسماء الشهور القبطية



والبلدان ونشير إليها فيما بعد. ويضاف إلى ذلك كلمات تستعمل فى الحياة اليومية مثل «باى»، «لبشة قصب»، «بخ بخ» «جاى» للاستغاثة، «بشويش».

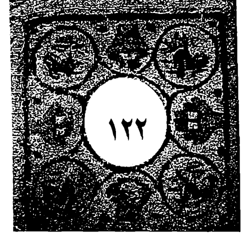
تعريب أسماء المدن والبلدان:

حافظت مصر الإسلامية على أسماء المدن والقرى التى كانت باللغة المصرية القديمة، وظلت محافظة على تسميتها فى العصر البيزنطى مع بعض التحريف، فأسوان كانت سونو أو سون ومعناها يتجر، لأن أسوان كانت تقع على طريق التجارة. وكوم امبو كانت عاصمة مقاطعة للمنطقة المجاورة لها وهى تحريف للكلمة القديمة. أرميت. وأزقنفيس، هى البدرشين أو ميت رهينة وليتوبولس - أوسيم، Hermopolis parva - دمنهور وصا الحجر sais merelis merelies prosopites بالقرب من منوف، xois سخا وفوه إب - بنها، سمنود - إزيوم، عين شمس هليوبوليس، تل بسطا - الزقازيق، Bouto - تانيس، الفنتين - مدينة الفيلة، أبولونوبولس - إدفو ونحن على الشاطئ الأيمن للنيل ونحن على الشاطئ الأيسر وهى إسنا هراكتبولس، ومدينة طيبة - ديوسيوليس وقفط - أمبوس Ombos، وعمود الآلهة - تندرة،



خريطة مصر الإسلامية

إخميم بانوبولس panopolis، سيوط أوساونى - Lycopolis ونت بلدة الأرنب البرى - الأشمونين Hermopolis Megna -، كاسا - القيس cynopolis، خنن نيسوت بلد الطفل الملك، إهناسيا - Kerkleapolis سمن هور - كفر عمار الحالية - برجمت Aphroditopolis - أطفيح الحالية - برنوب، منوف الحالية، وبرمرت، مريوط أى مكان الماء، دمنهور أو بلد هور أى بلد الصقر مصطاى - قويسنا - صا الحجر، ساو بالقرب من كفر الزيات.

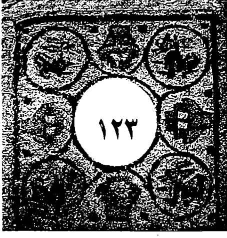


هجرة القبائل العربية إلى مصر: من أهم أسباب عروبة مصر، هجرة القبائل العربية إليها. وقد توالت هجرة القبائل العربية إلى مصر؛ فأثناء وبعد الفتح العربى كان جيش عمرو بن العاص يضم عربا من عدنان وقحطان وهاجرت قبائل عربية أخرى، خصوصاً قبائل بلى وجهينة وعك ولخم وجذام وهمدان، وتركزت هذه القبائل فى الحوض الشرقى خصوصاً فى أهناس وطحا وبوصير وأتريب ومنوف وطربية وقربيط ومنف وعين شمس والفيوم والبهنسا والقيس وسخا وخربتا، وازداد توافد القبائل العربية على مصر فى عصر الولاة.

وأول القبائل التى عاشت فى مصر واستقرت فى مصر بعد الفتح مباشرة القبائل التى ساهمت مع عمرو بن العاص فى فتح مصر، ولما شيد عمرو بن العاص مدينة الفسطاط، أنزل بها العرب، واختط لكل قبيلة خطة ومنها خطة أهل الراية، وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف وأقوام من بنى كنانة وتجيب ومهرة بن حيدان ولخم واللفيف وجماعة من الأزد وشجاعة وتنوخ ومذحج والصدف ورعين ويحصب وأسلم ورعين والمعافر وقوم من سبأ وبنو وائل من جذام، وتفرقت منازل يشكر فى الجبل. ونزل عتقاء العرب الذين ساهموا فى الفتح ظاهر الفسطاط.

ولما أتم عمرو بن العاص فتح ما سُمى بالجيزة، استحبت همدان ومن والاها، الجيزة، وتبعهم ما والاهم مثل يافع، وأقاموا واستقروا سنة ٢١ هـ، وشيد عمرو بن العاص حصناً فى الجيزة لحمايتهم من عدوان قد يقع عليهم. ونزل بالجيزة وأصبح أبو شمر بن أبرهة وجماعة من الحجر، ونزل فيها طائفة من الأزد ومواليهم من الأحباش، ويافع بن زيد من رعين.

وازداد توافد العرب على مصر بعد فتحها فاستقدم عبد العزيز بن مروان - والى مصر - آعدادا كثيرة من عرب مصر وأنزل الخليفة هشام بن عبد الملك ثلاثة آلاف رجل من قيس فى مصر، ونزلوا بالحوف الشرقى، وتفرقوا فيه، ذلك أن عبد الله بن الحبحاب - والى مصر - استأذن الخليفة هشام بن عبد الملك بإنزال بعض القبائل ببلبيس، لأن نزولهم لا يضر بالخراج، ولأنها خالية من العرب، فوافق الخليفة فقدم إلى مصر مائة ألف بيت من مضر ومائة ألف بيت من بنى سليم، وأنزلهم الوالى فى بلبيس، وألزمهم بالزرع وعمارة الأرض، وقدَّم لهم أموالاً من الصدقات حتى يتقووا بها، واشتروا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يربح عشرة دنانير فى الشهر من هذا العمل، وألزمهم الوالى بشراء الخيول، ولم يجدوا صعوبة فى رعيها، لتوفر المراعى. ولما علم أهلهم فى البادية بارتفاع مستوى معيشتهم وزيادة دخولهم، قدموا عليهم بأعداد كثيرة، حتى أصبح يقيم فى بلبيس ألفاً وخمسمائة أسرة من عرب قيس.



وتوافدت القبائل العربية على صعيد مصر ومنها بنو هلال وبلى وجهينة وقريش ولواتة وبنو كلاب وأقوام من بنى دراج وثقلية وجذام وبنى كلاب، ونزلت قبيلة ربيعة فى أسوان.

وفى عهد مروان بن محمد - آخر خلفاء بنى أمية - استقدم واليه على مصر، حوثرة بن سهيل الباهلى ثلاثة آلاف أسرة من قيس، خصوصاً بنو هلال وبنو سليم وهوازن.

وألزم العباسيون، العرب فى مصر إلى دفع الخراج عن الأرض التى يزرعونها، وتشدد عمال الخراج فى الجباية، الأمر الذى دفع عرب الحوف الشرقى إلى الهجرة إلى الصعيد أو إلى السودان، واتجه بعضهم إلى الصحراء الشرقية بحثاً عن المعادن، وانتشروا فى أنحاء مصر، بعد أن حذف الخليفة المعتصم، العرب من الديوان، فانتشروا فى بلاد مصر، يلتمسون الرزق من كل سبيل، واشتغلوا بالزراعة والتجارة.

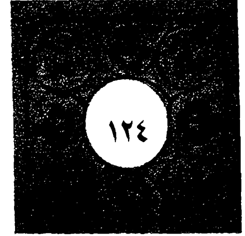
ازدادت أعداد قيس فى الحوف الشرقى، وعاثوا فى بلبيس ونواحيها فساداً وتخريباً، فبعث الوالى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير جيشاً قمع ثورتهم، وأعادهم إلى الولاء والطاعة.

وأدى تفرق بعض العلماء العرب فى بعض نواحى مصر إلى زيادة العرب فيها، وتسمية البلد باسم عربى قد يكون اسم العالم الذى نزل بها مثل بلدة القيس التى تجاور مدينة البهنسا وكان عمرو ابن العاص قد بعث قيس بن الحارث المرادى راوية للحديث ومفتياً للناس ومفقها لهم فى الدين ونُسبت القرية التى نزلها إليه.

ونزلت عتك فى ديروط، نشأ بها زياد بن عمْرو العتكى، وشيد بها مسجداً وتوفى سنة ١٩٠ هـ.

وأقطع معاوية بن أبى سفيان، عقبة بن عامر الجهينى أرضاً فى مصر ألف ذراع وأقام بها داراً، وأقام أعوانه من جهينة دوراً فى هذا الموضع وتوفى عقبة سنة ٥٨ هـ وسميت البلدة منية عقبة، ولا تزال تحافظ بعض القرى فى مصر على تسميتها العربية، وأسماء من نزلوها، مثل منية قريش أو بنى هلال.. إلخ.

وأدى ازدياد العرب فى مصر، وإقبال المصريين القبط على الإسلام وتعلم اللغة العربية، إلى أن أصبح مجتمع مصر منذ القرن الرابع الهجرى مجتمعاً عربياً، يتكلم الناس فيه على مختلف دياناتهم، اللغة العربية.





والعنصر الثانى فى مصر، القبط وهم المصريون الذين بقوا على دينهم المسيحى، وسموا بهذا الاسم نسبة إلى كلمة جبت أى Egyptian أى كلمة المصرى، فكلمة قبطى لا تعنى مسيحى، ولكنها تعنى مصرى، ولكن بمرور الزمن أصبحت كلمة قبطى معناها المصرى المسيحى الذى بقى على دينه.

فتح العرب مصر وأقباطها مضطهدون من قبل حكامهم البيزنطيين المخالفين لهم فى المذهب، ولما تم فتح مصر أبدى العرب تسامحاً مع قبط مصر لم يعهدوه من قبل، فأعاد عمرو بن العاص بنيامين - البطريرك السابق إلى مقره البابوى فى الإسكندرية بعد فترة عصيبة قضاها فى المنفى، واحتفل المصريون بمقدمه ولم يجبر العرب قبط مصر على التحول إلى الإسلام لأنه لا إكراه فى الدين، بل ساهموا فى ترميم وإعادة بناء كنائسهم. وكان على القبطى أن يؤدى شعائره الدينية بحرية كاملة، بشرط أداء الجزية، وفى المقابل يعفى من الجندية، وله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وتكفل الحكام العرب فى مصر بحمايتهم والنظر فى مظالمهم وكان على الحكام العرب معاملة القبط معاملة تنم عن العدل والكرم لأن الرسول ﷺ أوصى بقبط مصر خيراً لعلاقة المصاهرة التى تربطه بهم، وأبقى العرب القبط فى وظائفهم فى الديوان وحكم بعض البلاد والقرى، ومساعدة عامل الخراج فى جباية الخراج.

شيد والى مصر مسلمة بن مخلد، كنيسة فى الفسطاط وأصلح عبد العزيز بن مروان - والى مصر - بعض الكنائس، وعهد إلى رجل نصرانى بحكم الصعيد.

وفى ولاية الحر بن يوسف ثار القبط بعد زيادة ضريبة الخراج عليهم، وثار القبط فى بعض الكور وفى الحوف الشرقى، فأرسل الوالى إليهم جنداً، قمع ثوراتهم، وأعادهم إلى الهدوء والطاعة وفى سنة ١٠٧ هـ أذن والى مصر، الوليد بن رفاعة للقبط ببناء كنيسة بالحمراء، تعرف اليوم بأبى مينا، فغضب بعض القراء لذلك، ولكن الوالى أقنعهم بصحة موقفه. وفى ولاية حنظلة ابن صفوان ثار القبط فى الصعيد سنة ١٢١ هـ، وقضى حنظلة على هذه الثورة، وعاقب زعماءها، وأخمد الثورة.

وخرج رجل من سمنود من القبط يقال له يُحنَّس ولكن والى مصر نكَّل به وقمع الثورة. وفى سنة ١٥٠ هـ خرج القبط على يزيد بن حاتم بسخا، ونابذوا العمال وأخرجوهم وكان والى مصر، عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدى، وقاتل الأقباط هذا الوالى، وهزم الأقباط جند الوالى،

واشتد القتال بين القبط والجند العرب، وعاد القبط إلى الثورة من جديد فى بلهيب فى ولاية موسى بن على بن رباح اللخمى الذى هزمهم ونكل بهم سنة ١٥٦ هـ.

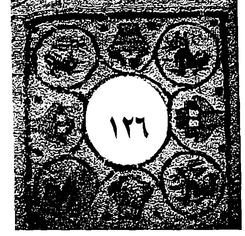


كنيسة أبو مينار

على أن هذه الثورات التى قام بها القبط ضد الحكم العربى لأسباب خاصة بالخراج وطرق الجباية، لا تدل على أن القبط كانوا مضطهدين فى ظل الحكم العربى، فكما قام القبط بثورات، قام العرب المسلمون فى مصر بثورات أكثر وأشد عنفاً ضد حكامهم العرب، ولنفس الأسباب.

وفى عهد الخليفة المأمون تعددت ثورات المصريين عرب وقبط، فحضر الخليفة المأمون، وقمع هذه الثورات واستقبله الأقباط استقبالاً حسناً، وهدَّأ من نفوسهم، ونظر فى مظالمهم.

وكان أحمد بن طولون ينظر فى شكوى القبط، ويحلها حلاً عادلاً، فبينما كان يقضى وقتاً فى دير القصير للراحة والاستجمام (ويقع بالقرب من حلوان فى بلدة أو ضاحية المعصرة) فشكا الرهبان من ابن المدبر - عامل الخراج - الذى قرر عليهم الجزية على الرغم من أن الخليفة عمر بن الخطاب ألغى الجزية عنهم، فأرسل أحمد بن طولون إلى ابن المدبر، يأمره برفع الجزية عن الرهبان. وتم ذلك فعلاً .



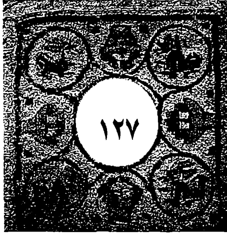
ومما يدل على عـدالة أحمـد بن طولون مع القـبط أن قائداً من قـواده زار ضيعة ما فوجد بها راهبـاً، فهدده، وادعى عليه أنه عثر على كنز ومازال به حتى أخذ منه خمسمـائة دينار حتى يسكت عنه، فحزن الراهب لهذا الظلم الذى لحق به، فأبلغه النـاس أن أمير مصر لا يقبل ظلـماً يقع على قبطى، فلجـأ الراهب إلى الفسطاط، ورفـع أمره إلى أحـمد بن طولون، فـأعطاه المال، وعاقب القائد أشد العقاب .

وأحب القبط أحمد بن طولون لعدالته معهم، ولما اشتد به المرض خرج الأقباط فى القطائع مع المسلمين يدعون له بالشفاء، وتعالت أصواتهم بالـدعاء . ولما توفى خرجوا أى الأقباط رجالاً ونساءً يشاركون المسلمين من أهل مصر فى تشييع جنازة أميرهم العادل المحبوب.

وفى عهد مـحمد بن طغج الإخشيـد، تصدعت كنيسة أبى شنودة، وتهـدم جزء منها سنة ٣٢٦ هـ، وطالب النصارى الاخشيد بأن يأذن لهم بعمارة الكنيسة وإعادة بنائها من جديد، فعرض الاخشيد الأمر على الفقهاء، فمنهم من أفتى بهدمها، ومنهم من أفتى بعمارتها، وحدث جدل بين الفريقين، وثارت العامة ضـد أنصار بناء الكنيسة، على أن الإخشيد أخذ برأى الفـقهاء الذى يقول بإعادة بناء الكنيسة، وتم بناؤها من جديد.

ولما مات بنيامين فى ولاية عـمرو الثانية ٣٩ هـ، رشح القبط أتحانو خلفـاً له، فوافق عمرو ابن العاص على ذلك، ثم مات أنحانو سنة ٥٦ هـ بعـد حكم دام سبع عشرة سنة وهو الذى بنى كنيسـة مرقص فى الإسكندرية وأقيم بعـده أيساك ومات بعـد عامين من ولايته، فـخلفه سيـمون السريانى وبعد وفـاته خلا كرسى البطريركية ثلاث سنوات وولى الإسكندروس وظل على كـرسيه حتى وفاته سنة ١٠٦هـ وصودرت أمواله مرتين، وفـرض عبد العزيز بن مروان على الرهبان لأول مرة جزية تقدر بدينار على كل راهب، وثار القبط سنة ١٠٧ هـ فى ولاية قرة بن شريك الذى زاد الخراج على القبط والثورة كانت فى الحوف الشرقى. واشتد أسامة بن زيد التنوخى فأمر بأن يوضع فى يد كل راهب حـديدة مكتوب عـليهـا اسم الراهب وديره وبلده، ويعـاقب كل من يخلع هذه الحديدة، كما ألزم النصارى بأن يكون مع كل واحد ورقة فيها اسمه وبلده أى ما يشبه الآن البطاقة الشخصيـة، ومن لا يستعمل هذه الورقة، تقع عليـه غرامة عشرة دنانير، وقـد قُتل بعض الرهبان الذين ليس معهم هذه الشارة.

وفى عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك حُطمت الأصنام والتماثيل وهدمت الكنائس. ولما قدم حنظلة بن صفـوان إلى مصر، تشـدد مع النصارى فى استـعمال إثبات الشـخصيـة، وزاد عليهم الضرائب، وثار القبط فى الصعيد وفى رشيد وقبض عبد الملك بن موسى بن نصير على البطريرك ميخائيل وألزمه بمال ليفرج عنه.



وثار القبط فى مصر سنة ١٤٦ هـ، وقتلوا العمال المصريين فنكل بهم والى مصر، واشتد البلاء بالنصارى، وهُدمت الكنائس المحدثة بمصر، وهُدمت كنيسة مريم المجاورة لكنيسة أبى شنودة وهدمت كنائس محارس قسطية. وفى عهد الأمير هدمت ديارات وادى هيب ونهبوا أموالها ولم يبق من رهبانها إلا القليل. وفى عهد المأمون ثار القبط، فهزمهم الإفشين، وأمر المأمون بقتل الرجال وبيع النساء والذرية وضعف القبط واستكانوا.

وفى عهد أحمد بن طولون، ألزم البطريرك بدفع عشرين ألف دينار، فسددها من وقف بعض الكنائس.

وفى سنة ٣١٣ هـ قرر والى مصر الجزية على ضعفاء الناس والرهبان ورجال الكنيسة، فذهب وفد من هؤلاء المغلوبين على أمرهم إلى بغداد ورفعوا شكواهم إلى الخليفة العباسى، فنظر فى شكواهم، وأمر بإعفائهم من الجزية، وأمر واليه بالالتزام بالقواعد الشرعية فى فرض الجزية.

شارك المسلمون النصارى فى مصر فى أعيادهم خصوصاً فى الأعياد التى تتعلق بنهر النيل، ومنها عيد الشهيد، وهو اليوم الذى يزعم فيه النصارى أن النيل لا يزيد فى كل سنة إلا إذا ألقوا فيه تابوتاً من خشب، فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى، وفى هذا اليوم يرحل النصارى من مختلف القرى، ويركبون الخيل، ويرقصون عليها. ويخرج كافة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيام على شواطئ النيل، ويساهم فى هذا العيد أهل الغناء والطرب والمجون واللهو والعبث ويغنون ويرقصون ويلعبون الألعاب المختلفة، ويضحكون الناس، ويسعد الناس بهذا اليوم، ويشربون الخمور. واجتماع الناس فى هذا اليوم يكون فى حى شبرا.

ونحن نشك فى الرواية التى رددتها المصادر العربية، فى أن المصريين منذ عصور الفراعنة كانوا يلقون بأجمل وأفضل عروس من العائلات الأرستقراطية فى نهر النيل، لإرضاء المعبود، وليتزوجها، وتكون العروس سعيدة أثناء إلقائها فى النيل، ويحتفل الناس بهذا العرس احتفالاً كبيراً، وحينما فتح عمرو بن العاص مصر، رأى المصريين يحتفلون بهذا العيد المسمى عيد وفاء النيل بهذا الأسلوب الذى ذكرناه، فأرسل إلى عمر بن الخطاب يسأله عما يجب عمله، فكتب خطاباً إلى النيل، وأمر عمرو بن العاص بإلقائه فيه ومما جاء فى هذا الخطاب: من عبد الله عمر ابن الخطاب إلى نيل مصر: إن كنت تجرى بأمر الله، فسر على بركة الله، وإن كنت تجري بسبب إلقاء العروس لك، فلا حاجة لنا بك وأصبح المصريون منذ ذلك التاريخ يحتفلون بعيد وفاء النيل، ويلقون فيه عروساً رمزياً من الجبس.

والواقع أن قدماء المصريين لم يلقوا بعروس آدمية فى النيل، وإنما رمزوا لتقديسهم للنيل بتمثال لامرأة جميلة، كانوا يلقونها فى عيد وفاء النيل.

وعيد الغطاس من الأعياد التى يشارك فيها المسلمون، النصارى فى الاحتفالات بهذه المناسبة، وهو اليوم الحادى عشر من طوبة ولا ينام الناس فى ليلة هذا العيد ويقوم أهل مصر بإشعال المصابيح والشمع، وذكر المسعودى أن الإخشيد كان يشارك فى هذا الاحتفال فيضاء قصره بالشموع والمشاعل، ويركب الناس فيه الزوارق فى النيل وهى مضاءة أيضاً، ويرقص الراقصون، وتُعزف الموسيقى ويرقص أهل اللهو والطرب ويمرح الناس ويسعدون فى هذا العيد ويأكلون أفضل أنواع الطعام ويشربون المشروبات، ولا تُغلق الدروب فى تلك الليلة، ويغطس الشباب فى النيل فى اعتقادهم أن الغطس يزيل المرض، ويحفظ الجسد من كل سوء.

أما خميس العهد فهو قبل عيد الفصح بثلاثة أيام، ويسميه العامة خميس العدس، ويحتفل به الناس، ويتزاورون، ويقدمون الهدايا لبعضهم البعض.

ومن كنائس أو معابد اليهود فى مصر، معبد دمبوه، وهو المعبد الذى كان موسى بن عمران يدعو فيه فرعون وآله إلى اعتناق اليهودية، وفى هذا المعبد شجرة يزعمون أنها زُرعت منذ أن أقام فيها موسى. ولليهود معبد فى قصر الشمع وخمس معابد فى باب زويلة، ومعبد الجودرية فى القاهرة.

ووحدت المحن فى مصر بين طوائف الناس، فأكبر مشكلة واجهت المصريين هى نقص ماء النيل، لأنه يؤدى بالضرورة إلى نقص الزرع الذى يؤدى إلى الجوع، والجوع يؤدى إلى الموت، وانتشار الأوبئة، لذلك فى حالة نقصان ماء النيل يخرج المسلمون والنصارى يدعون الله أن يفرج عنهم، ويعود ماء النيل إلى الزيادة. فأما المسلمون فيؤدون صلاة الاستسقاء، وحدث هذا فى ولاية حفص بن الوليد الثانية فى خلافة هشام بن عبد الملك وكذلك فى ولاية أبى عون على مصر (١٣٢ - ١٣٦ هـ).

واستمر نظام الديرية فى مصر الإسلامية، وأول من ابتدع الديرية فى مصر أنطونيوس الذى تعرض لاضطهاد الإمبراطور دقلديانوس، وزهد فى الحياة، وعاش أربعين يوماً صائماً لا يتناول طعاماً ولا شراباً، ويقوم الليل ويقضيه عابداً مصلياً متأملاً فى خلق السموات والأرض.

ومن أديرة النصارى دير العزبة ويقع فى الطريق الصحراوى الذى يؤدى إلى القلزم، به عيون ماء وأشجار فاكهة، وقد شيده أنطونيوس الذى ذكرناه.



أيقونة زيارة أنطونيوس للأنبا بولا

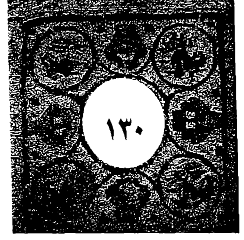
ورهبان هذا الدير يصومون بصفة دائمة إلى العصر من كل يوم، ما عدا أيام الصوم المعروفة عندهم.

ودير الأنبا بولا ويقع فى البر الغربى من الطور على عين ماء يتزود منها المسافرون، ويعتقد النصارى أن السيدة مريم تطهرت من ماء تلك العين. والجدير بالذكر أن الأنبا بولا من الإسكندرية، فلما مات أبوه ترك له ولأخيه مالاً، وحدث خلاف بينه وبين أخيه حول تقسيم هذا المال، فغادر بولا الإسكندرية وشاهد ميتاً يُدفن، فازداد زهده فى الحياة، وهام على وجهه، حتى بلغ هذه العين، وأقام حولها، وكان الله - على ما قيل - يرزقه من حيث لا يحتسب، فمر به أنطونيوس، وصحبه، وبعد موته بنى - أى أنطونيوس - هذا الدير على قبره، وبهذا الدير بستان به الكثير من أشجار الفاكهة.



دير أنطونيو

ودير القصير فى أعلى الجبل، وهو دير حسن البناء مُحكم الصنعة، ويقيم فيه رهبان كثيرون، وبه عين ماء، وبه صورة السيدة مريم فى لوحة كبيرة، ويقصد الناس هذا الدير للنظر إلى هذه الصورة، وفى أعلاه غرفة بناها خمارويه - أمير مصر الطولونى - ولها أربع طاقات إلى أربع جهات، وكان خمارويه كثير التردد على هذا الدير، والطريق إلى هذا الدير صعب وشاق، وإلى جانبه صومعة يعتكف فيها من اتخذ العزلة والتأمل والعبادة، سبيلاً يطفئ بها ظمأه فى الابتعاد عن حركة الحياة الدنيا. والدير مطل على قرية شهران وعلى الصحراء والبحر - وهى قرية كبيرة عامرة على شاطئ البحر - ويروى أن موسى بن عمران ولد فيها، ومنها ألقته أمه فى التابوت خوفاً من بطش فرعون وجنوده.



وديـر القصـير هذا أحد الديارات المقـصودة للنزهة، لحسن موضـعه وإشرافه على مصر وأعمالها، وأنشد بعض شعراء مصر فيه شعراً، فذكروا طيبه ونزهته:

كم لى مـن دير القـصـير من قـصف — مـع كل ذى صـبـوة وذى ظـرف

لـهـوت فـيـه بشـادن غـنـج — تقـصـر عنـه بدائـع الـوصـف

هناك دير مرحنا، ويقع على النيل وإلى جانبه بساتين، حسن البناء، يحيط به سور مُحكم، وقربه شـجرة جميـزة كبيرة يجـتمع الناس حولهـا لقضاء بعض أوقـات الفراغ. وهذا الموضع من مواطن اللعب والقصف والطرب، وهو متنزه طيب فى أيام فـيضان النيل، ويُعرف هذا الدير الآن بدير الطين.

ودير أبى لسـتاع ودير مغـارة شقلقـيل، وهو دير معلق فـى الجبل على صخـرة، لا يمكن الوصول إليـه من أعلاه أو أسـفله، ولا سلم له، ومن أراد الصعـود إليه يُدلى له بحـبل يمسك به حتى يصعـد إلى الدير، ويطل هذا الدير على النيل تجاه منفلوط وأم القصـور، وفى اتجاهه جزيرة يحيط بها الماء، وهى التى يقال لها شقلقيل، ولهذا الدير عيد يجتمع فيه النصارى، وهو على اسم يومينا الذى عاقبه دقلديانوس ليرجع عن النصرانية ويسجد للأصنام، فثبت على دينه، فقتله.

ودير بقطر ناحية أبنوب، شـرقى بنى مر تحت الجبل، وهو دير كبير جداً، وله عـيد يجتمع فـيه ويحـضره النصـارى من كل صوب وحـدب. وبقطر هذا أبوه من وزراء دقلديانوس، وكـان شجاعاً جميلاً، له منزلة رفيعـة عند دقلديانوس، وتنصر، فمناه الإمبراطور ليرجع عن النصرانية، ويعود إلى عبادة الأصنام، فقتله، وتأتى النصارى إلى هذا الدير فى موسم سنوى.

ودير يوجـرج، وهو خارج الميـصرة بالقـرب من بنى مر، وتارة يخلو من الرهبـان، وتارة يعمرونه، وله عيد سنوى يجتمع فيه الناس حول الدير.

ودير مـحاس ودير الطيـر يطل على النيل، وله سـلالم منحـوتة فى الجـبل، وهو بناحيـة سمالوط.

ودير أخميم دير عامر، يُقصد من كل ناحية وهو بقرب الجبل المعروف بجبل الكهف، وهو فى موضع شُق فى الجبل، وله عيد يقصده الكثير من الناس رغم أن الوصول إليه صعب وشاق.

ودير أبى هرمــينة، وهرمــينة هذا من كبــار الرهبــان، وهذا الدير به مكتبة كبيرة تضم أمهات الكتب العلمية والدينية.

ودير السبعة جبال بأخـميم، وهذا الدير داخل سبعة أودية، وهو دير بين جبــال شامخة، ولا تظهـر عليه الشمس إلا بعـد ساعتين من شروقـها لارتفاع الجـبل. وهذه الأديرة كلهـا فى الشرق من النيل، وتكثـر الديارات أيضاً فى الجانب الغربى للنيل.

ودير الدموة بالجيزة، ويُعرف بدير السباع، ودمـوة من رهبان النصارى وحكمائهم، وبالجيزة أيضاً دير نهـيا، وبه الكثير من الرهبــان، وتتجمع مـياه النيل حوله وقت الفيـضان، فتنمو الثـمار والأشجار والزهور الرائعــة وتكثر الطيور، فتجـذب الناس إليها للصيـد، ويقضى الناس حول هذا الدير أوقاتاً جميلة ورائعة، ودير الطحوية قـرب حلوان وحوله البساتين والزروع والنخل والشجر، وهو من متنزهات أهل مصر.

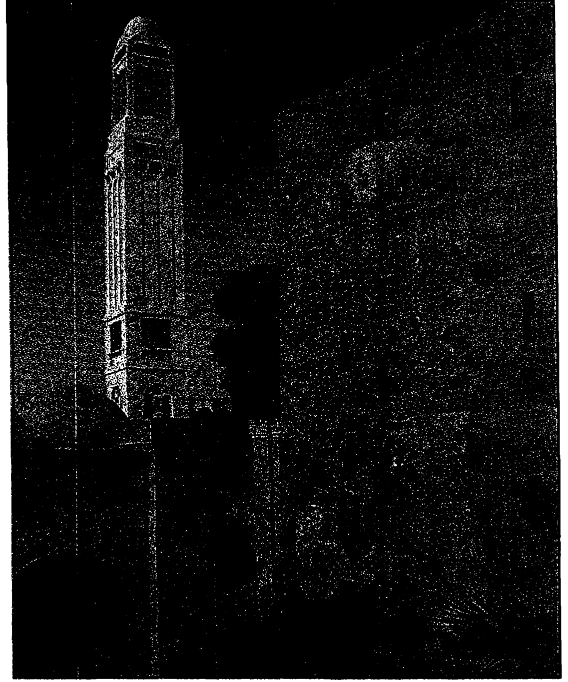
وبالوجه البحرى العديد من الأديرة، ومنها أبو مقــار الأكبر. وهو مقاريوس، أخذ الرهبانية عن أنطونيوس، وهو أول من لبس القلنســوة والأشكيم، وهو سير من جلد فيــه صليب يتوشح به الرهبان فقط، وأمر أنطونيوس،مقاريوس - بعد أن ألبسه لباس الرهبنة - بالمسير إلى وادى النطرون ليقيم هناك، ففعل ذلك، والتف حوله جمع من الرهبــان كثيرة العدد، وكان لا يصوم الأربعين إلا طاوياً، يعنى لا يأكل طعاماً ولا يتناول شراباً، وكانت حيــاته تتوزع بين قيام الليل، وعمل الخوص لكى يتقوت منه، وما أكل خبزاً قط، وإنما يتناول القــراميش هو ومن معه من الرهبان لسد الرمق. وهذا قوتهم مدة حياتهم.

أمــا النساء فكانت لـها أديرة منهــا دير الراهبــات بالقرب من بــاب زويلة، وهو دير عامـر بالراهبات العذارى وغيرهن من نساء النصارى، ودير البنات بالقاهرة، ودير المعلقة بالقاهرة. وهذه أديرة النصارى اليعاقبة. أما النصارى أتباع المذهب الملكانى فلهم أديرتهم.

والسبب الرئيسى لـظهور الأديرة وانتشارها فى مصـر، هو الرهبنة أو الديرية، وبدأ ظهورها فى مصر فى القرن الثالث الميلادى، وظهرت فكرة العزلة عن العالم والانقطاع عن العبادة فى مصر قبل ظهور المسـيحية، فمـعبد السيرابيـوم كان يضم زوايا يختلى فيه الزهاد فـى الدنيا، وينقطعون للعبادة تماماً، والتى كانت تتمثل فى عبادة الإله سيرابيس.

وعرف الـيهود فى مـصر العـزلة والانقطاع عن العــالم، والإقبــال على العبــادة، فأقــاموا مستعمرات بالقرب من الإسكندرية للخلوة والـعبادة والتأمل والانصراف عن ملذات الدنيا وأهوائها ومتاعها القليل، والتطلع إلى اليوم الآخر وإلى الله واجد الوجود.

وأول من أدخل الرهبنة فى مصر بعد انتشار المسيحية فيها القديس مرقص الذى دعا الناس إلى الانقطاع للعبادة والانصراف عن ملذات وأهواء الحياة الدنيا، وفى المسيحية من المبادئ ما يشجع على الزهد والتصوف، وسار القديس بولس عى منواله، ودعا إلى التخلى عن ملذات الحياة الدنيا والانصراف عن الزواج.



دير أبو مقار

ومما شجع على الرهبنة فى مصر، رغبة المصريين على الفرار من سوء الأحوال المعيشية وفساد الحياة الدنيا والفرار إلى الله، والتطلع إلى الآخرة التى هى أفضل من الحياة الدنيا، يُضاف إلى ذلك رغبة المصريين فى النجاة بدينهم من بطش دقلديانوس [٢٨٤ - ٣٠٥هـ] الذى اضطهد كل من اعتنق المسيحية، وتعرضوا للقتل والتعذيب والبطش، هذا فضلاً عن قسوة عمال الضرائب، وزيادتها على الناس، فرأى المصريون أن الهروب إلى الله ينقذهم مما يقاسونه من بؤس وشقاء.

ومما شجع على ظهور الرهبنة، اتخاذ الرهبان أديرة يتعبدون فيها، ويعتزلون العالم، وينقطعون إلى الله، ويتخلصون من ملاذ الحياة ومباهجها كالزواج والطعام وغير ذلك. كما أن وجود الصحراء التى تحيط بمصر واعتدال مناخ البلاد شجع الرهبان على بناء أديرة فى أماكن منعزلة عن المدن والقرى، يقضون فيها حياتهم، ويعتمدون على أنفسهم تماماً فى زراعة ما يكفى لطعامهم البسيط حول الدير، ويخدم كل واحد نفسه بنفسه، ويتعاونون جميعاً فى خدمة الدير من نظافة وزراعة حول الدير وإعداد طعامهم ولباسهم، وكانوا يأكلون الطعام البسيط من ناتج زراعاتهم من الخضر والفواكه، ويعدون خبزهم بأنفسهم، ويحرسون ديرهم. ومن مبادئهم الصمت، وقضاء أوقاتهم فى التأمل والعبادة. والإنسان فى الصحراء عادة يشعر بقدرة الله وقوته لأنه يرى القدرة على الطبيعة، دون أن تخفيها حياة المدن الصاخبة ولا يشغله عن العبادة شيئاً، لأن الراهب ترك متاع الدنيا ومصارع الناس حول لقمة العيش، والاحتكاك بالآخرين مما قد يصرفه عن العبادة.

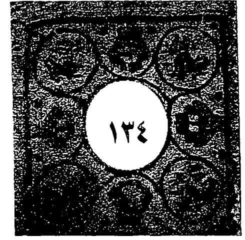
فالرهبنة إذن عبادة وزهد وانصراف عن متع الحياة ومباهجها وملذاتها. والرهبان شغلوا أوقات فراغهم فى زراعة الأشجار والخضروات حول الدير، مما جعل الأديرة أماكن جميلة للنزهة وقضاء وقت الفراغ. وقضى بعض الرهبان أوقاتهم فى الدراسة والبحث، ولبعضهم مؤلفات قيمة فى علوم الدين والعلوم التجريبية، وبعضهم ترجم كتباً فى الحكمة من التراث اليونانى إلى اللغة القبطية ثم العربية بعد ذلك، وتضم بعض الأديرة مكتبات ضخمة بها العديد من المخطوطات. وقد نبغ بعض الرهبان فى نسخ الكتب القديمة، وكتبوا فى التاريخ وجغرافية مصر والطب وسير القديسين والبطاركة وكتبوا فى الفلسفة والأدب وعلوم الدين واللغة القبطية.

الحياة الثقافية فى مصر الإسلامية

أسباب ازدهار الحركة الفكرية فى مصر الإسلامية:

أقام المسلمون دولتهم على أسس قوية ودعائم سليمة، فالإسلام دين هذه الدولة، دعا المسلمين إلى التفكر والتأمل فى ملك الله، وفى الطبيعة وما وراءها، والتدبر والعلم والمعرفة؛ قال تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ** ... ⑨﴾ [الزمر] وميز الله تعالى العالم عن الجاهل ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ㊸﴾ [العنكبوت]، ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ** ...⑩﴾ [محمد]، وقال الرسول ﷺ: «فضل العالم على الجاهل كفضلى على أدناكم رجلاً». وقال بعض الأدباء: «العلم أفضل خلف، والعمل به أكمل شرف». وقال بعض الحكماء: «تعلم العلم فإنه يقومك ويسودك صغيراً، ويقدمك ويسودك كبيراً».

وبذلك فإن الإسلام وجَّه العقل البشرى إلى النظر فى الكون واستعمال القياس الصحيح، والرجوع إلى ما حواه الكون من النظام والترتيب، ومعرفة الأسباب والمسببات ليصل بذلك بأن للكون صانعاً، واجد الوجود، عالماً حكيماً قديراً، وأن ذلك الصانع واحد لوحدة النظام فى الكون، ونبَّه الإسلام العقل البشرى إلى التأمل فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والرياح التى تثير السحاب فينزل من السحاب مطر يحيى الأرض بعد موتها، وينبت النبات والشجر. وذلك يضمن استمرار الحياة على الأرض.



وأطلق الله للإنسان العقل، ليصل بقدر ما يستطيع إلى أسرار الكون، فالإسلام يعتمد على الدليل العقلى فى إثبات حقيقته؛ لذلك نعلم أن الإسلام من أهم أسباب ازدهار الثقافة الإسلامية فى مصر وغيرها من بلاد الإسلام.

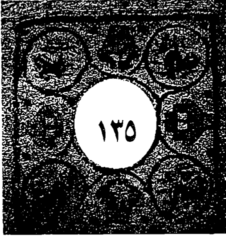
ومن عوامل ازدهار الثقافة الإسلامية فى مصر، ازدهارها فى الدولة الإسلامية الكبرى، الأموية أو العباسية، فالمسلمون استفادوا من ثقافات الشعوب المختلفة كالفرس واليونان والهنود، وأخذوا منهم ما يحتاجونه من علوم وفنون، وما يتناسب مع عقيدتهم، وخصوصاً الفرس؛ لأن الدولة العباسية قامت فى محيط فارسى وبمساعدة الفرس. وقد اعتنق الفرس الإسلام، وحسن إسلامهم، وارتبطوا بالدولة العباسية بروابط قوية بعد أن حقق لهم العباسيون المساواة مع العرب، وهى التى حرموا منها فى عهد بنى أمية؛ لذلك وضع الفرس كل إمكانياتهم العلمية فى خدمة الفكر الإسلامى. وبهذا أصبحت الثقافة الإسلامية خلاصة ثقافات متعددة، عربية وفارسية وهندية ويونانية.

ونضيف إلى ذلك ثقافات الشعوب التى دخلت فى الإسلام. فمصر ورثت ثقافة عريقة من أيام الفراعنة، وأضيف إليها الفكر اليونانى، وامتزجت ثقافة مصر - صاحبة الحضارة القديمة الموغلة فى القدم - مع الثقافة العربية الإسلامية، مكونة ثقافة مصرية إسلامية، ساهمت بنشاط كبير فى ازدهار الفكر الإسلامى.

ومن أسباب ازدهار الحياة الفكرية فى مصر الإسلامية، أن أهل الذمة من المسيحيين واليهود، كانوا على علم باللغة اليونانية، ولما شعروا بالأمن والأمان فى ظل الحكم الإسلامى لمصر، ساهموا مساهمة كبيرة فى ترجمة علوم اليونان إلى اللغة العربية، وقام الرهبان فى الأديرة بدور كبير فى هذا المجال، وأضافوا بذلك إلى الفكر الإسلامى خلاصة علوم اليونان وهى علوم الحكمة التى يحتاج إليها العرب المسلمون، خصوصاً فى الطب والفيزياء والكيمياء والفلك والرياضيات وغيرها.

ومن أسباب هذا الازدهار أيضاً توافر استعمال الورق فى الكتابة، بعد أن دخلت سمرقند فى حوزة الدولة الإسلامية، وهى بلاد ينمو بها شجر الكاغد، الذى يستخدم الورق من لبه، وانتشرت صناعة الورق فى المدن الإسلامية، وأدى ذلك إلى توافر الورق الصالح للكتابة، ومن ثم سهولة التأليف، والإقبال على تدوين الكتب وتأليفها، وكان ورق البردى الذى تنتجه مصر، هو الورق المستعمل فى الكتابة والتأليف، ولم يكن بالكفاءة الضرورية، وظل يُستعمل فى مصر وخارجها حتى بطل استعماله فى أوائل القرن الرابع الهجرى، حيث حل محله ورق الكاغد.

ويرتبط بصناعة الورق ظهور دكاكين الوراقين، وكثرتها فى مصر. ودكاكين الوراقين يقوم أصحابها بنسخ الكتب وتجليدها وتسويقها، وفى استطاعة طلاب العلم أن يطلعوا على ما يريدون



من كتب فى دكاكين الوراقين نظير أجر. وحدث تبادل تجارى بين دكاكين الوراقين فى مصر وغيرها من بلاد الإسلام، لذلك كانت القوافل تنتقل عبر بلاد الإسلام حاملة الكتب إلى مصر، ومن مصر إلى خارجها. ومن هنا كانت دكاكين الوراقين بها الكتب المؤلفة فى مصر وخارجها. وأدى هذا إلى حدوث تبادل فكرى بين مصر وسائر بلاد الإسلام، أى وحدة المعرفة. وهذا يؤدى بالضرورة إلى رواج وازدهار المعرفة فى مصر الإسلامية.

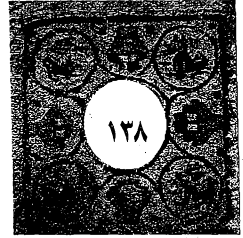
ومن أسباب ازدهار الفكر الإسلامى فى مصر، رحلة طلاب العلم إلى المدن الإسلامية للتزود بالعلم، فرحل إلى مصر بعض أئمة الحديث واستفادوا من الدراسات التى أجراها المحدثون فى جامع عمرو بن العاص، ورحل إليها أيضاً الإمام الطبرى ودخل فى مناقشات مع أئمة التفسير والفقه والتاريخ فى جامع عمرو بن العاص، وأدى تبادل المعرفة والزيارات والمناقشات إلى النهوض بالحركة الفكرية فى مصر وازدهارها، ووحدة المعرفة والثقافة فى مصر الإسلامية.

وأدت رحلة العلماء إلى مصر، والتزود بما حققته من تقدم فى الدراسات الإسلامية إلى انتشار هذه الدراسات فى بلاد الإسلام، فعبر مذهب مالك من الحجاز إلى بلاد المغرب عن طريق مصر، بواسطة الشيخ أسد بن الفرات وغيره من الفقهاء، وانتقل المذهب الشافعى من مصر إلى بلاد الشام، وواصل انتشاره حتى بلغ خراسان وبلاد ما وراء النهر، وهذا واضح فى الدراسات المستفيضة عن الإمام الشافعى والتى قام بها الفقيه البيهقى وهو من شيوخ خراسان ذائعى الصيت.

ومن أسباب ازدهار الحركة الفكرية فى مصر، أن الدولة الإسلامية دولة واحدة، ومصر ولاية من ولايات هذه الدولة، فالعلماء وطلاب العلم فى رحلتهم وإقامتهم فى مصر، لا يجدون صعوبة فى المعيشة بها، فالقادم المسلم إلى مصر مواطن مسلم فى بلد إسلامى، يستطيع أن يعمل ويقيم فى مصر دون عناء، ويتمتع بحقوق المواطنة كاملة، فهو مسلم يعيش فى بلد مسلم.

ومن أسباب ازدهار الحركة الفكرية فى مصر، تعدد المجالس والمناظرات العلمية التى يجتمع فيها رجال العلم لمناقشة بعض القضايا العلمية، وهذه المناظرات كانت تتم فى بيوت الولاة أو المساجد - خصوصاً مسجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون - أو بيوت بعض الصالحين من آل البيت مثل مجالس الفقه التى كانت تعقدها السيدة نفيسة، وتضم الإمام الشافعى وطلابه. ولا شك أن هذه المناظرات أثرت الحياة الفكرية واستفاد العلماء من بعضهم البعض، وطرحت قضايا فكرية جديرة بالدراسة، وتوصل العلماء من خلال مناقشاتهم إلى أفكار جديدة أضافت الجديد إلى الفكر الإسلامى.

تبدأ الحياة العلمية لطلاب العلم بالكُتاب، والكُتاب أشبه بالمدرسة الابتدائية، ويقوم المعلم فيه بتعليم طلاب العلم القراءة والكتابة والحساب. ومن مهامه الأساسية تحفيظ القرآن الكريم، وشيخ الكتاب يتخذ منزلاً لتعليم طلابه نظير أجر، وإذا أراد الطالب بعد تخرجه من الكتاب التزود من



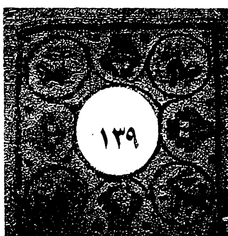
وأهم وأبرز فقهاء مصر، الليث بن سعد، ولد بقلقشندة سنة ٩٤هـ، وتتلمذ على علماء مصر والحجاز والبصرة وبغداد، وهو من الموالى، كان طلق اللسان، فقيهاً فى الدين واللغة، يحسن قراءة وتفسير القرآن، عالماً فى النحو والشعر والحديث، وقد أشاد به العلماء وقال بعضهم: لولا مالك والليث لفسد الناس. وكان دخل الليث بن سعد فى السنة ثمانين ألف دينار، ينفق معظمها فى أعمال البر والخير والإصلاح. وكان لليث فى اليوم أربعة مجالس يجلس فيها. أما الأول فيقضى فيها حوائج السلطان ونوائبه، ويراقب أحكام القاضى وسياسة السلطان مع الرعية، فإن رأى خللاً كتب إلى أمير المؤمنين فيعزل الوالى أو القاضى. والمجلس الثانى يجلس فيه لأصحاب الحديث، ويلقى عليهم دروسه فى الحديث. والمجلس الثالث فى الفقه، ويجيب على أسئلة الناس، وكان يجلس لقضاء حوائج الناس، لا يسأله أحد إلا نظر فى مطلبه، وكان يطعم الناس فى الشتاء بعض أنواع الحلوى، وفى الصيف أنواعاً من الأطعمة. وكان علمه أكثر مما رواه فى كتبه، وقال لو كتبت ما فى صدرى، ما وسعه هذا المركب.

والمحدثون يثقون فى حديث الليث بن سعد كل الثقة، وروت عنه كل الكتب الستة الصحيحة، وقال فيه أحمد بن حنبل: «ما فى هؤلاء المصريين أثبت من الليث ما أصح حديثه»، وقدرته فائقة فهو يقرن بمالك. ويقول الشافعى: «الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به» ولو تعصب المصريون لعلمه وفكره لاحتفظوا بمذهبه ولكانوا أتباعه. ولم يُدوَّن مذهبه فى كتب؛ لذلك ضاع مذهبه وبقى لنا منه رسالة صغيرة، بعث بها إلى مالك يناقشه فيها فى بعض آرائه.

والخلاصة أن الليث بن سعد كان رجل مصر فى علمه ونبله وفضله (ت ١٧٥هـ) وحزن المصريون عليه حزناً شديداً وخرجوا جميعاً لتشييعه.

ومن فقهاء مصر الإمام الشافعى، وهو محمد بن إدريس بن عباس بن شافع بن هاشم بن عبد المطلب، ولد فى غزة، ورحل فى طلب العلم إلى الجزيرة العربية، وعاش فترة من الوقت فى البادية، وحفظ أشعار العرب، وصحح لغته من أقوالهم، ورحل إلى المدينة المنورة، وتتلمذ على يدى الإمام مالك.

وكوَّن الإمام الشافعى نفسه علمياً من خلال لقائه بشيخه الإمام مالك، وجمع بين أقوال أهل الرأى وآراء أهل الحديث، وهو أول من تكلم فى أصول الفقه، وأول من وضع أسسه وقواعده. كثير المناقب جم المفاخر، منقطع القرين، درس علوم القرآن دراسة وافية شاملة، وألمَّ بأقوال الصحابة والتابعين وآراء الفقهاء، ودرس العلوم العربية، وقال عنه أحمد بن حنبل: ما علمت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى، وقال عن الشافعى: إنه كالشمس للدنيا، والعافية للبدن.



تعمق الشافعى فى دراسة علوم القرآن الكريم، ففقه معانيه وعرف الكثير من أسراره ومراميه، وكان فى التفسير كشاهد تنزيل، وأوتى علم الحديث، فروى أحاديث أهل الحجاز، وروى أحاديث مالك، وقرأ عليه الموطأ، وضبط قواعد الفقه ووضع ضوابط القياس وضوابط النسخ، وكان قوياً فى إدراكه العلمى، وصاحب ذاكرة واعية حافظة، حاضر البديهة تنثال عليه المعانى فى وقت الحاجة إليها، نافذ البصيرة قوى البنيان عميق الفكرة.

صنف الشافعى كتباً فى العراق تتضمن مذهبه، فلما قدم إلى مصر صنف بدلاً منها كتباً قيمة رواها عنه تلاميذه. وهذا يدل على مرونة فكر الشافعى، وقابليته للتطور، فسعة اطلاع العالم تكشف له عن جوانب جديدة تصحح فكره السابق، أو تعدله أو تضيف إليه، بحيث تلائم طبيعة مصر الاجتماعية والاقتصادية فلكل بلد خصوصيتها التى تفرض مسائل تحتاج من الفقيه الرد عليها، ومن أقواله: «من نظر إلى اللغة رقَّ طبعه، ومن نظر فى الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه».

رحل الإمام الشافعى من بغداد سنة ١٩٩هـ إلى مصر، وكان يقضى معظم يومه فى جامع عمرو بن العاص، ويخصص فيها دروساً فى التفسير وفى الفقه وفى الشعر والأدب، ويقضى طوال اليوم من بعد صلاة الفجر حتى صلاة المغرب يدرس للطلاب درساً بعد درس حتى ترك تلاميذ رووا أصول مذهبه وفقهه وآرائه، وتوفى فى مصر سنة ٢٠٤هـ.

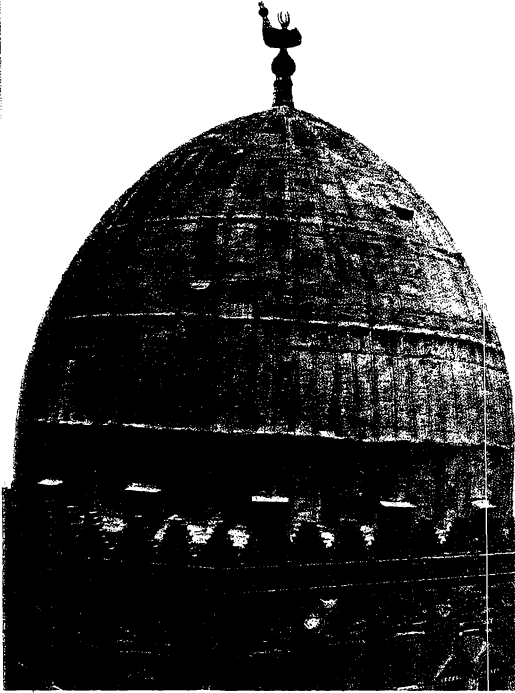
ومن فقهاء مصر، أيوب بن سليمان، وهو عالم فى الفرائض أى تقسيم المواريث حسب الشرع. ومن العلماء يوسف بن يحيى البويطى (ت ٢٣١هـ) خلف الإمام الشافعى فى حلقات درسه، وروى فقهه. وعبد العزيز بن مقلاص (ت ٢٣٤هـ) وهو من كبار الفقهاء المالكية ولما قدم الشافعى إلى مصر لزمه، واعتنق مذهبه. ومن أشهر علماء الحديث الذين قدموا إلى مصر أحمد ابن صالح المصرى (ت ٢٤٨هـ) وهو من الفقهاء المالكية. وكان عالماً فى الحديث، ويعرف الفقه والنحو، وهو من الأئمة المجتهدين.

ومن كبار العلماء، إسماعيل بن يحيى المزنى (ت ٢٦٤هـ) وكان مناظراً، غواصاً على المعانى الدقيقة. وقال عنه الشافعى: «المزنى ناصر مذهبى»، وقد صنف المزنى كتباً كثيرة، وهو من كبار المجتهدين.

ومن أشهر علماء مصر، الربيع بن سليمان المرادى (ت ٢٧٠هـ) وهو صاحب الإمام الشافعى، وراوى كتبه، والمؤذن بجامع الفسطاط، وهو أول من أملى الحديث فى جامع ابن طولون.

ومن العلماء محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨هـ) وهو من العلماء الفقهاء، بارزاً مبرزاً فى النظر والمناظرة، وكان طلاب العلم يتتلمذون على يديه، ثم يرحلون إلى المغرب والأندلس لنشر فقه الإمام مالك، كما تعلموه من شيخهم ابن عبد الحكم.

ومن العلماء أيضاً الحارث بن مسكين (ت ٢٥٠هـ) الذى له تصانيف فى فقه الإمام مالك، وقد تعدد فقهاء مذهب مالك الذين قاموا بتدريس المذهب فى جامع عمرو بن العاص، كما كثر فقهاء الشافعية فى مصر، وقاموا بتدريس مذهب شيخهم.



القبة الخشبية لجامع الإمام الشافعى

انتشرت فى جامع عمرو بن العاص مجالس الأئمة الأربعة، واشتد الخصام والنزاع بين أتباع كل مذهب، ولكن أنصار الإمام الشافعى بذلوا نشاطاً كبيراً فى نشر مذهبه، ونشروا كتبه مثل كتاب «الأم» و «مختصر المازنى»، «مختصر البويطى». ومال الكثير من المصريين إلى مذهب الإمام الشافعى لعروبته ونسبته إلى آل بيت رسول الله ﷺ، ولفصاحته وقوة حجته، ونشر تلاميذه مذهبه على الرغم من عداء المالكية، واشتد العداء بين أنصار المذاهب حتى أن القاضى الحنفى، محمد بن أبى الليث قاضى مصر (٢٢٦ - ٢٣٠هـ) منع فقهاء الشافعية من عقد حلقات دراساتهم فى جامع عمرو بن العاص.

وبذلك شهدت مصر حركة دينية قوية، نشطت فى دراسة علوم الفقه والحديث والقراءات، وألّف القائمون بها كتباً فى مجالات دينية متعددة، تتضمن الترغيب والترهيب فضلاً عن القصص والأخبار، ولم تقتصر ريادة الحركة الدينية على العرب فقط، بل شارك المصريون فيها - من أصل قبطى - بعد إسلامهم. ومن هؤلاء، ورش (ت ١٩٧هـ) - مولى آل الزبير بن العوام - اشتهر بإتقان إحدى القراءات، وانتهت إليه رياسة هذه القراءة فى مصر. ولا زالت هذه القراءة سائدة فى مصر وغيرها إلى الآن. ومن القبط الذين أسلموا، ذو النون المصرى، وهو أول من نشر التصوف فى مصر (ت ٢٤٥هـ) وهو رائد الحركة الصوفية فى مصر.

علم الحديث:

السنة هي ما أُثر عن الرسول ﷺ من أقوال وأعمال، وأقواله هي ما اصطُلح على تسميته «الحديث»، وتوضح السنة - حديث الرسول وأفعاله - ما أجمله القرآن الكريم، وفيها تكملة للقرآن الكريم، والكشف عن أسراره، ولا غنى عنها فى فهم القرآن الكريم وأحكام الدين. والمعروف أن الرسول ﷺ يقول حديثه فى مواقف معينة، دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية، وتتضمن حكماً أو شرحاً لما ورد فى القرآن الكريم، وإجابة على الأسئلة والاستفسارات العديدة التى تُوجَّه إلى الرسول ﷺ فى جوانب الحياة المختلفة.

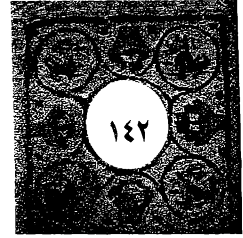
كانت رواية الحديث فى أول العهد بالإسلام شفوية دون تدوين، وينقلونها إلى سواهم طوال القرن الأول الهجرى، ورواها الصحابة عن الرسول ﷺ - كما سمعوها - ورواها بعدهم التابعون، ولما كانت وسائل التدوين بدائية، فقد غلب على الحديث الرواية الشفوية. ولكن بعض الصحابة كتب الحديث فى صحف مثل عبد الله بن عمرو بن العاص الذى توفى فى مصر سنة ٦٥هـ، وكان الصحابة يرفضون تدوين الحديث فى فترة جمع القرآن حتى لا يختلط الحديث بالقرآن.

استأذن عبد الله بن عمرو بن العاص الرسول ﷺ فى أن يكتب عنه فأذن له، فقال: يا رسول الله أكتب ما أسمع فى الرضا والغضب، فقال له الرسول ﷺ: إنى لا أقول إلا حقاً. وكان عند عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفة تُسمى الصادقة، وتتضمن أحاديث سمعها من الرسول ﷺ مباشرة، وقال عمرو بن العاص: حفظت عن الرسول ألف حديث، وكان عبد الله ابن عمرو بن العاص يجلس فى مسجد أبيه، ويروى للناس حديث رسول الله ﷺ، وكان الناس يتبعون فتاويه.

ومن علماء الحديث والفقه فى مصر، منصور بن إسماعيل، وهو من أئمة المذهب الشافعي، له مصنفات فى المذهب. أما أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوى (ت ٣٢١هـ)، وله مؤلفات عديدة ومفيدة، وكان شيخ الحنفية فى مصر، ومن مؤلفاته «أحكام القرآن»، «معانى الآثار»، «التاريخ الكبير»، طبقات الحنفية».

ومن أئمة الحديث محمد بن رشدين وعلىّ بن موسى الحضرمى وأحمد بن شعيب، وسعيد ابن عفير الذى كان أعلم الناس بالأنساب والأخبار (ت ٢٢٦هـ).

ومن حُفَّاظ الحديث ورواته فى مصر، الأعرج عبد الرحمن بن هرمز أبو داود المدنى (ت ١١٧هـ) والذى صاحب أبى هريرة، أحد الحُفَّاظ والقُرَّاء، أخذ القراءة عن نافع بن أبى نُعيم،



وهو أول من برز فى القرآن والسنة، وله خبـرة بأنساب قريش، وافر العلم مع الثقة والأمانة.

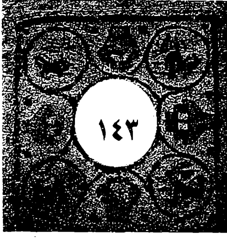
ومن أعلم الناس بالحـديث عُـقيل بن خـالد الأبلى (ت ١٤١هـ)، ومـن علماء الحـديـث ابـن وهـب وأبو القـاسـم والإمـام الشـافـعى وأسـد ابن مـوسى بـن إبراهـيـم. ومن المحدثـين عـبد الله بـن صـالح الجـهـنى - كـاتب الليث - (ت ٢٢٢هـ). وعبـد الله بن الزبيـر الحُمـيدى، كـان بمصر مـلازماً للإمـام الشـافعـى، ولما مات صـاحـبه رحـل إلى مكة ومات بـها سنة ٢١٩هـ. ويـحيى بن عـبـد الله المخزومـى، روى الموطـأ، وله تصانيف قيمة فـى الحـديث والفـقه (ت ٢٣١هـ). وأما محمد بن رمح بن مهـاجم التجيبى (ت ٢٥٩هـ) وقـد سمع عن الليث وابن لهيعـة، وكان من أعلم الناس بالحديث، وقال عنه النسائى: «إنه لم يخطأ فى حديث واحد».

وأما الربيع بن سليـمان بن عبد الجـبار المرادى (ت ٢٧٤هـ) - صاحب الإمام الشـافعى - روى عنه أصحاب السنن الأربعة والطحاوى وأبو زرعة وغـيرهم، وأملى الحديث بجامع أحمد بن طولون، وهو أول من أملى به. والحـسن بن سليـمـان البصـرى، عاش فـى مصـر، وتوفى سنة ٢٦٠هـ. وأما محمد بن عبد الله البرقى (ت ٢٤٩هـ) فله تصانيف قيمة فى الحديث، وروى عنه شيوخ السنة كالنـسائى وأبى داود. والإمام أبو بكر محمد بن على بن داود البـغدادى نزيل مصر، كان ثقة فى الحديث (ت ٢٦٤هـ). وعبدان بن مـوسى المروزى حدَّث بمصر والشام والعراق وكان ثقة (ت ٢٧١هـ).

والنسائى أبو عـبد الرحمن أحـمد بن شعـيب بن علىّ بن سنان بن يحيى القـاضى الحافظ الإمام شيخ الإسلام، أحد الأئمة البارزين والحُفَّـاظ المتقنين والأعلام المشهورين، جال فى البلاد، واستوطن مـصر، وأقام بزقاق القناديل، وكـان النسائى أفقه مشـايخ مصر فى عصـره، وأعرفهم بالصحيح والسقيم من الآثار، وأعرفهم بالرجال، وهو أحفظ من مسلم، وله من المصنفات «السنن الكبرى» و «السنن الصغـرى» وهى إحدى الكتب الستة، خرج من مـصر سنة ٣٠٢هـ ومات بمكة فى العام التالى. وهو من أعلم الفقـهاء بالجرح والتعديل بعد أن درس أخبار الـرواة دراسة دقيقة، وذكر العلماء أن أحاديث النسائى صحيحة تماماً، لا يوجد فيها حديث واحد غير صحيح.

ومن علماء الحديث ابن يونس - صاحب تاريخ مصر - تلقى العلم من أبيه ومن النسائى، كان حافظاً خبـيراً بأيام الناس وتواريخهم (ت ٣٤٧هـ). وأما سعيـد بن على السكنى البغدادى، عاش فى مصر، صنف الصحيح المنتقى (ت ٣٥٣هـ).

وأهم المراكز العلمية فى مصر، جامع عمـرو بن العاص وجامع أحمد بن طولون فى عصر الولاة، وكان طلاب العلم فى مـختلف بلدان الدولة الإسلاميـة كالعراق وخراسـان وبلاد ما وراء النهر والحجاز واليمن، يرحلون إلى مصر للتزود بعلوم الدين واللغة، والاتصال بعلمائها للاستفادة



منهم. والعلماء وطلاب العلم الذين يرحلون إلى مصر يستفيد من علمهم العلماء وطلاب العلم المصريون، وأدى ذلك إلى ازدهار الحركة العلمية فى مصر.

ومن أشهر العلماء المصريين الربيع بن سليمان المرادى شيخ الشافعية فى مصر، والذى تحدثنا عنه آنفاً. أما الطحاوى فهو شيخ الحنفية، تعلم الفقه من شيوخ مصر المقيمين فيها والقادمين إليها، ويختلف عن المرادى فى أن الأخير كان يروى الرواية كما استمع إليها، أما الطحاوى فكان مثل شيخه أبى حنيفة يحقق الرواية وينقدها (ت ٣٢١هـ)، له كتب قيمة مثل «معانى القرآن»، «مشكل الآثار». وألف فى التاريخ والنوادر الفقهية، وشرح بعض كتب محمد بن الحسن، عاش فى العصر الطولونى، ومن شيوخ المالكية روح بن الفرج أبو الزنباع الزبيرى (ت ٢٨٢هـ)، وأحمد بن الحارث بن مسكين (ت ٣١١هـ).

ومن كبار علماء الفقه والحديث فى مصر الإسلامية، أبو بكر الحداد (ت ٣٤٤هـ)، يضاف إلى ذلك علمه باللغة والنحو والشعر والتاريخ، ولى القضاء فى عصر محمد بن طغج الإخشيد، وكان يُلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها، وكان يدرِّس فى جامع عمرو بن العاص، وكثر طلاب العلم فى حلقته، وتوافدوا عليه من كل بقاع مصر، ومن خارجها، لذلك تتلمذ عليه أهل العلم ممن عاشوا فى مصر بعده.

أما سيبويه المصرى فكان يحفظ القرآن الكريم ويفسره تفسيراً جيداً، وكان عالماً بالقراءات وغريب القرآن وإعرابه وأحكامه، عالماً بالحديث وبغريبه ومعانيه ورواته، ويعرف النحو وأصوله وغريبه، حتى لُقب بسيبويه المصرى، ويعرف النوادر والأخبار والأشعار، وتفقه على مذهب الشافعى.

كذلك ازدهرت الحركة الأدبية فى مصر، ومن أعلام النحو ابن ولاد وأبو جعفر النحاس، وقاد حركة الزهد والتصوف فى مصر ذو النون المصرى الذى تكلم عن الظاهر والباطن والمقامات والحب الإلهى.

ويقول الأستاذ أحمد أمين فى كتابه «ظهر الإسلام» أن حركة الشعر فى مصر فى عصر الولاة كانت هزيلة، وظلت على حالها حتى قدم المتنبى مصر فى أواخر العهد الإخشيدى، فنهض بالشعر نهضة كبيرة. ومن أشهر شعراء مصر فى العصر الطولونى الحسين بن عبد السلام، ويُسمى الجمل، ولم يصلنا من شعره إلا القليل.

ولما قدم المتنبى مصر نهض بالشعر العربى نهضة كبيرة، يقول طه حسين: كانت حياة المتنبى مليئة بالنشاط الخصب، فكان يصاحب سيف الدولة فى حروبه ضد الروم وضد البدو الخارجين،

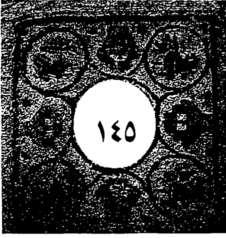
ولما غضب من سيف الدولة وغادر حلب، واتجه إلى مصر كان شغله الشاغل أن يواصل نشاطه عند أمير غير سيف الدولة، فلجأ إلى مصر فى عصر كافور الإخشيدى، وكانت مصر مستقرة فى عهده، هادئة مطمئنة، وتختلف مصر الهادئة عن حلب المضطربة المليئة بالحركة والنشاط، لذلك فحياته فى مصر فى عصر كافور هادئة الهدوء الذى يخشاه ولا يرضى نفسه القلقة الطموحة. ولما بلغ مصر وعاش فيها هذه الحياة الهادئة، استحضر ماضيه فرأى آمالاً خابت وأحلاماً ذهبت ونعيماً زال، ونظر إلى المستقبل فلم يجد آمالاً يمكن أن يحققها. وتجلى ذلك فى شعره فى مصر، فقد شمله الحزن واليأس والأسى، ومع ذلك مارس المتنبى نشاطه فى مصر ومدح كافور، فلم يجد من كافور التقدير الكافى فهجاه، وغادر مصر. ولكن الفترة المحدودة التى قضاها فى مصر رفعت من مستوى الشعر، وأقبل عليه الشعراء والطلاب ينهلون من علمه ويستفيدون من فكره وشعره.

بدأ المسلمون يدوِّنون تاريخهم فى أواخر عهد بنى أمية، وتصدى لهذا العمل رجال من طبقات الشعب، لم يعيشوا فى كنف الحكام، لذلك عبَّرت مؤلفاتهم تعبيراً صادقاً عن أحوال المجتمع الذى يعيشون فيه ومظاهر تطوره.

اتخذ كتَّاب التاريخ فى صدر الإسلام من حياة الرسول ﷺ وما يتصل بها من غزوات، مادة دونوا منها ما سُمى بكتب السيرة والمغازى، وجمعوا مادتهم من روايات الإخباريين الذين كانوا يحدثون الناس عن أهم الموضوعات التى تشغل بال المسلمين، ويتشوقون إلى معرفتها، وهى سيرة الرسول ومغازيه.

وقد دوِّنت السيرة النبوية فى مصر، وتفسير ذلك أن محمد بن إسحاق بن يسار، وهو من أهل فارس، نشأ فى المدينة، وأخذ الحديث عن علمائها، وعنى بصفة خاصة بجمع الأحاديث التى تتضمن سيرة الرسول ﷺ ومغازيه، وقال عنه الإمام الشافعى: «من أراد أن يتبحر فى المغازى، فهو عيال على ابن إسحاق». وجمع ابن إسحاق أوراقه التى كتبها عن سيرة الرسول ﷺ فى كتاب فُقد، وعثر عليه عبد الملك بن هشام - الذى عاش فى مصر - ولخَّصه فى كتابه المسمى «سيرة ابن هشام»، وهو أقدم كتاب عن سيرة الرسول بين أيدينا الآن. وهو أهم مصدر عن سيرة الرسول ومغازيه.

انقسم المؤرخون المسلمون إلى مؤرخين موسوعيين يكتبون عن العالم الإسلامى أو الدولة الإسلامية كلها، أى يؤرخون لدولة الخلافة. وهناك فريق من المؤرخين المحليين الذين كتبوا عن الأقطار التى عاشوا فيها. فبالنسبة لموضوعنا - مصر الإسلامية - كتب عدد من المؤرخين عن تاريخ مصر منذ أن فتحها عمرو بن العاص وانتهوا إلى السنة التى تمكنوا من كتابة تاريخها. ومن أقدم وأبرز هؤلاء المؤرخين عبد الرحمن بن عبد الحكم (١٨٧ - ٢٥٧هـ / ٨٠٣ - ٨٧١م).



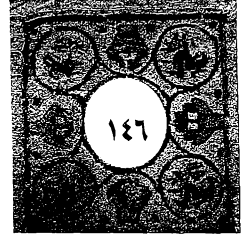
وكـان تاريخ الإسلام بما فى ذلك مـصر، يُروى شـفاهاً جـيلاً بعـد جيل، ولم يُدوَّن إلا فى أواخـر القرن الثانـى الهجرى وبداية القـرن الثالث الهجرى، فكتب الواقدى - فيمـا كتب - عن فتوح المسلمين للشام والعراق وغيرها، وكتب البلاذرى عن فتح مصـر ضمن كتابه «فتوح البلدان». وأول من كتب كُتاباً خاصاً عن تاريخ مصر عبد الرحمن بن عبد الحكم، وهو قرشى مصرى وينحدر من أسرة اشتغل رجالها بالعلم، فأبوه عبد الله بن عـبد الحكم شيخ المالكية فى مصر، واستقبل الإمام الشافعى فى مصر، ويسَّر له سبل الإقامة والتدريس فى جامع عمرو بن العاص.

أما إخوة المؤرخ عبـد الرحمن فهم، محمد وعـبد الحكم وسعد، وكلهم فقـهاء ومحدثون وأدباء، وورث محـمد زعامـة المالكية فى مـصر بعد وفـاة أبيه. هذه النشأة العلـمية لمؤرخنا عـبد الرحمن هيأت له الحصول على الروايات التى تتناقلها الأجيال عن تاريخ الأمم الإسلامية خصوصاً مصر، وأصبحت لديه مادة غزيرة موثقة بالإسناد الصحيح من الرواة عن تاريخ مصر.

جمع عبد الرحمن بن عبد الحكم رواياته عن تاريخ مصر فى كتاب، ومما ساعده على وضع هذا الكتاب أنـه مصرى عـاش فى مصر، وعـرف آثارها وبلدانها وتقـاليد مجـتمعـها وتاريخـها وجغرافيتها. وهو من أسرة عريقة - كما شاهدنا - اتصل رجالها بالولاة والصحابة والتابعين الذين عاشوا فى مصر ووقفوا على أسرار الدولة.

لذلك كتب ابن عبد الحكم كتابه «فتوح مصر وأخبارها» بطريق الرواية التى حصل عليها من الرواة جيـلاً بعد جيل. وابن عبـد الحكم حين يكتب فى كتابه عن تاريخ مـصر من حيث فتـحها وتطور الحكم الإسلامى فـيها، تستند روايتـه إلى الرواة الثقات. أما كـتاباته عن أقباط مـصر قبل الإسلام، ومصـر فى عصور الوثنيـة فقد داخلها الكثـير من الأساطير، لأن مـصدره روايات بُولغ فيـها. ورواية ابن عبد الحكـم عن تاريخ مصر هى أقدم وأهم روايـة عن تاريخ مصر الإسلامـية، تناقلها المؤرخون من بعده جيلاً بعد جيل.

ومن مؤرخى مصر الإسلامية أبو عمر الكندى (٢٨٣- ٣٥٠هـ/ ٨٩٧ - ٩٦١م) وهو أحد الرواة الذى تناقل الناس رواياته فى القرن الرابع الهـجرى وما بعده. وينتهى إلـى قبيلة كندة، التى وفد بعض رجـالها إلى مصـر أثناء وبعد الفتـح، ولُد ونشأ فى مدينة الفـسطاط - حاضرة مصر



الإسلامية - كان محدثاً وفقيهاً، عارفاً بأحوال الناس وسير الملوك، وكان من أعلم الناس بمصر وثغورها ومدنها وقراها، له مصنفات كثيرة فى تاريخ مصر وأحوالها منها «كتاب الخطط»، «الموالى»، «الأخبار العربية»، «سيرة مروان بن محمد» آخر خلفاء بنى أمية، «أخبار قضاة مصر».

كان عالماً بكتب الحديث والأنساب وعلوم العرب. ومن أهم كتبه «تاريخ ولاة مصر وأمرائها» إلى عصره، و « قضاة مصر» منذ فجر الإسلام إلى منتصف القرن الثالث الهجرى.

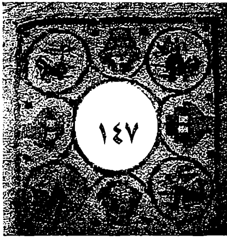
وكتابه «تاريخ ولاة مصر» يتضمن سياسة ولاة مصر الذين تعاقبوا على حكمها وإدارتها وموقف الشعب المصرى منهم، وأحوال البلد أى مصر فى عهودهم، ويكتب عن الحروب التى خاضها هؤلاء الولاة للقضاء على ثورات فئات شعب مصر ضد حكمهم. والكتاب يوضح الجهاز الإدارى فى مصر: الوالى - الشرطة - البريد - قائد الجيش. . .إلخ، ويوضح اختصاصات كل جهاز إدارى. وينتهى هذا الكتاب بوفاة محمد بن طغج الإخشيد سنة ٣٣٤هـ.

وكتب الكندى كتاب «قضاة مصر» ويتناول فيه تاريخ القضاة فى مصر الإسلامية منذ الفتح العربى حتى تولية القاضى بكّار بن قتيبة سنة ٢٤٦هـ. واعتمد فى هذا الكتاب على ما كتبه ابن عبد الحكم فى كتابه عن قضاة مصر. وللكندى مؤلفات أخرى لم تصلنا.

ومن مؤرخى مصر الإسلامية، الحسن بن زولاق (٣٠٦ - ٣٨٧هـ / ٩١٩ - ٩٩٧م) وهو كسابقيه من أصل عربى، درس التاريخ والرواية وعلوم الفقه والأدب، وتتلمذ على شيخه الكندى، وبلغ من محبته للتاريخ والحرص على جمع مادته أنه كثيراً ما كان ينشد:

ما زلت تكتب فى التاريخ مجتهداً حتى رأيتك فى التاريخ مكتوباً

ولابن زولاق مؤلفات قيمة فى التاريخ مثل سيرة محمد بن طغج الإخشيد - كتاب سيرة جوهر - كتاب التاريخ الكبير على السنين - كتاب سيرة كافور - كتاب سيرة المعز - كتاب سيرة العزيز - كتاب أخبار قضاة مصر - كتاب التاريخ الصغير - أخبار سيبويه المصرى. ومن كتبه أيضاً كتاب فضائل مصر وأخبارها وخواصها، وله كتاب عن أخبار عمرو بن العاص وآخر عن نيل مصر.



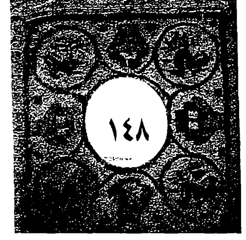
ومن مؤرخى مصر الإسلامية، عز الملك المسبحى (٣٦٦ - ٤٢٠هـ / ٩٧٧ - ١٠٢٩م)، ومن أهم كتبه «التاريخ الكبير» فى ثلاث عشرة ألف ورقة. وقد عاصر فترة هامة فى تاريخ مصر الفاطمية.

وفى ختام هذه الدراسة يجب أن نشير إلى المؤرخ والجغرافى، المسعودى وهو من ذرية الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود، عاش فترة من حياته فى مصر، وتوفى بها سنة ٢٤٦هـ، له عدة كتب منها «مروج الذهب ومعادن الجوهر» وكتاب «ذخائر العلوم وما كان فى سالف الدهور» وكتاب «التاريخ فى أخبار الأمم من العرب والعجم» وكتاب «التنبيه والإشراف» وكتاب «خزائن الملوك»، وهو صاحب غرائب ونوادر، طاف فى طلب العلم فى أقصى البلاد وأدناها، وطاف فى فارس والهند والصين وعُمان وزار جرجان وطبرستان وبلاد ما وراء النهر وبلاد الشام والثغور الشامية، واستقر به المقام بعد زيارة فلسطين فى مصر.

ومن خلال رحلاته التقى بالعلماء، وحصل على الكثير من الكتب فى مواضيع مختلفة، وصنف كتباً تاريخية وجغرافية على جانب كبير من الأهمية. ووصف الشعوب التى رحل إليها وعاداتها وتقاليدها. لذلك فإن كتبه من الكتب القيمة، خصوصاً أنه وصف الآثار التى شاهدها فى البلاد المختلفة مثل المعابد والهياكل والتماثيل والأهرامات، وتظهر فى كتاباته التاريخية جوانب من الحياة الاجتماعية والفكرية للشعوب التى رحل إليها، ومن الناحية الجغرافية وصف البحار والمحيطات والأنهار والجبال والبوادى والهضاب، وتوقف عن التأليف سنة ٣٤٥هـ وتوفى فى العام التالى.

ودرس المصريون فى عصر الولاة الفلك والرياضيات والطب. وقد عرف المصريون البيمارستانات لعلاج المرضى، واتخذ أحمد بن طولون فى مسجده خزانة أدوية، وعهد إلى طبيب مقيم فى المسجد بعلاج من قد يلم به مرض أثناء الصلاة. ومن أشهر أطباء مصر فى عهد أحمد بن طولون، الطبيب ابن توفيل، وكان يعالجه أى ابن طولون.

والخلاصة أن مصر الإسلامية بفضل عروبتها وإسلامها وتراثها التاريخي العريق شهدت نشاطاً فكرياً ملحوظاً فى عصر الولاة، تمخض عن ظهور علماء فى الدين واللغة والفلسفة والعلوم التطبيقية، وظهر لهم العديد من الكتب والمصنفات القيمة.



ويجب على ألا نختم كلامنا عن الحياة الثقافية دون الإشارة إلى ظهور التصوف والفكر الصوفى فى مصر.

دعا الإسلام إلى العمل والإنتاج بحيث لا تشغل الدنيا الإنسان ولا تغرى عن التطلع إلى اليوم الآخر هو الغاية، والدنيا هى الطرق إلى الآخرة. وهذا ما دعا ماسينيون إلى القول بأن فى القرآن الكريم بذور التصوف.

والتصوف الإسلامى، تطور للزهد والتقشف والإعراض عن زينة الحياة الدنيا واختلف الصوفى عن غيره فى ورعه وزهده وتقشفه وإعراضه عن زخارف الدنيا وإغراء المال وحرص الصوفيون على تناول معتقداتهم من القرآن والحديث.

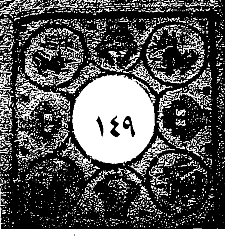
ووضع المتصوفون أسسا ومبادئ محددة. وقالوا: محبة الله شيء لا يكتسب بالتعلم، إنما هو هبة من الله؛ وقالوا: بأن الله قد يكشف للعارف وهو نائم عن السر، ويفيض عليه من النور، ما لا يكشفه للقائم، والعارف لا يرى سوى الحق، والمعرفة أقرب إلى الصمت منها إلى الكلام. ويقول ذو النون المصرى: عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى - ليس من احتجب عن الحق بالخلوة كمن احتجب عنه بالله. وقال عن التصوف: إنه علم باطن قاصر على الخواص. وهو أول من وضع تعريفات الوجد والسماع والتوحيد. وذو النون كان له أكبر الأثر فى تشكيل فكرة التصوف ووضع أسسه ومبادئه.

وذو النون، ثوبان أبو الفيض إبراهيم، كان أوحد وقته علما وورعا، وهو من رجال الطريقة، روى الموطأ للإمام مالك بن أنس وكان حكيما فصيحًا.

وكان له أعداء لا يوافقون على مبادئه، فوشوا به إلى الخليفة العباس المتوكل، فاستدعاه من مصر، ووعظ المتوكل حتى بكى كثيرا، وأعاده إلى مصر معززا مكرما. ومن أقوال ذى النون: إذا صحت المناجاة بالقلوب استراحت الجوارح. وتعرض ذون النون للسجن والاضطهاد بسبب مبادئه، وكان يقابل المحن براحة وصبر وقال:

لك من قلبى المكان المصون ... لك عزم بأن أكون قتيلا

كل لوم على فيك يهون ... والصبر ما لا يكون



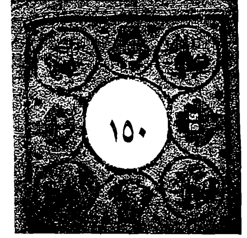
وتوفى سنة ٢٤٥ أو ٢٤٨هـ.

والخلاصة أن الإسلام نقل مصر نقلة حضارية كبيرة، وغير من التركيبة الاجتماعية والوضع الاقتصادى لهذا البلد، وحدد ثقافتها بأن أصبحت عربية إسلامية، وأدت مصر دورها نحو الفكر العربى والدراسات الإسلامية فى العالم كله، ونشط العلماء المصريون فى كافة المجالات الثقافية، واندمج العرب المهاجرون إلى مصر مع سكانها مكونين مجتمعًا مصريًا عربيًا إسلاميًا ينشر الإسلام وفكره بين الأمم، وينشر اللغة العربية ويحميها ويحافظ عليها.

ولعبت مصر دورها العربى الإسلامى بأن دافعت عن الإسلام ضد أعدائه المتربصين به، وبقى الأزهر شامخا يحتل الحصن الحصين للغة العربية وآدابها وللفكر الإسلامى ومقوماتها.



الأزهر الشريف





- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.

- الطبرى: تاريخ الأمم والملوك.

- المقريزى: المواعظ والاعتبار.

- ابن عبد الحكيم: أخبار مصر.

- الكندى: الولاة والقضاة.

- بتلد: منقع مصر.

- ابن زولاق: فضائل مصر وأخبارها.

- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة.

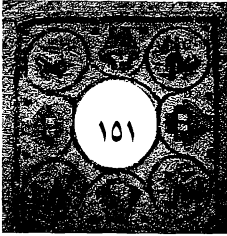
- السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة.

- سيرة الكاشف: مصر فى فجر الإسلام.

- مصطفى طه بدر: مصر الإسلامية.

- عصام الدين الفقى: تاريخ الفكر الإسلامى.

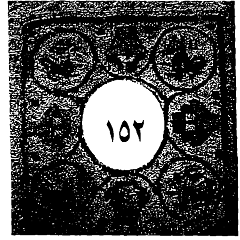
معالم تاريخ مصر الإسلامية.



- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والاجتماعى.

- على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى.

- سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى.





الموضوع	الصفحة
- المقدمة.	١
- الإسلام ومصر.	٣
- مصر قبل الفتح العربى.	٧
- الفتح العربى الإسلامى لمصر.	١٠
- التطور السياسى فى مصر فى عصر الولاة.	٤٥
- مصر فى العصر العباسى.	٥٨
- الدولة الطولونية.	٧٠
- مصر فى عهد ولاة العباسيين.	١٠٠
- الدولة الإخشيدية.	١٠٢
- الغزو الفاطمى لمصر.	١١٧
- عروبة مصر.	١١٨
- أهل الذمة.	١٢٤
- الحياة الثقافية فى مصر الإسلامية.	١٣٣
- المصادر والمراجع.	١٥٠
- المحتويات.	١٥٢

Abstract

This book treats an important period in the history of Egypt, which was by the time of the Arab conquest a province suppressed by the "Byzantine" Colonial Empire. At the same time, theological differences and schism split the church of Egypt.

It was the Rightly Guided Caliph "Omar Ibn El -Khattab" who instructed the leader "Amr Ibn El-Aas" to liberate Egypt from the hands of the Byzatine which he did successfully in the year 641 AD. The Egyptians embarrassed Islam in great numbers out of their free will, and thus Arabic language became their mother tongue. Since that time, Egypt became an important part of Islamic Umma and Amr Ibn El-Aas established a new capital called "Fustat", and a great mosque which became a center of learning where the great Imam "El-Shafay" himself was teaching religion and language.

When Ahmed Ibn Touloun ruled Egypt Independently, he established a new capital called "Elqatayeh", and a mosque, which was indeed an architectural masterpiece. After the fall of the "Tulenids" the "Ikhshids" took over until the coming of the "Fatimids" from North Africa, and established their caliphate.

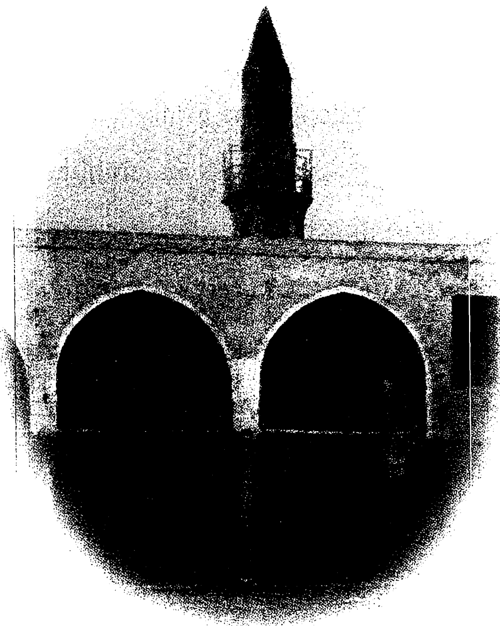
Islamic Egypt witnessed great developments in the cultural, Economics and social levels and became the center for learning on the whole Islamic world. Amongst the prominent "Ulema" we find "Al-Layth Ibn Saad";Imam EL-Shafay", and the followers of "Malki" doctrine.

Dr. Essam El -Din Abdel Raouf

(12)

Islamic Egypt: from the Arab Conquest till the beginning of the Fatimid Period

Dr. Essam El-Din Abdel Raouf



(١٢)

الدولة الفاطمية

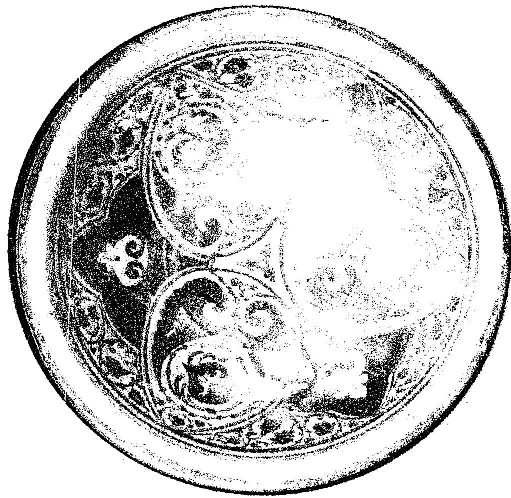
(نشأتها - سياستها الداخلية - سياستها الخارجية)

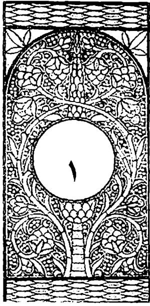
تأليف

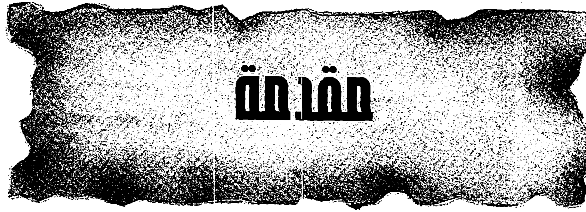
د. صابر محمد دياب حسين

أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة

جامعة القاهرة والجامعات العربية







أخذت مصر منذ مستهل النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) تحتل مكانا مرموقاً بين دول العالم الإسلامى. فقد أصبحت مركز الخلافة الفاطمية التى تنافس العباسيين على زعامة العالم الإسلامى. حيث امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد الشام والحجاز واليمن. ولكن لم يُتح لهم البقاء طويلا فى بغداد لظهور قوة السلاجقة التى ناصبت الفاطميين العداء. وتصارع الطرفان على بلاد الشام، مما أدى إلى عدم استقرار هذه البلاد، حتى سقطت فى يد الصليبيين أواخر القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى).

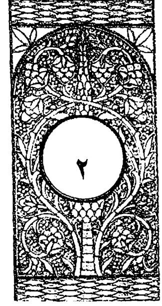
وقد اتصف العصر الفاطمى فى مصر بالازدهار والرخاء الذى عمَّ معظم ميادين الحياة الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية والثقافية. ثم عم الاضطراب أرجاء الدولة الفاطمية منذ منتصف القرن الخامس الهجرى، حتى ضعف سلطانها على الأقاليم التابعة لها. وهذا عرض للتاريخ السياسى والحضارى للدولة الفاطمية.

وختاما أوجه جزيل الشكر وعظيم الامتنان للزميل الدكتور يحيى العباسى للدور البارز الذى قام به معى فى إعداد مادة هذا الكتاب والمساعدة فى إخراجه إلى حيز الوجود.

والله من وراء القصد وهو حسبنا ونعم الوكيل،،،.

دكتور

صابر محمد دياب حسين

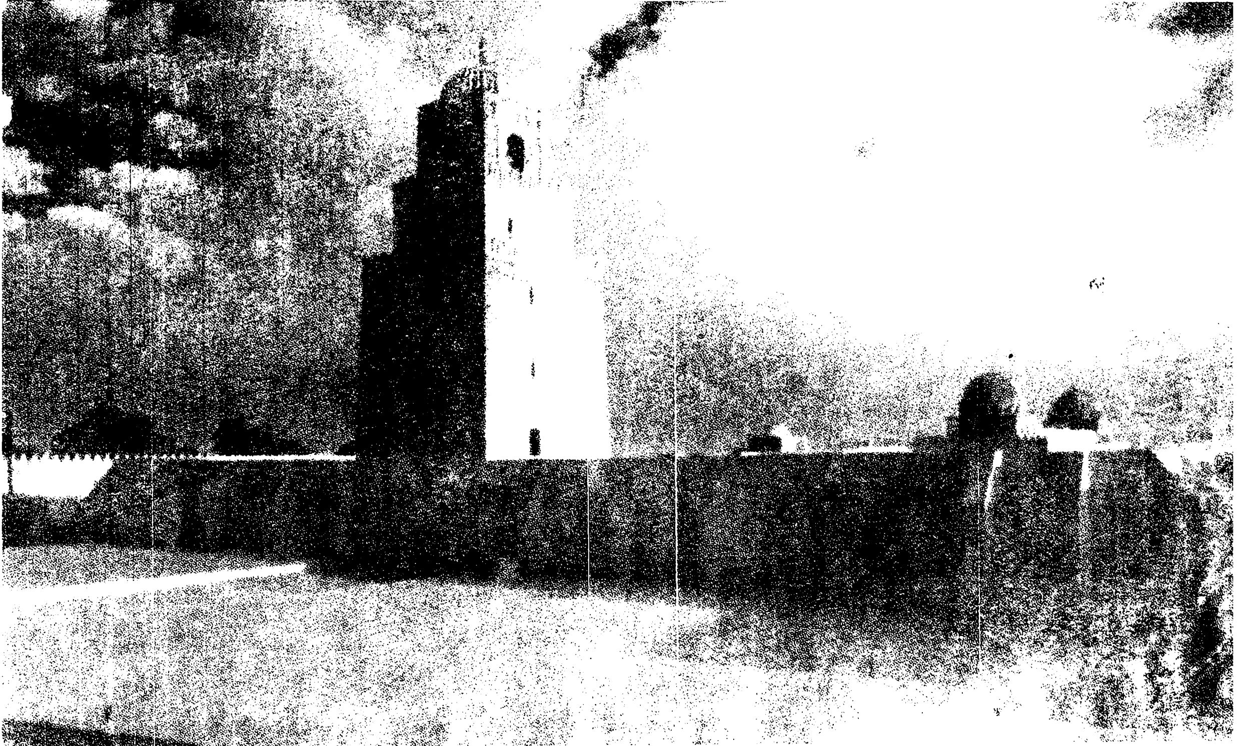


الفصل الأول
الدولة الفاطمية فى المغرب

امتدت هذه الفترة خمسة وستين عاماً تقريباً (٢٩٦-٣٦١هـ) وشملت أربعة خلفاء هم: عبيد الله المهدى (٢٩٧-٣٢٢هـ) والقائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤هـ) والمنصور بالله (٣٣٤-٣٤١هـ) والمعز لدين الله (٣٤١-٣٦١هـ).

ويعد أبو عبد الله الشيعى الممهد لقيام الدولة الفاطمية فى المغرب. إذ كلفهُ ابن حوشب فى اليمن بالذهاب إلى المغرب وإكمال عمل الداعيَيْن: أبى سفيان والحلوانى. فاستقر أبو عبد الله الشيعى مع قبيلة كتامة فى مدينة تازروت فى منطقة حصينة جغرافياً. وانضمت إلى أبى عبد الله الشيعى قبائل: أجانة وملوسة ولهيصة فقوى بهم، ودخل مع الأغالبة فى حروب كثيرة استمرت سبع سنوات (٢٨٩-٢٩٦هـ/ ٩٠١-٩٠٨م). فزحف الشيعى على المدن الأغلبية واستولى عليها، مثل مدن: طبنة، وبلزمة، وباغاية، وقرطاجنة، وتيفاس، وتبسة، والقصرين، وقسطيلية، وقفصة والأربس ورقَّادة، ثم استولى أخيراً على القيروان.

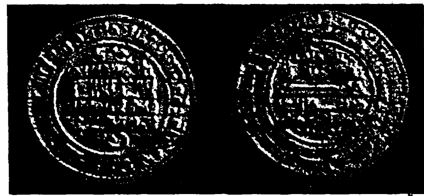
المسجد الكبير (عقبة بن نافع) القيروان



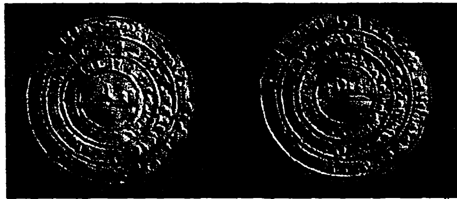


وعندما استقرت الأمور للمهدى الفاطمى ببلاد المغرب (٢٩٧-٣٢٢هـ/ ٩٠٩-٩٣٣م) وضع من التنظيمات الإدارية والسياسية ما تكفل لدولته الوليدة الاستمرار. فوزع الاختصاصات السياسية والإدارية على أنصاره ومؤيديه. فجعل على الحجابة أبا الفضل جعفر بن على، وأبا أحمد جعفر بن عبيد، وأبا سعيد عثمان بن سعيد. واستكتب إبراهيم بن محمد البغدادى؛ وجعل على بيت المال أبا جعفر الخزرى، وعلى ديوان الخراج أبا القاسم بن القديم، وعلى السكة (دار سك العملة) أبا بكر القمودى، وعلى العطاء عبدون بن حباسة؛ وعلى القضاء محمد بن عمر المروزى.

وقد اهتم المهدى بنشر المذهب الشيعى فى بلاد المغرب. فقطع صلاة التراويح، وزاد فى الأذان عبارتى: «حى على خير العمل، محمد وعلى خير البشر». كما أسس المهدى ديوان

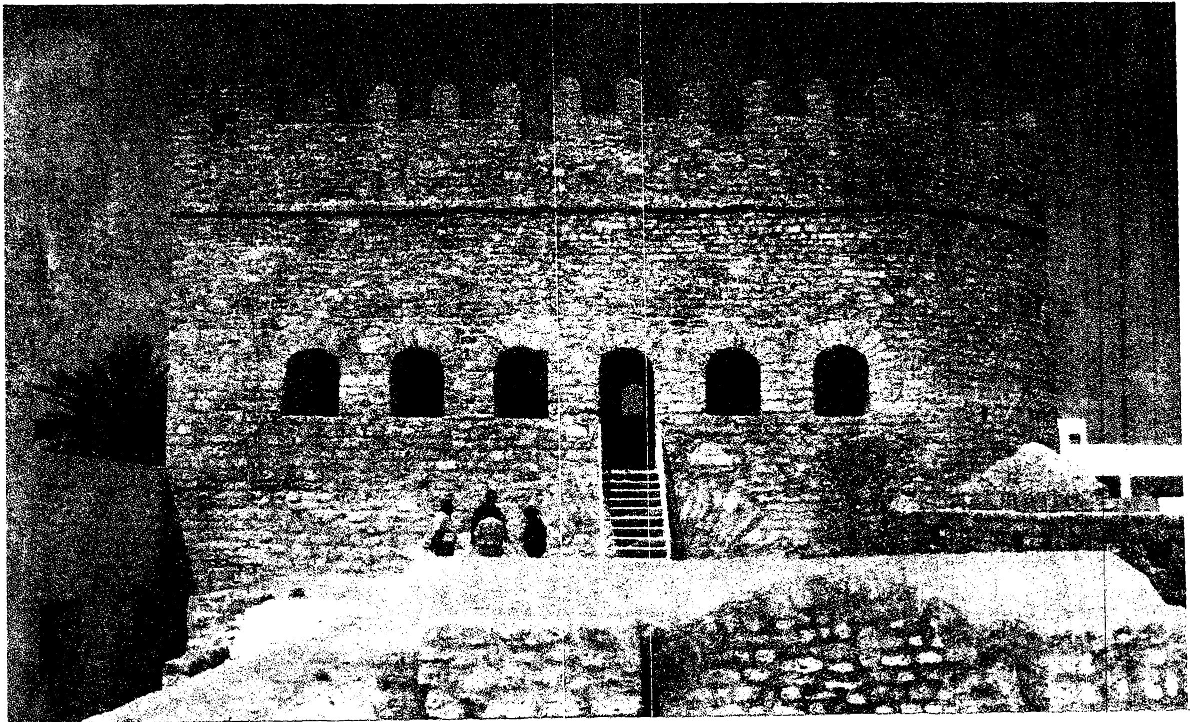


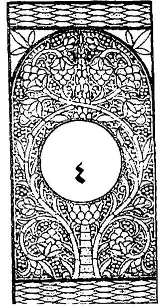
عُملة ذهبية للخليفة باسم الخليفة القائم ضرب مدينة المهدية سنة ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م



عُملة ذهبية للخليفة باسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م ضرب المنصورية

باب زويلة بمدينة المهدية - تونس





الكشف «المخابرات» لتتبع المخالفين للمذهب الشيعى، واضطهد أهل السنة فى المغرب، وعذَّب كثيراً منهم مثل: إبراهيم بن محمد الضبى، وأبى بكر بن هذيل.

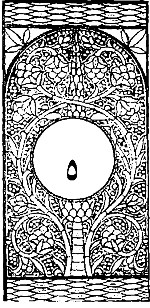
لكن المهدى اضطر - نتيجة لرد فعل أهل السنة المالكية - أن يُعَدِّل من السياسة المذهبية المتشددة. فاعتمد على مدارس الدعوة لنشر التشيع. ومع ذلك فشلت الدعوة الشيعية فى بلاد المغرب، التى كانت بمثابة قاعدة سنية مالكية.

شرع المهدى - بعد أن توطد سلطانه - فى بناء حاضرة جديدة للدولة عرفت باسم «المهدية» - تقع على بُعد ستين ميلا جنوبى القيروان - وأنشأ بها: مساكن رجال الدولة، ومعسكرات الجند، ومخازن الأموال، وخصص لها كثيرا من القنوات لحمل الماء إليها.

وقد عمل المهدى على إثارة الصراع القبلى فى بلاد المغرب. فوقفت قبيلتا مغراوة وبنى يفرن الزناتِيَّتَيْن ضد الشيعة، بسبب استيلاء الشيعة على تاهرت (تيهرت) وشرقى المغرب الأوسط، وتعيين «دواس اللهيصى الكتَامى» والياً على المنطقة. وكانت مهمة اللهيصى مراقبة كل من مغراوة وبنى يفرن، ولما فشل اللهيصى فى مهمته، تحول المهدى إلى «مصالة بن حبوس الزناتى» سنة ٣٠٠هـ. فظل مصالةُ هو رجلَ الفاطميين الأول حتى قتل سنة ٣١٢هـ، فخلفه أخوه «يصل بن حبوس»، الذى ظل حتى سنة ٣١٩هـ، واسترضى الكتاميون الفاطميين. فأقام الفاطميون «أبا مالك بن يغمراسن بن أبى شحمة» الذى لم يصمد لمغراوة. فأقام الفاطميون على المغرب «الأحدب بن مصالة بن حبوس»، ثم «داود بن إبراهيم العجيسى»، ثم «حميد بن يصل بن حبوس المكناسى». وهكذا غرق البربر فى الحروب والصراعات القبلية، فاصطنع المهدى قبيلتى لُهَيْعَة وملوسة ليعاقب أجانة ومسالته، مدفوعا إلى ذلك بدوافع مالية وأمنية.

وقد غلب على عهد القائم بأمر الله بن عبيد الله المهدى (٣٢٢-٣٣٤هـ/ ٩٣٣-٩٤٥م) الطابع الحربى وكثرة القلاقل. فبدأ عهده بأن أمر عماله فى سائر البلدان بحمل السلاح وجميع آلات الحرب، وذلك لأن أهل المغرب ما إن سمعوا بوفاة عبيد الله المهدى حتى أطلقوا لثوراتهم العنان. فاشتعلت المغرب فِتَناً. وكانت أشد هذه الفتن ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد، التى تدل على حالة السخط والتمرد على الشيعة مذهباً وسياسةً، واستمرت هذه الثورة خمسة وعشرين عاماً (٣١٦هـ-٣٤١هـ).

وقد تحولت بلاد المغرب - نتيجة هذه الثورة - إلى ساحة قتال ومذابح، فقدت فيها الدولة الفاطمية العديد من قوّادها مثل: ميسور وصندل ومرام وشفيع وقيصر، لكن الثورة فشلت وقُتل أبو يزيد وولده فضل.



وفى عهد المنصور بالله الفاطمى (٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٥-٩٥٢م) تغيرت أوضاع المغرب. فأظهر حبه للعمارة، وأعلن فى سنة ٣٣٥هـ/ ٩٤٦م إعفاء الرعية من ضريبة العشر والصدقة رفقا بهم وعونا لهم على عمارة أرضهم وأملاكهم. كما قرر ألا تؤخذ الضرائب إلا حسبما يقضى الشرع عينا من نوع الإنتاج نباتيا أو حيوانيا. وبنى مدينة صبرة «المنصورية» سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م، وهى لا تبعد عن القيروان بأكثر من نصف ميل، وتُقَابل مدينة رقَّادة، ونقل إليها الأسواق وجميع الصناعات، وأظهر المنصور التواضع.

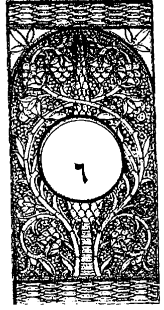
ثم تولى المعز لدين الله الفاطمى (٣٤١-٣٦٥هـ)، وامتد حكمه نيفا وعشرين عاماً. ويعتبر عهده من أزهى عصور الخلفاء الفاطميين بالمغرب، نظراً للهدوء النسبى الذى ساد البلاد. حيث أمنت السبل، واطمأنت النفوس، فاستأمنته قبيلتا بنى كملان ومليلة - من هوّارة- ومال الناس إلى موادعة المعز لدين الله.

وقد أقر المعز لدين الله الفاطمى «زيرى بن مناد الصنهاجى» على مدينة أشير، بينما كان على تاهرت «يعلى بن محمد اليفرنى»، وعلى المسيلة وأعمالها «جعفر بن على بن حمدون الأندلُسِىّ»، وعلى فاس «أحمد بن بكر بن أبى سهل الجذامى» وعلى سجلماسة «محمد بن واسول».

وقد اشتبك الفاطميون مع الأمويين بالأندلس فى حروب كثيرة، نتج عنها أحلاف وتكتلات قبلية مغربية، مما أدى إلى تهديم العمران، ونهب الأموال، وقتل الرعية. وتعميق الضعف الاقتصادى والتخلف الاجتماعى. بينما نجح أمويو الأندلس فى استمالة زناتة فى المغربين الأوسط والأقصى.

وأصبح المعز لدين الله الفاطمى غير مستريح للبقاء فى المغرب، فأعلن ضيقه من الأوضاع الداخلية وخروج أسرته عليه. فقال للأستاذ جوذر: «فامتحننى الله بفقده -أى ولده- والانفراد بعده فى الديار الموحشة، والقصور الخالية، والبلد المشاقق بين كل عدو وفاسق».

وعندما نُقوِّم الدولة الفاطمية فى المغرب تاريخيا وحضارياً يتضح أنها لم تقدم للمغرب أية خدمة إيجابية. وإنما شقى أهل المغرب تحت حكمها بالصراعات القبلية، وهى صراعات إبادة وتدمير. وعندما تركوا بنى زيرى نوابا لهم على هذه البلاد، تركوهم وهم غارقين فى صراعات قبلية كثيرة. ثم رمى الفاطميون بلاد المغرب بالعرب الهلالية - بحسناتهم وسيئاتهم- واستمرت الفوضى فى تلك البلاد، مما انعكس سلبا على أوضاع الناس فيها عربا وبربرا.



الفصل الثانى
الدولة الفاطمية فى مصر

كان الاستقرار فى مصر وفتحها أمنية فاطمية منذ قيام دولتهم فى بلاد المغرب. فحاول عبيد الله المهدى - أول الخلفاء الفاطميين - فتح مصر، فأرسل لذلك ثلاث حملات فى سنوات: ٣٠١، ٣٠٧، ٣٢١هـ، ولكنها جميعا فشلت، لأن الخلافة العباسية كانت ما تزال قوية، وأحوال مصر مستقرة.



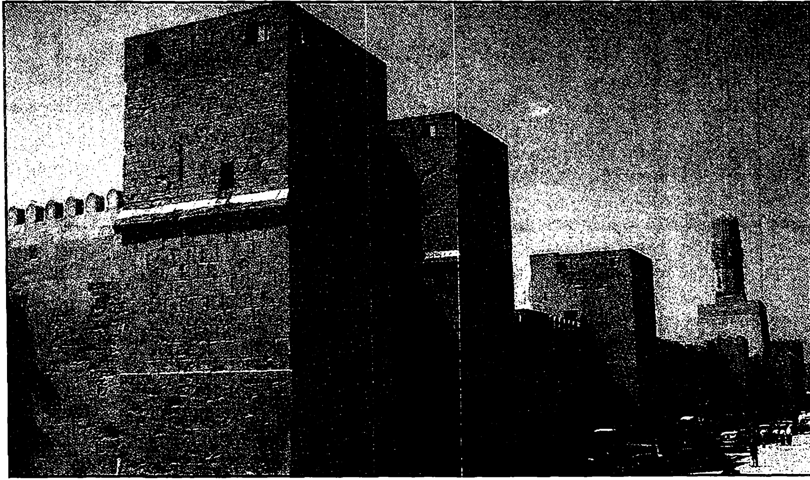
خريطة الدولة الفاطمية

ولما تولى المعز لدين الله الخلافة الفاطمية (٣٤١هـ) عزم على فتح مصر، وساعدته الظروف القائمة آنذاك على تحقيق رغبته. إذ ضعفت الخلافة العباسية، ووقعت تحت وصاية ونفوذ البويهيين الشيعة منذ سنة ٣٣٤هـ، وهاجم البيزنطيون والقرامطةُ بلاد الشام ومصر. كما اضطربت أحوال مصر السياسية والاقتصادية بعد وفاة كافور الأخشيدى سنة ٣٥٧هـ، وتردت أوضاعها نتيجة سلسلة من المجاعات والشدائد حلَّتْ بها فى سنوات: ٣٣٨هـ، ٣٤١هـ، ٣٤٣هـ، ثم وقع غلاء



عظيم فى سنة ٣٥٧هـ استمر حتى سنة ٣٦١هـ. وفى ذلك يقول المقريزى: «وشمل الخراب عامةَ أرض مصر لموت أهلها، وقلةَ أموالها، وتعذُّر وجود الأقوات، وكثرة الخوف».

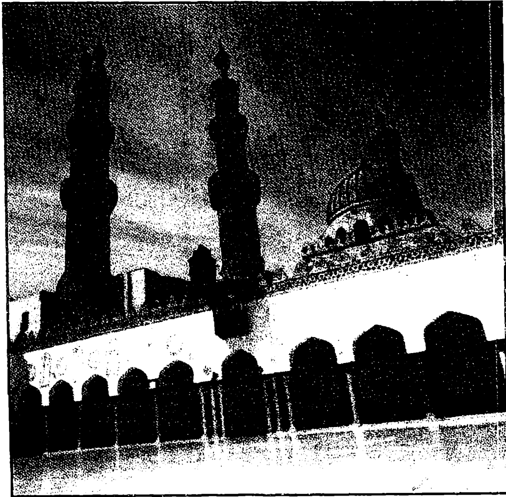
خرج جوهر الصقلى من مدينة القيروان على رأس جيش لفتح مصر وصَحِبَتْه السفنُ الحربية حتى وصل الإسكندرية سنة ٣٥٨هـ فدخلها دون مقاومة، وتقدم نحو الفسطاط، وانتصر على الإخشيديين، واستقبله الوزير جعفر بن الفرات والأعيان والأشراف والقضاة، فأمَّنَهم وأحسن استقبالهم.



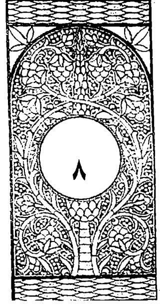
سور القاهرة الفاطمية يبدو من بعيد باب النصر ومن خلفه مئذنة الحاكم بأمر الله

وبعد دخول جوهر مصر عمل على تثبيت الوجود الفاطمى فيها. فوضع أساس الحاضرة الجديدة، وفى اليوم التالى وضع أساس القصر الذى بناه للمعز لدين الله الفاطمى وهو المعروف «بالقصر الشرقى الكبير»، الواقع فى شرق المدينة الجديدة «المنصورية» نسبة للمنصور والد المعز، ثم غيَّر المعز اسمها إلى القاهرة.

وأنشأ المعز بسور القاهرة ثلاثة أبواب هى: باب النصر، وباب الفتوح، وبابا زويلة. وكانت مساحة القاهرة آنذاك صغيرة، وقد شملت أحياء الأزهر، والجمالية، وباب الشعرية والموسكى، والغورية، وباب الخلق.



صحن الجامع الأزهر



ثم بدأ جوهر فى بناء مسجد لنشر الدعوة الشيعية وذلك سنة ٣٥٩هـ واستغرق بناؤه عامين تقريبا. وأطلق على هذا المسجد «جامع القاهرة» ثم أطلق عليه «الجامع الأزهر» -نسبة للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ - فى عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦١-٣٨٦هـ). ثم اتخذ جوهر عدة خطوات لجعل القاهرة حاضرة فاطمية تستقبل المعز، فأمر بإقامة الدعوة للمعز على مساجد مصر، وحذَف الدعاء للعباسيين، وضرب السكة باسم المعز، ومنع الناس من لبس السواد شعار العباسيين، وأمر أن يضاف للأذان: عبارة «حى على خير العمل».

وعندما أدرك المعز أن الأوضاع قد استقرت فى مصر، قرر الرحيل إليها. فوصل إلى الإسكندرية فى شوال ٣٦١هـ ومعه أولاده وإخوته وأعمامه، كما نقل معه رفات آبائه المهدى والقائم والمنصور.

وفى رمضان سنة ٣٦١هـ وصل المعز لدين الله إلى الجيزة، فاستقبله قائده جوهر الصقلى، ثم اتجه إلى القاهرة وأقام فى القصر الشرقى الكبير. ثم جاءته وفود أشراف مصر وقضاتها وعلماؤها لتهنئته، فأمر بإطلاق سراح المعتقلين، وكانوا نحو ألف معتقل.

وقد اتفق المؤرخون على تقسيم تاريخ الفاطميين فى مصر إلى عصريْن، اتسم كل منهما بسمات خاصة.

العصر الفاطمى الأول هو عصر قوة الخلافة:

ويمتد هذا العصر من دخول المعز لمصر سنة ٣٦٢هـ إلى النصف الأول من حكم الخليفة المستنصر بالله حوالى سنة ٤٥٧هـ. وهذه الفترة شملت عهود:

- المعز لدين الله ٣٦٢-٣٦٥هـ
- العزيز بالله ٣٦٥-٣٨٦هـ
- الحاكم بأمر الله ٣٨٦-٤١١هـ
- الظاهر لإعزاز دين الله ٤١١-٤٢٧هـ
- المستنصر بالله (عصر القوة) ٤٢٧-٤٨٧هـ

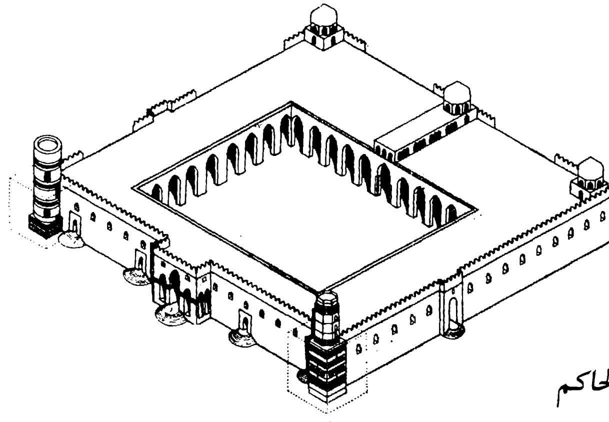
وبعد استقرار المعز فى القاهرة جمع السلطات فى يده. فتسلم الدواوين والخراج وجباية الأموال، وأقام جيشا وأسطولا قويا. وقد ساعده على ذلك تلك الأموال التى أتى بها من المغرب. ورغم قصر مدة المعز فى مصر - والتى لا تزيد عن عامين - إلا أن كثيراً من الاحتفالات والمواسم والأعياد كانت من وضع المعز لدين الله.



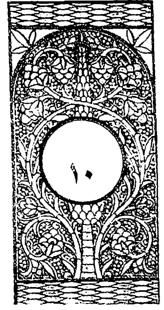
وقـد خَلَفَ العـزيزُ بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ/ ٩٧٦-٩٩٦هـ) والدَه المعـزَّ لدين الله، وهو فى الثانية والعشرين من عمـره. وفى عهده عم مصرَ الرخاءُ، واتسعت رقعةُ الدولة، وحوَّل الأزهر إلى جامـعة، وأجرى العطايا على الأساتذة والطلاب. وأقام الكثيرَ من المنشآت مثل: القصـر الغربى الواقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون، بين القصـرين -الشرقى والغربى- ميدان فسـيح لعرض الجند أطلق عليه «بين القصرين».

ولكن حدثت تطورات هامـة كان لها أثرها فى عهد العـزيز بالله ومَنْ بعده من الخلفاء. **أولها**: ظهور قوة الوزراء المسيطرين. فظهرت شخصية «يعقوب بن كِلِّسْ» الذى نقل الدواوين لبيته، وعزل القواد، وتدخل فى عمل القضاة. **والتطور الثانى** تمثل فى ظهور أهل الذمة كقوة مؤثرة. لأن العزيز تزوج من نصرانية صار لها نفـوذ كبير، كما كانت ست الملك ابنة الخليفة قوة مؤثرة، تتدخل فى الأمور، والخليفة لا يرد لها طلبا.

أما الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ) فشاع بين المؤرخين اضطرابُ سياسته وإدارته، وتناقض أفعاله وشذوذها. كما رماه بعضهم بالجنون، وحاول آخرون النظر إلى الحاكم وفق ظروفه وظروف عصره. فقد تولى الحاكم الخلافة صغيراً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، وسيطرت عليه القوى المتمثلة آنذاك فى: برجـوان التركى متولى القصر، وست الملك أخت الحاكـم، والمغاربة بقيادة ابن عمـار، ولم يستطع الحـاكم بأمر الله -إزاء ذلك- السـيطرة على الدولة إلا بعد قتـل برجوان سنة ٣٩٠هـ، حيث باشر الحاكم بأمر الله بعد ذلك أمور الحكم بنفسه. فراقب أحوال الناس، ودار فى الأسواق، وتعرف على مشاكل الناس، وأنصف المظلومين، وضاعف مرتبات القضاة لتنزيههم عن الرشوة وأكل أموال الناس بالباطل، كـما عمل على صيانة المرأة من التبذل والسـفور. وإن كان قد بالغ فى ذلك فـيمـا يبدو. ومنع المسكرات والغناء واللهـو الذى كان فـاشيـا بين الناس، ومنع أن يدخل أحد الحـمام إلا بثوب يغطى عـورته. وأنشأ دار الحكمة، وأمـدها بالكتب والورق والأقلام

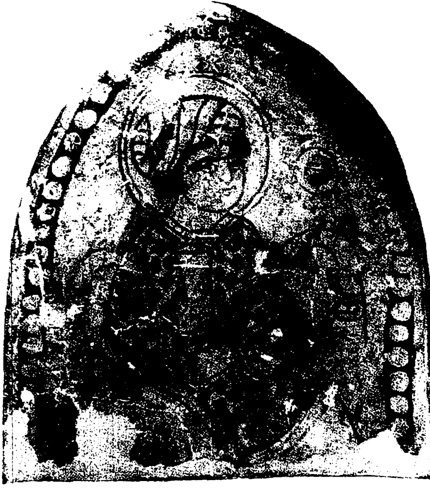


تصميم مسجد الحاكم



والمحـــابر، وأجــرى الأرزاق على العلماء والعــاملين والطلاب. ووفر السلع الغــذائيــة بأســعار منــاسبــة، وحدد أسعار كثير من السلع، وألزم أصحــاب الغلال ببيــعها لــلطحانين بسعر محدد.

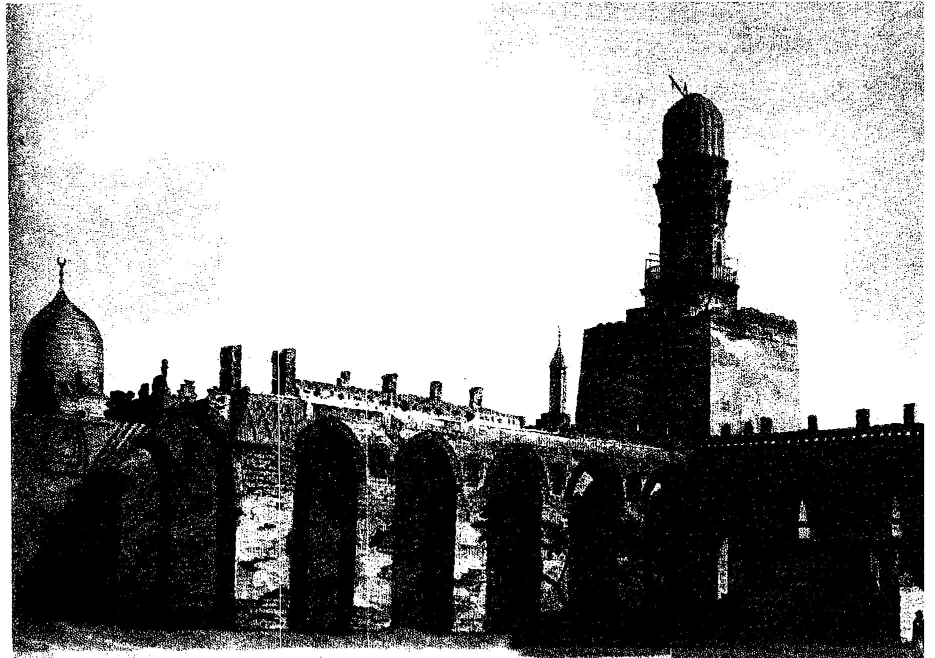
ومع ذلك فهناك مـآخذ على سياســة الحاكم بأمر الــله منها: التــعصب الشديــد للتشيــع، وقتل بعض علمــاء أهل السنة، وسب الصحــابة، وتحريم بعض الأطعمة، والاضطهاد والإذلال لأهل الذمة،



رسم لشاب ممسكا كأسًا وجد على جدار حمام بمصر القديمة - القرن ٥هـ - ١١م



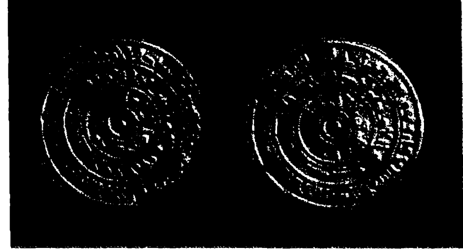
نقش خشبي من القصر الغربي الذى بناه الخليفة العزيز سنة ٩٧٥/ ٩٩٦م



مسجد الحاكم بأمر الله بالقرب من باب النصر - من وصف مصر



وأمر بإحراق القاضى بن النعمان عقابا على خيانته المالية، وتجاوزت المخابرات فى عهده فانحرفوا واستغلوا وظائفهم فى ابتزاز الأموال، وقدموا تقريرات باطلة جعلت الحاكم بأمر الله يقتل بعض الأبرياء.



دينار ذهبى باسم الخليفة المستنصر - ضرب مدينة زبيد فى اليمن - ٤٧٧هـ - ١٠٥٥م

ثم تولى الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤١١هـ، وكان فى حوالى السادسة عشرة من عمره، فدبرت عمته ست الملك الأمور فى الدولة، وأرجعت كثيراً مما وهبه الحاكم بأمر الله للناس، ورفعت الحظر عما فرضه الحاكم بأمر الله، فسمحت للنساء بالخروج من منازلهن وقضاء حوائجهن، وأباحت أكل الأطعمة التى حُظِرَتْ قبل ذلك، ورفعت الاضطهاد عن أهل الذمة.

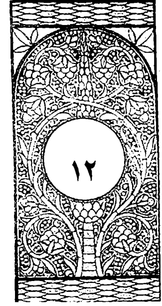
ثم وقع الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله - بعد وفاة عمته ست الملك سنة ٤١٥هـ - تحت سيطرة كبار رجال دولته. فسيطر ثلاثة منهم على أمور الدولة وهم: «الشريف أبو طالب الحسنى القزوينى»، والشيخ «نجيب الدولة على بن أحمد الجرجرائى»، والشيخ «العميد محسن بن بدواس» مع القائد «معضاد»، ومنعوا الظاهر من الاتصال بالناس حتى توفى سنة ٤٢٧هـ.

ثم تولى المستنصر بالله بعد وفاة والده الظاهر لإعزاز دين الله سنة ٤٢٧هـ. وكان المستنصر طفلا صغيراً فى السابعة من عمره، وامتد حكمه ستين سنة، وتولى أمور الدولة فى البداية الوزير الجرجرائى.

وفى هذه الفترة نعمت البلاد بالاستقرار والرخاء، وعاش الناس فى بحبوحة من العيش، ولم يكن أحد يخشى سلبا أو نهباً، وظلت الأمور كذلك حتى تعرضت مصر لنكبتين: أولاهما ٤٤٦-٤٥٤هـ، حيث اجتاح البلاد الطاعون، والثانية ٤٥٩-٤٦٥هـ بسبب نقص النيل واختلاف الجند. وسميت هذه الفترة: «بالشدة المستنصرية». ونتج عن هذه الشدة ازدياد الفتن، لدرجة أن الخليفة لم يجد رواتب للجند، فباع تحف القصر ليدفع الرواتب، وأخرجت الكتب من مكتبة القصر ومن دار الحكمة وأخذها الجند مقابل رواتبهم.



دينار باسم الخليفة الحافظ -مصر- ٥٢٩هـ - ١١٣٤م



وقد حاول المستنصر جاهدا إصلاح الأحوال، فغير الوزارة أربعين مرة فى تسع سنوات، ثم استدعى والى عكا «بدر الجمالى» الذى نجح فى القضاء على الفوضى والاضطراب. إلا أن توليته تمثل مرحلة جديدة فى حياة الدولة الفاطمية فى مصر، هى مرحلة ازدياد نفوذ الوزراء وتسلطهم.

العصر الفاطمى الثانى: عصر ازدياد نفوذ الوزراء:

أطلق على هذا العصر عصر الوزراء لأنهم أصبحوا رؤساء الدولة، وفى يدهم السلطان، حتى أنهم كانوا يعينون خليفة ويعزلون آخر. ويمتد هذا العصر من دخول بدر الجمالى مصر سنة ٤٦٦هـ إلى سقوط الدولة الفاطمية ٥٦٧هـ.

وقد شهد فى هذا العصر ستةٌ من الخلفاء الفاطميين هم:

١- المستعلى بالله بن المستنصر (٤٨٧-٤٩٥هـ/ ١٠٩٤-١١٠١م). وقد وزر له: «الأفضل ابن بدر الجمالى»، الذى عينه وزير المستنصر بعد موت بدر الجمالى، واستمر فى الوزارة بعد موت المستنصر.

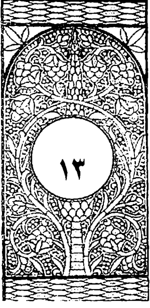
٢- الآمر بأحكام الله بن المستعلى (٤٩٥-٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٣٠م). وزر له: الأفضل بن بدر الجمالى حتى تم اغتياله سنة ٥١٥هـ، ثم وزر له: المأمون البطائحى ٥١٥-٥١٩هـ.

٣- الحافظ لدين الله بن محمد بن المستنصر (٥٢٤-٥٤٤هـ/ ١١٣٠-١١٤٩م). وزر له: «أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى» من سنة ٥٢٥هـ-٥٢٦ واغتيل وسُم يانس الأرمنى سنة ٥٢٦هـ. ثم وزر له ابناه الحسن وسليمان من سنة ٥٢٦هـ إلى ٥٢٨هـ. وانتخب الجند بهرام الأرمنى (النصرانى) من ٥٢٩ إلى ٥٣١هـ، ثم وزر له رضوان بن الولخشى سنة ٥٣١، وشُغِرَ منصب الوزير فى الدولة الفاطمية من ٥٣١ إلى ٥٤٤هـ.

٤- الظافر بن الحافظ (٥٤٤-٥٤٩هـ/ ١١٤٩-١١٥٤م). وزر له «سليمان بن محمد بن مصال»، وعلى بن السلار بين سنتى ٥٤٤-٥٤٨هـ ثم «العباس بن أبى الفتوح» ٥٤٨-٥٤٩هـ.

٥- الفائز بن الظافر (٥٤٩-٥٥٥هـ/ ١١٥٤-١١٦٠م). وزر له: طلائع بن رزيِّك طيلة عهده.

٦- العاضد لدين الله بن يوسف بن الحافظ لدين الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/ ١١٦٠-١١٧١م). وزر له: «رُزيِّك بن طلائع» (٥٥٥-٥٥٨هـ)، «وشاور بن مجير السعدى» ٥٥٨هـ و«ضرغام بن عامر اللخمى» (٥٥٨هـ) وقتل سنة ٥٥٩هـ، ثم تولى شاور مرة أخرى من سنة ٥٥٩هـ إلى سنة ٥٦٤، ثم «أسد الدين شيركوه»، ثم «صلاح الدين يوسف بن أيوب» سنة ٥٦٤هـ.



وقد تميز عصر ازدياد نفوذ الوزراء بسمات أهمها:

١- الصراع بين الفاطميين أنفسهم:

فقد أراد الوزير أحمد بن بدر الجمالى إقصاء نزار بن المستنصر بعد وفاة والده الخليفة المستنصر بالله سنة ٤٨٧هـ، ومبايعة أخيه الصغير الأمير أحمد المستعلى لأن أم أحمد المستعلى بنت بدر الجمالى وأخت الأفضل. وقد ساند نزار والى الإسكندرية «ناصرُ الدولة أفتكين»، وحاول الأفضل استمالة نزار ومؤيديه، إلا أنه فشل، وتقاتل الطرفان، وانتهى الصراع بهزيمة نزار وأفتكين، ومات نزار أسيراً بعد أيام قليلة. وترتب على هذا الصراع انقسام الفاطميين إلى مستعلية ونزارية. ولم يترك النزاريةُ المستعليةَ ينعمون بالأمن، فقتلوا الخليفة الآمر بن المستعلى سنة ٥٢٤هـ.

وقد ترك الخليفة الآمر بأحكام الله ولداً يسمى «الطيب»، وكانت زوجته - أى زوجة الآمر- حاملا. ولكن الحافظ لدين الله تولى الخلافةَ بعد الآمر - وهو ابن عم الخليفة - وتخلص من المولود الجديد، وانقسم الفاطميون ثانية بين: الحافظية والمستعلية مما زاد فى إضعاف الدولة الفاطمية.

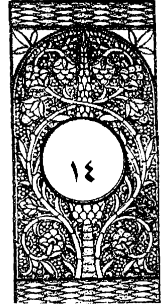
٢- تحكم الوزراء:

سيطر «بدرُ الجمالى» على أوضاع الدولة الفاطمية، فكان وزيراً وأميراً للجيوش، كما تولى أمر القضاء والدعوة، وعهد إلى ابنه الأفضل بالوزارة فى عهده. واستمر نفوذ الأفضل فى ازدياد. فكان له ما كان لأبيه من سلطات، حتى بلغ من نفوذه أن اختار المستعلى بن المستنصر للخلافة، وأبعد نزاراً. وبعد وفاة المستعلى سنة ٤٩٥هـ، وضع الآمر بن المستعلى فى الخلافة، وكان الآمر صغيراً - عمره وقتذاك خمس سنين- كما نقل الأفضل دواوين الدولة لبيته. واستغل الأفضل سلطته، فأضعف الدعاية الفاطمية بإبطال بعض الاحتفالات كالمولد النبوى، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما، كما أبطل احتفال بمولده (أى مولد الآمر) هو نفسه.

ولما بلغ الآمرُ سنَّ الرشد سعى إلى استرداد سلطته، فدبر مؤامرة لاغتيال الأفضل، وفعلا تم اغتياله بيد «محمد بن البطائحى» - أحد أتباعه- سنة ٥١٥هـ. واستوزر الآمر البطائحى ثم قتله سنة ٥١٩هـ.

وقد تسلط الوزراء على الخليفة الحافظ لدين الله، ومن هؤلاء الوزراء: «الأكمل أحمد بن الأفضل الجمالى»، الذى منع الخليفةَ من التصرف فى شؤون الدولة وحَبَسه، ولم يسمح لأحد بزيارته لمدة عامين.

كما أمر بحذف اسمه من الخطبة، واستولى على ما فى قصر الحافظ من الذخائر والأموال، وعمل على إضعاف المذهب الإسماعيلى وتقوية مذهب الإمامية، ولكن لم يتمتع أحمد بن الأفضل كثيراً بالسلطة إذ قتله يانس الأرمنى.



يانس الأرمنى: أساء السيرة، فقتل أحد خواص الخليفة، وقاضى القضاة وداعى الدعاة، فقتله الحافظ بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة.

بهرام الأرمنى: طمع بهرام فى منصب الوزارة، فأتى من الغربية وحاصر القاهرة، فولاه الحافظ الوزارة. وكان بهرام نصرانيا، ففتح أبواب مصر لنصارى الأرمن حتى بلغ عددهم ثلاثين ألفاً، واشتد جَوْرُهم وفسادهم، وصادروا أملاك المصريين. فاستغاث المصريون «برضوان بن ولخشى» والى الغربية، وفر بهرام من أمامه، وترك الوزارة.


قبة مسجد نور الدين زنكى بالشام

رضوان بن ولخشى: تلقب «بالسيد الأجل الملك الأفضل»، فكان أول من لُقِّبَ بالمِلكِ من وزراء مصر، واشتد فى معاملة الأرمن فقتل الكثير منهم، واستولى على أملاكهم، وهمَّ بخلع الخليفة الحافظ، فدبر الحافظ لقتله، وحدثت بينه وبين الخليفة معارك، قتل فيها سنة ٥٤٤هـ.

على بن السِّلار: تولى الوزارة للخليفة الظافر، وتخلص من الوزير بن مصال. وكان ابن السلار شافعى المذهب، فعمل على إرجاع المذهب السنى لمصر محل المذهب الإسماعيلى، فغضب عليه الخليفة، وقتله سنة ٥٤٨هـ.

طلائع بن رُزِّيك: استغاث به نساء قصر الخليفة الظافر لمقتله، فتقدم طلائع نحو القاهرة -وكان يشغل منصب والى الأشمونين- وتولى الوزارة، وتلقب «بالملك الصالح»، واستبد بالأمور، وعندما توفى الفائز سنة ٥٥٥هـ، اختار طلائعُ ابنَ عمه «العاضد لدين الله» لصغر سنه. وأظهر طلائعُ مذهبَ الإمامية، وعمل على إحلاله محل مذهب الإسماعيلية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فأرغم الخليفةَ العاضد على الزواج من ابنته «فيجتمع لبنى رُزِّيك الخلافةَ مع الملك».

٣- ضعف الدعاية للمذهب الإسماعيلى:

لقد كان من سمات عصر نفوذ الوزراء، إضعاف بعض الوزراءِ الدعايةَ لمذهب الإسماعيلية. إذ كان الوزير الأفضل بن بدر الجمالى سنيا، فأغلق دار الحكمة منبر الدعوة الشيعية، وأبطل الموالد المذهبية، ولم يسمح بسب السلف. وعندما تولى أحمد بن الأفضل الوزارة عمل على إلغاء الدعوة



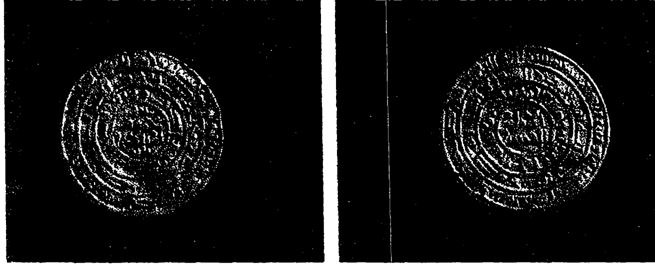
الإسماعيلية، وقطع خطبة الخليفة الفـاطمى، ومنع صيغة الأذان الشيعى. كما كان رضوان بن ولخشى سنيـا شافعيـا، فأعطى الفرصة لأهل السنة لدراسـة مذهبهم، وبنى لهم مدرسة فى الإسكندرية، وكذلك ابن السلار الكردى كان سنيا أيضا.

٤- محاولة بعض الخلفاء الفاطميين استعادة السلطة:

حاول بعض الخلفاء الفاطميين استعادة سلـطتهم مثلما فعل الخليفتان: الآمر والحافظ. ولكن هذه المحاولات انتهت بالفشل، وعاد نفوذ الوزراء.

زوال الدولة الفاطمية (٥٦٧هـ/١١٧١م):

أدى التنافسُ على الوزارة إلى استـعانة بعض الطامعين فـيها بأمراء الدول المجـاورة. فانفرد شاور -والى الصـعيد- بالسلطـة بعد تخلصه من الوزير العـادل بن طلائع بن رزيك سنة ٥٥٨هـ. فثار عليه ضرغام - أحد قواد الجيش- ففر شاور إلى الشام، وطلب من نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى أن يساعده فـى استعادة منصب الوزارة مقـابل ثلث خراج مصر، والتصـرف فى مصر بأمر من نور الدين. وقـد تردد نور الدين أولا فى مساعـدة شاور، ولكنه خشىَ أن تقع مـصر فى قبضة الصليبيين، فأرسل حملة بقيادة «أسد الدين شيركوه»، أعادت الوزارة لشاور سنة ٥٥٩هـ.



عُملة محمود بن زنكى ضرب - القاهرة - فى عهد الوزير صلاح الدين الأيوبى ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م

لكن شاور لم يف بـعهوده مع نور الدين مـحمود، بل راسـل أملريك (أمورى Amalric) ملك بيت المقدس، الذى بعث له جيشا، أرغم حملة أسـد الدين شيركوه على الانسحاب. وعاود نور الدين محـمود التدخل فى شـؤون مصر، فأرسل حـملة ثانية سنة ٥٦٢هـ بقيـادة أسد الدين شيركوه. وابن أخيه «صلاح الدين». فاستعان شاور بالفرنجة مرة ثانية، وتقابل الفريقان فى معركة البابَيْن (قرب المنيـا) التى انتصر فيهـا أسد الدين شيركوه، وسار إلـى الإسكندرية ودخلها، وعين أخيه صلاح الدين والياً عليها. إلا أن قوات الفرنجة حاصرت الإسكندرية براً وبحراً، وانتهى الأمر بالصلح بين صلاح الدين والفرنجة على أن يترك كلٌّ من الفرنجة وجندُ الشام مصرَ.



ولكن لم تغادر جـميع قوات الفرنجـة مصر، بل اتفـقت مع شاور على أن يكون لهم بالقاهرة شِـحْنَةً (صليبيـة) وتكون أبواب القاهرة بيد فـرسانهم، ويكون لهم مائة ألف دينار سنوياً. وطمع الفـرنجة فى مصر، فـخرج أملريك سنة ٥٦٤هـ على رأس حملة للاسـتيلاء عليها، ممـا اضطر شاور إلى إخلاء الفسطاط وحـرقها حتى لا يأوى إليها الصليبيون.

وقد استنجـد الخليفة الفاطمى العـاضد لدين الله بنور الدين محمـود، كما أرسل إليه شاور كذلك، وتعـهد له الخليفة بثلث خراج مصر، وأن يقيم عنده أسـد الدين شيركوه وجنده، وأن يقطعهم الخليفة إقطاعاً خارج ثلث الخراج.

وفعلا خرجت الحـملة الثالثة بقيادة أسد الـدين شيركوه ومعه ابن أخيـه صلاح الدين نحو مصـر. وما إن وصلت الحملة إلى مـصر حتى انضم إليـها المصريون، فـانسحب الصليبـيون إلى فلسطين، ودخل شيركوه مـصر سنة ٥٦٤هـ، فاتخذه الخليفةُ العاضـدُ وزيراً ولقبَّه «بالملك المنصور أميـر الجيوش»، وأوصـاه بالإحسـان للرعية بقـوله: «والرعايا قـد علمْتَ ما نالهم من إجـحاف الجبايات وإسراف الجنايات، وما توالى عليهم من ضـروب النكايات، فأعمُر أوطانهم التى أخربها الجَوْر والأذى».

وقبض شيـركوه على زمام الأمور، ووزع الإقطاعـات على عساكره، وأعـاد أهل الفسطاط إليها. لكن شيـركوه توفى بعد شهرين من ولايته، فولى العـاضدُ الفاطمى صلاحَ الدين الوزارة. وعمل صلاح الدين على إسقاط الخلافة الفاطمية فقام بالخطوات التالية:

* انفرد صلاح الدين بأمور الدولة، واستمال قلوب الرعية ببذل الأموال.

* أقطع أصحابه البلاد، وأسند إليهم المناصب، ومنع الخليفةَ العاضد من التصرف.

* قضى صلاح الدين على المؤامرات والفتن التى دبرها رجـال القصر الفاطمى، الذين كان يتزعمـهم جوهر مؤتمن الخلافة. ولكن مـؤتمن الخلافة اغتيل من أصـحابه أواخر سنة ٥٦٤هـ. ثم قامت ثورةُ جند الخليفة -وأكثرهم من السودان- وكانوا يزيدون على خمسين ألفاً، ومع هذا قضى صلاح الدين على ثورتهم وتتبع فلولهم فى الصعيد.

* أفشل صلاح الدين الحملةَ الصليبية التى قـام بها ملكُ بيت المقدس ومانويل (عما نويل) إمبراطور بيزنطة. فعندما وصلت الحملة إلى دمياط أرسل صلاح الدين جنده بقيادة ابن أخيه «تقى الدين عمر» وخاله شهاب الدين. وظل صلاح الدين فى القاهرة خشية المؤامرات من رجال القصر الفاطمى، وطلب المدد من نور الدين محـمود، فأرسل له الإمدادات. كما أعان الخـليفةُ الفاطمى



العاضـد صلاحَ الدين، «فأرسل له مدة مـقام الفرنج على دمـياط ألف ألف دينار (مليون دينار)، سوى ما أرسله من الثياب وغـيرها» وكل هذا مما أجبر الفرنجة على الانسحاب من دمياط بعد هزيمة قاسية لحقت بهم.

* دعم صلاح الدين مركـزه باستدعاء أهله وأقاربه. فـأسند إليهم المناصبَ المهمة، بأن جعل أباه على بيت المال، وأقطع إخوته بعض الأراضى.

* قضى صلاح الدين على شعائر الفاطميـين. فأبطل صيغة الأذان الشيعى «حى على خير العمل» سنة ٥٦٥هـ، وأعلـن المذهبَ السنى مذهبا رسميا، وعزل قضـاةَ الشيعة، وأنشأ مـدرسةً لتدريس المذهـب الشافعى، وأخـرى لتدريس المذهب المالكى، وأسند القـضاء إلى قاضى القضاة «صدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى».

* ألغى علامات الفاطميين، وقطع اللونَ الأبيض شعارَهم، وأوقف ضرب السكة باسمهم.

* وفى أول المحرم سنة ٥٦٧هـ أسقط صلاح الدين اسمَ الخليفةَ الفاطمىَّ من الخطبة، ودعا للخليـفة العـباسى «المسـتـضىء بنور الله». وتوفى العاضـد بعـد ذلك بأيام قليلة، دون أن يدرى بسقوط دولة الفـواطم. وهكذا سقطت الدولة الفاطمية، وأصبح حكم مـصر فى يد صلاح الدين الأيوبى، لتبدأ بذلك حقبةٌ جديدةٌ من حقب تاريخ مـصر الإسلامية، وهى الحقبة الأيوبية (٥٦٧-٦٥٠هـ).



الفصل الثالث
السياسة الخارجية للدولة

احتلت الدولة الفاطمية فى مصر مكانا وسطا بين الجناحين الآسيوى والأفريقى للعالم الإسلامى، وأتاح لها هذا الموقع نشاطا فى العلاقات الخارجية مع القوى الإسلامية فى البلدان الإسلامية، فضلاً عن القوى الأوروبية المسيحية المطلة على حوض البحر المتوسط، وأتى زمن كانت الدولة الفاطمية هى القوة الإسلامية الكبرى فى حوض البحر المتوسط.

وفيما يلى عرض موجز لعلاقة الفاطميين مع كل من القوى الإسلامية والأوروبية المعاصرة:

أولاً: العلاقة مع القوى الإسلامية:

١- علاقة الفاطميين بشبه الجزيرة العربية:

حظيت بلاد الحجاز بأهمية كبرى عند المسلمين، فتطلع الحكام والخلفاء إلى بسط حمايتهم عليها رغبة فى الظهور أمام المسلمين فى صورة حماة الحرمين الشريفَيْن؛ لذلك سعى الخلفاء الفاطميون ليكون لهم نفوذ على بلاد الحجاز، وذلك بالتقرب إلى أمراء الحجاز آنذاك. وأصلح المعز لدين الله الفاطمى - وهو فى بلاد المغرب- سنة ٣٤٨هـ بين بنى الحسن وبنى جعفر بن أبى طالب، ودفع دية قتلى بنى الحسن، فكسب بذلك ولاءهم.

وعندما استقر الفاطميون فى مصر، دعا لهم أمراءُ مكة المكرمة والمدينة المنورة على المنابر بدلاً من الخليفة العباسى. وذلك لأن مصر كانت أكثر قربا واتصالا بالحجاز من بغداد، وإن تطلب ضمان الاحتفاظ بالنفوذ الفاطمى جهداً كبيراً للتنافس الداخلى الذى كان بين أمراء الحجاز، هذا بالإضافة إلى كثرة مشاغل الدولة الفاطمية؛ ولهذا تزعزع النفوذ الفاطمى فى الحجاز، فقُطِعَتْ الخطبةُ فى عهد العزيز بالله مرتين: الأولى سنة ٣٦٧هـ وأعادها باديس بن زيرى بن مناد الصنهاجى. والثانية سنة ٣٨٠هـ ثم أعيدت مرة أخرى.

وقد استقل أمير مكة «الحسنُ بن جعفر» بمكة، وطلب الخلافة لنفسه، وتلقب بالراشد بالله، وبايعه أهلُ الشام. ولكن الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ) قضى على هذه الحركة وأعاد الأمير الحسن إلى طاعته.



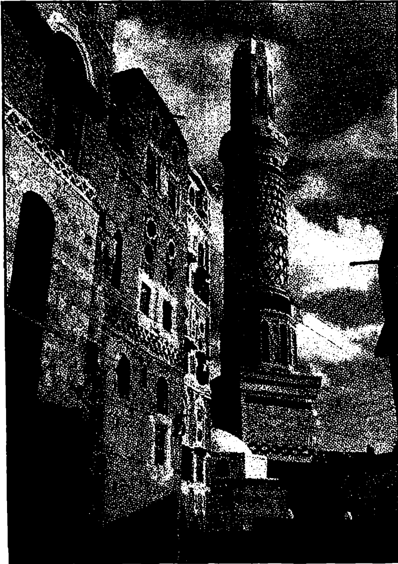
وفى سنة ٤٥٤هـ استولى محمد بن جعفر (رئيس الهواشم) على إمارة مكة، وخطب لبنى العباس سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م. وعندئذ قطع المستنصر بالله الميرةَ والغلال المرسلة من مصر للحجاز. فاضطر أمير مكة إلى إعادة الخطبة للمستنصر بالله الفاطمى. فلما بذل الخليفة العباسى الأموال لأمير مكة خطب له سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م فى موسم الحج فقط. ثم خَطَبَ للسلطان السلجوقى ألب أرسلان سنة ٤٦٣هـ. وهكذا لم يتمتع الفاطميون بنفوذ دائم فى بلاد الحجاز.



الحجر الأسود الذى سرقه القرامطة

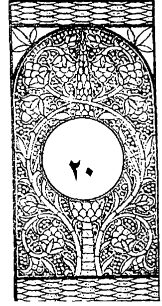
وقد ارتبط الفاطميون بعلاقة واضحة مع القرامطة - وهم جماعة دعوا إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، ونُسِبوا إلى حمدان بن الأشعث «قرمط» - وانتصر القرامطة على الجيوش التى أرسلها الخليفة العباسى المعتضد، وسيطروا على إقليم البحرين.

وترجع أسباب العلاقة المتقاربة بين الفاطميين والقرامطة إلى رابطة المذهب الشيعى من ناحية، والعداء للخلافة العباسية من ناحية أخرى. وقد ظهرت هذه العلاقة بين الطرفين عندما أرسل عبيد الله المهدى الفاطمى من المغرب كتابا لأبى طاهر سليمان الجنابى يؤيد توليته إمرة القرامطة. ثم أرسل عبيد الله المهدى سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م رسالة أخرى إلى أبى طاهر يطلب منه فيها المساعدة فى فتح مصر، ولكن المحاولة فشلت قبل مساعدة أبى طاهر الجنابى القرمطى.



مسجد صلاح الدين الأيوبى - فى اليمن - صنعاء

لكن العلاقة الطيبة بين الفاطميين والقرامطة تغيرت إلى الجفاء بعدما هاجم القرامطةُ مكةَ والمسجدَ الحرام، وقتلوا، وسرقوا الحجر الأسود سنة ٣١٧هـ/ ٩٣٠م. فأرسل الخليفة عبيد الله المهدى إلى أبى طاهر الجنابى يلعنه، مما جعل القرامطة يتجهون للخلافة العباسية طالبين مساعدتها لغزو أراضى الفاطميين فى كل من الشام ومصر. ولكن لم يلبث القرامطة أن ضعفوا وافترق أمرهم وتلاشت دعوتهم.



٢- العلاقة مع اليمن:

كانت اليمن مركزاً أساسيا للشيعة عامة، وللفاطميين بصفة خاصة. واختارها الإسماعيليةُ مسرحا لنشاطهم، فأرسل «محمدٌ الحبيبُ» إمامُ الإسماعيلية بسلمية دعاةً إلى اليمن. فقصدها سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م اثنان من الدعاة هما: «على ابن الفضل اليمانى القرمطى»، «وأبو القاسم رستم بن الحسين بن حوشب الكوفى»، وحاول دعاةُ الإسماعيليةُ جذبَ المهدىِّ لليمن، لكنه فضَّل المغرب لقربه من قلب العالم الإسلامى.

وظل دعاة الإسماعيلية فى اليمن على ولائهم للفاطميين فى المغرب. فأوصى «ابن حوشب» عند وفاته كلا من ابنه «أبى الحسن» وتابعه «عبد الله بن العباس الشاورى» بالاستمرار فى إقامة الدعوة للخليفة الفاطمى وآل بيته. فلما اتخذ الإسماعيلية «ابنَ رجيم» رئيسا لهم استمر فى طاعته للمعز لدين الله الفاطمى، وعندما شعر بدنو أجله أوصى أتباعه باستخلاف «يوسف بن الأسد».

وقد خلَف يوسف بن الأسد داعٍ نشيط يدعى «عامر بن عبد الله الرواحى»، الذى استغل ماله ونفوذه فى نشر الدعوة الفاطمية. فظل يدعو للفاطميين فى عهود الحاكم بأمر الله والظاهر لإعزاز دين الله وأوائل عهد المستنصر بالله. ثم استخلف الرواحىُّ «علىَّ بن محمد الصليحى»، وكان دليلا لحاج اليمن عدة سنوات. وبسط الصليحى سيطرته على معظم اليمن، وقضى على مناوئيه سنة ٤٥٣هـ، واستأذن المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧-٤٨٧هـ) فى إظهار دعوته، وبعث له هدية ثمينة، فقبل المستنصر بالله الهديّةَ وعهد إليه بالولاية، فاتخذ على بن محمد الصليحى صنعاءَ حاضرة له، وحكم اليمن نائبا عن الخليفة الفاطمى، ولقَّبه المستنصر بالله «بعمدة الخلافة»، وأوكل إليه مهمة إعادة نفوذ الفاطميين على مكة سنة ٤٥٦هـ.

وقد استمرت العلاقة قوية فى عهد «المكرم أحمد بن على بن محمد الصيلحى» (٤٥٩-٤٨٤هـ)، الذى أشرك زوجته «أروى الحرة» بنت أحمد الصيلحى معه فى الحكم والدعوة الفاطمية. وكانت أروى على قدر كبير من الأخلاق والثقافة. وأرسلت خطابا للخليفة المستنصر بالله ترجوه الموافقة على تعيين ابنها «عبدَ المستنصر» بن المكرم أحمد بن على بن محمد الصليحى علىَ اليمن بعد وفاة والده (٤٨٤هـ). فأقر الخليفة الفاطمى تعيينه خلفا لوالده وعهد إليها القيام بأمره حيث كان لا يزال طفلا.

وقد ظلت السيدة «أروى» على ولائها للخليفة المستعلى بالله ابن المستنصر بالله، وانحاز الصليحيون إلى المستعلية ورفضوا النزارية. واستمر ذلك الولاء قائما فى عهد الخليفة الآمر بأحكام



الله، وأيدت إمامة ابنه «أبى القاسم الطيب»، ورفضت إمامة الخليفة الحافظ لدين الله. فاستعان الحافظ بآل زُرَيِّع بعدن لبَثِّ دعوته، وبسطوا سلطتهم على قلاع الصليحيين، واستمروا على ولائهم للفاطميين حتى زوال ملكهم سنة ٥٦٠هـ. ثم بسط صلاح الدين الأيوبى سلطته على اليمن ابتداء من سنة ٥٦٩هـ، أى بعد زوال دولة الفواطم من مصر والشام بعامين.

٣- علاقة الفاطميين ببلاد الشام:

تعد الشام الباب الشرقى المُوَصِّلِ لمصر، وما قامت دولة قوية فى مصر، إلا وتطلعت إلى السيطرة على الشام لتأمين حدود مصر الشرقية. لذلك، فعندما أخذت الدولةُ الفاطمية مصر من الإخشيديين سنة ٣٥٨هـ عملت على ضم الشام كذلك. لأن الشام يمثل حلقة الاتصال بينهم وبين الخلافة العباسية فى العراق. ولم تغب هذه الاعتبارات عن القائد جوهر الصقلى، فأرسل قائده المغربى «جعفرَ بن فَلاَحِ الكتامى» إلى الشام، فلم يستطع بقايا البيت الإخشيدى الصمود أمام الجيش الفاطمى، وانهزم «الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد» عند الرملة سنة ٣٥٩هـ، ودخل الجيشُ الفاطمىُّ دمشقَ.

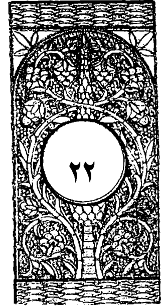
وقد تعرض النفوذ الفاطمى لخطريْنِ هما: الحمدانيون، والقرامطة. أما الحمدانيون فكانت لهم إمارة كبيرة فى شمال الشام، ولم يستريحوا لامتداد النفوذ الفاطمى إلى الشام، فاستعان الفاطميون عليهم بالقرامطة والبيزنطيين.

واستغل الحمدانيون دخول أفتكين التركى بلاد الشام فأمدوه بالمعونة والجند، ودخل دمشق سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٥م، فأرسل العزيز بالله حملةً بقيادة جوهر الصقلى إلى الشام سنة ٣٦٥هـ، فاستنجد أفتكين «بالحسن بن أحمد» زعيمَ القرامطة بالبحرين، فانسحب جوهر الصقلى من حصار دمشق، وسار نحو عسقلان، مما اضطره إلى طلب الصلح مع أفتكين، وتم الصلح فعلا بشروط مهينة للدولة الفاطمية. ولم يقبل الخليفة العزيز بالله بهذا الوضع، فخرج بنفسه على رأس حملة إلى الشام أُسِرَ فيها أفتكين، وتعهد بدفع مبلغ عشرين ألف دينار سنويا للقرامطة.

وساعد الفاطميون بكجور التركى عندما خرج على سيده «سعد الدولة الحمدانى» (٣٥٦-٣٨١هـ)، وأوشك بكجور أن يستولى على حلب لولا استنجاد سعد الدولة الحمدانى بالروم.

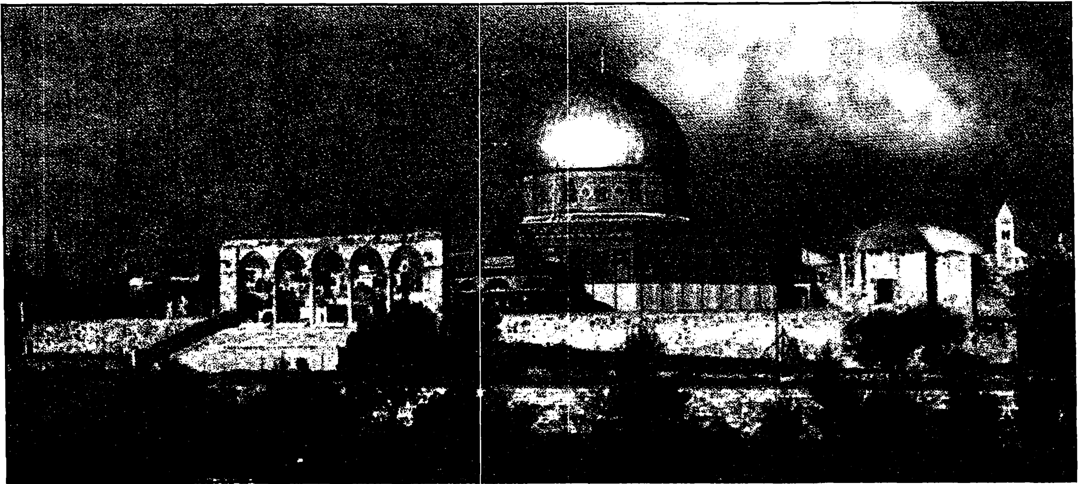
وأسند العزيز بالله الفاطمى ولاية الشام إلى منجوتكين التركى وعهد إليه فتح حلب سنة ٣٨٣هـ، فاستنجد سعيد الدولة الحمدانى (٣٨١-٣٩٢هـ) بالإمبراطور البيزنطى باسيل الثانى.

على أن انقسام البيت الحمدانى وضعفه مكَّن الفاطميين من السيطرة على شمال الشام. وذلك أن لؤلؤاً - مولى سعيد الدولة- خان سيده وأرسل ولديه وسائر أبناء البيت الحمدانى للقاهرة.



وأوشكت بلاد الشام أن تدين كلها للفاطميين، لولا ظهور المرداسيين بقيادة صالح بن مرداس، الذى استولى على حلب واستمر يحكمها حتى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م، ثم استردها الخليفة المستنصر بالله الفاطمى سنة ٤٤٠هـ.

ثم ظهرت قوة سياسية جديدة فى بلاد الشام وهم الأتراك السلاچقة. حيث وجه «ملكشاهُ» أحدَ رجاله وهو «أتسز التركمانى» للاستيلاء على بلاد الشام. فاستولى على الرملة وبيت المقدس ودمشق سنة ٤٦٧هـ. ثم آلت الشام إلى حكم أسرة «تاج الدولة تُتش بن ألب أرسلان». وأثناء هذه الفوضى السياسية والاضطرابات ظهر الصليبيون فى شمال الشام فقوّضوا نفوذ كل من الفاطميين والسلاچقة معاً.



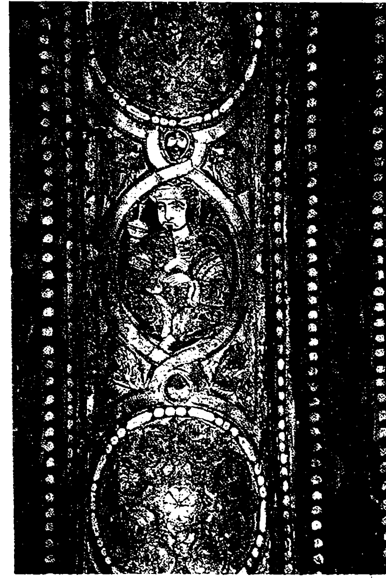
بيت المقدس - تبدو فيه قبة الصخرة

٤- علاقة الفاطميين بكل من الأندلس والمغرب وجزيرة صقلية:

ظهر التنافس الحاد برا وبحرا بين الفاطميين فى شمال إفريقية والأمويين فى الأندلس، بحكم ما بين القوتين من اختلاف مذهبى وصراع سياسى وتاريخى وتقارب جغرافى. ففى البحر بنى الفاطميون قوة بحرية مدت نشاطها إلى جزيرة صقلية، وكورسيكا، وسردينية، وهددت شواطئ إيطاليا وفرنسا. كما اهتم عبد الرحمن الثالث (الناصر) فى الأندلس (٣٠٠-٣٥٠هـ) بالأسطول، فبنى مائتى سفينة، واعتبر النصف الغربى من حوض البحر المتوسط منطقة نفوذ له.

وقد اعتنى الخليفة عبدُ الرحمن الناصر حاكمُ الأندلس بالمغربين الأوسط والأقصى لقربهما من بلاد الأندلس. فاتخذ الناصر سياسة الملاينة مع القبائل الزناتية المتحالفة معه. كما خضع



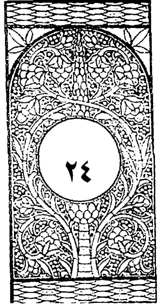


رسم بأسلوب فاطمى وجد فى جزيرة صقلية – باليرمو – كنيسة بلاتينا ١١٤٠م

للناصر «بنو برزال» الإباضية. فحاول المهدىُّ الشيعىُّ تحصين منطقة وهران، لكن «الخير بن خزَر المغراوى» طرد الشيعة من وهران، وبذلك لم يعد للفاطميين مكان فى الساحل عدا تاهرت. وكتب محمد بن خزر الزناتى للناصر الأندلسى سنة ٣٢٠هـ يريد حصار تاهرت لأهميتها، حيث يريد أن يصل إلى شلف الواقعة مدينة غرب تاهرت.

أما المغرب الأقصى فى هذه الفترة فكان تحت حكم الأدارسة الذين انقسموا إلى ثلاثة فروع: بنى محمد، وبنو عمرو، وبنى سليمان. ورغم مكاتبة بنى سليمان للناصر والأندلس، إلا أنهم لم ينضَوُوا حقيقة تحت نفوذ أىٍّ من

مسجد قرطبة – الأندلس



الأمويين بالأندلس أو الفاطميين بالمغرب. فرمى الناصرُ الأندلسى الأدارسةَ بموسى ابن أبى العافية الذى استولى على معظم المغرب الأقصى. فكان رد الفاطميين أن أرسلوا «حميد بن يصل المكناسى» صاحب تاهرت وابن أخيه مصالة بن حبوس، فهزما موسى بن أبى العافية فى البداية، فأمده الناصر بالإمدادات فهزم جند الفاطميين.

ولقد حاول «ميسورُ الفتى» القائدُ الفاطمى استعادة السيطرة على منطقة المغرب الأقصى. فقام بحملة سنة ٣٢٢هـ، لكنها لم تنجح بسبب ثورة أهل تاهرت على عاملها الفاطمى. فبقى الوضع تحت سيطرة أمويى الأندلس الذين ساعدهم ثورة «أبى يزيد مخلد بن كيداد»، حيث أعلن أبو يزيد خضوعه للأمويين. ثم دخل الأمويون تاهرت سنة ٣٣٣هـ. فكان رد فعل الفاطميين أن أرسلوا حملة كبيرة قادها القائد جوهر الصقلى، فأخضع البربر والمغربَيْن الأوسط والأقصى للفاطميين.

كما تدخل الأمويون فى عهد الحكم المستنصر الأموى فى شؤون المغرب تدخلا عسكريا مباشراً بقوات أندلسية، واستمر الصراع قائما بين الفاطميين فى المغرب والأمويين فى الأندلس للسيطرة على المغربَيْن الأوسط والأقصى.

وعندما قرر المعز لدين الله الفاطمى الانتقال لمصر أعطى ولاية المغرب «لبلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى». فاستمر بنوزيرى فى المغرب تابعين للفاطميين فى مصر. حيث دعوا للفاطميين فى الجوامع، وضربوا السكة باسمهم، وأرسلوا مبالغ مالية لهم. ثم أخذ بنوزيرى يستقلون بالمغرب، فأعلن «المعزُّ بن باديس بن زيرى» الخروج على طاعة الفاطميين ورفضه المذهب الإسماعيلى، والدخول فى طاعة الخليفة العباسى -(السنى المذهب)- سنة ٤٣٣هـ.

أما نفوذ الفاطميين على جزيرة صقلية، فكان أقصر عمراً منه فى شمال أفريقيا. فعندما آلت الجزيرة لسيطرة الفاطميين ولَّوْا عليها ولاةً من المغرب فثار عليهم المسلمون، واختاروا حاكما منهم سنة ٣٠٠هـ هو «أحمد بن قرعب»، الذى خلع طاعة الفاطميين، ودعا للخليفة المقتدر بالله العباسى (٢٩٥-٣٢٠هـ). لكن الفاطميين قضوا على حركة أحمد بن قرعب.

غير أن الأمور لم تستقر للفاطميين فى جزيرة صقلية، بسبب المنازعات التى قامت بين المسلمين بها من ناحية، وبين المسلمين والنصارى من ناحية أخرى. حيث استنجد نصارى الجزيرة بالإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع. واستمر الصراع بين المسلمين والبيزنطيين فى جزيرة صقلية



حتى أواخر القرن الخامس الهجرى. وانتهى بأن سيطر النورمان سنة ٤٨٤هـ عليها، وضيّقوا على المسلمين بها، فلم يترك لأحد من المسلمين حماماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ولا فرناً إلا خُرِّبَ.

ثانياً: العلاقات بين الدولة الفاطمية والقوى الأوروبية المسيحية المعاصرة لها فى حوض البحر المتوسط:

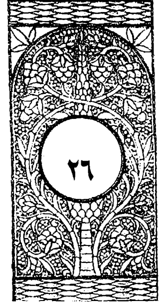
دعم الفاطميون أسطولهم البحرى، وقاموا بهجمات على شواطئ إيطاليا، وجنوب فرنسا، وجزر سردينيا، و كورسيكا وغيرها، وأصاب هذا النشاط مصالح بعض المدن الإيطالية مثل جنوه وبيزا بالتدهور الاقتصادى؛ إذ تحول طريق التجارة عن هذه المدن، وقُطِعتْ العلائقُ التجارية بين المدن الإيطالية والدولة البيزنطية آنذاك.

وبانتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر خفت قبضتها على شواطئ أوروبا المسيحية، وذلك لتحول مركز الثقل للأسطول الفاطمى إلى الحوض الشرقى من البحر المتوسط، مما أدى إلى انتعاش المدن الإيطالية مثل أمالفى، وجنوه، وبيزا، والبندقية وجايتا (gaeta). فأقامت هذه الجمهوريات (المدن) الإيطالية العلائق التجارية مع الدولة الفاطمية، وأرسلت بيزا (Pizza) سفيرها إلى مصر سنة ٥٤٩ هـ لإزالة بعض العوائق المعترضة لنشاط التجار الإيطاليين. كما أطلق الفاطميون سراح بعض البيازنة مقابل عدم مساعدة بيزا للصليبيين.

كذلك أقامت أمالفى (Amalfi) وجنوه (Genoa) والبندقية (Venice) علاقات طيبة مع الفاطميين مثلما فعلت بيزا. فكانت لهم جاليات تجارية بالإسكندرية، وعقدوا الاتفاقيات التجارية مع الفاطميين، مثل اتفاقية سنة ٤٥٥هـ بين مدينة أمالفى والفاطميين. كما حصل البنادقة أيضاً على امتيازات تجارية من الفاطميين.

أما الموقف بين الفاطميين والبيزنطيين فغلب عليه طابع الصدام والعداء. إذ تحارب الفاطميون والبيزنطيون فى جزيرة صقلية، وجنوب إيطاليا، والبحر الأدرياتى.

لكن الإمبراطورية البيزنطية تحولت فى القرن الرابع الهجرى من الدفاع إلى الهجوم. فخرج الإمبراطور البيزنطى يوحنا تزيمسكيس (الشمشق كما يرد فى المصادر العربية) سنة ٣٦٤هـ بحملة على بلاد الشام حتى وصل إلى بحيرة طبرية واصطدم مع الفاطميين، ورد الفاطميون على ذلك بحملة بحرية سنة ٣٧٧هـ ؛ لكنها فشلت مما عجل التصالح بين الطرفين.



لكن هذا الصلح لم يحل بين البيزنطيين وبين مساعدة أعداء الفاطميين. فساعدوا الحمدانيين فى حلب للوقوف أمام الفاطميين، وأعانوا صاحب صور (Tyre) عندما خلع طاعة الفاطميين. وازداد العداء فى عهد الحاكم بأمر الله؛ فسبَّب البيزنطيون كثيراً من المتاعب للفاطميين فى شمال الشام، حتى تصالحوا فى عهد المستنصر بالله سنة ٤٢٩هـ مقابل إصلاح كنيسة القيامة بالقدس، وإطلاق البيزنطيين سراح خمسة آلاف أسير مسلم.

وقد تحالف البيزنطيون مع الصليبيين فى الحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر وقدموا لهم المساعدات وشاركوا فى الهجمات على أملاك الدولة الفاطمية فى مصر والشام فى أواخر عمر هذه الدولة.



تُحفة برونزية على شكل عُقاب
- صناعة فاطمية - مصر ق٤ أو ٥هـ - ١٠ أو ١١م - فى مدينة بيزا الآن



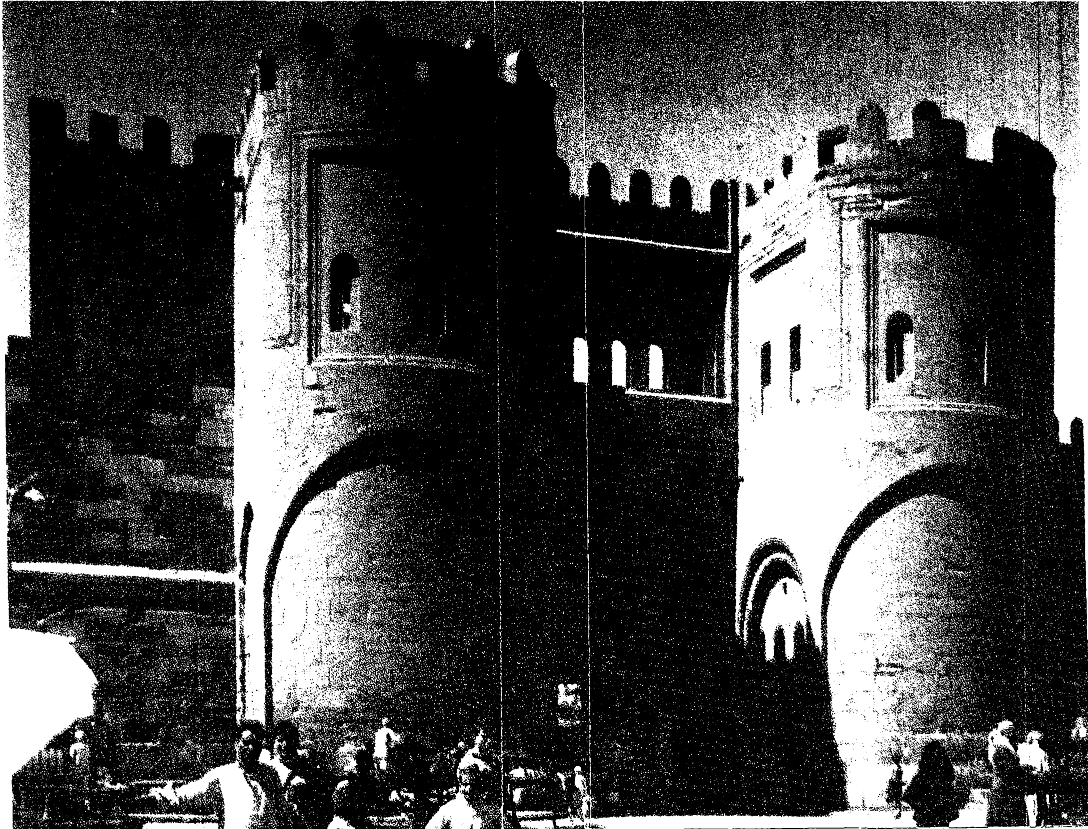
الفصل الرابع
(النظام الحربى فى الدولة الفاطمية)

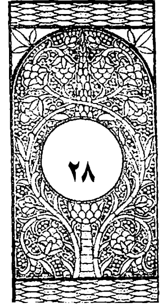
أولاً: الجيش:

من المسَلَّم به أن الجيش يحمل أعباء الطموحات الكبرى للقواد ومؤسسى الدولة. ولأن الدولة الفاطمية كانت ذات آمال عريضة فى نشر التشيع والسيطرة على العالم الإسلامى؛ لذلك حمل الجيش مهام إخماد الثورات والفتن، وتوسيع رقعة الدولة.

فقد حملت الدولة الفاطمية دعوة مذهبية تعارضت مع أهل السنة فى كل من بلاد المغرب ومصر، مما أوجد صداماً منذ البداية، وجعل أى تهاون فى تكوين جيش قوى ربما يؤدى إلى انهيار الدولة والأسرة الفاطمية؛ لذلك وقفت الدولة بحسم أمام أية حركة خارجة دون تهاون. وفيما يلى عرض موجز لتكوين الجيش الفاطمى ونظمه:

بوابة الفتوح – من البوابات الحربية لحماية القاهرة الفاطمية





١- عناصر الجيش الفاطمى:

تكون الجيش الفاطمى فى المغرب من قبائل متعددة منها: كِتامة، وعجيسة، ومُكْنَاسة، وصنهاجة، والمصامدة، وزويلة، بالإضافة إلى الروم والصقالبة. وهذه العناصر هى التى فتحت مصر ودخلتها تحت قيادة جوهر الصقلى، وكانت كثيرة العدد حتى لقد قيل: «لم يطأ الأرض (أرض مصر) من بعد جيش الإسكندر المقدونى أكثرُ عدداً من جيوش المعز لدين الله الفاطمى».

واتخذ العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ) خطوة مثلت تطوراً مهماً. ذلك أنه أدخل الديالمة والأتراك فى صفوف الجيش وجعلهم خاصته. وقد أدى هذا التنوع بين أجناس الجيش إلى التنافس والصراع. كما أكثر الحاكمُ بأمر الله من شراء العبيد، حتى بلغوا فى عهد المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ) خمسين ألفاً، ولا غرْو، فقد كانت والدة المستنصر أَمَةً تكره أن يسود الأتراك فى الدولة؛ ولذلك أكثرت من شراء العبيد.

وأنشئت فى مدينة القاهرة ثُكْنَاتُ أو حارات للجنود فى الدولة الفاطمية، ومن هذه الحارات:

* **حارة زويلة:** نزلت بها قبيلة زويلة المغربية، وبنى هؤلاء بَابَىْ زَوِيلَة، فأطلق على إحداهما «بوابة المتولى»، لأن متولى الحسبة كان يجلس فى مداخله.
* **حارة الباطلية:** وتأسست فى عهد الخليفة المعز لدين الله.
* **حارة الروم:** اختط حارة الرومُ الذين صحبوا «جوهر الصقلى» عند بناء القاهرة، وهدِّمَتْ فى عهد الحاكم بأمر الله، ثم أُعِيدَ بناؤها.
* **حارة كتامة:** وهى تنسب لقبيلة كتامة المغربية، وتجاور حارة الباطلية.
* **حارة البرقية:** تنسب لأهل برقة الذين صحبوا الخليفة المعز لدين الله.
* **حارة المصامدة:** تنسب لقبيلة المصامدة المغربية، وعرفوا ببنى موسى.
* **الحارة الوزيرية:** تنسب لطائفة من العسكر نسبة إلى الوزير «يعقوب بن يوسف بن كِلِّسْ»، وشكلوا حرساً خاصاً له.
* **حارة الديلم:** كانت موطنا للعساكر الديالمة الذين وفدوا على مصر مع «ألفتكين التركى».
* **حارة اليانسية:** سكنت بها جماعة ينسبون إلى أحدِ خُدَّامِ الخليفة العزيز بالله المسمى يانس الصقلى.



* **حارة برجوان:** نسبت للأستاذ أبى الفتوح البرجوان الخادم وزير الفاطميين فى عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ).

٢- مراتب رجال الجيش الفاطمى:

قُسِّم الجيش الفاطمى إلى ثلاث مراتب هى:

الأولى: مرتبة الأمراء، وتفرعوا لثلاثة أنواع:

١- الأمراء المطوَّقين: أى الذين يطوَّقون فى أعناقهم بالذهب.

٢- أمراء القضيب: الذين يخرجون من المواكب بقضيب من فضة.

٣- أدوان الأمراء: الذين لم يؤهلوا لحمل القضيب.

الثانية: خواص الخليفة أو حرسه الخاص، وهم ثلاثة أنواع:

١- طائفة صبيان الحجر، وهم أشبه بالحرس الجمهورى حاليا، وتتكون من الشباب والفتيان المتوافر فيهم صفات الشهامة والرجولة وحُسْنَ الخلق، وبلغوا خمسة آلاف نسمة.

٢- صبيان خاص: وهم أولاد الأمراء والعساكر وعبيد الدولة الذين يقومون بالخدمة الخاصة بالخليفة.

٣- الأساتذة: وهم فرقة من العبيد البيض والسود.

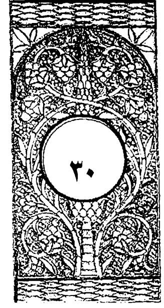
الثالثة: طوائف الأجناد: وتنسب كل طائفة إلى خليفة من الخلفاء كالحافظية والآمرية، أو تنسب لوزير كالوزيرية والجيوشية والأفضلية، أو تنسب لقبيلة أو عنصر كالمصامدة، والأتراك، والديلم، والروم، والفرنج، والصقالبة، والسودان.

أما أهم المناصب العسكرية فى الجيش الفاطمى فهى:

* **الاسهلارية**: وهو قائد الجيش أو المسئول عن كل الأجناد. وجميع الأَزِمَّة والقواد مسئولون أمامه عن عساكرهم، وهو المسئول عنهم أمام الخليفة. ولا يصل لهذه الرتبة العالية إلا مَنْ توفرت فيه الشجاعة والنجدة والجرأة والبأس وحسن التدبير.

* **زم الرجال**: يتولى هذه الوظيفة الأستاذون غير المحنكين. ووظيفته رعاية الطائفة التى يتولاها، ومباشرة أمورها، والتحدث عن طوائف الرجال والأجناد وتمثيلهم عند القيادة العسكرية العامة.

* **النقباء**: يعملون تحت رياسة زم تلك الطائفة، وينوبون عنه، ويعْلِموه بكل ما يتصل بمن تحت قيادتهم.



وقد تألف الجيش الفاطمى من فرسان ورَجَّالة. فكان على كل عشرة رجال عريف، وعلى كل عشرة عُرَفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير.



طبق خزفى يصور التحطيب فى مصر الفاطمية - القرن ٥هـ/ ١١م

ولم يفصل الفاطميون عن تدريبَ الجيش، وإلزام الجنود والقادة بالطاعة والنظام، ومعيشتهم فى جو عسكرى، مما يجعلهم فى حالة استعداد دائم. وتَدَّرب الجنود على لعب الكرة، وسباق الجرى، والتحطيب بالعصى، والفروسية، والوثب العالى، ورمى الجلة، والقرص، والرمح، والمصارعة، والسباحة، والمبارزة، وركوب الخيل، وغير ذلك مما هو شائع فى عَصْرِهم.

وقُسِّمَ الجيش الفاطمى إلى خمسة أقسام هى:

١- المقدمة: مهمتها أن تبدأ المناوشات وأغلبهم من الفرسان.

٢- القلب: وسط الجيش، وفيه قائد الجيش، وقد يكون فى المقدمة ليثير حماسة الجند.

٣- الميمنة: الكتائب يمين الجيش.

٤- الميسرة: الكتائب يسار الجيش.

٥- الساقة: مكانها خلف الجيش لتحميه من الوراء.



حارة الروم



٣- مهام الجيش الفاطمى:

قام الجيش الفاطمى بمهمتين كبيرتين هما: إخماد الثورات والفتن، وخلق الطاعة، ومهمة توسيع رقعة الدولة. وهذا عرض موجز لتلك المهمات:

أولاً: دور الجيش الفاطمى فى إخماد الثورات:

تعرضت الدولة الفاطمية فى المغرب لكثير من الثورات كان من أخطرها:

* ثورات الخوارج فى سجلماسة وتاهرت:

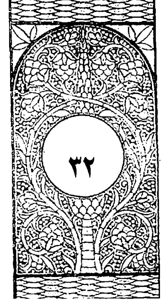
لم يستسلم الخوارج الصُّفَّرِية فى سجلماسة والإباضية فى تاهرت للسيطرة الشيعية. فثار أهل سجلماسة على الوالى الشيعى وقتلوه ومعه نحو ألفى فارس من كتامة. فتصدى الجيش الفاطمى لهم بقيادة مصالة بن حبوس، وأعاد سجلماسة للطاعة الفاطمية. ثم ثارت سجلماسة مرة أخرى فى عهد المعز لدين الله، فتصدى لها الجيش الفاطمى بقيادة جوهر الصقلى وأخمدها.

أما تاهرت فرفض سكانُها من زناتة حكمَ الفاطميين وثاروا على واليها «دواس بن صولات»، وقتلوا حاميتها المكونة من ألف جندى. فأعد عبيد الله المهدى (٢٩٦-٣٢٢هـ) جيشا حارب المدينة وقتل من أهلها ثمانية آلاف، واستمرت المناوشات بعد ذلك بين الفاطميين وزناتة، فتولاها أحد قواد الفاطميين ثم ثار عليه الزناتيةُ وطردوه.

وكانت فاس طيلة ما يقرب من قرن ونصف قرن ميدان صراع بين أنصار الأمويين فى الأندلس وأنصار الفاطميين فى إفريقية. فقام مصالة بن حبوس المكناسى قائدُ الفاطميين بحملات على فاس فى سنتى ٣٠٥هـ، و٣٠٨هـ، وتولى أمر فاس للفاطميين «ريحان بن على الكتامى».

مقابر قديمة بمدينة المهدية - من خلفها يبدو الساحل





كما قـضى الجيش الفاطمى على ثورة كتـامة التى اندلعت بسبب قتل عـبيد الله المهدى للداعيـة أبى عبد الله الشيعى. كما قـضى كذلك على ثورتين أخريين فى طرابلس والقـيروان، وحارب قـبيلتى هوّارة ونـفوسة. وكـانت ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد مـن أخطر الثورات وأطولها عمراً، حيث كلفت الجـيش كثيراً من الجهد، وأنفق للضعفاء عليها مالا عظيما.

ثانياً: الجيش الفاطمى وتوسيع رقعة الدولة:

كان فتح الفاطميين لمصر هو الهدف الكبير الـذى سعوا لتحقيقه، لأنه كان يعنى السيطرة - بعد ذلك - على كل من بلاد الحجـاز والشام، لارتباط هذين الإقليمين بمصـر، وكذلك الاقتراب من الدولة العباسيـة، ومحاولة القضاء عليها، والابتعاد عن المغـرب أرض الثورات الدائمة؛ ولهذا قرر الجيش الفـاطمى دخول مصر لتحقـيق الحلم الفاطمى التوسعى. فقـامت ثلاث حملات على مصر سنة ٣٠١هـ، وسنة ٣٠٧هـ، وسنة ٣٢١هـ، لكنها فشلت جميعا. ثم كانت الحملة الرابعة، التى توافـرت لها القـوات العسكرية والإمكـانات المادية، وقاد هذه الحـملة جوهر الصـقلى، وتم للفاطميين السيطرة على مصر سنة ٣٥٨هـ.

ثالثًا: الأسطول فى العصر الفاطمى:

اعتمد الفاطميون على الأسطول فى تكوين وتأكيد نفوذهم السياسى فى بلاد المغرب؛ ولذلك دخل الفاطميون فى صراع مع الأمويـين فى الأندلس، ومع السواحل الإيطالية المطلة على البحرين الأدرياتى والتيرانى. وأظهر الفاطميون تفوقاً فى ذلك المجال حتى «كانوا أعظم دول الإسلام اهتماماً بشؤون البحر بعد الأمويين»، حيث إن أسطولهم بلغ آنذاك درجة هائلة من القوة والانتظام.

وكان امـتداد السواحل المغـربية سـبباً فى تعـدد المراسى والقواعد الـبحرية. فـأهم مراسى إفريقية: تونس، وسوسة، والمهدية، وصفاقس، وقابس، وبونة، وطرابلس الغرب، وجيجل. أما أهم مراسى المغربَيْن الأوسط والأقصى فهى: بجـاية، ومرسى الدجاج، ومرسى فروخ، ووهران، وتنس، وسبـتة، ومليلة وآسـفى. فكان لهذا التـعدد فى القواعـد البحرية أكـبر الأثر فى التـفوق البحرى الفاطمى عسكريّا وتجاريّا.

وقد أقام الفاطمـيون دوراً لصناعة السفن. فأنشأ المهدى بالمهـدية داراً لصناعة السفن، تتسع لأكثر من مائة سفينة، وأصلحوا دور الصناعة القديمة مثل دار الصناعة بتونس التى كان قد أنشأها حسان بن النعمان بجهود أهل مصر، وكذلك دور الصناعة بكل من سوسة ومرسى الخزر.

ولم تكن بلاد المغرب تفتقر إلى المواد الخام اللازمة لصناعة السفن كالخشب لصناعة الألواح والصـوارى والمجـاديف والسـلالم، والحـديد لصناعـة المراسى والمسـامـيـر والخطاطيف والروابط والكلاليب والعـرادات والسلاسل، والأليـاف لعمل حـبال المراسى. كـما توافـر القطران والزفت



لقلفطة السفن حتى تقاوم أخشابُها مياه البحر. وجُلِبَ الخشب من جزيرة صقلية المعروفة بوفرة أجناس العود. كما وجدت الأخشاب فى أودية بجاية وجبالها وجزيرة قوصرة وغيرهما. أما الحديد فاستخرج من بونة ومجانة وبلاد كتامة والأربس وبجاية. وجلب الزفت والقطران من أقاليم بجاية وقوصرة.

واختلف عدد سفن الأسطول الفاطمى فى المغرب، فكان بكل قاعدة بحرية ما يكفى للدفاع عنها، وتختلف الأعداد فى كل قاعدة حسب سعتها وقدرتها، وعند الحاجة يخرج كل أسطول من قاعدته. يتضح من خلال الأحداث التى اشترك فيها الأسطول الفاطمى أن عدده كان كبيراً، فقد اشتركت مائتا قطعة للمساعدة فى محاولة دخول مصر سنة ٣٠٢هـ.

وقد شارك الأسطول الفاطمى المغربى فى الصراعات والأحداث، فكان من أهم ما شارك فيه:

أ- الصراع مع الأمويين بالأندلس:

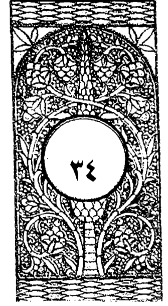
فحاول الفاطميون مساعدة ثورة عمر بن حفصون عن طريق الجزيرة الخضراء. لكن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى منع هذه المساعدة البحرية بمراقبة الجزيرة الخضراء وباقى السواحل الأندلسية. وعندما هاجمت إحدى سفن الاستطلاع الأموية سنة ٣٤٣هـ سفينةً فاطمية كانت فى طريقها إلى جزيرة صقلية، رد الفاطميون على ذلك بالإغارة على مدينة ألمرِيَّة الساحلية وأحرقوا ما بها من المراكب والخزائن، وانتهبوا جميع ذخائرها، وأخذوا الأمتعة.

ب- محاولة فتح مصر:

اشترك الأسطول الفاطمى فى محاولات فتح والسيطرة على مصر. ففى حملة سنة ٣٠٢هـ اشتركت نحو مائتا مركب من بقايا الأسطول الأغلبى، واحتل الإسكندرية دون مقاومة. كما اشترك الأسطول الفاطمى فى المحاولة الثانية سنة ٣٠٧هـ بمائة مركب، إلا أن الأحوال الجوية كانت غير مواتية: إذ هبت ريح عاتية ألقت بوحدات الأسطول الفاطمى للشاطئ، فاستسلم مَنْ فيه وأسرُ قائد الأسطول. ثم أعاد المهدى بناء الأسطول مرة أخرى، وتم الاستعانة بالأسطول بعد ذلك فى السيطرة على مصر فى حملة سنة ٣٥٨هـ.

ج-القضاء على الثورات المغربية:

ففى ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد حوصرت مدينة سوسة، فبعث الخليفةُ الفاطمى «المنصور» شونة بالمقاتلة والغذاء من المهدية إلى سوسة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن إسحاق قائد البحر، مما ساعد أهل سوسة على الصمود للحصار.



د - إخضاع السواحل الإيطالية:

تطلع المهدى الفاطمى إلى غزو إيطاليا، فقام بعدة غزوات منها: غزوة مسعود الفتى سنة ٣١٠هـ على إقليم قلوربة (Calabria)، وغزوة أبى أحمد جعفر سنة ٣١٣هـ على جنوب إيطاليا، وفتح مواضع كثيرة، وغزوة صابر الفتى سنة ٣١٥هـ على سواحل إيطاليا وغنم منها، وكذلك غزوته سنة ٣١٦ على أرض قلوربية مرة ثانية، وكان معه سالم بن راشد الكتامى.

وفى سنة ٣٢٣هـ تصارع الفاطميون مع البيزنطيين للسيطرة على البحر التيرانى. فهاجم الأسطول الفاطمى مدن جنوة و جزيرتى سردانية وقرشقة (كورسيكا) ودمَّر سفنها. ثم توقف نشاط الأسطول فى هذا الميدان من سِنة ٣٢٧هـ إلى ٣٣٧هـ بسبب ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد. وهاجم الأسطول الفاطمى سواحل إيطاليا سنة ٣٤٠هـ، وكان بقيادة الحسن بن على فى ٧٠٠٠ فارس، و ٣٥٠٠ راجل بخلاف البحريين. وزحف الأسطول على مدن: قلوربية وحراجة وياردة وقسانة وهزَم الأسطولَ البيزنطى، مما اضطر الإمبراطور البيزنطى إلى طلب الهدنة.

هـ- السيطرة على جزر البحر المتوسط المواجهة لسواحل إفريقية:

يمتد بين سيفى البحر المتوسط الشمالى والجنوبى من نصفه الغربى عدد كبير من الجزر. وقد كونّت هذه الجزر خطًا دفاعيًا أماميًا وقاهم هجمات الخصوم على السواحل الغربية للبحر المتوسط، وأعانهم على الغارة على الآخرين. فجزيرة صقلية لها أهميتها فى التفوق البحرى، لموقعها بين الساحل التونسى من جهة الجنوب الغربى، والساحل الجنوبى من شبه جزيرة قلوربية. وقد تمكن الفاطميون من السيطرة على معظم جزر البحر المتوسط مثل صقلية، وسردانية، وقرشقة (كورسيكا) ومالطة.



الإسكندرية لعبت دورًا تجاريًا وحربيًا هامًا على مر العصور

الأسطول الفاطمى فى الشام:

بعد استيلاء الفاطميين على مصر والشام فيما بين عامى ٣٥٨هـ، و٣٦٥هـ،



أصبحت سواحل كل من البحر الأحمر، والبحر المتوسط الشرقية من أنطاكية إلى غزة، والجنوبية من غزة شرقاً إلى مضب وادى ملوية بالمغرب الأوسط غربا تحت سيطرة الفاطميين؛ لذلك وجه المعز لدين الله عنايته لتدعيم الأسطول الفاطمى وتنظيمه، فنقل أسطوله من قواعده المغربية إلى الإسكندرية، ودمياط، وتنيس، وعسقلان، وطرابلس الشام، وصيدا، وصور، وبذلك أصبحت مصر والشام وحدة سياسية واحدة.

ويرجع اهتمام المعز لدين الله بالأسطول إلى الحاجة لمواجهة خطر القرامطة على كل من الشام ومصر، ولحماية سواحل دولته من غارات البيزنطيين، ونيته فى الدخول مع البيزنطيين فى صراعات جديدة. وقد بلغ عدد المراكب فى الأسطول الفاطمى فى خلافة المعز ما يزيد على ستمائة قطعة بحرية ما بين شوانى ومسطحات وبطس وقراقير وشلنديات ومراكب أخرى نيلية.

الصليبيين فى القدس



وقد أفرد الفاطميون للأسطول ديوانا عرف «بديوان الجهاد» أو «ديوان العمائر»، وكان مقره دار صناعة الإنشاء بمصر. ويختص هذا الديوان بإنشاء مراكب الأسطول، وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها، والنفقة على رؤساء المراكب ورجالها، وقد جُدد هذا الديوان فى وزارة رضوان بن ولخشى سنة ٥٣١هـ.

وكان بمصر فى العصر الفاطمى خمس دور لصناعة السفن بالإسكندرية، ودمياط، وجزيرة الروضة وساحل الفسطاط المعروفة بدار صناعة مصر. كما أنشأ المعز لدين الله دار الصناعة التى بالمقس، وجددها العزيز بالله وأضاف إليها.

ووفر الفاطميون الأخشاب الضرورية لصناعة السفن مثل أشجار السنط التى تنمو فى البهنساوية، وسفط ريشين، والأشمونين، والأسيوطية والإخميمية، والقوصية. وكانت الأخشاب تحفظ فى حواصل خاصة بآلات السفن. كما استوردت الدولة الفاطمية ما ينقصها من أخشاب من جزيرة صقلية وبلاد المغرب ومدينة البندقية.

ومن أهم الأحداث التى شارك فيها الأسطول الفاطمى ما يلى:

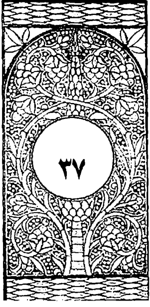
١- حرب القرامطة:

عندما استولى القرامطة على دمشق والرملة، ثم حاصروا يافا، سير جوهر الصقلى من مصر أسطولا مكونا من (١٥) سفينة تحمل الميرة والإمدادات للمحصورين. لكن القرامطة طوّقوا السفن واستولوا عليها سنة ٣٦١هـ، وحاصروا جوهر فى مصر. وفى هذه الأثناء وصل أسطول الفاطميين من المغرب واسترد مدينة يافا سنة ٣٦١هـ.

٢- إخماد الثورات فى مصر والشام:

قامت بعض الثورات فى مصر كثورة أهل تنيس، وثورة أهل الصعيد. فقد ثار أهل تنيس سنة ٣٦١هـ، ووثبوا على واليهم، لكن ابن عمار نجح فى القضاء على الثورة. أما ثورة أهل الصعيد فكانت بقيادة عبد العزيز بن إبراهيم الكلابى، فأرسل له جوهر عسكراً وأربعين مركبا فى النيل وقضى على ثورته وقُتِلَ الكلابى.

وكانت ثورة الملاح «المعروف بالعلاَّقة» فى مدينة صور سنة ٣٨٧هـ من أخطر الثورات. فاشترك الأسطول فى القضاء على هذه الثورة التى استنجدت بالأسطول البيزنطى، الذى هُزِم هزيمة قاسية. وتمكن الفاطميون من الظفر ببعض السفن البيزنطية، وحاصر الأسطولُ الفاطمى صور وأنزل الثوار وأَسَرَهُمْ، ثم قُتِلوا فى القاهرة.



٣- معارك الفاطميين البحرية مع البيزنطيين:

كان طبيعيًّا أن تواجه الدولةُ الفاطمية البيزنطيين بعد امتداد نفوذها إلى بلاد الشام. فعندما هاجم البيزنطيون السواحل الشامية وحاصروا مدينة طرابلس، اشتبكوا مع حامية المدينة يعاونها الأسطول الفاطمى، وهُزِمَ البيزنطيون هزيمة نكراء فرفعوا الحصار عن المدينة.

وفى بحر الإسكندرية وقعت سنة ٣٨٣هـ معركةٌ بحرية عنيفة بين الفاطميين والبيزنطيين، هُزِمَ فيها البيزنطيون وأُسر منهم سبعون رجلا، وأُرغم الأسطول البيزنطى على الفرار، فطارده الأسطول المصرى الفاطمى، وعادوا ومعهم مائة أسير بيزنطى. كما خرج الأسطول الفاطمى سنة ٣٨٦هـ لغزو البيزنطيين ورجعوا ومعهم مائتان وعشرون أسيراً أيضاً.

وعندما حاصر البيزنطيون مدينة طرابلس الشام سنة ٣٨٩هـ براً وبحراً، تحرك الأسطولُ الفاطمى من مصر، وهزم الأسطولَ البيزنطىَّ ورفع الحصار عن المدينة.

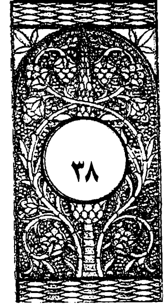
تقلص النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام:

أصاب الأسطولَ الفاطمى الضعفُ منذ خلافة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١-٤٢٧هـ). فأسس بنو مرداس إمارة فى حلب، واقتطع السلاجقةُ عدداً من مدن الشام، ومع ذلك احتفظ الفاطميون بالمدن الساحلية. ولما ضعفت الخلافة الفاطمية نتيجة الشدة المستنصرية (٤٤٧-٤٥٤هـ)، أعلنت طرابلس استقلالها سنة ٤٦٢هـ على يد القاضى ابن عمار. كما استقل بمدينة صور القاضى ابن أبى عقيل، ولم يبق للفاطميين إلا عكا وصيدا.

وقد حاول بدر الجمالى استرجاع السيطرة الفاطمية على السواحل الشامية إلا أنه فشل، ولم تأت سنة ٤٨٠هـ إلا وقد فقدت الدولة الفاطمية سلطانها على سواحل الشام مثل صيدا وعكا وطرابلس وعرقة وجبيل وبيروت، ولم يبق للفاطميين إلا عسقلان.

وفى هذه الأثناء ظهر خطر الصليبيين، وتمكنوا من الاستيلاء على أنطاكية ومعرة النعمان وكفر طاب وحصن الأكراد، كما حاصروا طرابلس وصيدا وصور وعكا. فلم يتحرك الفاطميون إلا بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وارتكاب المذابح به. فتحرك الأفضل بن بدر الجمالى فى عشرين ألفاً لحرب الصليبيين، وانتظر وصول الأسطول الفاطمى فانهزم العسكر المصرى، ثم عاد الجيش الفاطمى المصرى بعد أن هزم الصليبيين واسترد الرملة.

ثم شُغل الأفضل عن حرب الصليبيين، فاستولوا على المدن الساحلية الشامية. إذ سقطت حَيْفا وأُرسوف وقيسارية سنة ٤٩٤هـ، وطرسوس سنة ٤٩٥هـ، وعكا سنة ٤٩٧هـ، وطرابلس وجَبْلة سنة ٥٠٢هـ، وبيروت وجبيل وبانياس سنة ٥٠٣هـ، وصَيْدا سنة ٥٠٤هـ. أما عسقلان فظلت تجاهد حتى سقطت فى يد الفرنج سنة ٥٤٨هـ.



الفصل الخامس
الدعوة للمذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى

أولاً: الدعوة فى المغرب:

كانت بلاد المغـرب فى التنظيم السرى تابعـة لابن حوشب الذى انتـدب رجُلَيْن من الدعاة لنشر التشيع بها، وهما: الحسن بن القاسم السفيانى، وعبد الله بن على بن أحمد الحلوانى. وقد نزل السفيانى مـدينة «تادلة»، بالقرب من مرماجنة فى الشمـال الغربى من نواحى تونس. وكانت مرماجنة محطة تجارية تصل بين بلاد الجريد بالجهات الشمالية فى إفريقية، ويقصد إليها التجار لسد احتيـاجاتهم من الغلال، مما سهل نشـر الدعوات والأفكار المذهبية. فبنـى السفيانى بها مـسجداً، واشتُهِرَ ذكرُه هناك فأتاه الناس يسمعون منه، فتشيع بعض أهل مرماجنة ونفطة والأربس.

وسلك الداعى الثانى «الحلوانى» سلوك صاحبه، فاختار مكانا مرتفعا يسمى «الناظور» - بالقرب من قبيلة كتامـة- وبنى مسجداً وجلس فيه للعلم والعبادة، فانتشر خـبره، وتشيع كثير من أهل كتامة ونفزة وسماتة.

وكان هذا العـمل مقصوداً ومـعداً له، يقول الحلوانى: «بُعِـثْتُ أنا وأبو سفيان، فـقيل لنا: اذهبا إلى المغرب فإنكمـا تأتيان أرضا بوراً، فاحرثاها وذلِّلاَها إلى أن يأتِيَها صاحبُ الـبَذْر فيجدها مُذَلَّلَة فيبذر حَبَّه فيها».

وكان اختيار أبى عبـد الله الشيعى موفقا للمرحلة التالية. فاستطاع أن يتم مـهمته على خير وجه، وركز الدعـوة بين قبيلة كتـامة لتكون سند الدعوة وعصبـتها. فاخـتارهم فى موسم الحج، وجذبهم إليه بحديثه فتعلقوا به، وأصروا على أخذه معهم. وكان اختياره كتامةَ موفقا أيضاً، لأنها من قبائل البرانس المتحضرة، ولموقعها المنيع البـعيد عن أعين الرقباء. يضاف لذلك كثرتهم العددية التى يعتـزون بها من عَسْفِ الدولة. وقد تـشدد الشيعيُّ مع كـتامة فى أمور الدين، حـتى أنه كان يضرب مَنْ يُقَـصِّر فى أداء الفرائض. وأصـبح معظم كتَـامةَ فى صفه، فـحوّل دعوته إلى حـركة سياسية عسكرية، ودخل فى صدامات عسكرية مع القوى السياسية الموجودة فى المغرب آنذاك.

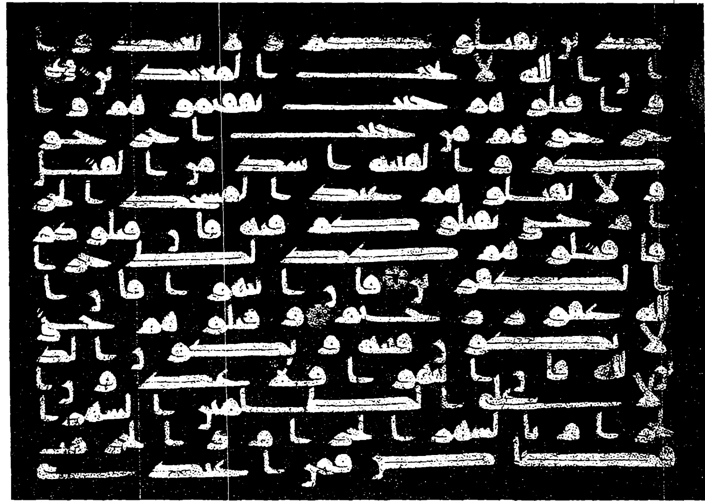
وقد وضع المهدى الفـاطمى نظاماً مذهبيا طَبَّـقَه بصرامة، وبالغ فى نشـر المذهب الشيعى. فَسَبَّ الصـحابة، وسمح للشعـراء بمدحه بأوصاف مـرفوضة عقـائديا، وقطع التراويح، وزاد فى



الأذان «حى على خير العمل، ومحمد وعلى خير البشر»، وأسس المهدى ديوان الكشف «المخابرات» لتتبع المخالفين.

واستمرت الدعوة الشيعية فى عهد القائم بأمر الله (٣٢٣-٣٣٤هـ). فجاهر بمعتقدات الشيعة، ونكَّل بأهل السنةِ، فَنَقِمَت الرعية عليه لسوء ما يفعله، وسوء سيرة بعض عماله، وقامت عليه الثورات فى معظم بلاد المغرب.

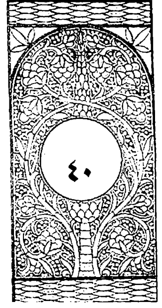
ثم تغيرت السياسة المذهبية فى خلافة المنصور الفاطمى (٣٣٤-٣٤١هـ) لسوء حالة البلاد الاقتصادية بعد كثير من الثورات. فعمل على استمالة أهل القيروان، وعيَّنَ للنظر فى مظالمهم أحمد بن محمد بن أبى الوليد. إلا أن المنصور لم يستمر فى سياسته المذهبية المتسامحة - نوعاً ما - فأمر بقتل رجلين لم يلتزما بالمذهب الإسماعيلى فى الأذان والصلاة.



صفحة من القرآن - تونس - القيروان- القرن العاشر الميلادى خط كوفى مذهب على رق أزرق

وأظهر المعز لدين الله الفاطمى التشيعَ كسابقيه. إلا أنه أراد استمالة المالكية، وإظهار التسامح المذهبى، فسمح لهم بالاجتماع والفُتْيا والتعليم وكتابة الوثائق. ثم عاد وضيَّق عليهم؛ فمنع الاجتماعات والفتوى، ووضعهم تحت المراقبة، ولما لم يجد لهذه السياسة عائداً رجع عنها وهادنهم.

وكانت سياسة الخلفاء الفاطميين المذهبية سببا فى نشوب الصراع المذهبى مع المالكية. فعامل الشيعةُ المالكيةَ بقسوة شديدة، فقتلوا «محمد بن خيرون الأندلُسِىّ»، كما سُجِنَ «محمد بن وشاح» ومُنِع من الفتوى والاجتماع بالطلبة، وضرب «محمد بن محمد بن خالد القيسى»، وسُجن مع «ابن سلمون القطان»، و«الخلافى» المحتسب، وقومٌ من المرابطين بتونس، كما سُجن «أحمد بن زياد الهوارى» ثم أطلق سراحه وأُلزِمَ بيته عندما أفتى بمذهب مالك، وغير ذلك كثير مما ذكرته كتب التراجم والسير.



ودخل المالكية مع الشيعة فى مناقشات ومحاورات، قام بها من المالكية: سعيد بن محمد بن صبيح الغسانى «ابن جواد»، و«حماس بن مروان بن سماك الهمدانى» (ت٣٠٢هـ)، و«موسى بن عبد الرحمن بن القطان» (ت٣٠٦هـ). ودارت المناقشات حول: أفضلية الإمام على (رضى الله عنه)، والصوم، وولاية المفضول والفاضل وغير ذلك، لكن هذه المحاورات لم تكن لها فائدة.

وقد ضيَّق الخليفة القائم بأمر الله الفاطمى (٣٢٢-٣٣٤هـ) على أهل السنة، وزاد شرُّه على شر أبيه عبيد الله المهدى أضعافاً مضاعفةً، وتولى القضاءَ فى عهده «أحمد بن بحر» فضيق على أهل السنة من المالكية، الذين ازدادوا رفضا للتشيع، فامتحنهم القاضى بالمحن الشديدة، فَضَرب «إبراهيمَ بن عبد الله الزبيدى» «القلانى» بالسوط وحبسه فى دار البحر بالمهدية بسبب تأليفه كتاب الإمامة والرد على الرافضة، وتدريسه لكتاب الإمامة «لسحنون بن سعيد»، وقد اشتد العذاب بالمالكية حتى بلغ عدد مَنْ مات، منهم من العذاب فى دار البحر بالمهدية زمن المهدى والقائم أربعة آلاف ما بين عابد وصالح، فمن تكلم منهم قُتل ومثِّل به.

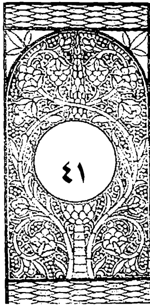
وهاجر بعضُ علماء المغرب إلى البلدان المجاورة، مثل الفقيه «محمد بن نظيف البزاز»، و«حَجاج بن يوسف السرتى» اللذان هاجرا لمصر، كما هاجر «محمد بن أحمد الفاسى» إلى الأندلس، وغير ذلك ممن مات فى الغربة.

وقد ساند الفقهاءُ المالكية ثورةَ أبى يزيد بن مخلد بن كيداد النكَّارى الذى أظهر لأهل القيروان التسامح، وترحم على أبى بكر وعمر، ودعا الناس إلى جهاد الشيعة، وأمرهم بقراءة مذهب مالك، وقُتِلَ فى هذه الثورة خمسة وثلاثون فقيها.

فلما آلت السلطة إلى المنصور بالله الفاطمى (٣٣٤-٣٤١هـ)، استمال أهلَ السنة من المالكية، فولَّى عليهم فى القضاء الفقيهُ المالكى «محمد بن أبى منظور بن عبد الله الأنصارى»، وظل المالكية يتولون قضاء القيروان بعد ذلك. لكن المنصور تغير وأمر بقتل من يرفض التشيع. ولم يختلف الصراع المذهبى أو يختفى فى عهد المعز لدين الله بن المنصور. ولكن فى النهاية انتصر المالكية، فى صراعهم المذهبى مع الشيعة، وأيقن الشيعةُ بصعوبة نشر مذهبهم فى بلاد المغرب.

ثانياً: الدعوة للمذهب الشيعى فى مصر:

اعتنى الفاطميون بنشر التشيع فى مصر بعد انتقالهم إليها، ولم يتركوا أسلوبا ينفع دعوتهم إلا استخدموه، وكانت وسائلهم وأساليبهم فى الدعوة متعددة، فكان من أهمها:



١- جهاز الدعوة:

نظم الفاطميون جهاز الدعوة، فانتشر دعاتهم فى بلاد كثيرة. يقول المعز لدين الله الفاطمى: «فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حُجَجٌ ودعاةٌ يدعون إلينا، ويدلُّون علينا، ويأخذون بيعتنا». وينشر الدعاة الدعوة الشيعية سرًا فى الأماكن غير التابعة لهم، بينما ينشرون الدعوة علنية فى البلاد التابعة لهم مثل مصر واليمن والشام والحجاز.

ويختار الخليفة الفاطمى داعى الدعاة الذى كان من مهامه الإشراف على جهاز الدعوة. وكان يشترط فى داعى الدعاة: العلم الواسع، والهيبة، ولين الجانب وحسنَ العشرة. وكانت مهمة داعى الدعاة هى الدعوة للمذهب الإسماعيلى، وأخذ العهد على المنتسبين الجدد للمذهب. كما كان يُلقى عليهم الدروس فى قصور الخلافة، ويجمع الأموال من الداخلين فى الدعوة، ويعين نوابا عنه فى الأقاليم التى تشملها الدعوة، ويكلفهم بالقيام بأمر الدعوة من أخذ العهود على المستجيبين والتدريس لهم.

٢- تدريس المذاهب «مجالس الحكمة»:

كان فقهاء الشيعة يعدون الدروس التى تلقى على الراغبين فى الاستماع ويقرأها داعى الدعاة، الذى يعرضها على الخليفة ليوافق عليها. وكان يطلق على هذه الدروس «مجالسَ الحكمة»، وكان أشهر الكتب المدروسة فى هذه المجالس كتابى «دعائم الإسلام»، و«اختلاف أصول المذاهب» للقاضى أبى حنيفة النعمان بن حيون قاضى قضاة الفاطميين.

وكان يراعى فى الدروس مقدرة المتلقى. فالمبتدئ يدرس أصول الفقه الإسماعيلى مثل: الإمامة، والظاهر والباطن. أما المتعمقون فيدرسون التأويلَ وعلمَ الباطن.

وكانت أهم أماكن تدريس المذهب الإسماعيلى هى:

أ-المساجد الجامعة مثل: الجامع الأزهر: وكذلك جامع الحاكم، وجامع راشد، وجامع المقس، وجامع القرافة، ولكن كان أشهرها وأبرزها الجامع الأزهر. وأشهر مَنْ دَرّسَ فيه أسرة القاضى النعمان بن حيون مثل على بن القاضى النعمان الذى درّس مختصر والده المسمى «الاقتصار»، وكان للنساء مجلس فى الجامع الأزهر.

ب- القصر الفاطمى: كان القائم بالتدريس فى القصر الفاطمى هو داعى الدعاة. فتولى ذلك القاضى النعمان بن حيون وأولاده، والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى، الذى ألقى نحوا من (٨٠٠) ثمانمائة درس، وكان له درس أسبوعى كل يوم خميس.

وقد ألحق بالقصر الفاطمى مكتبةُ ضخمة تقع - كما قيل - فى أربعين خزانة من خزائن القصر، وتحوى الكثير من الكتب فى مختلف التخصصات. «فمنها فى الفقه على سائر المذاهب، والنحو، واللغة، وكتب الحديث، والتواريخ وسير الملوك، وعلم الفلك، والروحانيات من كل صنف نسخ، ومنها النواقص التى لم تتم»، وقُدِرت الكتب بمائتى ألف كتاب.

جـ- دار الحكمة:

أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ) وافتتحها سنة ٣٩٥هـ، ووفر لها ما يساعدها على أداء مهمتها فى جذب الناس للمذهب الإسماعيلى، فَفُرِشَتْ وزُيِّنَتْ، وزُوِّدَتْ بالكتب المختلفة، وأتيحت بها الأقلام والأوراق والمحابر، فحضر إليها النحاة والنحويون والفقهاء والأطباء.



جزء من سور جامع الحاكم بالقاهرة الفاطمية سنة ٩٩٠هـ: ١٠١٣م

وهكذا بدت دارُ الحكمة مؤسسةً علمية حرة أو جامعة. ولا يخفى أن ذلك كان هدفه هو الدعوة للمذهب الإسماعيلى. وتأكد ذلك الاتجاه المذهبى حين انقلب الحاكم بأمر الله على علماء أهل السنة الذين سمح لهم قبل ذلك بالاستفادة من الدار ودراسة المذهب السنى.

٣- إظهار شعائر المذهب الإسماعيلى:

عمل الفاطميون على إظهار شعائر المذهب الإسماعيلى ليصبغوا الحياة فى مصر بالتشيع. كان من أهم الشعائر الإسماعيلية هى:

أ- الخطبة للخليفة الفاطمى بوصفه الإمام من آل البيت.

ب- الأذان بالصيغة الشيعية، وذلك بزيادة عبارة «حى على خير العمل».

ج- صيام شهر رمضان ثلاثين يوماً كاملة فى كل عام، ويعتمدون فى الصيام والفطر على الحساب الفلكى إلى جانب الرؤية البصرية.

د- تطبيق أحكام المذهب الإسماعيلى فى القضايا والأحكام. وولّوا لذلك قضاة شيعة إسماعيلية. وإذا حدث وولوا قاضياً سنيا اشترطوا عليه العمل بالمذهب الإسماعيلى.

هـ- الاحتفالات المذهبية الخاصة بهم مثل:



الشيرازى - تمثال فى إيران



* عيد الغدير: فى ١٨ ذى الحجة من كل عام.

* الموالد الستة: وهى: مولد النبى ﷺ، ومولد على بن أبى طالب، ومولد كل من الحسن، والحسين، ومولد السيدة فاطمة رضى الله عنها، ومولد الخليفة الفاطمى القائم فى الخلافة.

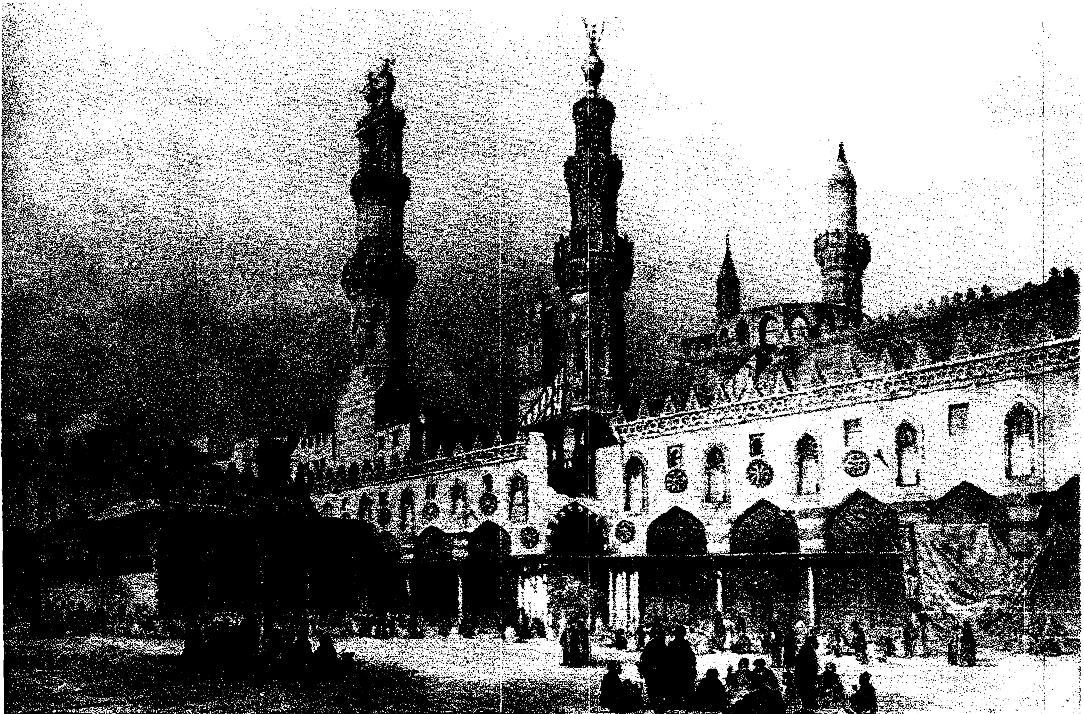
* ذكرى استشهاد الإمام الحسين فى العاشر من المحرم.

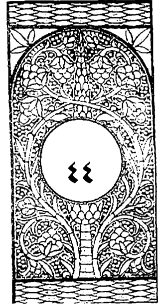
وقد شارك بعض المصريين فى الاحتفالات الشيعية طلبا للمتعة والفرح، مع تمسكهم بالمذهب السنى.

٤- الخطب والأشعار:

أدرك الفاطميون أهمية الخطب والأشعار فى الدعاية لمذهبهم. فاتخذ خطباء الفاطميين خطبة الجمعة والعيدين وسيلة لنشر أفكارهم. كما حرص الخلفاء الفاطميون على خطبة الجمعة فى مقر خلافتهم. ويقرأ الخليفة الخطبة من مسطور يأتيه من ديوان الإنشاء، وتذكر فى الخطب العقائد الشيعية، فيتحدثون عن مناقب آل البيت والنسب إلى آل البيت حسب عقيدة الإسماعيلية.

الأزهر لعب دوراً هاماً فى المذهب الشيعى عندما بناه الفاطميون





وقد وُضِع الشعر كذلك فى خدمة الدعاية المذهبية الشيعية. . فيقول الدكتور محمد كامل حسين: «إن الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصفات التى صبغـها المذهب على الأئمة، ويتعهد الشاعر أن يسـتعمل فى شعره المصطلحات التى اصطلـح عليها علماء المذهب ودعـاته. وكلما أمعن الشـاعر فى استخدام هذه المصطلحات وإدخال هذه الصفات فى شعره ازدادت قيمة الشاعر عند الأئمة وكـبار رجال الدعوة، وكَـثُر عطاؤه، وزاد جاريه. فكان الشـعراء على هذا النحو دعاة للأئمة وللعقائد دون أن يكون لهم فى مراتب الدعوة شأن».

ومن أبرز شعـراء الشيعة المؤيد فى الدين هـبة الله الشيرازى الذى ضـمَّن شعره كثـيراً من عقائد الإسماعيلية، ومن شعره:

طوبى لمن أخلص فى التـــوحـــيـــد ... تبـــصـــيـــراً من جـــهـــة الحـــدود

وهـم أولو الأمـــر أئـمـــة الـهـدى ... عـــصـــمـــة مـن لاذ بهم مـن الردى

مـفـــروضـــة طاعـــتـهـم على الأمم ... قـــاطبــــة من عـــرب وعــــجـــم

٥- المِنَح والعطايا:

قدّم الشيعة الفـاطميون الأموال فى هيئة رواتب ومنح للعاملين لهم والتـابعين لهم، فأغرى ذلك بعضَ الناس فى الالتحاق بالدخول فى المذهب الإسماعيلى.

وظهـر ذلك واضحـاً فى عصـر الحـاكم بأمر الله، إذ أعطـى الناسَ فوق مـا اعتـادوه من الأرزاق، وأكثرَ من التـصدق على الفقراء والمسـاكين، فكَثُر إقبال الناس على بـابه للأخذ من ماله والدخول فى المذهب، فأنفق فى سبيل ذلك مالاً كثيراً.

وفرض الخليـفة الظاهر (٤١١-٤٢٧هـ) مـالاً لمن يحفظ كتـاب «دعائم الإسلام»، وكـتاب الوزير يعقوب بن كلس فى الفقه على مذهب آل البيت.

٦- المناظرة:

استخـدم الفاطميون المناظرة والجـدل فى نشر مذهبهم. فكان الدعـاة يجلسون لمناظرة أهل السنة، فعـقد الوزير يعقوب بن كلّس مـجلساً فى بيته فى يوم الثـلاثاء من كل أسبوع يجتـمع فيه الفقهاء وجماعةُ المتكلمين وأهلُ الجدل وتجرى بينهم المناظرات.

٧- التشكيك فى المذهب السنى والضغط على أتباعه:

هاجم الفاطميون المذاهب السنية الفقهية المشهورة فى مصر مثل المذهب المالكى، والشافعى، والحنفى. كما هاجـموا الخلافتين الأمـوية والعباسية، واعـتبر الفاطميـون الاتجاه السنى فى الدين والسياسة باطلاً، وعمل دعاتهم على تشكيك الناس فيه.



وقد لجأ الفاطميون إلى الضغط والإكراه لتحويل أهل السنة عن مذهبهم. فهدد المعزُّ لدين الله أهلَ السنةِ سنة ٣٦٢هـ لأنهم صاموا يوماً يعتبره الفاطميون عيداً وفقا للحساب، وحاولوا منع الكنية بأبى بكر وعمر، وقطع الخليفةُ العزيز صلاة التراويح التى يصليها أهل السنة فى جميع مساجد مصر، كما ضُرب رجل وطيف به، لوجود كتاب موطأ مالك عنده.

ولم يتسامح الفاطميون مع أهل السنة إلا لأسباب سياسية وضغوط. مثلما حدث من الخليفة الحاكم بأمر الله مع ثورة أبى ركوة، فتسامح مع أهل السنة، لأن أبا ركوة رفع شعار أهل السنة والترحم على السلف، وكذلك عندما طلب باديس الزيرى المغربى من الحاكم التسامح مع أهل السنة، فاستجاب له مصانعة له حتى يظل المغرب تابعاً لهم شكليا.

ثالثاً: موقف أهل السنة فى مصر من الدعوة الإسماعيلية:

١- دخول بعض المصريين فى المذهب الإسماعيلى:

استجاب بعض المصريين للدعوة الإسماعيلية، بينما ظل أكثرهم على المذاهب السنية. وليس من الصعب تصور ذلك، لأن الشيعة توسلوا إلى الشعب المصرى بآل البيت النبوى، وأيدوا مذهبهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية المؤَوَّلة تأويلا خاصاً، واستعملوا شتى الطرق لنشر مذهبهم ترغيبا وترهيبا.

ومن مظاهر استجابة المصريين للمذهب الإسماعيلى:

أ- الإقدام على مجالس الدعوة التى كان يمليها القاضى على بن النعمان بالجامع الأزهر، وازداد الإقبال على مجالس القاضى محمد بن النعمان.

ب- وقعت المصادمات بين أهل السنة والشيعة وخاصة يوم عاشوراء، مما يدل على كثرة الشيعة.

ج- انتشر المذهب فى بعض مدن الصعيد مثل أسوان، فقال الأدفوى عن أسوان «ولما كانت البلاد للعُبَيْديِّين غلب على أهلها التشيع»، ويقول عن إدفو: «وكان التشيع فيها فاشيا». كما قال ذلك أيضا عن إسنا، وأشمون، وأرمنت.

٢- ثبات أكثر المصريين على المذهب السنى:

كان المذهب السنى هو المذهب السائد شعبيا فى مصر. وقد شارك العلماء المصريون فى الدراسات الإسلامية المرتبطة بمذاهب أهل السنة. ورفض معظم أهلُ مصر المذهبَ الإسماعيلى. فقال عبد القاهر البغدادى: «وأهلُ مصر ثابتون على السنَّة إلى يومنا هذا وإن أطاعوا صاحب القاهرة - الخليفة الفاطمى - فى أداء خراجهم إليه.



ولا أدل على ذلك من استمرار الدراسات السنية فى مصر. إذ اهتم علماءُ السنة بالفقه والحديث وعلوم القرآن. كما أقام السنيون الشعائر وفق المذهب السنى، مثل الصيام والإفطار لرؤية الهلال، وصلاة التراويح فى جماعة فى المساجد الكبرى كمسجد عمرو بن العاص.

وقد عرف المصريون قدر أهل السنة. فعندما توفى الفقيه الشافعى أبو العباس أحمد بن محمد الدبيلى سنة ٣٧٣هـ خرج وراء جنازته جميع أهل مصر، يقول السيوطى: «وكانت جنازته شيئا عجبا لم يبق بمصر أحدٌ إلا حضرها». ولما أراد الوزير السلجوقى «نظام الملك» نقل رفات الإمام الشافعى من مقبرته بمصر بعث للخليفة المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ) بذلك فوافق. وركب بدر الجمالى لنبش قبر الإمام الشافعى، فهاج الناس عليه وهَمُّوا برجم الوزير الجمالى والثورة عليه، فبعث للخليفة المستنصر بالله بالأمر، فرفض الخليفة نبش القبر، مما يدل على تمسك المصريين بأئمة المذهب السنى وعلمائه.

٣- الطعن فى المذهب الإسماعيلى:

لم يلتزم كثير من أهل السنة بمداراة الفاطميين. فطعنوا فى نسب الخلفاء الفاطميين، وما ينسبه إليهم أتباعُهم من علم خاص بهم، وطعنوا فى الداخلين فى الدعوة عموما. ومن هذا الطعن ما وجده الخليفة العزيز بالله من قصاصات الطعن فيه وفى نسبه على المنبر، إذ وجد ورقة مكتوب عليها:

إنا سمعنا نسبا منكراً ... يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا ... فاذكر أباً بعد الأب الرابع

كما طعن المصريون فى علم الأئمة الذين يتوارثونه فيما بينهم. فعندما صعد العزيز بالله الفاطمى (٣٦٥-٣٨٦هـ) المنبر وجد ورقة فيها:

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة
إن كنت قد أعطيت علم غيب ... فقل لنا صاحب البطاقة

٤- التصدى لانحرافات طائفة الإسماعيلية:

قاوم المصريون غلُوَّ الإسماعيليةِ وانحرافِهم. فعندما وصلت قافلة الحجاج سنة ٣٩٥هـ إلى مصر أراد العامة من الإسماعيلية أن يحملوهم على سب السلف، فأبى الحُجَّاجُ ذلك، وتحملوا السب والبطش. كما فتك المصريون بمن دعا إلى تأليه الحاكم بأمر الله - تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً - فقتلوا الأخرم الفرغانى وسبعة آخرين.



الفصل السادس
الحالة الاقتصادية والحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية

• الحالة الاقتصادية:

اهتم الفاطميون بالحياة الاقتصادية فى مصر، فزادت فى عهدهم الثروة، ومارس المصريون حياتهم فى جو من الاستقرار والاطمئنان، حتى أن البزَّازين وتجارَ الجواهر والصيارفة كانوا لا يغلقون أبواب محلاتهم بل يسدلون الستائر عليها، وفيما يلى عرض موجز للحياة الاقتصادية بمصر فى هذا العصر.

أولا: الزراعة:

تعد الزراعة فى مصر من أهم مصادر الاقتصاد، حتى قال عمرو بن العاص عنها: «ولايةُ مصر جامعة تعدل الخلافة». وقد اعتمد الإنتاج الزراعى على ماء الرى والعناية بخصب الأرض؛ ولذلك شقت فى الأراضى المصرية شبكة من الخلجان والأبحر والترع. فكان بمصر ثمانية خلجان، وخمسة وعشرون بحراً، و ١١٧ ترعة فى الوجهين البحرى والقبلى.

وقد اعتنى الفاطميون بنظم الرى وصيانة الترع والجسور. وكان هناك نوعان من الجسور: جسور سلطانية تقيمها الدولة، وجسور بلدية يقيمها الفلاحون. وفرضت الضرائب على الأراضى الزراعية لصيانة الجسور



مقياس النيل بالروضة - ٨٦١/ ٨٦٢م



والمحافظة عليها، ويُسخر الأهالى وقت الفيضان لإقامة الجسور ورمِّ الخلل بها مخافة طغيان ماء النيل فيغرق الأرض الزراعية.

واعتمدت الزراعة فى مصر على ماء النيل كما قال ابن حوقل: «وزرعهم بماء النيل تمتد فتعم المزارع من حد أسوان إلى حد الإسكندرية». إلا أنه كانت هناك مناطق متناثرة فى شمال سيناء، والدلتا، وسيناء، وفى أطراف البحيرة تعتمد على مياه المطر القليل، لأن أرض مصر لا تمطر إلا المطر اليسير. كما اعتمدت بعض المناطق على مياه الآبار والعيون كالواحات، ومناطق الأديرة فى الصحراء الغربية حيث كان بها ضياع ومزارع.

واهتم المصريون بضبط وقياس مياه النيل، فأقاموا لذلك المقاييس فى مختلف البلاد ليراقبوا مقدار ارتفاع مستوى النيل. فكلما ارتفع مستوى النيل استبشر الناس بوفرة المحصول وزيادة الخراج، ومقدار ذلك الارتفاع ستة عشر ذراعاً، فإذا زاد عن ذلك أنذر بالفيضان، وإذا قل أنذر بالقحط.

نظام المِلْكية بمصر فى العصر الفاطمى:

عندما دخل الفاطميون سنة ٣٥٨هـ مصر كانت هناك أراضى الدولة وأراضى الامتلاك الخاص. وقد أمَّن القائد جوهر الصقلى المصريين على أموالهم وأهليهم وأراضيهم وضياعهم. ففى وثيقة سنة ٤٠٢هـ تبين أن الفقيه عبد الله بن محمد يمتلك قطعة أرض مِلْكية تامة يتصرف فيها كما يشاء. وامتلك أهل الذمة الأرض الزراعية كذلك. ففى بردية ترجع إلى شهر رجب ٤٤٨هـ وهى عبارة عن عقد بيع أملاك عقارية المشترِى فيه يدعى المكنا يأبى السوى هليعة بن رَمْزَ قيل النصرانى، والبائع ثيروس ابن كيل هلستوس الأجير.

ووزع الفاطميون جانبا من الأراضى العامة على المغاربة وغيرهم من الأتباع على هيئة تمليك أو للانتفاع بإيرادها. فعند حضور المعز لدين الله إلى مصر، استولى على أملاك الدولة الإخشيدية وضمها إلى الدولة التى يقطعها إلى خواصه وأسرته. وإذا سخط الخليفة نزع الملكية لتكون مِلْكاً للدولة، كما فعل الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ)، الذى «أكثر من مصادرة رجال الدولة حتى أنه قبض على سائر عقار والدته وأخته وحرمه وعماته وخواصه من النساء وأملاكِهن وسائر إقطاعهن».

واستخدمت الدولة الفاطمية الإقطاع للجند، فأحلت رجال السيف (العسكر) تدريجيا محل أرباب القلم (المدنيين) فى جباية الخراج وغيره، كما جعلت لكل من أولئك جهات ذات قيمة ضرائبية يؤدونها للدولة تسمى «إقطاعا».



وأقطع الخليفة العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ) وزيره يعقوب بن كِلِّس بعضَ أراضى مصر والشام بلغت قيمتها آنذاك ٣٠٠ ألف دينار.

وفى عهد وزارة الأفضل بن بدر الجمالى شكا أصحاب الإقطاعات من قلة ارتفاعها وسوء حالها، على حين تضاعفت إقطاعات الأمراء وكثر ارتفاعها وزاد دخلها. فأمر الأفضل بحل الإقطاعات جميعها، ثم أعيد توزيعها من جديد، وكُتِبتْ سجلات تقضى باستغلال هذه الإقطاعات مدة ثلاثين سنة، فارتفع بذلك خراج مصر إلى خمسة ملايين دينار، وأقبل الجند والأمراء على عمارة الأرض والعناية بها، فكثرت الغلة، وزاد الخراج العينى حتى بلغ مليون أردب.

وقد عرض ابن مماتى لبعض نظم الإقطاع فى أواخر العصر الفاطمى فقال: «إنه إذا انقضى أجل الإقطاع والأراضى المزروعة أصبح المحصول من نصيب المُقْطَع الجديد. كما أن المقطَع يدفع ضريبة منتظمة عن كل فدان بمعدل دينارين وخمسة قراريط. كما كان عليه أن يعتصر القصب فى معصرة الدولة، وأن يرد الأرض المقطعة كما تسلمها، فلا ينقل شيئاً من المنشآت المقامة عليها، ولا يتصرف فى التبن المودع بمخازنها».

وكانت الإقطاعات تصدر بمرسوم من الخليفة، وفق نظام دقيق داخل ديوان الإقطاع، وهو أحد الدواوين الملحق بديوان الجيش. وكان ديوان الإقطاع مختصا بما هو مُقْطَعٌ للأجناد وليس للمباشرين فيه تنزيل إلا بمرسوم. ويقال لإقطاعات العربان فى أطراف البلاد وغيرها الاعتداد، وهى دون عبرة الأجناد. وصاحب ديوان المجلس هو المتحدث فى الإقطاعات، كما رصدوا للأسطول إقطاعات خاصة به عرفت باسم «أبواب الغزاة» كانت تدفع منها رواتب رجال الأسطول.

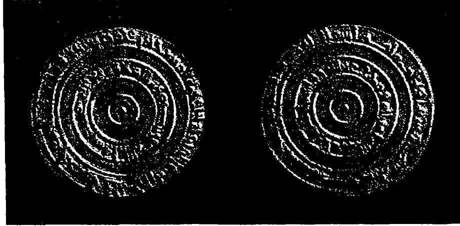
الحاصلات الزراعية:

تعددت الحاصلات الزراعية فى مصر منذ أقدم العصور، واستمرت تلك الحاصلات وتحسنت طريقة زراعتها وزاد إنتاجها فى العصر الفاطمى. وساعد على تعدد الحاصلات الزراعية اتساعُ رقعة الأرض الزراعية، والتباين فى سطح التربة، إلى جانب اختلاف الجو والمناخ من منطقة لأخرى؛ ولذلك «يوجد بمصر كل وقت من الزمان من المأكول والمأدوم والمشروب والمشموم وسائر البقول والخضر وجميع ذلك فى الصيف والشتاء لا ينقطع منه شىء لبرد ولا حر».

واعتمد الفلاح المصرى على تحديد مواعيد بداية مواسمه الزراعية على الشهور القبطية، فقسمت السنة إلى أربعة فصول متساوية هى: فصل الخريف وأوله شهر توت (١٢سبتمبر)، وفصل الشتاء وأوله شهر كيهك (ديسمبر)، وفصل الربيع وأوله شهر برمهات (١٠مارس)، وفصل الصيف وأوله شهر بؤونة (٨ يونيه).

وقسمت السنة الزراعية إلى قسمين: فصل للزراعة الشتوية، وآخر للزراعة الصيفية، ولكل منهما مواعيده وغلاته.

وأهم المحاصيل الشتوية هى: القمح والشعير والفول والحمص والجلبان والعدس والكتان والبرسيم والبصل والثوم والترمس والكمون والكراويا والبطيخ الأصفر والأخضر واللوبيا والسمسم والقطن، وقصب السكر والقلقاس والباذنجان والفجل والنيلة واللفت والخس والكرمب.



دينار فاطمى باسم الخليفة العزيز بالله – مصر – ٣٦٦هـ/٩٧٦م

وأما المحاصيل الصيفية فاقتصرت زراعتها على الأراضى التى تحف بنهر النيل لجفاف الترع، فكانوا يرفعون الماء بالسواقى والقواديس، وأهم الحاصلات الصيفية الأرز والذرة.

كما زرع المصريون الفاكهة باختلاف أنواعها مثل: الكرم (العنب) والتين والتفاح والتوت واللوز والخوخ والمشمش والنخل والموز، وكذا عنوا بزراعة الورود كالنرجس والياسمين والريحان.

واهتم الفاطميون بالثروة الحيوانية، فمنعوا ذبح إناث الحيوانات المساعدة فى فلاحة الأرض، فأصدر الحاكم بأمر الله أمراً بمنع ذبح البقرة الولود أو العاملة حتى يتوافر الإنتاج الحيوانى، ويمكن الفلاحين من العناية بالمزروعات وتحسين المحصول.

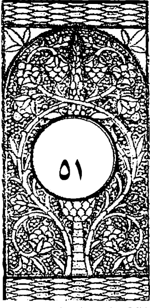
ثانيا: الصناعة:

يعد العصر الفاطمى عصر ازدهار الصناعة بمصر ووفرة إنتاجها، وساعد على ذلك وجود المواد الخام اللازمة مثل الكتان وقصب السكر والكروم والزيتون والنباتات العطرية وغيرها من المواد المتوافرة محلياً مثل الأصواف والجلود المأخوذة من الماشية والماعز والإبل إلى جانب المعادن، وتستورد الدولة بعض المواد الخام غير المتوافرة مثل الحرير.

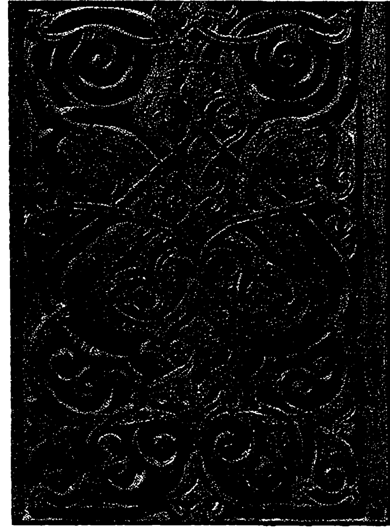


قطعة نسيج من الكتان مُزخرف بأشرطة حريرية بها كتابة كوفية ق٦هـ/١٢م

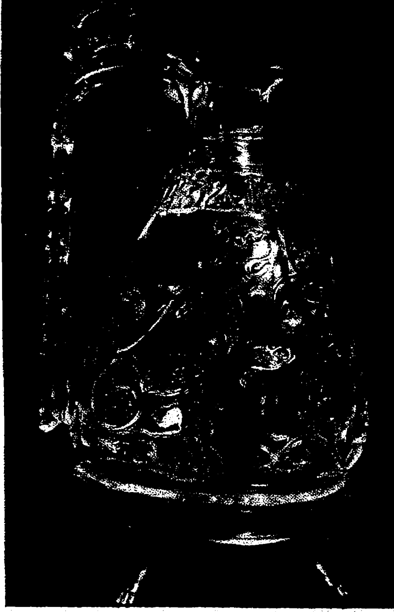
ومما ساعد على ارتقاء الصناعة حياة الترف والرفاهية التى عاشها الفاطميون ورجالهم، وحاجة الجيش والأسطول للأسلحة والعتاد الحربى والملابس.



ومن الصناعات التى ازدهرت فى هذا العصر: صناعة النسيج، وأهم أنواعه الكتان المصنوع فى تنيس (المنزلة حاليا) ودمياط، والإسكندرية، وشطا. أما صناعة الصوف فكانت فى أسيوط وأخميم. وتقدمت صناعة الزجاج والخزف، وأهم مراكز صناعتها كانت فى الفسطاط، والفيوم، والأشمونين، والإسكندرية، وازدهرت صناعة السفن لقوة الأسطول الفاطمى، فأنشئت دور الصناعة بالمقس، والإسكندرية، ودمياط، والروضة.



حشوة خشبية مزخرفة (رأسى حصانين) مع زخارف نباتية - القرن ٥هـ/ ١١م

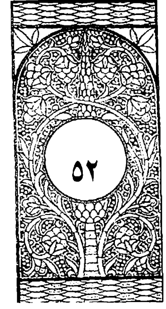


إبريق من البللور الصخرى منقوش على غزال - مصر ق٥هـ/ ١١م

واشتهرت صناعة الحفر على الخشب وظهور بعض الزخارف النباتية والحيوانية. كما عرفت مصر الصناعات المعدنية. فصنع من الذهب الأدوات والحلى وطُعِّمَ الذهب بالأحجار الكريمة. وقد أورد المقريزى الكثير من التحف الذهبية والفضية مما امتلكه الخلفاء ونساؤهم ورجالهم. وصنعت الأوانى النحاسية المستخدمة فى المنازل. كما صنعت الأدوات والآلات من الحديد مثل المقارض، والسكاكين، والإبر، والمسلات وغير ذلك.



طبق من الخزف مرسوم عليه أرنب - مزجج بطلاء قصديرى - القرن ٥هـ/ ١١م



واشتهرت مصر كذلك بصناعة الورق، وزاد فى العصر الفاطمى لازدهار الحياة العلمية والأدبية. فوجد فى خزانة الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات وكثيراً من المجرات، كما تخصصت بعض الأسواق فى تجارة الورق والكتب.

كما ازدهرت فى مصر صناعات أخرى مثل الجلود، والسكر، والعسل، والزيوت، والشموع وغير ذلك.

ثالثاً: التجارة فى مصر فى العصر الفاطمى:

صحب ازدهارَ الزراعة والصناعة فى مصر الفاطمية انتعاشُ التجارة الداخلية والخارجية. ففى التجارة الداخلية كانت هناك مراكز تجارية كبيرة مثل الفسطاط، والقاهرة، والإسكندرية، وتنيس، ودمياط، والفرما، وعيذاب، وأسوان، وقوص، والقلزم، والمحلة الكبرى. وتركز النشاط التجارى الداخلى على الأسواق التى أشرفت عليها الدولة فحفظت فيها النظام وحددت الأسعار وعاقبت المخالفين.

كما وجد الكثير من المنشآت التجارية مثل الفنادق التى ذكرها الرحالة والجغرافيون، مثل فندق الصفار بالإسكندرية، وفندق ابن الثناء فى مدينة عمرو بن العاص، وفنادق مدينة قوص. كما تزايدت الوكالات مثل وكالة الأميرية التى أنشأها المأمون البطائحى، ووكالة ابن ميسر التى أنشئت سنة ٥٣١هـ/ ١١٣٧م. كما وجد فى الإسكندرية وكالات: الكتان والبهار، والتوابل وغيرها من الوكالات المختصة.

وأقيم العديد من القياسر. وعدَّد المقريزى أسماء الكثير من القياسر، ففى مدينة الفسطاط سبع قياسر مثل قيسارية ابن أبى أسامة، وقيسارية أمير الجيوش، والقيسارية الطويلة، وقيسارية ابن يحيى.

أما التجارة الخارجية فقد اتسع نطاقها مع البلاد الآسيوية والأوروبية، واحتلت مصر مكانة مرموقة فى التجارة العالمية. وقد أثرت الحروب الصليبية على طرق المواصلات بمصر، فانتقل النشاط التجارى إلى النيل الأوسط والأعلى. فكان التجار والحجاج يتوجهون إلى قوص أو أسوان ثم يعبرون الصحراء الشرقية إلى عيذاب، ومنها إلى جدة عبر البحر الأحمر. وقد فضل الإيطاليون الحصول على سلع الهند من المراكز التجارية فى مصر والشام بدلاً من سواحل الخليج العربى النائية والمحفوفة بالأخطار.

ووطدت الدولة الفاطمية علاقاتها التجارية مع كثير من البلدان فى حوض البحر المتوسط مثل المدن الإيطالية. فأمد البنادقة الفاطميين بالحديد والسلاح وخشب السفن، وأخذوا من مصر التوابل والمنسوجات. ولم تتوقف العلاقات التجارية مع بيزنطة رغم المنازعات السياسية فاستوردت من مصر النسيج.



وكانت العلاقات التجارية بين الفاطميين وبلاد المشرق الإسلامى قوية وخصوصاً مع الحجاز، واليمن، وبلاد فارس، وإيران، والمغرب، والسودان، والحبشة.

واستوردت مصر الجواهر وأدوات الزينة، واللؤلؤ، والياقوت والمرجان والعقيق والماس، والتوابل، والعطور، والعود، والند، والمسك.

رابعاً: النظم المالية بمصر فى عصر الدولة الفاطمية:

منذ دخول الفاطميين مصر أصبحت مستقلة مالياً عن الخلافة العباسية، بل غدت مصر مركزاً مالياً للفاطميين مثلما كانت بغداد للعباسيين؛ ولذا نظم الفاطميون مواردهم المالية ليستفيدوا من ثروتها الاقتصادية فى نشر مذهبهم. وقد تعددت موارد الدولة المالية بمصر فى العصر الفاطمى، وأهم هذه الموارد هى:

١- الخراج: وهو الضريبة التى تحصل عليها الدولة من الأراضى المزروعة حبوباً، وعنباً، وفاكهة، ونخلاً، أو من الفلاحين كالغنم والدجاج. ويجبى الخراج عينا من كل صنف من أصناف الغلة، ومع مراعاة وفرة الغلة وسلامتها من الآفات ومقدار فيضان النيل؛ ولذا كان الخراج متغيراً من وقت لآخر.

٢- الجوالى: وهى الجزية المفروضة على أهل الذمة الأحرار البالغين دون النساء والصبيان.

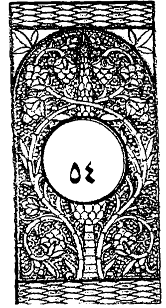
وكانت الجزية فى العصر الفاطمى على ثلاث طبقات تبعاً لثروة الأفراد: فالطبقة العليا يدفع أفرادها $\frac{١}{٤}$ ٢ ديناراً، والطبقة الوسطى دينارين وقيراطين، والطبقة السفلى دينار وثلث، ويضاف إلى كل طبقة درهم للموظفين القائمين بالتحصيل. وبلغت حصيلة الجوالى سنة ٥٨٧هـ ٣٠,٠٠٠ دينار فى السنة.

٣- المكوس: وهى الضرائب المفروضة على السلع الواردة والصادرة الموجودة بالثغور، فبلغت مكوس دمياط، وتنيس، والأشمونين ٢٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة.

٤- المعادن: احتكرت الدولة الفاطمية مناجمها، ومن أهم تلك المعادن: الشب، والنطرون الأخضر والأحمر.

٥- المواريث الحشرية: وهى مال من يموت وليس له وارث شرعى، أو الباقى من مال من يموت بعد توزيع التركة.

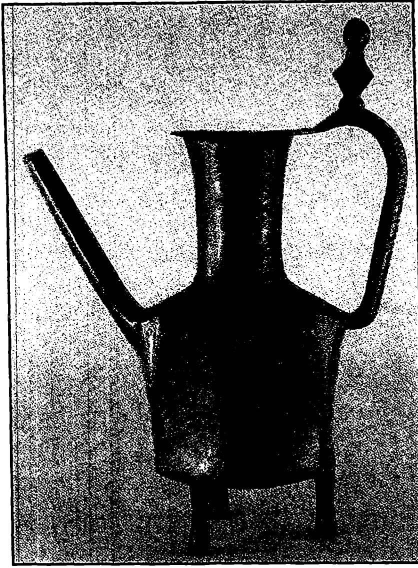
٦- المصادرات: فكانت الحكومة الفاطمية تصادر أموال وأملاك المغضوب عليهم، وتودع فى ديوان المفرد المتصل بديوان الأموال الحشرية. وقد شهدت الدولة الفاطمية كثيراً من حالات المصادرة



وبخاصة فى عصر الحاكم بأمر الله الذى صادر والدته وأخته وزوجته وعماته وخواصه.

٧- دار الضرب: وهى الإيرادات المحصلة من كل ما يسبك فى دار الضرب، وما يحمل إليها من الذهب، والفضة، والمعادن النفيسة، والمصاغ.

٨- الأحكار: وهى الأجور المقررة على الساحات الكثيرة، والتى أقيم عليها بمرور الوقت بعض المنشآت التجارية أو الحدائق والبساتين فتركتها الحكومة مقابل أجرة مقررة.

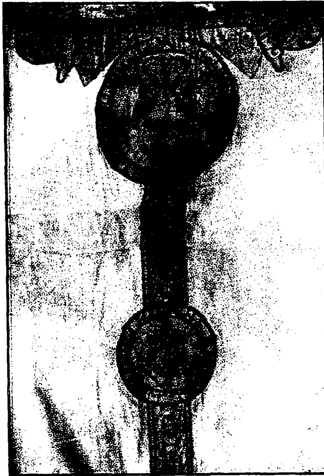


إبريق برونز بمصب ذو ستة جوانب وثلاثة أرجل - زين بزخارف محفورة ومخرمة القرن ٣ أو٤ هـ/ ٩-١٠م

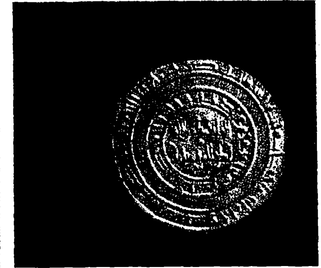
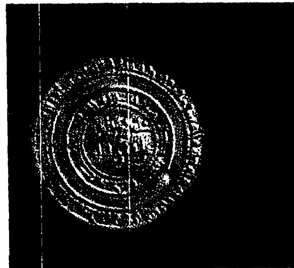
٩- مقرر الجسور: ضريبة مقررة على عدة نواح من أجل المنفعة العامة، وتشتمل على العلف والمؤن والحبوب والحشائش والأتبان.

١٠- الإيرادات العقارية: وهى الموارد من ريع الحوانيت، والرباع، والخانات، والقياسر، والأفران، والحمامات.

كما اشتملت الإدارة المالية الفاطمية على عدد من الدواوين المالية التى لكل منها اختصاصها، وكان من أهم الدواوين المالية:



قطعة من القماش ١٠٩٦/١٠٩٧م باسم سانت آنى

دينار الحاكم بأمر الله الفاطمى - ضرب مصر - سنة ٢٨٧هـ/ ٩٩٧م



١- ديوان المجلس: وهو أصل الدواوين، وكانت تحفظ فيه جميع السجلات المالية، ولصاحبه حق مراسلة الدواوين الأخرى. ومن أهم اختصاصات هذا الديوان تسجيل كل ما يرد إليه من الدواوين المختلفة والإشراف على خزانة الخليفة.

٢- ديوان التحقيق: مهمته أن يتابع ويراقب الدواوين المالية الأخرى.

٣- ديوان الرواتب: ويختص بالنظر فى الرواتب والعطايا، ويسجل أسماء جميع موظفى الدولة ويحدد رواتبهم.

٤- ديوان الأحباس: يختص بشؤون أحباس العامة والخاصة، والإشراف على المؤسسات الدينية والخيرية الموقوف عليها.

٥- ديوان المفرد: استحدثه الخليفة الحاكم بأمر الله لمصادرة أموال وأملاك المخطئين والمستغلين لمناصبهم والمغضوب عليهم.

٦- ديوان الهلالى والخراجى: يختص بتقدير قيمة الضرائب اللازمة على الرباع وجباية الضرائب العقارية والمكوس.

٧- ديوان الجوالى: هو المسئول عن جباية الجزية من النصارى واليهود.

٨- ديوان الثغور: يجبى الرسوم المقررة على الواردات فى مختلف الموانى المصرية مثل: الإسكندرية ودمياط والبرلس وغيرهم.

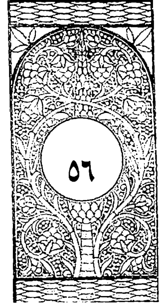
أما وجوه الإنفاق الرئيسية فهى: نفقات الخزائن، والدور، وقافلة الحجاج، والجيش، والأسطول، ونفقات المواسم والأعياد، والمواكب الخليفية، والصرف على المنشآت والقصور والمساجد وغير ذلك.

الأزمات الاقتصادية فى العصر الفاطمى:

تعرضت مصر فى العصر الفاطمى لكثير من الأزمات الاقتصادية، وذلك نتيجة للأسباب الآتية: النقص أو الزيادة فى مياه النيل، والصراع بين طوائف الجند، والصراع بين الوزراء، وإعداد الحملات العسكرية، ومساعدة الحركات الانفصالية، والإنفاق على نشر المذهب، وفيما يلى عرض مبسط لهذه العوامل:

أولاً: تذبذب فيضان النيل:

أدى تذبذب فيضان النيل بين النقص والزيادة إلى كثير من الأزمات الاقتصادية العنيفة. فقبل مجىء جوهر الصِّقلىِّ لمصر كانت مصر تعيش فى قحط استمر تسع سنوات (من سنة ٣٥٢ إلى ٣٦٢هـ). فانتشرت الفوضى وضاعت الأموال، وتعذرت الأقوات، ومات كثير من الناس حتى



عجز الناس عن تكفين موتاهم، ثم انفرجت الأزمة سنة ٣٦٣هـ، ووصل ماء الفيضان إلى سبعة عشر ذراعاً.

وتكررت المجاعات والأوبئة بعد ذلك مراراً فى سنوات ٤٩٢هـ، ٤٩٣ هـ، و٤٩٦ هـ، و٥٣٦، و٥٣٧ هـ وبين سنتى ٥٤٥هـ، و٥٥١هـ، و٥٥٤هـ، و٥٥٩هـ.

وكانت الشدة المستنصرية أكثر ضراوة وضرراً بالناس والعمران. وقد بدأت مظاهر هذه الشدة منذ سنة ٤٤٤هـ واشتدت سنة ٤٤٦هـ وامتدت ثمانى سنوات حتى ٤٥٤هـ. وارتفعت فى هذه الأزمة أسعارُ الغلال حتى وصل أردب القمح إلى ثمانية دنانير ثم مائة وعشرين ديناراً. ثم اشتد الأمر فوصل رغيف العيش إلى خمسة عشرة ديناراً، وأكل الناس الحيوانات النافقة، وبيعت الكلاب والقطط.

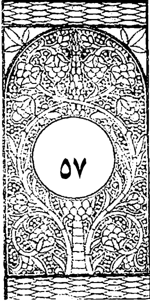
ثانياً: الصراع بين الجند:

أدت الخلافات بين طوائف الجند إلى الفوضى السياسية والاقتصادية؛ وذلك لأن الاختلافات أدت إلى التحاسد والتنافس فيما بينهم. ومال الخلفاء إلى طائفة دون أخرى، فقرب المعز الكتاميين وجعلهم خاصته ومستشاريه، بينما ارتفع شأن الأتراك والديلم والمشارقة فى عهد العزيز بالله (٣٦٥-٣٨٦هـ)، وأُبعد المغاربة. وتنازع المغاربة مع المشارقة فى عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ)، ثم أكثر الحاكم من شراء العبيد، وتضاعفوا فى عهد المستنصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ)، فكانوا فرقة هائلة فى الجيش الفاطمى، حتى بلغت أعدادهم نحو خمسين ألف جندى.

وهكذا تعددت أجناس الجيش الفاطمى ما بين عبيد سود، وعرب، وأرمن، وصقالبة، ومغاربة، ومصريين، وغير هؤلاء. وتعارضوا فى الجنس، واللون، والعادات، والتقاليد، والأهواء، والأهداف. وحاول كل منهم السيطرة على كل شىء فى مصر، بل وعلى الخليفة نفسه لتحقيق أغراضهم والحصول على أكبر المكاسب. فكان ذلك من أسباب الفوضى والاضطراب. فيذكر ابن ميسر «أن الغلاء لم يكن من قصور ماء النيل، وإنما كان من اختلاف الكلمة، ومحاربة الأجناد مع بعضهم البعض، وكانت طوائف عدة. فتغلبت لواتة والمغاربة على الوجه البحرى، وتغلب السودان على الصعيد، والأتراك بمصر والقاهرة»، واضطرب الأمن فى البر والبحر وفقد الأمان بالطرقات مما أدى إلى توقف التجارة، وتوقفت الصناعات.

ثالثاً: صراع الوزراء ورجالات الدولة:

كان الصراع بين الوزراء وكبار رجال الدولة هو الطابع السائد فى العصر الفاطمى الثانى (٤٦٦-٥٦٧هـ/ ١٠٧٣-١١٧١م) وقد أدى هذا الصراع إلى انهيار الاقتصاد المصرى وانهيار قوة الدولة الفاطمية نفسها.



وأول هذه الصراعات هو ما حدث بعد مـوت الخليفة المستنصر بالله، وأخذ البيعة لابنـه المستعلى دون أخيه نزار بتخطيط من الوزير الأفـضل بن بدر الجمالى. أما الصراع التالى فكان بين أبناء الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٥-٥٤٤هـ/ ١١٣٠-١١٤٩م). وقد توقفت فى هذا الصـراع الحياة الاقتصـادية بالقاهرة، وانقسم الجند إلى الريحانية والجـيوشية، وقـامت الحروب الشرسة بين القاهرة وبـين القصرين، وقتل فيـها نحو عشرة آلاف نفس. ثم الصراعـات بين بهرام الأرمنى ورضوان بن الولخشى، الذى امتد إلى معظم المدن المصـرية مثل قوص وأسوان. ولنا أن نتصوّر أحوال البلاد الاقتصادية فى خضم هذا الصـراع الدامى. فقد انتشر الغلاء والمجاعـة سنة ٥٣٦هـ، وعدِمَ القمح والشعير، حتى بلغ سعـر القمح تسعين درهما للأردب، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، والويبة الشعير سبعة دراهم، وكثر الوباء والموتان.

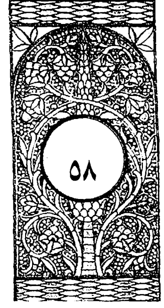
ومن الكوارث السيـاسية والاقتـصادية أيضا ما حـدث من صراعات فى أواخر عـهد الدولة الفاطمية بيـن كل من شاور بن مجير السعدى وضـرغام بن سوار سنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م. ووصف عمارةُ اليمنى حـالةَ مصر فى هذا الصراع فقال: «لم يرب أحـد من الوزراء المصريين رجال الدولة مثـلما رباهـم الصـالـح بن رزيك، ولا أفنى أعـيانُهم مـثل ضرغـام، ولا أتلف أموالهم مـثل آل شاور». وعندما استولى أسد الدين شيركوه على الـبلاد - بعد مقتل شاور- ناشد التجارَ والصناعَ المهاجرين بالعودة إلى بلدانهم وتعميرها، فعادت الحياة إلى المدن والقرى المصرية من جديد.

رابعاً: أثر الإنفاق على الحملات الحربية ومساندة الحركات الانفصالية:

كان من الأسـباب المهمة التى أضـرت بالاقتصاد المـصرى الأموال الكثيـرة التى صُرِفت فى إعداد الحمـلات الحربية الضخمـة للتوسع أو صد الأخطار التى كانت تهـدد الدولة، وكذا لمساندة الحركات الانفصالية ضد الدولة العباسية، مما ساعد على استنزاف موارد وخزينة البلاد.

وكانت أولى الحركات الانفصالية التى استنزفت كثيراً من ميزانية الدولة هى حركة أبى ركوة فى برقـة، حيث بلغ مـا أنفق على حـملات المرسـلة مليون دينار ذهبـاً. هذا إلى جـانب السلب والنهب الذى أحدثته قوات أبى ركوة فى منطقة الفيوم والجيزة وبلاد الصعيد. حيث استمر السلب والنهب من سنة ٣٩٥هـ إلى سنة ٣٩٧هـ توقفت فيها الزراعة، وتعطلت الطرق التجارية.

وكانت حركة البساسيرى هى الحركة الانفصـالية التالية ضد الدولة العباسية، وإقامـة الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمى فى بغـداد. وقد أمد الخليـفةُ الفاطمىُّ البساسيرى بالأموال والخيل والسلاح، واشـتملت على مليون وثلاثمـائة ألف دينار، والعين ألف ألف وتسعـمائة ألف دينار، والعروض أربعمائة ألف دينار، وكانت هذه الإمدادات سببـا رئيسا فى خراب اقتصاد مصر فى سنة ٤٤٨هـ.

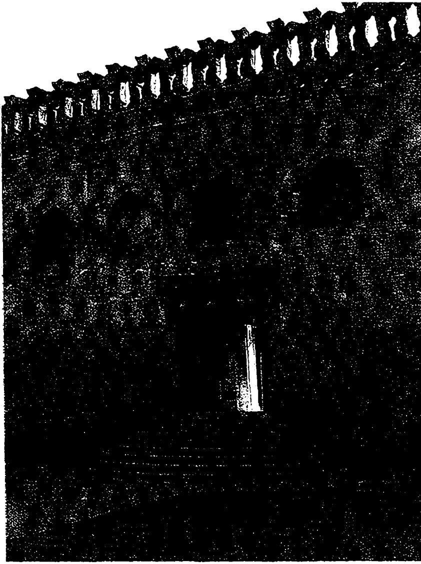


وشهد العصر الفاطمى الثانى الكثير من الحملات الحربية التى استنزفت أموال البلاد وقضت على ما فى خزائنها من مدخرات، وقد عدَّد هذه الحملات كل من ابن ميسر والمقريزى وأبو المحاسن وابن الأثير وغيرهم.

الحياة الاجتماعية فى مصر زمن الفاطميين:

ظهر دور اجتماعى لبعض العناصر السكانية فى العصر الفاطمى، مثل المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية فى المغرب، وخاصة الكتاميين؛ وأثار المغاربةُ بعضَ الفتن والقلاقل. ففى سنة ٣٦١هـ نهبت المغاربة بعض الأحياء، فثار الأهلون، وتقاتل معهم المصريون، فحسم جوهر الصقليُّ النزاع، وعوّض الناس عن ما نُهِبَ منهم. وتكررت الفتن والقلاقل سنة ٣٦٢هـ حيث نهب بعض المغاربة جهات القرافة، فأمر جوهر بضرب أعناقهم. لكنهم عادوا للعدوان مرة أخرى سنة ٣٦٣هـ، فاحتلوا الدور جهة القرافة وأجلوا سكانها عنها، فأمرهم المعز بترك الدور، وبنى لهم دوراً، وأجبر المغاربةُ الخليفةَ الحاكمَ بأمر الله على تولية زعيمهم الحسن بن عمار وعزل ابن نسطورس.

وكان هناك الأتراك الذين كثر عددهم منذ الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ) وظهر أمرهم فى عهد الحاكم بأمر الله، حين بالغ الحسن بن عمار فى محاباة المغاربة، وأبطل أعطيات الأتراك. مما أثار عليه الأتراك، ونافس برجوانُ التركى ابنَ عمار حتى اضطر ابن عمار إلى الهرب وحل هو - أى برجوان -- محله.



باب مسجد ابن طولون

وأخيراً هناك العنصر السودانى الذى كثر أيام كافور الإخشيدى، وظهر أمرهم فى عهد الحاكم، الذى استعان بهم على الأتراك. فأحرقوا القاهرة حنقاً على المصريين. ثم ظهر أمرهم من جديد فى عهد الظاهر لإعزاز دين الله، الذى تزوج من سودانية. وتفاقم خطرهم فى عهد المستنصر بالله، حتى بلغوا خمسين ألفا، وتقاتلوا مع الأتراك. وفر السودانيون إلى الصعيد، واستقر منهم خمسة عشر ألفا وأخافوا الفلاحين. وظل السودانيون يشكلون عنصراً هاما من فئات الشعب المصرى منذ نهاية الدولة الفاطمية.

وقد اتسمت الحياة الاجتماعية للخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة الفاطمية بالثراء والترف. فأقاموا القصور، التى كان من أشهرها: القصر الشرقى الذى بناه جوهر الصقلى للخليفة المعز



زجاج معشق وزخارف جصية كانت تزين القصور الفاطمية

لدين الله، والقصر الغربى الذى بناه الخليفة العزيز بالله غربى القصر الشرقى، كما بنى قصراً آخر فى عين شمس، وقصراً ثالثاً أطلق عليه القصر البحرى.

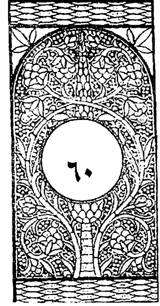
وقد عاش الخلفاء الفاطميون وأسرهم فى هذه القصور عيشة البذخ. تشهد بذلك الملابس الفاخرة التى كانوا يرتدونها، والمصنوعة فى دار الكسوة. وكانت الثياب موشاة بخيوط الذهب والفضة. كما ظهر البذخ فى الأسمطة الفاخرة المحتوية على ما لذ وطاب من أنواع الطعام والشراب.

كما عاش الوزراء الفاطميون عيشة الترف. فكان فى قصر يعقوب بن كلس -- وزير الخليفة العزيز بالله - مطابخ تخص ضيوفه، ومطابخ لغلمانه وحاشيته وأتباعه، وارتدى حجابه الملابس الحريرية وتقلدوا السيوف. وجعل الوزير الأفضل بن بدر الجمالى فى قصره مالا يحصى من الأدوات، والثياب الحريرية، والبسط، والستور، وأقام الأسمطة فى الأعياد، وبنى بستانا وأحاطه بسور كبير وحفر فيه بركة كبيرة، وجلب كثيراً من الطيور لتسرح فى البستان.

وكان من أهم ما يميز الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الفاطمى المبالغة فى إحياء الأعياد والمواسم بشىء كثير من الإسراف والمبالغة فى الأبهة. سواء كانت أعياداً دينية: كعيد الفطر، وعيد الأضحى، ورأس السنة الهجرية، والمولد النبوى الشريف، ومولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب، ومولد الحسن والحسين وفاطمة الزهراء. أم كانت أعياداً شعبية مثل وفاء النيل، وعيد النوروز، وعيد الربيع. كما شاركوا النصارى فى أعيادهم مثل ليلة الغطاس، وخميس العهد.



حشوات من العاج لملامح الحياة الفاطمية المترفة - الصيد والطرب - ق٥هـ/ ١١م



وكانت المواكب السلطانية من المظاهر الاجتماعية. يركب الخلفاء الفاطميون فى مواكب فخمة يشقون بها شوارع القاهرة وسط مظاهر الزينة وأفراح الأهالى. وهناك نوعان من المواكب: المواكب العظام، والمواكب المختصرة. ويتألف الموكب من الخليفة والحاشية وطوائف من الجيش. وكان الهدف من هذه المواكب هو إبراز ما لسلطة الدولة من نفوذ وقوة وهيبة.

كذلك انتشرت المجالس الاجتماعية كمجالس الموسيقى والغناء، واشترى الخلفاءُ والوزراءُ والأعيانُ الجوارىَ المغنيات. وأقيمت مجالس الطرب على شواطئ الخليج بالقاهرة. ويبدو أن الفساد الخلقى والانحلال الاجتماعى صاحب هذه المجالس؛ لذلك منعها الحاكم بأمر الله. غير أنه بوفاة الحاكم بأمر الله (٤١١هـ) عادت مجالس الطرب مرة أخرى. وسأتكلم بشىء من التفصيل عن مكانة المرأة فى العصر الفاطمى ومكانة أهل الذمة.

● المرأة فى العصر الفاطمى:

كان للنساء شأن كبير فى الدولة الفاطمية، وقد أتاحت الظروفُ السياسيةُ ظهورَ بعض الشخصيات النسائية على مسرح الأحداث، وسيَّر بعضُهن شئون الحكم بمقدرة عالية.

ففى قصور الخلفاء الفاطميين سكنت زوجات الخلفاء وأخواتهم وكرائمهم وعماتهم وحظاياهم، وأطلق عليهم اسم «حريم». ويبدو أن عدد نساء القصور كان كبيراً، فقيل: إنه لما أُخْرِجَ الخليفةُ العاضدُ من قصره على يد صلاح الدين سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وجد بالقصر اثنتا عشر ألفا وهو عدد مبالغ فيه.

وقد ساد تعدد الزوجات والمحظيات عند الخلفاء الفاطميين، ولا سيما فى العصر الفاطمى الثانى. كما انتشر التسرى واتخاذ الجوارى، حتى أن معظم أمهات الخلفاء كُنَّ أمهات أولاد.

وأطلق على زوجة الخليفة كلمة «جهة» أو «الجهة العالية» أو «كبراء الجهات» حسب حظوة المرأة ومنزلتها. وكان لكل زوجة من زوجات الخلفاء موظف لُقِّبَ بالأستاذ ومعه عدد من الموظفين توكلهم المرأة للإشراف على أعمالها.

وقد اتخذت المرأة الفاطمية العديد من الألقاب مثل: «الجليلة» وهو لقب أطلق على أم الخليفة المستنصر وزوجة الخليفة الآمر. كما أطلق لقب «السيدة» على ست الملك وأم المستنصر وأم المستعلى وغيرهن. ولقبت بعض النساء «بالشريفة»، وهو لقب صار لقباً عاماً على كل عباسى فى بغداد وعلوىٍّ فى مصر. وعرفت ابنة الخليفة الظاهر وأخت الخليفة المستنصر وأم الخليفة المستعلى «بالرحيمة»، وهناك ألقاب أخرى مثل: «الطاهرة»، و«الكريمة» و«المحروسة».

واشتهرت كثير من النساء الفاطميات بالثراء، والبذخ، وكثرة الثروات، متمثلة فى الجواهر والتحف الثمينة. وقد آلت هذه الثروات لهن عن طريق الوراثة، لأن البنت ترث كل ما ترك أبوها



فى المذهب الشيعى. أو عن طريق ما يُهدى لهن أو يشترينه من التحف النادرة الثمينة.

ومن أمثلة ثروات الفاطميات ما تركته «سيدة الملك» أخت المعز لدين الله، والتى توفيت فى خلافة أخيها، ووجد لها ثلاثمائة صندوق ومن الفصوص الياقوت الملون واللؤلؤ، ووجد لها من الشِّقق الحريرية ثلاثون ألفا شقة. كما تركت «رشيدة» ابنة المعز (توفيت سنة ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م) ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية، وآنية مملوءة كافور قيصورى، ومعممات بجواهرها من أيام المعز، وثلاثين ثوب خز، واثنى عشر ألف من الثياب. أما السيدة «عبدة» بنت المعز فتركت كثيراً من خزائن الحلى والصناديق المحتوية على خمسة أكياس من الزمرد، وثلاثمائة قطعة فضية وأربعمائة سيف محلى بالذهب، وتسعين طستاً وتسعين أبريقا من صافى البللور.

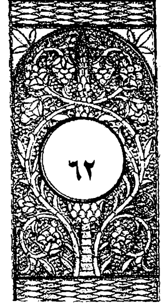
وامتلكت ستُّ الملك أختُ الحاكم الكثيرَ من التحف والجواهر والقماش، وأربعة آلاف جارية ما بين بيض وسود، ومولدات. وكان لها إقطاع فى الصعيد والوجه البحرى يدر مبلغاً كبيراً سنوياً، فضلاً عن الدور والبساتين.

ولم تستسلم بعض النساء الفاطميات للترف فاكتفين بالقليل أو كن من الزاهدات مثل: ست الملك أخت الخليفة المعز، التى كانت تأكل من ثمن غزلها حتى وفاتها. وبعضهن أقمن المساجد والأربطة والقصور. فأنشأت تغريد زوجة المعز جامع القرافة سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، وأقامت زوجة الخليفة الآمر مسجد النارنج فى الفسطاط، بجانب سقاية ابن طولون فى مقابلة القرافة الكبرى. وأقامت السيدةُ عَلَمُ الآمرية مسجدَ الأندلس شرقى القرافة الصغرى سنة ٥٢٦هـ/ ١١٣٢م، كما أنشأت مسجد السيدة رقية ابنة الإمام على، وبنى سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٣م. وبنت زوجة ابن السلار مسجد أم عباس سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، غربى المقابر بالقرافة الكبرى.

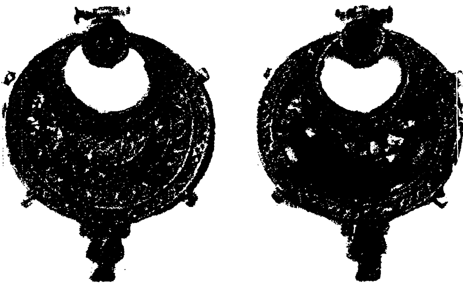
واهتمت المرأة الفاطمية بإنشاء الأربطة لتشارك العجائز والأرامل والمنقطعات للعبادة، وأُخرجت لها الجرايات.

وأقامت بعض النساء الفاطميات أحواضاً لتخزين المياه للمساجد والمنازل البعيدة عن المياه، مثل حوض القرافة الذى أمرت ببنائه ست الملك عمة الحاكم بأمر الله سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م. وحوض فى داخل قصر «أبى المعلوم» أنشأته السيدة أم الخليفة العزيز بالله.

وقد امتلأت قصور الخلفاء وكبار الموظفين بالجوارى. فكان لابن كِلِّسَ وزيرَ الخليفة العزيز ستمائة حظية، وللأفضل بن بدر الجمالى ثمانمائة جارية، منهن خمسون حظية، لكل واحدة منهن حجرة خاصة بها. كما أقبلت الأميرات الفاطميات على شراء الجوارى، فكان بقصر ست الملك - أخت الخليفة العزيز - ثمانمائة جارية، ولست الملك أخت الخليفة الحاكم أربعة آلاف جارية.



وقد تأرجحت أسعار الجوارى فى العصر الفاطمى، إذ بلغ سعر الجارية عشرة دنانير، وهناك من وصل سعرها إلى ثلاثين ديناراً، وأحسن جارية بيعت فى أسواق مصر -كما ذكر الإدريسى- كان سعرها ثلاثمائة دينار.



قرط من الذهب من زخارف مفرغة - القرن ٥هـ/ ١١م

وقد قامت الجوارى ببعض الأعمال العادية فى القصور والبيوت وأطلق عليهن المستخْدَمات، كما أطلق على قسم آخر أرباب الصنائع من القصوريات. ومن الوظائف التى شغلتها الجوارى: صاحبة دواة الخليفة، والقهرمانة - أى القائمة بالأعمال المهمة- والعمل فى الخزانة الباطنة، ومقدمة المائدة الشريفة، ومقدمة خزانة الشراب، والمغنيات، والراقصات، والطباخات.



إبريق من الكريستال الصخرى باسم الخليفة العزيز بالله - صناعة مصر الفاطمية

وامتلك مياسير الناس بعض الجوارى اللاتى كن يقمن بتربية الأطفال والخدمة فى المنزل، وقد فُضّلت الجارية النوبية والصغيرة السن.

وشاركت سائر النساء فى الحياة العامة، وكانت أكثر النساء العاملات من الأرامل والمطلقات والفقيرات. فعمل بعضهن فى أعمال مثل الخبازة والساقية التى تصنع المشروبات وتبيعها، وبائعات العنبر والروائح، والدقيق، والخضروات، وغزل الصوف، وصبغ الحرير، وحياكة الملابس، وغيرها من الأعمال.



كوب من البللور الصخرى - من مجموعة القديسة (هدميك) صناعة مصر ق٦هـ/ ١٢م

وتعرضت النساء فى عهد الحاكم بأمر الله إلى العنف والقسوة، فأصدر قانونا سنة ٣٩٥هـ منع النساء من الظهور سافرات، وألا يتَبَعْنَ الجنائز أو يظهرن للناس فى حالة منافية للحشمة والأدب، ومن الدخول إلى

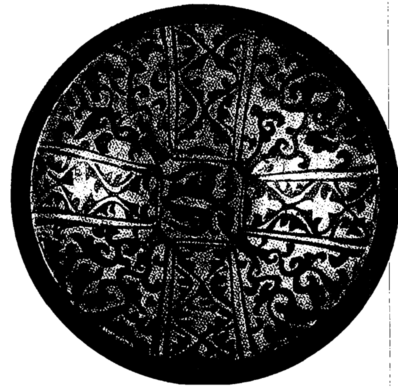


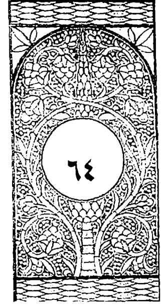

طبق من الخزف مرسوم عليه موضوع مسيحى - العصر الفاطمى - أوائل ق١٢

الحمامات العامة. واستمرت هذه الأوامر سبع سنوات، ولم ترض بعض النساء عن هذه الإجراءات لأن بينهن من لا زوج لها، ولا من يقوم بخدمتهن؛ ولذلك رفعن رقاعا إلى الخليفة بذلك. كما شكا إليه التجار بما أصاب تجارتهم من الكساد لعدم خروج النساء للأسواق، وبعد مقتل الحاكم بأمر الله سمح الخليفة الظاهر للنساء بالخروج وممارسة الأعمال.

وقامت النساء الفاطميات بدور سياسى هام، مثل ست الملك أخت الحاكم بأمر الله، التى سعت للحفاظ على الخلافة الفاطمية، وحكمت مصر بعد مقتل أخيها نيابة عن الخليفة الظاهر لصغره. أما دور الملكة أم المستنصر فكان سلبيا لتدخلها فى شؤون البلاد وتعيين وصرف الوزراء والقضاة والدعاة. وامتدت سيطرتها نَيِّفاً وعشرين عاماً (٤٣٦هـ - إلى ٤٦٢هـ). وفى العصر الفاطمى الثانى ظهرت: أخت المستنصر، وأم المستعلى، وأخت نزار، وعمة الفائز والعاضد، وأخت الظافر.


مئذنة جامع الحاكم بأمر الله الفاطمى داخل دير سانت كاترين - مما يظهر التسامح بين الأديان.


طبق خزفى مرسوم عليه صليب مع نقوش نباتية - مصر



أهل الذمة:

تميز العصر الفاطمى فى مصر بالتوسع فى استعمال الموظفين الذميين، فكان منهم الوزراء، والكتاب، وعمال الدواوين، وجباة الخراج. ولم يعتمد الفاطميون على المسلمين السنيين لمخالفتهم لهم فى المذهب. وكان للنصارى واليهود المصريين خبرة ودراية بالأعمال الكتابية والحسابية، وتحرير الرسائل، وكافة فروع الإدارة. فتدرج بعضهم فى المناصب حتى وصل إلى الوزارة مثل: يعقوب بن يوسف بن كلس الذى قام بدور بارز فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى وولده العزيز بالله، وتولى الوزارة سنة ٣٦٧هـ، ومُنِح لقب «الوزير الأجل»، وفوّضت إليه أمور الدولة. ولما توفى ابن كلِّس سنة ٣٨٠هـ حزن عليه العزيز بالله، وعطل الدواوين لمدة أيام حداداً عليه، ورغم إسلام ابن كَلس إلا أنه خدم اليهود ورعى مصالحهم.

ومن الوزراء الذميين الذين أسلموا «صدقة بن يوسف الفلاحى»، وكان يهودياً ثم أسلم، وولى الوزارة للخليفة المستنصر بالله سنة ٤٣٦هـ، وخدم هؤلاء الوزراء اليهود - رغم إسلامهم - إخوانهَم اليهود وحققوا لهم رغباتهم، وراعوا شؤونهم.

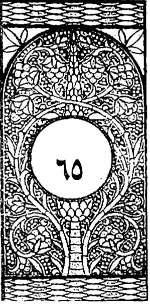
كما خدم الدولة كثيرٌ من أهل الذمة الذين احتفظوا بدينهم.

فعندما دخل جوهر الصقلى مصر، كان يشرف على أمور مصر نصرانى اسمه «قزمان بن ميناً»، كما قربه المعز لدين الله، وأخذ رأيه ومشورته.

وقد عُرِفَ العزيز بالله بعطفه الشديد على المسيحيين الملكانيين واليعاقبة، لأنه تزوج من نصرانية رومانية ملكانية المذهب، وجعل أحد أخويها بطريركا للملكانيين فى بيت المقدس. والثانى مطرانا على القاهرة ومصر. كما استوزر عيسى بن نطورس النصرانى بعد وفاة ابن كلس، وضبط ابن نسطورس الأمور، ووفر كثيراً من الخراج، ومال إلى إخوانه النصارى، فاستعان بهم فى أعمال الدولة دون المسلمين، مما أثار سخطهم. كما استناب الخليفة العزيز بالله بالشام يهوديا يسمى «منشأ بن الفَزَّار»، فأرسلَتْ الشكاوى للعزيز بالله من تسلط أهل الذمة على المسلمين، فأمر العزيز بالله بإقصاء أهل الذمةَ وإقامة المسلمين مكانهم.

وحتى عصر الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ) - الذى يتهمه المؤرخون بالتعصب ضد أهل الذمة- نجدهم فى شتى وظائف الدولة. نذكر منهم «فهد بن إبراهيم» الذى تولى الوزارة فى سنة ٣٨٨هـ، وتمتع بنفوذ عظيم وسلطان واسع حتى قتل سنة ٣٩٣هـ.

ومن الوزراء النصارى فى مصر الفاطمية أيضا «منصور بن عبدون» الذى عرف بالمكر والشدة، وقتله الحاكم وصادر أملاكه. كما استوزر الحاكمُ بأمر الله زرعةَ بن نسطورس سنة ٣٩٧هـ. والحاكمُ «صاعد بن عيسى بن نسطورس» سنة ٤٠٩هـ، ورفع شأنه. كما تولى الإسكندرية مسيحى يدعى «أبا مليح ابن قوطية» منذ خلافة العزيز بالله وحتى الحاكم بأمر الله وعمل قام بن شنودة فى جباية الخراج بكورة الأشمونيين.



وقد برز أهل الذمـة فى عهد المستنـصر بالله (٤٢٧-٤٨٧هـ) حيث اعتـمد على كثير منهم فى إدارة شؤون البلاد، وكان منهم: «أبو السرور يوحنا بن يوسف الأيح»، كاتب سر الخليفة، وعهد إليه بأمـر مصر وأعمالها، وما كان فوق يده يد إلا يد الخليفـة، وأحسن يوحنا إلى النصـارى والمسلمين على حد سـواء، وقضى الحوائج، وأزال الضيم والجـور. ولما توفى أبو السرور حزن عليه الخليفـة المستنصر بالله وقال: «كان نعم الوزير ونعم المشير وكنت مستبارك برأيه ومشورته».

كما اسـتُخْدمَ النصارى فى دواوين الدولة الأخرى مـثل «يحيى بن إبراهيم» الذى تولى ديوان الأبواب وديوان الصناعة، وتولى «سهلون بن كـيل» ديوان المجلس، فاشتد ذلك على الناس، وصادر أموالهم، فلما علم بذلك بدر الجمالى قبض عليه وصلبه.

وقد استمـر دور الذميين فى عهد الآمر بأحكام الله، فكان منهـم الكُتَّاب وعمال الدواوين. ومنهم «أبو الفضـل» بن الأسقف الذى تولى ديوان المجلس والنظر فى جـميع دواوين الدولة. ومن اليهـود «أبو المنجى بن شيبة» الذى عـهد إليه الأفضل بالإشـراف على شؤون الزراعة. واشتـهر من كُتَّـاب الدواوين آنذاك «أبو العـلاء بن نزيك»، وعمل فى ديوان المكتـبات ثم عـمل فى بيت المال، وعهد بديوان التحقيق إلى «يوحنا بن أبى الليث».

ومن النصارى الذين اشتهر أمرهم فى عـهد الخليفة الآمر بأحكام الله الراهب «أبو نجاح بن مينا»، الذى أطلقت يده فى الدواوين والحسـابات، فكان أول عهده جواداً كريما، وأكـثر من فعل الخيـرات، فزادت الإيـرادات. ثم ما لبث أن استـبد بالسلطـة، وقبض على بعض الكتاب وكـبار رجال الدولة، وألحق الأذى بالمصـريين مسلمين ونصـارى. فقبض عليـه الآمر، وأمر بقـتله ضربا بالنعال، لأقوال صدرت منه فى حق المسلمين، أغضبت الخليفة، وقرر عدم استخدام الذميين.

لكن سيـاسة إبعاد الـذميين عن الحكم والإدارة لم تدم طويلاً، فـاستوزر الحـافظُ لدين الله «بهرام الأرمنى» سنة ٥٢٩هـ، فعظم أمره، وأسند للنصارى الدواوين، فكان منهم النظار والكتاب مثل: يحيى بن بولس الذى تولى ديوان التحقيق، واستعمل معه اثنى عشر كاتبا نصرانيا.

وهكذا كـان لأهل الذمة فى الحـياة السيـاسيـة والإدارية فى مصـر دور بارز، فكان منهم: الوزراء، والكتاب، وعمال الدواوين.

وترك الفاطميون للنصارى حريةَ اختيار البطرك، فلما توفى البطرك «أنبا زخارياس» فى خلافة الظاهر لإعزاز دين الله، اجـتمع الأساقفـة واختاروا القس «شنودة» بطركا لهم. وكـان من العادات المتبعة أن يتوجـه البطـرك - بعـد إقامته- إلى قصر الخليفة، ودار الوزير للسلام عليـهما، فعندما تم اختـيار الأب كيـرلص بطركا خرج مـن الإسكندرية قاصداً القـاهرة للسلام على الخليـفة ووزيره. نستخلص من هذا أن أهل الذمة تمتـعوا بالحرية فى حياتهم الدينية والدنيـوية، وكانت إقامة البطرك القبطى أو الملكانى تتم فى هدوء وسلام، وأن الخلفاء الفاطميين اشتهروا بحب أهل الذمة وتقريبهم والاعتماد عليهم، حتى اعتبر العصر الفاطمى من أزهى عصور أهل الذمة فى مصر. وإن لم يخل أحياناً من بعض الفتـرات التى عانوا فيها وبخاصة فى عهد الحـاكم بأمر الله، الذى عرف بالتقلب على رجاله، ولكن سياسته هذه شملت المسلمين والذميين معا.



الفصل السابع
الحياة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى

جاء العـرب المسلمـون إلى مصر فـاتحين، ودخلـت مصر دوراً جـديداً فى تاريخها، وهو الدور الإسـلامى، وحملت مصر فى هذا الدور ملمحاً مـتميزاً عن غيرها من الأمصار الإسلامية. فبفضل مـركز مصر المتوسط بين الشرق والغرب كان عرب المشرق يلتقون فى مصر بالمغاربة والأندلسيين فتتلاقح الآراء، مما ساعد على إيجاد ما يشبه الملامح الفكرية والأدبية العامة بين كل المسلمين.

وقد تميز تاريخ مـصر منذ أقدم العصـور بأنه لا يقبل الآراء المتطرفة والتعـاليم المعقدة، والدعوات الهـدامة. وهذا ما حدث مع الفـاطميين الذين غيـروا من أساليبهم مع المصـريين حتى يقترب منهم المصريون، وإن كان ذلك لم يحدث إلا بقدر يسير.

وقد قامـت فى مصر قبل العـصر الفاطمى حركـة فكرية وأدبية طيبة، رصـدتها بعض الدراسات بشكل طيب، لكن بمجيء الفاطميين إلى مصر وبدعـوة تختلف عما عليه أكثر المسلمين وقتها، فقد كان لهذا العصر ملامحه الخاصة فكرية وأدبية ومراكزه الثقافية وهى كالتالى:

مراكز الثقافة فى مصر فى العهد الفاطمى:

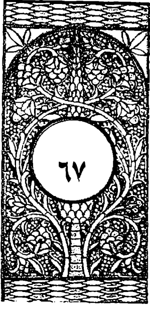
١- القصور والمساجد:

كان من أشـهر القصور التـى كانت مركزاً من مـراكز العلم قـصر المعـز لدين الله الفـاطمى، وقد كـانت به قاعـة تعرف باسم «المحول» وهى قاعة للـدعوة للمذهب الشيعى. وكانت مكتبة هذا القصر من مفـاخر الدولة الفاطمية، وعنها يقول المقـريزى: «ومن جملة ما باعـوه - أى الدولة الأيوبية» خزانة الكـتب، وكانت من عجـائب الدنيا، ويقـال: إنه لم يكن فى جمـيع بلاد الإسلام دار كتب أعـظم من التى كانت بالقـاهرة فى القـصـر» وقد تناثرت هـذه المكتبـة فى الشـدة المستنصرية وغيرها من فترات ضعف الفاطميين وسقوطهم.

وكـان قصـر الوزير ابن كلس ملتـقىً لطلاب العلم والعلماء، وكان بالقصر موظـفون للنَّسْخ ومراجعين وقراء، وقد عين لهم ابن كلس الرواتب.



الجامع الأزهر

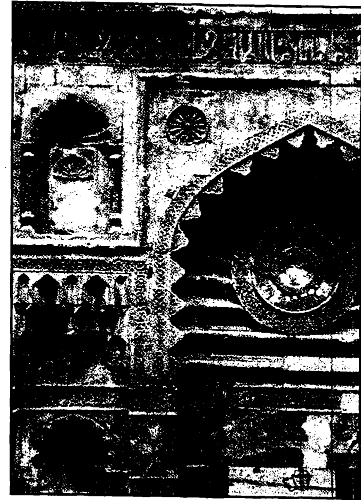




أما المساجد فكانت تقوم مقام المدارس والجامعات حاليا. وقد أنشأ جوهرُ الصقلى الجامعَ الأزهر مع تأسيس مدينة القاهرة، وتم بناؤه سنة ٣٦١هـ، وجدد بعد ذلك ووقفت عليه الأوقاف. وكان الجامع الأزهر هو مكان تدريس الدعوة الفاطمية، وقد سُمِح بتدريس المذاهب الأخرى أيضا به. وإلى جانب الجامع الأزهر بنى الفاطميون جامع الحاكم وجامع راشدة، وجامع المقس، وجامع القرافة، والجامع الأقمر، وغيرها.

محراب خشبى متنقل وجد فى ضريح السيدة نفيسة من العصر الفاطمى القرن ٦هـ/ ١٢م

٢- المكتبات:

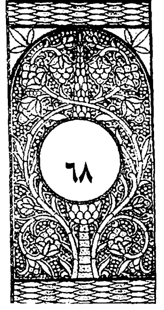


باب جامع الأقمر

اهتم الخلفاء الفاطميون والوزراء بزيادة عدد الكتب التى تتناول شتى فروع العلم. ففى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م أسس الحاكم دار الحكمة، وكانت مكتبة دار العلم متصلة بمكتبة دار الحكمة التىَ أُمِدَّتْ بكثير من المؤلفات للاطلاع والنسخ والبحث والدراسة، وكان الناس يأخذون منها المداد والأقلام والأوراق والمساند. ويذكر أبو المحاسن أن عدد الكتب فى مكتبة القصر كان مائة وعشرين ألف مجلد، وبلغت مكتبة قصر الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ٥٠٠,٠٠٠ مجلد نقلت لمكتبة القصر، ومكتبة الوزير أبى القاسم بن عباد «ت٣٨٥هـ» اشتملت على ٢٠٦,٠٠٠ مجلد.

٣- دار العلم:

أنشأ الحاكم بأمر الله جمعية علمية، وأطلق عليها «دار الحكمة»، والتحق بها عدد من القراء والنحاة والفقهاء والمنجمين واللغويين والأطباء، وألحق بدار الحكمة مكتبة أطلق عليها «دار العلم» وأجرى علىَ خُدَّامِهَا الأرزاق، ووفَّر ما يحتاج إليه النساخ والمطالعون من الحبر والأقلام والمحابر والورق.



العلوم والآداب فى العصر الفاطمى:

١- علوم القرآن:

سادت علوم القرآن فى مصر الفاطمية كما فى سائر الأمصار الإسلامية. فعرفوا التفسير، وأسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وأحكام القرآن، والقراءات، وإعجاز القرآن. ولما دخل الفاطميون مصر حملوا معهم التأويل الباطنى للقرآن، وسموا ما عداه بتفسير العوام. وكان التأويل عندهم شخصياً يختلف باختلاف الداعى، ومثال على تفسيرهم الباطنى قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ... ⑩﴾ (نوح) أى اسألوا أن يطلعكم على التفسير الباطنى، ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ⑪﴾ (نوح) فـ: السماء هى الإمام، والماء المدرار، هو العلم من الإمام، وغير ذلك من الشطحات، بل يصل أحيانا إلى سباب الشيخين أبى بكر وعمر (رضى الله عنهما).

أما أشهر المفسرين فى هذا العصر فهم: على بن إبراهيم بن سعد الحوفى (ت٤٣٠هـ) الذى أخذ عن أبى جعفر النحاس وأبى بكر الأدفوى، وكان عالماً بالعربية، وله تفسير «البرهان فى تفسير القرآن» فى ثلاثين مجلداً، وله أيضاً «إعراب القرآن» فى عشر مجلدات.

ونذكر كذلك «عبد العزيز بن على بن محمد بن إسحاق» المعروف بابن الإمام مسند القُرّاء فى زمانه، (توفى ٣٨١هـ) وكذلك «أبو بكر الأدفوى محمد بن على بن أحمد المصرى» المقرئ، النحوى، المفسر شيخ مصر وعالمها، وله تفسير «الاستغناء فى علوم القرآن» فى ١٢٠ مجلداً، (ت ٣٨٧هـ). وأيضا «عبد الجبار بن أحمد الطرسوسى» (ت٤٢٠) هو شيخ القراء فى عصره، وله «المجتبى فى القراءات». وكذلك «فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الضرير» «ت٤٠١هـ». كما يروى ياقوت أن «عثمان بن على السرقوسى الصِّقلى» كان عالماً بالنحو واللغة، وقرأ القرآن على ابن الفحام وغيره، وله حلقة للإقراء، وله تواليف فى القراءات والنحو والعروض. فمن هذا كله يتضح أن الفاطميين لم يستطيعوا أن يقفوا ضد سنية مصر كثيراً، وقد أجبرتهم صلابة المصريين على التسامح مع علماء أهل السنة.

٢- رواية الحديث:

نشطت رواية الحديث فى مصر، مثلما كان فى الأمصار الأخرى. ومن أشهر الحفاظ فى هذا العصر عبد الغنى بن سعيد الأزدى «ت٤٠٩هـ»، وقال عنه الدارقُطْنى: رأيت شاباً بمصر كأنه شعلة نار يقال له عبد الغنى، وقد ألف كتاب «المؤتلف والمختلف»، ولما أراد الحاكم بأمر الله بناء جامعة جعل الحافظ عبد الغنى على بنائه ونظره.



وكان أشـهر المحـدثين فى أواخـر العصـر الفاطمى الحـافظ السلفى، الذى انتهت إليـه علوم الإسناد، وكان أوحد زمـانه فى علم الحديث وأعلمـهم بقوانين الرواية، وقد بنى له العادل بن الحسن على بن السلار وزير الظافر الفاطمى مدرسة بالإسكندرية سنة ٥٤٦هـ، وفوض أمرها إليه.

وممن وفد على مصر لطـلب علم الحديث أبو بكر بن العربى، الذى لقى فى مصر مجموعة من المحدثين وروى عنه. ثم عاد للأندلس سنة ٤٩٣هـ، وكذلك أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى المعروف بابن القيسرانى المتوفى سنة (٥٠٧هـ).

٣- الفقـه:

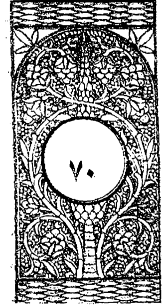
كان مسلك الفاطمـيين فى بعض الأوقات متشدداً فى نشـر مذهبهم. فكانوا يكرهون الناس على اعتناق عـقيدتهم رهبـة ورغبة، وقـد اضطهدوا علمـاء أهل السنة، حتى قال السـيوطى: إن الفاطميـين أفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة - أى: الشـافعية والمالكية والحنفيـة - قتلا ونفياً وتشريداً، وأقاموا مذهب الرفض والشيعة».

ورغم هذا الاضطهاد إلا أن أهل السنة ثبتوا - مثلما فـعل المغاربة المالكية مع الفاطميين فى المغرب-، فرأينا من علمـاء الشافعية القاضى مـحمد بن أحمد بن عيـسى البغدادى (ت٤٤١هـ)، ونصر بن بشر بن على (ت٤٧٧هـ)، وعلى بن الحسين الموصلى (ت٤٩٢هـ)، وقد تولى القضاء، وإليه ينسب مسجد الخلعى.

ومن فقهـاء الشافعيـة «سلطـان بن إبراهـيم بن مسلم المقدسى»، (ت٥١٨هـ) الذى كان من أفقه الفقـهاء بمصر، وكذلك «يوسف بن عبد العـزيز بن على الميورقى» (ت٥٢٣هـ)، و«مجلى بن جمـيع بن نجا المخـزومى المصرى»، وقد تولى الـقضاء ٥٤٧هـ ومكث فـيه عامـين، وتوفى عام (ت٥٥٠هـ)، وأيضاً «عـبد الله بن رفـاعة بن غـدير السعدى»، الذى وَلِىَ قـضاء الجـيزة، وترك القضاء واعتزل فى القرافة حتى توفى سنة (٥٦١هـ).

أما فقـهاء المالكية فـمنهم «محمد بن سليـمان» المعروف «بأبى بكر النعال» الـذى كان إمام المالكية، وكـانت حلقتـه فى الجامع تدور على سـبعة عـشر عـموداً، لكثرة الطـلاب الذين كانوا يقصدونه للأخـذ عنه، توفى سنة (ت ٣٨٠هـ)، و«الجوهرى عبد الرحيم بن عـبد الله الغـافـقى» صـاحب مسنـد «المـوطأ»، (ت٣٨٠هـ)، وقـد أتـى من بغـداد الفقـيه المالـكى «عـبد الوهاب بن على» الذى أتى مصر مَعْدِماً، فكان أفقه المالكية، فحسنت حاله، ولما مرض كان يقول: «لا إله إلا الله عندما عشنا متنا»، وتوفى برحمة الله سنة ٤٢٢هـ.

وفى أواخر عهد الـدولة الفاطمية أصبح الخليفـة ألعوبة فى أيدى وزرائه. فظهر من الوزراء من كان على غير مذهب الدولة، وعادت حرية المذهب حتى عين الوزيرُ أحمدُ بن الأفضل بن بدر



الجمالى أربعةَ قضـاة: اثنين من الشيعة، واثنين من أهل السنة، فالشيعيان أحدهما فـاطمى المذهب والآخر إمـامى المذهب، والسنيان أحدهما شافعى والآخر مالكى.

٤- التاريخ والسيرة:

كـان من المؤرخين الذى شـاهدوا هذا العصر «أحمد بن عبد الله الفرغانى» الذى ولد سنة ٣٢٧هـ، وقد كـان أبوه مؤرخـاً، وقد صنف الفـرغانى كتـاب التاريخ الذى وصل به تاريخ أبيـه، وكتاب سـيرة كافور الإخشيدى، وسـيرة العزيز بالله الفاطمى، وتوفى سنة ٣٩٨هـ. وشهد هذا العصر كذلك المؤرخ الحسن بن إبـراهيم الليثـى المعـروف «بابن زولاق» «ت٣٨٧هـ» وقد صنف عدة كتب منها: «سيرة محمد بن طغج الإخشيد، وأخبـار سيبويه المصـرى، وفضائل مصـر، وسيرة كـافور، وسيرة جـوهر، وسيرة المعز، وسـيرة العزيز، والتاريخ الكبير على السنين، وخطط مصـر، وأكثر هذه الكتب فقدت، ولم يبق منها إلا شذرات فى الكتب الأخرى.


باب خشبى من العصر الفاطمى فى الجامع الأزهر

ومن مؤرخى هذا العصـر «المختار عز الملك ابن أبى القـاسم عبيد الله بن أحمـد المسبحى» (ت٤٢٠هـ)، وقد صنف فى التاريخ والأدب. فمن كتب التاريخ كتاب «التاريخ الكبير»، ولم يبق منه إلا فقرات متفرقة فى كتب التاريخ، وجزء صغير فى مكتبه الأسكوريال بأسبانيا.

ومن المؤرخين النابهـين أيضاً «محمد بـن سلامـة بن جعفر القـضاعـى» (ت٤٥٧هـ)، وله مؤلفات منها: مناقب الإمام الشافعى وأخباره، وتواريخ الخلفاء، وخطط مصر.

ومن كتب السـير كتاب «سـيرة الأستاذ جـؤذر»، وهو من أكابر رجال الدولة، وقـد أغفله المؤرخون، وكذلك كتاب «السيرة المؤيدية» للمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة.

٥- الفلسفة:

سمـحت الدولة الفاطمـية بنوعـية خاصـة من الفكر يساعـد توجهـها السيـاسى والفكرى والدينى. وظهرت جماعات فكرية اهتمت بالفكر والعقائد الشيعية، مثل وجود إمام منصوص عليه وتعيـين هذا الإمام، وصفـات الإمام، ونظريتهم فى التـأويل الباطن، وعقـيدة التناسخ والحلول،



وغيـر ذلك من الأفكار والمتأثرات التى دخلت على الفكر الإسمـاعيلى فى أطواره المختلفة. وكان أشهر ملامح الحركة الفلسفية فى الدولة الفاطمية هى:

• إخــوان الصفــا:

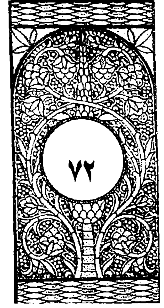
وهى جماعة سرية تتألف من طبقـات متفـاوتة، وهى ذات نزعة شـيعـيـة متطرفـة حـتى قيل إنهـا إسماعيلية. وقـد نشأت فى البصرة فى أوائل القرن الرابع الهجـرى، ويسمون أنفـسهم «إخوان الصـفا وخـلان الوفا»، وهـم يصرحـون أن غـاياتهم هى صلاح الدين والدنيا والاقتداء بـالفلاسفة والحكماء والنظر فى جميع العلوم والمعارف.



صفحة من رسائل إخوان الصفا - (١٢٨٧م-٦٨٦هـ)



صلاح الدين الأيوبى - تمثال بدمشق



وقد ألف إخوان الصفا رسائلهم المعروفة فى مدة طويلة، وهى لا تمثل وحدة تأليفية، وعدد الرسائل واحدة وخمسون رسالة ثم رسالة فهرست. وقد قسموا رسائلهم إلى أربعة أقسام موصوفة هى:

١- الرسائل الرياضية التعليمية.

٢- الرسائل الجسمانية الطبيعية.

٣- الرسائل النفسانية العقلية.

٤- الرسائل الناموسية الأهلية والشرعية الدينية.

وتعد رسائل إخوان الصفا صورة لأحد الاتجاهات الفكرية فى القرن الرابع الهجرى، كما تعد أول كتاب مجلد يضم جميع أقسام الفلسفة، وهى محاولة تسعى لتثقيف العامة بفنون العلم والفلسفة.

هذا، وقد تألق كثير من الفلاسفة فى الدولة الفاطمية، وساعدوا فى نشر مذهب الدولة فى أمصار كثيرة، ومن أشهر فلاسفة الإسماعيلية:

أبو حاتم الرازى (ت٣٢٢) وأبو عبد الله النسفى (ت٣٣١هـ)، وأبو يعقوب السُّجَّزى «ت٣٣١»، وأبو حنيفة النعمان بن حيون (ت٣٦٣)، وجعفر بن منصور اليمنى «ابن حوشب»، وحميد الدين الكرمانى «ت٤٠٨هـ» والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى.

٦- الأدب [الشعر - النثر]:

عُرِفت الدولة الفاطمية - فى معظم تاريخها - بالثراء واستحداث الأعياد والمواسم والحفلات، وكان الشعراء يتبارون فى قصائدهم تجويداً وفناً، وهذا عمارة اليمنى يرثى الدولة الفاطمية:

أبكى على ما تراءت من مكارمكم   حال الزمان عليها وهى لم تحل

دار الضيافة كانت أنس وافدكم   واليوم أوحشن من رسم ومن طلل

كما اعتنى الفاطميون بالمنشآت والمبانى والمتنزهات، وكان الخلفاء والوزراء يغدقون على الشعراء. هذا فضلا عن اتخاذ الشعر وسيلة من وسائل الدعوة السياسية، وقد خصصت رواتب شهرية لبعض الشعراء مثل «ابن الطوير» الذى كان يعطَى راتباً بين عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير، بل أصبحت وظيفة «مقدم الشعراء» من وظائف الدولة الفاطمية فى مصر.



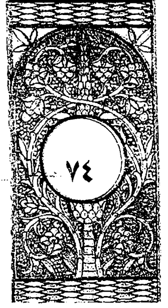
وكان كثير من خلفاء الدولة الفاطمية يقرض الشعر، مثل القائم بأمر الله، والمنصور بالله، والمعز لدين الله، والحاكم بأمر الله، والمستنصر بالله، والآمر بأحكام الله. غير أن معظم الأشعار فى الدولة الفاطمية ضاعت بسبب حرق الأيوبيين للكتب بما فيها دواوين الشعر نظرا لما فيها من تجاوزات دينية. قال العماد الأصفهانى فى ابن الضيف داعى الآمر وشاعره: «وكنت عازماً لفرط غلوه على حظه لأنه أساء شرعاً وإن أحسن شعراً، بل أظهر فيه كفراً، ولكننى لم أر أن أترك كتابى منه صفراً، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر، ويقصده البر والفاجر، ويحمل الغثاء كما يحمل الدر» وقد اكتفى الثعالبى والعماد الأصفهانى وابن سعيد المغربى وغيرهم من مؤرخى الأدب بعدة أبيات من قصيدة له، مما يجعل من الصعوبة صدور حكم صحيح على شاعر.

وقد اشتهر بعض الشعراء فى هذا العصر منهم: «أبو الرقعمق»، و«جاسوس الفلك»، و«الحسن بن خاقان» و«مسعود الدولة»، و«حسن بن زبيد»، و«القاضى ابن النضر»، و«الناجى المصرى»، و«سالم بن مفرج بن أبى حصينة»، و«محمود بن ناصر الإسكندرانى»، و«مروان بن عثمان الكلى»، و«ابن البرقى»، و«ظافر الحداد».

النثر:

كانت فى مصر قبل الفاطميين نهضة فى فن الكتابة، وقد استمر ذلك فى العهد الفاطمى، لما تطلبته الدولة من تسجيل دقيق لكل الأحداث فى ديوان الإنشاء. قال القلقشندى: «لما وَلِيَ الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه، فارتفع بهم قدره، وشاع فى الآفاق ذكره، وولى ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمى».

وقد أورد القلقشندى أسماء بعض رؤساء ديوان الإنشاء: «فكتب للعزيز بالله بن المعز، أبو المنصور بن نسطورس النصرانى، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى أيامه. فكتب للحاكم، القاضى أبو الطاهر الهزكى، ثم كتب بعده لابنه الظاهر. وكتب للمستنصر، القاضى ولى الدين بن خيران، ثم وَلِيُّ الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة وأبو سعيد العميدى. وكتب لكل من للآمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى، إلى أن توفى سنة ٥٢٢هـ، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصَّيْرفى، والقاضى كافى القضاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس، وابن أبى الدم اليهودى، ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق بن الخلال أيام الحافظ والى آخر أيام العاضد.



ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محمود الأنصارى. ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلال قرب وفاته سنة ٥٦٦هـ، وفى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم».

وقد أوردت كتب التراجم والمراجع العامة أسماء أخرى مثل الحسين بن جوهر القائد الذى تولى ديوان الإنشاء للعزيز، ثم استبدل به صالح بن على الروزيارى، ثم جاء بعده الكافى بن عبدون النصرانى، ثم صرفه وقرر بدله أحمد بن محمد القشورى الكاتب، ثم زرعة بن عيسى ابن نسطورس الكاتب النصرانى الملقب بالشافى، وبعده حسين بن طاهر الوزّان، وابن سعيد الفاروقى كان له النظر فى المكاتبات فى عصر الحاكم، كما تولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر، وتولى هبةُ الله الشيرازى ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٣٣هـ، وتولى الوزير ابن المغربى ديوان الإنشاء بعد أن صُرِفَ من الوزارة، وأما ابن سناء الملك أبو محمد الزبيدى الحسنى فكان على رأس ديوان الإنشاء فى عهد الآمر.



المصادر والمراجع

١- المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق جمال الدين الشيال، محمد حلمى محمد أحمد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ٢٠٠٠م.

٢- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، القاهرة سنة١٩٢٥.

٣- ابن أيبك الداودار: الدرة المضيئة فى أخبار الدولة الفاطمية. تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ١٩٦١م.

٤- السيوطى: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة. القاهرة،١٩٦٨م.

٥- القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. القاهرة،١٩١٨م.

٦- يوسف بن تغرى بردى، أبو المحاسن، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. القاهرة، ١٩٣٠م.

٧- ابن مماتى: قوانين الدواوين. القاهرة،١٩٤٣م.

٨- د/ حسن إبراهيم حسن:

- المعز لدين الله الفاطمى، القاهرة،١٩٤٨م.

- تاريخ الدولة الفاطمية، القاهرة،١٩٥٨م.

٩- د/ راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، القاهرة، ١٩٤٨م.

١٠- د/ سعيد عبد الفتاح عاشور وعبد الرحمن الرافعى: مصر فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، سنة ١٩٩٠م.

١١- د/ صابر محمد دياب:

- دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية وحضارتها، دار النهضة العربية، القاهرة،١٩٧٦م.

- سياسة الدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط، عالم الكتب، القاهرة، سنة١٩٧٣م.



١٢- د/ محمد جمال الدين سرور:

- مصر فى عصر الدولة الفاطمية- النهضة المصرية سنة ١٩٦٠.

- الدولة الفاطمية فى مصر- دار الفكر العربى سنة ١٩٧٠.

- سياسة الفاطميين الخارجية - دار الفكر العربى سنة١٩٦٧.

١٣- د/ محمد كامل حسين. أدب مصر الفاطمية، دار الفكر العربى، القاهرة، سنة١٩٨٦م.

١٤- د/محمود الحويرى. مصر فى العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، سنة١٩٩٦م.





الموضوع	الصفحة
- المقدمة.	١
الفصل الأول	
الدولة الفاطمية فى المغرب	٢
الفصل الثانى	
الدولة الفاطمية فى مصر	٦
* العصر الفاطمى الأول هو عصر قوة الخلافة.	٨
* العصر الفاطمى الثانى: عصر ازدياد نفوذ الوزراء.	١٢
* زوال الدولة الفاطمية (٥٦٧ هـ / ١١٧١م).	١٥
الفصل الثالث	
السياسة الخارجية للدولة الفاطمية	١٨
أولاً: العلاقة مع القوى الإسلامية.	١٨
ثانياً:العلاقات بين الدولة الفاطمية والقوى الأوروبية المسيحية المعاصرة لها في حوض البحر المتوسط.	٢٥



الموضوع	الصفحة

الفصل الرابع

النظام الحربى فى الدولة الفاطمية ٢٧

أولاً: الجيش. ٢٧

ثانياً: الأسطول فى العصر الفاطمى. ٣٢

- تقلص النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام. ٣٧

الفصل الخامس

الدعوة للمذهب الإسماعيلى فى العصر الفاطمى ٣٨

أولاً: الدعوة فى المغرب. ٣٨

ثانياً: الدعوة للمذهب الشيعى فى مصر. ٤٠

ثالثاً: موقف أهل السنة فى مصر من الدعوة الإسماعيلية . ٤٥

الفصل السادس

الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى مصر الفاطمية ٤٧

* الحالة الاقتصادية: ٤٧

أولاً: الزراعة. ٤٧

ثانياً: الصناعة. ٥٠



الموضوع | الصفحة

ثالثاً: التجارة فى مصر فى العصر الفاطمى. ٥٢

رابعاً: النظم المالية بمصر فى عصر الدولة الفاطمية. ٥٣

* الأزمات الاقتصادية فى العصر الفاطمى: ٥٥

أولاً: تذبذب فيضان النيل. ٥٥

ثانياً: الصراع بين الجند. ٥٦

ثالثاً: صراع الوزراء ورجالات الدولة. ٥٦

رابعاً: أثر الإنفاق على الحملات الحربية ومساندة الحركات الانفصالية. ٥٧

* الحياة الاجتماعية فى مصر زمن الفاطميين: ٥٨

- المرأة فى العصر الفاطمى. ٦٠

- أهل الذمة. ٦٤

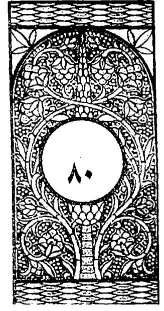
الفصل السابع

الحياة الفكرية فى مصر فى العصر الفاطمى ٦٦

* مركز الثقافة فى مصر فى العهد الفاطمى: ٦٦

١- القصور والمساجد. ٦٦

٢- المكتبات. ٦٧



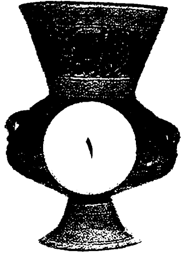
الموضوع	الصفحة
٣- دار العلم.	٦٧
* العلوم والآداب فى العصر الفاطمى:	٦٨
١ - علوم القرآن.	٦٨
٢- رواية الحديث.	٦٨
٣- الفقه.	٦٩
٤- التاريخ والسيرة.	٧٠
٥- الفلسفة.	٧٠
٦- الأدب (الشعر-النثر).	٧٢
- المصـــــادر والمراجـــع.	٧٥
- المحتويـــات.	٧٧

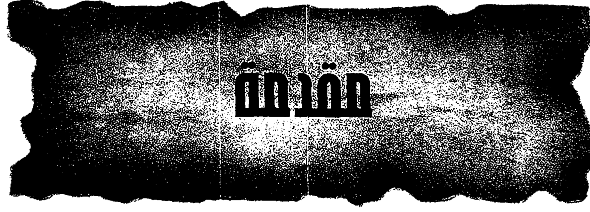
Abstract

This book deals with the history of the Fatimid Caliphate since its rise in North Africa, and its conquest of Egypt in the 10^{th} Century A.D.

Special attention is paid to the relations between the Fatimids and neighboring powers in the Middle East, involving the Islamic and non - Islamic powers.

Dr. Saber Diab





مقدمة

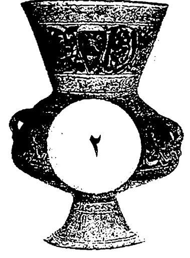
تكونت مدينة القاهرة المعزية من أربع مدن، تلى بعضها البعض فى كونها حاضرة لمصر الإسلامية، وهى مدن: الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة المعزية. وكانت مواقع هذه المدن فيما بين شاطئ نهر النيل الشرقى وتلال جبل المقطم. وقد جاء توسع هذه المدينة من الجنوب إلى الشمال لوقوف المقطم والنيل حائلين دون امتدادها ناحية الشرق.

وكانت الفسطاط، أول عاصمة لمصر، منذ الفتح الإسلامى لها على يد عمرو بن العاص فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، سنة ٢٠ للهجرة، الموافق ٦٤١ للميلاد. وظلت الفسطاط حاضرة لولاية مصر الإسلامية طوال عهد خلافة الراشدين والأمويين. ومع تحول حكم الدولة الإسلامية إلى العباسيين سنة ١٣٢ للهجرة (٧٤٩م) أنشأ «أبو عون عبد الملك بن يزيد»، أول وال عباسى على مصر، ولاه أول خلفاء تلك الدولة وهو «أبو العباس عبد الله السفاح»، مدينة جديدة أسماها: «العسكر» فى فضاء الصحراء الواقع جنب جبل «يشكر»، الذى فيه الآن جامع «أحمد بن طولون» سنة ١٣٣ للهجرة (٧٥٠م)، واتخذها عاصمة لمصر.

ولَّما استقل الوالى التركى «أحمد بن طولون»، بولاية مصر، استقلالا ذاتيا عن دولة الخلافة العباسية، اتخذ لدولته فى مصر عاصمة جديدة سنة ٢٥٦ للهجرة (٨٧٠م)، أسماها مدينة «القطائع»، ظلت عاصمة لمصر طوال عصر حكم الطولونيين، ومن بعدهم «الإخشيديين»، الذين أسس دولتهم «محمد بن طغج الإخشيد».

ولَّما فتح الفاطميون مصر، على يد قائدهم «جوهر الصقلى»، ورأوا نقل دولتهم من بلاد المغرب إليها، قرروا بناء حاضرة جديدة لمصر تكون عاصمة لدولتهم فيها وفى بلاد المغرب، فأنشأوا مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ للهجرة (٩٦٩م)، وهى القاهرة المعزية، التى صارت، فيما بعد، عاصمة العالم وأكبر مدنه، ونافست فى العظمة والازدهار عاصمتى الخلافة الإسلامية الأخرتين: بغداد فى المشرق، وقرطبة فى المغرب.

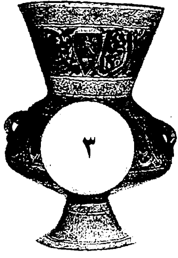
وقد ضمت القاهرة إلى جنباتها العواصم الثلاث السابقة لها واحتوتهم، وقد تجلى ذلك، حين قام صلاح الدين الأيوبى بحكم مصر، وأنهى حكم الفاطميين لها، بإحاطة القاهرة المعزية



المتسعة بسور واحد عظيم جمع كل عواصمها، وأتمه خلفاؤه من بعده من سلاطين الأيوبيين، يمتد من عند منطقة «أثر النبى»، جنوبى الفسطاط وينتهى عند قلعة المقس (بميدان رمسيس الحالى).

وظلت القاهرة المعزية، أو قاهرة المعز، عاصمة لمصر وعاصمة للعروبة منذ بناها جوهر حتى الآن، وامتدت وتوسعت مع مرور الزمن خلال ألف وأربعة وثلاثين عاما، شمالا وغربا حتى تلاقت بحدود محافظتى الجيزة والقليوبية، وصارت من أزحم عواصم العالم سكانا، وألحقت بها مدن سكنية عديدة لاستيعاب الأعداد الزائدة من سكانها والنازحين إليها من الريف والصعيد.

المؤلف



العواصم الأولى لمصر الإسلامية :

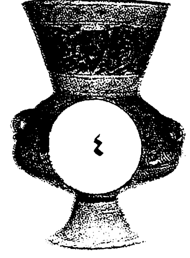
الفسطاط :

أسس عمرو بن العاص، بعد فتحه لمصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١م)، عاصمة جديدة لها، بعد إجلاء الروم عنها، بدلا من مدينة الإسكندرية، التى كانت عاصمة لمصر فى عهد حكم البطالمة والروم (البيزنطيين). وكان عمرو قد اعتزم، بعد فتحه الإسكندرية، السكنى فيها واستمرار اتخاذها عاصمة لمصر، لحبه لها وإعجابه بها. وكان عمرو قد أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب، -رضى الله عنه- يصف فيه الإسكندرية يظهر منه حبه لها وإعجابه بها. وقد جاء فى هذا الكتاب: «لقد فتح الله علينا مدينة من صفتها أنَّ بها أربعة آلاف قصر وأربعة آلاف حمام وأربعمائة ملهى، واثنى عشر ألف بائع للخضر، وأربعين ألفا من اليهود وأهل الذمة». واستأذن عمرو الخليفة عمر السكنى فيها واستمرار اتخاذها عاصمة لمصر، فسأل عمر رسول عمرو إليه قائلا: «هل يحول بينى وبين المسلمين ماء؟» قال : «نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل»، أى وقت الفيضان، فكتب عمر إلى عمرو: «إنى لا أحب أن ننزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف، فلا تجعلوا بينى وبينكم ماء متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت».

فتحوَّل عمرو من الإسكندرية إلى موضع جديد، فى السهل الذى يلى حصن «بابليون»، عند مدينة (منف) القديمة، عُرف (بالفسطاط)، أى الخيمة، وهى باللفظ اللاتينى Fossatum (فوساتوم). وقيل: إنما سُميت العاصمة الجديدة بالفسطاط؛ لأن عمرو بن العاص، لمَّا أراد التوجه لفتح الإسكندرية، لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه، أى خيمته، فإذا فيه يمامة قد أفرخت، فقال عمرو: «لقد تحرَّم منا بمحرم»، فأمر به فأُقر كما هو، وأوصى به صاحب القصر. فلما قفل المسلمون عائدين من الإسكندرية، قالوا: «أين ننزل؟»، قالوا: الفسطاط ـ يعنون فسطاط عمرو الذى خلفه بمصر مضروبًا لأجلْ اليمامة فغلب عليه ذلك ـ وكان موضع الفسطاط المذكور: موضع الدار التى كانت تعرف بدار الحصاد، عند دار عمرو الصغيرة.

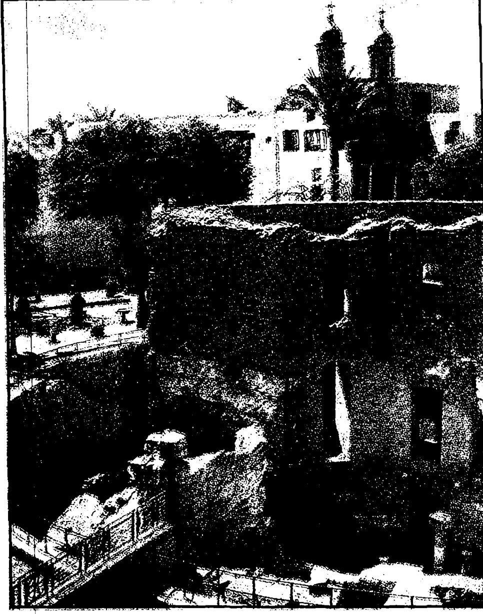
ولما رجع عمرو من الإسكندرية سنة ٢١هـ (٦٤٢م)، نزل موضع فسطاطه، وتنافست القبائل بعضها مع بعض فى المواضع، فولى عمرو عدداً من قواده فصلوا بين مواضع القبائل؛ منهم: معاوية بن حديج التجيبى، وشريك ابن سمى الغطيفى، وعمرو بن قحزم الخولانى، وحيويل بن ناشرة المعافرى.

وكان موضع الفسطاط أرضا فضاء ومزارع فيما بين النيل وجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن كان يعرف «بقصر الشمع»، وكان هذا الحصن مطلا على النيل، وتصل السفن فى النيل إلى بابه الغربى، الذى يُعرف بباب الحديد، ومنه ركب «المقوقس» فى السفن فى النيل من بابه الغربى حين غلبه المسلمون على الحصن وصار فيه إلى الجزيرة التى تجاه الحصن، والتى عرفت بجزيرة الروضة. وكان بجوار هذا الحصن من الجهة الشمالية أشجار وكروم صار



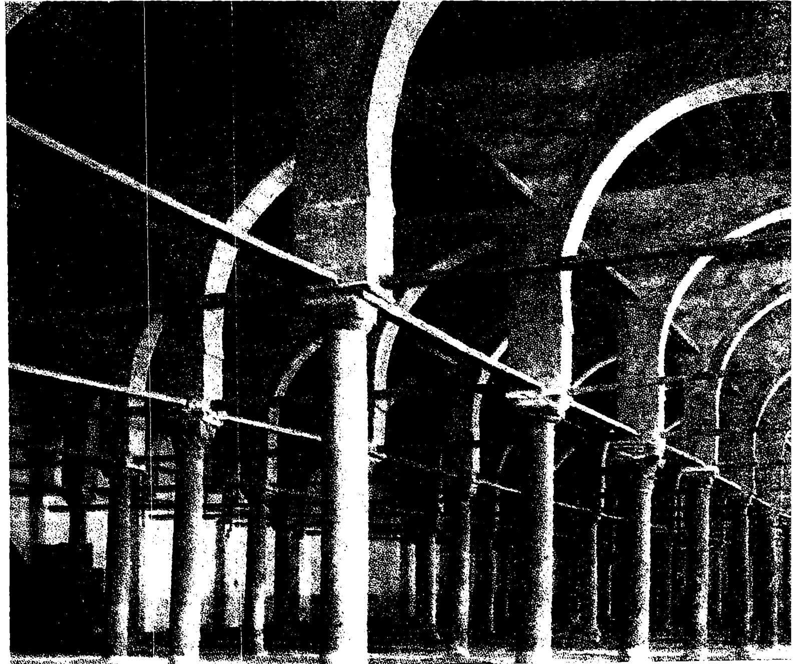
موضعها (الجامع العتيق)، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وأديرة للنصارى.

يقول المقريزى: «فلما افتتح عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية الفتح الأول نزل بجوار هذا الحصن واختط الجامع المعروف بالجامع العتيق وبجامع عمرو بن العاص، واختطت قبائل العرب من حوله». وقد بنت القبائل خططها حول الجامع، ويعرِّف المقريزى هذه الخطط بأنها بمنزلة الحارات التى بالقاهرة، وعُرفت هذه الخطط كل خطة بالقبيلة، أو الجماعة التى اختطتها، أو بصاحبها الذى اختطها. ومنها: خطة أهل الراية، وهم جماعة من قريش والأنصار وخزاعة وأسلم وغفار وثقيف، وسموا بأهل الراية ونسبت الخطة إليهم؛ لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن منهم العدد ما ينفرد بدعوة من الديوان، فكره كل بطن منهم أن يُدعى باسم قبيلة غير قبيلته، فجعل لهم عمرو بن العاص رايةً، ولم ينسبها إلى أحد، فقال: «يكون موقفكم تحتها».

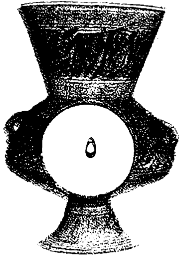


بقايا آثار أحد أبراج حصن بابليون ومن خلفه أبراج الكنيسة المعلقة القديمة

ومن هذه الخطط: خطة تجيب، خطة لخم، خطة اللفيف، خطة غافق، خطة خوْلان، خطة مذحج، خطة يحصب، خطة المعافر، خطة الحمراوات، وخطة حضرموت، وغيرها. وكان فى خلال هذه الخطط دور جماعة كثيرة من الصحابة ممن حضر فتح مصر، منها:



أعمدة داخل مسجد عمرو بن العاص (العتيق)

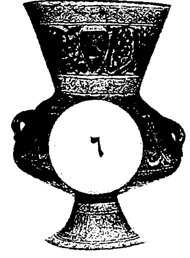


دار عمرو بن العـاص، دار الزبير بن العوام، دار مسلمـة بن مخلد الأنصارى، دار سعد بن أبى وقاص، دار عقبة بن عـامر الجهنى، ودار عبد الله بن سعد بن أبى السرح، وغيرها.

ويعد جامع عمرو بن العاص، الذى اختطت الخطط من حوله، أول بيت من بيوت الله فى مصر وقارة أفـريقيا، بُنى سنة ٢١ للهجرة (٦٤٢م)، وهو أول موضع يـجتمع فـيه من صـحابة رسـول الله ﷺ، رضوان الله عليهـم، ما لم يجتمع فى غيره من المساجد الجامعة. وهو رابع مسجد أقيم فى الإسلام، بعد مسجد قباء ومسجد الرسول بالمدينة المنورة ومسجد الكوفة، بمدينة الكوفـة بالعراق. وقد عرف هذا الجامع بتاج الجوامع وبالمسجد العتيق. بُنى فى الفضاء المجـاور لحصن بابليون، الواقع إلى الشرق من نهر النيل، وكان طول ضلعه، وقت إنشـائه، خمسـون ذراعا، وعرضه ثلاثون ذراعـا. وقد اشترك فى تحـرى اتجاه قبلـته ثمانون من رجـال الصحـابة ممن حضـر فتح مـصر، منهم، الزبيـر بن العوام، وعـبادة بن الصامت، وأبو ذر الغفارى رضوان الله عليهم أجمعين.


نسيج قبطى يعود للقرن ٣م قبل الفتح العربى

ولقـد وقـعت لهـذا المسجـد عـدة زيادات، كـانت أول زيادة له قـد قام بهـا والى مصـر: مسلمة بن مـخلد الأنصارى سنة ٥٣هـ (٦٧٣م) فى خلافـة معاوية بن أبى سفيان. وزيد فى مساحته سنة ٧٧ هـ (٦٩٦م) فى إمارة عـبد العـزيز بن مروان فى عهد خلافة أخيه عبد الملك بن مروان. وقام الوالى «قرة بن شـريك»، أثناء ولايته على مـصر، سنة ٩٣هـ (٧١١م) بـتـجديد عمارته وزخـرفته فى عهد خـلافة «الوليد ابن عـبـد الملك بن مـروان»، وتُعـد أهم الزيادات والإصـلاحات التى شهـدها هذا المسجد الجامع فى عصر الولاة، تلك التى قـام بها الأمـيـر «عبـد الله بن صـالح بن على»، والى مصر من قبل الخليفة العـباسى المأمون سنة ٢١٢هـ (٨٢٧م). وقد أجمع علماء الآثار على أن تلك الزيادة التى أحدثها ابن صالح لم يطرأ عليها تغيير يذكر حتى أصبحت مساحته ما هو عليها الآن، والتى بلغت ١٦ مرة قدر المساحة التى بنى عليها عند إنشائه.



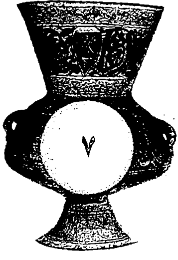
وقامت مدينة الفسطاط واتسعت، واتخذها تسعة وعشرون واليا من ولاة مصر عاصمة لمصر منذ نشأتها حتى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م)، أى مدة ١١٣ عاما (من ٢٠ - ١٣٣هـ)، حتى تأسست العاصمة الثانية لمصر فى عصر الولاة، وهى مدينة العسكر.

هذا، وبالنسبة لموقع مجرى النيل، وقت إنشاء الفسطاط، فعلينا أن نعرف أنَّ المصادر التاريخية قد روت بأنَّ حصن بابليون وجامع عمرو بن العاص، كانا يشرفان على النيل، وهما الآن يبعدان عن النيل بنحو خمسمائة متر، والشاطئ الحالى لنهر النيل يبعد عن الشاطئ القديم بتلك المسافة، انتقلها الشاطئ القديم نحو الغرب. وهذه ظاهرة جغرافية تمتاز بها الأنهار فى مجاريها الدنيا، إذ يضعف التيار هنا فينحت فى الجانب الغربى ويبنى فى الجانب الشرقى بما يجلبه معه من رواسب طينية، وبهذا الشكل تزداد مساحة الأرض فيما جاور الساحل الشرقى، بينما يتسع المجرى فى الساحل الغربى. وهذا ما حدث بالفعل للنيل فى المنطقة الممتدة حاليا من ساحل أثر النبى بمصر القديمة حتى روض الفرج.

ومن هنا يتضح لنا أن المنطقة الواقعة بين جامع عمرو ومنيل الروضة قد استحدثت بعد الفتح العربى لمصر، وأن الفسطاط الأصلية تقع شرقى خط يمتد من جامع عمرو إلى حصن بابليون، وقد شمل هذا الاسم أيضًا المنطقة المستحدثة الواقعة غربى هذا الخط حتى منيل الروضة. وقد ظلت تسمية الفسطاط قائمة لهذه المناطق حتى آخر القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى). فلما وقع الخراب على القسم الشرقى منها، اختفى اسم الفسطاط، وحل محله اسم مدينة (مصر)، التى تعرف اليوم باسم (مصر القديمة).

ولقد بنيت دور الفسطاط، فى أول الأمر من الطوب اللبن، ويتكون كل دار منها من طابق واحد، ثم تقدم البناء فى الفسطاط وتحول الناس إلى البناء بالآجر (وهو الطوب المحروق). واشتملت بعض هذه الدور على أفنية توجد بوسطها (فسقيات) تصل إليها المياه وتصرف منها فى مجار مبلطة. وتحيط بتلك الأفنية أروقة وقاعات وغرف، وتحدها من الجنوب أحواض الزهور ومن الغرب الأشجار. ولقد كثرت الحمامات بمدينة الفسطاط، وقد بالغ المقريزى فى ذكر حمامات الفسطاط على عهده.

وبنيت دور الفسطاط فى العهد الفاطمى من الحجر وازداد عدد طباقها حتى بلغ عدد الطبقات فى دورها ثمانية فبدت كالمنائر، وقد ذكر ناصر خسرو فى كتاب رحلته قوله: «وترى مصر (الفسطاط) من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات.. وبها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل؛ لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها- لأنها مسقوفة». وعن توصيل المياه لهذه المنازل يواصل ناصر خسرو ذكر ذلك بقوله بأن الحمالين



يحملون الماء من النيل إلى المنازل فى الروايا (القـرب) ويصعـدون الدور، وأنه كان فى القـاهرة والفسطاط سنة ٤٤٠هـ (١٠٤٨م) اثنان وخمسـون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب فى هاتين المدينتين.

وكانت الفسطاط مركزًا اقتصاديًّا عظيمًا، وسوقًا تجاريًـا كبيرًا، ولم تفقد شهرتها كسوق تجارى عظيم حتى بعد بناء القاهرة، فظلت مركز الحركة التجارية والاقتـصادية لمصـر الإسلاميـة؛ ذلك لسهولة اتصـالها بداخل البـلاد وبالعالم الخـارجى. وكانت الحاصلات ترد إليها من الداخل والخارج؛ ولذلك غصتـها الأسواق المليئة بمختلف السلع والمتاجر. وقد بنى عبد العزيز بن مروان قيسارية العسل وقيسارية الحبال وقيسارية الكباش وقيسارية البر. وقد أُعجب ناصر خسـرو بسوق القناديل، الواقع على الجانب الشمالى لجامع عمـرو بن العاص، فقد قال عنه: «أنه لا يُعرف سوق مثله فى أى بلد، وفيه كل ما فى العالم من طرائف».

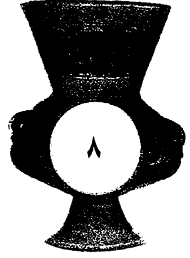
وكانت تفـد على الفسطاط السلع والمتـاجر عن طريق بحر الروم (المتـوسط) وبواسطة النيل أيضا، ومـن بحر القلزم (الأحـمر)، ومن بينهـا الجوارى والغلمـان والديباج وجلود الخـز والفراء والتوابل والمسك والعود والبخور، وغير ذلك مما يُحمل فى تجارة المرور بين الشرق والغرب.

ولقد زخرت الفسطاط بالمصـانع المختلفة المتنوعة الإنتاج، كمصانع المنسـوجات المتعددة من حريرية وصوفية وقطنية وكتانية، كذلك المـصنوعات الزجاجية والخزفية والأدوات المنزلية، ووجدت فى حفـائر الفسطاط بقـايا من تلك المصنوعات، وتوجـد نماذج متعـددة منها بالمتـحف الإسلامى بالقاهرة.

العسكر:

انتهى حكم دولة الأمويين سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م)، وحل محلهم العـباسيون فى حكم الدولة العربية الإسلامية، وكان أول خلفائهم أبو العباس عبد الله، الشهير بالسفاح، وجاءت نهاية الدولة الأموية بمقتل آخر خلفـاء الأمويين: «مروان بن محمد» عند بلدة أبوصيـر بالفيوم على يد القائدين العباسيـين اللذين قاما بمطاردته وهما«أبو عون بن يزيد» وزميله «صـالح بن على» ونجحا فى قتله. وقد تولى صالح بن على بن عبد الله العباسى إمـارة مصر من قبل ابن أخيه السفاح سنة ١٣٣هـ، وبذلك كان أول والٍ عـباسى على مصـر، ولم تطل مدة ولاية صالح بن على على مـصر إذ ورد عليه، بعـد سبعة أشهـر من ولايته، كتاب الخليـفة بإمارته على فلسطين وجعـل ولاية مصر لأبى عون.

وفى أيام أبى عون سكن أمـراء مصر العـسكر، وهى منطقة ممتدة علـى النيل، (يحدها من الجنوب كوم الجارح)، حيث تمتد الآن قناطر مجرى العيون جنوبا وشارع مراسينا شمالا إلى ميدان

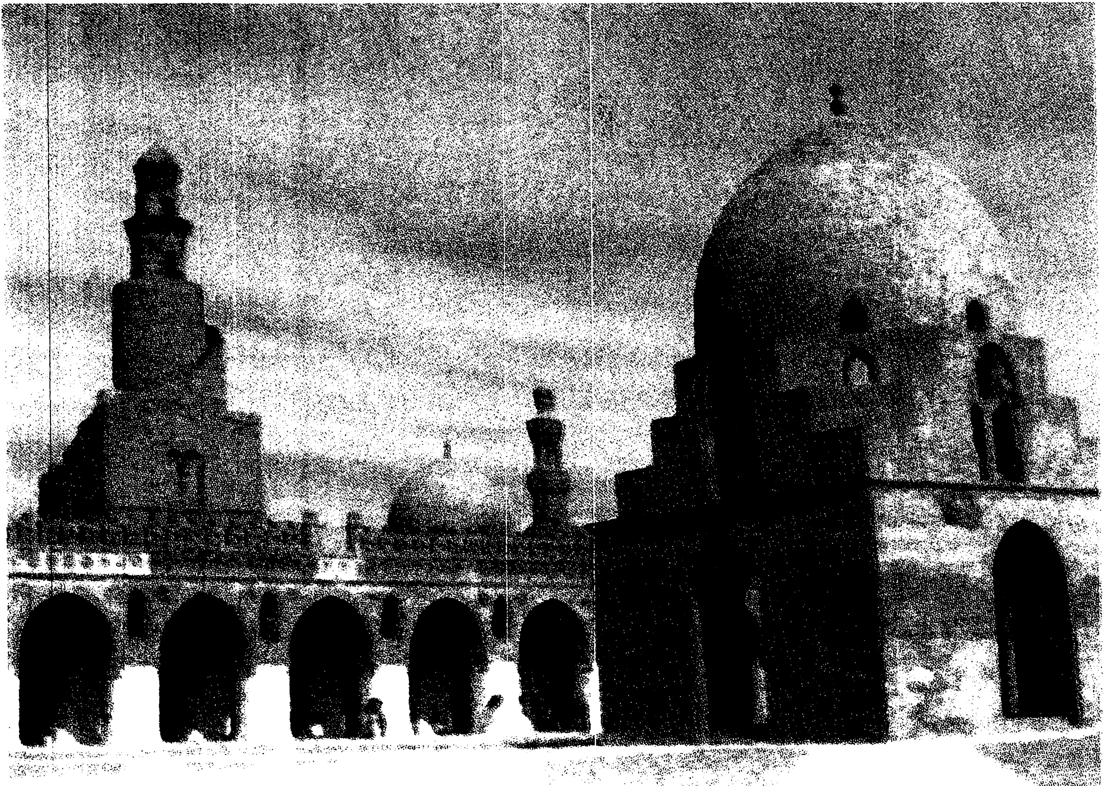


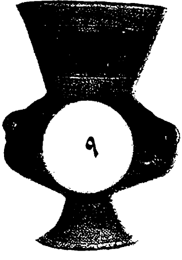
السيدة زينب حيث قناطر السباع، أمـام المشهد الزينبى، وغربا بين شارعى السد والديورة، وشرقا خط تصورى يمـتد من مصطبة فرعون بجوار مـسجد الجاولى بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة.

وكـان سـبب بناء العـسكر، أنَّ صـالح بن على وأبا عـون، لمَّا جـاءوا بجموعهم إلى مصر فى طلب مروان بن محمد نزلت عساكرهما الصحراء جنب جبل يشكر، (الذى فيه الآن جامع أحمد بن طولون)، وقـد كان فضاء، فلمَّا رأى أبو عون اتساع هذا الفضاء أمـر أصحابه بالبناء فيه، فـبنوا وبنى هو دار الإمارة، ومسجد عُـرف بجامع العسكر، وسُمى يومـئذ ذلك الفـضاء باسم العسكر، إلى أن ولى أحـمد بن طولون مـصر وقدم إليـها من العراق، ونزل بدار الإمارة بالعسكر، على عادة الأمراء، فما زال ابن طولون بها إلى أن بنى القصر والميدان بالقطائع وتحوَّل إليها.

ولقد أقـام ولاة مصر العبـاسيون بالعـسكر، التى صارت مدينة ذات محـال وأسواق ودور عظيمـة ودواوين، وقد اتصلت مبانى العـسكر بمبانى القطائع التى شيـدها أحمد بن طولون فـيما بعد. وقد استـمرت العسكر عاصمة لمصر، إلى أن ارتأى ابن طولون أنـها لم تعد تتسع لجنده ولا

صحن جامع أحمد بن طولون - بمدينة القطائع



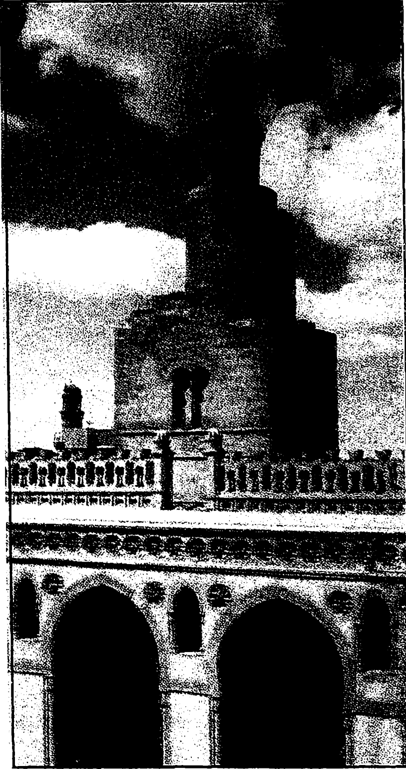


حاشيته فـاعتزم تشييد عاصمة جديدة له، واخـتط لهذا الغرض مدينة القطائع، التى شغلت حـيزا كبيرا من العـسكر، بل وتداخلت فيها، ولم يبـق من معالم العسكر فى أيام المقريزى شىء يذكـر، وفى ذلك المجال يقولون: «ولم يبق الآن من العسكر مـا هو عامر سـوى جبل يشكر، الذى عليه جـامع ابن طولون وما حولـه من الكبش، وحدده ابن قـميـحة إلى خط السـبع سقـايات وخط قناطر السباع إلى جامع ابن طولون».

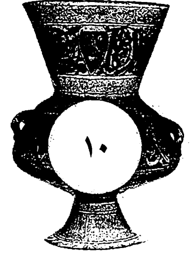
القطائع:

ساءت أحوال مصر فى أواخر عهد الولاة، وخاصة حين صارت إقطاعًا لكبار قواد الأتراك، الذين أهملوا أمرها واكتفـوا بتحصيل أكبر قدر من أمـوالها واعتصار خيراتها، وانتـعشت منذ قيام الحكم الطولونى بها، الذى استقل أصحابه بحكمها اسـتقلالاً يكاد يكون كاملاً، ولم يتبق للسيادة العباسية عليها سوى التبعية الروحـية المتمثلة فى الولاء والتبعية لمذهب الخلافة السُنى. وعلى الرغم من قِـصر عـمر الدولة الطولونـية وعـدم تعديه الثـمانيـة والثلاثين عاما، إلا أن مصر، فى عهدها، شهدت إصلاح أحوالهـا وازدهار معيشـة أهلها، وأخذها بقـسط وافر من الرقى والتمـدن يشهد عليـه ما خلفـته هذه الدولة من آثار معمارية حضارية لا تزال شاهدة على ذلك حتى اليوم.

وتنتسب الدولة الـطولونية إلى مؤسـسها أحـمد بن طولون، الذى اسـتطاع أن يتخطى جـميع مـا واجهـه من عقـبات داخليـة وخارجـية، وأن يثـبت أقدامـه فى حكم مـصر، وأن يسـتـقل بحكمـها وأن يبنى لـدولته الجـديدة عاصـمة جديدة تكون ثالث عاصـمة لمصر بعـد الفسطاط والعسكر. وعن ظـروف بناء مدينة القطائع يقـول المقريزى ما نصه: «وصار أحمد بن طولون مِن كثرة العبيد والرجال والآلات بحال يضيق به داره ولا يتسع له فركب إلى سفح الجبل (المقطم) فى شعـبـان، وأمر بحـرث قبـور اليهـود والنصارى، واختط موضعها، فبنى القصر والميدان، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعـه أن يختطوا لأنفسهم حوله، فـاختطوا وبنوا حـتى اتصل البناء لعـمارة الفـسطاط، ثم



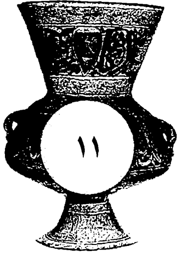
مئذنة جامع ابن طولون الملوية التى تشبه ملوية سامراء



قطعت القطائع. وسُميت كل قطيعة باسم من سكنها، فكانت للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم. وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم، وللفراشين قطيعة مفردة تعرف بهم، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم. وبنى القواد مواضع متفرقة، فعمرت القطائع عمارة حسنة، وتفرقت فيها السكك والأزقة وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران، وسميت أسواقها، فقيل سوق العيارين، وكان يجمع العطارين والبزازين، وسوق الفاميين ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين، فكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن، وسوق الطباخين، ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين، ولكل من الباعة سوق حسن عامر. فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمر وأحسن من الشام»، ويضيف المقريزى عن عمارة ابن طولون للقطائع بقوله: «وبنى ابن طولون قصره ووسعه وحسنه، وجعل له ميدانًا كبيرًا يضرب فيه بالصوالجة، فسمى القصر كله الميدان. وكان كل من أراد الخروج من صغير وكبير إذا سئل عن ذهابه يقول إلى الميدان. وعُمل للميدان أبواب، لكل باب اسم وهى باب الميدان، ومنه كان يدخل ويخرج معظم الجيش، وباب الصوالجة، وباب الخاصة ولا يدخل منه إلا خاصة ابن طولون، وباب الجبل؛ لأنه مما يليه جبل المقطم، وباب الحريم، ولا يدخل منه إلا خادم خصى أو حريمه. . . وباب الصلاة لأنه كان فى الشارع الأعظم، ومنه يتوصل إلى جامع ابن طولون، وعرف هذا الباب أيضا بباب السباع؛ لأنه كان عليه صورة سبعين من جبس. . . وكانت الأبواب المذكورة تفتح كلها فى يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة وما عدا هذه الأيام لا تفتح إلا بترتيب فى أوقات معروفة».

وعن بناء ابن طولون للقصر فى القطائع يقول المقريزى: «وكان القصر له مجلس يشرف منه ابن طولون يوم العرض ويوم الصدقة لينظر من أعلاه من يدخل ويخرج. وكان الناس يدخلون من باب الصوالجة ويخرجون من باب السباع، وكان على باب السباع مجلس يُشرف منه ابن طولون ليلة العيد على القطائع ليرى حركات الغلمان وتأهبهم وتصرفهم فى حوائجهم. . وكان يشرف منه أيضا على البحر وعلى باب مدينة الفسطاط وما يلى ذلك فكان متنزهًا حسنا».

ولقد كان مشروع ابن طولون فى بناء القطائع سنة ٢٦٣هـ (٨٧٦م)، واختار موقع هذه المدينة مكانا يقع إلى الشرق من مدينة العسكر وإلى الشمال الشرقى من مدينة الفسطاط حيث يوجد الآن ميدان صلاح الدين، وتُعد امتدادا للعاصمتين القديمتين الفسطاط، والعسكر صوب الشرق فى المنطقة ما بين قبة الهواء (القلعة الحالية) إلى جامع ابن طولون طولا، ومن قبة الهواء إلى حى زين العابدين عرضًا، وكانت مساحتها، وقت التأسيس، ميلاً فى ميل. وسميت المدينة بالقطائع؛ لأنَّ ابن طولون بنى لنفسه فيها القصر والميدان، ثم أمر أصحابه وغلمانه أن يختطوا

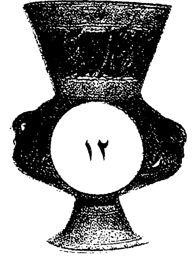


لأنفسهم قطعًا حول قصره وميدانه بنوا فيها بيوتهم، واختطوا وبنوا حتى اتصل بناؤهم بعمائر الفسطاط، ولقد سميت كل قطعة، أى كل حارة، باسم الطائفة التى بنتها، وجاء تخطيط هذه المدينة مثل تخطيط المدن العراقية بغداد وسامرا، وجاءت عمائرها عراقية الأسلوب والطابع. وسرعان ما عمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها الشوارع والحارات وبنيت القصور والمساجد والأسواق والحمامات، وسميت أسواقها فعرف كل سوق باسم من كان يشغله من أصحاب السلع والحرف والصناعات.

كذلك أنشأ ابن طولون فى القطائع الجامع المنسوب إليه الآن، وكان يعرف أيامه بالجامع الجديد، تمييزا له عن المسجد العتيق بالفسطاط، جامع عمرو بن العاص. واختار ابن طولون موقع هذا الجامع بين مدينة الفسطاط وقبة الهواء، على جبل يشكر خارج القاهرة، وقد بدئ فى بنائه فى عام بناء القطائع (٢٦٣هـ)، وانتهى من بنائه سنة ٢٦٥هـ (٨٧٨م)، وقيل أنّ ابن طولون قد صرف على بناء جامعه ما يزيد عن المائة وعشرين ألف دينار، وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت.

وقال ابن عبد الظاهر: «سمعت غير واحد يقول أنه لما فرغ أحمد بن طولون من بناء هذا الجامع أسرَّ للناس بسماع ما يقوله الناس فيه من العيوب فقال رجل: محرابه صغير، وقال آخر: ما فيه عمود، وقال آخر: ليست له ميضأة، فجمع الناس، وقال: أما المحراب فإنى رأيت رسول الله ﷺ وقد خطه لى فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذى خطه لى. وأما العُمد فإنى بنيت هذا الجامع من مال حلال وهو الكنز وما كنت لأشوبه بغيره، وهذه العمد إما أن تكون من مسجد أو كنيسة فنزهته عنها، وأما الميضأة فإنى نظرت فوجدت ما يكون بها من النجاسات فطهرته منها وها أنا أبنيها خلفه، ثم أمر ببنائها». وقيل أنه لما فرغ من بنائه رأى فى منامه كأن نارًا نزلت من السماء فأخذت الجامع دون ما حوله، فلما أصبح قصَّ رؤياه، فقيل له: أبشر بقبول الجامع؛ لأنّ النار كانت فى الزمان الماضى إذا قبل الله قربانًا نزلت نار من السماء أخذته ودليله قصة قابيل وهابيل.

وكان ابن طولون قد عهد إلى مهندس عراقى قدم إلى مصر، يحمل معه أساليب المعمار العراقى، بتنفيذ بناء مسجده على غرار مسجد سامرا، فبناه جميعه من الآجر الأحمر، ورفعه على دعامات من الآجر أيضا، ولم يدخل فى بنائه أعمدة رخامية سوى عمودى القبلة. وقد بنى الجامع على شكل مربع طول ضلعه ١٦٢,٥ مترا، يتوسطه صحن مكشوف، تحيط بجوانبه الأربعة أروقة مسقوفة. وقد اتبع تخطيط هذا الجامع بعد ذلك كثيرًا فى بناء المساجد فى العهود المتوالية. ويتكون إيوان القبلة من خمسة أروقة، وتتكون الأواوين الثلاثة الأخرى كل منها من رواقين. ويحيط



الجامع فيما بين جدرانه والسور الخارجى من جهاته الشمالية الشرقية والشمالية الغربية والغربية الجنوبية ثلاثة أروقة خارجية، عرفت بالزيادات، وهى ميزة تميز بها هذا الجامع بين مساجد القاهرة.

وقد طليت جميع جدران المسجد ودعاماته وعقوده بطبقة من الجص، وزخرفت واجهات العقود بزخارف نباتية متصلة. ويدور تحت سقف الجامع إزار من ألواح خشبية، نقشت عليها بحروف كوفية بارزة سورتا البقرة وآل عمران. وبالجزء العلوى من الجدران صف من الطاقات مركب عليها شبابيك مخرمة من الجص.

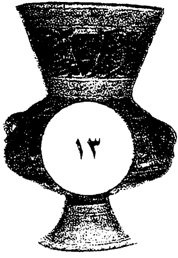
وللمسجد خمسة محاريب، عدا المحراب الأصلى المجوَّف، الموجود فى جدار القبلة، وهى من الجص ومزينة بالكتابة الكوفية وخط النسخ والزخارف النباتية. وكانت توجد وسط صحن المسجد نافورة ماء أنشأها ابن طولون لشرب المصلين، وسط حوض من الرخام تعلوها قبة مذهبة مقامة على ستة عشر عمودًا من الرخام.

ولهذا المسجد مئذنة فريدة فى شكلها، ولا نظير لها بين مآذن مساجد القاهرة، وهى ميزة أخرى تميز بها جامع ابن طولون، فهى مربعة فى جزئها الأسفل، أسطوانية فى جزئها الأوسط، مثمنة فى جزئها العلوى وهى تشبه المئذنة التى بناها الخليفة المتوكل العباسى بمدينة سر من رأى (سامرا)، المعروفة بالمئذنة الملوية، ولهذه المئذنة سلالم حلزونية خارجية. ولقد أُدخلت على هذا المسجد الطولونى إصلاحات كثيرة وتجديدات فى العصور التالية.

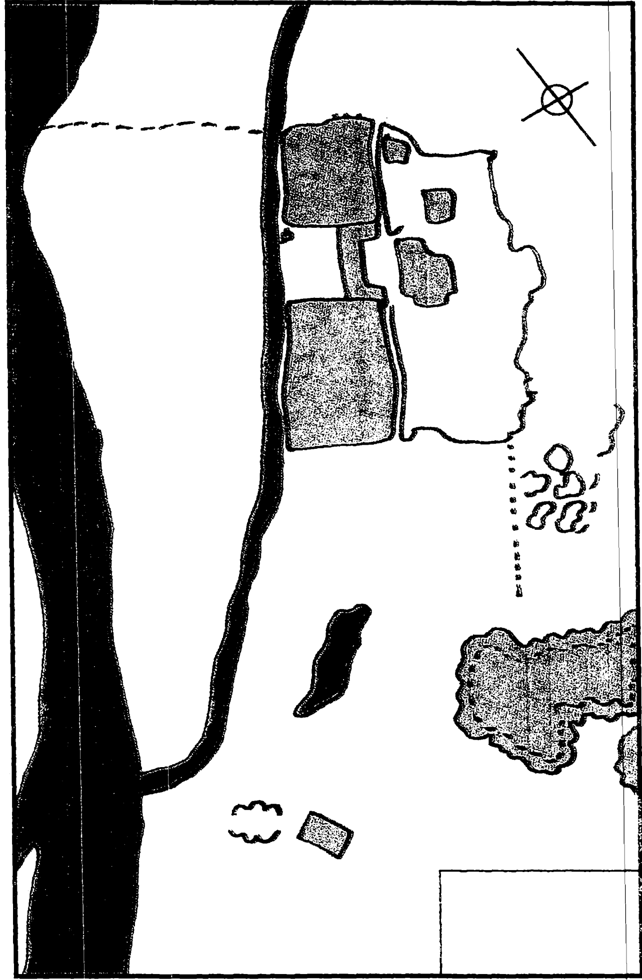
وكان بجوار الجامع الطولونى دار أنشأها ابن طولون، عندما بنى الجامع، وجعلها فى الجهة القبلية، ولها باب من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة بجوار المحراب والمنبر، وجعل فى هذه الدار جميع ما يحتاج إليه الجامع من الفرش والستور والآلات. فكان ينزل بها إذا ذهب لصلاة الجمعة؛ لأنها كانت تجاه القصر والميدان فيجلس فيها ويجدد وضوءه ويغير ثيابه، وكان يقال لها: «دار الإمارة». وقد ظلت هذه الدار باقية إلى أن قدم المعز لدين الله الفاطمى مصر، فاستعملها فى استخراج أموال الخراج فيها.

وبعد أن فرغ ابن طولون من بناء الجامع وتبييضه علّق فيه القناديل بالسلاسل الطويلة، وفرش فيه الحصر، وحمل إليه صناديق المصاحف، ونقل إليه القراء والفقهاء. وقد قُدرت النفقة على هذا الجامع فى بنائه مائة وعشرين ألف دينار.

ولقد قام ابن طولون ببناء مارستانًا كبيرًا فى القطائع، خصصه لعلاج مختلف الأمراض، وعين له الأطباء والصيادلة والعمال والممرضين، وجعل صرف الدواء فيه بالمجان لعامة الناس. وقد

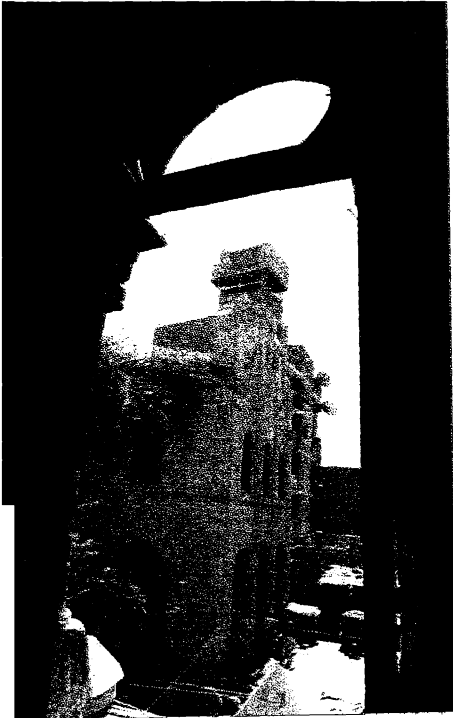


تكلف بناء هذا المارستان (المستشفى) وإعداده ستين ألف دينار. ويذكر المقريزى أن موضع هذا المارستان كان فى أرض العسكر، وهى الكيمان والصحراء التى فيما بين جامع ابن طولون وكوم الجارح وفيما بين قنطرة السد على الخليج ظاهر بالفسطاط وبين السور الذى يفصل بين القرافة وبين الفسطاط، وقد دثر هذا المارستان فى جملة ما دُثر ولم يبق له أثر. وأورد المقريزى عن الكندى أن بناء ابن طولون لهذا المارستان كان فى سنة ٢٥٩ للهجرة، بينما ذكر البلوى (جامع السيرة الطولونية) أن بناءه كان فى سنة ٢٦١ للهجرة، وأنه لم يكن قبل ذلك بمصر مارستان.

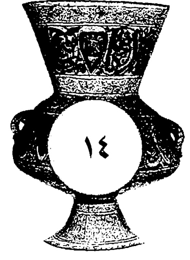


خريطة القاهرة الفاطمية

ولما توفى أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م)، وخلفه فى الحكم ابنه أبو الجيش خمارويه، قام بزيادة إعمار القطائع وتجميلها، ويذكر المقريزى الكثير من



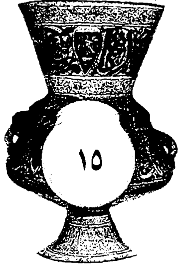
حارة الروم



التحسينات التى أدخلها خمارويه على المدينة، منها: الزيادة فى قصر أبيه وأخذه الميدان الذى كان لأبيه وجعله كله بستانا وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر وأنواع الورد وكسوته لأجساد النخل النحاس المذهب، وبنائه الأبراج لمختلف أصناف الطيور، وعمله فى داره مجلسًا طليت كل حيطانه بالذهب وجعلت فيها صور بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه ومغنياته، وجعل بين يدى هذا البيت فسقية ملأها بالزئبق طولها خمسون ذراعا وكذلك عرضها لينام عليها بسبب ما كان يعانيه من الأرق وقلة النوم ومرض القولنج، وبنائه فى قصره قبة أسماها (الدكة) يشرف منها على جميع ما فى داره من البستان وغيره ويرى منه جميع المدينة، وبنائه ميدانا آخر أكبر من ميدان أبيه، وبنائه فى داره دارا للسباع، وبنائه «المنظر» لعرض الخيل.

وقد ازدادت عمارة القطائع فى عهد خمارويه وأنشئت فيها المساجد والحمامات والأسواق واختطت فيها الشوارع والحارات، وصارت من أبهى مدن مصر آنذاك. وظلت القطائع عامرة حتى بعد نهاية حكم دولة الطولونيين سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م)، على يد القائد العباسى محمد بن سليمان الكاتب، قائد الخليفة العباسى المكتفى بالله، إلى نهاية عهد المستنصر بالله الفاطمى حين وقعت الشدة العظمى للدولة، التى عرفت بالشدة المستنصرية (٤٥٧-٤٦٤هـ) فخربت هى والعسكر وتهدمت وتحولت إلى تلال وكيمان فيما بين الفسطاط والقاهرة. ويروى المقريزى دخول ابن سليمان القطائع وتخريبها بقوله: «ودخل محمد بن سليمان يوم الخميس أول ربيع الأول، فألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها، وهجموا على الدور، واستباحوا الحريم وهتكوا الرعية وافتضوا الأبكار وساقوا النساء وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك، وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنسانا وأخرج قوادهم فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر. وخلت منهم الديار وعفت عنهم الآثار وتعطلت منهم المنازل، وحل بهم الذل بعد العز، والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام، ثم سيق أصحاب شيبان (ابن أحمد بن طولون) إلى محمد بن سليمان، وهو راكب؛ فذُبحوا بين يديه كما تذبح الشياه وقتل من السودان سكان القطائع خلق كثير».

وباستيلاء محمد بن سليمان على القطائع وتدمير وحرق جميع منشآتها ومبانيها، عدا جامع ابن طولون، عادت مصر إلى حظيرة الدولة العباسية، بعد حكم مستقل عن دولة الخلافة دام للطولونيين مدة ثمانية وثلاثين عاما، كانت فى مجملها سنوات ازدهار وخير للقطائع ولكل مصر والمصريين. ومصداقا لذلك ما ذكره أبو المحاسن، ابن تغرى بردى صاحب كتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» من قوله ناعيًا لتلك الدولة ومتأسيًا لزوالها ما نصه: «وزالت الدولة



الطولونيـة وكانت من غُـرر الدول، وأيامهم من مـحاسن الأيام وخـرب الميدان والقصور التى كانت به والتى مدحتها الشـعراء». وحدَّث محمد بن أبى يعقوب الكاتب قائلا: «لما كانت ليلة عيد الفطر سنة اثنتيـن وتسعين ومائتين تذكرت ما كان فيه آل طولون فى مـثل هذه الليلة من الزى الحسن بالسلاح وملونات البنود والأعلام وشـهرة الثياب وكثـرة الكراع وأصوات الأبواق والطبـول، فاعـترانى لذلك فكر، ونمت فى ليلتى فـسمعت هاتفًـا يقول: «ذهب الملك والتـملك والزينة عن القطائع لمَّا مضى بنو طولون».

وقال القـاضى أبو عمـرو عثـمان النابلسـى فى كتابـه: «حسن السـيرة فى اتخـاذ الحصن بالجزيرة»: رأيت كتـابًا قدر اثنتى عشرة كـراسة مضمونة فـهرست شعراء الميـدان الذى لأحمد بن طولون، فإذا كانت أسمـاء الشعراء فى ثنتى عشرة كراسة فكم يـكون شعرهم مع أنه لا يوجد من ذلك الآن ديوان واحد؟».

وقال أبو الخطاب بن دحية فى كتابه «النبراس» : «وخُربت قطائع أحمد بن طولون، وهلك جميع من كان بها من الساكنين، وكانت ديارها تزيد عن مائة ألف دار نزهة للناظرين، محدقة بها الجنان والبساتين، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين».

ومما قيل فى ميدان أحمد بن طولون وفى قصوره بالـقطائع من الشعر على سبيل الاقتصار، ما قاله إسماعيل بن أبى هاشم:

قف وقـــفـــة بـفناء باب الســـاج ... والقـــصـــر ذى الـشـرفـــات والأبراج

وربوع قـــوم أزعـــجـــوا عـن دارهم ... بعـــد الإقـــامـــة أيَّمـــا إزعـــاج

كـــانوا مـــصـــابيـح لدى ظُلَم الـدجى ... يســـرى بهـــا الســـارون فى الإدلاج

كـــانوا لـيـــوثـا لا يُرامَ حِـــمـــاهُمُ ... فى كـل ملحـــمـــةٍ وكـل هيـــاج

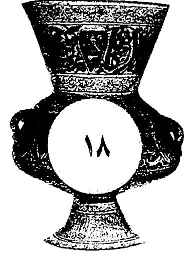
فـــانـظـر إلى آثـارهـم تـلـقى لـهـم ... علمـــا بـكل ثـنيـــة وفـــجـــاج

وكذلك من قوله ينعى القطائع وأهلها:

يـا مـنزلاً لـبـنى طـولون قـــــد دثـرا ... سـعَـاك صـوبُ الغـوادى القـطر والمطرا

يا مـنزلاً صـــرت أجـفـــوه وأهجـــره ... وكـان يـعـدِل عندى السـمَع والبـصـرا

بـــالله عـــنـدك عِـلـمٌ مِـن أجِـلـنـا ... أم هل سـمـعت لـهم مِن بعـدِنا خبـرا



الفاطميين كانوا حكامًا طموحين، وكانوا على يقين من أن بلاد المغرب الضعيفة الموارد والكثيرة الاضطراب والتمرد لا تصلح لتكون قلبا لدولتهم؛ ولذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر البلد الغنى بموارده وسكانه والمتصدر بموقعه الفريد المميز سُرة العالم آنذاك، والخليق بإقامة خلافة فيه تنافس خلافة بغداد.

وقد جاءت أول محاولات الغزو، من قِبل الفاطميين لمصر، فى عهد حكم عبيد الله المهدى، الذى وضع الخطط لغزو مصر سنة ٣٠١هـ (٩١٣م)، وأرسل جيشا إليها بقيادة ابنه أبى القاسم، وقد نجح هذا الجيش فى الوصول إلى الإسكندرية والاستيلاء عليها، إلا أنّ هذه الحملة باءت بالفشل بسبب هزيمة قوات الفاطميين على يد مؤنس الخادم، قائد الخليفة العباسى المقتدر بالله، بالقرب من الجيزة.

وعاود عبيد الله المهدى مهاجمة مصر سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م)، حين أرسل ابنه أبا القاسم على رأس جيش لفتح مصر فى أواخر هذا العام، فوصل إلى ما وصل إليه جيشه فى الحملة الأولى، ولقى الهزيمة كذلك على يد مؤنس الخادم الذى استولى على سفنهم وأحرقها، ولم ييأس المهدى فى محاولاته لفتح مصر، وأرسل جيشه سنة ٣٢٢هـ (٩٣٤م)، لثالث مرة، لفتحها تحت قيادة «حبشى المغربى»، أحد قواده، ونجح محمد بن طغج الإخشيد فى هزيمة قوات الفاطميين وإجبارها على العودة منهزمة إلى المغرب.

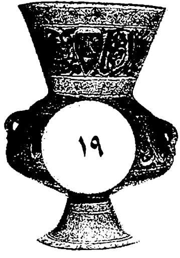
ولمَّا توفى الخليفة عبيد الله المهدى (سنة ٣٢٢هـ)، تابع ابنه أبو القاسم، الذى تولى الخلافة بعده، سياسة أبيه فى غزو مصر، فأرسل إليها جيوشه، فى أواخر سنة ٣٢٣هـ، والتى وصلت إلى الإسكندرية، لكن الإخشيديين استطاعوا أن يهزموها ويجبروها على العودة إلى المغرب.

ولم يقم الفاطميون فى عهد المنصور بمحاولة غزو مصر، لا انصرافا عن هذه الرغبة، ولكن بسبب انشغال هذا الخليفة بالعمل على توطيد نفوذ دولته فى بلاد المغرب ومحاربة الثائرين ضدها.

وقد جاءت هذه المحاولة الجادة فى عهد المعز لدين الله الفاطمى، خاصةً بعد وفاة كافور الإخشيدى، واضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية فى مصر بعد وفاته، ولقد استفاد المعز من كل أخطاء الحملات الفاطمية السابقة الفاشلة ضد مصر، وأعد جيشًا قويًا وحمل مالاً كثيرًا توطئة لنقل الخلافة الفاطمية من المغرب إلى مصر وتحقيق الحلم الكبير الذى كان يتوق الخليفة المعز بأن يراه حقيقةً أمام عينيه.

بداية تأسيس مدينة القاهرة:

لم يتخذ جوهر الصقلى الفسطاط ولا العسكر عاصمة للدولة الفاطمية الجديدة، بل شرع فى إنشاء مدينة جديدة تكون حاضرة لحكم الدولة الجديدة ومركزا لنشر دعوتها الدينية فى العالم،



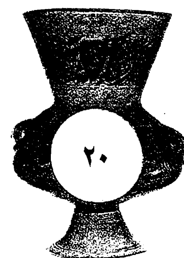
هذه المدينة هى مدينة القاهرة. ويقول المقريزى عن إنشاء هذه المدينة ما نصه: «اعلم أن القاهرة المعزية هى رابع موضع انتقل سرير السلطنة إليه من أرض مصر فى الدولة الإسلامية؛ وذلك أنّ الإمارة كانت بمدينة الفسطاط ثم صار محلها العسكر، خارج الفسطاط، فلما عمرت القطائع صارت دار الإمارة إلى أن خربت فسكن الأمراء بالعسكر إلى أن قدم القائد جوهر بعساكر مولاه الإمام المعز لدين الله معدّ فبنى القاهرة حصنا ومعقلا بين يدى المدينة، وصارت القاهرة دار خلافة ينزلها الخليفة بحرمه وخواصه إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فسكنها، من بعدهم، السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وابنه الملك العزيز عثمان وابنه الملك المنصور محمد، ثم الملك العادل أبو بكر بن أيوب وابنه الملك الكامل محمد».

وعن بناء القاهرة المعزية يقول المقريزى: «وذلك أن القائد جوهر الكاتب لما قدم الجيزة بعساكر مولاه الإمام المعز لدين الله أبى تميم معد أقبل فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة خلت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وسارت عساكره، بعد زوال الشمس، وعبرت الجسر أفواجًا وجوهر فى فرسانه إلى المناخ الذى رسم له المعز موضع القاهرة الآن فاستقر هناك واختط القصر.

وبات المصريون، فلمَّا أصبحوا حضروا للفناء فوجدوه قد حفر أساس القصر بالليل وكانت فيه ازورارات غير معتدلة، فلما شاهدها جوهر لم يعجبه ثم قال قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله وأدخل فيه دير العظام.

ويقال أن القاهرة اختطها جوهر فى يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين.

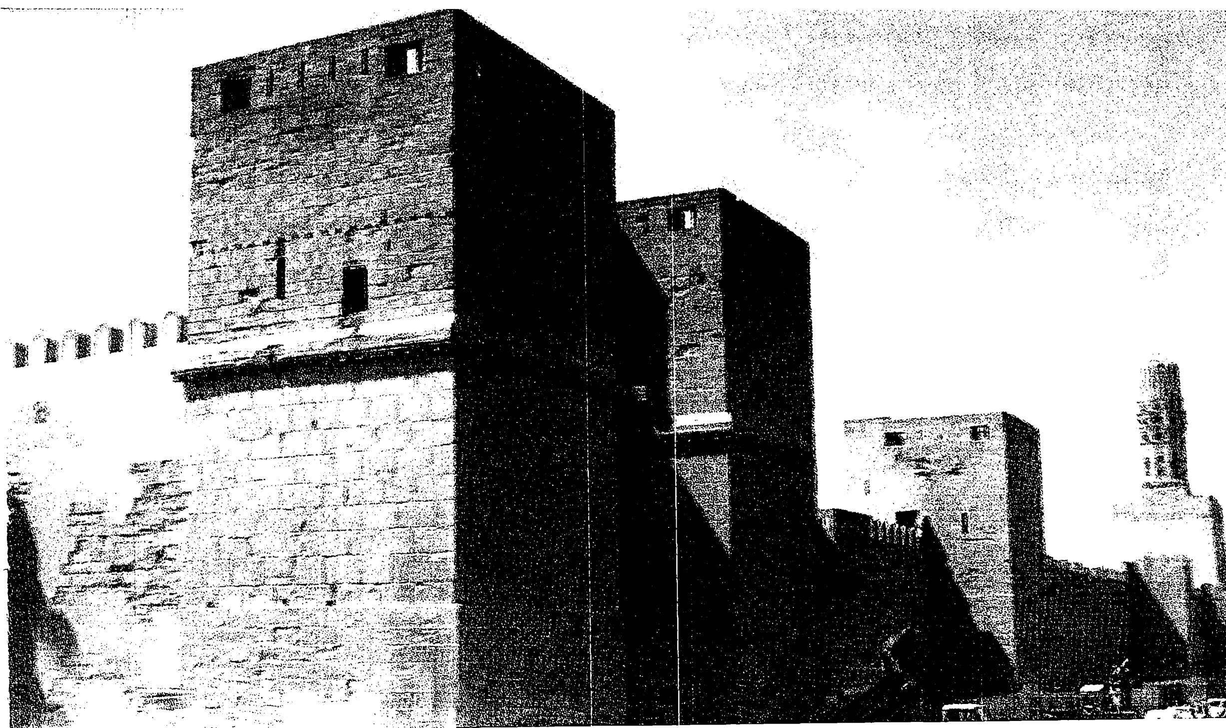
واختطت كل قبيلة خطة عُرفت بها، فزويلة بنت الحارة المعروفة بها، واختطت جماعة من أهل برقة الحارة البرقية، واختطت الروم حارتين: حارة الروم الآن وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر. وقصد جوهر باختطاط القاهرة، حيث هى اليوم، أن تصير حصنا فيما بين القرامطة وبين مدينة مصر ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبِن على مناخه الذى نزل فيه بعساكره، وأنشأ من داخل السور جامعًا وقصرًا وأعدها معقلا يتحصن به وتنزله عساكره واحتفر الخندق من الجهة الشامية ليمنع اقتحام عساكر القرامطة إلى القاهرة وما وراءها من المدينة. وكان مقدار القاهرة حينئذ أقل من مقدارها اليوم فإن أبوابها كانت من الجهات الأربع. ففى الجهة القبلية، والتى تفضى بالسالك منها إلى مدينة مصر (الفسطاط) بابان متجاوران يقال لهما باب زويلة، وكان فى جهة القاهرة البحرية، وهى التى تسلك منها إلى عين شمس، بابان، أحدهما: باب النصر، والآخر: باب الفتوح. وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة، وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان، أحدهما يُعرف الآن بالباب المحروق، والآخر يقال له باب البرقية. وكان فى الجهة الغربية من القاهرة، وهى المطلة على الخليج الكبير، بابان، أحدهما: باب سعادة، والآخر باب الفرج، وباب ثالث يُعرف بباب الخوخة».

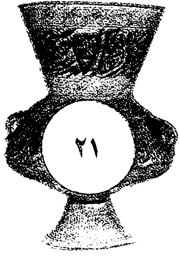


ويضيف المقريزى قائلا بأنه «كان داخل سور القاهرة يشتمل على قصرين وجامع يُقال لأحد القصرين: القصر الكبير الشرقى، وهو منزل سكنى الخليفة ومحل حرمه وموضع جلوسه لدخول العساكر وأهل الدولة وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغير ذلك، وهو الذى أسسه القائد جوهر وزاد فيه المعز ومن بعده من الخلفاء. والآخر تجاه هذا القصر ويُعرف بالقصر الغربى، وكان يُشرف على البستان الكافورى ويتحول إليه الخليفة فى أيام النيل للنزهة على الخليج . . . وكان يقال لمجموع القصرين القصور الزاهرة، ويقال للجامع جامع القاهرة والجامع الأزهر».

وعن تسمية المدينة بالقاهرة يقول ابن تغرى بردى: «دخل جوهر القائد مصر بعسكر عظيم ومعه ألف حمل مال، ومن السلاح والعدد والخيل ما لا يوصف، فلمَّا انتظم حاله وملك مصر ضاقت بالجند والرعية، واختط سور القاهرة، وبنى بها القصور وسماها «المنصورية»؛ وذلك فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة. فلمَّا قدم المعز العبيدى من القيروان غيَّر اسمها وسمَّاها القاهرة. والسبب فى ذلك أن جوهرًا لما قصد إقامة السور وبناء القاهرة جمع المنجمين وأمرهم أن يختاروا طالعًا لحفر الأساس وطالعًا لرمى حجارته، فجعلوا بدائر السور قوائم من خشب، وبين القائمة والقائمة حبل فيه أجراس، وأفهموا البنائين ساعة تحريك الأجراس أن يرموا ما فى أيديهم من اللبِن والحجارة، ووقف المنجمون لتحرير هذه الساعة وأخذ الطالع؛ فاتفق وقوف غراب على

باب النصر ومن خلفه باب الفتوح ومئذنة مسجد الحاكم والسور القديم



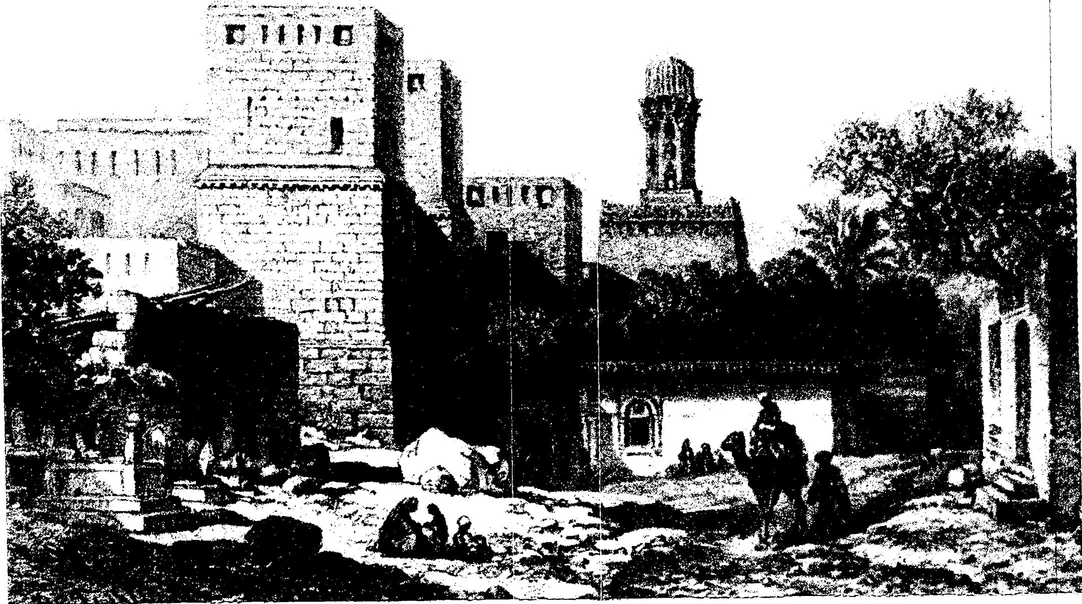


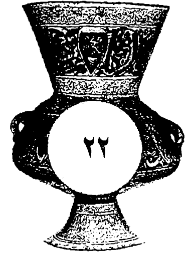


باب زويلة

خشبة من تلك الخشب، فتحركت الأجراس، وظن الموكلون بالبناء أنّ المنجمين حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأساس؛ فصاح المنجمون: لا لا، القاهر فى الطالع! ومضى ذلك وفاتهم ما قصدوه. وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لا يُخرج البلد عن نسلهم أبدا، فوقع أن كان المريخ فى الطالع، وهو يسمى عند المنجمين: القاهر. فحكوا لذلك أنّ القاهرة لا تزال تحت حكم الأتراك وأنهم لا بد أن يملكوا هذه البلد، فلمّا قدم المعز إليها وأخبر بهذه القصة وكان له خبرة بالنجامة، وافقهم على ذلك، وأن الترك تكون لهم الغلبة على هذا البلد، فغيَّر اسمها وسماها القاهرة. وقيل فيها وجه آخر، وهو أن بقصور القاهرة قبة تسمى القاهرة فسميت على اسمها، والقول الأول هو المتواتر بين الناس والأحرى. وقيل غير ذلك».

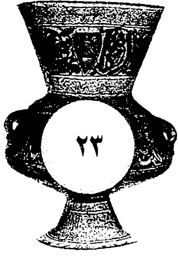
القرافة مع مشهد لباب النصر ومئذنة الحاكم رسم من القرن ١٨





وأورد المقريزى نقلا عن ابن سعيد (الأندلسى) فى كتابه «المُعرب فى حلى المغرب»، عن البيهـقى قوله: «وأما مدينة القاهرة فهى الحـالية الباهرة التى تفنن فيهـا الفاطميون وأبدعوا فى بنائهـا واتخذوها وطنا لخلافتهم ومركـزا لأرجائها فنسى الفسطاط وزهد فيه بعد الاغتباط. قال: وسُميت القاهرة؛ لأنها تقهر من شذ عنها ورام مـخالفة أميرها وقدروا أنَّ منهـا يملكون الأرض ويستولون على قهر الأمم وكانوا يظهرون ذلك ويتحدثون به».

ويُعدد ابن تغرى بردى حارات القاهرة يوم بـنائها، وهذه الحارات هى: حارة الروم، وهما حارتـان، الحارة المشـهورة ولم تزل مـعروفـة بذلك الاسم بمنطقة الدرب الأحـمر، وحـارة الروم الجوانيـة بشارع الجـمالية، وهى الـتى بقرب باب النصـر على يسار الداخل إلى القـاهرة. وحارة الديلم، وهى منسوبة إلى الديلم الواصلين صحبة أفـتكين المعزى، غلام معز الدولة بن بويه حين قـدم إلى القاهرة أولاد مـولاه معـز الدولة. وحارة الحـسـينية، وهى منسـوبة لجمـاعة الأشـراف الحسـينيين، الذين قـدموا من الحجـاز أيام الملك الكامل الأيوبى إلى مصـر واستـوطنوها. وحارة الباطلية، وقد سكنتها طائفة جاءت إلى المعـز لمّا قسم العطاء فى الناس فسألته العطاء، فقال لهم: فرغ المال؛ فقالوا: رحنا نحن فى الباطل فسُموا الباطلية، فعُرفت الحارة بهم. وحارة كتامة، وهى منسوبة إلى قبيلة كـتامة التى هى أصل دولة الخلفاء الفاطميين، نزلوا بها عـندما قدموا من المغرب مع القائد جوهر. وحارة البرقية، وقد نزل فيهـا جماعة من أهل برقة واستوطنوها، فعرفت بهم، وكانوا قد قدموا صحبة المعز لدين الله لمّا قدم من بلاد المغرب. وحارة الخرنفش، وهى التى تعرف اليوم بشـارع الخرنفش. وحارة الكافورى، وكـانت إحدى الحارات التى بنيت على أرض البـستان الكافورى. وحارة برجـوان، وهى منسوبة إلى الخادم برجوان، وكان من جملة خـدام القصر أيام الخليفة الفاطمى العزيز بالله، وكان مدبر مملكة الحـاكم بأمر الله. وحارة بهاء الدين، المنسوبة لبهاء الدين قراقوش الـصلاحى، الذى بنى سور القلعة وقلعـة الجبل. ودرب ملوخية، المنسـوب لأمير اسمه ملوخيـة الفراش، كان صاحب ركاب الخليفة الفاطمى الحـاكم بأمر الله، وتُعرف الآن بحارة قصر الشـوك بقسم الجمالية. وحـارة الوزيرية، المنسوبة إلى الوزير يعقوب بن كـلس وزير الخليفة الفاطمى العزيز بالله. وحارة الجـودرية، المنسوبة لجماعة جودر خادم المهـدى. وحارة زويلة، نسبة إلى قبيلة زويلة البربـرية التى سكنتها. وضيعة المقس، والتى كانت تُـعرف بأم دنين، وإنما سميت المقس؛ لأنّ العَشـار وهو المكاس كان يجلس فـيها يـستخـرج الأموال فقـيل للضيـعة المكس، ثم المقس.



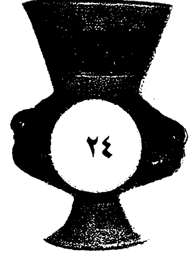
سور القاهرة وأبوابها:

يذكر المقريزى فى خططه: بأنّ القاهرة منذ أن أُسست عُمل سورها ثلاث مرات، الأولى وضعه القائد جوهر، والمرة الثانية وضعه أمير الجيوش بدر الجمالى فى أيام الخليفة المستنصر، والمرة الثالثة بناه الأمير الخصى بهاء الدين قراقوش الأسدى الناصرى فى سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب أول ملوك القاهرة.

ولقد كان السور الأول مبنيًا من لبِن وضعه جوهر القائد على مناخه الذى نزل به هو وعساكره حيث القاهرة (الآن)، فأداره على القصر والجامع. وسمَّاها المنصورية، إلى أن قدم المعز لدين الله من بلاد المغرب إلى مصر ونزل بها فسمَّاها القاهرة. وأدخل فى دائر السور بئر العظام، وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه المعز، وعمَّر القصر بترتيب ألقاه إليه المعز. ويقول المقريزى بأنه أدرك من هذا السور اللبِن قِطعًا، وأن آخر ما رأى منه قطعة كبيرة كانت فيما بين باب البرقية ودرب بطوط هدمها شخص من الناس فى سنة ثلاث وثمانمائة. فشاهد من كبر لبنها ما يتعجب منه فى زمانه حتى أن اللبنة تكون قدر ذراع فى ثلثى ذراع وعرض جدار السور عدة أذرع يسع أن يمر به فارسان، ويؤكد المقريزى أنه لم يبق فى زمنه من هذا السور اللبِن شىء.

ويقول المقريزى بأن السور الثانى للقاهرة بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ثمانين وأربعمائة، وزاد فيه الزيادات التى فيما بين بابى زويلة وباب زويلة الكبير، وفيما بين باب الفتوح الذى عند حارة بهاء الدين وباب الفتوح (الآن)، وزاد عند باب النصر أيضا جميع الرحبة التى تجاه جامع الحاكم (الآن) إلى باب النصر، وجعل السور من لبِن، وأقام الأبواب من حجارة. وفى منتصف جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة وثمانمائة ابتدئ بهدم السور الحجر فيما بين باب زويلة الكبير وباب الفرج عندما هدم الملك المؤيد شيخ الدور ليبنى جامعه فوجد عرض السور فى الأماكن نحو العشرة أذرع.

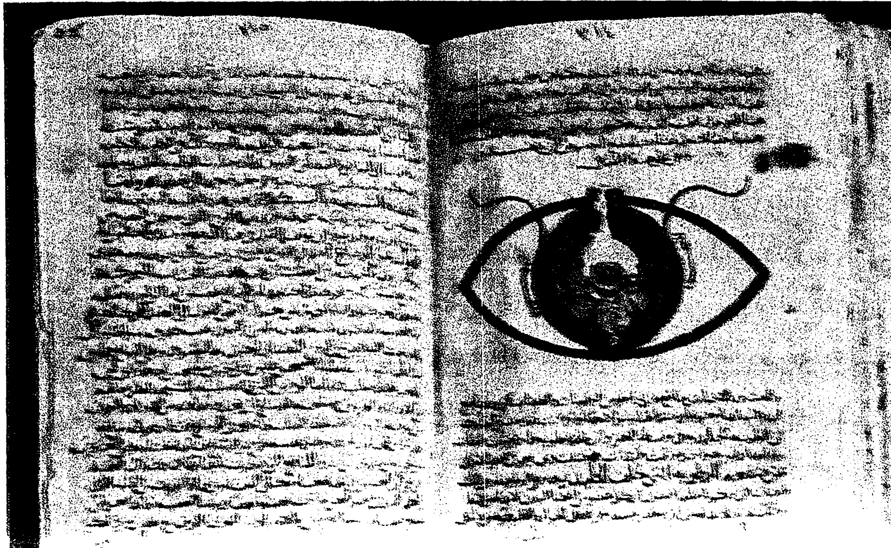
ويضيف المقريزى قوله عن سور القاهرة وتطور بنائه، بأن عمارة السور الثالث بدأت فى عهد صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٦هـ، وهو يومئذ على وزارة الخليفة الفاطمى العاضد، فلما كانت سنة ٥٦٩هـ، وقد استولى على المملكة، انتدب لعمل السور الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى، فبناه بالحجارة على ما هو عليه (الآن)، وقصد أن يجعل على القاهرة ومصر (الفسطاط) والقلعة (قلعة الجبل) سورا واحدا. فزاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب القنطرة إلى باب الشعرية، ومن باب الشعرية إلى باب البحر، وبنى قلعة المقس، وهى برج كبير وجعله على النيل بجانب جامع المقس. وانقطع السور من هناك، وكان فى أمله مد السور من المقس إلى أن يتصل



بسور مصر (الفسطاط). وزاد فى سور القاهرة قطعة مما يلى باب النصر ممتدة إلى باب البرقية وإلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل. وذكر المقريزى بأن دائرة هذا السور المحيط بالقاهرة بلغت ٢٩ ألف و٣٠٢ ذراع بالذراع المعمول به آنذاك، وهو الذراع الهاشمى. وأضاف بأنه كان يحيط بسور القاهرة خندق شرع فى حفره من باب الفتوح إلى المقس فى المحرم سنة ٥٨٨ هـ، وأنه كان أيضا من الجهة الشرقية خارج باب النصر إلى باب البرقية وما بعده، وقد أكد المقريزى بأنه شاهد آثار هذا الخندق باقية ومن ورائه سور بأبراج له عرض كبير مبنى بالحجارة، إلا أن هذا الخندق قد رُدِم وتهدمت أسواره التى كانت من ورائه.

وأما عن تطور أحوال أبواب القاهرة، فيذكر المقريزى عن وضعها فى أيامه بقوله عن: باب زويلة أنه كان عندما وضع القائد جوهر بابين متلاصقين بجوار المسجد المعروف فى أيامه بمسجد سام بن نوح، فلما قدم المعز إلى القاهرة دخل من إحداهما وهو الملاصق للمسجد الذى بقى منه عقد ويُعرف بباب القوس، وقد زال هذا الباب. فلما كان فى سنة ٤٨٥هـ بنى بدر الجمالى، وزير الخليفة المستنصر بالله باب زويلة الكبير، الذى لا يزال باقيا زمن المقريزى. ويذكر أن ثلاثة إخوة بنائين من الرُها بنوا باب زويلة وباب النصر وباب الفتوح كل واحد منهم بنى بابًا، وأن باب زويلة هذا بُنى سنة ٤٨٤هـ، وأن باب الفتوح بنى فى سنة ٤٨٠هـ. وذكر ابن عبد الظاهر فى كتاب «خطط القاهرة»، أن باب زويلة هذا بناه الخليفة الفاطمى العزيز بالله، ويقرر المقريزى عن فخامة هذا الباب بقوله: «وقد أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عِظم باب زويلة ولا يرى مثل بدنتيه اللتين عن جانبيه، ومن تأمل الأسطر التى قد كتبت على أعلاه من خارجه فإنه يجد فيها اسم أمير الجيوش والخليفة المستنصر وتاريخ بنائه. وقد

كتاب «العين» بالمتحف الإسلامى بالقاهرة





كانت البدنـتان أكبر مما هما الآن بكثـير هدم أعلاهما الملك المؤيد شـيخ لما أنشأ الجامع داخل باب زويلة وعمَّر على البدنتين منارتين».

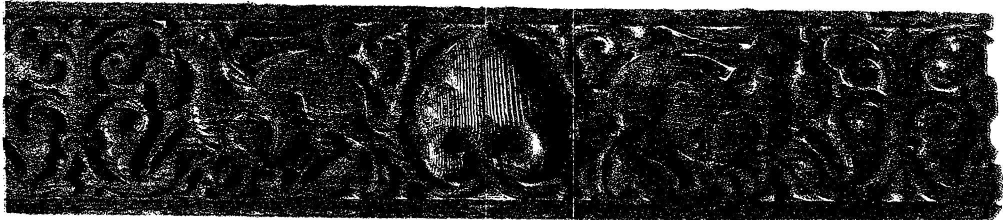
وعن باب النصر، فيـذكر المقريزى بأن هذا الباب دون موضـعه فى أيامه وأنه أدرك أحد جـانبيه تجاه ركن المدرسـة القاصدية الغربى. وقـد قام بنقله من مكانه الوزير بدر الجمالى حين عمّر سـور القاهرة إلى موضعه الحالى القائم أيام المقريزى، فصار قريبًا من مـصلى العيد، وأن تجاه هذا الباب أقامت أخت الملك الظاهر برقوق صـهريجًا سبيـلاً، وقد كُتب أعلى هذا الباب بالخط الكـوفى عبارة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله علىٌّ ولى الله صلوات الله عليهما».

وأما عن باب الفتوح، فيـقول المقريزى أن موضعه فى أيامه غير موضـعه الذى وضعه القائد جوهر، وأن المتبـقى منه هو عقده وعضـادته اليسرى برأس حارة بهـاء الدين من قبتيـها دون جدار الجامع الحاكمى، وعليه أسطر من الكتابة بالخط الكوفى. أما باب الفتوح، القائم فى زمن المقريزى، فإنه من وضع بدر الجمالى.

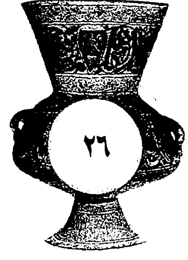
وعن بقيـة أبواب القاهرة، يذكر المقـريزى: باب القنطرة، وباب الشعرية، وباب سـعادة، والباب المحـروق، وباب البرقيـة. ويعرف باب القنطرة بأنه البـاب الذى بناه جوهر الصـقلى فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليمشى على القنطرة التى بناهـا هناك إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر فى شوال سنة ٣٦٠هـ.

أما عن باب الشـعرية، فذكر بأنه عـرف بذلك الاسم نسبة لطائفة من البـربر يقال لهم بنو الشعرية، وهم من مذاته وزوارة وهوارة، من أحلاف لواته الذين نزلوا بالمنوفية.

وعن باب سعادة، يذكـر المقريزى أنه عرف بهذا الاسم نسـبة لسعادة بن حيـان، غلام المعز لدين الله؛ لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء جوهر القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه، فلما عـاين سعادة جوهرا ترجل وسـار إلى القاهرة فى رجب سنة ٣٦٠هـ، فدخل إليـها من هذا الباب، فعُرف به وقيل له باب سعادة، وقد وافى سعـادة هذا القاهرة بجيش كبير معه، وقد توفى سعادة يوم ٢٥ من المحرم سنة ٣٦٢هـ.



حشوة خشبية من القصر الغربى للعزيز بالله



وبخصوص الباب المحروق، يقول المقريزى بأنه كان يعرف قديمًا بباب القراطين، فلما زالت دولة بنى أيوب، وحكم المماليك مصر وأولهم عز الدين أيبك. وقد تمرد أمراء المماليك ضد أيبك بقيادة القائد أقطاى. وقامت قوات أيبك بقتل أقطاى، فقام أمراء المماليك متجهين إلى باب القراطين ووجدوه مغلقًا؛ لأن العادة جرت أن تغلق أبواب القاهرة بالليل، فألقوا النار فى الباب حتى سقط من الحريق وخرجوا منه؛ فقيل له من ذلك الوقت الباب المحروق وعُرف به.

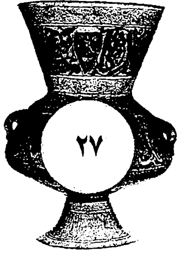
وعن باب البرقية فيكتفى المقريزى بذكر اسمه، دون إعطاء أى تفاصيل عنه وعن موضعه، وقد كان يقع فى شرق سور القاهرة.

قصور الخلفاء الفاطميين ومناظرهم:

كان للخلفاء الفاطميين بالقاهرة وظواهرها قصور ومناظر، منها: القصر الشرقى الكبير، الذى وضعه القائد جوهر عندما أناخ فى موضع القاهرة، ومنها القصر الغربى الصغير، والقصر اليافعى، وقصر الذهب، وقصر الأفيال، وقصر الظفر، وقصر الشجرة، وقصر الشوك، وقصر الزمرد، وقصر النسيم، وقصر الحريم، وقصر البحر. وهذه كلها قاعات ومناظر من داخل سور القصر الكبير، ويقال لها: القصور الزاهرة، ويسمى مجموعها القصر. وكان بجوار القصر الغربى الميدان والبستان الكافورى. وكان للخلفاء الفاطميين عدة مناظر، وهى عبارة عن استراحات ملوكية فخمة ودور سلطانية غير هذه القصور، منها: دار الضيافة، ودار الوزارة، ودار الضرب، والمنظرة بالجامع الأزهر، والمنظرة بجوار الجامع الأقمر، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج بظاهر القاهرة، ومنظرة الغزالة، ودار الذهب، ومنظرة المقس، ومنظرة الدكة، وقبة الهواء، والبساتين الجيوشية، والبستان الكبير، ومنظرة السكرة، والمنظرة ظاهر باب الفتوح، ودار الملك بمدينة مصر، ومنازل الغر، ومنظرة الصناعة بالساحل، ومنظرة جامع الأولياء، ومنظرة بركة الحبشى.

القصر الشرقى الكبير:

اختط جوهر الصقلى هذا القصر، لإقامة المعز لدين الله الفاطمى عند قدومه إلى مصر، وكان يقع فى الجهة الشرقية من القاهرة؛ ولذلك أطلق عليه القصر الشرقى الكبير، وكان ابتداء وضعه مع وضع أساس سور القاهرة فى ليلة الأربعاء الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٥٨هـ. وقد كان هذا القصر قصر سكن خلفاء الفاطميين حتى انقراض دولتهم على يد صلاح الدين، الذى قام بإخراج أهل القصر منه وأسكن فيه الأمراء حتى خُرب، ولقد كان هذا القصر، الذى



اندثر تماما وزالت معالمه، يمتد من الموضع الذى يوجد به المسجد الحسينى الآن إلى الجامع الأقمر تقريبا.

وكان لهذا القصر تسعة أبواب، ففى الناحية الشرقية منه كانت توجد أبواب العيد، والزمرد، وقصر الشوك. وفى الناحية الغربية كانت توجد: أبواب البحر، والذهب، والزهومة. وفى الناحية القبلية كانت توجد أبواب: تربة الزعفران، والديلم. وفى الناحية البحرية كان يوجد باب واحد هو باب الريح.

وقد دلت أسماء هذه الأبواب على معان خاصة، فسُمى باب العيد بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى عيد الفطر وعيد النحر إلى المصلى التى كانت خارج باب النصر. وباب الزمرد، كان يتوصل منه إلى قصر الزمرد. وباب البحر: كان يخرج منه الخليفة للنزهة فى النيل متوجهًا إلى المقس.

وباب الذهب: كانت تدخل منه المواكب ورجال الدولة، وكان تجاه المارستان المنصورى. وباب الزهومة.

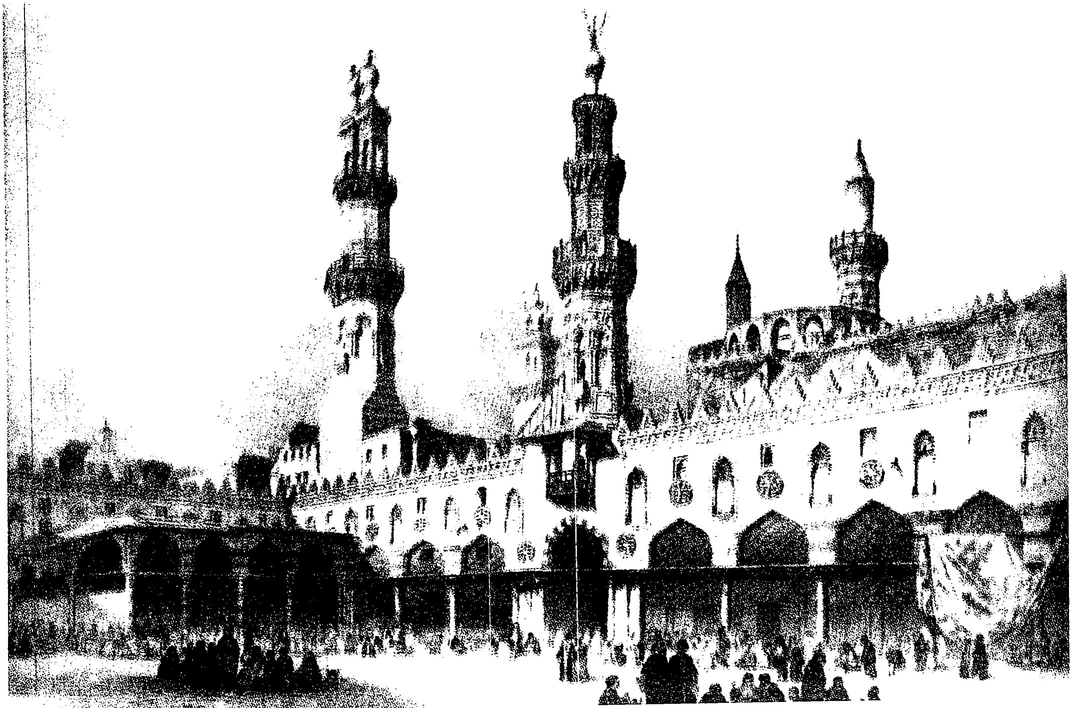
وكان هذا القصر يشتمل على مواضع منها: قاعة الذهب، وكان يُقال لها قصر الذهب، وهو أحد قاعات القصر وكان الخليفة المعز يدخل إليه من باب الذهب الذى يقابل المارستان المنصورى، ويدخل إليه أيضا من باب البحر تجاه المدرسة الكاملية. وقد جدد الخليفة المستنصر بالله هذا القصر سنة ٤٢٨هـ، وبهذه القاعة كانت الخلفاء تجلس فى الموكب يوم الإثنين ويوم الخميس، وبها كان يُعمل سماط شهر رمضان للأمراء وسماط العيدين، وبها كان سرير الملك.

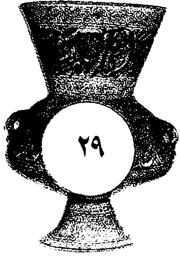
كذلك كان القصر الشرقى الكبير يحتوى على الإيوان الكبير، الذى بناه الخليفة العزيز بالله سنة ٣٦٩هـ، وبصدد هذا الإيوان كان الشباك الذى يجلس فيه الخليفة، وكان يعلو هذا الشباك قبة، وفى هذا الإيوان كان يمد سماط «الفطرة» يوم عيد الفطرة. وكان يعمل به الاجتماع والخطبة فى يوم الغدير. وكان بجانب هذا الإيوان الدواوين، وهى ديوان المجلس، وهو أصل الدواوين قديما وفيه عموم الدولة بأجمعها، وفيه عدة كُتاب، وصاحب هذا الديوان هو المتحدث فى الإقطاعات، وديوان النظر وهو من أجلّ دواوين الأموال، وصاحبه هو الذى يعرض الأوراق فى أوقات معروفة على الخليفة أو الوزير. وديوان التحقيق، ويتولاه كاتب خبير. وديوان الجيوش والرواتب، وديوان الإنشاء والمكاتبات، وديوان التوقيع فى المظالم بالقلم الدقيق، وديوان التوقيع بالقلم الجليل، وديوان النظر فى المظالم.

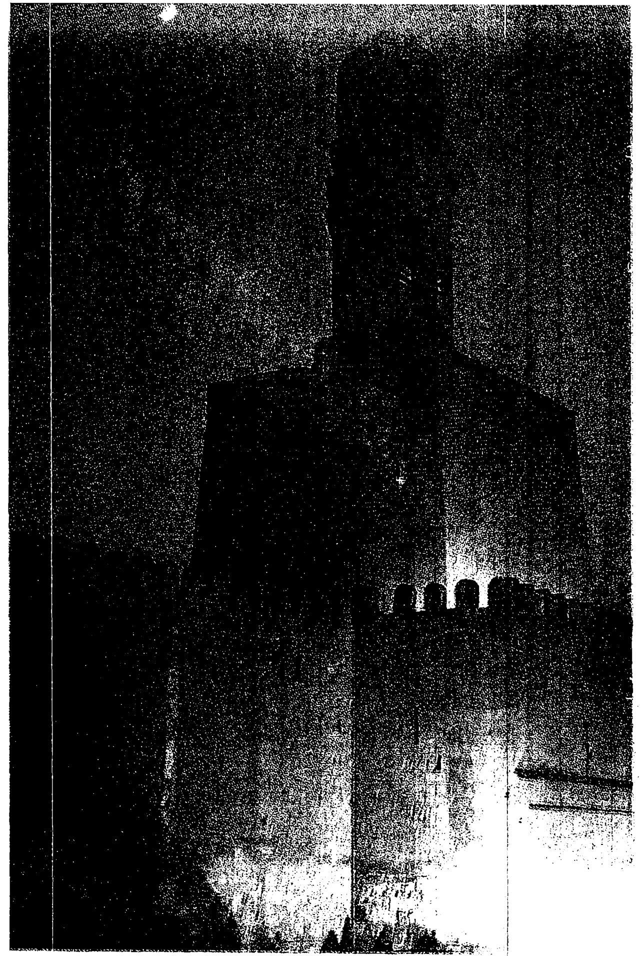
ومن جملة قاعات القصر: قاعة الفضة، وقاعة السدرة، وقاعة الخيَّم. وكان من جملة القصر الكبير موضع يُعرف بالسقيفة يقف عنده المتظلمون، وكانت عادة الخليفة أن يجلس هناك كل ليلة لمن يأتيه من المتظلمين، فإذا ظُلم أحد وقف تحت السقيفة وقال بصوت عال: «لا إله إلا الله محمد رسول الله على ولى الله» فيسمعه الخليفة فيأمر بإحضاره إليه أو يفوِّض أمره إلى الوزير أو القاضى

صحن الجامع الأزهر مع لقطة لقاهرة المعز لدين الله الفاطمى

حلقات الدروس الدينية فى صحن الأزهر







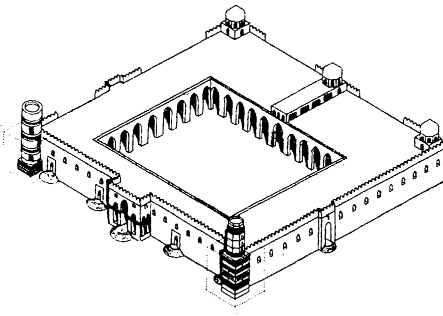
مئذنة الحاكم

أو الوالى. وكان دار الضرب جزءًا من القصر، وإلى جوار هذه الدار توجد خزائن السلاح.

ومن جملة ما استجد قيامه فى القصر الشرقى الكبير أيام صلاح الدين فتح مارستان للمرضى والضعفاء فى مكان لهذا القصر، وخصص له أطباء وجراحين وعمال وخدم للقيام بأمور العلاج والتداوى.

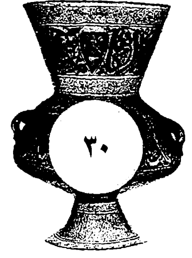
وكانت التربة المعزية من جملة القصر الكبير، وفيها دفن المعز آباءه الذين أحضر رفاتهم فى توابيت معه من بلاد المغرب، واستقرت مدفنًا يُدفن فيه الخلفاء وأولادهم ونساؤهم، وقد عُرفت تلك التربة بـ «تربة الزعفرانة». ولمَّا أنشأ الأمير «جهاركس الخليلى» خانه المعروف به فى مكان تلك التربة، أخرج ما شاء من عظام الفاطميين وألقاها فى المزابل على كيمان البرقية.

ولقد كانت بالقصر الكبير الشرقى عدة خزائن منها: خزانة الكتب، وخزانة البنود، وخزائن السلاح، وخزائن الدرق، وخزائن السروج، وخزانة الفرش، وخزانة الكسوات، وخزانة الأدم، وخزائن الشراب، وخزانة التوابل، وخزائن الخيَّم، وخزانة الجوهر والطيب، ودار الفطرة، ودار العلم.



تصميم مسجد الحاكم

وعن خزانة الكتب يذكر المسبحى أنه كان بها ما يزيد عن الثلاثين نسخة من كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدى، منها نسخة بخط يده، وأنَّ بها نسخة من كتاب «تاريخ الطبرى» اشتراها رجل بمائة دينار وحملها إلى العزيز، فأمر العزيز المشرف على الخزانة باستخراج ما هو موجود فى



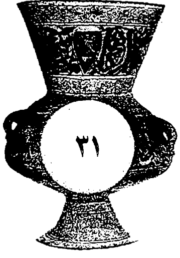
الخزانة من كتاب تاريخ الطبرى، فأخرجوا منها ما يزيد عن العشرين نسخة، منها نسخة بخط الطبرى نفسه.

كذلك كان فى الخزانة مائة نسخة من كتاب «الجمهرة» لابن دريد. وقال صاحب كتاب «الذخائر» أنّ عدة الخزائن التى ترسم الكتب فى سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة، إحداها من جملتها تحتوى على ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة، وعلى ألفين وأربعمائة ختمة قرآن بخطوط حسنة محلاة بالذهب والفضة وغيرهما.

وذكر ابن الطوير أن خزانة الكتب تحتوى على عدة رفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقِفل وفيها من أصناف الكتب ما يزيد عن مائتى ألف كتاب من المجلدات، فمنها: الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسِيَّر الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف. وقال ابن أبى طى بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب وكانت من عجائب الدنيا، ويُقال أنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر، ومن عجائبها أنه كان منها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك، ويقال أنها كانت تشتمل على ألف وستمائة كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة، وذكر ابن واصل أن خزانة الكتب كانت تزيد عن مائة وعشرين ألف مجلد.

وعن خزانة الكسوات، قال ابن أبى طى أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله عمِل داراً سماها دار الكسوة، كان يُفصّل فيها من جميع أنواع الثياب والبز، ويكسو بها الناس على اختلاف أصنافهم كسوة الشتاء والصيف، وكانت لأولاد الناس ونسائهم، وسمى هذا الموضع خزانة الكسوة.

وعن خزائن الجوهر والطيب والطرائف، قال ابن المأمون «وكان بها الأعلام والجوهر التى يركب بها الخليفة فى الأعياد ويستدعى منها عند الحاجة ويُعاد إليها عند الغنى عنها». وقال فى كتاب الذخائر والتحف أن بعض شيوخ دار الجوهر بمصر قد استدعى يومًا هو وغيره من الجوهريين من أهل الخبرة بقيمة الجوهر إلى بعض خزائن القصر أيام الشدة المستنصرية، فأخرج صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرد قيمتها على الأقل ثلثمائة ألف دينار، بيع بخمسمائة دينار. وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقل ثمانين ألف دينار بيع بألفى دينار. ووجد فى هذه الخزائن للسيدة رشيدة ابنة المعز، حين ماتت فى سنة ٤٤٢هـ، ما قيمته مليون وسبعمائة ألف دينار، من جملة ثلاثين



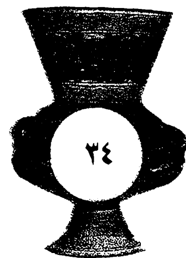
ثوب خز، واثنا عشر ألفا من الثياب الغالية. ووجد لعبدة بنت المعز التى توفيت فى نفس العام الذى ماتت فيه أختها من الجوهر ما يصعب عده وأردب من الزمرد وصندوق مملوء بالياقوت الأحمر، وخزائن مملوءة من سائر أنواع الصينى المطعم الفاخر. كذلك وجد أنها خلَّفت فى خزانة الجوهر حصير مصنوع من الذهب وزنه ثمانية عشر رطلا، ذُكر أنها الحصير التى زفت عليه بوران بنت الحسن بن سهل على المأمون.

وعن خزائن الفرش والأمتعة يقول صاحب كتاب الذخائر أنه قد أخرج فى الشدة المستنصرية من هذه الخزائن من سائر القماش والمتاع الخسروائى ما يزيد عن خمسين ألف قطعة أكثرها مذهب، وأخرجت من القصر مراتب قلامونية وخسروانية وسندسية بيعت الواحدة منها بثلاثة آلاف وخمسمائة دينار. وأخرج من خزائن الفرش الفرش البقلمونية والديبقية من سائر ألوانها وأنواعها عدد لا يحصى كثرة ولا يعرف قدر نفاسته. وأخرجت حصر مطرزة بالذهب والفضة وغير مطرزة وعليها من أنواع الصور الشيء الكثير، كذلك أخرجت أعداد هائلة من الستور الحريرية المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها وأطوالها فيها صور الدول وملوكها والمشاهير فيها، مكتوب على كل واحدة منها اسمه ومدة أيامه وشرح حاله. وصار إلى تاجر يُعرف باسم «فخر العرب» مقطع من الحرير الأزرق التسترى منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله أمر بعمله فى سنة ٣٥٣هـ فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها وفيه صورة مكة والمدينة واضحة للناظر مكتوب على كل مدينة وجبل ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضة أو الحرير، وفى آخره: مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا إلى حرم الله وإشهارا لمعالم رسول الله فى سنة ٣٥٣هـ، والنفقة عليه ٢٢ ألف دينار.

وعن خزائن السلاح ينقل المقريزى عن كتاب الذخائر أنها كانت مليئة بالسيوف والآلات والسلاح، وأنها كانت تحتوى، من ضمن ما كانت تحتويه، أسلحة تذكارية أثرية ثمينة منها: سيف الإمام الحسين بن على -رضى الله عنه- ودرقة حمزة، عم النبى ﷺ وسيف جعفر الصادق رضى الله عنه، كذلك تحتوى من الخز والدروع والتجافيف المحلاة بالذهب والفضة والسهام والقسى الكثير.

وعن خزائن السروج، قال صاحب كتاب الذخائر أن المستنصر أخرج من خزائنها خمسة آلاف سرج، كان أبو سعد إبراهيم بن سهل التسترى قد ادخرها له فيها وحفظها له، كل سرج منها يساوى من سبعة آلاف دينار إلى ألف، وأنه أخذ من خزائن السيدة والدته أربعة آلاف سرج مثلها. وقال ابن الطوير أن خزانة السروج كانت تحتوى على ما تحتوى عليه مملكة من الممالك.

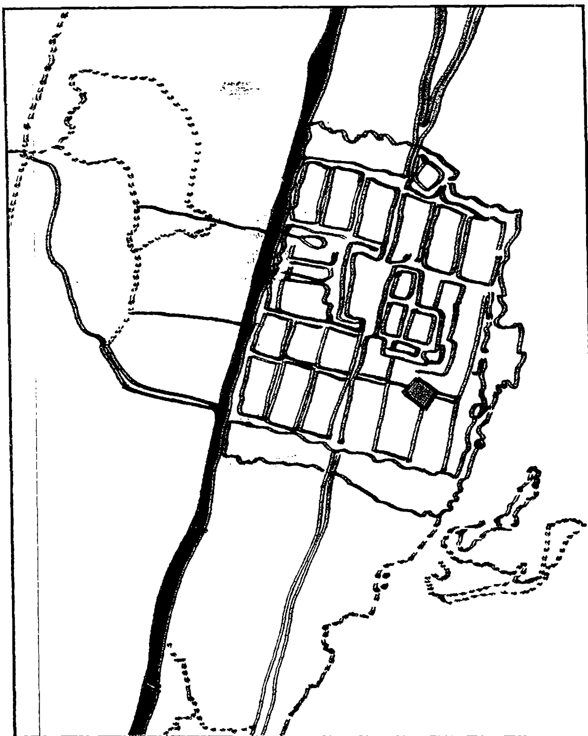
وعن خزائن الخيم أنها كانت تحتوى على أعداد لا تحصى من الخيم والمضارب والفساطيط المعمولة من الديبقى والخسروانى والديباج الملكى والأرمنى، من سائر ألوانه وأنواعه. وذكر ابن ميسَّر فى كتابه تاريخ مصر أن الأفضل بن بدر الجمالى عمل خيمة سماها: خيمة الفرح اشتملت



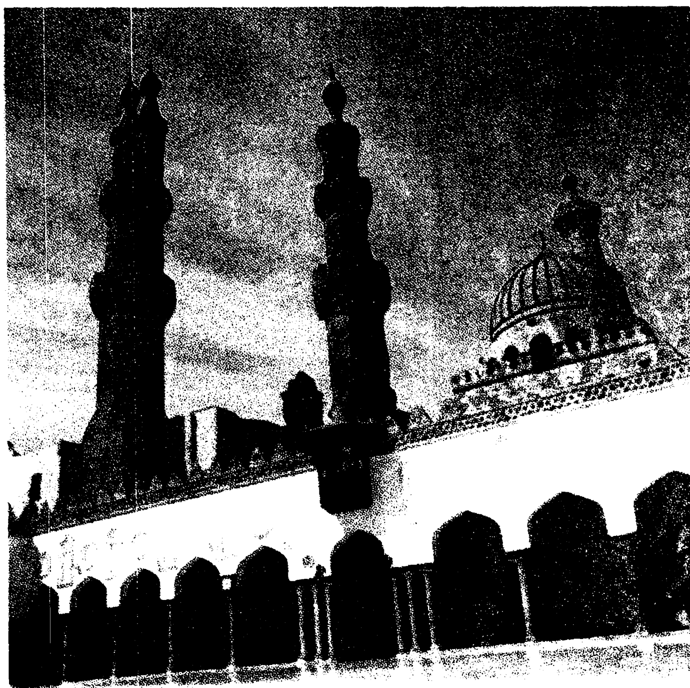
إلى الجامع الأزهر الذى تضاء حافاته بالمشاعل، ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برئاسة قاضى القضاة.

منظرة اللؤلؤة، وكانت تقع على الخليج بالقرب من باب القنطرة، ويطلق على القصر المحيط بها قصر اللؤلؤة، ويصفه المقريزى بقوله عنه أنه أحد متنزهات الدنيا، لفخامة بنائه وفاخر أثاثه وجميل موقعه، إذ كان يُشرف من شرفته على البستان الكافورى، ويطل من غربيه على الخليج وما يشرف عليه من بساتين وبرك ماء، وكان الخليفة العزيز بالله هو البانى لهذا القصر.

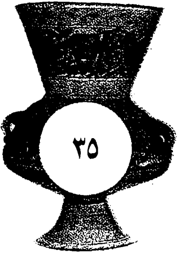
منظرة الغزالة: وكانت بجوار منظرة اللؤلؤة على شاطئ الخليج، ومنظرة السكرة، وكانت توجد على الشاطئ الغربى للخليج، وكان لها بستان عظيم، وقد بناها أيضا الخليفة العزيز بالله، وقد وصفها المقريزى بأنها كانت من جنات الدنيا المزخرفة، وأن فيها عدة أماكن معدة لنزول الوزير وغيره من الأستاذين ومنظرة الدكة، وكان لها بستان عظيم بجوار المقس، فيما بينه وبين أراضى اللوق، وقد عمر البستان بالمبانى فيما بعد،



خريطة ٢
منظر من مناظر القاهرة



الجامع الأزهر



وصـار يعرف بخط قنطـرة الدكة. ومنظرة المقـس، بجوار جـامع المقس، وهى مطلة على النيل الأعظم، وكان حينئـذ ساحل النيل بالمقس. وكانت هذه المنظرة مُعدة لـنزول الخليفة بها عند تجـهيز الأسطول إلى غزو الفـرنج. ومنظرة التاج، وهى من جمـلة المناظر التى كان الخلفـاء ينزلونها للنزهة بناها الأفـضل بن بدر الجمالى، كـما بنى منظرة الخمس وجوه التي كـانت للنزهة أيضا. ومنظرة باب الفتوح، وهى خارج باب الفتوح، وكانت مُعدة لجلوس الخليفة فيها عند عرض العساكـر ووداعها إذا سارت فى البر إلى البلاد الشـامية. ومنظرة الصناعة، وكانت بسـاحل مصر القديم، وكان الخليفة يجلـس فيها ويسير منها لتخليق المقيـاس، وقد أنشأ الوزير المأمون البطائحى هذه المنظرة ولم تزل باقية حتى آخر الدولة، ومنظرة بركة الحـبش، المشرفة على البركة، وقد بناها الخليفة الآمر بأحكام الله.

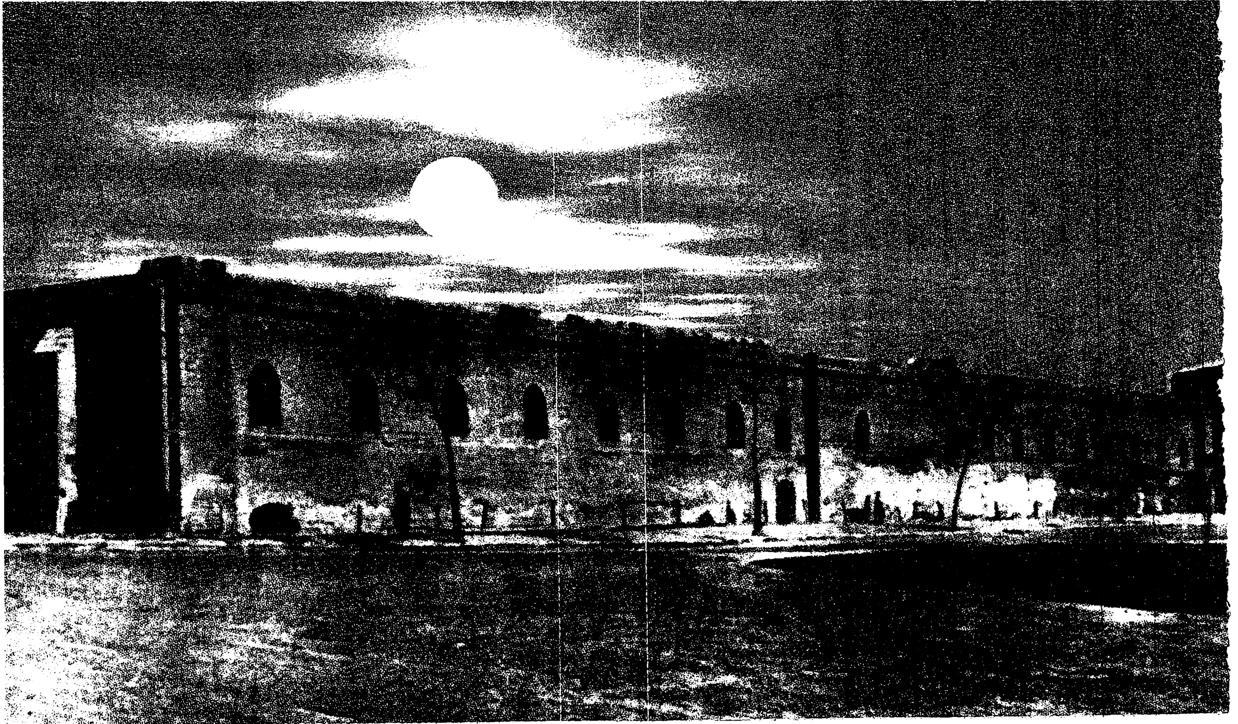
المساجد الفاطمية:

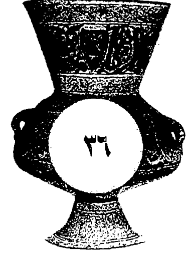
من أهم المساجـد المعروفة التى بناها الفاطمـيون: الجامع الأزهر، وجامع الحـاكم، وجامع راشدة، وجامع الجيوشى، والجامع الأقمر، وجامع الصالح طلائع بن رزيك، وجامع المقس.

الجامع الأزهر:

اختطه جوهر الصقلى، غداة فتحه مصـر، لكى تقام فيه الصلوات الجامعة، أسوة بجامع عمرو بن العاص فى الفسطاط، وجامع أحمد بن طولون فى القطائع، ولكى يُدرس فيه المذهب

جامع الظاهر بيبرس



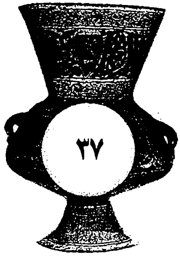


الشيعى، مـذهب الفاطميين الإسمـاعيلية، وتعاليمـه. وقد بدئ فى بنائه يوم السبت الرابع والعشرين من شهـر جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ ، وكمل بناؤه فى التاسع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ. وجُمعت فيه أول جمعة يوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ (يونيو ٩٧٢م). وقـد جاءت تسمية هذا الجامع بالأزهر، نسبة إلى السيدة فـاطمة الزهراء، ابنة رسول الله ﷺ، وزوج الإمام على بن أبى طالب، كـرَّم الله وجهه، والـتى تنسب إليهـا الدولة الفاطمـية، والمسجـد الحالى يختلف تمامـا عن تصميـمه الأول الذى وضعـه عليه جوهر الصـقلى، بسبب الإضافات والتوسعات والتعديلات التى أدخلت عليه على مدار أكثر من ألف عام، إلا أن هناك لا تزال بقية باقية من المسجد القديم؛ ولذلك فهو يُعد أقدم أثر فاطمى فى مصر.

وكانت مساحـة الأزهر عند بنائه نصف مساحته الحالية الـتى تبلغ الآن ١٢ ألف متر مربع، بسبب ما حـدث له من توسعات فى العهود المختلفـة. وكان يتكون، أول الأمر، من إيوانات أربع يتوسطهـا صحن. وقـد تألف الإيوان الشرقى من هذه الإيوانات، وهو إيوان القـبلة، من خمـسة أروقة (بوائك)، أما الإيوانان القـبلى والبحرى فيتألف كل منهمـا من ثلاثة أروقة، ويتألف الإيوان الغربى من رواق واحد يدور حول الصحن، ويخترق صحن المسجد إلى المحراب الذى تنتهى عنده العقود، وتوجد قـبتان فى ركنى إيوان القبلة إحداهما فى الركن الأيمن عـن يمين المحراب والمنبر والأخرى فى الركن الأيسـر، وفُتحت بأعلى جـدران المسجد شـبابيك من الجص مفـرغة بأشكال هندسية، أحيطت بإفريز مكتوب فـيه آيات من القرآن الكريم بالخط الكوفى المزخرف، وقد كشف حديثـا عن المحراب القديم للجامع الذى كـان يحجبه مـحراب من خشب عُمل فى عـهد الظاهر بيبرس، أما عن مئذنة الجامع الأصلية فلا يعرف شىء عنها ولا يُعرف مكانها.

وكان الخليفة الفاطمى المستنصر بالله قد قام بتجديد هذا الجامع، كذلك جدده الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمى، وأنشأ فـيه مقصورة لطيـفة تجاور الباب الغربى الذى فى مقـدم الجامع عُرفت بمقصـورة فاطمـة الزهراء، ثم إنه جُدد فى أيام السلطان المملوكـى الظاهر بيبرس البـندقدارى، ثم جُددت عمـارة هذا المسجد سنة ٧٢٥هـ، على يد القـاضى نجم الدين محمد بن حـسين بن على الأسعردى، محتسب القاهرة. ثم جددت عمارته سنة ٧٦١هـ، أيام سلطنة الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون.

وما لبث الجامع الأزهر أن يصبح جامعة كبـرى فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله، الذى ابتنى بجواره داراً لجمـاعة من الفقهاء عدتهم خـمسة وثلاثون فقيهًـا، وكانوا يجتمعون فـيها بعد صلاة الجمعة يتدارسون القرآن والحديث، وقد أجرى عليهم الخليفة الأرزاق والأموال.

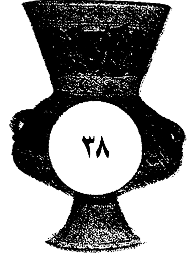


وقد تعطلت صلاة الجمعة فى الأزهر فى عهد الأيوبيين مدة قرن من الزمان، ثم عاد للأزهر بهاؤه ورونقه فى عصر سلاطين المماليك، واستأنف نشاطه وأقيمت فيه صلاة الجمعة فى عهد الظاهر بيبرس، ومنذ ذلك الوقت صار ولا يزال، حتى اليوم، أكبر جامعة إسلامية يتجه إليها طلاب العلم المسلمون من كل مكان ينهلون من معينه وليتفقهوا فى الدين وليسترشدوا بعلم أئمة وأعلام مشايخه.

جامع الحاكم:

بُنى هذا الجامع خارج باب الفتوح، أسسه الخليفة الفاطمى العزيز بالله، وخطب فيه وصلى بالناس الجمعة الأولى من شهر رمضان سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠م)، وتوفى العزيز قبل إتمامه، فأكمله ابنه الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣هـ (١٠١٢م)؛ لذا نُسب إليه فصار يعرف بجامع الحاكم. ولما وسَّع الوزير بدر الجمالى القاهرة وجعل أبوابها حيث هى، أيام المقريزى، صار جامع الحاكم داخل القاهرة، وكان يعرف أولا بجامع الخطبة، ثم عُرف بجامع الحاكم، ويقال له أيضا الجامع الأنور، وقد تأثر هذا الجامع بزلزال وقع ببلاد مصر سنة ٧٠٣هـ، فسقط كثير من البدنات التى فيه وخرب أعالى المئذنتين وتشققت سقوفه وجدرانه، فقام الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميمه وإصلاحه، وأعاده كما كان، وجعل له أوقافا بناحية الجيزة وفى الصعيد وفى الإسكندرية تغل كل سنة شيئًا كثيرًا، ورتب فيه دروسًا أربعة لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ودروسا لإقراء الحديث النبوى، وجعل لكل درس مدرسًا وعدة كثيرة من الطلبة، ثم جُدد هذا الجامع وبُلِط جميعه فى أيام الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى ولايته الثانية على يد الشيخ قطب الدين محمد الهرماسى فى سنة ٧٦٠هـ.

وهذا الجامع مستطيل الشكل طوله ١٢٠,٥ مترًا وعرضه ١١٣ مترًا، ومساحته أقل من مساحة جامع عمرو بن العاص. وفى نهايتى واجهته البحرية توجد المئذنتان، وفى منتصف هذه الواجهة وبين المئذنتين يوجد مدخل الجامع الأثرى، وهو أول مدخل بارز بُنى فى جوامع القاهرة، يغطيه قبو أسطوانى، وفى جوانب المدخل نقوش بديعة. ويؤدى المدخل إلى صحن الجامع الذى تحيط به إيوانات تحتوى على أروقة بها عقود محمولة على أكتاف مبنية من طوب أحمر داكن، وتوجد فى نهاية حائط القبلة قبتان محمولتان على مثمن، كما توجد قبة ثالثة فوق المحراب، وكان لهذا الجامع تسعة أبواب، سدت أربعة منها، ولهذا الجامع شبابيك على محور كل عقد من العقود، كما يوجد شباكان على يسار المحراب عليهما زخرفة نباتية متداخلة بعضها فى بعض.

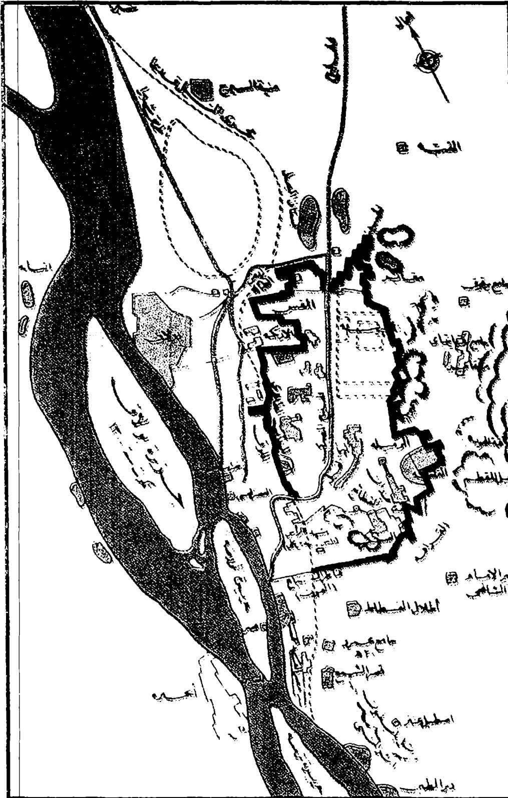


ويوجد إزار من الجص يحيط بالجامع عليه كتابات بالخط الكوفى البديع لا تزال آثاره باقية إلى اليوم فى إيوان القبلة.

ولقد توالت صروف الزمان على هذا المسجد، واستخدمته وزارة الأوقاف مخزنا حفظت فيه التحف والآثار الإسلامية قبل نقلها إلى دار الآثار الحالية، وتشغله الآن مدرسة السلحدار الابتدائية.

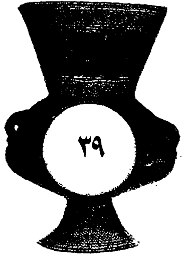
جامع راشدة:

شيد هذا المسجد الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٣هـ (١٠٠٢م)، وقد اشتق اسمه من الخطة التى بنى فيها، وهى خطة راشدة بن جديلة من لخم، وقال المسبحى فى حوادث سنة ٣٩٣هـ أنه ابتدئ فى بناء جامع راشدة يوم السابع عشر من شهر ربيع الآخر، وكان مكانه كنيسة حولها مقابر لليهود والنصارى، فبنى بالطوب ثم هدم وزيد فيه وبنى بالحجر، وأقيمت به الجمعة. وقد تكامل فرش الجامع فى شهر رمضان سنة ٣٩٥هـ (١٠٠٤م) وعُلقت قناديله وما يحتاج إليه. وصلى الحاكم بأمر الله صلاة الجمعة وخطب فيه فى شهر رمضان سنة ٤٠٠ هـ. ويذكر المقريزى بأن جامع راشدة قد جُدد مراراً وأنه أدركه عامراً تقام فيه الجمعة ويمتلئ بالناس لكثرة من حوله من السكان، وإنما تعطل من إقامة الجمعة بعد حوادث سنة ٨٠٦ للهجرة.


خريطة ٣

جامع المقس:

أنشأ الحاكم بأمر الله هذا الجامع على شاطئ النيل بالمقس، ميناء القاهرة النهرى فى ذلك الحين، وكان لهذا الجامع نخل كثير فى الدولة الفاطمية، وكان الخليفة يركب إلى منظرة كانت بجانبه عند عرض الأسطول فيجلس بها لمشاهدة ذلك، ولما بنى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب السور على القاهرة وأراد أن



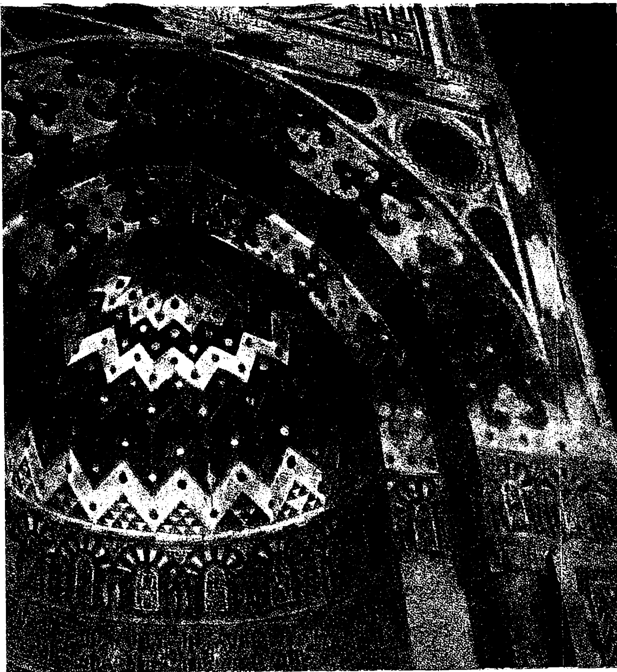
يوصله بسور مصر الفسطاط من خارج باب البحر إلى الكوم الأحمر، وكان المتولى لعمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش، أنشأ بجوار جامع المقس برجا كبيرا عُرف بقلعة المقس فى مكان المنظرة التى كانت للخلفاء الفاطميين. وفى سنة ٧٧٠هـ، جُدد بناء هذا الجامع على يد الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى، وهدم القلعة وجعل مكانها حديقة، واتهمه الناس بأنه وجد هنالك مالا كثيرا عمَّر منه جامع المقس فصار العامة يقولون من يومها: جامع المقسى، ويظن من لا علم عنده أن هذا الجامع من إنشائه وليس كذلك، بل إنما جدده وبيَّضه. وقد انحسر ماء النيل عن تجاه هذا الجامع، وصار هذا الجامع على حافة الخليج الناصرى. ويذكر المقريزى أنه أدرك ما حول هذا الجامع فى غاية العمارة، وقد تلاشت المساكن التى هناك وبها، إلى يومه، بقية يسيرة.

جامع الفيلة:

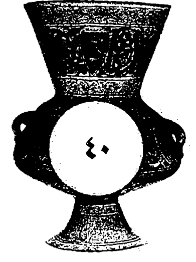
هذا الجامع بسطح الجرف المطل على بركة الحبشى، المعروف بالرصد، بناه الأفضل بن بدر الجمالى فى شهر شعبان سنة ٤٧٨هـ، وبلغت النفقة على بنائه ستة آلاف دينار. وسبب تسمية هذا الجامع بجامع الفيلة؛ لأن فى قبلته تسع قباب فى أعلاه ذات قناطر إذا رآها الإنسان من بعيد شبهها بأشخاص مدرَّعين راكبين على فيلة كالتى كانت تعمل فى المواكب أيام الأعياد وعليها السرير وفوقها المدرعون أيام الخلفاء، وقد أهمل هذا الجامع وتُرك، ولم تعد تقام فيه جمعة ولا جماعة لخراب ما حوله من القرافة وراشدة زمن المقريزى.

الجامع الأقمر:

قال ابن عبد الظاهر أن فى مكان هذا الجامع كان هنالك علافون والحوض مكان المنظرة بشارع النحاسين، فتحدث الخليفة الآمر بأحكام الله مع وزيره المأمون بن البطائحى فى إنشاء جامع فى ذلك المكان، فبنى الجامع وجعل تحته دكاكين ومخازن من جهة باب الفتوح، وكمُل بناء الجامع فى أيام الآمر وذلك سنة ٥١٩هـ، وذكر أن اسم الآمر والمأمون موجودان على لائحة



محراب مسجد البردينى



تأسيسه، على لوح فوق المحراب، وقد قام الظاهر بيبرس بتجديد هذا الجامع، وذلك ثابت أيضا فى اللوح. وفى سنة ٧٩٩هـ، قام بتجديده الأستادار يلبغا بن عبد الله السالمى، أحد المماليك الظاهرية، وأنشأ بظاهر بابه البحرى حوانيت يعلوها طباق وجدد فى صحن الجامع بركة لطيفة يصل إليها الماء من ساقية مرتفعة ينزل منها الماء إلى مَنْ يتوضأ من بزابيز نحاس، ونصَّب فيه منبرا، فكانت أول جمعة جمعت فيه رابع شهر رمضان سنة ٧٩٩هـ. وقد بُنى على يمين المحراب البحرى للجامع مئذنة، وقد بيض الجامع كله ودُهن صدره بلازورد وذهب، وأنشئت ميضأة بجوار بابه الذى من جهة الركن المخلق، وجُدد أيضا حوض هذا الجامع الذى تشرب منه الدواب وهو فى ظهر الجامع.

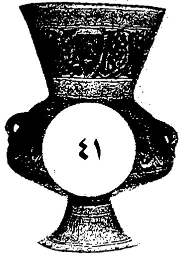
ويتكون الجامع الآن، الموجود بشارع النحاسين، من صحن صغير مربع مساحته عشرة أمتار مربعة يحيط به رواق واحد من ثلاثة جوانب وثلاثة أروقة فى إيوان القبلة، وعقود الأروقة محلاة بكتابات كوفية مزخرفة ومحمولة على عمد رخامية قديمة وأجمل ما فى هذا الجامع واجهته ذات الزخارف البديعة.

جامع الجيوشى:

يقوم هذا المسجد على حافة جبل المقطم، خلف القلعة، والذى أمر ببنائه هو الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م)، وهو أول جامع اشتمل على جامع وبُرج فى نفس الوقت، بُنى من حجر تلال المقطم الجيرية على شكل مستطيل. ومدخل هذا المسجد فى منتصف الواجهة الشمالية الغربية له، أسفل المئذنة، ولهذا المدخل عقب مدبب، يؤدى إلى ردهة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى. ومحراب المسجد مزخرف بزخرفة جصية جميلة، كما يُزين القبة من أسفلها شريط من الكتابة الكوفية المزخرفة. وتقع مئذنة هذا المسجد فى منتصف الضلع الشمالى للمسجد، ويبلغ طولها ٢٠ مترا تقريبا. وجميع جدران هذا المسجد مبنية من الحجر، وقبته مبنية من الطوب الأحمر الداكن، وتوجد لوحة تذكارية عند مدخل المسجد ورد فيها اسم بدر الجمالى مؤسس المسجد وتاريخ تأسيسه.

جامع الصالح:

ذكر المقريزى فى خططه، أن هذا الجامع من المواضع التى عُمرت زمن الخلفاء الفاطميين، وهو خارج باب زويلة. أنشأه الملك الصالح طلائع بن رزيك، وزير الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمى، وأتم بناءه الخليفة العاضد، آخر خلفاء الفاطميين، والمتوفى سنة ٥٥٦هـ (١١٦١م)، فكان هذا الجامع آخر أثر أنشئ فى عهد الدولة الفاطمية، وقد ذكر المقريزى فى أمر بناء هذا الجامع



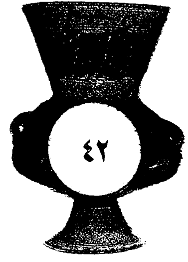
ما أورده ابن عبد الظاهر من أن ابن رزيك أنشأ هذا الجامع ليدفن فيه جثمان الإمام الحسين بن علي رضوان الله عليه حين نُقل من عسقلان خوفًا عليه من استيلاء الصليبيين عليه لما هاجموا تلك المدينة. وهذا القول مردود؛ لأن المشهد الحسيني أنشئ سنة ٥٤٩هـ (١١٥٤م)، أى قبل بناء هذا الجامع بنحو ست سنوات.

وهذا الجامع جامع صغير بمقارنته بجامعى ابن طولون والأزهر، وهو يتكون من أربعة إيوانات محيطة بصحن المسجد، يتكون ثلاثة إيوانات منه من رواق واحد، عدا إيوان القبلة الذى يتكون من ثلاثة أروقة. وعقود أروقة هذا المسجد محمولة على أعمدة رخامية، والمدخل الرئيسى للمسجد فى واجهته الغربية، وهو من المساجد المعلقة وأرضيته أعلى من مستوى الشارع بها حوانيت. والمنبر الموجود بالمسجد هو منبر حديث، صُنع بأمر الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م)، وجددت مئذنة هذا المسجد على يد هذا الأمير بعد سقوطها فى زلزال سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م)، الذى وقع بالقاهرة.

ويمثل بناء هذا الجامع فى المنطقة التى بُنى فيها خطورة حربية على مدينة القاهرة، فلو أن عدوًا مهاجمًا للقاهرة استولى عليه لأمكنه أن يهدد المدينة من ناحيته، ولاتخذه نقطة ارتكاز عسكرية جيدة لاقتحام باب زويلة نفسه، ثم المدينة بعد ذلك، وقد أدرك الصالح طلائع هذا الخطأ قرب وفاته؛ لذلك سُجل عنه آنذاك، وهو يحتضر، قوله: «ما ندمت قط فى شيء عملته إلا فى ثلاث: الأولى بنائى هذا المسجد على باب القاهرة، فإنه صار عونًا عليها، والثانى توليتى لشاور الصعيد الأعلى، والثالث خروجى إلى بلبيس بالعساكر وإنفاقى الأموال الجمة ولم أقم بهم إلى الشام وأفتح بيت المقدس واستأصل ساقة الفرنج».

القاهرة فى عهد صلاح الدين الأيوبى:

عمل صلاح الدين ، منذ توليه حكم مصر، على دمج القاهرة والعواصم التى سبقتها: الفسطاط والعسكر والقطائع، بعضها فى بعض، وأن يوحد بينها، فيحيطها جميعها بسور عظيم، لتصبح عاصمة لدولته، على أن يشيد لها فوق رابية جبل المقطم قلعة حصينة يقيم فيها وتقيم فيها حكومته ليشرف منها، من أعلى، على تلك العاصمة الموحدة، ولتحميها وتدفع عنها أى عدوان خارجى عليها. وبذلك يعتبر صلاح الدين هو الذى وضع أساس القاهرة الحالية، وهو الذى مهد لها كى تصبح أكبر مدينة فى الشرق، جديرة بما لمصر من مركز الصدارة بين دول العالم الإسلامى، ودول الشرق الأوسط ورسم طريق تقدمها العظيم الذى صار لها فى العصور التالية حتى العصر الحديث.



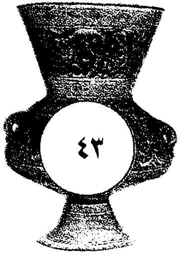
ولقد وكل صلاح الدين لوزيره بهاء الدين قراقوش إنفاذ خطط إعمار القاهرة وتوسعتها والإشراف على بناء سورها وبناء القلعة وإتمام تخطيط المدينة، فأنفذ ذلك كله بكل نشاط ودقة وإحكام، ومن هنا جاءت شهرة هذا الرجل بالشدة والصرامة، ولم يمتد أجل صلاح الدين لإتمام جميع إنشاءات القاهرة، وترك المهمة لخلفائه سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعده، مشيدين فيها منشآت وعمائر لا تزال قائمة حتى اليوم تشهد على حبهم لهذه المدينة الخالدة ورغبتهم فى استمرار بهائها وجمالها وسيادتها على عواصم العالم على مر العصور.

وتنحصر منشآت صلاح الدين فى القاهرة فى سورها العظيم الذى ابتناه بعد أن مدَّ سور بدر الجمالى من شماله واتجه به غربا حتى شاطئ النيل الشرقى، حيث أقيم حصن المقس المنيع. ومد هذا السور أيضا من ناحية الجنوب حتى باب الوزير، ثم مده جنوبا ليحيط بمدينة الفسطاط حتى يلتقى بالنيل ثانية جنوبها، وبذلك نجد أن ما تم من بناء سور القاهرة فى عهد صلاح الدين: السور الشمالى، الذى يبتدئ من غرب باب الفتوح ويسير غربا، ثم إلى الجنوب الغربى، ثم يتجه ثانية إلى الغرب ويسير باطراد، ما عدا قطع واحد بالقرب من شارع الخليج المصرى (شارع بور سعيد الحالى)، ثم يسير خلف منطقة الفجالة وشارع الطبالة حتى ميدان باب الحديد (ميدان رمسيس الحالى) حيث توجد بقايا منه على طول هذا الاتجاه الذى ينتهى بقلعة المقس، التى زالت آثارها اليوم، وكان قد شيد بجوارها جامع المقس، الذى يُعرف اليوم بجامع أولاد عنان.

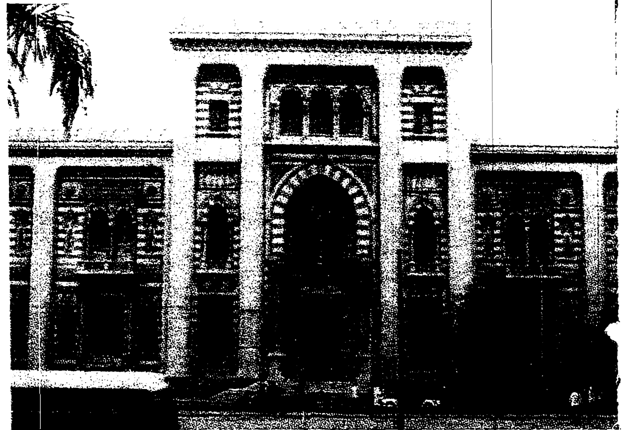
كذلك تم فى عهد صلاح الدين بناء الجزء من السور الشرقى، الذى يمتد من باب النصر فدرب المحروق حتى باب الوزير، بالقرب من سور القلعة الجديد. ولم يكتمل بناء السور فى أثناء حياة صلاح الدين فأتمه من بعده خلفاؤه،

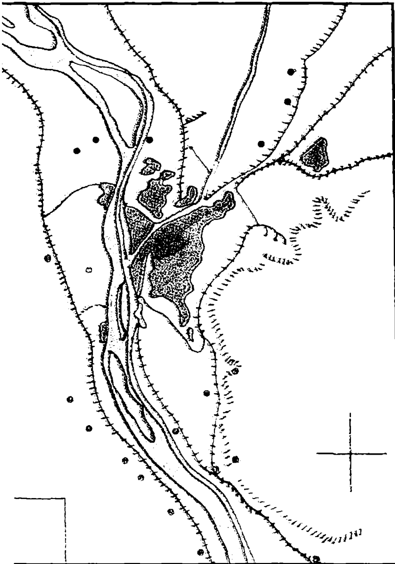


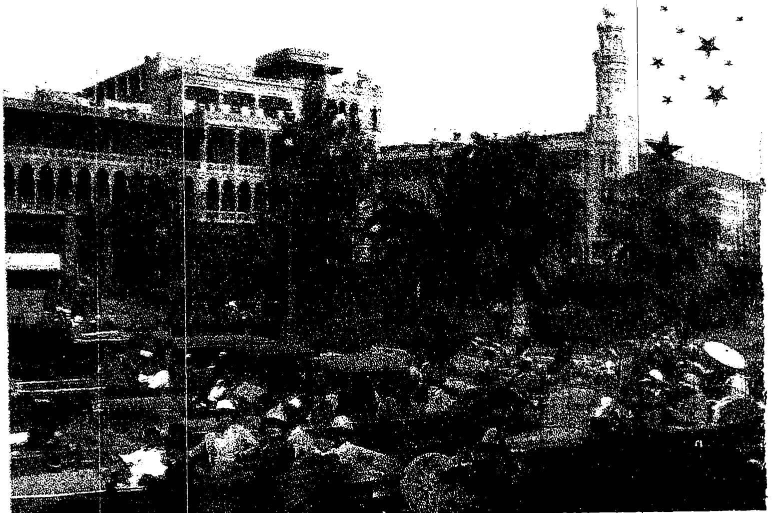
سور القلعة وأحد الأبراج

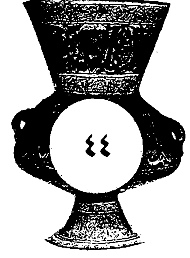



واجهة المتحف المصرى


متحف الفن الإسلامى - باب الخلق


خريطة ٤


هليوبوليس مصر الجديدة فى بداية
القرن ٢٠

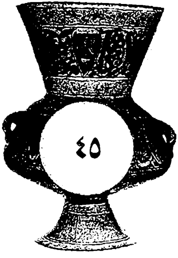


أتموا بناء السورين الجنوبى والغربى، وأتموا توصيل السور الشرقى بباب الوزير. وقد تميز بناء سور صلاح الدين بأنه بنى من الأحجار، بخلاف سور جوهر الذى بنى بالطوب اللبن. كذلك تميز هذا السور ببناء الأبراج الدائرية والمنافذ والفتحات، ولا يزال فى الإمكان الآن تتبع أجزاء من هذا السور بين المنازل القديمة للقاهرة أو خلال تلال المقطم.

وينسب لصلاح الدين، كما سبق أن أسلفنا، بناء القلعة، فى نفس الوقت الذى كان يبنى فيه سور القاهرة، وقد كان بناؤها فوق جبل المقطم، فى موضع كان يعرف قديما باسم «قبة الهواء»، ثم صار من تحته ميدان أحمد بن طولون، ثم صار موضعها مقبرة فيها عدة مساجد إلى أن أنشأها صلاح الدين على يد بهاء الدين قراقوش الأسدى سنة ٥٧٢هـ، وصارت من بعده دار الملك بديار مصر إلى عهد الخديوى إسماعيل، حين تحولت الحكومة المكونة عنها إلى قصر عابدين، الذى ابتناه الخديوى لهذا الغرض، يقول المقريزى فى ذلك ما نصه: «إن السلطان صلاح الدين لما استبد بأمر مصر بنى قلعة الجبل هذه ومات فسكنها من بعده الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب، واقتدى به من ملك مصر من بعده من أولاده إلى أن انقرضوا على يد مماليكهم البحرية وملكوا مصر من بعدهم فاستقروا بقلعة الجبل إلى يومنا هذا».

وعن السبب الذى دعا صلاح الدين اختياره مكان قلعة الجبل «أنه علق اللحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة فعلق لحم حيوان آخر فى موضع القلعة فلم يتغير إلا بعد يومين وليلتين فأمر حينئذ بإنشاء قلعة هناك وأقام على عمارتها بهاء الدين قراقوش الأسدى فشرع فى بنائها وبنى سور القاهرة الذى زاده فى سنة ٥٧٢هـ وهدم ما هنالك من المساجد وأزال القبور، وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ونقل ما وجد بها من الحجارة وبنى به السور والقلعة وقناطر الجيزة، وقصد أن يجعل السور يحيط بالقلعة وبالقاهرة ومصر فمات السلطان قبل أن يتم الغرض من السور والقلعة فأهمل العمل إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل واستنابه فى مملكة مصر وجعله ولى عهده؛ فأتم بناء القلعة وأنشأ بها الآدر السلطانية وذلك فى سنة ٦٠٤ هـ، وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر إلى يومنا هذا، وقد كان السلطان صلاح الدين يقيم بها أياما وسكنها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين فى أيام أبيه مدة ثم انتقل منها إلى دار الوزارة».

ويوجد فى الضلع الغربى للقلعة الباب المدرج وفوقه كتابة تاريخية كتبت بعد البدء فى إنشاء القلعة بست سنوات ولا تزال موجودة حتى اليوم ونصها كالتالى: «بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التى جمعت نفعًا وتحسينًا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينًا مولانا الملك الناصر صلاح الدين والدنيا أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى



دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله الملكى الناصرى فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة».

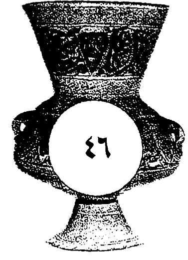
هذا، ولم يبق من منشآت صلاح الدين بالقلعة سوى بعض أجزاء السور والأبواب، وقد أدخل عليها الكثير من التغيير والإضافات على مر العصور، فقد زاد الملك الكامل فى مساحتها وبنى بها قصوراً عدة، وأحاط الزيادة بسور أقل حجماً من سورها الأول. كما أنشأ الظاهر بيبرس برجاً كبيراً وطباقاً للمماليك وقصراً فخماً لوالده، وأنشأ الأشرف خليل بن قلاوون مقعداً فخماً يطل على النيل وعلى الجيزة. وأنشأ الناصر محمد بن قلاوون برجا مربعاً كبيراً لا يزال باقيا إلى الآن أسفل جامع محمد على، كما بنى قصره المعروف بالقصر الأبلق، الذى لا تزال توجد بقية منه، كما أنشأ مسجداً، وأنشأ الناصر حسن بن محمد قصره المسمى بالبيسرية سنة ٧٦١هـ (١٣٦٠م)، وجدد الظاهر برقوق سور القلعة سنة ٧٩١هـ (١٣٨٩م)، وشيد الغورى إيواناً كبيرا، وفى سنة ١١٦٠هـ (١٧٤٧م) أنشأ الأمير رضوان كشتمر باب العزب المشرف على ميدان صلاح الدين.

وأصلح محمد على باشا جانباً كبيراً من سور القلعة وأبراجها وأبوابها، وأنشأ مسجده وسراى الجوهرة ودار الضرب ودار المحفوظات المقابلة للباب الجديد الذى أنشأه سنة ١٢٤١هـ (١٨٢٥).

هذا، ولم يقع تغيير يذكر فى تخطيط القاهرة فى عهد خلفاء صلاح الدين من سلاطين الأيوبيين، سوى إكمال الملك الكامل بناء القلعة سنة ٦١٤ هـ (١٢٠٧م)، كما أسلفنا، وإحاطة الزيادة بسور أقل ارتفاعا من سورها الأول واتخاذها ومن حكم بعده من سلاطين الأيوبيين مقرا لحكمهم.

وفى عهد دولة المماليك البحرية التى ورثت حكم الأيوبيين وملكهم فى مصر والشام، اتسعت القاهرة وامتدت صوب الشمال فى الطريق الذى رسمه لها صلاح الدين من قبل، فهدموا ما تبقى من القصرين الفاطميين الكبير والصغير، وملأوا المنطقة داخل حدود القاهرة الجنوبية والشمالية بالمبانى من جوامع ومدارس وأضرحة وحمامات ووكالات وأسبلة، وتخطوا الأسوار الشمالية وبنوا فيها المساجد الفخمة، وسار على نفس دربهم سلاطين المماليك الجراكسة (البرجية)، فعمروا الصحراء وشيدوا فيها أيضا المساجد والأضرحة.

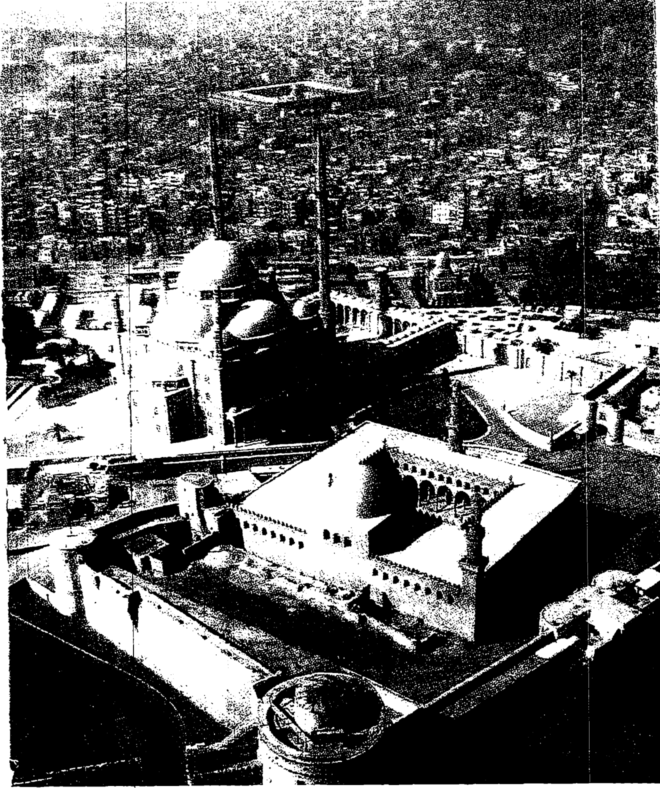
ولقد ارتدت القاهرة أبهى حللها فى ظل الحكم المملوكى، الذى يعتبر العصر الذهبى فى تاريخ العمارة المصرية، فلقد كان الإقبال كبيراً آنذاك على الإنشاء والتعمير، وتسابق سلاطين المماليك فى إقامة المساجد الفخمة والقصور البديعة، ولا تزال القاهرة تحتفظ بهذه المساجد وبقايا



القصور التى تقف شاهداً على حياة الترف والبذخ التى كان يعيشها المماليك ومدى تقدم الصناعة والمعمار فى مصر آنذاك.

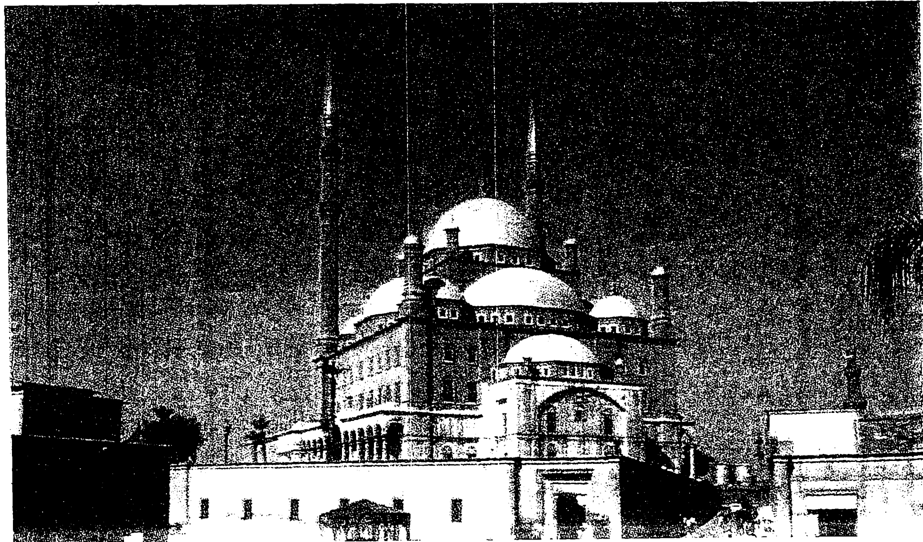
كذلك اتسعت القاهرة وزادت أراضيها صوب الغرب والشمال الغربى بما كان يطرحه نهر النيل سنويا من طمى أيام الفيضان، فنشأت أراض وجزر جديدة مثل أرض اللوق وجزيرة الفيل، التى قامت عليها، فيما بعد، أحياء بولاق وشبرا وروض الفرج وباب اللوق.

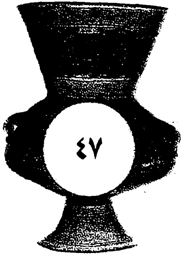
وأرض اللوق كانت تسمية تطلق على الأراضى الممتدة غرب القاهرة، والتى يحدها اليوم شارع قنطرة الدكة من الشمال ومستشفى قصر العينى وشارع البستان من



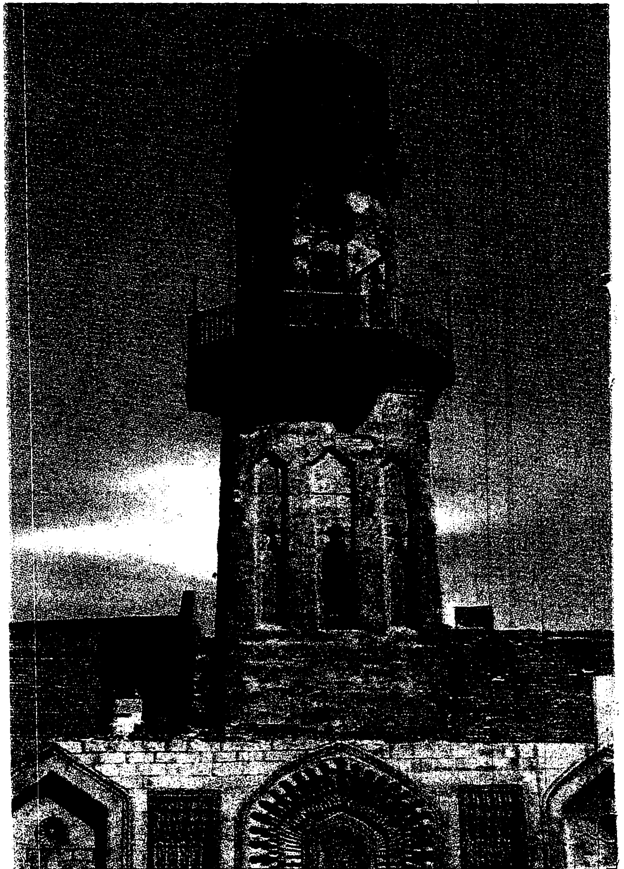
لقطة من الجو لقلعة صلاح الدين الأيوبى بداخلها جامع محمد على وجامع الناصر محمد بن قلاوون

جامع محمد على بالقلعة



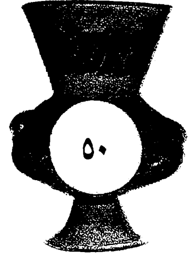


الجنوب وشارع الملكة (رمسيس) من الغـرب، وينحرف هذا الحد إلى قصر النيل ويسير بمحاذاة النيل حتى كوبرى قصـر النيل. وتحُد شرقا بشارع الخليج المصرى (شارع بورسعيـد الحالى) فشارع نوبار، وينثنى هذا الحد إلى الشـرق عند التقائه بشارع الشـيخ ريحان حتى يتصل بـشارع عماد الدين ثم يسـتقيم شمـالا شارع قنطرة الدكة. وهذا الحـد الشرقى لأرض اللوق كان الشاطئ الشـرقى للنيل تجاه القـاهرة حتى سنة ٦٩هـ (٦٨٨م). وقـد كـان النيل يغمـر هذه الأراضى وقت الفيضان، ومع انحسار مياهه تنكشف هذه الأراضى الصالحة للزراعة فيزرعها الناس وهى لينة دون حرث وإنما كـانت (تُلاق لوْقا)، وهذا سبب تسـميتـها بأرض اللوق. وقد انحـسر النيل عن هذه الأراضى تماما فيما بين سنوات ٣٣٠-٥٦٠هـ (٩٤١-١١٦٤م) وأصبحت أرضا زراعية خالصة بها كثير من البساتين مثل بستـان ابن ثعلب وبستان الكتبة وغيرها. ولم يبدأ البناء فى هذه الأرض إلا منذ عهد الظاهـر بيبرس سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) وأخذ المعمـار يستشرى فيـها تدريجيا حـتى عهد الخديوى إسمـاعيل حيث شُيـدت بها مبان كـثيرة وعمـائر فخـمة وقامت بهـا أحياء الإسـماعـيلية والتوفيقية.


مئذنة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب

وظهـــر فى النيل سـنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) أمام أرض اللوق جـزيرة كبيرة أنشـئت على جزء منهـا قـرية بولاق سنة ٧١٣هـ (١٣١٣م)، ومـا لبـث أن اتصلت الجزيـرة بشاطئ النيل وصـارت الطريق مـن اللوق إلى بولاق سـالـكة، وصـرّح الملك الناصر مـحمد بن قلاوون بالعـمارة والبناء فى تلك الأراضى فتسـابق الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامة فى البناء وأنشأوا على النيل الدور والقصـور والبسـاتين، وتكوَّن من مجـموع ذلك بلدة جديدة هى بولاق، ولم تـتصل بولاق بمدينة القاهرة إلا زمن الخديوى إسمـاعيل حينما أخذت تتسع فيها العمائر وتمتد المبانى صوب الشرق.

واتصلت المنطـقـة المـمـتـدة مـا بين المقس (مكان مسجد أولاد عنان بميدان رمسيس) وجزيرة الفيل، بعـد أن كان النيل يجـرى بينهمـا آتيا من



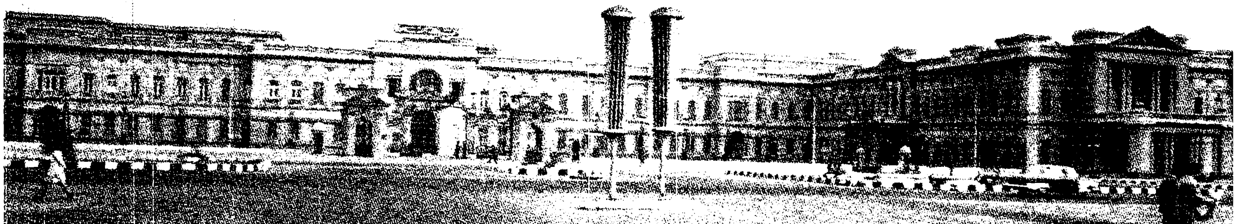
وكانت أهم ظاهرة طرأت على مـدينة القاهرة، فى القرن التـاسع عشر، امتدادها ناحيـة الشمال الغربى والغرب، ونشوء أحيـاء جديدة لم تكن موجودة من قبل، وذلك بسبب طرح النيل، أى ظهـور أراض جديدة تتكون من عملية إرساب طمى فيـضان النيل الذى يأتى به النيل كل عام. وقد تبين للبـاحثين أن النيل طرح أرضا جـديدة ثمانى دفعـات بجوار شاطئه الـقديم حتى استـقر فى وضعه الحالى، فى مدى الثلاثة عشر قـرنا الأخيرة، وأن هذه الأراضى المستجدة تأخذ فى الاتساع كلما اتجهنا شمالا من مصر القديمة حـتى ميدان باب الحديد، وتبلغ هذه الأراضى أقصى اتساعها فى الشمـال، وكان شاطئ النيل الغـربى ينتهى عند الدقى، ولم تكن أحـياء شبـرا وروض الفرج وبولاق قد ظهرت إلى الوجود بعد.

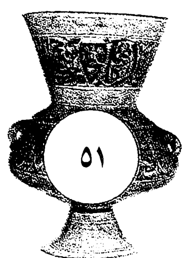
ولقد أخذت مدينة شبرا فى الازدهار، منذ تولى محمد على باشا حكم مصر، وكانت أول خطوة فى سبيـل ذلك تمهيده شارع شبـرا الحالى سنة ١٨٠٨م، ليكون طريقا بين القـاهرة وقصره الذى بناه بقرية شبرا الخيمة.

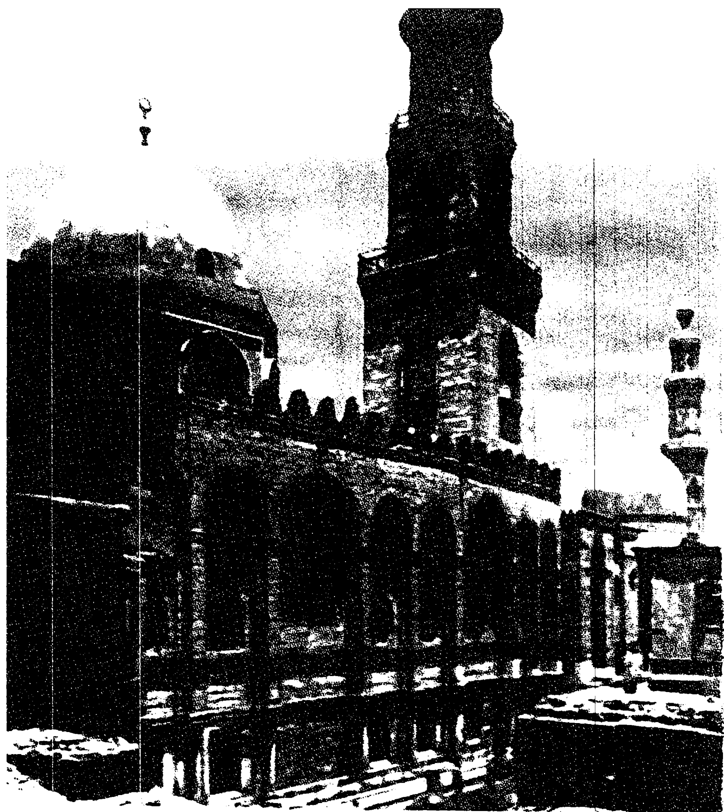
وتغيَّـر مظهر مدينة القاهرة تغـيرا كاملا فى عـهد حكم الخديوى إسمـاعيل، الذى أراد أن يجعل عاصمة حكمه تضاهى باريس فى جمالها وتنـسيقها، ويجعل منها باريس الشرق يباهى بها الملوك والأمراء الذين دعـاهم لحضور افتتـاح قناة السويس. والواقع أن الخديوى إسـماعيل أدخل على القاهرة الكثيـر من التحسينات والتعديلات: فـأنشأ بها القصور والبساتـين والشوارع الواسعة والميادين، وفى سنين قليلة، أيام حكمه، لبست القاهرة ثوبا جديدا قشيبا.

وبدأ إسماعـيل بمد الطرق المستقيمـة داخل المدينة، لافتقار القاهرة يومـئذ لمثل هذه الشوارع التى كانت مثـيلاتها فى باريس سوى شارع الحسـينية. فأنشأ شارع الفـجالة، وشارع كلوت بك، وشارع مـحمد على (القلعـة)، وشارع عبـد العزيز، وشارع عـابدين؛ وقد سـهلت هذه الشوارع

قصر عابدين

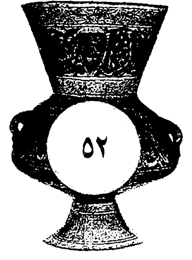






مجموعة ابن قلاوون (مسجد، ومدرسة، وبيمارستان)

واجهة مدرسة الناصر محمد بن قلاوون



التنقل داخل القاهرة من أدناها إلى أقصاها. وقامت فى ميدان الأزبكية حديقة كبرى واسعة سنة ١٨٧٢، على نسق حدائق قصر الإليزيه بفرنسا، وفرساى، كما أنشأ دار الأوبرا، وتمثالا وسط ميدانها لأبيه إبراهيم باشا، وهو يمتطى صهوة جواده، وفى اتجاه الجنوب يوجد قصر عابدين، الذى اتخذه إسماعيل مقرا لحكمه مكان القلعة.

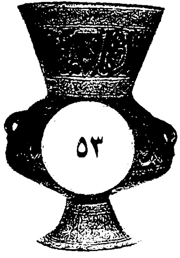
وأنشأ إسماعيل بالقاهرة أحياء جديدة، كحى الإسماعيلية، والتوفيقية، وعابدين، والأوبرا، وقام بتنظيم جهات الجزيرة والجيزة وإنشاء حديقة الحيوان بالجيزة، كما أنشأ شارع الهرم سنة ١٨٦٩ يصل به داخل القاهرة بمنطقة الأهرامات خلال احتفالات افتتاح قناة السويس.

ولقد أنشأ الخديوى إسماعيل عدة قصور، منها: قصر عابدين، وقصر الجيزة، وقصر بولاق الدكرور، وقصر الجزيرة، وقصر القبة، وقصر حلوان، وقصر الإسماعيلية، وقصر الزعفران بالعباسية، وسراى الرمل بالإسكندرية، ولكى يربط الجزيرة بالقاهرة أنشأ كوبرى قصر النيل سنة ١٨٧١، وكوبرى الجلاء سنة ١٨٧٣، واهتم الخديوى إسماعيل بضاحية حلوان الحمامات، فشيد بها قصرا فخما على النيل، وأدخل إسماعيل الإنارة للقاهرة بغاز الاستصباح وتوزيع المياه بالأنابيب.

ومن الأحياء الجديدة التى نشأت فى عهد إسماعيل حى العجوزة وحى الزمالك نتيجة تحويل إسماعيل لمجرى النيل الأصلى من الغرب إلى ناحية الدقى إلى الشرق. وأنشأ إسماعيل فى الجزء الجنوبى من الأرض التى تخلفت بالردم من مجرى النيل القديم، شمالى مدينة الجيزة، سراى الجيزة بمبانيها الفخمة وحديقتها، ثم أنشأ شماليها حديقة الأورمان (الغابة)، وجلب إليها أنواع الأشجار من قارات العالم المختلفة.

وفى ميدان أحمد ماهر، أقيم المتحف الإسلامى ودار الكتب المصرية، وقد تم افتتاح المتحف سنة ١٩٠٣، كما أنشئ المتحف المصرى بميدان التحرير (ميدان الإسماعيلية سابقا) سنة ١٩٠٢، على يد مارييت باشا، كما أنشئت دار الأوبرا سنة ١٨٦٩ لمناسبة افتتاح قناة السويس.

وفى ظل الاحتلال البريطانى لمصر، توقفت حركة الإنشاء والتعمير فى القاهرة، ولم يطرأ تغيير يذكر على خريطة المدينة على ما كانت عليه فى عهد إسماعيل، والتغيير الوحيد الذى طرأ على شوارع القاهرة هو تسيير الترام ببعضها فضلا عن السيارات والحاملات التى حلت محل الدواب كوسيلة وحيدة للنقل داخل تلك الشوارع؛ كذلك استجدت ضاحيتان جديدتان بالقاهرة وهما ضاحيتى: عين شمس وهليوبوليس، ومن الشوارع الجديدة التى استجدت آنذاك شارع الخليج المصرى، الذى يعرف الآن بشارع بور سعيد، كذلك شارع فاروق، المعروف الآن بشارع الجيش سنة ١٩٢٦، وهو يصل بين ميدان العتبة وميدان الحسينية.



القسم الثانى
دور القاهرة الحضارى فى العصر الإسلامى

أولا: الدور الثقافى:

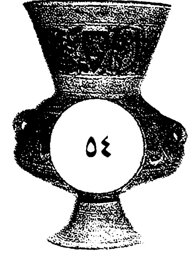
أ - الدور الثقافى للقاهرة فى العصر الفاطمى:

أدت القاهرة دورها الثقافى كاملاً منذ نشأتها وطوال العصر الإسلامى حتى اليوم، وساهمت فى هذا الدور بقسط كبير من أدوار ازدهار الحضارة الإسلامية. وقد جاء أداء هذا الدور من خلال ما أنشئ بها، طوال عصورها المختلفة، من دور ومعاهد للعلم تمثلت فى المساجد والمدارس والمكتبات، التى أنشئت فيها، واتخذت مراكز للتعلم والتعليم، وخرَّجت أعلامًا أفذاذًا من علمائها وفقهائها، كانوا منارة شملت بشعاعها العالم أجمع.

ولقد اجتذبت القاهرة، منذ نشأتها، الكثير من طلاب العلم الذين وفدوا إليها من سائر الأنحاء ينهلون من بحر علومها ويتتلمذون داخل معاهدها على أيدى مشايخها وعلمائها، وما يلبثوا أن يعودوا إلى ديارهم لينقلوا ما درسوه وما تعلموه على يد أشياخ مصر لطلابهم فى بلادهم بعد أن أتموا علمهم وحصلوا على جوائزهم، وبعد أن تحولوا من طور التلمذة إلى طور الأستذة.

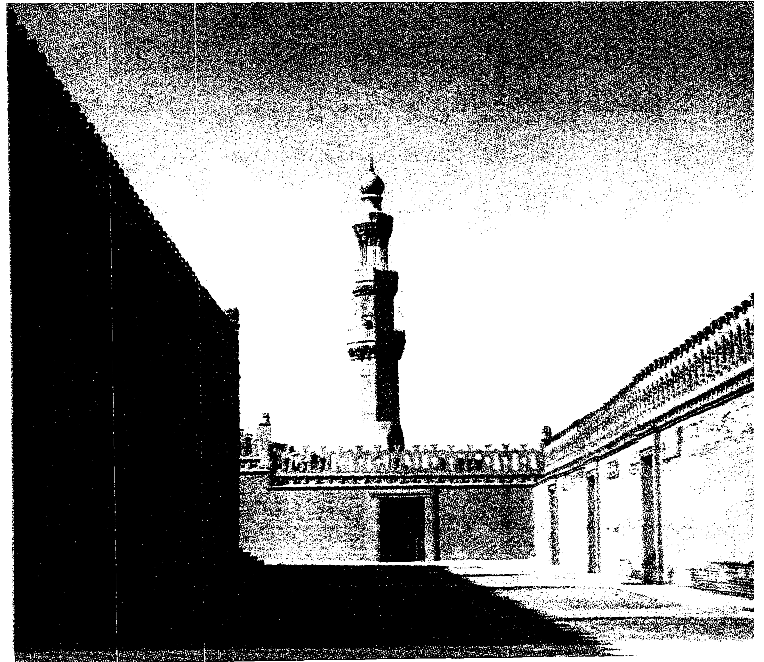
ولقد اهتم الفاطميون، بناة القاهرة، منذ أن استقر حكمهم لمصر بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلا عن الثقافة المذهبية، التى تتصل بدعوتهم الإسماعيلية كالفقه والتفسير، وكان لتشييدهم الجامع الأزهر، وإعدادهم له لكى يكون مركزًا للعلم والتعلم، إضافة لكونه مقرا لأداء الصلوات، أثر كبير فى النهوض بالحياة الثقافية فى مصر وعموم العالم الإسلامى وقد ظهرت فكرة التدريس والدراسة بهذا الجامع العريق فى أواخر عهد الخليفة المعز لدين الله، حين جلس أبو الحسن على ابن النعمان المغربى، قاضى قضاة مصر آنذاك، فى هذا المسجد، سنة ٣٦٥هـ، مستندا إلى أحد أعمدته، لشرح كتاب «الاختصار»، الذى كان من إنشاء أبيه، وكان يشتمل على مسائل فقهية استمدها من أئمة آل البيت. كذلك حين جلس أخوه عبد الله، فى شهر ربيع الأول من سنة ٣٨٥هـ، فى الجامع لقراءة علوم آل البيت.

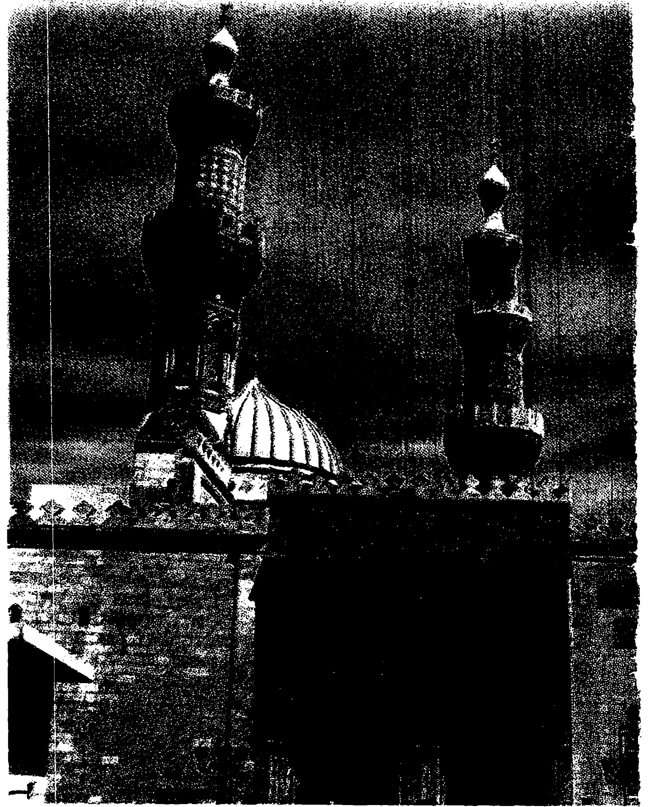
وفى أوائل عهد الخليفة الفاطمى الثانى على مصر، العزيز بالله، جلس وزيره يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر ليقرأ على الناس رسالة ألفها فى الفقه الشيعى على المذهب الإسماعيلى، تسمى «الرسالة الوزيرية»، تضمنت ما سمعه فى ذلك من المعز والعزيز، وكان يجلس لسماعه عدد من الفقهاء وكبار رجال الدولة.



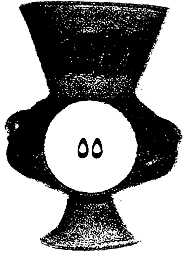
وقد ترددت مجالس ابن كلس ما بين داره والجامع الأزهر، وما لبث ابن كلس أن أشار على الخليفة العزيز سنة ٣٧٨هـ، بتطوير دور الأزهر، وشموله أن يكون معهدا للدراسة إلى جانب كونه مقصورا على إقامة الدعوة الفاطمية وعرضها على الناس، وتطلب ذلك من أن يأذن له الخليفة، لأداء ذلك، فى تعيين بعض الفقهاء للقراءة والدرس بالأزهر، وأن يقوم هؤلاء الفقهاء بعقد مجلس أسبوعى لهم في كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر، فرحب العزيز بذلك ورتب لهؤلاء الفقهاء راتبًا شهريًا ثابتًا، وأنشأ لهم مساكن يسكنونها بجوار الجامع حتى يكونوا قريبين منه. وظل الأزهر مركز الفقه الشيعى، إلى أن بنى الحاكم بأمر الله مسجده، فانتقل إليه الفقهاء لإلقاء دروسهم، ونافس جامع الحاكم الجامع الأزهر، بعد ذلك، فى نشر الثقافة والعلم.


مئذنتا جامع الشيخ المؤيد بينهما باب زويلة


مئذنة مدرسة الناصر
خلف مسجد بن طولون



واجهة جامع ومدرسة الغورى

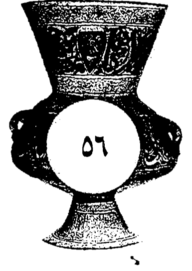


ولقد ازدهرت العملية التعليمية والتثقيفية بالقاهرة حين أنشأ الخليفة الحاكم بأمر الله دار العلم، أو دار الحكمة، على غرار دار الحكمة التى بناها المأمون فى بغداد، والتى أفتتحت رسميا يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ (أبريل ١٠٠٥م)، والتى قرر لها المدرسين والمعيدين، وألحق بها مكتبة كبيرة امتلأت بالكتب والمؤلفات النادرة فى سائر العلوم والفنون، حملها من خزانة كتب القصر وأباح الاطلاع عليها لمن يريد. فتردد الناس عليها، ونسخوا ما يريدون نسخه من كتبها. وعيَّن الحاكم لهذه الدار خُزانًا وخدمًا وفراشين، وأجرى الأرزاق لمن رسم لهم الجلوس فيها والخدمة بها من الفقهاء والعلماء وغيرهم، ووفر بها ما يحتاجه الدارسون بها من أحبار وأقلام ومحابر وأوراق، ولقد ظل خلفاء الفاطميين يزودون مكتبة دار الحكمة بالكتب، حتى قيل أنّ عدد هذه الكتب قد قارب المليون ونصف المليون كتاب.

ولقد أدت هذه الدار دوراً حضاريًا هاما، منذ نشأتها وحتى زوال أمرها عند وصول الأيوبيين إلى السلطة سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م)، كمكتبة عامة ومركز نشاط الدعوة الإسماعيلية الشيعية، ويؤكد دفن داعى الدعاة هبة الله الشيرازى بها عند وفاته سنة ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) مدى أهمية هذه الدار لتلك الدعوة.

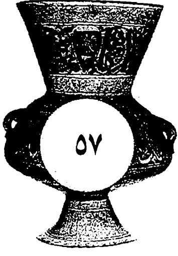


جامع قايتباى



ولقد تحدث المقريزى عن هذه الدار، وحدد مكانها الذى كانت عنده، وهو بجوار القصر الغربى من بحريه، وكان يُدخل إليها من باب التبَّانين، الذى صار يُعرف فى زمانه بقبو الخرنشف، كذلك حدد المكان الذى صارت إليه وهى الدار المعروفة أيامه بدار الخضيرى، الكائنة بدرب الخضيرى، المقابل للجامع الأقمر، وذكر المقريزى بأن الذى اتخذها هو الحاكم بأمر الله، وأنها استمرت إلى أن أبطلها الأفضل ابن أمير الجيوش. ونقل المقريزى عن المسبحى قوله: «بأنه فى يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ للهجرة ، فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء وحُملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شىء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قُوام وخدام وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها. وحمل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم يُر مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها؛ فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضا التى لم يُسمع بمثلها من إجراء الرزق السنى لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره. وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم، وجُعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر» وكان بين أساتذة دار الحكمة كثير من العلماء فى شتى التخصصات، من أمثال: ابن يونس المنجم، وأبو على الحسن بن الهيثم، والطبيب على بن رضوان.

هذا عن دار العلم، أما عن خزانة كتب القصر الفاطمى، التى كانت تزود دار العلم بالكتب وبما تحتاجه من سائر الأدوات، فإنها كانت من عجائب الدنيا، وأنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام مثلها، وأنها كانت تشتمل على ألف وستمائة ألف كتاب، وكانت عدة الخزائن التى فى هذه الخزانة برسم الكتب فى سائر العلوم أربعون خزانة، بخزانة من جملتها ١٨ ألف كتاب فى العلوم القديمة، وأن الموجود فيها عدا الكتب التى أخرجت منها فى الشدة المستنصرية ٢٤٠٠ ختمة قرآن فى ربعات بخطوط زائدة الحسن، مُحلاة بذهب وفضة وغيرهما، كذلك وُجدت بها صناديق مملوءة أقلاما مبرية، ولقد ذكر المقريزى، نقلا عن ابن الطوير، بأن هذه الخزانة كانت تحتوى على عدة رفوف مقطعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات، وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد عن المائتى ألف كتاب من المجلدات، فمنها الفقه على سائر المذاهب، والنحو، واللغة، وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء. وقال



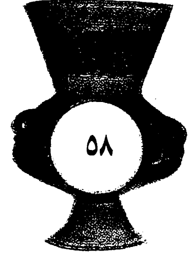
ابن أبى طئ بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين على القصر ومن جملة ما باعوه خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدنيا، ويقال أنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التى كانت بالقاهرة فى القصر، ومن عجائبها أنه كان فيها ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبرى إلى غير ذلك، ويقال أنها كانت تشتمل على مليون و ٦٠٠ ألف كتاب، وأنه كان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. ومما يؤيد ذلك أن القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على، لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة حمل فيها من كتب القصر مائة ألف كتاب مجلد.

أما عن المدارس، فقد نشأت المدارس وأقيمت فى القاهرة الفاطمية فى العقود الأولى للقرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)، فقد قام الوزير رضوان بن ولخشى، ببناء أول مدرسة فى الإسكندرية لتدريس المذهب المالكى فى سنة ٥٣٢هـ (١١٣٨م)، وقد عُرفت هذه المدرسة باسم المدرسة الحافظية، والمدرسة العوفية(١٣٠)، كما أنشأ العادل بن السلار مدرسة ثانية فى الإسكندرية لتدريس المذهب الشافعى سنة ٥٤٦هـ (١١٥٠م)، ولم تتوسع مدارس القاهرة وتزداد إلا بعد تولى صلاح الدين الحكم فى مصر.

وكان لتشجيع الفاطميين للعلماء والكتاب أثره فى اشتهار طائفة منهم فى القاهرة، فاشتُهر من العلماء: الحسن بن الهيثم، عالم الطبيعيات والرياضيات، وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضة والطبيعة والفلسفة، وقد ظل يقوم بالتأليف فى تلك العلوم حتى وفاته بالقاهرة سنة ٤٣٠هـ (١٠٣٨م).

كذلك اشتُهر فى القاهرة الطبيب الفيلسوف المصرى، ابن محافظة الجيزة، أبو الحسن على ابن رضوان، رئيس أطباء البلاط الفاطمى، وصاحب الإنتاج الوافر من كتب الطب والفلسفة والمنطق، وقد تُوفى سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) فى خلافة المستنصر بالله الفاطمى.

ومن أشهر المؤرخين الذين ظهروا فى العصر الفاطمى: أبو الحسن على الشابشتى، المتوفى سنة ٣٨٨هـ (٩٩٧م)، الذى كان متوليًا لخزانة الكتب فى القصر الخلافى فى عهد العزيز بالله، وصاحب كتاب الديارات، والمؤرخ الأمير المختار عز الملك، الشهير باسم المسِّبحى، الذى ولد وعاش وتوفى بالقاهرة سنة ٤٢٠هـ (١٠٢٩م) صاحب كتاب تاريخ مصر ومن أعلام المؤرخين: أبو عبد الله القضاعى، الذى ولد وتوفى بالقاهرة سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م)، وقد كان من أقطاب علماء الحديث والفقه، وصاحب كتاب «المختار فى ذكر الخطط والآثار». والمؤرخ على بن منجب الصيرفى، المتوفى والمدفون بالقاهرة سنة ٥٤٢هـ (١١٤٧م)، وصاحب كتابى: قانون ديوان الرسائل، والإشارة إلى من نال الوزارة.



ب- الدور الثقافى للقاهرة فى العصر الأيوبى :

أخذ صلاح الدين يوسف بن أيوب، أول سلاطين الدولة الأيوبية، على عاتقه القضاء على الخلافة الفاطمية وعلى مذهبها الشيعى من مصر، وإعادة مصر إلى حظيرة المذهب السنى وقد نجح صلاح الدين فى إزاحة المذهب الشيعى وإحلال المذهب السنى مكانه، وأنشأ لذلك مدارس يدرس فيها الدين على المذاهب السنية الأربعة، ولم يجد صلاح الدين صعوبة فى ذلك؛ ذلك لأن المذهب الشيعى، وإن كان مذهب الدولة الفاطمية، إلا أن جذوره لم تكن قد تأصلت فى نفوس المصريين، ولم يكن الفاطميون قد فرضوا مذهبهم بالقوة على المصريين، ولذلك حين دالت دولتهم، سرعان ما عاد المصريون إلى المذهب السنى الذى عهدوه منذ الفتح العربى لمصر سنة ٢٠ هـ (٦٤١م).

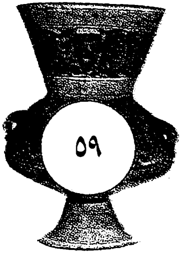
وأول المدارس التى أنشأها صلاح الدين فى مصر، هى «المدرسة الناصرية» سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م)، بجوار جامع عمرو بن العاص، لتعليم الدين وفق المذهب الشافعى السنى، وكان حينئذ وزيراً للخليفة العاضد الفاطمى.

وأنشأ صلاح الدين إلى جوار الجامع، فى نفس العام، مدرسة أخرى لتدريس الفقه المالكى، عرفت باسم «المدرسة القمحية»، ووقف عليها قيسارية الوراقين بالفسطاط وضيعة بالفيوم، تُدعى الخبوشنية. ورتب فيها أربعة من المدرسين عند كل مدرس عدة من الطلبة. وهذه المدرسة أجلُّ مدرسة للفقهاء المالكية، ويتحصل لهؤلاء الفقهاء، من ضيعتهم التى بالفيوم، قمح يُصرف فيهم فلذلك صارت تعرف بالمدرسة القمحية.

وفى سنة ٥٧١هـ (١١٧٦م) أنشأ صلاح الدين «المدرسة الصلاحية»، بجوار ضريح الإمام الشافعى، لتدريس الفقه الشافعى، وفى العام التالى أنشأ مدرسة لتدريس الفقه الحنفى، عُرفت باسم «المدرسة السيوفية»، من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها. وبإنشاء هذه المدارس الأربع يكون صلاح الدين قد شمل بإنشائها المذاهب السنية الأربعة، إضافة إلى مدرسة أخرى أنشأها سنة ٥٧٧هـ (١١٨١م) فى مدينة الإسكندرية لتدريس المذهب المالكى.



كتاب البيطرة - متحف الفن الإسلامى



وحتى يضمن صلاح الدين استمرار تلك المدارس فى أداء رسالتها واستمرار إقبال الطلاب على الدرس فيها، أوقف عليها الأوقاف الكبيرة للصرف عليها.

ولقد تبارى خلفاء صلاح الدين من بعده، فى إنشاء المدارس، وتبعهم فى ذلك بعض رجالهم.

ومن المدارس التى بنيت، بعد صلاح الدين بالقاهرة، مدارس عدة منها:

* مدرسة ابن الأرسوفى، التاجر العسقلانى، وكانت بمنطقة البزازين، مجاورة لخط النخالين بالقاهرة.

* مدرسة منازل العز، بجزيرة الروضة، أنشأها الملك المظفر تقى الدين عمر، ابن أخى صلاح الدين، سنة ٥٦٦هـ (١١٧٠م)، وأوقفها على فقهاء الشافعية.

* المدرسة القطبية، أنشأها الأمير قطب الدين خسرو، أحد أمراء صلاح الدين، سنة ٥٧٠هـ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية.

* المدرسة الفاضلية، بدرب ملوخيا من القاهرة، بناها القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى سنة ٥٨٠هـ، ووقفها على طائفتى الفقهاء الشافعية والمالكية، ووقف لهذه المدرسة مكتبة كبيرة كان بها مائة ألف مجلد من سائر العلوم، وجعل فيها قاعة للإقراء.

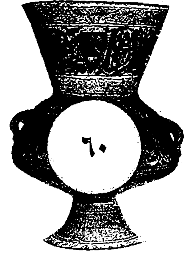
* المدرسة الأذكشية، عند سويقة أمير الجيوش، بناها الأمير سيف الدين أياركوج الأسدى (ت ٥٩٩هـ) أحد أمراء صلاح الدين، وجعلها على الفقهاء الحنفية فقط سنة ٥٩٢هـ.

* المدرسة الفخرية: وكانت بالقاهرة، فيما بين سويقة الصاحب ودرب العدَّاس، عمَّرها فخر الدين أبو الفتح عثمان، استادار الملك الكامل محمد بن العادل، وكان الفراغ منها سنة ٦٢٢ هـ.

* المدرسة السيفية، فيما بين خط البندقانيين وخط الملحيين بمدينة القاهرة، بناها الأمير الأيوبى سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، المتوفى سنة ٥٩٣هـ.

* المدرسة القطبية، أول حارة زويلة، بنتها عصمة الدين مؤنسة خاتون، ابنة الملك العادل أبو بكر بن أيوب، بُنيت هذه المدرسة بناء على وصيتها بعد وفاتها سنة ٦٩٣هـ، وجُعل فيها درس للشافعية وللحنفية.

* المدرسة الشريفية، على رأس حارة الجودرية بالقاهرة، بناها الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل الجعفرى، أحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية، سنة ٦١٢ هـ، وهى من مدارس الفقهاء الشافعية.



* المدرسة الصالحية، بخط بين القصرين من القاهرة، وكان موضعها من جملة القصر الشرقى الكبير، بنى المدرسة الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل، سنة ٦٣٩هـ، ورتب فيها دروسا للمذاهب الفقهية السنية الأربعة سنة ٦٤١هـ، ولم يبق من مبانى هذه المدرسة سوى واجهتها التى بها الباب العمومى، المشرف على شارع ما بين القصرين وتعلوه مئذنتها، وقد نقل الباب الخشبى لهذه المدرسة إلى المتحف الإسلامى، والملك الصالح هو أول من عمل بمصر دروسا أربعة فى مكان واحد.

* المدرسة الكاملية، وهى بخط بين القصرين من القاهرة، وتُعرف بدار الحديث الكاملية، أنشأها السلطان الملك الكامل محمد بن الملك العادل سنة ٦٢٢هـ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى، ثم بعدهم على الفقهاء الشافعية، ووقف عليها الربع الذى بجوارها على باب الخرنشف إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر.

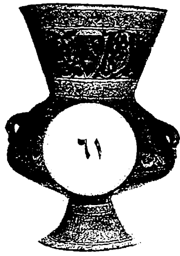
ولم يبق من مدارس خلفاء صلاح الدين سوى الإيوان الشمالى الغربى من هذه المدرسة، الموجودة على الجانب الغربى من سوق النحاسين اليوم بجوار جامع السلطان برقوق من الناحية البحرية، وتُعرف اليوم بجامع الكامل.

* المدرسة الصيرمية، بالقرب من رأس سويقة أمير الجيوش، بناها الأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحد أمراء الملك الكامل محمد بن أيوب، وقد توفى الأمير ابن صيرم سنة ٦٣٦هـ.

* المدرسة المسرورية، داخل درب شمس الدولة، بالقاهرة، وكانت دارًا لشمس الخواص مسرور، أحد خدم صلاح الدين، الذى كان مقدمًا إلى أيام السلطان الملك الكامل، ولقد جُعلت هذه الدار مدرسة، بعد موته، بناء على وصية منه، وقد أوقف على هذه المدرسة فندق له بالخان الذى عُرف باسمه وهو خان مسرور.

* المدرسة القوصية، من درب سيف الدولة بالقرب من درب ملوخيا، أنشأها الأمير الكردى، والى قوص فى زمن الأيوبيين.

ولقد ازدهر الأدب والثقافة بالقاهرة فى دولة الأيوبيين، وكان صلاح الدين، مؤسس هذه الدولة، محبًا للأدب والعلوم الدينية، وكان لا يجالس سوى الأدباء والفقهاء والعلماء، وكان يجزل لهم العطاء ويصلهم بالمكافآت والهبات، ولقد اتخذ صلاح الدين اثنين من وزرائه من كبار



الأدبــاء، وهما القاضــى الفــاضــل عبد الرحيم بن على البيســانى، وعماد الدين الكاتب الأصفهانى، كــذلك اتخذ كاتبا أديبًا ملازمًـا له، فى أواخر حياته، وهو بهــاء الدين بن شداد، الذى كــتب سيــرة لحــياة صــلاح الدين بعنوان: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية».

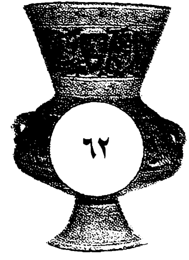
ولقد كان العماد الأصفهانى كاتبًا مـجيدًا وشاعرًا بليغًا ومؤرخًا عالمًا، بزغ نجمه فــى عهد صلاح الدين، وله من المؤلفــات الكثير، منها: كــتاب: «خريدة القصــر وجريدة أهل العصر»، وقد جــمع فيه تراجم شعراء الشام ومصر والعــراق والجزيرة وفارس والمغرب، وهو يقع فى عشر مجلدات، وله أيضا كتاب «البرق الشامى»، وكتاب: «الفتح القسى فى الفتح القدسى»، وكتاب «السيل على الذيل»، وكتاب «أخبار الدولة السلجوقية».

أما القاضى الفــاضل، فقد كان شاعــرًا كاتبًا، صاحب أسلوب خــاص فى صناعة الإنشاء، وصــاحب قلم رفيع فى الــنظم والمكاتبة، قــال عنه ابن خلكان أنه «تمــكن من صلاح الدين غــاية التمكن وبرز فى صناعة الإنشاء وفاق المتقدمين وله فيــه الغرائب مع الإكثار، أخبرنى أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حــقيقة أمره: أن رسائله فى المجلدات والتعليقــات فى الأوراق إذا جُمعت ما تقصر عن مائة مــجلد، وهو مجيد فى أكثرها». وكان السلطان صلاح الدين يقــول مادحًا القاضى الفــاضل وذاكرًا لفـضله: «لا تظنوا أنى ملكت البــلاد بسيــوفكم، بل بقلم الفاضل». وقــد توفى القاضى الفاضل سنة ٥٩٦هـ.

ومن المؤرخــين العلماء الذين عــاشوا فى مــصر فى العــصر الأيوبى، العــالم الرحالة عــبد اللطيف البــغدادى، الذى وفــد إلى مصــر زمن صلاح الدين واســتقــر بها بعــد وفاته، واشتــغل بالتدريس فى الأزهر، وهو صاحب كتاب «الإفادة والاعــتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر»، ويعرف بكتاب رحلة عبد اللطيف البغدادى.

ومن كبار الأطباء الذين عاشوا بمصر زمن صلاح الدين، الطبيب اليهودى الفيلسوف موسى ابن ميــمون، المتــوفى سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م)، وكان رئيسًــا للطائفة اليــهودية بمصــر، وصاحب الترجمــة العربية للتوراة العبرية والمهــذب لها، وقد لقى ابن ميمــون رعاية من صلاح الدين وذلك دليل على ما كان يتميز به هذا الحاكم المسلم العظيم بالتسامح وعدم التعصب.

وقد ظهر فى العصر الأيوبى ونبغ عدد من الشــعراء المبرزين، منهم: الشيخ شرف الدين أبو حفص، وأبو القاسم بن أبى الحسن، المعروف بابن الفارض الحموى، المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥) والمدفون بسفح جبل المقطم بمسجده المعروف بمسجد عمر بن الفارض.



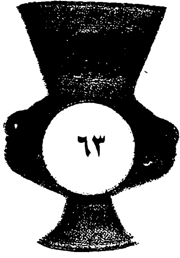
جـ- الدور الثقافى للقاهرة فى العصر المملوكى :

واصل سلاطين المماليك، الذين حكموا مصر، سياسة الأيوبيين من قبلهم، فى النهوض بالدور التثقيفى للقاهرة خلال أيام حكمهم، فأسسوا المدارس من أجل



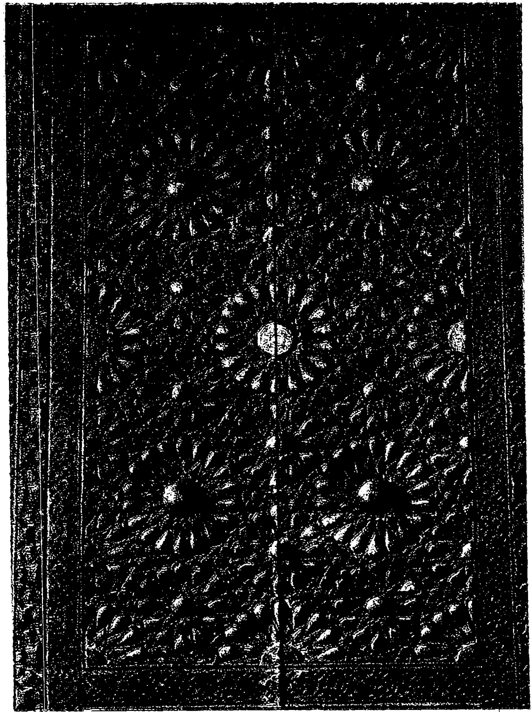
سوق العطارين

سوق القماش فى القرن ١٨

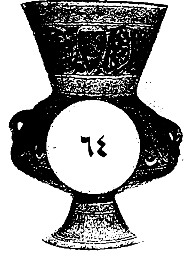


نشر العلم والثقافة وقربوا إليهم العلماء والفقهاء، فتخرج فى عهدهم عدد هائل من كبار العلماء والفقهاء والمؤرخين، كان لهم التلاميذ والطلاب من سائر الأنحاء، كما كانت لهم المؤلفات الكثيرة الخالدة كل فى تخصصه والتى تُعتبر اليوم هى المصادر الأولى للمعرفة والنتاج العظيم للحضارة الإسلامية.

ولقد كانت بداية ذلك الاهتمام والرعاية الثقافية فى العصر المملوكى قد جاءت مع بداية حكامهم الظاهر بيبرس البندقدارى، الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام. ومنشآت الظاهر بيبرس الثقافية تفوق الحصر منها: مدرسته، التى أنشأها سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م) بجوار تربة سيده الصالح نجم الدين أيوب، بشارع بين القصرين، والتى نُسبت إلى اسمه وعُرفت «بالمدرسة الظاهرية» وكانت هذه المدرسة بالقاهرة من جملة خط بين القصرين، كان موضعها من القصر الكبير يعرف بقاعة الخيم، وقد ابتدئ بعمارتها فى ثانى ربيع الآخر سنة ٦٦٠هـ، وفرغ منها فى سنة ٦٦٢هـ. واجتمع أهل العلم بها وحضر القراء وجلس أهل الدروس كل طائفة منها فى إيوان، وتناظروا فى علومهم. وجعل بالمدرسة خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم. وبنى بيبرس بجانبها مكتبًا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى، وأجرى لهم الجرايات والكسوة، وأوقف عليها ربع السلطان، خارج باب زويلة، فيما بين باب زويلة وباب الفرج، فيما يعرف اليوم بخط تحت الرَبع. وهذه المدرسة من أجل مدارس القاهرة.


باب مدرسة السلطان حسن - المكفت بالفضة

ومن المدارس التى أنشئت فى عصر دولة المماليك البحرية مدرسة السلطان قلاوون، المعروفة «بالمدرسة المنصورية» بخط بين القصرين بالقاهرة، أنشأها هى والقبة التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى، ورتب بها دروسًا أربعة لطوائف الفقهاء الأربعة السنيين، ودرسا للطب، ورتب بالقبة درسًا للحديث النبوى ودرسًا لتفسير القرآن الكريم، وكان يلى هذه التداريس الفقهاء المعتبرين. ويوجد بقسم من واجهة المدرسة سبيل صغير، أنشأه الناصر محمد بن قلاوون على غِرار والده، يرجع تاريخ إنشائه إلى سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م).

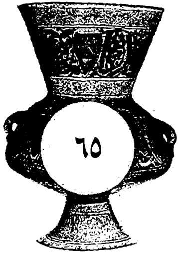


ومن مدارس عصر دولة المماليك البحرية «مدرسة الناصر محمد بن قلاوون»، بشارع بين القصرين، وهى ملاصقة لقبة السلطان قلاوون بشارع المعز لدين الله، وتعرف بالمدرسة الناصرية، وكان موضعها حماما فأمر السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى بإنشاء مدرسة موضعه ووضع أساسها وارتفع ببنائها سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) لكنه خلع من السلطنة قبل إتمامها فلما عاد السلطان الملك الناصر محمد إلى السلطنة للمرة الثانية اشترى هذه المدرسة وأمر بإتمام بنائها، فتم البناء سنة ٧٠٣هـ (١٣٠٣م)، وعيَّن بها المدرسين للمذاهب الأربعة السنية، وألحق بها مكتبة كبيرة، وقد جُعلت لهذه المدرسة واجهة جميلة مليئة بالكتابات والزخارف، وتوجد للمدرسة منارة فوق الباب. ولم يبق من إيوانات هذه المدرسة الآن سوى الإيوان الشرقى المحتوى على المحراب والإيوان الغربى المحتوى على شباك من الجص.

ومن أشهر مدارس عصر دولة المماليك البحرية مدرسة السلطان الملك الناصر حسن بن قلاوون، والتى يطلق عليها أيضا اسم جامع السلطان حسن، وهى مؤسسة دينية أسسها الملك الناصر لأداء الصلاة وللتدريس، جريا على عادة كل المساجد التى أنشئت فى العصر المملوكى. ويحدد المقريزى موقع هذه المدرسة بأنه تجاه قلعة الجبل، فيما بين القلعة وبركة الفيل، وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى.

ابتدأ السلطان الملك الناصر عمارتها سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٥م)، واستغرق بناؤها ثلاث سنوات متواصلة، وقد أرصد للصرف عليها فى كل يوم عشرون ألف درهم. وتتكون هذه المدرسة من أربع مدارس تدرس فيها المذاهب الفقهية الأربعة. وأوقف الملك الناصر عليها أوقافا كثيرة، وقد صار هذا الجامع حصنًا لقلعة الجبل، فعندما تحدث فتنة بين أهل الدولة يصعد عدة من الأمراء وغيرهم أعلاه ويصير الرمى منه على القلعة فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر فهدمت الدرج التى كان يصعد منها إلى المنارتين والبيوت التى كان يسكنها الفقهاء ويتوصل من هذه الدرج إلى السطح الذى كان يُرمى منه على القلعة، وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقى الأذان على باب الجامع المصنوع من النحاس. وتبلغ مساحة هذه المدرسة المسجد حاليا ٧٩٠٦ مترًا مربعًا، وتطل واجهته الأصلية (البحرية) على شارع القلعة (محمد على سابقا) وتطل واجهتاه الجنوبية والشرقية على ميدان صلاح الدين .

المدرسة الحجازية: من المدارس التى أنشئت فى عهد دولة المماليك البحرية برحبة باب العيد من القاهرة، بجوار قصر الحجازية، وكان موضعها باب من أبواب القصر الشرقى الكبير يعرف بباب الزمرد. وأنشأت هذه المدرسة السيدة الجليلة «خوندتتر» الحجازية، ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، زوجة الأمير بكتمر الحجازى. وجعلت بهذه المدرسة درسًا للفقهاء الشافعية قررت فيه شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى، ودرسًا للفقهاء المالكية، وجعلت بها



منبرا يـخطب عليه يوم الجـمعة ورتبت لـها إمامًـا راتبًا يقـيم بالناس الصلوات الخمس، وجعلـت بها خزانة كتب، وجعلت بـجوار المدرسة كُتّابًا لتـعليم أيتام المسلمين القرآن الكـريم. وقد خصصت للصرف على هذه المدرسـة عدة أوقاف جليلة. وكان إنشاء هذه المدرسة سنة ٧٦١هـ (١٣٥٩م).

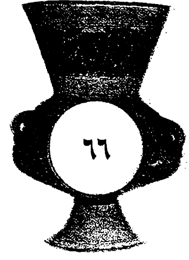
المدرسة الطيبرسية: بجوار الجامع الأزهر، غربيه مما يلى الجهة البحرية، أنشأها الأمير عـلاء الدين طيبرس الخازندارى، نقيب الجيوش للسلطان المنصـور لاجين، وقرر بها درسا للفقهـاء الشافعية، وأنشأ بجـوارها ميضأة وحوض ماء سبـيل لشرب الدواب، وقد تأنق فى رخامها وتذهيب سقوفها حتى جاءت فى أبدع قالب، وانتهت عمارتها سنة ٧٠٩هـ (١٣٠٩م).

المدرسة الأقبغاوية: بجوار الجامع الأزهر، تجاه المدرسة الطيبرسية، أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد، استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون، قرر فيها درسا للشافعية وللحنفية.

المدرسة المنكوتمرية: بحارة بهـاء الدين، بناها الأمير سيف الدين منكوتمر الحـسامى نائب السلطنة بديار مـصر أيام حكم السلطان حـسام الدين لاجين، اكـتمل بناؤها فى شـهر صـفر سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٨م)، وعمل بها درسًا للمالكية، ودرسا للحنفـية و«المدرسة القراسنقرية»، بين رحبة باب العيـد وباب النصر، أنشـأها الأمـير قراسنقـر المنصورى نائب السلطنة أيام السلطـان المنصور قلاوون سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م)، وبنى بجوار بابهـا مسجداً معلقًـا ومكتَّبا لتحفـيظ أيتام المسلمين القرآن.

وإضافـة للمدارس: المدرسة الغزنويـة، والمدرسة البوبكرية، والمدرسة البـقرية، والمدرسة القطبية، ومدرسـة ابن المغربى، والمدرسة البيدرية، والمدرسة الملكية، والمدرسة الجـمالية، والمدرسة الفارسية، والمدرسة السابقية، والمدرسة القيسرانية، والمدرسة الزمامية، والمدرسة الصغيرة، ومدرسة قربة أم الصالح، ومدرسـة ابن عرَّام، والمدرسة المحمودية، والمدرسة المهذبيـة، والمدرسة السعدية، والمدرسة الطغجـية، والمدرسة الجاولية، والمدرسة الـبشيرية، والمدرسة المهندارية، ومـدرسة الجاى اليـوسفى، ومـدرسة أم السلطان، والمدرسـة الأيتمـشيـة، والمدرسة المجـدية الخليلية، والمـدرسة الناصـرية، والمدرسة المسلـميـة، ومدرسـة إينال، ومدرسـة جـمال الدين الأسـتادار، والمدرسـة الصرغتمشية، والمدرسة الفارقانية.

وفى عهد دولة المماليك البرجية، ازدهرت القاهرة حـضاريًا واتسعت عمرانيًا، ويشهد على ذلك ما شهـدته المدينة من منشآت ومعـمار لا زالت آثارها باقية حـتى اليوم، وما عاشتـه القاهرة وعاشه شعبها من حياة رغد ورخاء ورفاهية.



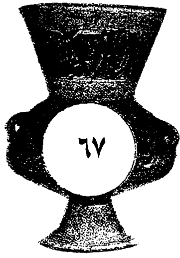
وتنقسم منشآت ذلك العصر إلى ثلاثة أنواع، وهى: المنشآت الخاصة مثل القصور ولواحقها، والمنشآت الخيرية والدينية، مثل المساجد والأربطة والزوايا والأسبلة ونحوها، ثم المنشآت العامة مثل القلاع والأسوار والقناطر والجسور ودور الصناعة المختلفة.

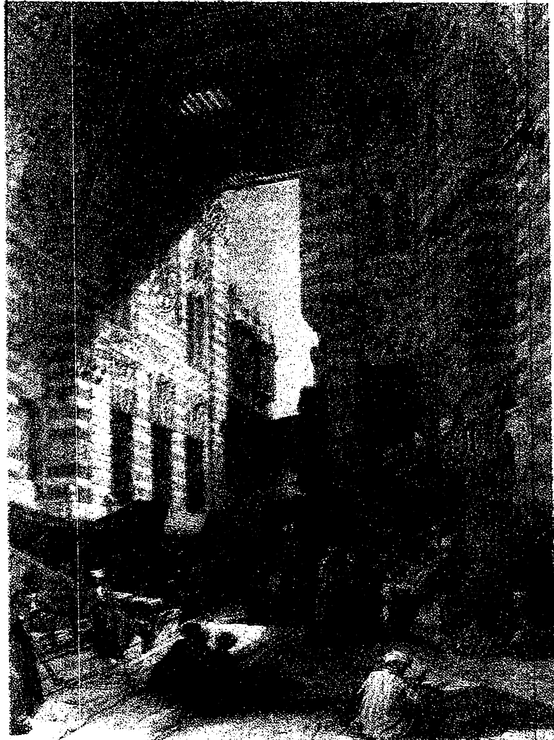
وأول ما يعنينا من المنشآت الخاصة القصور السلطانية بالقلعة، وتُعرف باسم «الآدر الشريفة»، وتزخر المصادر بأوصاف هذه القصور التى بناها أولئك السلاطين وبزخرفتها وتأثيثها، غير أن القليل من هذه القصور وزخرفتها وأثاثها هو الذى بقى، وتشتمل ملحقات الآدر الشريفة على المطبخ السلطانى والبيوتات، وهى عبارة عن مخازن وحظائر عرفت بما تؤديه من دور مثل: الشرابخاناه، والطشت خاناه، والفراش خاناه، والطبلخاناه، ويُلقب كل مشرف على واحدة منها بالمهتار.

ومن أمثلة القصور السلطانية وقصور الأمراء: دار بهادر بخط الباطنية قرب الأزهر، وأنشأها الأمير سيف الدين بهادر، مقدم المماليك السلطانية زمن السلطان برقوق، كذلك دار الأمير يشبك الدوادار، صاحب القبة المعروفة اليوم بالقبة الفداوية. وقصر الأمير أزبك، الذى أنشأه فى منطقة الأزبكية، التى عرفت باسمه. وقد احتوت هذه الدور والقصور على الأثاث والفرش الفاخر والتحف والمشكاوات الفخمة. ومن المنشآت الخاصة التى تجلت فيها الروعة الفنية فى ذلك العصر المدافن، ويشهد على ذلك ما هو باق من آثار فنية فى مدافن برقوق وبرسباى وقايتباى.

أما المنشآت الدينية والخيرية، فقد تجلت فى المساجد الفخمة، التى بناها سلاطين المماليك الجراكسة، الباقية تتحدى الزمن حتى اليوم، والتى أنفقوا فى بنائها الأموال الطائلة وزودوها بكل ما تحتاجه ووقفوا من أجل الصرف عليها الأوقاف الزائدة. ومن مساجدهم: مسجد الحوش، الذى أقامه فرج بن برقوق داخل القلعة سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م، ومسجد الفخرى، قرب بين السورين، والذى بناه فخر الدين عبد الغنى سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م، وهو أحد أمراء المماليك الجراكسة، وكان يجمع بين المسجد والمدرسة وكان يُدرس فيه على المذاهب الثلاثة: الشافعى والحنفى والمالكى.

أمّا جامع المؤيد، القابع بجوار باب زويلة، والذى بناه السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م)، فهو يعتبر من أجمل مساجد المماليك الجراكسة، وقد ضم هذا المسجد خزانة كتب شاملة لمختلف العلوم الدينية، وقد أوقف السلطان المؤيد على هذا المسجد عدة مواضع بمصر والشام. وقد جُعل هذا المسجد معهداً لتدريس فقه المذاهب الأربعة، ودرَّس فيه الإمام ابن حجر العسقلانى الفقه الشافعى، ودرَّس فيه الإمام بدر الدين العينى الحديث، ومنارتا هذا الجامع قائمتان




سوق الغورية - القرن ١٨

على بـدنتى باب زويـلة. ومن المسـاجـد الأخـرى مسجد القاضى زين الدين عبد الباسط، ناظر الجيوش فى عـهـد السلطان المؤيد شـيخ، بنـاه عـام ٨٢٢هـ (١٤١٩م)، ومـسـجـد القـاضى أمـين الدين ٨٣٢هـ (١٢٤١م)، ومسجد الغمرى ٨٤٣هـ (١٤٤٠م).

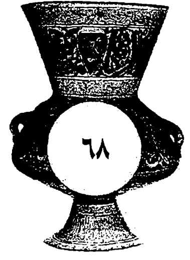
أما السلطان الأشرف قايتباى، فقد بنى مساجد كثيرة، منهـا مسجد بالصحراء وآخر بجزيـرة الروضة، ومسـجد بقلعـة الكبش، ومـسـجـد بباب الخـرق (الخلق)، ومـسـجـد بالعبـاسية، كـذلك قام بتجديـد قبة مسـجد الإمام الشافعى.

أمـا السلطان قـانصوه الغـورى فـبنى مسجده فى القاهرة عند الشرابشيين، ومسجد خلف ميدان القلعة، كما أنه بنى مئذنة الأزهر ذات الرأسين.

وتعتبر المدارس عند المماليك الجراكسة منشآت خيرية، عامة النفع، وقد غلبت نظرة المماليك إلى التعليم أنه عمل خيرى يتناغم مع العـمل الدينى؛ لذا كانت المدارس عندهم، مثلما كانت عند البحرية، أماكن للدراسة وللعبادة معًا.

ومن أشهر المدارس فى دولة الجـراكسة مدرسة السلطان برقوق، التى أنشـأها ببين القصرين لتدريس الفـقه الحنفى سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م)، وهى أولى المنشآت المـعمارية فى دولة الجراكـسة، كذلك بنى السلطان فرج بن برقوق مدرسـة تجاه باب زويلة ومن المدارس الكبيرة التى تم بناؤها فى ذلك العـصر المدرسـة الجمـالية، أو المدرسـة المحمـودية، التى تم بناؤها سنة ٨١١هـ (١٤٠٨م)، كذلك المدرسة الأشرفـية، التى بناها الأشرف برسباى سنة ٨٢٩هـ (١٤٢٥م). ومدرسـة قجماس الإسحاقى بشارع الدرب الأحمر سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣م)، ومدرسة الغورى التى بناها سنة ٩٠٦هـ (١٥٠١م)، بشارع الغورية بالقاهرة.

ومن أعلام الفكر الذين عـاشوا فى القاهرة فى العصـر المملوكى طائفة عظيمة فى مـختلف التخصصات من العلوم والفنون، منهم:



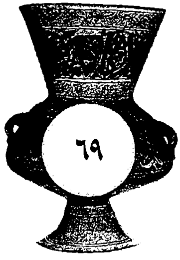
من العلماء الفقهاء الذين تولوا أمر القضاء بمصر: القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، أيام سلطنة المعز أيبك (ت ٥٦٥هـ)، وولى الوزارة للظاهر بيبرس والحسبة والتدريس على المذهب الشافعى، وخلفه ابنه صدر الدين عمر فى وظائفه وطريقته. والقاضى وجيه الدين عبد الوهاب بن الحسين البهنسى (ت ٥٨٥هـ)، وولى القضاء بمصر القاضى محمد بن إبراهيم بن جماعة فى رمضان سنة ٦٩٠هـ، فأقام به حتى وفاته سنة ٦٩٥هـ. وولى بعده الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، أيام السلطان لاجين، وكان من أكبر علماء مصر، وكان له القضاء والإفتاء وإمامة الجامع الأزهر حتى وفاته فى شهر صفر سنة ٧٠٢هـ. وكان من كبار العلماء والفقهاء فى العصر المملوكى الشيخ صدر الدين محمد بن إبراهيم المناوى، وقد تولى القضاء أكثر من مرة، كان آخرها سنة ٨٠١هـ. وتولى القضاء جلال الدين البلقينى حتى سنة ٨٢١هـ (ت ٨٢٤هـ). وكان من كبار العلماء والفقهاء فى العصر المملوكى الثانى الشيخ ابن حجر العسقلانى، الذى ولى القضاء حتى سنة ٨٥٢هـ حين عزل نفسه. والشيخ كمال الدين عمر بن العديم (ت ٨١٩هـ)، والشيخ بدر الدين العينى، والقاضى المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون حتى وفاته.

ومن الأطباء الذين برزوا فى القاهرة فى العصر المملوكى: الطبيب أبو الحسن على بن النفيسى، المتوفى سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م)، والذى ينسب إليه كشف نبض الدورة الدموية، قبل أن يكتشفها العالم البرتغالى سرفيتوس بثلاثة قرون. وكان النفيسى عميداً لمستشفى قلاوون، وهو صاحب كتاب «شرح القانون لابن سينا».

كذلك كان الطبيب أبو بكر بن المنذر البيطار، المتوفى سنة ٧٤١هـ (١٣٤٠م)، وكان مشرفاً على إسطبلات الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو صاحب كتاب «كامل الصناعتين». والطبيب البيطرى عبد المؤمن الدمياطى، المتوفى سنة ٧٠٦هـ (١٣٠٦م)، صاحب كتاب «فضل الخيل». وقد كان الدمياطى مشرفًا على إسطبلات الملك الناصر أيضًا، وكان يحاضر فى مدرسة قلاوون «المنصورية».

واشتهر فى ذلك العصر ظهور كتاب موسوعيين، كتبوا موسوعات اشتملت على آداب وعلوم كثيرة، منهم: الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، المعروف بالنويرى، والمتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م)، صاحب موسوعة «نهاية الأرب فى فنون الأدب»، الذى ألفه فى ثلاثين مجلداً زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون.

والأديب الكاتب الكبير ابن فضل الله العمرى، المتوفى سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م)، صاحب كتاب «مسالك الإبصار فى ممالك الأمصار»، ويقع فى أكثر من عشرين جزءا، والأديب الكاتب



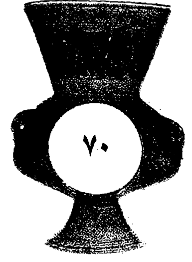
الموسـوعى الكبيـر أبو العـباس القلقـشندى، المتـوفى سنة ٨٢١هـ (١٤١٨م)، صاحب موسوعة: «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا»، فى أربعة عشر جزءا.

كذلك نشطت كـتابة التاريخ فى الـعصر المملوكى، وازدهر ذلك العـصر بظهور مؤرخين محققين تُعتبر مؤلفاتهم مصادر أصلية فى دراسة هذه الحقبة من تاريخ مـصـر، ويأتى فى مـقـدمـة هؤلاء المـؤرخـين: النويرى، والعـمـرى، والقلقشندى، ويأتى من بعدهم أشهر مـؤرخى مصر: تقى الدين أحمد بن على بن عبد القادر، المعروف بتقى الدين المقريزى، المولود فى القاهرة سنة ٧٦٦هـ (١٣٦٤م)، والمتوفى بها سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م). وهو صاحب التـاريخ الكامل لمدينة القاهرة منذ نشأتها فى عـهد المعز لدين الله الفاطمى حتى أيامه سنة (٨٤٣هـ) فى كتـابه «المواعظ والاعتبار بخطط القاهرة والآثار»، والمعـروف بكتاب الخطط، وخطط القـاهرة إضافـة إلى كتـابه الذى أرخ فيـه لسلاطين الأيوبيـين والمماليك بداية بعـهد صلاح الدين الأيوبى، والمعروف باسم «السلوك لمعـرفة دول الملوك». كذلك للمقريزى كـتاب «المقفى الكبير»، وهو سـير الكبراء والأمراء الذين عاشوا فى مـصر، وهو مؤلف ضخم، وكـتاب «درر العقـود الفريدة فى تراجم الأعيـان المفيدة»، وهى تراجم مـشاهير عـصره، وكتـاب «اتعاظ الحنفـا بأخبـار الأئمة الفـاطميين الخلـفاء»، وهو تاريخ للدولة الفـاطميـة وخلفاء الفاطميين، وكتاب «البيان والأعراب عما فى مصر من الإعراب»، وهو تاريخ للقبائل العربية التى نزلت مصر، وكتاب «جواهر الأسفاط فى أخبار الفسطاط»، وهو تاريخ لمدينة مصر الفسطاط.

ويأتى بعد المقريزى المؤرخ المصرى شمس الدين السخاوى، المنتسب لبلدة سخا المصرية (من أعمـال محافظة الغـربية)، المولود فى القاهرة بحـارة بهاء الدين بالقرب من باب الفـتوح فى ربيع الأول سنة ٨٣١هـ (١٤٢٨م)، وصاحب كتاب: «التبر المسبوك فى ذيل السلوك»، وهو ذيل لكتاب السلوك للمـقريزى، وقد تنـاول فيه تاريخ دولة الممـاليك المصرية حـتى سنة ٨٤٤هـ (١٤٤٠م)، وكتـاب «الضوء اللامع فى أعـيان القرن التـاسع»، وهو موسوعـة حافلة تقع فى عـدة مجلدات، وكتاب «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ».

ويسبق المقريزى والسخـاوى فى التوقيت الزمنى للظهور مؤرخان شهـيران ظهرا فى القاهرة واشتهرت أسماؤهما وهما: المؤرخ الفيلسوف الكبير عبد الرحمن ابن خلدون، المتوفى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٦م)، وصاحب كـتاب «العبـر وديوان المبتدأ والخـبر»، والذى يعـرف الجزء الأول منه باسم «مقدمة ابن خلدون». والمؤرخ أبو الفدا، المتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣١م)، مـؤلف كتاب «المختصر فى أخبار البشر».

ومن أشهـر مؤرخى القاهرة، الذين عاشـوا فيها فـى العصر المملوكى، المؤرخ الشهـير أبو المحاسن ابن تغرى بردى، صاحب كـتاب «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» الشـهير، وقد ولد أبو المحاسن بالقـاهرة فى عهد الملك الظاهر برقـوق سنة ٨١٢هـ (١٤٠٨م)، وتوفى ودُفن بها



سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م). ويتضمن كتاب «النجوم» تاريخ مصر والقاهرة من الفتح العربى إلى فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م).

ومن مؤرخى القاهرة المتأخرين فى العصر الإسلامى، المؤرخ جلال الدين السيوطى، المحدث والفقيه وصاحب المؤلفات الكثيرة الدينية والتاريخية، وقد ولد السيوطى فى بلدة أسيوط من صعيد مصر، ونسب إليها، سنة ٨٤٩هـ (١٤٤٥م)، وتوفى ودفن بالقاهرة سنة ٩١١هـ (١٥٠٥م)، وهو صاحب كتب: «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة»، وكتاب «تاريخ الخلفاء»، ومنهم المؤرخ ابن إياس الحنفى، ومحمد بن أبى السرور البكرى، وعبد الرحمن الجبرتى.

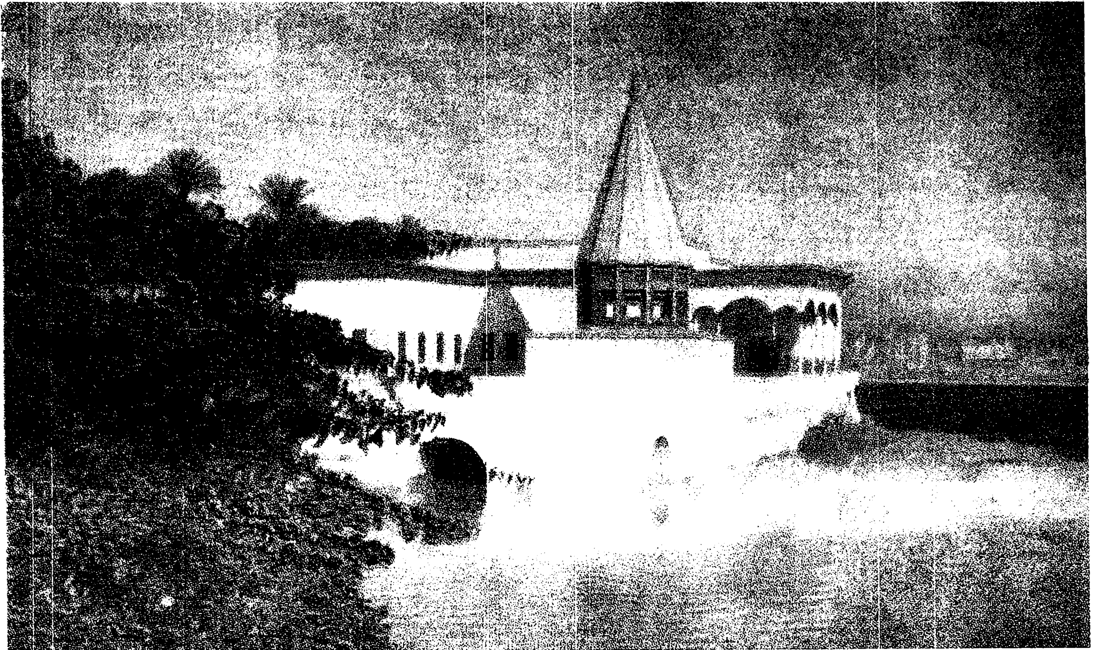
وقد راج الأدب القصصى، فى العصر المملوكى، ومن أشهر تلك القصص التى ألفت ووضعت فى ذلك العهد قصص: ألف ليلة وليلة، وعنترة بن شداد، والظاهر بيبرس، وأبى زيد الهلالى، وسيف بن ذى يزن، وقد أُعجب الشعب المصرى فى ذلك العهد بتلك القصص الشعبية.

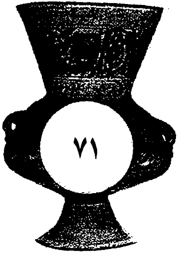
ثانيا: الدور الاقتصادى

(أ) الدور الاقتصادى للقاهرة فى العصر الفاطمى:

أدى رواج التجارة عامة، وتجارة المرور العالمية عبر البحرين المتوسط والأحمر، فضلا عن ازدهار الصناعة إلى رخاء مصر الاقتصادى فى العصر الفاطمى، وانعكست آثار هذا الرخاء على

مقياس النيل بالروضة





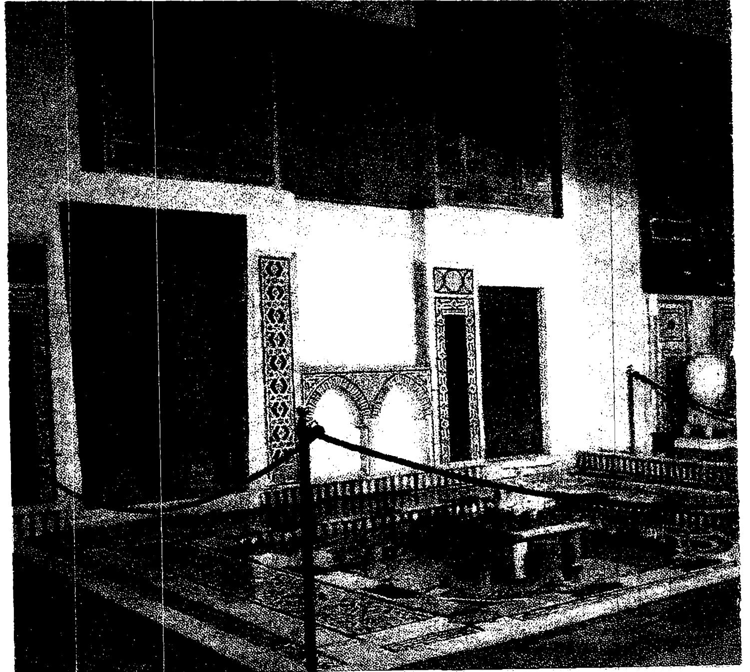
جميع مظاهر الحياة فى القاهرة، عاصمة الدولة، فى عهدها الأول، وبرغم تدهور أحوال البلاد فى عهدها الثانى، بسبب المحن والاضطرابات والحروب التى تعرضت لها، إلا أن اقتصاد مصر والقاهرة ظل متيناً بسبب استمرار نشاطها التجارى العالمى فى البحر الأحمر.

ولقد أورد المؤرخون أن الفاطميين، لما جاءوا إلى مصر، كانوا قد جلبوا معهم كميات هائلة من ذهب بلاد المغرب وغرب أفريقيا، وأنهم استغلوا هذه الثروة، التى جلبوها معهم، فى تنشيط اقتصاد مصر، فاشتركوا برؤوس أموالهم فى التجارة العالمية بين الشرق والغرب، كما شجعوا التجارة الداخلية وعملوا على رواجها، فضلا عن اهتمامهم بالزراعة والصناعة والعمل على النهوض بهما معا. وبرغم أن الفاطميين لم يدخلوا تحسينات جديدة على الزراعة، إلا أنهم حاولوا، قدر إمكانهم، النهوض بها والعناية بالأرض وبمياه الرى، وتنظيم هذه المياه وجريانها وضبط فيضان نهر النيل ووضع المقاييس لقياس زيادة المياه ونقصانها.



شمعدان باسم السلطان قايتباى مصنوع من البرونز المكفت بالفضة

قاعة مملوكية بالمتحف الإسلامى بالقاهرة



أما الصناعة، فقد كان لها الخط الأكبر من اهتمام الفاطميين؛ لذلك ازدهرت فى أيامهم، وشاهد على ذلك ما خلفوه من بقايا صناعات ما زال بعضها يزين المتاحف العالمية حتى الآن، هذا فضلا عما ذكره لنا الكتاب والرحالة المسلمون عن تقدم هذه الصناعة وإحرازها السمعة العالمية العالية، ولم يقتصر عمل المصانع فى العصر الفاطمى على إنتاج ما يحتاجه الجيش والأسطول من سلاح وعتاد حربى وملابس، بل تنوعت المنتجات

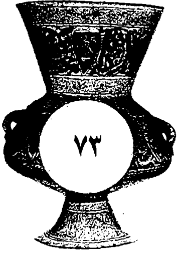
لتغطية حاجة السوق العالمى من منتجات مصر، بعد أن أصبحت مصر فى ذلك العصر، مركز تجارة العالم. هذا فضلا عن سد حاجة متطلبات قصور الخلفاء والوزراء والأمراء ورجال الدولة وعامة الشعب.

ومن الصناعات التى ازدهرت فى عصر الفاطميين وتنوعت: صناعة النسيج، بمختلف أنواعه، إذ اشتهرت مدن البهنسا وطحا وتنيس ودمياط ودبيق والإسكندرية والفسطاط والقاهرة وإخميم بنسيجها، وأحرزت الشهرة فى سائر بلدان عالم العصور الوسطى آنذاك، ولقت منتجاتها إقبالاً زائدًا وسوقًا رائجة لها فى تجارة العالم. وكانت القاهرة، فى عهد الفاطميين، مركزًا هامًا لصناعة المنسوجات الحريرية، فقد أنشأ فيها المعز لدين الله «دار الكسوة»، حيث كانت تفصل فيها الثياب لموظفى الدولة على اختلاف درجاتهم، كذلك كانت تفصل فى هذه الدار الحلل لموظفى الدولة التى كانت توزع عليهم فى عيد الفطر، الذى عُرف عندهم، بسبب ذلك، بعيد الحُلل، فضلا عن الكسوة السنوية الخاصة بالكعبة المشرفة، التى كانت ترسل مع المحمل إلى الأراضى الحجازية، كذلك أنشأ الوزير الأفضل ابن بدر الجمالى بالقاهرة «دار الديباج»، التى كانت تنتج نوعًا مميزًا من المنسوجات الحريرية المعروفة بالحرير الديباج، الذى كانت له الشهرة العالمية.

كذلك راجت فى القاهرة مبيعات المنسوجات الكتانية الرفيعة المستوى، التى كانت تصنع فى مدن: دبيق وتنيس. وقد وصل ثمن ثوب الكتان التنيسى فى القاهرة، المصَّنع للخليفة بألف دينار. وقد خلط كتان ذلك الثوب بخيوط الذهب. كذلك راجت فى القاهرة أنواع من القماش عُرفت باسم «البوقلمون»، وكانت ألوانه تتغير بتغير ساعات النهار. وكانت تُصنَّع فى «خزانة البنود» فى القاهرة الثياب الفاخرة، وكان يعمل بها أكثر من عشرة آلاف صانع.

وتقدمت صناعة الزجاج والخزف بمختلف أنواعه، فى عهد الفاطميين، وكانت مراكز تصنيعه فى القاهرة والفسطاط والإسكندرية والفيوم، وقد استخدم الخزف بكثرة آنذاك، والدليل على ذلك ما ذكره الرحالة الفارسى «ناصرخسرو»، حين زار مصر زمن خلافة السمنتصر بالله. وقد أورد ناصرخسرو فى كتاب رحلته المعروف باسم «سفر نامه»، أى زاد المسافر، أن التجار فى القاهرة من بقالين وعطارين وبائعى خردوات يعطون الأوعية اللازمة لما يبيعون فى زجاج أو خزف حتى لا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء.

وأصبحت القاهرة والفسطاط من أهم مراكز مصر الصناعية والتجارية فى ذلك العهد، وقد صارت منتجاتهما طلب العالم كله آنذاك، وقد أورد ناصرخسرو والمقدسى، ومن بعدهما المقريزى ما كانت عليه هاتان المدينتان من عظمة وشهرة وبهاء، حتى أن المقدسى يجعلهما تسبقان فى



أهميتـهما كلا من دمشق وبغـداد. ولقد أورد المقريزى ذكر أسـواق القاهرة وما كانت عليها من امتلاء بالبضائع وازدحام فـيها بالبيع والشراء، وكيف أنها كانت تموج بالحركة بالليل والنهار، وكيف كانت حوانيتها تتزين فى المواسم والأعياد.

ومن هذه الأسواق التى فى القـاهرة ويرجع قيامهـا وتأسيسهـا إلى عهد الفاطميين:

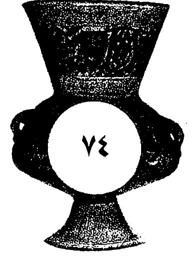
سـوق الشـرايحـيين: وهو أول سـوق أنشئ فى القـاهرة، فى شـهر صـفـر سنة ٣٦٥هـ (٩٧٥م)، وهو من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين، وقد ظل يعرف بسوق الشرابيين إلى أن سكن فيـه عدة من بيـاعى الشواء فى حدود السـبعمـائة من سنى الهجـرة فزالت عنه النسـبة إلى الشرابيين وعرف بالشرايحيين.

سوق أمير الجيوش: أقامه بدر الجمالى برأس حارة برجوان، وقد تغـير اسمه، فيما بعد، إلى سوق حارة برجوان. وقد ذكر المقـريزى فى خططه أنه أدرك سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة، ويقول ما نصه مفاخرًا بهذا السوق:

«وما برحنا ونحن شـباب نفاخر بحارة برجـوان سكان جميع حارات القـاهرة ونقول بحارة برجوان حمامات أعـنى حمامى الرومى وسويد، وبها فرنان، ولها السوق الذى لا يحـتاج ساكنها إلى غيره، وكان هذا السوق من سـوق خان الرواسين إلى سوق الشماعين معـمور الجانبين بالعدة الوافرة من بياعى لحم الضأن السليخ وبياعى اللحم السميط وبـياعى اللحم البقرى، وبه عدة كثيرة من الزياتين وكثيـر من الجبانين والخبازين والطبـاخين والشوايين والعطارين والخضريين وكـثير من بائعى الأمتعة.

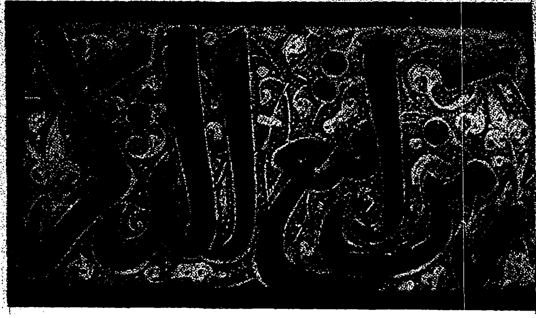
سويقة أمير الجيوش: وهى تنسب أيضا إلى بدر الجمالى، وكانت شارعا هاما من شوارع القاهـرة يسلك فيـه من بين القصـرين وباب الفتـوح وباب النصر إلى باب القنطرة وشـاطئ النيل وغيره، وكانت من أكـبر أسواق القاهرة بها عدة حـوانيت فيها الرفاءون والحيـاكون وعدة حوانيت للفرائين وللخـياطين، ومعظـمها لسكن البـزازين والخلعيين. ويبـاع فى هذا السوق سائر الثـياب المخيطة والأمتعة من الفرش وغيرها، وكانت بهذا السوق عدة قياسر وفنادق.

سوق القماحين: وكان ذلك السوق موجودًا أيام الدولة الفـاطمية، وكان حده من الجامع الأقمر إلى سوق الدجـاجين. وعند هذا السوق بنى الوزير المأمون البطائحى، وزير الخليـفة الأقمر الفاطمـى، الجامع الأقمـر، وبنى تحت الجامع دكـاكين ومخـازن من جهـة باب الفتـوح. وكانت الفوانيس تعلق بهـذا السوق فى موسم «الغطـاس»، كذلك كانت تعلق فـيه طوال شهر رمـضان، وكانت تباع فيه، فى ذلك الشـهر، الشموع الكبيرة. وقد تغير اسم هذا السـوق، بعد الفاطميين، وصار يعرف باسم سوق الشماعين.



سوق الصيارف:

وقد عُرف بذلك الاسم فى الدولة الفاطمية لسكن الصيارف فيه، وكان مقابلا لسوق السيوفيين فى طريق السالك إلى سجن المعونة، وقد تغير اسم هذا السوق فيما بعد، وصار يُعرف باسم سوق باب الزهومة بسبب وجوده بجوار باب الزهومة.

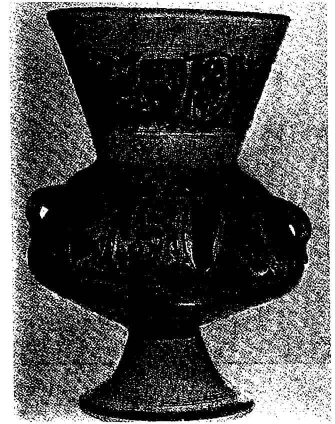


بلاط من القيشانى من العصر المملوكى

سوق المحايريين: كان موجودا فى العهد الفاطمى، فيما بين الجامع الأقمر وبين جملون ابن صيرم، وكان يباع فيه ملابس الإحرام التى يسافر فيها الحجاج لأداء فريضة الحج، وكان لهذا السوق موسم عظيم عند استعداد الناس للسفر إلى بيت الله الحرام، أو إلى القدس.

سويقة الوزير: وهى تنسب للوزير يعقوب بن كلس، وزير الخليفة العزيز بالله الفاطمى، وكانت على باب داره، وقد عُرفت فى أواخر أيام الدولة الفاطمية بالسوق الكبير، ثم تحول اسمها، بعد الدولة الفاطمية، إلى سويقة الصاحب، نسبة إلى المدرسة الصاحبية التى أنشأها الوزير صفى الدين بن شكر الدميرى، وزير الملك العادل الأيوبى، فى هذا الخط حين سكن فيه، ثم صارت تعرف بسويقة دار الديباج.

هذا فضلا عن أسواق عدة لا يتسع المجال لذكرها، أمثال: سوق الخشابين، وسوق الحدادين، وسوق السراجين، وسوق الوراقين، وسوق الجوخيين، وسوق القشاشين، وسوق السيوفيين، وسوق الطيوريين، وسوق الشماعين، وسوق الصاغة القديم، وكلها أسواق كانت قائمة منذ العصر الفاطمى.



مشكاة زجاجية مطعمة بالمينا

باسم الناصر محمد سنة ١٣٤٠م

ومن الأسواق التى استجدت فى القاهرة فى عهد الدولة الأيوبية:

سوق المهامزيين: وكان معداً لبيع مهاميز الخيل وسلاسل الفضة، التى كانت برسم لُجُم الخيل، كذلك كانت تباع الطُرف فى ذلك السوق لأكابر الكتاب من القبط ولرؤساء التجار.

سوق الجملون الصغير: وكان يبدأ من سويقة أمير الجيوش إلى باب الجوانية وباب النصر ورحبة باب العيد. وقد



قطعة نسيج لأحد أمراء المماليك - بالمتحف الإسلامى بالقاهرة

عُرف باسم جملون ابن صيرم، نسبة للأمير جمال الدين شويخ بن صيرم، أحد أمراء الملك الكامل الأيوبى، وكان فى هذا السوق الكثير من دكاكين البزازين، الذين يبيعون سائر أصناف ثياب القطن والكتان.

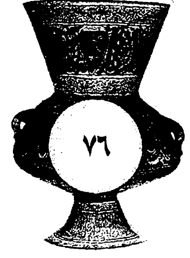
سويقة البلشون: وكانت خارج باب الفتوح، وهى تنسب إلى سابق الدين سنقر البلشون، أحد مماليك السلطان صلاح الدين الأيوبى.

سوق السلاح: وكان فيما بين المدرسة الظاهرية وبين باب قصر بشتاك، فى خط بين القصرين، وقد استجد بعد الدولة الفاطمية، وجعل لبيع القسى والنشاب والزرديات وغير ذلك من أصناف السلاح.

سوق باب الفتوح: وكان هذا السوق داخل باب الفتوح، على رأس حارة بهاء الدين، وكان من أجَلّ أسواق القاهرة وأعمرها. وقام هذا السوق فى عهد الدولة الأيوبية، حين سكن بهاء الدين قراقوش فى موضعه المعروف بحارة بهاء الدين.

أما عن الأسواق فى عهد المماليك، فإنها لم تستجد أسواق جديدة فى القاهرة فى عهدهم، ولكن هناك أسواقًا قديمة كانت قائمة بها منذ نشأتها، وقد تغيرت أسماؤها تبعًا لتغير من سكن بها أو على أطرافها من الحكام والأمراء والوزراء. وقد أوضح لنا المقريزى ذلك فى خططه فى الفصل الذى عقده عن أسواق القاهرة والفسطاط عند حديثه عن تلك الأسواق التى كانت موجودة فى عصره وعن التسمية التى كانت عليها قبل عصره، ومن هذه الأسواق:

سوق القصبة: الذى كان يمتد من أول الحسينية ومشهد السيدة نفيسة، وكان به اثنا عشر ألف حانوت، وكان من أعظم أسواق القاهرة، وهو الآن فى الشارع المعروف بشارع المعز لدين الله، «وسوق الشماعين»، «وسوق الدجاجين»، «وسوق الشرابشيين»، «وسوق الحلوانيين»، «وسوق المغربلين»، «وسوق الكتبيين»، «وسوق الخراطين»، «وسوق الكفتيين»، وغيرها.



المنشآت التجارية فى القاهرة:

ولما كان من اللازم تهيئة السبل أمام التجار المسلمين والتجار الأجانب والأغراب، حتى يستطيعوا مزاولة أعمالهم دون عناء كبير، وحتى يتيسر للحكومة أداء واجب الأشراف على هؤلاء التجار على الوجه الأكمل، أقيمت فى مصر الإسلامية عموما وفى القاهرة خصوصا عمائر تجارية مختلفة لراحة هؤلاء التجار. وهذه العمائر التجارية، وإن اختلفت أسماؤها وطرز عمارتها، إلا أنها جميعا أنشئت لتحقيق غرض واحد، ألا وهو خدمة الحركة التجارية، وهذه المنشآت هى: القيساريات، والخانات، والفنادق، والوكالات.

القيساريات:

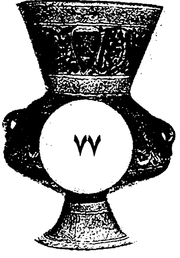
وتتكون القيساريات من مجموعة من المبانى العامة، والتى تحتوى على حوانيت، ومصانع، ومخازن، ومساكن فى بعض الأحيان وأروقة، وكلمة «قيسارية»، كلمة معربة، مشتقة من لفظ يونانى معناه: «السوق الإمبراطورية»، أو «سوق الإمبراطور قيصر»، مما يدل على أن تلك السوق المنسوبة إلى القيصر، سوق من إنشاء الدولة أو الحاكم.

أما فى مصر الإسلامية فقد تولى إنشاء تلك القيساريات كبار التجار وكبار رجال الدولة؛ ولذلك عرفت باسم منشئيها من هؤلاء الكبار والتجار، مثل قيسارية ابن ميسر، أو باسم ما يباع ويصرف فيها، مثل: قيسارية العصفر، وقيسارية العنبر.

وقد أنشئت فى القاهرة فى العهد الفاطمى أعداد من القياسر، ونستخلص ذلك من أسماء القياسر التى أوردها «ابن دقماق» فى كتابه «الانتصار بواسطة عقد الأمصار»، وما ورد على لسان «يحيى بن سعيد الأنطاكى»، بخصوص مرسوم أصدره أحد خلفاء الفاطميين بتجديد عمارة دير «القصير»، ورد الأوقاف والأملاك التى كانت محبوسة على ذلك الدير من ضياع وقياسر.

ومن القيساريات التى أنشئت فى القاهرة وأورد ذكرها ابن دقماق وترجع إلى العصر الفاطمى: «قيسارية ابن أبى أسامة»، وكانت على يسار السالك إلى بين القصرين، وقفها سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) الشيخ أبو الحسن على، صاحب ديوان الإنشاء فى أيام الخليفة الآمر (ت ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م).

قيسارية جهاركس: بناها الأمير عز الدين جهاركس بن عبد الله الناصرى، وكان من أكابر أمراء دولة الناصر صلاح الدين الأيوبى (ت ٦٠٨هـ/ ١٢١١م)، ولقد كانت تعرف بالقيسارية الكبرى، ويقول عنها المقريزى ما نصه: «رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر



فى شتى من البلاد مـثلها فى حسنها وعظمها وإحكام بنائهـا. وقد بنى بأعلاها مسجدًا كبيرًا وربعًا معلقًا».

قيسارية ابن يحيى: وكانت تجاه باب قيسارية جهاركس، أنشأها القاضى المفضل هبة الله ابن يحيى التميمى سنة ٥٤٠هـ .

ومن القيساريات التى أنشئت فى القاهرة زمن الأيوبيين:

قيسـارية الفائزى: وكانت بأول حـارة الخراطين، مما يلى حارة المهامـزيين، أنشأها الوزير الأسعد شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن صاعد، وكـان من جملة نصارى صعيد مصر، وأسلم أيام الملك الكامل الأيوبى، وصار ناظرًا للديوان أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب.

قيسارية ابن قريش: وكانت فى صدر سوق الجملون الكبير، بجوار سوق الوراقين، شيدها القاضى المرتضى ابن قـريش، فى أيام الناصر صلاح الدين الأيوبى، وهو أحد كـتاب الإنشاء أيام صلاح الدين، توفى شهيدا فى عكا سنة ٥٨٦هـ ودفن بالقدس.

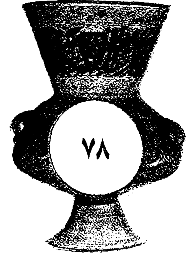
قيسـارية الفاضل: وكانت على يميـن باب زويلة، ونسبت للقاضى الفاضل عـبد الرحيم البيسانى، وقد دخلت فى العهد المملوكى ضمن أوقاف المارستان المنصورى.

قيـسارية الـعصـفر: وهى بشارع القـاهرة لها باب من سـوق المهامزيـين وباب من سوق الوراقـين، عرفت بذلك من أجل أن العـصفـر كان يُدق بهـا، أنشأها الأمـير علم الدين سنـجر المسرورى المعروف بالخيـاط، والى القاهرة. ووقفها سنة ٦٩٢هـ، ولم تزل باقـية بيد ورثته إلى أن ولى القاضى نـاصر الدين محـمد بن البارزى الحـموى كـتابة السر فى أيام السلطـان المؤيد شيخ، فاستـأجرها عدة أعوام من مستـحقيها ونقل إليهـا العنبر، فصارت قيـسارية عنبر، وذلك فى سنة ٨١٦هـ، ثم انتقل منها أهل العنبر إلى سوقهم سنة ٨١٨هـ.

قيسارية العنبر: وكانت سجنًا، فحوّلها الملك المـنصور قلاوون إلى قيسارية سنة ٦٨٠هـ، وجعلها للعنبر.

الخانات:

الخانات، جـمع خان، وهو مـبنى ضخـم يحتوى عـلى مجمـوعة من الحـوانيت الكبـيرة والصغيرة ومستـودعات لتخزين البضائع، ويتوسط الخان فناء كبيـر على هيئة رواق مغطى، حيث يحفظ التـجار بضائعـهم. وفى الخان يجد التـجار المأوى لهم ولدوابهم خلال رحلتـهم. والخان، كلمة فـارسية الأصل، اسـتعملت بكثـرة فى مصر والشام، وذكـرها المؤرخون العرب فى عـصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك. وكانت الخانات تشيد كذلك لأعمال الخير كإيواء أبناء السبيل.



ومن الخانات التى أورد المقريزى ذكرها، وهى ترجع إلى عهد الأيوبيين:

خان مسرور:

وهو ينسب إلى مسرور الخادم، وهو أحد خدم السلطان صلاح الدين الأيوبى، وهو يشتمل على مكانين أحدهما كبير والآخر صغير، والكبير على يسار من سلك من سوق باب الزهومة إلى سوق الحريريين، والصغير على يمين من سلك من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر، وقد كان ذلك الخان، زمن المقريزى غاية فى العمارة تنزله أعيان التجار الشاميين بتجارتهم، وكان من أجل الخانات وأعظمها.

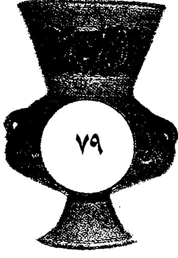


خان الخليلى رسم من القرن ١٨

خان السبيل: خارج باب الفتوح، وقد بناه الأمير بهاء الدين قراقوش، لأبناء السبيل والمسافرين، دون أجر، وجعل به بئر ساقية وحوض.

خان منكورش: وهو بخط سوق الخيميين، بالقرب من الجامع الأزهر، بناه الأمير منكورش ركن الدين، زوج أم الأوحد بن العادل، وكان أحد مماليك السلطان صلاح الدين الأيوبى، توفى سنة ٥٧٧هـ.

خان الخليلى: وهو بخط الزراكشة العتيق، كان موضعه تربة القصر التى فيها قبور الخلفاء الفاطميين، المعروفة بتربة الزعفران، أنشأها الأمير جهاركس الخليلى، أمير آخور الملك الظاهر برقوق، وأخرج منها عظام الأموات فى المزابل على الحمير وألقاها بكيمان البرقية. وقد قتل الخليلى (يوم الإثنين حادى عشر شهر ربيع الآخر سنة ٧٩١هـ). وقد أوقف الخليلى خانه هذا على عمل خبز يُفرق بمكة، على كل فقير منه فى اليوم رغيفان، وقد عمل ذلك لعدة سنين.



الفنادق:

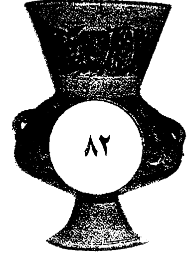
الفنادق جمع فندق، والفندق بناء ضخم مربع على شكل الحصن، امتدت خارجه حدائق غرست بها بعض الأشجار، وهو يتألف من عدة طوابق، وفى الدور الأرضى منه توجد مخازن وحوانيت تطل على فناء داخلى فسيح يسمح بتعبئة البضائع وتفريغها، بينما تضم أدواره العليا مساكن التجار التى كانوا ينامون فيها ويغلقون غرفهم بأقفال رومية. وكلمة فندق كلمة يونانية الأصل Pandokeion، وتقابلها فى الإيطالية كلمة Fondaco، وكان الفندق عند الروم يعرف باسم (ميتانا) Mitana.

ولقد أقيمت الفنادق، أصلاً، للتجار الأجانب، وفى بداية الأمر كان الروم الأجانب كافة يجتمعون فى الإسكندرية فى مبنى خاص، أطلق عليه المسلمون تسمية غامضة، هى «دار المناخ». وسُمح فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) لكل جالية من الجاليات الأوروبية أن يكون لها فندق خاص بها. وكان التجار الأوروبيون يحرصون على أن يحصلوا من الحكومة المصرية على إذن بإنشاء الفنادق الخاصة بهم. وكان كل فندق يحتوى، فى العادة، على كنيسة صغيرة يقيم التجار فيها شعائرهم الدينية، كما كانت به فرن لتصنيع خبزهم، وحمام، وقاعة خاصة مصرح لهم فيها بشرب النبيذ والخمر.

ولم يكن للأجانب حق تملك الفنادق، فهى أبنية مصرية أنشأتها السلطات المصرية وجعلتها تحت تصرف تجارهم، تسهيلا لإقامتهم فى البلاد وقيامهم بالصفقات التجارية. وكانت إدارة الجمارك بالميناء (الديوان) هى الهيئة الرسمية التى تشرف على هذه الفنادق، وتكلف بالسهر على سلامتها ودفع إيجارها وإصلاحها. ويشرف على كل فندق موظف يعرف (بالفندقى)، تختاره الجالية التى يتبع لها الفندق، وهو الذى يمثلهم أمام السلطات. وكان قنصل كل دولة مسئولاً عن فندق دولته أيضا، وعن تسديد رسوم التجار للسلطان ورصد جزء منها لإصلاح المبنى وصيانته، وكما ينص على ذلك فى المعاهدات التى تعقدها الدول التجارية مع الدولة.

ونظير الإقامة فى الفندق كان التاجر يدفع درهمًا ونصف الدرهم عن كل ليلة يقضيها فيه، وكان يسمح أحيانًا، لبعض الفنادق بإيواء الأجانب المارين بالقاهرة أو الإسكندرية والشام، أو لحجاج بيت المقدس وزوار سيناء لبضع ليال نظير دفع نفس الأجر. وكان أجر عامل الفندق، فى نهاية القرن السادس الهجرى، درهمان فى اليوم، وكان متوسط أجره فى الشهر ديناران. هذا، ولم يصل دخل الفندق الكبير فى القاهرة، أيام الفاطميين، إلى أكثر من مائة دينار فى الشهر.

ولم تقتصر سكنى الفنادق على التجار الأوروبيين فحسب، بل كانت هنالك فنادق لتجار الشام والمغرب، ولتجار الكارم، على طول طريقهم التجارى.



ومن وكالات القاهرة:

وكالة قوصون: وموضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء، وكان ينزل بها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والسيرج والصابون والفستق والجوز واللوز والخروب، ولقد ذكر المقريزى عن هذه الوكالة أنه أدركها، «وأن رؤيتها من داخلها وخارجها لتدهش، لكثرة ما هنالك من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها».

وكالة باب الجوانية: وهى تجاه باب الجوانية من القاهرة فيما بين درب الرشيدى ووكالة قوصون، بناها الأمير جمال الدين محمود بن على الأستادار سنة ٧٩٣هـ وبنى بأعلاها ربعًا. فلما اكتملت رسم الملك الظاهر برقوق أن تكون داره وكالة يرد إليها ما يصل إلى القاهرة وما يرد من صنف متجر الشام فى البحر كالزيت والدبس، وجعلها وقفًا على المدرسة الخانقاه التى أنشأها بخط بين القصرين.

هذا، وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية وكتب الخطط أغفلت ذكر الوكالات وتحديد أماكنها، إلا أن وثائق الجنيزة، تشير إلى أن الوكالات كانت منتشرة فى مدن مصر وبخاصة فى مدينة القاهرة ومدينة الإسكندرية.

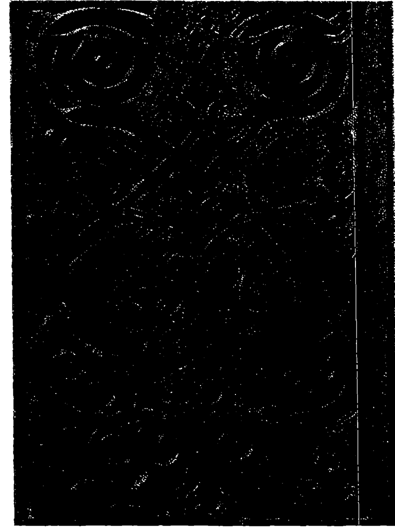


وكالة الغورى تحولت إلى مركز الحرف الشعبية

ثالثا: الفنون والآثار

(أ) الفنون والآثار فى القاهرة فى العصر الفاطمى:

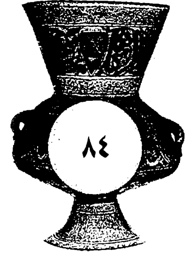
لقد نافست الخلافة الفاطمية، فى عهدها الأول، خلافة بغداد، وامتلأت خزائنها بالذهب والمال، وانعكس ذلك فى حياة الترف والنعيم التى كان يحياها الخلفاء الفاطميون فى قصورهم بالقاهرة، هذه القصور، وإن كانت اندثرت معالمها، إلا أن أوصافها وما كانت تحتويه وما كان يقع بها من احتفالات وصرف وبذخ، سجله لنا الكتاب والرحالة وصفا دقيقا وبليغا. كذلك فإن ما خلفوه من مادة أثرية مصنعة لا تزال موجودة فى متاحف العالم، خير شاهد على الحياة المترفة التى عاشها أولئك الخلفاء، وحالة الرفاهية والإغداق التى عمت الشعب فى مواسمهم وأعيادهم ومناسباتهم الخاصة.


حشوة خشبية لجوادين صناعة العصر الفاطمى

وهناك شهود عيان قصوا لنا ذلك وسجلوه فى كتبهم، ومن هؤلاء شهادة رسولى ملك بيت المقدس «عمورى» إلى الخليفة الناصر سنة ٥٦٢هـ (١١٦٧م) وإعجابهما بما شاهداه فى قصر الخليفة غاية الإعجاب، وتسجيل «غليوم» رئيس أساقفة صور ذلك الإعجاب والانبهار فى كتابه. وهناك وصف ثان لشاهد عيان آخر، زار مصر فيما بين سنتى ٤٣٩، ٤٤١هـ (١٠٤٧-١٠٤٩م)، ذلك هو الرحالة المسلم الفارسى «ناصر خسرو»، ذكر ما شاهده فى قصر الخليفة المستنصر بالله من فخامة وبهاء، وهو القصر الشرقى الكبير، أول قصور الفاطميين فى القاهرة.

وقد تجلى بذخ الخلفاء الفاطميين فيما أورده المقريزى، فى خططه، عن خزائن الفاطميين المتعددة، وما كانت تحتويه تلك الخزائن من أشياء تفوق الوصف، وهى خزائن الفرش والأمتعة، وخزائن الجوهر، وخزائن الخيم والبنود، وخزائن الشراب وغيرها. وترك الخلفاء الفاطميون ثروات طائلة ومخلفات أثرية قيمة وتحف بديعة الصنع


حشوتان من العاج لموضوعات الصيد والطرب من العصر الفاطمى



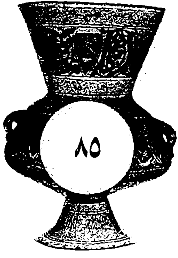
وأحجار كريمة لا تقدر بمال، هم وأعوانهم وكبار رجال دولتهم. فوجد عند «سيدة»، أخت الخليفة المعز، بعد وفاتها، ثلاثمائة صندوق مملوءة بالذهب الخالص، وخمس ويبات من فصوص الياقوت الحر، كذلك خلَّفت «عبده»، ابنة المعز. بعد وفاتها سنة ٤٤٢هـ، ثروة هائلة لا تحصى، وكان من جملتها أردب من الزمرد. ووُجد عند القائد جوهر، عند وفاته، ستمائة ألف دينار ذهبًا وأربعة آلاف درهم نقرة (فضة خالصة)، وأربعة صناديق مملوءة باللآلئ، ومثلها ممتلئة بالياقوت، وألف قصبة زمرد، وخمسة وسبعين ألف ثوب من الديباج ووجد فى خزائن القصر الفاطمى، فى أيام الشدة المستنصرية، صناديق كثيرة مملوءة بالذهب والجوهر، بيع معظمها بأبخس الأثمان من أجل الحصول على الخبز والطعام. وقد وُجد، ضمن مخلفات العاضد، التى استولى عليها صلاح الدين، عقد زمرد طوله أربعة أصابع، عدا جواهر وتحف لا عدد لها.

ومن التحف الفنية، التى أورد المقريزى ذكرها، ولا يزال بعض منها معروضًا فى متاحف العالم تزينه تلك النقوش التى خلفها خلفاء الفاطميين وأبناؤهم ووزراؤهم، من تحف على شكل حيوانات وطيور، منها طاووس من ذهب مرصع بالجوهر، عيناه من ياقوت أحمر، وريشه من الزجاج المموه بالمينا على ألوان ريش الطاووس، ومنها ديك من الذهب له عُرفٌ كبير من الياقوت الأحمر المرصع بالدر والجوهر. ومنها غزال مرصع أيضا بالجوهر، ومائدة كبيرة من العقيق، ونخلة من الذهب، يتدلى منها البلح الذى شُكِل من الجوهر الأحمر اللون.

وقد خرج من القصر الفاطمى شىء كبير من التحف البلورية والخزفية المموهة بالذهب. وقد قال أحد الموظفين فى بيت المال أن صندوقًا من الصناديق التى نهبت من القصر الشرقى الكبير، كان مملوءًا بأباريق من البلور النفيس، منقوشة بزخارف ورسوم بديعة، وكؤوس صافية اللون دقيقة الصنع كانت مخصصة للشراب.

ولقد وصل إلى أيدينا سالماً قليل من تلك التحف، لا تزال معروضة الآن فى متحف الفن الإسلامى، من بينها آنية من الخزف اللامع ذات البريق المعدنى، من أطباق وصحون وصحاف، تزينها الزخارف النباتية ورسوم الطير والحيوان بأيدى أشهر فنانى ذلك العصر، ومن تلك الأسماء التى ورد ذكرها لأولئك الرسامين الفنانين، اسم سعد ومسلم.

وتوجد أيضا فى هذا المتحف مخلفات أثرية ترجع إلى العصر الفاطمى تتمثل فى قطع من القماش الحريرية والصوفية، ترجع إلى عصر الحاكم بأمر الله، عليها رسوم نباتية وحيوانية آية فى الإبداع ودقة الصنعة. كذلك يُعرض فى هذا المتحف كثير من التحف الخشبية المحفورة، من أبواب وألواح ومحاريب متنقلة، وحشوات تخلفت من القصور الفاطمية. ومن أبدع تلك التحف ألواح



خشبية، كـانت تزين القصر الفاطمى الشرقى الكبير، محـفور عليها مناظر تمثل الحياة اليـومية فى ذلك الوقت، على أرضـية من زخارف نباتية بـديعة، كذلك تعرض فيه تحف فـاطمية دقيقة مصنوعة من العـاج، على هيئة تماثيل وقطع من الشطرنج.

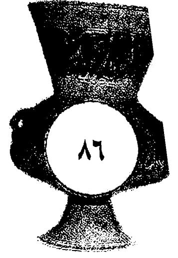
وكان للفـاطمـيين باع طويل فى التصـوير، تصوير الآدميين والحـيوانات والنباتـات على الخزف والخشب والجص والمـنسوجات، ويتـضح ذلك لنا جليًا على تـلك الرسوم والتصويرات التى رسمـوها على قطع الخزف اللامع والأخشاب والمنسوجـات المحفوظة بالمتاحف، وعلى اللـوحات المرســومة على الجص والتى عُثـر عليها على جدران حـمام فاطمى، بجـهة أبى السعـود، جنوبى القاهرة، نُقلت إلى المتحف الإســلامى. وقد رُسم على لوحة منها صـورة إنسان عليه عمامة جميلة وفى يده اليمنى كأس يشرب منه، واللوحة مرسومة باللون الأحمر والأسود.

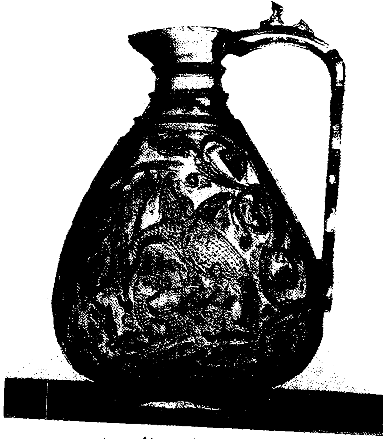
وقد حـدثنا المقريزى عن مـباراة بصدد الرسم والتـصوير جرت بين اثنيـن من المصورين فى العـهد الفـاطمى سمى أحـدهما باسم «ابن عـزيز»، وسمى الثـانى باسم «قصـير»، أمـام الوزير اليازورى، فرسم الأول راقصـة بثياب بيض فوق أرضية سوداء، بدت كأنهـا داخل الأرضية، بينما رسم الثانى راقصة بثيـاب حمراء فوق أرضية صفراء بدت كأنها بارزة عن الأرضـية، وقد كافأهما اليازورى على ما رسما ذهبًا كثيرًا.

ولقد سبق لنا أن أشـرنا إلى المخلفات المعمارية التى تركها لنا الـفاطميون متمثلـة فى معمار مدينة القـاهرة وسورها وأبوابها، فضـلا عن المساجد الفـخمة التى بنوها وأشهـرها الجامع الأزهر ومسجد الحاكم والمسجد الأقمر وجامع الجيوشى.

(ب) الفنون والآثار فى القاهرة فى العصر الأيوبى:

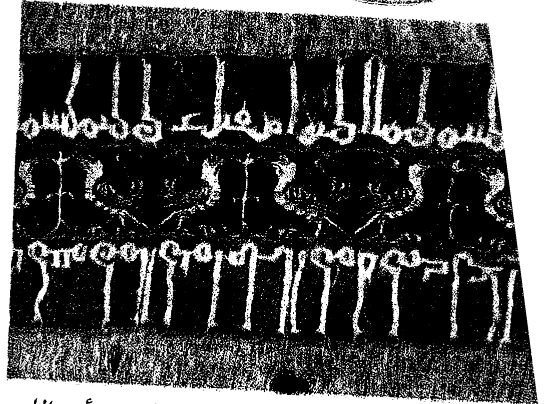
انطبع العصـر الأيوبى، كمـا رأينا، بالطابع الحربى، الذى استـلزمته مـقاومة خطر اعـتداء الصليبـيين على البـلاد، ورصد ذلك العدوان، كـما انطبع أيضا بالطابع السنـى، المخالف للطابع الشيـعى الذى ساد العصـر الفاطمى السابق لـهم، وقد استلزم ذلك أيضـا حماية البـلاد من عودة الفاطميين لحكم مـصر ونشر تعاليمهم فيهـا، وكان لذلك كله أثره الواضح فى سير الفنون والآثار واتجاهاتها، ففى المبانى انتشر بناء الأسوار والقلاع والحصون، وقد بدا ذلك فيما سبق أن أشرنا إليه بخصوص بناء صلاح الدين لأسوار القاهرة وما تخللها من أبراج وحصون، وبنائه لقلعة الجبل عند مدخل القاهرة لتحصين البلاد ضد أى عدوان خارجى عليها، وبخاصة العدوان الصليبى الماثل على القاهرة آنذاك.





دورق من البللور الصخرى

- العصر الفاطمى



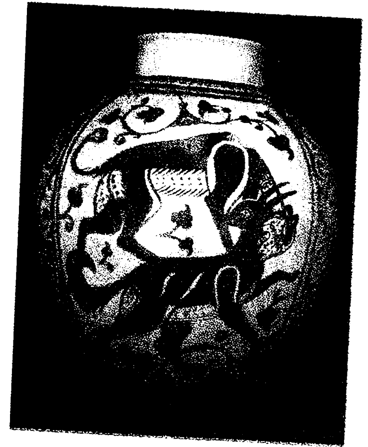
قطعة من النسيج باسم الحاكم بأمر الله

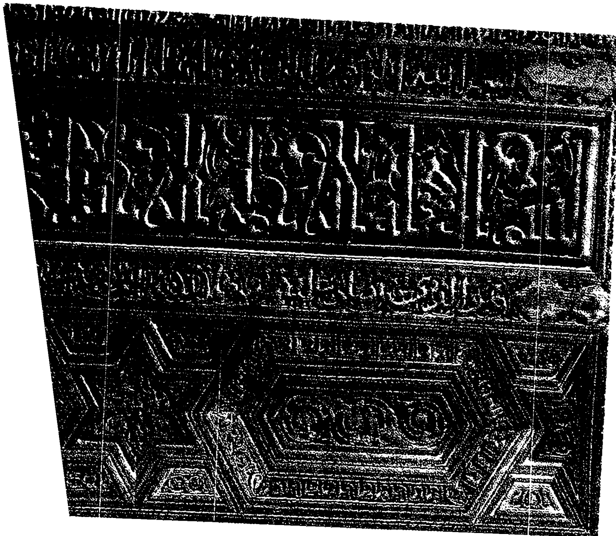


رسم وجد حمام فاطمى بمنطقة أبو السعود

فازه خزفية مطلية بالبريق المعدنى

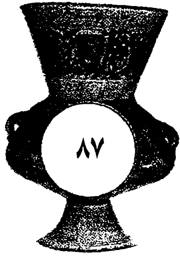
- العصر الفاطمى





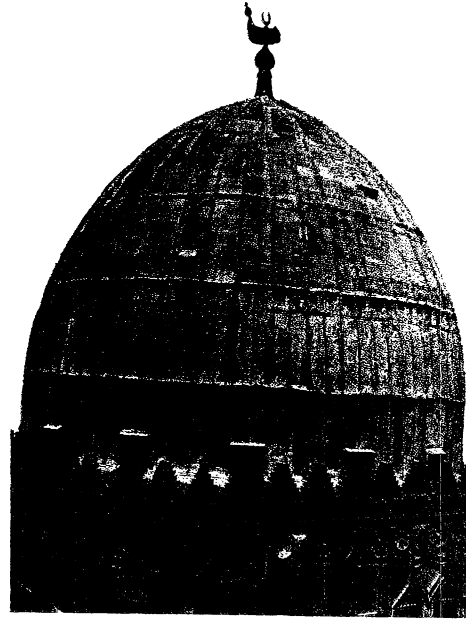
نقش زخرفى مع آيات بالخط الكوفى - تابوت الإمام

الشافعى - العصر الأيوبى



كذلك انتشر، فى ذلك العصر، بناء المدارس، التى سبق الإشارة إليها، لتعليم الدين وفق المذاهب السنية الأربعة، وتغيير نظام المعمار فيها عن المدارس الفاطمية بإنشاء أربعة أواوين فى كل مدرسة يُدرس فيها مذهب من المذاهب الفقهية السنية الأربع.

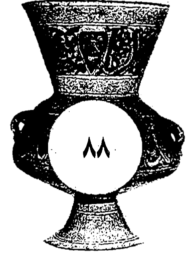
وقد كان تمسك الأيوبيين بالسنة وتعاليمها، لم يسمح لهم التوسع فى فنون الرسم والتصوير وصنع التماثيل مثلما كان الحال عليه فى عهد الفاطميين، وإن كانت قد ازدهرت فى بعض نواح فى الحفر على الخشب، وعلى الخزف الملون المطلى بالمينا. وقد بلغ الحفر على الخشب ذروته فى ذلك العهد، ونرى ذلك فى ثلاثة أضرحة، أحدها فى ضريح الإمام الشافعى والقبة التى عليه، والثانى فى ضريح الملكة (شمس)، زوج صلاح الدين، الموجود بجوار ضريح الإمام الشافعى، والثالث فى التابوت الذى كان موضوعا على ضريح الإمام الحسين بن على، -رضى الله عنه- وهو موجود الآن بالمتحف الإسلامى بالقاهرة. والزخرفة على هذه التوابيت تتكون من حشوات بها رسومات لفروع نباتية وأوراق، وبعض عناقيد العنب، وهى تشبه الزخارف الموجودة على جانب وفى ظهر محراب السيدة رقية.



قبة ضريح الإمام الشافعى الذى أثرى الفقه الإسلامى بمصر

ولقد خلَّف لنا ذلك العصر بابين، وهما: الباب الذى به ضريح الإمام الشافعى، والآخر بمسجد الإمام الليث بن سعد، ويرجع تاريخ تصنيعهما إلى سنة ٦٠٨هـ (١٢١٢م). كذلك يوجد بالمتحف الإسلامى باب مخلَّف من قبة الإمام الشافعى مصفح بالنحاس، مثبت به حشوات نحاسية فى أطباق نجمية، وقوام زخرفته أوراق وفروع نباتية.

ويظهر فى العصر الأيوبى نوع جديد من الخزف، وهو يخالف الخزف الفاطمى ذى البريق المعدنى، وقد جاءت الكتابة على هذا الخزف بالخط النسخ، على خلاف الخزف الفاطمى، الذى كانت الكتابة عليه بالقلم الكوفى. ويوجد بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة قطع من هذا الخزف، منها قطعة قوام زخرفتها رسم باللون الأزرق والأسود، تمثل شخصين راكبين فى قارب، وأخرى



قوام زخرفتها رسم حيوان بـاللون الأسود، وثالثة عليها صورة أرنبين يولى كل منهما ظهـره للآخر، وهما ملونان باللون الأزرق الفاتح، وبـين الأرنبين رسوم زهور باللون الأحـمر، ومما يلفت النظر فى تلك الـقطعة التـماثل والتقـابل فى رسم كل من الأرنبين وفى حركتهما، كذلك دقة الرسوم النباتية ورسوم الزهور عليها وزهاوة ألوانها.

(ج) الفنون والآثار فى القاهرة فى العصر المملوكى:

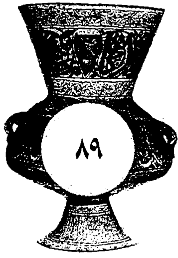
من عرضنا السابق للمساجد والمدارس التى شُيدت فى العصر المملوكى، وضح لنا كيف أن فن العمـارة فى ذلك العصـر قد بلغ شأوا عظيـما لم يبلغـه فى الزمن السابق لعـصرهم أو الزمن اللاحق له، ويكفى لنا شاهداً على ذلك ما تزدان به القاهرة اليوم من أجمل المساجد والمدارس التى خلدت ذكر المماليـك ولا تزال تقف متحدية للزمن شامـخة عالية فى الآفاق، ولـقد كان التنافس شديدا فى ذلك المضـمار بين حكام المماليك، تخليداً لـلذكرى، ورغبة فى إعلاء كـلمة الإسلام، وطلب الأجر والثواب من الله فيما شيدوه من مساجد ومدارس تزخر بها قاهرة اليوم.

ولم يقتصـر تقدم عصر المماليك على البناء فـحسب، بل امتد إلى بقية الفنون الإسـلامية، فازدهرت وارتقت وبلغت غـايتها، وقد غـصت قصور المماليك وبيـوتهم ومساجدهم ومـدارسهم بالتحف الثـمينة من خشبيـة وخزفية وزجاجـية وبلورية وعاجيـة ونحاسية، وفـرشت بأفخر أنواع الفرش وأغلى الأبسطة والسجاد.

ومن أهم القصور المملوكية المتبقية حتـى اليوم: قصر الأمير سيف الدين، بشتاك الناصرى، الذى كان أمـيرا مقـربا من الملك الناصر مـحمد بن قـلاوون، وقد بنى ذلك القـصر سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م)، وهو يشرف من أعلاه على القاهرة والقلعة والنيل، ولم يبق من هذا القصر سوى قاعة جميلة ذات سـقف ونافورة متصلة بجامع السلطان حـسن، ومدخل حمام القصـر المكسو بالرخام الملون.

ولقد سلمت لنا نماذج كثيـرة من مخلفات ذلك القصر وغيره، مـحفوظة الآن بمتحف الفن الإسلامى، منهـا تحف خشبية وأخـرى نحاسية وثالثـة خزفية وزجـاجية، فضلا عن المـنسوجات بأنواعها المختلفة.

واشتملت التحف الخشبية فـى ذلك العصر، على المنابر والكراسى، والمقاعد، والمشربيات، والصناديق، والسـقوف والأبواب، وتمتـاز كل هذه التحف بوجـود حفـريات عليهـا ذات أشكال هندسية بديعـة متداخلة فى بعضها، تتكون منهـا تراكيب بديعة رشيقة. ونشـأت فى ذلك العصر



بعض أساليب جديدة فى صناعة التحف الخشبية كتصميم الحشوات الخشبية بنوع آخر من الخشب الغالى الثمن كالأبنوس، كذلك بالعاج والصدف. ويوجد بالمتحف الإسلامى بالقاهرة نماذج كثيرة من ذلك النوع، يُعد من أجملها المقعد المأخوذ من مسجد السلطان شعبان (٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م)، المكسو بالفسيفساء الدقيقة من الأبنوس.

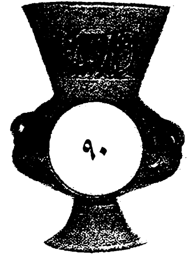
وشهد عصر المماليك ازدهار صناعة المشربيات، المصنوعة من الخشب المخروط الدقيق الصنع، والمشربيات جمع لكلمة مشربية، وهى الشرفات الخشبية ذات التقسيمات الخشبية الهندسية على نظام (الأرابيسك)، وكانت نساء القاهرة يختبئن وراءها من أعين المارة، وقد انتشر وجودها فى بيوت القاهرة آنذاك.

وشهد عصر المماليك أيضا، تطوراً فى صناعة التحف النحاسية، وذلك بتكفيتها بالذهب والفضة، ولقد كان من ضمن أسواق القاهرة آنذاك سوق تخصص فى التكفيت عرف باسم «سوق التكفيتيين»، كان الصناع فيه يكفتون المصنوعات النحاسية. وقد تميزت زخارف هذه التحف المكفتة بالنضرة والبهاء، وتظهر فيها التأثيرات الفنية الإيرانية. وكانت هذه الصناعة فى الأصل صناعة فارسية، انتقلت إلى القاهرة بعد الغزو المغولى لبلاد فارس والعراق. وقد راج فى القاهرة استعمال تلك الأوانى النحاسية المكفتة، حتى أن المقريزى أشار عن ذلك بقوله: «أنه كان لا يخلو بيت بالقاهرة من عدة قطع نحاس مكفت، ولابد أن يكون فى شورة العروس دكة نحاس مكفت».

وتوجد بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، مجموعة كبيرة من تلك الأوانى النحاسية المكفتة، التى ترجع للعصر المملوكى، بمختلف أنواعها، من صينيات وكراسى وشمعدانات ومقالم وشبابيك وأبواب، ومن أجمل هذه التحف كرسيان من عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون، يحمل أحدهما اسم صانع هذا الكرسى وتاريخ صنعه، وهو محمد بن سنقر البغدادى السنانى، سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٧م).

كذلك من أجمل هذه المصنوعات، شمعدان محفوظ بالمتحف الإسلامى بالقاهرة، صُنع بأمر من السلطان قايتباى سنة ٨٨٧هـ (١٤٨٢م)، يهدى إلى مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة.

ومن أجمل النحاسيات المكفتة المحفوظة بالمتحف الإسلامى بالقاهرة، مقلمة نحاسية مكفتة بالذهب والفضة باسم الملك المنصور محمد بن قلاوون، المتوفى سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٣م). وأيضا تنور (فرن نحاسى) باسم السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون، فوقه قبة صغيرة وهلال، مؤرخة بتاريخ سنة ٧٦٣هـ (١٣٦٢م). ولا تزال مساجد مملوكية كثيرة تحتفظ بشبابيكها النحاسية المكفتة بالذهب والفضة، كما تحتفظ بأبوابها المكفتة كأبواب مدرسة السلطان حسن، ومصرعى باب جامع السلطان برقوق.



وقد شاع فى القـاهرة فى صناعة الخزف فى العصـر المملوكى نمط صناعة الخزف الفـارسى، وهى صناعة الخزف ذى الزخـارف تحت الطلاء، دون صناعة الخزف ذى البريق المعـدنى، والمطلية باللونين الأخضـر أو الأسود. وقد ورد لنا أسماء لصناع هذا النوع من الخزف من أمثال: غزيل، وغزال، ودهين، والأستاذ المصرى. ولكل نـفر من هؤلاء قطع من آنيات مـنسوبة إليه، مـحفـوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة.

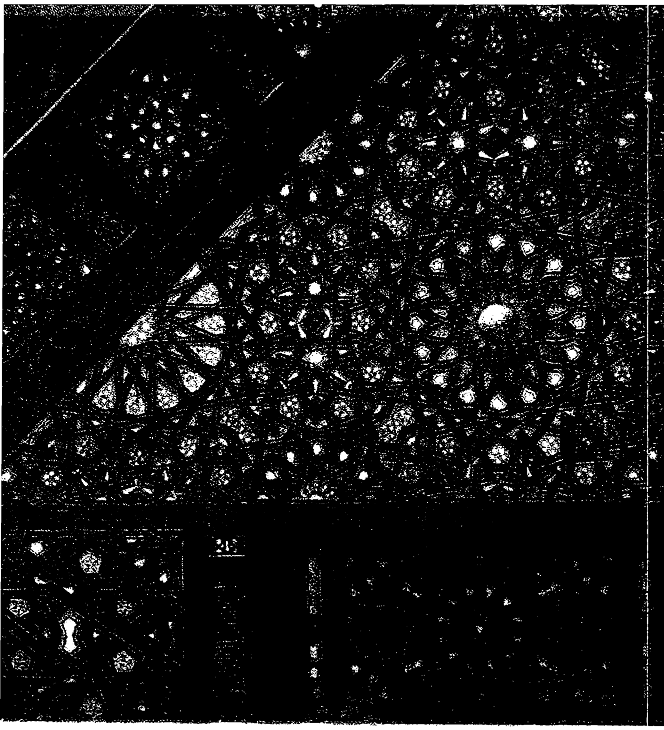
وفى نهاية القرن التاسع الهجرى (١٥م)، ظهرت فى القاهرة صناعة القاشانى، الذى تكسى به الجـدران، ومن أمثلة هذا القـاشانى قـرص مصنوع فى الـقاهرة، باسم السلطان قـايتبـاى سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦م)، أرضيته زرقاء وحروف كتابته بيضاء اللون، ونص المكتـوب عليه: «عز لمولانا السـلطان الملك الأشـرف أبو النصر قايتباى، عز نصره».

وقد راج فى القـاهرة المملوكية تصنيع القـوارير والكؤوس والأباريق والمصابيح الزجاجـية، كذلك تقـدمت إلى درجة عـالية صناعـة المشكاوات الزجاجـية. وهنالك فى المتـحف الإسلامى مجموعة طيـبة منها، تعد أكبر وأنفس مجموعة المشكاوات فى العـالم، وهى مطلية بالمينا، وعليها زخارف زهور ونبـاتات. ويرى منقوشـا على بدن تلك المشكاوات وغيرهـا من التحف الزجاجـية والخزفيـة والمعدنية رنوك (شعارات) الـسلاطين والأمراء ورؤساء الجند فى دولتى المـماليك البحرية والبرجية. كما سُطرت آيات قرآنية على كثير من هذه التحف الزجاجية والمعدنية.

وأكثـر أسمـاء السلاطين ورودًا على هذه المشكاوات اسم السلطان حـسن، الذى جلب من مسجده أكبر عدد منها، ثم الناصر مـحمد، ثم السلطان برقوق، والأشرف قايتباى، ومن الأمراء: الأمير سلار، والأمير ألماس، والأمير آقسنقر، والأمير شيخو.

أما المنسوجات، فقـد كان معظمها فى العصر المملوكى منسوجـات حريرية، عليها زخارف مطبوعة، مثل تلك المطبوعة على التحف الخزفـية والمعدنية التى ترجع إلى نفس العصر. وربما كان ذلك تقليدا للمنـسوجات الحريرية النـفيسة التى وصلت لـسلاطين المماليك بالقـاهرة من سلاطين المغول كـهدايا متـبادلة. ويوجد قلـيل من تلك المنسوجات الحـريرية والكتانيـة محفـوظة بالمتحف الإسلامى، وترجـع صناعتهـا إلى القرن السـابع الهجـرى (١٣م)، وقد جاءت الكتـابة على هذه المنسوجات بخط النسخ الشائع الاستعمال فى ذلك العهد.

وجاءت الـزخارف على هذه المنســوجات على شكل زخـارف نباتيـة وأشكال هندسيـة من مثلثات ودوائر.

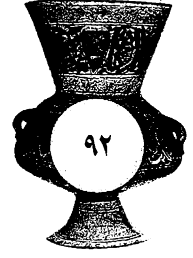


منبر مدرسة قجماش الإسحاقى ذى
الحشوات الخشبية المطعمة بالفضة

مبخرة من البرونز على شكل حيوان
خرافى صناعة فاطمية



لوحة من مخطوطة مملوكية بعنوان (نهاية
السؤال والأمنية فى علم الفروسية)





المراجع العربية:

- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.

- ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور.

- البلاذرى: فتوح البلدان.

- البلوى: سيرة أحمد بن طولون.

- الخاصكى: التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة.

- ابن الداية: المكافأة.

- ابن دقماق: الانتصار بواسطة عقد الأنصار.

- ابن زولاق: تاريخ مصر.

- ابن سعيد الأندلسى: المغرب فى حلى المغرب.

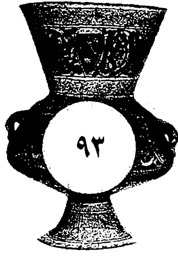
- سعيد بن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق.

- السيوطى: حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة.

- أبو شامة: الروضتين فى أخبار الدولتين.

- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك.

- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها.



- القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا.

- الكندى: القضاة والولاة.

- أبو المحاسن، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.

- المسبحى: أخبار مصر.

- المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر.

- المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.

- المقريزى: إغاثة الأمة بكشف الغمة.

- المقريزى: السلوك فى معرفة دول الملوك.

- المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

- ابن ميسر: أخبار مصر.

- ناصر خسرو: سفرنامه.

- ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب.

- ياقوت: معجم البلدان.

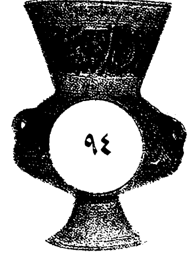
- إبراهيم راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين.

- إبراهيم على طرخان: مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة.

- أحمد دراج: المماليك والفرنج.

- آدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

- أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية.



- السيد الباز الغرينى: مصر فى عصر الأيوبيين.

- حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر.

- حسن أحمد محمود: حضارة مصر الإسلامية.

- سيد كريم: القاهرة.

- سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام.

- شحاتة عيسى إبراهيم: القاهرة، تاريخها ونشأتها.

- عطية القوصى: تاريخ مصر الإسلامية.

- عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر.

- عطية مشرفة: نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين.

- على بهجت: حفريات الفسطاط.

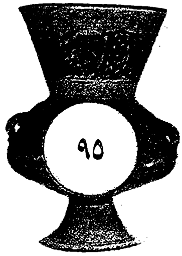
- محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر.

- محمد رمزى: القاموس الجغرافى.

- محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية.

- محمود أحمد: الدليل الموجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة.

- نعيم زكى: طرق التجارة العالمية.



المراجع الأجنبية:

- Ashtor. E: "Histoire des prix et des salaires dans L'Orient Medieval", Paris 1969.

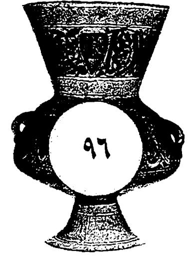
- Attiya, A. S: "Crusade, Commerce and Culture", London 1962.

- Fischel, W: "The Spice Trade in Mamluk Egypt" JESHO, V. I, London 1958.

- Lopez, R. S: "Medieval Trade in the Mediterranean World, London 1955.

- Wiet, G: "L' Egypt Arab", t. Tv, Paris 1937.





الموضوع	الصفحة

- مقدمة ١
- العواصم الأولى لمصر الإسلامية ٣
  - الفسطاط. ٣
  - العسكر. ٧
  - القطائع. ٩

القسم الأول

- تأسيس القاهرة ١٦
  - القاهرة المعزية. ١٦
  - بداية تأسيس مدينة القاهرة. ١٨
  - سور القاهرة وأبوابها. ٢٣
  - قصور الخلفاء الفاطميين ومناظرهم. ٢٦
  - المساجد الفاطمية. ٣٥
  - القاهرة فى عهد صلاح الدين الأيوبى. ٤١

القسم الثانى

دور القاهرة الحضارى فى العصر الإسلامى ٥٣

أولا: الدور الثقافى. ٥٣

ثانيا: الدور الاقتصادى. ٧٠

ثالثا: الفنون والآثار. ٨٣

- المصادر والمراجع. ٩٢
- المحتويات. ٩٦

Abstract

Cairo was established by Jawhar the Sicilian, the minister of the Fatimid Caliph Al- Muezz, to become the capital of the Fatimids after transferring their rule from North Africa into Egypt.

This book highlights the story of Cairo, involving the origin of its name, Planning, Quarters, and the names of the various tribes which settled thereat. Cairo assimilated the preceding capitals of Egypt, such as Fustat, Askar, Qatea.

Special emphasis is laid on the intellectual bloom of Cairo as reported by Al- Maqrizi, and Ibn Taghri Bardi, and other authorities.

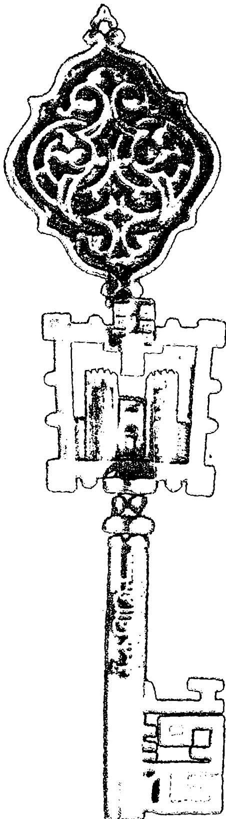
Cairo's role continued to have its impact also in the Ayyubid, and Mamluk periods, a matter that could be noticed until to-day in the relics of schools, hospitals, public baths, markets, and khans. Equally important is the fact that many textiles, jewelry, niches, and pulpips are still preserved in many museums in various parts of the world, all of which testified to the greatness of that period.

The book contains illustrations of all these glorious items, which are identical with the literary description of the contemporary sources.

Dr. Attia El - Qossi

(14)

Cairo Its Foundation, and Role in Islamic Civilization



Dr. Attia El - Qossi

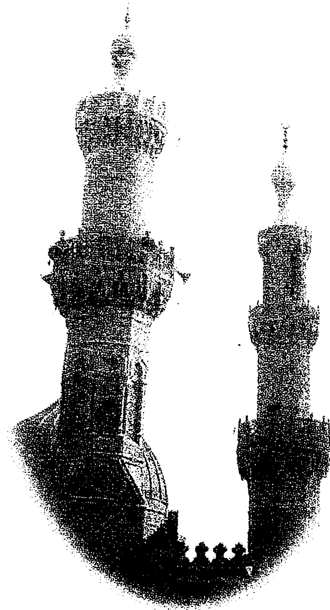
(١٥)
الأزهر الشريف
منارة العلوم
والمعارف الإسلامية

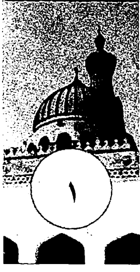
تأليف

د. عصام الدين عبد الرءوف الفقى

أستاذ التاريخ الإسلامى

كلية الآداب - جامعة القاهرة





مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين. . . يحتل الأزهر مكانا هاما فى تاريخ الفكر الإسلامى؛ لذلك تعددت الكتابة فيه، ورغم ذلك يحتاج إلى مزيد من الدراسة، وقد رأيت أن أكتب مبحثا عن الأزهر فى سلسلة الدراسات التاريخية، وحاولت بقدر الإمكان أن ألقى الضوء على الأزهر منذ تأسيسه فى العصر الفاطمى، وعبرت به القرون والعصور وهى عصور الأيوبيين والمماليك والعثمانيين وعصر أسرة محمد على ، وأبرزت دوره الدينى والثقافى والسياسى والاجتماعى، واضطررت إلى قراءة المصادر التاريخية والأدبية والدينية والكثير من المراجع، عربية وغير عربية.

ومما دفعنى إلى التأليف عن الأزهر أننى نشأت من أسرة تضم عددا من مشايخ الأزهر، ومن بينهم والدى رحمه الله، وحضرت مجالس العلماء، واستمتعت بفكرهم ومقدرتهم الأدبية واللغوية، وتأثرت بهم كثيرا؛ لذلك قمت بعمل هذا الكتاب وأنا مستمتع بهذا النوع من الدراسة.

وللأزهر سمعة كبيرة فى العالم الإسلامى، شاهدتها بنفسى، ففى بعض البلاد الإسلامية إذا أعجبهم فصاحة رجل وقوة بيانه وجمال أسلوبه وصفوه بأنه أزهرى، ولم أذهب إلى أى بلد إسلامى إلا وقابلت فيها خريجين من الأزهر، يقدرونه ويقدرون مصر التى شرفها الله به.

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى عمل هذا الكتاب الموجز.

هذا وبالله التوفيق

المؤلف

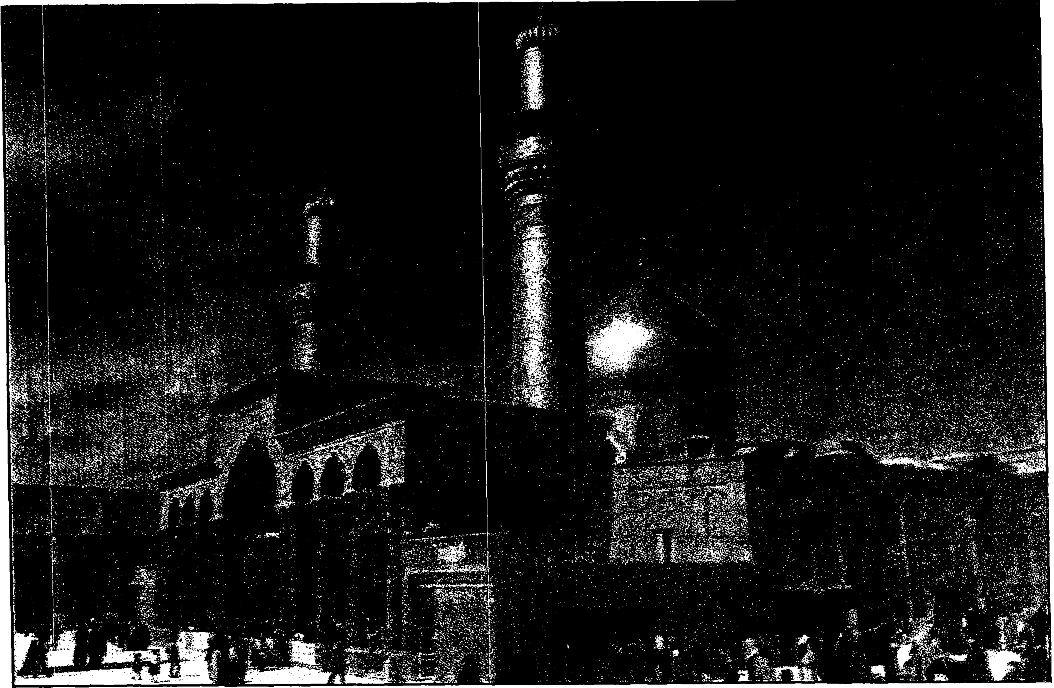
د. عصام الدين عبد الرءوف الفقى

تمهيد:

٢

يرتبط تأسيس الجامع الأزهر بالدولة الفاطمية التى شيدته فى حاضرتها - القاهرة، ويجدر بنا أن نشير إلى الخطوات التى أدت إلى قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب، ثم انتقالها إلى مصر.

الفاطميون كما يدعون - ينتسبون إلى آل بيت رسول الله ﷺ وبالذات إلى الحسين بن على ابن أبى طالب وأمه السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ.



روضة الحسين فى كربلاء

فقد عرض بعض الهاشميين ولاية أبى بكر الصديق الخلافة، وقالوا بأن عليا أولى بها من أبى بكر، لأنه ابن عم الرسول وأول من أسلم من الصبيان، وتربى فى بيت الرسول، فضلا عن أنه زوج لابنته فاطمة، وكان كاتبا للوحى، وأفضل من استوعب الدعوة الإسلامية من بيت النبوة الذى نشأ وتربى فيه.

على أن المنادين بأحقية على فى الخلافة لم يشكلوا حزبا، كما أن على بن أبى طالب، حرص على وحدة المسلمين، ولم يهتم بهذا الحزب، بل إنه ذهب إلى المسجد فى المدينة المنورة،



٣

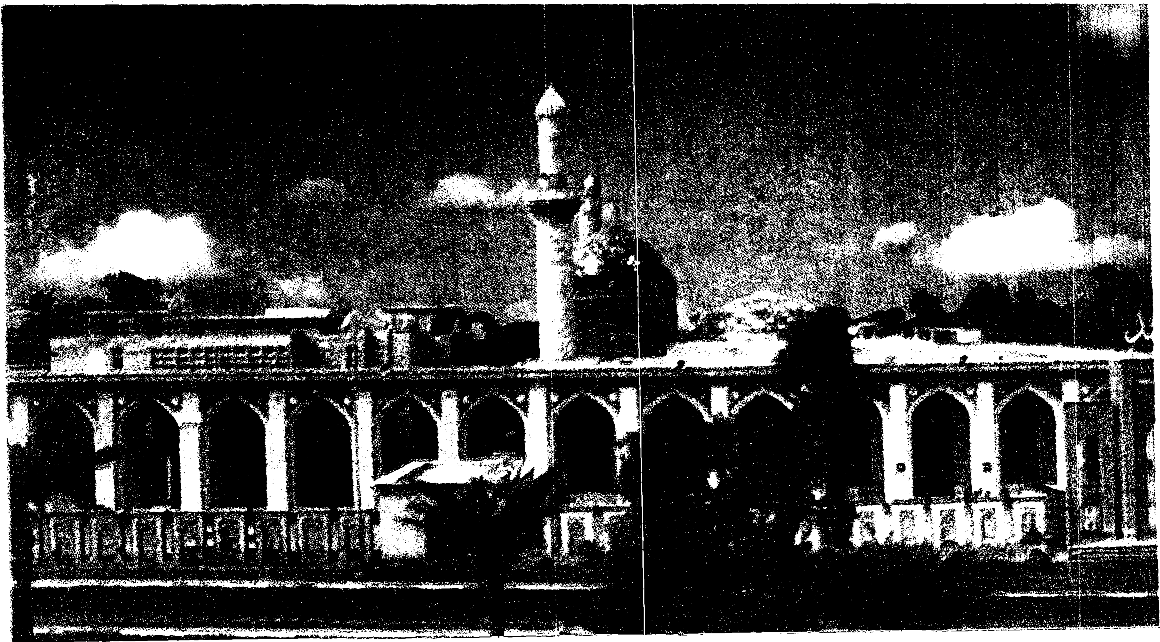


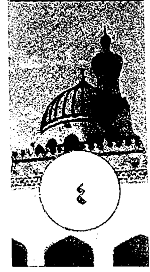
بعد وفاة زوجته فاطمة بستة أشهر من وفاة الرسول ﷺ وبايع أبا بكر أمام جموع المصلين، وقال: لقد بايعت أفضلكم، ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة، بايعه على، بل كان المستشار الأول للخليفة عمر بن الخطاب، يعتمد عليه فى الشورى، وفى المسائل الدينية، وولاه القضاء.

وكان المفروض أن يتولى علىّ الخلافة بعد وفاة عمر، ولكن مجلس الستة الذى شكله عمر بن الخطاب لاختيار من يخلفه، بايع عثمان بن عفان، وتخطى على بن أبى طالب، على الرغم من أنه المرشح الأول، لذلك حزن أنصار على، واشتدت المعارضة ضد عثمان بن عفان، وانتهت بمقتله، وبويع على بن أبى طالب بالخلافة، وبذلك تحقق آمال أنصار على بتوليته الخلافة.

ولكن الدولة الإسلامية لم تستقر فى عهد على بن أبى طالب، فقد ثار عليه معظم الصحابة، وثارت السيدة عائشة، ووضع معاوية بن أبى سفيان العراقيل أمام على بن أبى طالب، وحاربه، وانسحب بعض أنصار على من جيشه، وهؤلاء هم الخوارج، وحاربهم على، وبذلك ضعف على بن أبى طالب، وبقى فى الكوفة يمثل الصحابى الجليل الذى يرسم للناس السياسة والمنهج الذى يجب أن يتبعه المسلم فى حياته، حتى ينال رضا الله فى الدنيا والآخرة وانتهى الأمر بمقتله سنة ٤٠هـ. فالتف أنصار على حول ابنه الحسن، وبايعوه إماما، ولكن الحسن رأى أنه لا قبل له بمعاوية، فقبل الصلح مع معاوية على أن يتنازل عن حقه فى الإمامة، ومنحه معاوية صحيفة بيضاء عليها توقيعه يطلب منه أن يحدد ما يراه من شروط، وتنازل الحسن عن الإمامة سنة

مرقد الإمام على بالكوفة





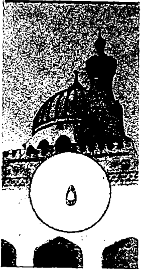
٤١هـ، وولى معاوية الخلافة وبذلك سُمى هذا العام بعام الجماعة، وهو العام الذى اتحدت فيه كلمة المسلمين بعد نزاع استمر عدة سنين.

تحول أنصار على بن أبى طالب فى خلال هذه الأحداث إلى حزب له برامج، ومن برامجه أن الإمامة يجب أن تنحصر فى آل بيت رسول الله ﷺ، ويجب على الإمام أن يخرج شاهرا سيفه ومطالبا بحقه فى الإمامة، وفعلا خرج الحسين بن على مطالبا بحقه فى الإمامة، واستشهد فى كربلاء، وقُتل الإمام زيد بن على زين العابدين بن الحسين، وقُتل يحيى بن زيد، واستشهد فى عهد بنى أمية الكثير من شباب آل بيت رسول الله ﷺ، ولكن رغم كل ذلك لم يتوقف أبناء بيت رسول الله عن المطالبة بحقهم المشروع فى إمامة المسلمين.

ومن أسباب سقوط الدولة الأموية، انتشار الدعاة فى سائر البلاد الإسلامية، لدعوة الناس إلى الانضمام إلى الشيعة فى صراعهم ضد الدولة الأموية ، وقوى هذا الحزب، وانضم إليه المعارضون للحكم الأموى، مثل الموالى والخوارج، وقامت الدولة العباسية مستغلة الدعوة الشيعية لصالحها وزعم العباسيون أنهم يطالبون بحق آل البيت فى الخلافة، وأنهم يدعون إلى الرضا من آل محمد، المهم سقطت الدولة الأموية، وقامت الدولة العباسية، وعارضها العلويون، لأنهم اغتصبوا الحكم منهم كالأمويين تماما، وقام العلويون بعدة ثورات، مثل ثورة محمد ذى النفس الزكية وأخيه إبراهيم بن عبد الله، ويحيى بن عبد الله وإدريس بن عبد الله وغيرهم ، وفشلت كل هذه الثورات، وقُتل زعماؤها والكثير من أنصارهم.

أصبح لدى الشيعة قناعة بأن الأمة الإسلامية لا يصلح أمرها إلا إذا حكمها إمام من آل البيت، واستندوا فى ذلك إلى تهيئة رسول الله ﷺ إلى على فى غدير خُم «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وظل الشيعة فى حاجة إلى إمام يعتمدون عليه فى شئونهم الدينية والدنيوية بعد أن قُتل أئمتهم من الحكام العباسيين حتى ظهر الإمام جعفر الصادق الذى توفى سنة ١٤٧هـ، وهو عالم وفقيه فى شؤون الدين وفى علوم الحكمة كالكيمياء، وقد نال تقدير معاصريه شيعة وسنة على السواء، كما أن أبناءه وحفدته، اعتمدوا على تراثه الفكرى وحرص بعض المسلمين فى الشام والعراق وإيران على التمسك بمذهبه وسموا بالجعافرة. ودخل على الشيعة أناس من حضارات مختلفة، وثقافات متنوعة لذلك أدخلوا على المذهب الشيعى أفكارا ليست من الإسلام فى شىء، وأضفوا صفات إلهية على جعفر الصادق وأئمة آل البيت.

يعتقد الشيعة أن الابن الأكبر، أحق بالإمامة بعد أبيه، وأن الإمامة لا تنتقل من أخ إلى الأخ، كما حدث للحسن والحسين، وإنما تنتقل إلى الابن الأكبر، وتنتقل فى الأعقاب على هذا النحو الابن الأكبر لجعفر الصادق ، إسماعيل، ولكن جعفرا عهد إلى ابنه موسى الكاظم بالإمامة من بعده، فغضب فريق من الشيعة لأنهم رأوا ذلك مخالفا لأصول المذهب، والتفوا حول



إسماعيل - الابن الأكبر- والتف فريق آخر حول موسى الكاظم وسموا بالموسوية، وتوارث أبناء موسى الإمامة، حتى الإمام الثانى عشر وهو محمد بن الحسن العسكرى، الذى دخل سردابا فرارا من بطش بنى العباس، وأمر قومه بإغلاق السرداب عليه، وزعم أنصاره بأنه سيخرج من السرداب قبل يوم القيامة، ليملأ الدنيا عدلا، بعد أن ملئت ظلما وجورا، وتنتشر الطائفة الموسوية أو الإثنى عشرية فى إيران وسورية ولبنان والعراق.

أما فرقة الإسماعيلية فقد التفت حول إسماعيل بن جعفر الصادق الذى توفى فى حياة أبيه، وتتضارب الروايات حول أسباب خلع جعفر الصادق لابنه إسماعيل، وخلاصة هذه الروايات أن جعفرا علم بأن ابنه إسماعيل، يشرب الخمر، ويقضى أيامه فى اللهو والعبث والفسق مع النساء، وأنه يخالط المتطرفين من الشيعة الذى ينسبون صفات إلهية للأئمة، على كل حال التف الشيعة من أنصار إسماعيل، حول ابنه محمد بن إسماعيل، وبايعوه إماما، واضطر إلى الهجرة من المدينة المنورة، والانتقال من بلد إلى بلد، خوفا من ملاحقة العباسيين له، فذهب إلى خوزستان ثم إلى بلاد الديلم، ليدعو لنفسه بالإمامة، وانتهى الأمر بوفاته فى سملا فى إيران، ودُفن فيها، وسُميت باسمه محمد أباد، وواصل الشيعة الإسماعيلية دعوتهم حتى اتجهوا إلى بلاد الشام، واختفى أئمتهم فى سراديب فى قرية سلمية بالقرب من حمص، واتخذوا من ميمون القداح وأولاده، دعاة للمذهب، فبعد وفاة محمد بن إسماعيل، خلفه عبد الله الرضى، الذى أمعن فى التخفى، وخلفه ابنه أحمد، وخلفه ابنه الحسين بن أحمد الذى كان له نشاط كبير فى نشر الدعوة الإسماعيلية، وأنفق فى سبيل ذلك أموالا طائلة، لذلك انتشرت الدعوة الإسماعيلية انتشارا واسعا فى العالم الإسلامى، وخصوصا فى اليمن وبلاد المغرب، ولما ولى عبيد الله الإمامة خلفا لأبيه، ذاع أمر الفاطميين وعُرفت أماكن اختفائهم، فاضطر عبيد الله المهدى أن يترك سلمية، وخرج مع أبنائه وأنصاره ومواليه من سلمية إلى مصر، واستطاع بالمال أن يتجنب ملاحقة العباسيين، حتى وصل إلى بلاد المغرب، وكان فى استقباله أبو عبد الله الشيعى، الذى بايعه بالإمامة بعد أن قضى على العقبات التى واجهته، وبذلك قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ .

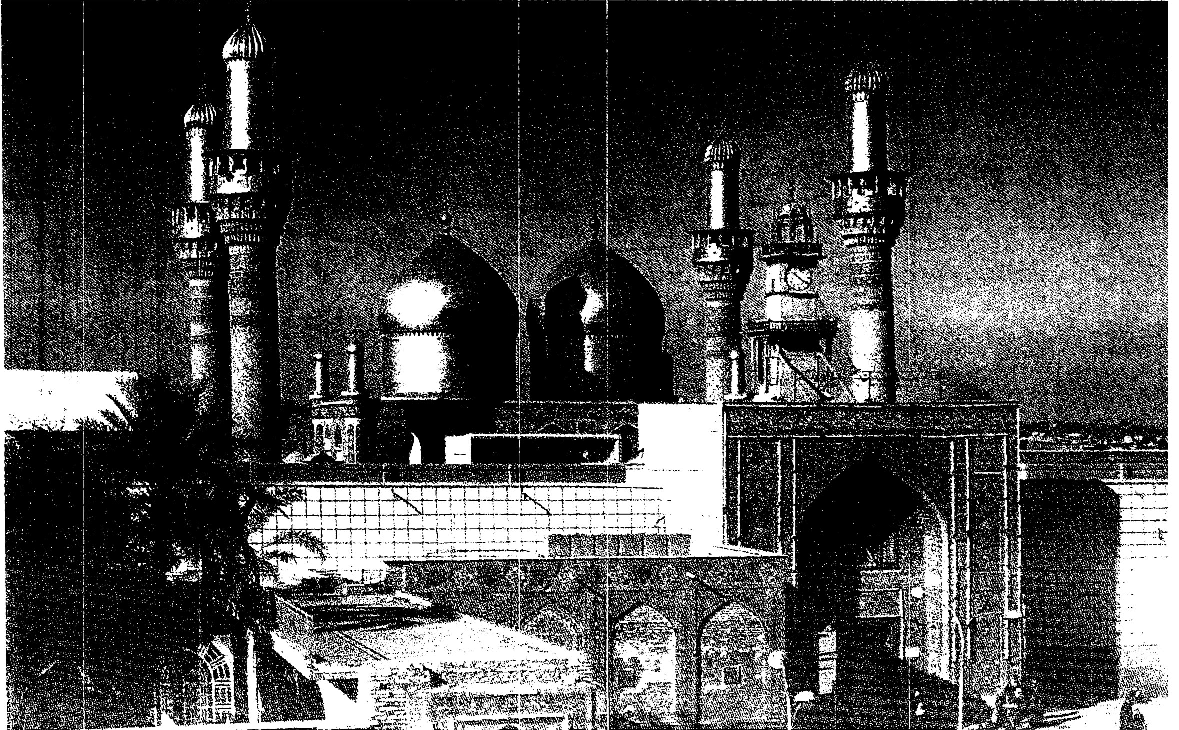
تطلع الفاطميون منذ أن أقاموا دولتهم إلى فتح مصر، وللاستقرار فيها، ونقل دولتهم إليها، لأن مصر قلب العالم الإسلامى النابض وهى قريبة من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهذا يمكنهم من السيطرة عليهما؛ والقاعدة فى تلك العصور أن الدولة التى تسيطر على الحرمين الشريفين، هى الدولة التى لها المكانة الأولى فى العالم الإسلامى، يضاف إلى ذلك أن مصر قريبة نسبيا من بغداد حاضرة العباسيين، سيمكنهم من خلال هذا الموقع قهر العباسيين والنفاذ إلى المشرق الإسلامى،

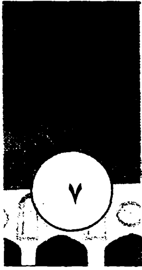


كربلاء - منظر من الجو (سنة ١٩٧٠)
يمينا: روضة العباسين، يسارا: روضة الحسين بن على الشهيد

حيث يزداد عـدد الشيعة فى فـارس وبلاد ما وراء النهر وخـراسان، ولا يفوتنا أن نذكر أن مـصر بقوتهـا الاقتصـادية، جذبت الفاطمـيين إليهـا، والمعروف أن بلاد المغـرب ظهرت بها الكثـير من الحركات المناوئه للدولة الفاطمـية فتطلع الفاطميون إلى بلاد أكثر أمنا كـمصر التى أحب أهلها آل البيت، وتطلعوا إلى حكمهم وإلى الانضواء تحت رايتهم.

الكاظمية - العراق



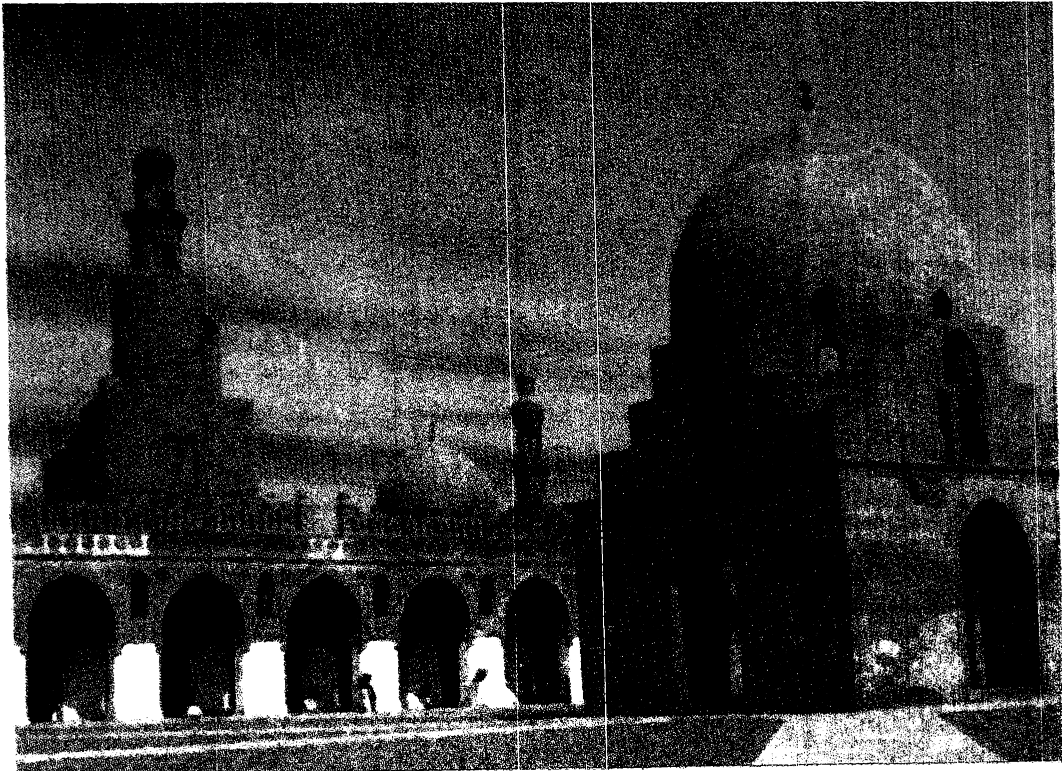


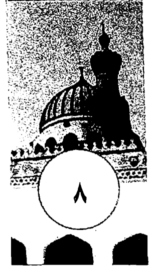
الغزو الفاطمى لمصر

كانت مصر ولاية تتبع الخلافة العباسية، واستقل بها الطولونيون استقلالا ذاتيا فى نطاق الدولة العباسية، صاحبة الحق الشرعى فى حكم العالم الإسلامى، وسقطت الدولة الطولونية، وعادت مصر ولاية عباسية، يحكمها العباسيون بشكل مباشر، وظل الأمر كذلك حتى قامت الدولة الإخشيدية فى مصر (٣٢٣هـ- ٣٥٨هـ/ ٩٤٣ - ٩٦٩م) أسسها محمد بن طغج الإخشيد، وحكم مصر وقسما من بلاد الشام، ولكنه أخطأ خطأ جسيما، حينما اعتمد على عبده الأسود كافور فى تربية أولاده - فلما توفى الإخشيد سيطر كافور على ابنه أنوجور ولم يمكنه من ممارسة حقه فى الحكم، وكذلك فعل مع على بن الإخشيد الذى خلف أخاه ، وتولى كافور حكم مصر، وخلفه أحمد بن على أبو الفوارس- آخر أمراء الدولة الإخشيدية، التى سقطت على أيدى الفاطميين سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م.

ضعفت مصر فى عهد الدولة الإخشيدية، فقد حاول بعض أمراء الشام، الاستقلال عنها، مثل محمد بن رائق، وحاول الحمدانيون السيطرة على بلاد الشام، وطرد الإخشيديين منها،

مسجد ابن طولون - الدولة الطولونية - مصر





وقـامت فى مصـر بعض الاضطرابات الداخـلية من الجند ومـن دافعى الضـرائب، وسيطر على مالية مصر الوزراء مثل الماذرائيين وبنى الفرات، الذين تعسفوا فى جمع الضرائب، وجبـوا من الناس أكثر من الضرائب المقررة ، وعـاشوا فى ترف ونعيم، بينمـا المواطن المصـرى يعيش فى بؤس وشـقـاء، وعانت مـصـر من حكم كافـور الغاشم، فـقد انخـفض ماء النيل فى عـهده الأسود وقـاست البلاد من المجـاعات والأوبئة ، ما جعل المواطن المصـرى يتمنى زوال هذا الحكم الغاشم، لذلك كان من السـهل انضمـام المصـريين إلى الدعوة الإسـماعـيليـة القادمـة من المغـرب، وتمنوا زوال العصـر الإخشـيدى، وقيام عـهد جديد يأمن الناس فـيه على حياتهم ويـجد الناس فيه الغـذاء والكساء، والحياة فى مستوى معيشى أفضل.

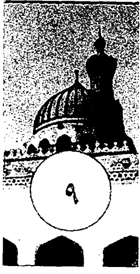
كل هذه العوامل شجعت الفاطميين على غزو مصر، والاستقرار فيها، ونقل دولتهم إليها.

ويجب أن نتتـبع خطوات الغزو الفاطمى لمصـر، حتى ندرك تماما مـدى تحقيق الفاطمـيين لأهدافهم فى حكم هذه البلاد الآمنة ذات الاقتصاد القوى، والموقع الفريد.

فى سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م أرسل عبيد الله المهدى -أول الأئمـة الفاطميين- قائدا من قواده، يقال له حباسـة، لفتح مصر، فركب هذا القائد مع جنده البحـر، واستولى على الإسكندرية، ثم زحف بجيشه إلى مـصر، فأرسل الخليفة العبـاسى - المقتدر، جيشا بقـيادة مؤنس الخادم، ودارت عدة حروب، بين الجيش العـباسى والجيش الفاطمى، هُزم حباسـة هزيمة منكرة، وقُتل من جنده الكثير. وبذلك فشل الفاطميون فى حملتهم الأولى، بينما اطمأن الخليفة العباسى إلى سلامة مصر من غزاتها الفاطمـيين، فهو لا يطيق انتزاع أعدائه الفـاطميين جزءا مهما من دولتـه المخالفة لمذهبه السنى. ومهما يكن من أمر فقد عاد حباسة بفلول جـيشه المهزوم، وأساء الإمام الفاطمى استقباله بل قتله، عقابا له على تقاعسه فى الحرب.

وعلى الرغم من هذه الهزيمة، إلا أن الخليفة المهدى الفاطمى لـم يتوقف عن تحقيق سياسته الرامية إلى غزو مـصر، ففى سنة ٣٠٧هـ/ ٩١٩م، أرسل جيشا بقيادة ابنه أبى القـاسم لغزو مصر فدخل الإسكندرية، ونفذ منهـا إلى جنوب مصر، وبلغ الأشمونية (محـافظة المنيا) وسار منها إلى داخل صعـيد مصـر، وتوغل فى الصعيـد وكتب إلى أهل مكة يدعوهـم إلى الدخول فى المذهب الإسماعيلى، ولكن أهل مكة رفضوا، لأنهم سنيون حريصون على مذهبهم.

ولم يتغاض الخليفة العباسى المقتدر، من مـحاولة انتزاع أهم بقعة من أراضيه -وهى مصر- على أيدى أعـدائه الفاطمـيين، فـأرسل جيـشا بقـيادة ، مؤنس الخـادم، ودارت عدة وقـائع بين العباسـيين والفاطميين، ولكن الـفاطميين هُزموا فى عـدة وقائع، وقُتل وأُسر القادة الفـاطميون، واستولى العباسيون على أسلحة ومعدات أعدائهم ومات الكثير من الجند الفاطمى جوعا وعطشا،



وعاد المهزومون بقيادة أبى القاسم فى أسوأ حال إلى تونس أو إفريقية، وخرج مؤنس الخادم من هذه المعركة ظافرا منتصرا، ولقَّبه الخليفة المقتدر -المظفَّر-.

لما توفى الخليفة العباسى المقتدر، أثار الأتراك الشغب فى الدولة العباسية، حتى ازدادت ضعفا وتدهورا، فانتهز الإمام الفاطمى -عبيد الله المهدى- الفرصة، وأرسل جيوشه إلى مصر سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م، وتصدى لها المصريون فى عدة حروب، انتهت بهدنة بين الفريقين، غير أن هذه الهدنة لم تطل، لأن المصريين لم يطيقوا الجند الفاطمى المغاربة الغزاة لبلادهم، وتطلعوا إلى تحرير وطنهم من هذا العدو اللدود، فحاربوهم فى عدة بلاد، وخصوصا فى الجيزة وبلبيس، ثم أوقع محمد بن طغج الإخشيد الهزيمة بالجند المغاربة، وأجبرهم على العودة من حيث أتوا، وانشغلت الدولة الفاطمية بعض الوقت عن مصر، بسبب وفاة عبيد الله المهدى، وتولية ابنه أبى القاسم الإمامة ولُقِّب بالقائم.

واصل الخليفة القائم سياسة أبيه فى غزو مصر، وضمها إلى الدولة الفاطمية، وفى سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤١م، أرسل جيشا إلى الإسكندرية ودخلها ولكن الإخشيد، هزم الفاطميين، وأجلاهم عن مصر.

رأى الخليفة القائم إقناع الإخشيد بالصلح والخضوع للدولة الفاطمية، فأرسل رسالة إلى الإخشيد، يتودد إليه، ويدعوه إلى الدخول فى الدولة الفاطمية، وخلع طاعة بنى العباس، والموافقة على ضم مصر إلى الدولة الفاطمية دون مقاومة، ومما جاء فى هذه الرسالة [شهد الله ميلى إليك، وإيثارى لك ورغبتى فى مشاطرتكم على ما حوته يمينى واحتوى عليه ملكى، وحذره من الانقياد إلى إخوان السوء من أتباعه الذين يعرقلون المصالحة والود بين الطرفين، فإن لم تجد فى نفسك المعونة على اتباع الحق ولزوم الصدق، فإننى أرضى منك بالمعونة والأمر بالطاعة فإن قبلت دعوتى إلى الصلح والطاعة فتنعم بمجازاتى ورضائى].

لم يوافق الإخشيد على دعوة القائم الفاطمى بالإذعان والطاعة له، لأنه يدرك مطامعه فى مصر والسيطرة عليها، لذلك احتج على رسول القائم، بأنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا يدرى ما فى هذه الرسالة، ولا يجوز أن يبوح عما فى نفسه إلى كاتب، إذا كان الصواب يقتضى ذلك، وأنا أتدبر الجواب فأجيب عنه، ويصل مع من أثق فيه، وأسلك من حسن الموالاة ما لم يكن أحد يسلكه من قبلى.

وأرسل الإخشيد يحاول إظهار الود إلى الإمام الفاطمى القائم فعرض عليه القائم زواج ابنه المنصور من ابنته، فوافق القائم. ولكنه أرسل ردا يؤكد فيه ضم مصر إلى دولته. قال: قد قبلت ما بذلت، وهي وديعة لنا عندك، وقد منحناها من بيت مالنا عندك، مائة ألف دينار.

lم يتم هذا الزواج، لأن كتاب القائم، يدل على أن هذا الأخير اعتبر مصر تابعة له، ولابد للإخشيد تأدية الأموال إليه، ومع ذلك فإن الإخشيد، فضَّل التبعية للخلافة العباسية الضعيفة بدلا من الخلافة الفاطمية القوية الفتية.

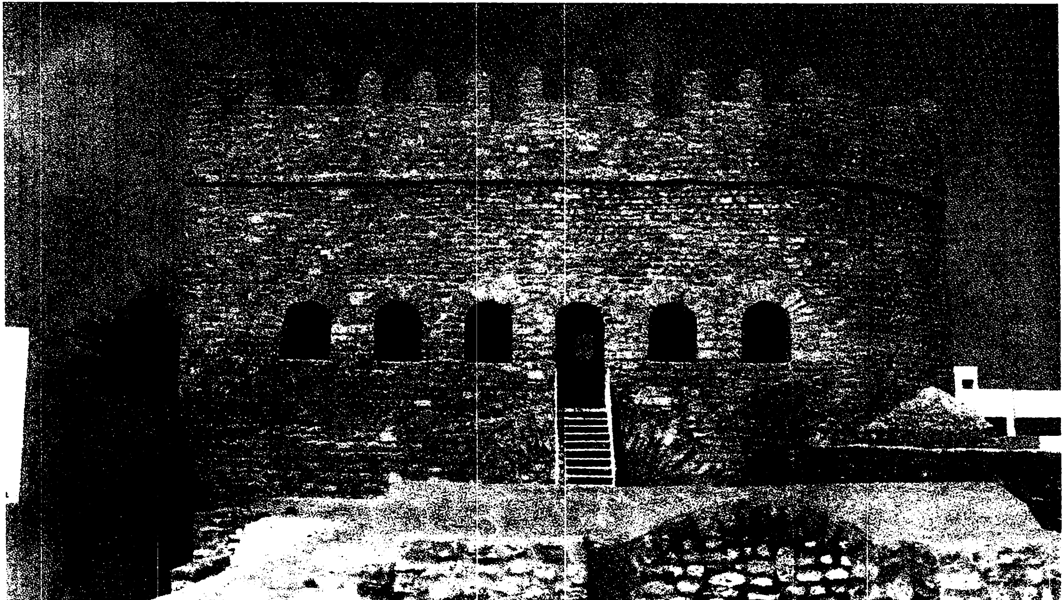
لم يعمل الخليفة الفاطمى المنصور على مواصلة سياسة سلفه القائم فى ضم مصر إلى دولته، بسبب انشغاله فى قمع الثورات العديدة التى قامت ضده فى بلاد المغرب.

لما ولى المعز لدين الله الفاطمى الحكم، راقب الأوضاع السياسية والاقتصادية فى مصر، فوجد أن مصر قد ضعفت فى عهد أنوجور الإخشيدى، ومن بعده العبد الأسود كافور، لذلك انتشر الدعاة الإسماعيليون فى مصر، ودخل العديد من المصريين فى الدعوة الإسماعيلية، رغبة منهم فى استبدال حكم ضعيف، بحكم قوى، يعيد الأمن والسلام والرخاء إلى البلاد.

حرص كافور الذى ولى مصر، على تحسين علاقته بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية كذلك، فكان يهادن المعز فى المغرب وفى نفس الوقت يظهر الولاء والطاعة للخلافة العباسية، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء.

ومع ذلك أرسل المعز لدين الله الفاطمى، جيشا إلى مصر استولى على واحاتها، ولكن كافور، أرسل جيشا هزم الجند الفاطمى وأجلاهم عن مصر، وأرسل المعز رسلا ودعاة إلى مصر لدعوة كافور الإخشيدى للدخول فى الدعوة الفاطمية الإسماعيلية، فراوغهم ولم يعطهم جوابا واضحا، على حين دخل فى الدعوى الفاطمية، الكثير من كبار رجال الدولة فى مصر.

باب زويلة - بمدينة المهدية التى أنشأها عبيد الله المهدى



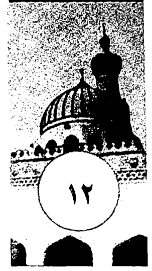
جامع عمرو بن العاص - الفسطاط - مصر

لما توفى كافور الإخشيدى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م ، اضطربت مصر وعم فيها القحط والوباء، وتدهورت ميزانية الدولة حتى عجزت عن تسديد رواتب الجند والموظفين، والإنفاق على ما تتطلبه أوجه الإنفاق، وفقدت الحكومة الإخشيدية، السيطرة على البلاد، واختل الأمن والنظام، وعجزت الدولة عن جمع الضرائب من الناس، وهرب كبار الموظفين من مصر، مثل يعقوب بن كلس، الذى لجأ إلى المعز فى المغرب، ولحق به بعض وجهاء مصر وأعيانها، وحرضوا المعز على الإسراع بغزو مصر، وإنقاذها من حالة الفوضى التى تعانى منها، وتخليصها من حكامها الضعاف الذين جعلوا أهل مصر، يعيشون فى بؤس وشقاء.



هبة الله الشيرازى - تمثال فى إيران

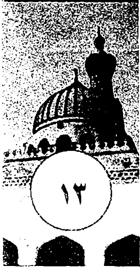
كان الخليفة الفاطمى المعز، يرى أن جوهرا خير من يصلح لغزو مصر، فقبل خروجه -أى جوهر- إلى مصر،



عقد المعز معه عدة لقاءات سرية، لتحديد السياسة التى يجب اتباعها فى الاستيلاء على مصر، وقال المعز لكبار قادة جيشه: لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، وليدخلن مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن خرائب ابن طولون، وتُبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا.

مهد الفاطميون لغزوهم مصر، واعتمدوا فى نشر الدعوة الإسماعيلية على كثير من المصريين، وأنفذ المعز إلى دعاته بنودا لتفريقها على من يبايعه من الجند، وأمرهم إذا اقترب الجند الفاطمى من مصر، ينشرونها بين الناس، وكان الدعاة يقولون : إذا زال الحجر الأسود -أى كافور- ملك مولانا المعز مصر كلها وبيننا وبينكم الحجر الأسود. ومات كافور، وزحف الجيش الفاطمى إلى مصر، واستولى على الإسكندرية، وزحف إلى داخل مصر، فجمع الوزير ابن الفرات كبار أهل مصر وشاورهم، فاتفقوا على مراسلة جوهر، وعرضوا عليه السمع والطاعة بشروط تأمين الناس على أموالهم وممتلكاتهم، وتوسط فى الصلح، الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى وأبو إسماعيل الرسى ، وجماعة من العلماء والأعيان، ووافق جوهر على شروط التسليم، وكتب لهم عهد الأمان، ويتضمن : «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من جوهر الكاتب، عبد الله أمير المؤمنين المعز لدين الله الفاطمى صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها وغيرهم، أنه قد ورد من سألتموه التوسل والاجتماع معى . . . وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانكم فى أنفسكم وأموالكم وجميع أحوالكم، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين -صلوات الله عليه- وحسن نظره لكم، فلتحمدوا الله على ما أولاكم، وتشكروه على ما حباكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسلامة لكم وبالسعادة عليكم، وهو أنه صلوات الله عليه، لم يكن إخراجه العساكر المنصورة، والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم».

وتعهد المعز فى كتابه بنشر الأمن فى البلاد، ومنع الغش فى العملة، والمحافظة على ممتلكات الناس وأموالهم وأعراضهم وتعمير المساجد، وتزيينها بالفرش الضخمة والإبقاء على مذهبهم، والمحافظة عليه، وأداء الرواتب للمؤذنين والأئمة والوعاظ والقراء فى المساجد، وإبقاء الناس يؤدون شعائرهم الدينية فى الصلاة والصيام والحج والزكاة ، كما تعودوا، واتباع سنة الرسول ﷺ والصحابة والسلف الصالح، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه، وعليكم أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتؤكد على الأيام، وكرور الأعوام فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ورباعكم. ولا يعترض طريقكم معترض ولا يتجن عليكم متجن، ولا يتعقب عليكم متعقب وعلى أنكم تُصانون، وتُحفظون، وتُحرسون، ويُذب عنكم.

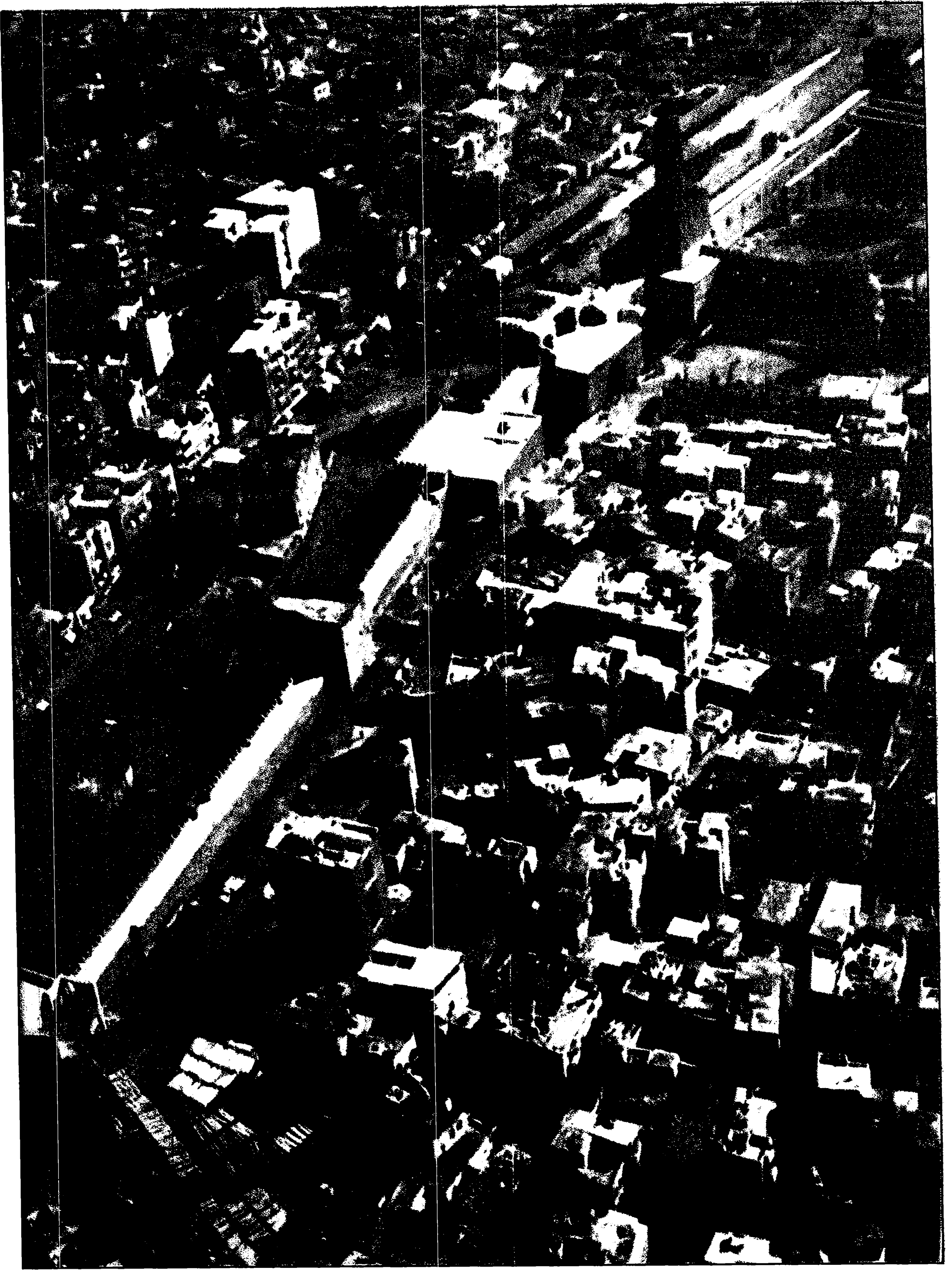


واطمأن الناس إلى هذا الأمان، وعادت الحياة إلى وضعها الطبيعى وأصبحت مصر بذلك ولاية فاطمية.

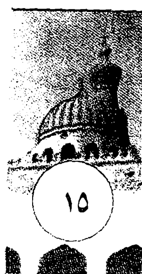
حدثت عدة مناوشات ضد الغزو الفاطمى، تغلب عليها جوهر، ولما استقر جوهر فى الفسطاط، ومعه صناديق المال التى وجهه المعز بها إلى مصر، أرسل المنادى إلى شوارع البلدة وأسواقها ينادى المحتاجين إلى التوجه إلى الدار الذى ينزل به، فاجتمع خلق كثير من المحتاجين والفقراء والمساكين فى جامع عمرو بن العاص وفرّق جوهر فيهم الأموال، فانصرفوا راضين سعداء متفائلين من العهد الجديد.

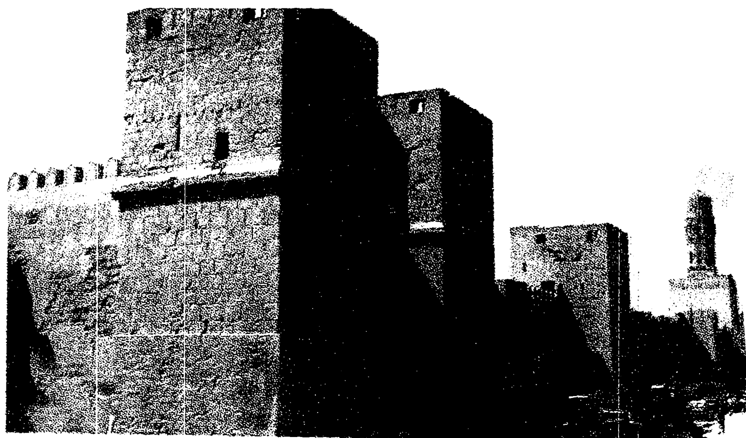
القاهرة حاضرة الفاطميين

وفى أول صلاة جمعة بعد الفتح، ألقى الداعية هبة الله الشيرازى خطبة الجمعة، ولم يدع لبنى العباس، كما كان الحال من قبل -بل دعا للمعز لدين الله الفاطمى بقوله (اللهم صل على عبدك ووليك، ثمرة النبوة وسليل الأسرة الهادية المهدية، عبيد الله الإمام معد أبى تميم- المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه -الطاهرين وأسلافه الأئمة- اللهم ارفع درجته وأعل كلمته، وأوضح حجته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته وصحبته، واجعل الرشاد فى موافقته، ووله مشارق الأرض ومغاربها وامدده بمبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول وقولك الحق). بعد أن دانت مصر بالولاء والطاعة للدولة الفاطمية، ضرب جوهر الدينار المعزى، وقام بإسناد المناصب الرئيسية فى الدولة إلى رجال من أتباعه وأنصاره، وصادر أموال الجند الكافورية والجند الإخشيدية، وقتل المتمردين منهم، وأبقى على من سالمه وأقر جعفر بن الفرات على الوزارة -وكان وزيرا فى أواخر أيام الدولة الإخشيدية، وأزال جوهر، السواد - شعار العباسيين ولم يدع عملا إلا وجعل فيه مغربيا شريكا للعامل المصرى. وقرر للأذان بحى على خير العمل بدلا من الصلاة خير من النوم، وألغى التكبير بعد صلاة الجمعة، وأصبحت مصر ولاية فاطمية، ومذهبها الرسمى، هو المذهب الشيعى بدلا من المذهب السنى.



سور القاهرة الفاطمية – ويظهر مسجد الحاكم – صورة من الجو سنة ١٩٦٩





باب النصر ومن بعيد
مئذنة جامع الحاكم



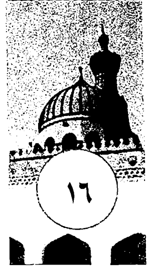
باب الفتوح - القاهرة الفاطمية



جامع الحاكم - القاهرة الفاطمية



باب زويلة



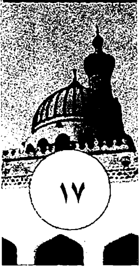
كان لابد لجوهر الصقلى أن يختط لمصر، حاضرة جديدة -بعد الفسطاط والعسكر والقطائع بناءً على تعليمات سيده المعز لدين الله الفاطمى؛ لأن الفسطاط، تقادم بها الزمن، كما أنها معقل السنة، أما الحاضرة الجارى تأسيسها، فهى مقر المذهب الشيعى والسيادة الفاطمية، ومذهبها الإسماعيلى، وحرص الفاطميون على أن تكون الحاضرة الجديدة، مدينة ملوكية، يقيم فيها الخليفة ووزراؤه ومواليه ورجال دولته، وقادة جنده، والجيش المغربى والمغاربة -حماة دولته- والأمراء والدعاة وشيوخ المذهب الإسماعيلى. وتبقى الفسطاط -حاضرة ثانية- يقيم فيها العمال والموظفون وعامة الناس والتجار والفقهاء وطلاب العلم، وأئمة وشيوخ المذاهب السنية.

بعد أن عبر جوهر الصقلى وجنده الجيزة، نزلوا موقعا يقال له المناخ وهو الموضع الذى حدده له سيده المعز لدين الله الفاطمى، لبناء الحاضرة الجديدة، وشرع جوهر فى تشييد حاضرته الجديدة، وأول عمل قام به بناء قصر للخليفة، وكان ذلك فى يوم السبت جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م فى ليلة مباركة وساعة سعيدة، وحدد جوهر الصقلى لكل قبيلة خطة تقيم فيها وتشيد بيوتها بها. وعُرفت الخطة باسم القبيلة التى نزلت بها، فاختطت زويلة، الخطة التى عُرفت بها، واختطت جماعة من برقة، الحارة البرقية، واختطت الروم حارتين: حارة الروم، وحارة الروم الجوانية، قرب باب النصر، وحصَّن جوهر الحاضرة الجديدة، لصد الأعداء القرامطة، وأحاط المدينة الجديدة بسور، وتضمنت المدينة الجديدة قصرا ومسجدا بالإضافة إلى خطط القبائل، وجعلها أشبه بالحصن الذى لا ينعزل فيه عساكره، وأقام فى الناحية الشمالية من المدينة، خندقا لحمايتها من غارات الأعداء، وللمدينة الجديدة أربعة أبواب، ففى الجهة القبلية التى تؤدى إلى الفسطاط -بابان، وهما بابا زويلة، وفى الجهة البحرية- وهى المؤدية إلى عين شمس - باب النصر، وهو فى الرحبة أمام المسجد الحاكمى، والباب الآخر، هو باب الفتوح، وفى الجهة الشرقية التى تؤدى إلى جبل المقطم، بابان، أحدهما يعُرف الآن باب المحروق، والآخر يقال له باب البرقية.

وفى الجهة الغربية من المدينة الجديدة -وهى المطلة على الخليج- بابان أحدهما باب سعادة، والآخر باب الفرج، وباب ثالث يُعرف بباب خوخة.

وتشتمل المدينة الجديدة على قصرين، الأول القصر الشرقى الكبير وأُعد سكنا للخليفة ولحرسه، وموضع جلوسه، ويدخل منه العساكر ورجال الدولة، وفيه الدواوين وبيت المال وخزائن السلاح وغيرها وزاد المعز فى القصر الذى شيده جوهر، وكذلك من جاء بعده من الخلفاء.

والقصر الآخر تجاه هذا القصر، ويعرف -القصر الغربى. ويشرف على البستان الكافورى، ويحيط به عدة بساتين تمتد إلى أرض اللوق، ويعرف القصران وما يحيط بهما من قصور صغيرة بالقصور الزاهرة.



ومن أعظم أبواب القصر الكبير، باب الذهب، يشرف منها الخليفة فى أوقات محددة من طاقات على حاضرة دولته. ويؤدى باب الذهب إلى باب البحر، وهو الباب الذى عُرف فيما بعد، باب بشتاك، ومن الأبواب، باب العيد، وأمامه رحبة تُعرف برحبة العيد، يعسكر فيها جند كثيرون، وخصوصا فى العيدين، وتوجد فى الرحبة، خزانة البنود، والطريق ممهد من خزانة البنود إلى قصر الشوك، ويوجد طريق من باب الشوك إلى باب الديلم موضع المسجد الحسينى الآن، وبين قصر الشوك وباب الديلم رحبة عظيمة، تُعرف برحبة قصر الشوك، أولها من رحبة خزانة البنود، وآخرها موضع المسجد الحسينى الآن، ومن موضع المسجد الحسينى، رحبة تؤدى إلى تربة الزعفران، وهى مقابر أهل القصور الفاطمية من الخلفاء والأمراء والموالى والنساء وأولادهم - وهو موضع خان الخليلى الآن- وبين تربة الزعفران وباب الديلم، أرض الخوخ التى يمر بها الخليفة ورجال دولته من قصره إلى الجامع الأزهر.

وبجوار رحبة العيد، دار الضيافة، وكان جامع الحاكم بأمر الله خارج القاهرة، وبجوارها خزانة الغلال، وإلى غربى الجامع الأزهر، حارة الديلم وحارة الأتراك وحارة الباطلية، وعدد من الخزائن، مثل خزائن الكتب وخزائن البنود، وخزائن السروج، وخزائن الكسوات ودار الفطرة إلى جانب عدد كبير من الخزائن شرقى القاهرة

أما القصر الغربى، فموضعه المارستان المنصورى إلى جوار حارة برجوان، وبين هذا القصر، وبين القصر الشرقى الكبير، فضاء يعسكر فيه عشرة آلاف جندى بين فارس وراجل، يقال له بين القصرين، وبجوار القصر الغربى، الميدان، وهو الموضع الذى يعرف بالخرنشف، واصطبل الكارمة، وبحذاء الميدان البستان الكافورى المطل من غربيه على الخليج الكبير، وبجوار المواضع الثلاثة، حارة برجوان، ويقابل حارة برجوان، المنحر وفيما بين المنحر ودار برجوان، سوق أمير الجيوش، وهو من باب حارة برجوان الآن إلى باب الجامع الحاكمى، ويجاور البستان الكافورى، خيول الخليفة، وفى هذا الأصطبل بئر زويلة ويجاور سوق السراجين، ومن ناحية باب الخوخة دار الوزير يعقوب بن كلس، وصارت بعده، دار الديباج، ويتصل دار الديباج بالحارة الوزيرية، وبجوار الدار الوزيرية، الميدان الآخر إلى باب سعادة، ويحد القاهرة شرقا، الفسطاط، ويقع جبل المقطم خارج باب زويلة.

سُميت القاهرة أولا المنصورية، نسبة إلى الخليفة المنصور -والد المعز لدين الله. وظلت تسمى بهذا الاسم حتى قدم المعز لدين الله مصر سنة ٣٦٢هـ/٩٧٣م، فأطلق عليها القاهرة، لأنها تقهر أعداءها من العباسيين وغيرهم، وروى المقريزى فى كتابه «اتعاظ الحنفا» أنها سُميت بهذا



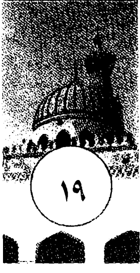
الاسم، لأن المعز قال لجوهر فى المغرب وهو يودع شيوخ كتامة: لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر، ولينزلن فى خرابات ابن طولون ويبنى مدينة، تسمى القاهرة، تقهر الدنيا.

وكانت القاهرة وقت إنشائها - تحد من الشمال بباب النصر ومن الجنوب بموقع باب زويلة وما يليه، وتحد شرقا بباب البرقية وباب المحروق، المشرفين على جبل المقطم، وتعرف هذه المنطقة فى أيامنا بالدراسة، وتحد غربا بباب سعادة وما يليه حتى شاطئ النيل.

تأسيس الجامع الأزهر

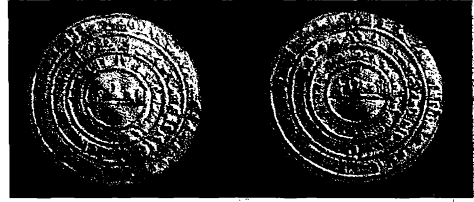


الجامع الأزهر والقاهرة الفاطمية



كان لا بد لجوهر الصقلى -وهو يؤسس مدينة القاهرة- أن يتخذ لها مسجدا جامعا، لتأكيد صفتها الدينية، وليكون مركزا لنشر المذهب الشيعى، ودراسة العقيدة الإسماعيلة، ذلك أن جامع عمرو بن العاص العتيق، كان مركزا لشيوخ السنة، وتُعقد فيه حلقات لتدريس الفقه السنى.

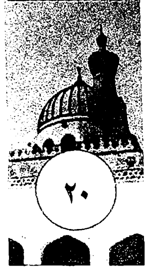
شرع جوهر فى إنشاء الجامع الأزهر، بعد أن اختط القاهرة وفتح مصر نيابة عن سيده المعز لدين الله، وبدأ بناء المسجد فى يوم السبت من جمادى الآخرة سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م، وتم بناؤه فى التاسع من رمضان سنة ٣٦١هـ/ ٩٧١م، وكتب بدائر القبة التى فى الرواق الأول وهى على يمين المحراب والمنبر ما نصه بعد البسملة: أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى. وذلك فى سنة ستين وثلاثمائة وأقيمت أول صلاة جمعة فى الأزهر سنة ٣٦١هـ، ثم إن العزيز بالله الفاطمى، جدد فيه أشياء سنة ٣٧٨هـ.


دينار ذهبى للخليفة المعز

ويقابل الداخل إليه من الجهة البحرية، بابان متجاوران، يعرفان ببابى المزينين (يواجهان ميدان الأزهر الآن).

حدد الحاكم بأمر الله وقفا لعمارة الجامع الأزهر، واحتياجاته وحدد قدرا من الدنانير المعزية، ينفق جزء منها للخطيب بالجامع وحدد للمسجد ألف ذراع حُصْر، تكون عدة له، بحيث لا تنقطع حصره، ومن الوقف نفقات خزائن وكراسى المصاحف، ولكسوة هذا الجامع


باب خشبى بحشوة زخرفية من الأزهر فى العصر الفاطمى

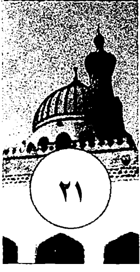


عند الحاجة إليها، مائة دينار وثمانية. ومن ذلك الثمن، ثلاثة قناطير عود هندى وبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك مع أجرة الصانع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة الخياطة وفحم البخور، ويُحدد ثمن أردبين ملحا لـلقناديل، والسلاسل والقباب التى فوق سطح الجامع، وما تحتاجه القناديل، وحُددت أموال لشراء خرق لمسح القناديل، وأزيار يُصب فيها الماء يوميا، وأجرة العمال الذين يقومون بذلك، ويُجرى من الوقف أرزاق الأئمة والمؤذنين والمشرف والعاكفين فى المسجد، وحُدد فى الوقف أجور العمال الذين يقومون بتنظيف المسجد وكنسه، وإزالة القاذورات منه، وأجرة التبن والعلف المودعة فى خزائن الجامع لإطعام البقر الموجود حول المسجد، وأجرة العلاَّف والسَّقاء وخادم الميضأة .

وهذا الوقف لم يترك صغيرة ولا كبيرة من احتياجات الجامع، إلا حدد أجرها.

ظل الجامع الأزهر يلقى كل رعاية من الفاطميين من حيث عمارته وتجديده وترميمه، فلم يأل الحاكم بأمر الله جهدا فى سبيل تجديد أبنية المسجد، وجدد فيه الخليفة المستنصر، وأنشأ فيه الخليفة الآمر محرابا وقد زخرف بنقوش نباتية وهندسية، ويعلو المحراب لوحة مكتوب عليها بالخط الكوفى ما نصه [(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين- إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) . أمر بعمل هذا المحراب المبارك برسم الجامع الأزهر الشريف بالمعزية القاهرة، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، ابن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين ابن الإمام المستنصر أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين وعلى آبائهم الطاهرين بنى الهداة الراشدين وسلم تسليما إلى يوم الدين فى شهور سنة تسع عشرة وخمسمائة].

وأنشأ الخليفة الحافظ فى المسجد، مقصورة تجاور الباب الغربى الذى فى مقدم باب الجامع بداخل الرواقات، عُرفت بمقصورة فاطمة نسبة إلى السيدة فاطمة الزهراء التى ظهرت فى المنام لأحد الصالحين المقيمين فى المسجد، وغيَّر الحافظ من معالم الجامع الأصلى فزاد فى مساحة الأروقة سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م، وأضاف إلى الصحن رواقا يحيط من جهاته الأربع، وأقام على رأس المجاز، قبة، لاتزال قائمة إلى اليوم، بها نقوش بارزة بالكتابات الكوفية وكلها آيات قرآنية من أول سورة يس وآية الكرسى، وبعض الآيات الكريمة.



الحركة الثقافية فى الأزهر فى العصر الفاطمى

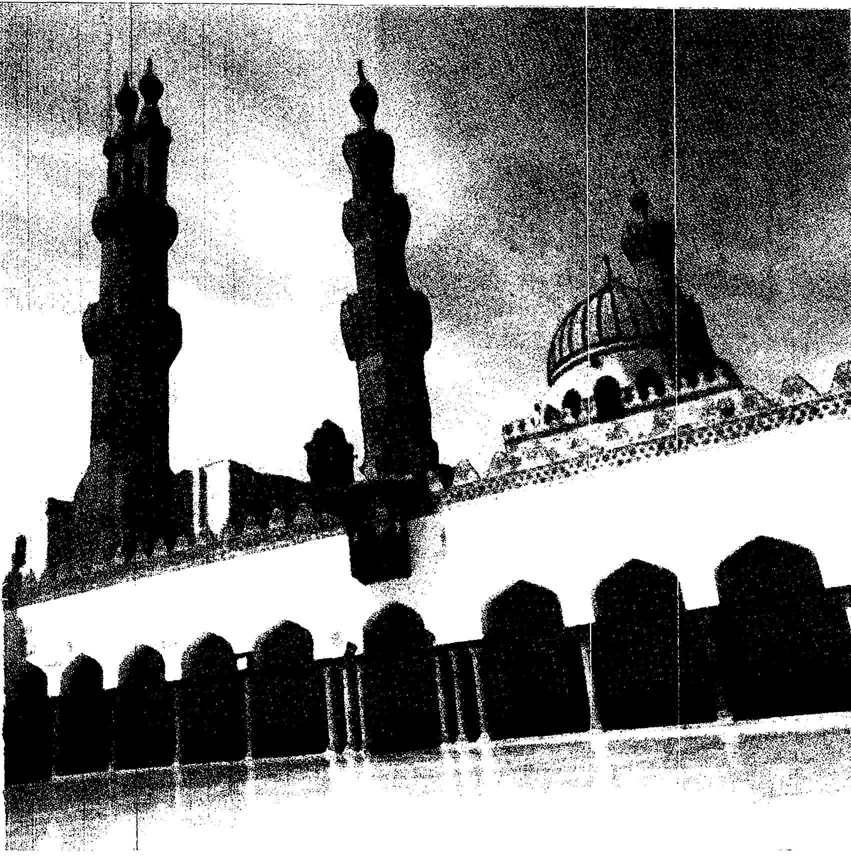
حرص الفاطميون منذ أن حكموا مصر على نشر مذهبهم الإسماعيلى؛ لذلك حولوا الجامع الأزهر -بعد إنشائه- إلى جامعة يُدرَّس فيها علوم الدين واللغة، وأهم العلوم التى كانت تُدرَّس فى الجامع الأزهر، الفقه الإسماعيلى، وقام الجامع الأزهر بهذا الدور فى العصر الفاطمى، حيث قام قاضى القضاة أبو الحسن على بن النعمان المقرى، بشرح كتابه (الاقتصار) الذى صنَّفه أبوه ويشتمل على مسائل فقهية، اقتبسها من أقوال وتراث أئمة آل البيت. وكذلك جلس أخوه عبد الله محمد بن النعمان فى الجامع الأزهر سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م للتدريس.

أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتكثيف حلقات العلم فى الأزهر، فعهد الخليفة إلى خمسة وثلاثين رجلا من الفقهاء والعلماء بالتدريس فى الجامع الأزهر، الفقه الإسماعيلى وعلوم اللغة والأدب، فكانت تُعقد حلقات العلم فى الأزهر من بعد صلاة الجمعة حتى صلاة العصر، ورتَّب الخليفة العزيز لهؤلاء العلماء والفقهاء رواتب شهرية ثابتة وأنشأ لهم مساكن بجوار الجامع الأزهر.

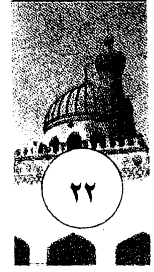
ومن أبرز علماء وفقهاء المذهب الإسماعيلى أبو حنيفة النعمان، قدم إلى مصر هو وأولاده فى ركب الخليفة المعز. والنعمان من أكثر علماء المذهب الإسماعيلى علما. وله فى الفقه الإسماعيلى عدة مؤلفات، منها دعائم الإسلام فى ذكر الحلال والحرام، وله كتاب (القضايا والأحكام) واستغل النعمان تفقهه فى المذهب الإسماعيلى فى إضافة ركن جديد إلى أركان الإسلام الخمسة، وهو الولاية، وتعنى حب آل البيت.

وكتاب (دعائم الإسلام) مرجع لعلماء المذهب الإسماعيلى حتى أن الوزير يعقوب بن كلس، خذا حذو أستاذه النعمان فى كتابة رسالته المسماة (الوزيرية) التى كان يقوم بتدريسها أيضا فى الجامع الأزهر فى مواعيد ثابتة، وقد أشاد حميد الدين الكرمانى -داعى الحاكم بأمر الله فى فارس -بمؤلفات القاضى النعمان وبالرسالة الوزيرية، وذلك فى كتابه (راحة العقل) وجعل كتاب القاضى النعمان فى المرتبة التى تلى القرآن الكريم والحديث الشريف.

والخلاصة أن الأزهر طوال العصر الفاطمى شهد دراسات علمية فى كل علم وفن حتى قيل إنه سُمى بالأزهر لازدهار العلوم فيه.



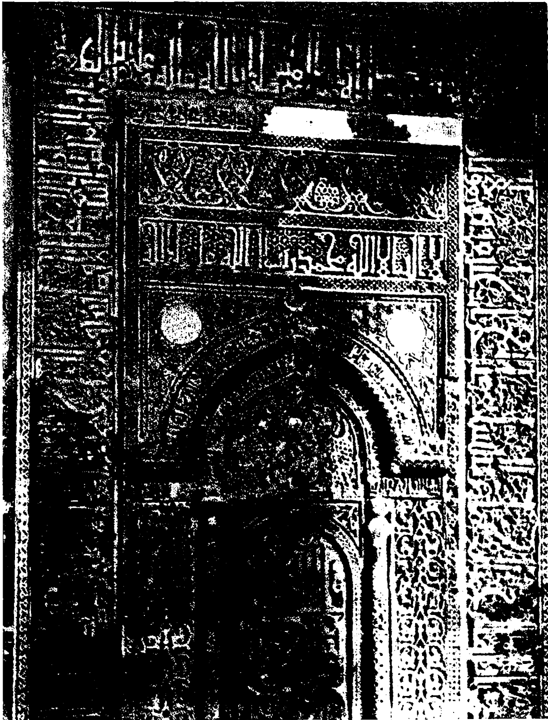
صحن الجامع الأزهر



وكانت مجالس الدعوة أو الحكمة -كما كانوا يسمونها- تُعقد عادة في يومي الإثنين والخميس، وتُعقد حسب طبقات الناس فللعوام مجلس ولخاصة الناس مجلس ولشيوخ الناس مجلس ولرجال الدعوة مجلس ولخدم القصور مجلس وللنساء مجلس ولطلاب العلم مجلس وللعلماء مجلس.

ولهذه المجالس كتب تصدر عنها، يبيعونها للناس بعد عرضها على الخليفة، وللشيوخ الذين يلقون هذه الدروس رواتب من بيت المال.

أي أن الأزهر منذ تأسيسه، تحوَّل إلى جامعة - هي أقدم وأول جامعات العلم- جامعة علمية يجتمع فيها الطلاب حول شيوخهم يتلقون منهم العديد من العلوم -كما سنرى- ولم يقتصر دور الأزهر العالمي على مصر فقط، بل أقبل عليه الطلاب من أنحاء العالم الإسلامي، واهتم الفاطميون بالمكتبات وقد وصفها



محراب جامع الأفضل بن بدر الجمالي - الوزير الفاطمي-



المقريزى. بحيث يحضر الطالب دروسه فى الجامع الأزهر، ثم يقرأ ويتزود بالمعرفة من خزائن الكتب فى دار الحكمة أو دار العلم. وسنلاحظ أن الدراسة فى الأزهر لم تقتصر على علوم الدين واللغة، بل تعدتها إلى العلوم العلمية كالطب والرياضة.

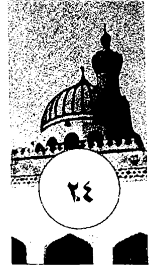
أنشأ الحاكم بأمر الله، دار الحكمة، لتكون مركزا لتدريس العلوم العلمية، كالطب والهندسة والفيزياء والرياضيات، وهى متممة للجامع الأزهر الذى تقتصر دروسه فى الأعم الأغلب على علوم الدين واللغة، وأدى تنوع الدراسة فى دار الحكمة إلى إقبال الدارسين عليها من العالم كله، أمثال ناصر خسرو -الرحالة الإسماعيلى- والحسن الصباح الذى أسس دولة الإسماعيلية فى آلموت جنوب بحر قزوين.

ظلت دار العلم الملحقة بدار الحكمة، مقصد طلاب العلم، لتعدد وتنوع ما فى خزائنها من كتب، حتى أغلقها الأفضل بن بدر الجمالى، بعد أن تسلل إليها بعض أفراد الطائفة البديعية التى تدعو إلى العودة إلى السنة بدلا من المذهب الإسماعيلى، وآمن بهذه الدعوة الكثير من المترددين على دار العلم وأعادها الخليفة الآمر، غير أن المستنصر بالله الفاطمى أغلقها بعد أن تعرضت للنهب فى أيام الشدة العظمى (المجاعة بسبب انخفاض ماء النيل) (١٠٦٤-١٠٧١م ٤٥٧-٤٦٤هـ) واحتفظ الفاطميون فى قصورهم ببعض الكتب، واستعاضوا بكتب جديدة حلت محل الكتب المسروقة.


بسم الله الرحمن الرحيم

الصفحة الأولى لكتاب «الدرياق» لجالينوس

نافست دار العلم بالأزهر فترة من الوقت، ولكنها دمِّرت، وبقى الأزهر شامخا طوال العصر الفاطمى.



ومن العلماء الذين درَّسوا فى الأزهر، الحوفى النحوى اللغوى، وهو أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد، وهو من كبار علماء اللغة فى عصره وله العديد من المصنفات فى اللغة والأدب ومن أهمها (إعراب القرآن) وتوفى سنة ٤٣٠هـ، ومن علماء الأزهر، أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى، وكان من كبار المحدثين والمقرئين، وكان يدرِّس فى الأزهر علم القراءات، ت: ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م.

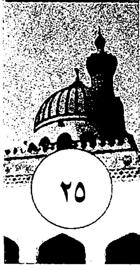
ومن أئمة علوم النحو والصرف واللغة، ابن بايشاذ النحوى المشهور وهو أبو الحسن طاهر أحمد المصرى، وله عدة مؤلفات ودخل فى خدمة الخليفة المستنصر بالله، وتوفى سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م. ومن كبار علماء اللغة أبو عبد الله محمد بن بركات النحوى -تلميذ القضاعى، ت: ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م.

ومن كبار أطباء وفلاسفة العصر الفاطمى، أبو الحسن على بن رضوان، وهو مصرى الأصل، وُلد فى الجيزة، وشُغف بدراسة الطب والفلسفة والمنطق، حتى نبغ فى هذه العلوم، وصار رئيسا لأطباء مصر، وتولى التدريس فى الأزهر وله العديد من المؤلفات، وتتميز دراسته فى الطب بالتجديد والابتكار، ولا ينقل من غيره، ولكنه يضيف ويجدد ما كتبه غيره.

تنوعت الدراسة فى الأزهر فى العصر الفاطمى، واشتملت -كما قلنا- على عدد من العلوم، فالحسن بن الهيثم أخطأ فى مشروع طلب منه الحاكم بأمر الله تنفيذه عن مجرى النيل، فلجأ هذا العالم البغدادى إلى القاهرة وعاش فى بيت صغير بجوار الجامع الأزهر، وكان يدرِّس للطلاب علم الضوء -وهو أول من بحث فيه- بالإضافة إلى بعض المواد العلمية كالفيزياء، وكان ينسخ فى الجامع الأزهر، كتب جالينوس وأقليدس وبقراط وأرسطو، ويبيعها خارج الجامع الأزهر وتوفى سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م.

ومن العلماء الذين قاموا بالتدريس فى الأزهر فى العصر الفاطمى الحسن بن زولاق ت: ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م، ووضع سيرة المعز لدين الله الفاطمى، وكتب كذلك عن فضائل مصر وأخبارها، والمؤرخ المسبِّحى: أبو الحسن المختار عز الملك، توفى سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٣٢ وكان من جلساء الخليفة الحاكم بأمر الله ومن خاصته، ومن أهم كتبه «تاريخ مصر» ولا يوجد منه إلا الجزء الأربعون فى مكتبة الأسكوريال فى إسبانيا.

ومن العلماء الذين تولوا التدريس فى الجامع الأزهر أبو عبد الله القضاعى ت: ٤٥٤/ ١٠٦٢ وهو من علماء الفقه والحديث والأدب والتاريخ، ومن مؤلفاته (مناقب الإمام الشافعى) (المختار فى ذكر الخطط والآثار) ، واعتمد عليه المقريزى فى خططه.



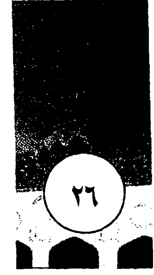
وطالب العلم فى الأزهر، يستطيع الحصول على ما يريد من الكتب، فالجامع به مكتبة، تضم كتبا ومراجع كثيرة، ودار العلم بها خزانة كتب كبيرة، وسوق الوراقين، بجوار الجامع الأزهر. والطالب الذى لا يستطيع شراء ما يلزمه من الكتب، يمكن أن ينسخها فى دكان الوراق.

فالعلم متاح أمام الطالب والكتب متاحة، والدروس تلقى فى مواعيدها وبالإضافة إلى نفقات المسجد من الأوقاف التى أشرنا إليها -وتوجد أحباس أو أوقاف أوقفها بعض الأثرياء على خدمات الجامع وعلى شيوخه وطلابه، وكان لطلاب العلم مورد خاص من الصدقات العامة والخاصة، وهى صدقات مالية ونوعية، وتُصرف بصفة خاصة فى المناسبات الدينية، رجب - شعبان - رمضان - مولد الرسول . . إلخ، وفى هذه المناسبات توزَّع الأطعمة والحلوى على المجاورين والشيوخ ، وفى عيد الأضحى توزَّع لحوم الأضحيات على الخطباء والقراء والمؤذنين والطلاب والعمال فى الجامع، وكان الخليفة الأمر يوزع اللحوم والطعام والحلوى بسخاء فى يوم مولده على أهل الجامع، والرواتب والأطعمة والحلوى التى توزع على طلاب العلم تسمى جراية وقد بدأت فى العصر الفاطمى، واستمرت فى العصرين المملوكى والعثمانى وعصر أسرة محمد على.

الأزهر والمناسبات الدينية فى العصر الفاطمى:

اهتم الفاطميون اهتماما كبيرا بالاحتفال بالمناسبات البدينية، وذلك لتأكيد المذهب الإسماعيلى فى نفوس المصريين، وشغل الناس عن معارضتهم، والدعاية لدولتهم ومذهبهم، وبالغوا فى مظاهر هذه الاحتفالات، وابتدعوا مناسبات جديدة، احتفلوا بها، ومن بين هذه المناسبات، الاحتفال بمولد الرسول ﷺ وعلى بن أبى طالب والحسين بن على والسيدة فاطمة الزهراء، والأئمة من نسل الحسين حتى عبيد الله المهدى -أول الأئمة الفاطميين- ثم خلفاؤه الأئمة حتى الخليفة القائم. كما احتفلوا بليالى أول ونصف رجب وأول ونصف شعبان ويوم عاشوراء ويوم غدير خم وليالى رمضان وأيام عيدى الفطر والأضحى.

وفى ليالى الوقود الأربع، يجلس الخليفة فى منظرة بجوار الجامع الأزهر ويشهد احتفال الناس فى الجامع، ومعهم القراء والمنشدون، ويلتفون حول القاضى، ويقرأ القراء بالتناوب آيات الذكر الحكيم، وينشد المنشدون المدائح النبوية، وتوقد المصابيح على سطح الجامع، ويوقد الشمع فى المقصورة وفى مجالس العلماء، ويحمل خدم الخليفة الفاطمى، المأكولات والحلوى والبخور،

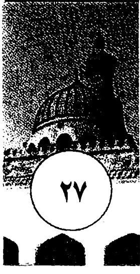


ويحتشد الناس بأعداد كبيرة فى الجامع، ويستمتع الناس فى المسجد بتلاوة القرآن الكريم بأصوات جميلة فضلا عن مدائح المنشدين للرسول ﷺ، وألغى الحاكم هذه الاحتفالات، وقصرها على الصلاة وقراءة القرآن الكريم. والدعاء فقط. لكن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله، أعاد الاحتفال بليالى الوقود على ما كانت عليه قبل تولية الحاكم بأمر الله، واهتم بهذه الاحتفالات الخليفة الآمر بأحكام دين الله، وأطلق لقاضيه خمسين دينارا، ينفقها فى شراء الشمع، وركب فى موكب فى ليالى الوقود الأربع، وركب معه الأمراء والفقهاء والشيوخ والعلماء والقراء والمنشدون، وأمر صاحب بيت المال أن يعتمد أموالا لشراء الحلوى وتوزيعها على المساجد والقصور والدواوين ودار الوزير. وفى سنة ٥١٧هـ فى الليلة التى صبيحتها مستهل رجب، حضر القاضى أبو الحجاج يوسف بن أيوب المغربى، فاشترى هذا الأخير السكر والحلوى والطعام وزيت الوقود وحدد أرزاق القراء والمنشدين والشيوخ والأموال اللازمة للاحتفالات.

ومن مسئوليات القاضى، الاطمئنان على الجامع الأزهر قبل شهر رمضان، وإعداد الجامع جيدا لاستقبال المصلين والعاكفين فيتفقد الجامع الأزهر، ويتأكد من سلامة فرشه وسلامة الإضاءة ونظافة المسجد، وسلامة بنيانه، وإعداده جيدا لاستقبال الخليفة فى صلاة الجمعة التى يصلى أولها فى شهر رمضان.



الأزهر الشريف - وخلفه مبنى إدارة جامعة الأزهر ومن بعيد مئذنة المشهد الحسينى المدببة

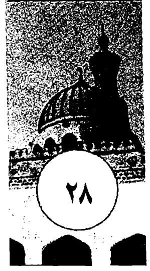


وتعقد الاحتـفالات فى الجامع الأزهر بإحياء المناسبات الدينيـة والمذهبية مثل عيد غدير خُم -الذى تحدثنا عنه سابقـا- وهو فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة. ويجتمع الناس فى هذه المناسبة فى الجامع الأزهر، والقـراء يقرأون ما يتيسر لهم من آى الذكر الحكيم، ثم يتلو الفـقهاء والوعـاظ سيرة رسول الله ﷺ وينشـد المنشدون المدائح النبوية. ويستمـر الاحتفال من الصباح إلى المساء، ثم يسـير الناس إلى قصر الخليفة، فينعم عليهم بالمكافآت والجوائز.

واحتفل الفاطميون بيوم عاشوراء، وهو العاشر من المحرم، الذى استشهد فيه الإمام الحسين ابن على فى موقعة كربـلاء سنة ٦١هـ. وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ صام فى هذا اليوم الذى حدثت فيه مناسبات دينة خاصة ببعض الأنبياء، فإن الشيعة حولوا هذا اليوم إلى يوم حزن، حدادا على مصرع الإمام الحسين.

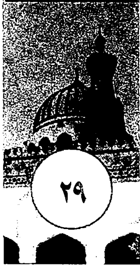
وفى يوم عاشوراء سنة ٣٩٦هـ/ ٩٧٦م، احتفل بعاشوراء، وتعطلت الأسواق، وتوافد الناس على الجامع الأزهر، وواصلوا البكاء فى الجامع، وأنشـد المنشدون الأناشيد الحزينة عن قـصة مقتل الحسـين، وما حـل بآل البيت من المآسى فى هذا اليـوم الحزين، وينشـد الشعـراء شعـرا فى رثاء الحسين، ويسـتمر الحفل ثلاث ساعات ويذهب النـاس إلى القصر بعد هذا الاحتفـال، حيث يقام سماط الحزن، ويتكون من مأكولات بسيطة كالعدس، ثم يستدعى خدم القصر المتزاحمين ببابه إلى تناول الطعـام، وفى نفس الوقت يطوف النائحـون بالقاهرة، يـنشدون أناشـيد النوح، ويلطمـون الخدود، ويمزقون ثيابهم، فيقضى الناس يومهم فى حزن ويبيتون الليل فى ألم وبكاء.

وتتم صلاة الجمـعة عند الفاطميـين بمراسيم خاصة، فكـان الخليفة يركب فى موكب كـبير لتأدية صلاة الجـمعة فى الجامع الأزهر بالمظلة الذهبـية وبين يديه خمسـة آلاف رجل يمشون على الأقدام، وبيده القضبان وعليه الطيلسان، وبيده السيف، ويخطب الجمعة ثم ينصرف، ويأخذ رقاع أصحاب الشكاوى والتظلمات، ويقرأها فى الطريق والخليفة يصلى عادة أول جمعة من رمضان فى الجامع الأزهر، ويرتدى الملابس الحـريرية البيضاء، ويدخل إلى المسجـد من باب يؤدى إلى المنبر، ويدخل المسجد فى صحبة الوزير، ويسبقهما صاحب بيت المال وبين يديه الفرش الخاصة بالخليفة، يحملها الفراشون المتـميزون، ملفوفة فى لفائف دبيقية، وتُـفرش فى الممرات طراحات من الدبيقى الجيد، كل منهـا منقوش باللون الأحمر، ومصنوع أحـسن صنعة، فتُجعل الطراحـات متطابقات، ويعلق ستران يمنة ويسرى، على الستر الأول كتـابة مطرزة بالحرير الأحمر واضحة منقوطة، أولها البسملة والفـاتحة وسورة الجمعة، وفى الـستر الآخر مثل ذلك وسورة إذا جـاءك المنافقون... ثم



يصعد قاضى القضاة المنبر وبيده عصا خيزران يقدمها له صاحب بيت المال. الخيزران بها جمرات يخرج منها بخور طيب الرائحة، وتتحسن بذلك رائحة القبة التى يجلس فيها الخليفة للخطبة، ويكرر ذلك ثلاث مرات، ويأتى الخليفة فى وقار وهيئة حسنة بالطبل والبوق، وحوله أصحاب الركاب، يقرأ قراء الحضرة آى الذكر الحكيم من الجانبين نوبة بعد نوبة، وتستمر القراءة منذ ركوبه حتى وصوله الجامع، وتعد المقصورة لجلوس الخليفة بترتيب الحرس الخليفى، ومن داخلها وخارجها خدمه الخاص، وإذا احتاج الخليفة إلى الوضوء أو تجديده، يصحبه الخدم إلى الميضأة المعدة له ثم يعود إلى مقصورته، وإذا أذَّن المؤذن لصلاة الجمعة، دخل إليه قاضى القضاة وقال له: السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله، فيخرج الخليفة وحوله الأساتذة المحنكون والوزير وراءه ومن يليه من الخواص وبأيديهم الأسلحة، فيصعد الخليفة المنبر، تحت القبة المبخرة فإن استوى جالسا -والوزير على باب المنبر- يشير بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه، فيقبِّل يديه ورجليه، بحيث يراه الناس، وينزل الوزير، ويقف إلى جانب قاضى القضاة، ويخطب الخليفة خطبة الجمعة من ورقة كتبها صاحب ديوان الإنشاء وتتضمن خطبة الجامع الأزهر قوله تعالى ﴿**رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ...** ﴿١٩﴾﴾ [النمل]، ثم يصلى على أبيه وجده محمد رسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب، ويعظ الناس بأسلوب بليغ، وتشتمل الخطبة على ألفاظ جزلة، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ويقول: اللهم وأنا عبدك وابن عبدك، لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا، ويتوسل بدعوات تليق بمثله، ويدعو للوزير وللجيوش بالنصر وللعساكر بالظفر وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك، والقهر، ثم يختم الخطبة بعبارة (اذكروا الله يذكركم) ثم ينزل من فوق المنبر إلى المحراب، ويقف على الطراحات، ويقف الوزير وقاضى القضاة فى صف واحد وراءه وفى الصف الذى يليهما، يقف الأساتذة المحنكون والأمراء وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام والمؤذنون والقراء فإذا سمع الوزير من الخليفة، أسمع قاضى القضاة، فيسمعون المؤذنين وغيرهم، والمؤذنون يسمعون الناس، والجامع فيه حشد كبير من الناس، ويقرأ الخليفة الآيات المكتوبة على الستارة اليمنى فى الركعة الأولى، وفى الثانية يقرأ الخليفة الآية المكتوبة على الستارة اليسرى. وبعد الصلاة يعود الخليفة إلى القصر والوزير وراءه، وتُضرب البوقات والطبول.

وفى الاحتفالات بهجرة الرسول ﷺ يجتمع الناس فى الجامع الأزهر ويقرأ القراء بعض آيات الذكر الحكيم، ثم يتلو الفقهاء سيرة رسول الله ﷺ، وأحداث الهجرة والعبرة منها، وينشد



المنشدون المدائح النبوية، ويخرج الخليفة فى موكب، ويحتشد الناس فى الجامع الأزهر، ويقرأ الفقهاء على الناس السيرة النبوية، ويستمع الناس إلى المدائح النبوية، وتوزع الحلوى والأطعمة على الناس من مطبخ السلطان.

ويقيم فى الجامع الأزهر، قاضى القضاة، والقضاة وداعى الدعاة الذى يباشر شؤون الدعوة للمذهب الإسماعيلى ليس فى مصر فقط بل وفى العالم الإسلامى كله، ويرسل الدعاة إلى كل هذه البلاد، ويباشر نشاطهم الخاص بالدعوة، ويباشر تدريس الفقه الإسماعيلى فى الأزهر.

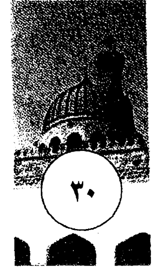
ومن الشخصيات التى تقيم فى الأزهر، إقامة دائمة، المحتسب وهو يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويمنع المنكرات، ويضبط حركة السوق، ويمنع الناس الاعتداء على بعضهم البعض، ويتأكد من تأدية الناس للصلاة فى مواعيدها، ويمنع البغاء وشرب الخمر ويتأكد من أن الكتاتيب والمدارس والبيمارستانات تؤدى نشاطها فى أحسن حال، ويحرص على تأدية أوامر الله وترك ما نهى عنه ، ويعمل على نظافة الشوارع والطرقات والحدائق، ويتأكد من تأدية الصلوات فى المساجد فى مواعيدها، وخطبة الجمعة فى وقتها.

والمحتسب يرسل أعوانه وموظفيه إلى الأسواق والشوارع والمؤسسات العامة كالبيمارستانات والمساجد لمراقبة حركة الحياة والمحافظة على راحة الناس، وأسعار السلع، ومنع الغش والتزوير.

الأزهر فى عصر الأيوبيين

لما سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، أغلق صلاح الدين الأيوبى -الذى حكم مصر بعد سقوط الدولة الفاطمية- الجامع الأزهر، لأنه رمز للمذهب الإسماعيلى، حيث كانت تدرَّس فيه العقيدة الإسماعيلية، ويجلس فيه الدعاة إلى هذا المذهب، وألغى الخطبة فى الجامع الأزهر، وحوَّلها إلى جامع الحاكم بأمر الله، الذى سُمى جامع الخطبة، وأُهمل الجامع الأزهر وجمدت أوقافه وصودرت، وتعرضت مبانيه وأثاثه للتلف.

ومع ذلك سُمح لبعض العلماء بإلقاء دروسهم فى الجامع، ومن بين هؤلاء، الرحالة عبد اللطيف البغدادى، وله حوالى مائة وخمسون مؤلفا منها كتاب (الجامع الكبير) فى المنطق وأخبار



مصر. وله كتب فى الرد على الفلاسفة مثل (المشاهد والاعتبار) فى تاريخ مصر، وصف فى هذا الكتاب أحداثا، شهدها بنفسه، وكان يقضى وقته إما فى القراءة أو التأليف أو المناظرة أو التدريس، وعيَّنه سلطان مصر الأيوبى العزيز، مدرسا بالجامع الأزهر، وكان يلقى دروسه على طلاب العلم من الصباح حتى صلاة العصر.

أفاد البغدادى طلابه، لأنه نبغ فى علوم الطب والفقه والنجوم -ومن أقواله: ينبغى أن تجالس نفسك فى كل ليلة إذا أويت إلى منامك، وتنظر فيما كسبت من يومك من حسنة، فتشكر الله عليها، وما اكتسبت من سيئة، فاستغفر الله منها، لا تأخذ العلوم من الكتب، وعليك أن تستظهرها، وتملك معناها، وتوهَّم أن الكتاب فُقد، وأنك مستغن عنه، وإياك أن تشتغل بعلمين فى وقت واحد. وإذا تزودت بعلم، لا تظن أنك قد اكتفيت منه، لأنك تحتاج إلى قراءته لينمو ولا ينقص. وإذا عرفت علما بلغة ضعيفة فاعرفه بلغة أخرى للزيادة. ومن أقواله: ينبغى للإنسان أن يقرأ التواريخ، ويطلع على تجارب الأمم وسيرها. فيصير بذلك كأنه فى عصره القصير، قد أدرك الأمم الخالية وعاصرها وعاشر أهلها وعرف خيرهم وشرهم. ونصح طلابه بالتعمق فى دراسة السيرة النبوية لأننا نتبع سنة رسولنا ﷺ لذلك أفاد البغدادى طلابه بالعلوم التى لقنها لهم وبالقيم الأخلاقية التى غرسها فى نفوسهم.



صلاح الدين الأيوبى

تمثال بدمشق - سوريا

والكتاب القيم الذى تركه البغدادى لنا عن مصر وآثارها والنيل واقتصاد مصر وعادات مصر وتقاليد أهلها، وأهداه إلى الملك العادل الأيوبى وهو كتاب (الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة من أرض مصر) وتوفى البغدادى سنة ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م.

ومن الذين قاموا بالتدريس فى الجامع الأزهر فى عصر بنى أيوب عمر بن الفارض، ت: ٦٣٢هـ/ ١٢٣٢م، وهو شيخ العاشقين وإمام المتصوفين.

وُلد عمر بن الفارض فى القاهرة سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٢م، وترك قصيدة أوضح فيها فكره الصوفى، الذى وصل به إلى مقام الاتحاد -أى الاتحاد بالله، ومعرفة الغيب تبعا لذلك طبقا لنظرية الحلول عند الصوفية- ووصل بعد معاناة شديدة إلى الحب الإلهى ويقول:

لأنت مُنى قلبى وغاية بُغيتى   وأقصى مرادى واختيارى وخبرتى



ويقول:

هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا   من الحب فاختر ذاك أو خل خلتى

ويذكر ابن الفارض ثلاثة أحوال للنفس فى معراجها الروحى، الأولى عادية طبيعية، والثانية غير عادية وغير طبيعية، والثالثة فوق العادة وفوق الطبيعة. ويشعر الصوفى هذه الحالة بذاته لا بفنائه، ويتصف بالصفات الإلهية، وليس بصفاته وأعماله، ويظهر للناس بصفاته الأنانية ويحتفظ لنفسه بصفاته مع الله، وأنه متحد به. ولا يخالف الشريعة فى مدحه للرسول ﷺ.

أهلا بما لم أكن أهلا لموقعه   قول المبشر بعد اليأس بالفرج

وقوله:

لم أخل من حسد عليك فلا تضع   سهرى بشنيع الخيال المرجف

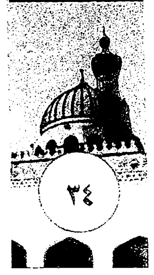
واسأل نجوم الليل هل زار الكرى   جفنى ؟ وكيف يزور من لم يعرف

وكان يُسمع فى الأزهر وهو ينشد بصوت منخفض:

محمد الهادى الذى عليه جبريل هبط
وحياة أشواقى إليك وحرمة الصبر الجميل
لا أبصرت عينى سواك ولا صبوت إلى خل



مسجد الحاكم من الداخل - تحولت إليه الجمعة فى العصر الأيوبى



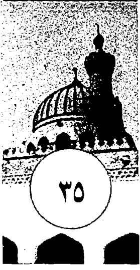
وفى سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، جدد الأسعودى -محتسب القاهرة- الجامع الأزهر وأنشأ الأمير أقبغا -مقدم المماليك فى عهد الناصر محمد بن قلاوون المدرسة الأقبغاوية سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م، ودخلت فى بناء الجامع الأزهر، وهى جزء من مكتبته.

وجدد الأمير الطواشى سعد الدين بشير الجمدار الناصرى عمارة الجامع الأزهر سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م، وكان يقيم إلى جواره فى عهد السلطان الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون، فأزال الطواشى المقاصير العديدة التى أقيمت فى الجامع، كما أخرج الخزائن والصناديق التى وُضعت به والتى أدت إلى ازدحام الجامع وعدم اتساعه للمصلين. وجدد سقف وجدران الجامع حتى عادت إلى أحسن وأجمل حال، وبلَّط الجامع وبيَّضه، ورتَّب له مصحفا، وجعل له قارئا وجعل على باب الجامع ما يشبه بالسبيل يحتوى على ماء عذب.

وعمل فوقه مكتبا سبيلا، لإقراء أيتام المسلمين القرآن الكريم، ورتب للفقراء المجاورين طعاما، يُطبخ فى كل يوم، ورتب لإعداد هذا الطعام قدورا من نحاس، ورتَّب فيه درسا للفقهاء الحنفية يجلس مدرسهم لإلقاء الفقه فى المحراب الكبير، وأعد لذلك وقفا جليلا. ومؤذنو الجامع يدعون بعد صلاة الجمعة للسلطان حسن.

وفى سنة ٧٨٤هـ تولى نظارة الجامع الأزهر، الأمير طواشى بهادر المقدم على المماليك السلطانية -وهذه أول إشارة إلى ظهور منصب ناظر الأزهر- وأصدر السلطان الظاهر برقوق مرسوما يقضى بأن من مات من المجاورين وليس له وارث، توزَّع تركته على زملائه المجاورين، ونقش ذلك على حجر عند الباب الكبير البحرى وفى سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٦م، هُدمت منارة الجامع -وكانت قصيرة- وبُنيت منارة أطول منها، وعُلِّقت فيها القناديل ليلة الجمعة فى ربيع الآخرة وأوقدت حتى اشتعل الضوء من أعلاها إلى أسفلها، واجتمع القراء والوعاظ فى الجامع، وتلوا ختمه شريفة. ولم تزل هذه المئذنة إلى شوال سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م، فهُدمت لميل ظهر فيها، وعمل بدلا منها منارة على باب الجامع البحرى، بعد ما هُدم الباب ، وأعيد بناؤه بالحجر، وركُبِّت المنارة فوق عقده، ولكنها مالت بعد قليل حتى كادت تسقط فهُدمت فى صفر سنة ٨٢٧هـ، وأعيد بناؤها وبُنى صهريج فى وسط الجامع، ووجد هناك آثار فسقية ماء، ووجد أيضا رفات أجساد، وأتم الفسقية والى ومحتسب القاهرة، وفى عهد السلطان فرج برقوق، عُمل فوقها قبة، يسيل منها الماء، وغُرس بصحن الجامع، أربع شجرات، ولم يكن لهذا الجامع ميضأة عندما بُنى، فأقيمت ميضأة، وزيد فيها سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٨م .

أقيمت فى الجامع الأزهر، أروقة يقيم فيها الطلاب الغرباء من خارج مصر أو من ريفها، ويتلقون العلم فى الأزهر، ويحصلون من الأوقاف المخصصة له على الطعام والكسوة والمال. .
وفى سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م تولى نظارة الجامع الأزهر، الأمير سودوب، وكان الأزهر عامرا بتلاوة



القرآن الكريم ودراسته وتلقينه، والاشتغال بعلوم الفقه والحديث والتفسير، ومجالس الوعظ وحلقات الذكر، ويجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله وترويح النفس ما لا يجده فى غيره وصار أرباب المال، يفدون إلى هذا الجامع بأنواع البر من الذهب والفضة والفلوس، إعانة للمجاورين فيه على عبادة الله والتزود بالعلم، ويقدم بعض الناس لهم المأكولات والحلوى والخبز، لا سيما فى المواسم والاعياد.

على أن الأمير سودوب - ناظر المسجد، أمر بإخراج المجاورين من الجامع، ومنعهم من الإقامة فيه، وإخراج ما كان لهم فيه من صناديق، ومنع المجاورين والعاكفين من الإقامة فى المسجد، وإخراج متعلقاتهم من الصناديق والأمتعة، لأنه سمع عن وجود رذائل ترتكب فى المسجد، ونزاعات شديدة بين الطلاب، وظل الحال على ذلك حتى هدأت الأمور، وعاد الطلاب إلى الجامع الأزهر، وعمروه بمجالس العلم.

وفى سنة ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م، زار السلطان قايتباى الجامع الأزهر، وأمر بإصلاحه، وهدم الخلوات التى كانت بالسطح، وتجديد دورة المياه.

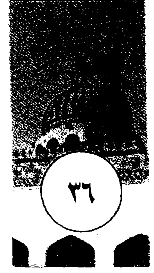
وفى سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م، أمر السلطان قايتباى بإصلاح الأزهر فأقيمت مقصورة خشبية على وجه الإيوانات الثلاثة حول الصحن.

وفى سنة ٩١٥هـ/ ١٥١٠م، أمر السلطان قنصوة الغورى ببناء منارة للجامع، وهى منارة ضخمة عالية، وامتازت بوجود سلمين فيما بين دورتيها الأولى والثانية، لا يرى الصاعد فى أحدهما الآخر واتسع الجامع الأزهر بإضافة بعض المدارس المجاورة إلى مبناه مثل المدرسة الطيبرسية، وهى على يمين الداخل إلى الجامع الأزهر، والمدرسة الأقبغاوية على يسار الداخل إلى الجامع فى الطرف الشرقى البحرى.

ازدهار الفكر الإسلامى فى الأزهر فى عصر المماليك:

عاد الأزهر إلى سابق نشاطه العلمى بعد افتتاحه فى عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، وشهد علماء كبار، وفقهاء أجلاء، قضوا السنوات الطوال، يلقون دروسهم فى الجامع الأزهر، ويعدون المؤلفات القيمة بين أعمدته، حتى أن الجامع على سعته، كان يزدحم بالشيوخ والطلاب من صلاة الفجر حتى صلاة العشاء، يضاف إلى ذلك -ما ذكرناه- من أن الكثير من الفقهاء والطلاب، كانوا يبيتون فى المسجد فى أروقة مخصصة لهم، ويتلقون الكساء والطعام من أوقاف حُددت لهم.

اتخذت كل طائفة فى المسجد، رواقا، يعرف بها، مثل رواق المغاربة، ورواق الأتراك، ورواق الشوام، ورواق الصعايدة ورواق الشراقوة . أى أن الرواق مخصص لأبناء البلد الواحد سواء فى داخل مصر أو خارجها.



أقبل الطلاب على الجـامع الأزهر من أنحاء مصـر ومن خارجها حـتى اتخذ شكل جامعة لهـا لوائحها ونظمها، وأدى سقوط بغـداد على أيدى المغول وتدميرها سنة ١٢٥٨م، إلى هجرة علمـائها وطلابها إلى القاهرة، وأدى الغـزو المغولى لبلاد الشـام وفـارس وتدهور المسلمـين فى المـغرب والأنـدلس إلى هجـرة كل الطلاب الراغبين فى العلم وهجرة الشيوخ إلى القاهرة - أى أن القاهرة أصبحت أهم مراكز الفكر الإسلامى فى عصر المماليك.

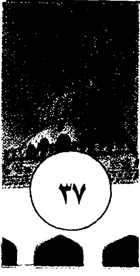
وشجَّـع الإقبال الشـديد على الجـامع الأزهر من الطلاب والعلماء، إلى تـدبير أهل الخـير الأوقاف للإنفـاق على أساتذة الأزهر وطـلابه. وتنـوعت وتعددت حلقات العلـم فى هذا الجامع الشريف.

وأصبح الأزهر وما يحيط به من بـيوت، مساكن يقيم فيهـا العلماء والطلاب، وكان يجاور الجامع الأزهر، سـوق الوراقين تُباع فيـه الكتب، وبعد صلاة الجـمعة، يتزاحم بائعـو الكتب أمام أبواب المسـجـد لعرض كـتـبهـم على المصلين الخارجين من المسجـد، وكان الشيوخ والطلاب لا يجدون صعوبة فى الحصول على الكتب من سوق الوراقين، وقد يسمح الورَّاق لطالب العلم الذى لا يمـتلك مالا لشـراء الكتب، بالاطلاع فى دكـانه، نظيـر أجـر زهيد، وربما مـجـانا، والكتب تُجلب إلى هذا الـسوق فى قـوافل من أنحـاء الدولة الإسلامـية الكبـرى؛ لذلك أُتيح للعـلمـاء والـطلاب الأزهريين بالاطـلاع على أحدث ما كتب فى بلاد الإسلام.

ومن العلمـاء الذين ألقـوا دروسـهم فى مـصـر، الشيـخ عز الدين بـن عبـد السـلام، ت: ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، وكان حسن المحاضرة، يكثر مـن رواية الشعر والنـوادر، ودرس وأفتى فى دمـشق، وبلغ مرتبـة الاجـتهـاد، وقصـده طلاب العلم من الآفـاق، وتخـرج الكثيـر من الوعاظ والآئمة على يديه، وله تصانيف مفيدة،



منمنمة تصور ابن خلدون فى مجلس علم



وفتاوى سديدة، وكان إماما ناسكا عـابدا، تولى القضاء فى دمشق، وخرج مجاهدا ضد الصليبيين -أعداء الإسلام- وهاجم الـصالح إسماعيل -صاحب دمشق- الذى تحالف مع الصليبيين ، وعُزل وسُـجن، وغادر دمشق إلى القاهرة، وارتفعت مكانته بها، وتولى التدريس والإفتاء والقضاء والخطبة فى جامع عمرو بن العاص، وعارض حكم المماليك لمصـر، لأنهم أرقاء، وأجبـرهم على تحرير أنفسـهم، حتى يحق لهم الحكم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكان لا يخاف فى الله لومة لائم، وضاق السلاطين ذرعا بفتـاويه التى كشفت عن مطامعهم، وعُزل ولزم بيـته، وكان طلاب العلم، يفدون عليه من كل مكان ومن كل بلد، وهـؤلاء الطلاب تدرجوا فى مراتب العلم حتى أصـبحوا فقـهاء يدرسون فى الجامع الأزهر -بعد افتتاحه- ونهجوا نهجه، وتأثروا بتعاليمه وفتاويه.

وممن تولى التدريس فـى الجامع الأزهر فى عصـر المماليك، **ابن خلكان** -صاحب الكتاب المشهور (وفيات الأعـيان) تخصص شيخنا فى التراجم لرجال الفكر والسـياسة والحرب المسلمين، الذين لعبـوا دورا بارزا فى الحياة الإسلامـية، وهذا الكتاب القيم يعـتمد عليه الـباحثون المهـتمون بالدراسـات الإسلاميـة، وابن خلكان هو أحمـد بن محـمد بن إبراهيم، درس فـى مدارس إربل (شـمال الـعراق) وتلقـى الدراسات الدينـية من والده، ولـما توفى والده، انتـقل ابن خلكان إلى الموصل، ودرس على علمائهـا هناك، ثم انتقل إلى حلب، ولازم شيخه بـهاء الدين أبى المحاسن يوسف بن شـداد، وتلقـى منه علم الفـقـه، ودرس النحـو، ثم رحل إلـى دمـشق واتصل بابن الصلاح، وتتلمـذ عليه، ثم غادر دمـشق إلى القاهرة، بعد أن تزود بعلوم الدين واللغـة، وعرف المصريون قدره، وتقلد وظيفة القضاء فى بعض مدن مصر.

وعُيِّن ابن خلكان مدرسا بالجامع الأزهر، وتخرج على يديه الكثير من الطلاب وكان ضليعا فى علوم اللغة، أديبا شاعرا، عالما بأيام الناس، كثير الاطلاع.

وكتاب (وفيات الأعيان) من أهم كتب شيخنا، ومن أهم كتب التاريخ الإسلامى، واستقى المؤلف معلومـاته فى هذا الكتاب من ثلاثة مصادر، أولهـا ما قرأه من الكتب المصنفة قـبله، وكان مولعا بمراجعتها والإفادة منها. والمصـدر الثانى، الدروس التى تلقاها من شيوخه الثقات، والمصدر الثالث اعتمـد فيه على مشاهداته الخاصة ولهـذا سمَّى كتابه (وفيات الأعـيان وأنباء أبناء الزمان بما ثبت بالنقل أو السماع وأثبته العيان) .

ازدهرت الحـركة الفكرية فى مـصر فى عـصر سـلاطين المماليك، وشـهد الأزهر حلـقات علميـة، تُعقد من بعد صـلاة الفجر حتى أذان العـشاء، وجلس الشيوخ فى المسـجد، كلٌّ خلف

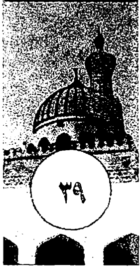
عمود، وطلاب العلم الوافدون على الأزهر من بلاد مصـر وخارجها، يجلسون فى حلقات حول شيـوخهم ولا يدخل حلقة الشيخ، إلا إذا اطمأن الشـيخ على مستواه العلمى، وكل شـيخ تخـصص فى علم مـعين، ويجلـس فى وقت محـدد، وأهم العلوم التى يدرسها الشيـوخ، الفقه والحديث والتفسيـر والقراءات والنحو والصرف والأدب والشعر والتاريخ، ويلقى الشيخ درسه من مصدر رئيسى وأحيانا يملى على الطلاب محاضرته، ويدخل الطلاب مع الشـيخ فى محاورات، ثم ينصرف الشيخ، ويشرح المعيد للطلاب مـا غمض عليهم. يبدأ الشيخ درسه بالبسـملة وحمد الله وشكره والصلاة على النبى ﷺ والدعـاء للصحابة والتـابعين ، وينهى درسه عـادة بعبـارة «والله أعلم». وبعد أن يطمئن الشيخ إلى طالبه الذى جاوره عدة سنين، ويتأكد من خلال عدة مناقشات له إلى تعمقه فى دراسة المنهج الذى درَّسـه الشيخ، يمنحـه الشيخ إجازة أى شـهادة تؤهله للعـمل فى التدريس أو الخطابة أو الوعظ والإمامة والإفتاء والقضاء.

ومن أبرز العلماء الذين تولوا التدريس فى الجامع الأزهر، العلامة عبدالرحمن بن خلدون.

وابن خلدون من أصل حـضرمى، وقد دخل مع أفـراد أسرته الأندلس وقت فـتحـها على أيدى المسلمين، ونبغ من أفراد هذه الأسرة، عبر القرون الكثير من الرجال، ساهموا بنصيب متميز فى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والدينية.

ولد ابن خلدون بتـونس فـى أوائل رمـضان سـنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م، حـفظ القـرآن الكريم وجوَّده، وكانت تونس مركز العلماء والأدباء فى ذلك العصر، ويقيم فيها علماء المغرب والأندلس، وعلى أيدى هؤلاء الشيوخ، تعلم ابن خلدون القراءات السـبع، ودرس علوم اللغة والنحو والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية، وحظى من كل شيوخه بالتقدير العميق، ونال منهم الإجازات.

شغل ابن خلدون عددا من الوظائف الرئيسية فى المغرب، ومن بينها وظيفة كاتب فى الدولة الحفصية بتونس سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، وغادر تونس بـعد اضطراب الوضع السياسى فيها، ودخل فى خدمة السلطان المرينى بهـا أبى عنان، وشغل وظيفة كاتب، وألحقـه بمجلسه العلمى فى فاس، واستـفاد من العـلماء الذين وفـدوا على فاس من الأندلس وتونس، وتردد علـى مكتبـات فاس، وتزود بشتى المعارف والعلوم وأقـحم نفسه فى العمل السياسى، وتكوَّنت لديه نـزعة: الغاية تبرر الوسيلة، أى الوصول إلى هدفه بكل الأسـاليب المتاحة، واشتغل بالدسائس السياسيـة وزُج بسببها فى السـجن سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٧م، لمدة عامـين، ثم أُطلق سـراحه، وشـغل وظيفـة رئيس ديوان الإنشاء، وكتـابة السر، والمراسم للسلطان أبى سالم زهاء عامـين، ثم ولاه ديوان المظالم، فأحسن

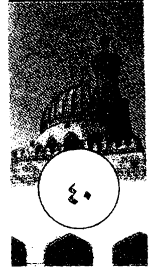


إدارته، وعدل بين الناس، لكن السلطان غضب عليه، وعـزله، فلجأ إلى تلمسان، ومنها رحل إلى غـرناطة سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م، وكانت بين ابن خلدون من ناحـية وأميـر غرناطة ووزيره لسان الدين ابـن الخطيب من ناحية أخـرى، صداقة قـديمة، لذلك رحب الوزير ابن الخطيب بابن خلدون وأكرم سلطان غرناطة ووزيره وفادة ابن خلدون، وقرَّبه الأول إليه، وآثره بصـحبته، وعهد الـسلطان إلى ابن خلدون بمهمة سفارة بينـه وبين ملك قشتالة، وأدى ابن خلدون مـهمته الدبلومـاسية بنجاح كـبير وقدَّره سلطان غرناطة، وأقطعه عدة إقطاعات، زادت من ثروته.

على أن العلاقـة ساءت بين ابن خلدون والوزير لسان الدين بن الخطيب الذى اسـتبد بدولة بنى نصر فى غرناطة، وخـشى على مركزه من ارتفاع شأن ابن خلدون فى بلاط السلطان، فـتآمر ابن الخطيب على صاحـبه ابن خلدون، وسعى إلى بذر الشقاق بين السلـطان وابن خلدون فسعى ابن خلدون إلى الخروج من الأندلس والعودة إلى بجاية (فى الجـزائر) والدخول فى خدمة سلطانها أبى عبد الله الحفصى، الذى كان قد دخل معه فى السـجن، بسبب اشتراكهما فى مؤامرة للإطاحة بالسلطان المرينى أبى عنان.

قـضى ابن خلدون فى الأندلس عـامين ونصـفـا، وغادرها إلى بجـاية، وأحـسن أميـرها استقـباله، وعيَّنه حاجب الـدولة أى المسئول عنها، وعـهد إليه كذلك بخطبـة الجمعة فى مـسجد القصبة وبالتـدريس ايضا، ولكن أبا العباس -أمير قسطنطينة- دخل بجـاية، وقتل ملكها، فدخل ابن خلدون فى خدمته، فـأكرمه وأبقاه فى منصب الحجابة، وبعد صراع سـياسى مرير بين الأمراء والقـادة، غادر ابن خلدون بجـاية، وقـضى سبع سنوات فـى بسكرة (٧٦٧-٧٧٤هـ) بعيـدا عن وظائف الدولة والدسائس والمؤامرات والمغامرات، وقضى ابن خلدون بعد خروجه من عزلته عامين فى الدسائس بين أمـراء المغرب فى هذا العصر المضطرب، حـتى ساءت سمعتـه، وأعرض الأمراء عن الاستعانة به، لعدم إخـلاصه، فعاد إلى الأندلس، ولكن سمعته سبـقته، فلم يحسن السلطان ورجال دولته استقباله، فعاد إلى تلمسان سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م.

اعتزل ابن خلدون السياسة، وعكف على العلم والتأليف، ونزل فى موقعه بتلمسان فى قلعة ابن سلامة، وانقطع عن الـناس، وقضى فى صومعتـه العلمية أربع سنوات، وصنَّف مؤلفـه الكبير «العبر وديوان المبـتدأ والخبر» وبدأ هذا الكتاب بمقدمتـه المشهورة عن فلسفة التاريـخ وعلم الاجتماع والعمران، واستفاد فى دراسته من تجاربه السياسـية العديدة وقراءاته المتعددة، والاتصال بالمجتمعات فى المغرب والأندلس، وبعد رحلـة قصيرة إلى تونس، قرر - أى ابن خلدون - الرحـيل إلى مصر



سنة ٧٨٤هـ-وهى بلاد مستقرة سياسيا، وبها حركة فكرية يقودها الأزهر وتجذب العلماء والطلاب إليها.

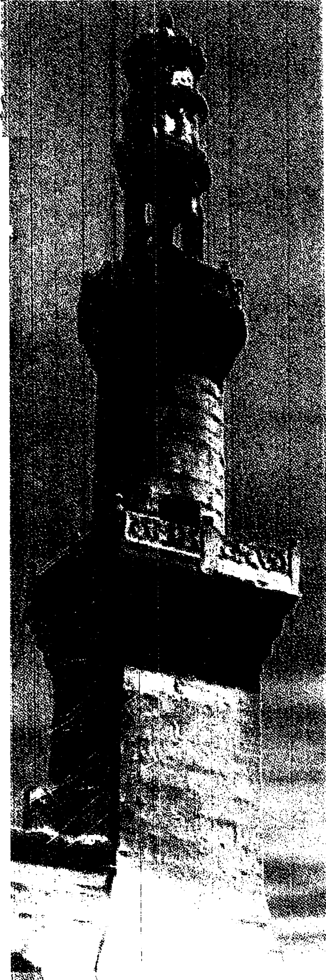
وصل ابن خلدون بحرا من تونس إلى الإسكندرية، وقضى بها شهرا وغادرها إلى القاهرة.. كعبة العلماء والطلاب.

كان صيت ابن خلدون، قد سبقه إلى القاهرة، وعرف علماء الأزهر مؤلفاته وسيرته وقدره العلمى، وعرفوا بحوثه التاريخية والاجتماعية ومقدمته المشهورة، التى نالت تقدير رجال العلم والأدب.

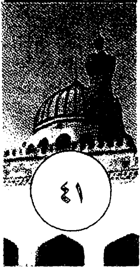
استقبل العلماء وطلاب العلم، ابن خلدون أحسن استقبال ورحبوا بمقدمه، والتفوا حوله، وتطلعوا إلى الاستفادة من علمه وأذن السلطان المملوكى برقوق لابن خلدون بالتدريس فى الأزهر، وضمت حلقته العديد من الدارسين والطلاب والمريدين، وكان يلقى دروسه فى الحديث والفقه المالكى، ويشرح نظرياته الاجتماعية وآراءه فى فلسفة التاريخ التى حوتها مقدمته. وهذه الدروس أوضحت غزارة علمه وسعة اطلاعه والقدرة على توضيح أفكاره والتأثير على سامعيه، وكان ابن خلدون رغم علمه الغزير، محدثا بارعا رائع المحاضرة، لا يمل طلابه ومستمعوه الاستماع إليه، بمنطقه وبلاغة عبارته، وقوة أسلوبه، وأكثر طلاب العلم والعلماء من التردد عليه وملازمته.

أكرم السلطان المملوكى الظاهر برقوق، وفادة ابن خلدون، وعُنى بأمره وأحسن لقاءه، وآنس غربته، وأجرى عليه راتبا كما كان يفعل مع أهل العلم، وفى أوائل سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م، انعم السلطان عليه بمهمة التدريس للفقه المالكى، وقام بالتدريس فى عدة مدارس بالإضافة إلى حلقته بالأزهر، وتولى منصب قاضى قضاة المالكية عدة مرات، وترك تلاميذ تعلموا منه الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، مثل تقى الدين المقريزى -عمدة مؤرخى مصر الإسلامية- .

ومن تلاميذ ابن خلدون الذين تعلموا منه فى الأزهر، ابن حجر العسقلانى، وتوفى ابن خلدون سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م.



مئذنة الناصر محمد بن قلاوون



أحيط الجامع الأزهر بعـدد من المدارس فى عصر الأيوبيين والممـاليك، فأنشأ الأمير طيبرس الخازندار سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٦م، المـدرسة الطيبرسية، ودخلت فى الجامع الأزهر فى عصر المقريزى على ميمنة الداخل إليه من بابه الكبير البحرى.

كـذلك شيـد السلطان المملوكى أقبـغـا (ت ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)، المدرسـة الأقبغاوية بجوار الجامع الأزهر، ودخلت فيه بمرور الزمن .

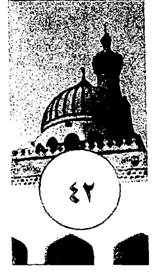
ازدهر الفكر الإسـلامى فى الأزهر فى عصـر المماليك، واجـتذبت مـصر بأزهرها العلـماء وطلاب العلم من أنحاء العـالم الإسلامى، وخصوصا بعـد سقوط بغداد وتدهور المدن الإسـلامية بسـبب الغـزو المغولى واضـطراب بلاد المغرب وتـدهور الأندلس، وزادت ثروة مـصر، وعـادت الأوقاف إلى الأزهر بعد أن صـادرها الأيوبيون، وأصبح للأساتذة والطلاب رواتب مجـزية فضلا عن الكساء والطعام.

أدى استقرار العلمـاء فى مصر، وكثرة المكتبات وازدهار الحـركة الفكرية فى الأزهر إلى نشاط علمى كبيـر فى مصر، تجلى فى ظهور الموسوعـات التى صنّفها العلماء فى مختلف علوم الدين واللغة.

مدرسة ومسجد السلطان حسن



وأول هؤلاء العلمـاء ، **شـهـاب الدين النويرى**، (ت: ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م) شُغف من نعومة أظـفاره بدراسة التاريخ والأدب، ودرس النـويرى فى الجـــامع الأزهر، ودخل فـى خـدمـة السـلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتولى بعض الوظائف الهامة مثل الحسبة، والمقاسات والمحاسبة وقـيادة عسكر طرابلس، وهذه الوظائف الإداريـة والماليـة والعـسكرية أكسبتـه خبرة، سـاعدته على التـأليف والتـصنيف. وكـان ينسـخ الكتب بخط جـيد وله طـريقة فى الكتـابة، عُـرفت باسمه، وكـان ينسخ عددا من الكراريس فى كل يوم.



اعتزل النويرى الوظائف الإدارية والمالية، وعكف على القراءة والاطلاع حتى تجمعت لديه مادة غزيرة فى الأدب والتاريخ وصنَّف موسوعته القيمة «نهاية الأرب فى فنون الأدب» والكتاب يشمل الأدب والتاريخ والجغرافيا والأمثال والأوصاف، ولكن الكتاب لا يشمل الجوانب العلمية كالطب والرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها، والكتاب مجموعة من المعارف الأدبية والتاريخية لا نجدها عند غيره.

وتنقسم موسوعة النويرى إلى خمسة فنون، كل فن ينقسم إلى خمسة أقسام، وكل قسم ينقسم إلى عدد من الأبواب، وهذه الفنون الخمسة تنقسم إلى مجموعتين الأولى عشرة مجلدات، والثانية واحد وعشرين مجلدا.

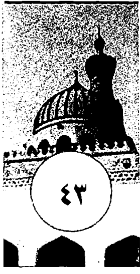
ويتناول النويرى فى كتابة قصة الخلق والسماء والأرض والنبات والحيوان والغناء والمغنين والندماء والنوادر والقصص وأخبار العرب قبل الإسلام، وقصص الأنبياء وسيرة الرسول ﷺ ودولة الخلفاء الراشدين والدولتين الأموية والعباسية، ومصر الإسلامية والعصور الفاطمية والأيوبية وبداية عصر المماليك، والكتاب يتضمن أدباء وشعراء العصور التى كتب عنها. والكتاب فى جملته مجموعة معارف تاريخية وجغرافية وطبيعية وأدبية.

ومن العلماء الموسوعيين فى عصر المماليك الذين تعلموا فى الأزهر، **ابن فضل الله العمرى**، (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨م).

والعمرى دمشقى المولد، تربى ونشأ فى مصر، وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى، ولُقب بالعُمرى لأنه يُنسب إلى عمر بن الخطاب، رحل إلى مصر، وتعلم فى صباه وشبابه فى الأزهر الشريف، ونبغ فى الفقه والحديث والكتابة والإنشاء وعلوم اللغة وآدابها، ودخل فى خدمة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وتدرج فى سلك الوظائف، حتى أصبح رئيسا لديوان الإنشاء، ووضع أسلوبا فى الكتابة، صار نموذجا لمن جاء بعده فى القرون التالية. وديوان الإنشاء من أهم دواوين الدولة؛ لأن المراسم السلطانية تصدر منه والرسائل الدبلوماسية كذلك، والرد عليها فهو يشبه وزارة الخارجية فى أيامنا.

لم يكتف العمرى بدراسة علوم الدين واللغة، بل درس الجغرافيا الطبيعية والسياسية والممالك واختصاصاتها وطبائع أهلها، ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها. وحينما درس الممالك المختلفة لم يدرسها نظريا، إنما قام بعدة جولات فى معظم الممالك التى تحدث عنها، والممالك التى لم يستطع زيارتها، استقى معلوماته عنها من أقوال العارفين بها من الثقات.

وله مؤلفات عدة منها: كتب فى المدائح النبوية وله كتب فى البيان والبلاغة وفنون الكتابة والإنشاء وكتاب (التعريف بالمصلح الشريف)، وله كتاب (قوافل السمر فى فضائل آل عمر).



وأهم كتبه (مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار) وهو موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلدا، تأثر فيها بالنويرى. ويقول عبد الله عنان: إن النويرى يسبغ على موسوعته صبغة علمية أدبية، أما العمرى فيسبغ على موسوعته صبغة تاريخية جغرافية، ويقسِّم العمرى موسوعته إلى قسمين كبيرين، القسم الأول، يتكلم عن الأرض والجبال والأنهار والبحار والمحيطات والرياح والأمطار والمناخ. وفى القسم الثانى يكتب عن ممالك العالم كالهند والسند وممالك المغول والترك، ومصر والشام والحجاز واليمن ثم ممالك السودان والحبشة وإفريقيا والمغرب والأندلس، ويتكلم عن العرب وأماكن استقرارهم وخصوصا فى مصر، ومعلوماته عن العرب تفيدنا فى دراسة التركيبة السكانية لمصر بعد الإسلام.

ويتكلم فى القسم الثانى عن طوائف الأمم من العلماء فى الشرق والغرب والأديان والملل والنحل، ثم يتكلم عن تاريخ دول الإسلام منذ فجره حتى سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م، أى قبل وفاته بست سنين.

ومن العلماء الموسوعيين فى عصر المماليك، الذين تخرجوا من الأزهر الشريف، **أبو العباس القلقشندى**، وهو من قلقشندة -محافظة القليوبية- استفاد القلقشندى من أستاذه العُمرى، وظل عدة سنوات يعمل فى ديوان الإنشاء حتى آخر عهد السلطان برقوق سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م. وفى تلك الفترة وضع كتابه الكبير (صبح الأعشى فى صناعة الإنشا) .

ويوضح المؤلف الأدوات التى يجب أن يتزود بها الكاتب عن تأليفه لكتاب، مثل مواد الإنشاء والمعارف الأدبية واللغوية وأحوال الأمم والأحكام السلطانية. والكتاب يتضمن مقدمة وعشر مقالات تقع فى أربعة عشر مجلدا، وتوفى القلقشندى سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م.

يلى ذلك تلميذ من تلاميذ ابن خلدون، وهو تقى الدين المقريزى -عمدة مؤرخى مصر الإسلامية- درس فى الأزهر على يد أساتذة العصر وشيوخه، ومن شيوخه، جده لأمه الشمس بن صايغ الحنفى والنجم بن رزين والبرهان الآمدى، وأبو إسحاق التنوخى، وزين الدين العراقى، وسراج الدين البلقينى وغيرهم من علماء الأزهر، وتخصص فى دراسة الفقه والحديث وعلوم الدين، وأجاد النثر والشعر، وشغل عدة مناصب، منها الوعظ فى الجامع الأزهر وقراءة الحديث، وشغل عدة وظائف فى عدد من مساجد مصر كمسجد الحاكم بأمر الله حيث اشتغل فيه بالخطابة والإمامة، وشغل نفس العمل فى جامع عمرو بن العاص، ومدرسة السلطان حسن، كما شغل وظيفتى القضاء والحسبة، ثم زهد فى المناصب واعتزلها، وتفرغ للعلم والتأليف.

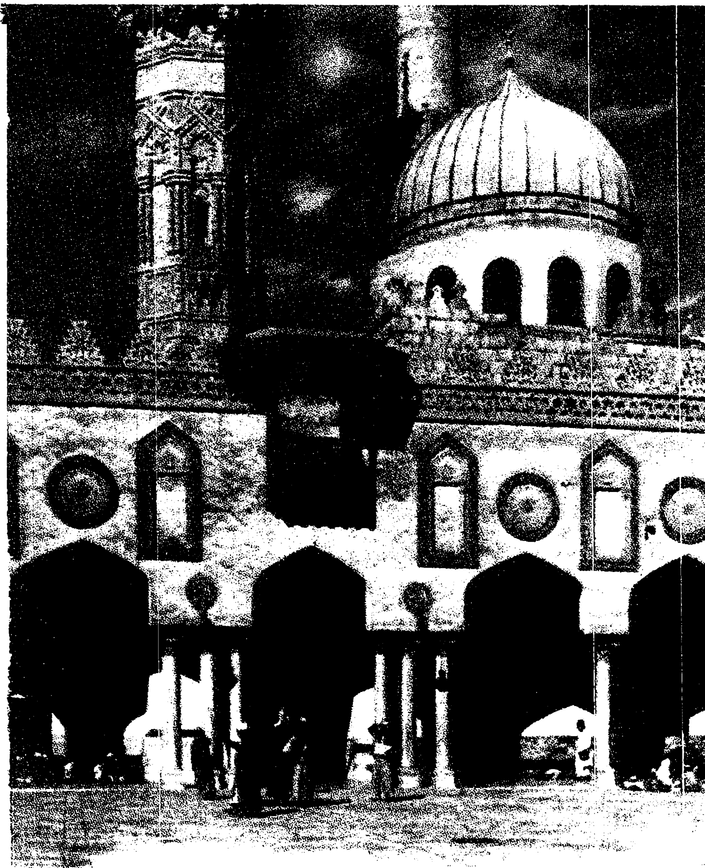
صنَّف المقريزى كتبا عن مصر، منها كـتاب عن مصر منذ فجر الإسلام حتى العصر الفـاطمى، وفُقد هذا الكتاب، والكـتاب الثانى عن الدولة الفاطمـية (اتعاظ الحنفـا فى ذكر الأئمـة الخلفا) وهو من أهم مـصادرنا عن تاريخ الدولـة الفاطمـية والخلفاء الفـاطميـين، ثم صنَّف كتاب (المواعظ والاعـتبـار فى ذكر الخطط والآثار) ويتضـمن دراسة لمدن مـصر وقـراها ونيلها والمدن الإسـلاميـة الجديدة كالفـسطاط والعسكر، والقطائع والقاهرة، ويـكتب عن خطط هذه المدن ويصفها وصفا دقـيقا، ويكتب فى هذا الكتاب عن الأعياد والمناسبات الدينية فى مصر عند المسلمين والنصارى واليهود.

ويواصل المقريزى دراسته عن مصر، فـيكتب كتابا عن (السلوك لمعرفة دول الملوك) والكتاب دراسة عن مصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك حتى قبل وفاته بقليل.

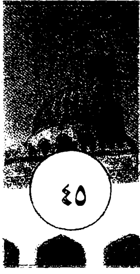
وكتب المقريزى عن سيرة الرسول (إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والمتاع) كما كتب رسائل فى موضوعـات مختلفة مثل (شذرات العقود) و(إغاثـة الأمة بكشف الغمة) و(رسالة البيـان والإعراب بمن فى مـصر من الأعراب) إلى غـير ذلك من الكتب والرسـائل. (توفى سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).

ومن تلامـيـذ ابن خلدون، ابن حـجـر العسـقـلانى، (ت:٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، درس فى الأزهر، ونبغ فى علوم الحديث والفقه والتفسير، وكعادة علمـاء الحديث يدرسون الـتاريخ؛ لأن منهج الحـديث ييسـر دراسة التـاريخ. والاعتـماد على السند السليـم، واتباع منهج الجـرح والتـعـديل فى تحـقـيق الرواية.

وابن حجر، مصرى النشأة، ولُد فى القـاهرة، وأسـرته من عـسـقـلان بفلسطين، طاف فى شبابه الغض بعض المدن الإسـلامـيـة لطلب العلم ودرس



صحن الأزهر الشريف



الحديث فى الحـرم الشريف بمكة المكرمـة على أيدى علمائه، ولما عـاد إلى القاهرة، واصل دراسة الحديث على أيدى شـيوخ عصره من علمـاء الأزهر مثل شمس الدين القطان، وسـراج الدين البلقينى وشـمس الدين الغـمارى، والعـز بن جماعـة وأبو إسحاق التنوخى، وأبو الفـرج بن الشحنة وزين الدين العراقى والشهاب البـوصيرى وغيرهم من شيوخ الأزهر، وبذل ابن حجر جهودا مضنية فى دراسة الحديث والفقه والتفـسير، حتى صنَّـف مائة كتاب فى هذه العلـوم، ومن أهم هذه الكتب : «فتح البارى فى شرح صـحيح البخارى»، وذاع صيت هذا الكتاب حـتى سارع طلاب العلم إلى قراءته ودراسته فى كل مـكان فى العالم الإسلامى، ونال هذا الكتاب تقـدير رجال العلم فى كل مكان، واعتمـد الطلاب فى دراسة الحديث على هذا الكتاب؛ لأنه أهم الكتـب فى هذا المجال، وله كتب أخرى فى علوم الـقرآن مثل (الإتقـان فى فضـائل القرآن) و (الآيات النيرات فى مـعرفـة الخوارق والمعجزات).



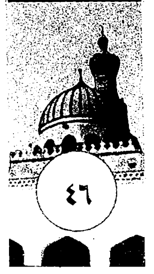
السلطان قنصوه الغورى

(لوحة لجنتيلى)

تولى ابن حجـر منصب القضاء عدة مـرات، وفى خلال ذلك، شـغل ابن حـجـر وظائف الـتـدريس فى الأزهر وبعض المدارس، وشـغل وظيفـة خطيب وإمام بالجـامع الأزهر، وتولى الوعظ والإفتـاء وأقبل عليه الناس من كـل مكان، وعمل الناس بفتاويه، وكـان بالإضافة إلى تعمقـه فى علوم الدين، عالما فى النحو والشعر.

ومن مؤلفاته التاريخية (أنباء الـغمر بأبناء العُمر) ويتضمن أنباء الزمان الذى عاش فيه منذ مولده. ومن كتبه (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة) وهو تراجم لأعـيان القرن الثامن من سنة ٧٠١هـ حـتى سنة ٨٠٠هـ ويتـضـمن تراجم للملوك والأمـراء والكتاب والوزراء والشعراء والأدباء، ومن كتبه (رفع الإصر عن قضاة مصر) ويتناول أخبار القضاة فى مصر. ومن كتبه التاريخية (الإصابة فى تمييز الصحابة).

أما المؤرخ بدر الدين العينى، فكان يتقن اللغة التركـية، لذلك نال تقدير السلطان المملوكى برسباى، وكان يقضى معه أوقاتا طويلة، يروى لـه أحداث التاريخ، ويشرح له مسائل الفقه، ومن أهم كتـبه (عقـد الجمان فى أخـبار أهل الزمـان)، وشغل منصب القضـاء حتى قـرب وفاته سنة ١٤٥١م.

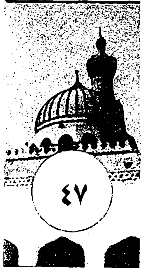


ومن أبرز علماء مصر الذين درسوا فى الجامع الأزهر، ودرَّسوا فيه **أبو المحاسن بن تغرى بردى،** (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، وهو تلميذ المقريزى - ولد أبو المحاسن فى القاهرة فى حى الأمراء بالقرب من القلعة، وكان أبوه مملوكا روميا من مماليك السلطان الظاهر برقوق، وتدرج فى سلك الوظائف حتى أصبح أميرا للسلاح، ونشأ ابن تغرى بردى فى هذه الحياة المترفة، ونشأ يتيما فربَّاه زوج أمه جلال الدين البلقينى، ودرس علوم الفقه والحديث والقرآن الكريم على يد شيوخ عصره من علماء الأزهر، مثل ابن حجر العسقلانى وبدر الدين العينى وشهاب الدين بن عربشاه - مؤرخ تيمورلنك- وشُغف بالتاريخ، فدرسه على أيدى شيخ مؤرخى عصره -المقريزى- ولازمه وتأثر به، وأخذ عنه الكثير من معلوماته التاريخية واقتبس منهجه فى البحث وتحقيق الرواية وقرأ كتب المقريزى فى التاريخ، وتكونت عنده مادة تاريخية غزيرة، وبعد عصر المقريزى، أخذ يدوِّن الأحداث التاريخية تباعا، ولنشأته فى قصور الحكم أثر كبير فى معرفته أغوار السياسة وأساليب الحكم، والتعرف على كبار رجال الدولة، ومعرفة أساليب الحكم والإدارة وأخبار الدولة من مصادرها الأصلية -مصادر البيت الحاكم- وصنَّف كتبا قيمة فى التاريخ، ومنها كتابه المشهور(النجوم الزامرة فى ملوك مصر والقاهرة) وكتاب (المنهل الصافى) والكتاب الأول موسوعة كبيرة فى تاريخ مصر الإسلامية.

وأكمل أبو المحاسن كتاب أستاذه المقريزى (السلوك لمعرفة دول الملوك) الذى ينتهى بحوادث سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤١م، أى سنة وفاة المؤلف، ويكمل كتاب أستاذه ابتداءً من سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤٥، حتى سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٤م، وأطلق على كتابه (حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور)، ورتبه على حسب السنين والشهور والأيام، وفى مقدمة كتابه يعرب عن إجلاله وتقديره لشيخه المقريزى، وتوقف عن مواصلة كتابة هذا الكتاب فى عهد السلطان الظاهر جقمق.

ومن علماء الإسلام الذين درسوا فى الأزهر، واستفادوا من شيوخه **شمس الدين السخاوى،** (ت:٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، وهو أحد كبار علماء هذا العصر، وساهموا فى رواج الحياة الفكرية، وهو تلميذ الأديب الكبير، ابن حجر العسقلانى، لازمه بعد أن انتهى من دراسته فى المكتب، وأخذ عنه الكثير من علمه الغزير فى الحديث والفقه والتفسير والأدب واللغة والتاريخ، وواصل دراسته فى هذه العلوم على أيدى شيوخ عصره فى الأزهر وبعض مدارس القاهرة، ولم يكتف بذلك ، بل رحل إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وبعض مدن الشام، واستمع إلى شيوخها وتلقى عنهم الكثير من العلوم، وجلس فى الجامع الأزهر للتدريس لطلاب العلم، بعد أن حصل على العديد من الإجازات، وتولى القضاء والإفتاء.

وللسخاوى مصنفات قيمة، نذكر منها، (التبر المسبوك فى ذيل الملوك) وهذا الكتاب ذيل لكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزى، وواصل دراسة تاريخ مصر الإسلامية فى عصر



المماليك حتى سنة ٨٥٧هـ. والكتاب دراسة تاريخيـة لأحداث تلك الفترة فضلا عن أنه تراجم لأعيانها، وأبرز في هذه التراجم، شيوخ الأزهر الذين جلسوا فى الجامع للتدريس للطلاب فى حلقات لا تنقطع طوال اليوم. وكـذلك ذيَّل لشيخه ابن حجر العسقلانى على كتابه (رفع الإصر) باسم ذيل رفع الإصر. وهو تراجم وسير للقضاة منذ أن انتهى إليه ابن حجر حتى توقفه -أى السخاوى عن الكتابة-.

ومن أهم كتـبه: (الضوء اللامع فى أعيـان القرن التاسع) والكتاب مـوسوعة ضخمة تقع فى عـدة مجلدات، والكتاب عبارة عن تراجم للقضاة والعلمـاء والأمراء والشيوخ فى عصره، ونلاحـظ أنه ينفرد بمنهج جديد، وهو النقد الشـديد اللاذع لبعض علماء عصـره مثل ابن خلدون والمقريزى، بل وينقد شـيخه ابن حجر، ودخل هذا الأديب فى معارك أدبيـة مع معاصريه من العلماء، مـثل جلال الدين السيوطى والبـقاعى، وتتجلى فى الكتاب روح التـجديد والابتكار وحسن التصوير والتحليل والتفسيـر وحسن العرض، ويتخلص من منهج سرد الأحداث الذى ساد طوال عصره، والعصور السابقة له.

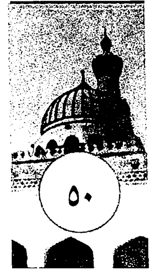
ومن كـتب السخـاوى (الإعلان بالتـوبيخ لمن ذم التـاريخ) ينقـد فى هذا الكتاب المؤلفـات التاريخية، وما فيها من أخطاء أو مبالغات، مما جعل هذا الكتاب فريدا فى نوعه ومنهجه.

ومن العلمـاء الموسوعـيين الذين درسـوا فى الأزهر، وتلقوا العلم فى حلـقاته، **ابن إياس** مؤرخ الفتح العثمانى، (ت: ٩٣٠هـ/ ١٥٢٣م).

دوّن ابن إياس حوادث عصره، وبالأخص حوادث الفتح العثمانى وما سبقه من أواخر عصر المماليك، وما أعقبه من أحداث.

روى ابن إياس حوادث عصره، لذلك فـإن روايته وثيقة تاريخية عن هذه الفـترة الهامة فى تاريخ مصر، وهى أحداث ضعف وتدهور دولة المماليك، وازدياد قوة الدولة العثمانية، التى زحف سلطانها سليم الأول إلى بلاد الشـام وانتزعها من الممـاليك فى موقعة مـرج دابق ١٥١٦م، بعدها زحف إلى مصر، وأسقط دولة المماليك ١٥١٧م، وضم مصر إلى الدولة العثمانية.

ومؤرخنا محمد بن أحمد بن إياس من أسرة كبيرة، دخل فى خدمة المماليك، حتى ضعفت اقتصاديا، وساءت أحواله المالية، وخصوصا بعد أن صادر السلطان الغورى أملاكه. ومن أهم كتبه (بدائع الزهور فى وقائع الدهور) وهو كتـاب شامل عن تاريخ مصر منذ أقدم العصـور إلى ما بعد الفتح العثمانى سنة ١٥٢٤م، ويقع الكتاب فى أحد عشر جزءا. ومن كتبه (عقود الجمان فى وقائع الزمان). وهو كتاب مـجمل عن تاريخ مصر. ومن كتبه (نزهـة الأمم فى العجائب والحكم) وكان ابن إياس ناقدا لاذعا يناقش الأحداث التاريخية، ومن هنا تأتى أهمية كتبه.



شتاء حيث الشمس الساطعة وفى الصيف النسيم العليل. وفى الأزهر يجد الوافدون، الطعام المناسب ويجد المقيمون فى المناسبات الدينية الحلوى ومزيدا من الطعام، وخصوصا فى شهر رمضان ومولد الرسول ﷺ ويجد هؤلاء الناس ما يفيدهم علميا فى التفسير والحديث والفقه من خلال تدريس العلماء لهذه العلوم ويجدون الإجابة على كل مسألة تواجههم فى مجالات اللغة والدين.

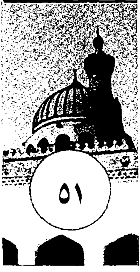
على أن الأمير سودوب -ناظر الأزهر- علم أن الكثير من المقيمين فى الأزهر ليسوا فقط للعبادة والاستفادة من دروس العلماء، وإنما وفدوا على الأزهر، هربا من العدالة التى تلاحقهم، بل كانت ترتكب فى الجامع الأزهر، الآثام، هاجم الأمير سودوب الجامع الأزهر بقيادة غلمانه وأعوانه وغوغاء العامة، فاعتدوا على المقيمين فى الجامع، ونهبوا ما معهم من أموال، وأخذوا فرشهم وعمائمهم، وفُتِّشت أوساطهم وسلبوا ما كان مربوطا من ذهب وفضة، وعمل ثوبا أسود للمنبر وعلمين ملوَّنين. وقد حد هذا العمل من عدد الوافدين على الجامع الأزهر والمبيت والإقامة فيه.

وفى شهر رمضان شهد الجامع الأزهر نشاطا كبيرا دينيا، فكان القرآن الكريم، يُقرأ فى ليالى رمضان، ويُختم فى آخر رمضان، وكان العلماء يقرأون فى كل يوم جزءا من صحيح البخارى، وتتم قراءته فى آخر شهر رمضان. وفى الليلة الختامية لشهر رمضان، يوزع السلطان الأموال والهدايا على العلماء والفقهاء والقضاة الذين شهدوا القراءات الليلية، وشاركوا فيها، ويدعو الحاضرون للسلطان، وينتهى هذا الشهر الكريم بمكاسب روحية جليلة، فضلا عن أن العلماء كانوا طوال اليوم يعقدون حلقات الوعظ والعلم عقب كل صلاة.

وكانت القراءات والمراسم الحكومية ، يقرأها مندوب السلطان المملوكى على منبر الجامع الأزهر لإعلام أهل القاهرة، فيعرفها أهل القاهرة، وقد تقرأ أيضا فى الجوامع الكبيرة، مثل جامع عمرو بن العاص، وجامع الحاكم بأمر الله وجامع ابن طولون.

ويشرف على إدارة الجامع الأزهر، ناظر الأزهر، وهو من كبار أمراء الدولة، ويشرف على شؤون الطلاب المجاورين، من حيث تأمين معيشتهم وإقامتهم فى الجامع وعليه الاطمئنان إلى وصول الغذاء إلى الطلاب فى المواعيد المحددة، وعليه الاطمئنان على إنارة المسجد ليلا، والإشراف على نظافته وفرشه وعليه مباشرة الصلوات فى مواعيدها، وتأدية خطبة الجمعة فى وقتها، ومن أهم اختصاصاته تنفيذ وصية الوقف التى تحدد أوجه الإنفاق على المسجد، من نظافة وفرش وأثاث وعمارة وإضاءة، وصرف رواتب لعلماء وخطباء المسجد، ولعمال المسجد القائمين بنظافته وجلب المياه إليه.

وكان المصريون على اختلاف طبقاتهم، يفدون إلى الجامع الأزهر منذ عصر المماليك، إذا حلت الأزمات فى البلاد، مثل الأوبئة أو المجاعات، أو كوارث فيضان أو أزمات اقتصادية أخرى،



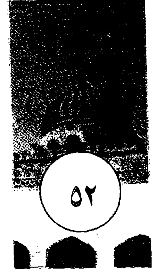
ويلتف المصريون حول شيوخه، وتُعقد فى الجامع الصلوات يدعو الإمامُ اللهَ بتخليص البلاد مما هم فيه من بلاء وبؤس، ويسأل الله رفع الضر والأذى عن الناس، وكان الناس يعتقدون أن الدعاء فى هذا المكان مستجاب؛ لأن الله باركه، بفضل القرآن الكريم الذى يتلى فيه صباح مساء، ومشايخ العلم يعقدون طوال اليوم حلقات الفقه والتفسير والحديث، وفضلا عن أهل التقوى والورع من العلماء والفقهاء والزهاد، يجلسون فيه طوال اليوم.

لما حل بمصر وباء الطاعون سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، ومات الكثير من الناس، واشتد الكرب وعظم البلاء، أمر قاضى القضاة الناس بالذهاب إلى الجامع الأزهر والصلاة والدعاء من أجل أن يذهب عنهم البلاء والجوع، وفى سنة ٨٣٣هـ/ ١٤٢٧م اشتد الوباء فى القاهرة، ومات الكثير من الناس، فلجأ الناس إلى الجامع الأزهر وبعد صلاة الجمعة، قاد أربعون شريفا المصلين، يقرأون القرآن ويتلون صحيح البخارى فى الأزهر حتى صلاة العصر، وبعد الصلاة أخذوا فى الدعاء، يسألون الله تخليصهم من هذه المحنة القاسية، ومن وباء الطاعون المدمِّر، والمصيبة الكبرى التى لحقت بهم. ومازالوا يواصلون الدعاء حتى استجاب الله لدعائهم وتوقف الوباء، وعاد الناس إلى ممارسة حياتهم العادية، بعد أن هجروا أعمالهم، واعتكفوا فى البيوت خوفا من العدوى.

كما لجأ المصريون إلى الجامع الأزهر فى المجاعات، ففى سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٨م، اشتد الغلاء فى مصر، وقلَّت المواد الغذائية مثل القمح والفول والعدس والخضروات، وأغلقت المخابز أبوابها، فاجتمع الناس حول شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى، ولجأوا إلى الجامع الأزهر، وأمَّهم الشيخ فى الصلاة، وظل يدعو الله بإزالة الغلاء والجوع عنهم حتى استجاب الله لدعائهم - كما يقول المقريزى - وزال عنهم الكرب والبلاء، وجاءت المراكب إلى الفسطاط تحمل القمح والقوت، فتوفرت المواد الغذائية فى الأسواق وعادت الأسعار إلى وضعها السابق.

وإذا زاد الفيضان، وخاف الناس من غرق القرى والمزارع أو إذا نقص المقياس عن ستة عشر ذراعا، وخشى الناس من قلة ونقص الماء مما يؤدى إلى الجفاف وبالتالى المجاعة والوباء، وكل هذه الكوارث التى يسببها ارتفاع الفيضان أو نقصانه، تصيب الناس بالذعر والحزن والخوف. وفى تلك الحالتين يذهب الناس إلى الجامع الأزهر، ويقودهم قاضى القضاة والفقهاء والعلماء، ويصلون بالناس، ويسألون الله رفع الذل والبؤس عنهم، ويقضى الناس فى الجامع الأزهر يوما أو بعض يوم، يتضرعون إلى الله ويتوسلون إليه ، ويسألونه أن يزيل عنهم الكرب والبلاء والجوع.

كذلك لجأ المصريون إلى الجامع الأزهر، عند الكسوف؛ ففى سنة ٨٢٢هـ/ ١٤٢٠م، نادى المنادون فى القاهرة قبل الظهر يدعون الناس إلى الاجتماع فى الجامع الأزهر لأداء صلاة الكسوف، واجتمعوا فعلا فى الجامع، وصلى بهم فى الأزهر ابن حجر العسقلانى صلاة الظهر، بعدها صلى



صلاة الكسوف، ركعتين وأطال الركوع والسجود، ودعا وأطال فى الدعاء وصعد المنبر وخطب فى الناس خطبتين وعظ الناس وحذر وأنذر، ورغَّب ووعد.

وكان السلطان المملوكى قايتباى من أكثر سلاطين المماليك اهتماما بالجامع الأزهر، فقام بترميم ما يستحق الترميم وإصلاح مبانيه، وكان يتردد على الجامع الأزهر للصلاة، وأحيانا يتردد على الجامع خفية وفى زى المغاربة، ويتفقد المسجد وأروقته ويصلح ما يحتاج إلى إصلاح، ويجدد فرش المسجد، ويكثر من إضاءته.



السلطان الأشرف قايتباى

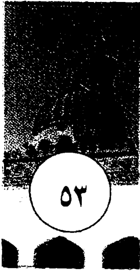
(لوحة الفنان چنتيلى)

كان الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى -كما أسلفنا- يُدرَّس فيه الفقه الشيعى فقط، فلما أعاد افتتاحه السلطان الظاهر بيبرس، عادت الدراسة فيه بالمذهب الشافعى والمذاهب السنية الأخرى.

وعُنى المماليك البحرية والجراكسة بالجامع الأزهر، وتحوَّل من تدريس المذهب الشافعى إلى تدريس العلوم الإسلامية وقدَّم السلاطين كل عناية للمسجد من حيث تجديد عمارته والإنفاق على العلماء والطلاب، حتى أصبح جامعة يفد إليها الطلاب من أنحاء مصر وخارجها، وعادت إلى الأزهر مكانته، بعد أن أضعفه وأهمله الأيوبيون بإنشاء المدارس الدينية التى ألغت وجود الأزهر كجامعة عالمية.

وكان وقف الأزهر يكفى طلابه وعلماءه حتى الوافدين إلى الأزهر من العلماء والطلاب من أنحاء العالم، وكانت مصر تتمتع بثراء كبير من التجارة العالمية الآتية من أوروبا، التى كانت تمر عبر مصر إلى الشرق، ويؤدى التجار عن بضائعهم الضرائب الباهظة، وهذا أدى إلى ثراء مصر، وبالتالى إلى كثرة الأموال الموقوفة على الجامع الأزهر، وهذا هو العصر الذهبى للأزهر.

ومن العلماء الذين وفدوا على مصر، **محمد الفاسى**، قدم من المغرب، وتصدى للتدريس فى الجامع الأزهر، وممن تتلمذ على يديه وحضر دروسه، الكثير من العلماء مثل ابن حجر العسقلانى، (ت: ٨٤٢هـ/ ١٤٣٢م)، ومن علماء الأزهر سراج الدين البلقينى،



(ت: ٨٦٨هـ/ ١٤٦٥م)، و بدر الدين العينى، (ت: ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) ، وشرف الدين المناوى، (ت: ٨٧١هـ).

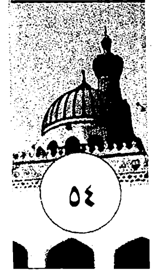
وعلى الرغم من وجود مدارس وجوامع بها حلقات دراسية إلا أن الأزهر، كانت له السيادة العلمية على كل هذه المدارس ليس فى مصر فقط، بل وفى أنحاء العالم الإسلامى.

اكتسب الأزهر مكانته ولم يعد له منافس؛ ذلك لأن المغول دمروا المدن الإسلامية فى شرق الدولة الإسلامية، كذلك استولى الأسبان على مدن الأندلس، فهاجر العلماء من مدنهم إلى القاهرة، بحثا عن الأمن والسلام ومواصلة دراستهم فى اطمئنان، وهدوء واستقرار. والعلماء لا يطيقون الحياة فى ظل التوتر والاضطراب، فوجدوا الترف والنعيم فى القاهرة والمكان الذى يقدِّر العلماء والدارسين. ولم يكن هؤلاء العلماء والطلاب الذين وفدوا من مشرق الدولة الإسلامية ومغربها فقط بل نلاحظ أن علماء وطلاب أفريقيا جنوب الصحراء، فى رحلاتهم إلى الحج، استقروا بالقاهرة بعض الوقت، واجتذبهم الأزهر فالتحق الكثير منهم بحلقات الأزهر، وحصلوا على الإجازات العلمية، وعادوا إلى بلادهم ينشرون العلم، ويفيدون الطلاب والدارسين، وبذلك تزعم الأزهر الحركة العلمية فى العالم الإسلامى.

والمجلس العلمى فى الأزهر يبدأ بما يسمى التصدير، فالشيخ يجلس على كرسيه وحوله الطلاب. ويقوم المعيد بتقديم الشيخ إلى طلابه والموضوع الذى يزمع التكلم فيه، فيتصدر الشيخ للدرس، وقد يكون تفسير آية أو آيات أو يلقى عليهم بعض الأحاديث ويشرحها، أو يطرح مسألة أو مسائل فى الفقه ويناقشها.

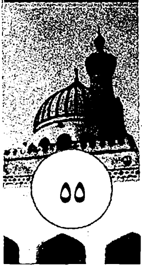
وبعد أن ينتهى الشيخ من درسه، يفسح المجال لطلابه بالمناقشة والاستفسار عما غمض من موضوع الدراسة.

وحينما يلتمس الشيخ من طالب من طلابه، إتقان الدراسة التى أخذها عنه، كأن يحفظ كتبه أو كتب غيره ويحفظ دروس شيخه وأقواله وأفكاره جيدا، يمنحه الشيخ إجازة بالفتوى والتدريس، وقد أورد القلقشندى بعض هذه الإجازات، ومنها الإجازة التى حصل عليها القلقشندى من شيخه سراج الدين أبو حفص، وكتبها تاج الدين أبو غنوم. والإجازة تكتب على ورق كبير الحجم. وهذه الإجازة الأولى.



وإذا حفظ الطالب كتابا من علم من العلوم كالفقه أو أصول الفقه أو التفسير أو الحديث أو النحو أو البلاغة أو غير ذلك، فإن شيخه يعرض الطالب على شيخ الأزهر، فينتدب عالما لامتحانه، والممتحن يطلب من الطالب استظهار الكتاب أو فصولا منه، وإذا تأكد الشيخ من أن الطالب حفظ الكتاب جيدا وفهمه وأجاب على أسئلة الشيخ التى تؤكد فهم الطالب لما ورد فى الكتاب ومن أن الطالب علَّق على الكتاب تعليقا حسنا ومطلوبا، يمنحه الشيخ الإجازة ، فقد حفظ الشيخ شمس الدين محمد عبد الدايم كتاب (المنهاج فى الفقه) للنووى سنة٨١٣هـ، وتسمى الإجازة بعراضة الكتاب، وهذه الإجازة الثانية. الإجازات (إجازة بالمرويات على الاستدعاءات) وهذه الإجازة من الإجازات تصدر من أحد علماء الأزهر إلى عالم فى البلاد الإسلامية، وله إنتاج علمى متميز، ينال التقدير العميق من الشيخ ومعه بعض زملائه، وهذه الإجازة توفر على طالبها عناء السفر إلى القاهرة، ويعتز بها من يحصل عليها، ويعتبرها شرفا له. وهذه الإجازة تدل على مكانة الأزهر العالمية والعلمية، مثل الإجازة التى حصل عليها عالم شامى من شيخ الأزهر البارز، صلاح الدين الصفدى.

والكتب التى تدرَّس فى عصر المماليك فى الأزهر، هى المصادر الأصلية لعلوم الدين واللغة، مثل تفاسير الطبرى والقرطبى وابن كثير وكتب الحديث الستة؛ البخارى ومسلم والترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجه. ومن كتب الفقه، كتب الأئمة الأربعة وابن حزم والبيهقى ومسند ابن حنبل وموطأ مالك والنحو لسيبويه ودواوين الشعر الجاهلى والأموى والعباسى، وكتب البلاغة وألفية ابن مالك، والمنهج المتبع فى الدراسة، حفظ الكتب دون فهمها أحيانا أو استيعاب ما فيها من خلال متابعتهم لشروح شيوخهم. والبعض يحفظ ويفهم ما يحفظه ويفهم جيدا ما فى هذه الكتب، ويستفيد من شيوخه وتعليقاتهم وشروحهم. وهؤلاء هم الذين يحصلون على الإجازات التى تعطيهم الحق فى الفتيا والتدريس. والطالب المتميز الذى يزكيه شيخه ويمنحه الإجازة، يحق له أن يجلس على كرسى للتدريس، ويحدد ناظر الجامع وقت درسه ومكان حلقته.

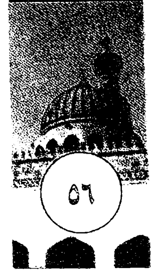


الأزهر فى العصر العثمانى

ضعفت دولة المماليك، بسبب تحول طريق التجارة عبر مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح، فضعف وتدهور اقتصادها، وفشلت أمام البرتغاليين فى محاولة صدهم عن الشرق، وحصار دولة المماليك اقتصاديا، وشجع هذا التدهور الشديد، الأتراك العثمانيين على تحقيق سياستهم الرامية إلى الاستيلاء على مصر والشام، وفعلا زحف السلطان سليم الأول إلى بلاد الشام، وانتزعها من المماليك، وفى سنة ١٥١٧م، هزم العثمانيون المماليك فى موقعة الريدانية، ومن أهم نتائجها إسقاط دولة المماليك، والسيطرة على مصر. وتحولت مصر إلى ولاية عثمانية بعد أن كانت مقرًا لسلطنة المماليك.

يذهب البعض إلى أن الأزهر تدهور فى عصر العثمانيين، لأنهم لا يشجعون العلم، ولا يسعون إلى ازدهاره. ولكن الواقع يختلف تماما عن ذلك، فقد ظل الأزهر فى العصر العثمانى على ما كان عليه، يفد إليه طلاب العلم من أنحاء مصر ومن مختلف البلاد الإسلامية ويقيمون فى أروقة الأزهر سنين طويلة، يدرسون على المشايخ الفقه والتفسير والحديث والنحو والأدب والبلاغة، بل وفد بعض الشيوخ إلى مصر، وعقدوا حلقات العلم فى أوقات معينة، وواصلوا رسالة الأزهر فى نشر العلم والمعرفة، بل توسع علماء الأزهر فى تدريس العلوم المختلفة، فدرس بعضهم الطب والفلك والرياضيات، وكان الطلاب والشيوخ، يتقاضون رواتب أو جراية من الأوقاف التى أوقفها أهل الخير على طلاب وشيوخ الأزهر. ونذكر من هؤلاء الشيخ مجد الدين الأقصرائى -وهو من العلماء الأتراك الذين وفدوا على مصر، وكان بالأزهر رواق الأتراك، ووفد على مصر من الدولة العثمانية المولى الحاج باشا، وقام بالتدريس فى الجامع الأزهر وذلك فى عهد السلطان العثمانى بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) وأضاف إلى تخصصه فى العلوم الدينية واللغوية، تخصصا آخر فى الطب وصنف فى ذلك كتاب (الشفاء فى الطب).

ومن علماء العثمانيين الذين وفدوا على مصر، وألقوا دروسا فى الجامع الأزهر، المولى أحمد بن إسماعيل الكورانى فى عهد السلطان مراد الثانى (١٤٢١-١٤٤٤م) حصل على إجازة فى الحديث من أستاذه ابن حجر العسقلانى، وضمت حلقته فى علوم الدين، الطلاب والشيوخ والعلماء، وتوفى سنة ١٤٥٨م.



ومن علماء العثمانيين الأتراك المولى محيى الدين الكافييجى أستاذ العلامة جلال الدين السيوطى، وفد إلى مصر، وقام بالتدريس فى الجامع الأزهر، وهو من علماء الكلام وأصول الفقه والحديث والتفسير والنحو والصرف والبيان والمعانى والمنطق، وقام بالتدريس فى المدرسة الشيخونية علوم الفلسفة والهيئة والتفسير والحديث، وله مؤلفات عديدة، ولما كبر سنه وشعر بالضعف والوهن، غادر مصر وعاد إلى بلاده حيث توفى سنة ١٤٧٤م.



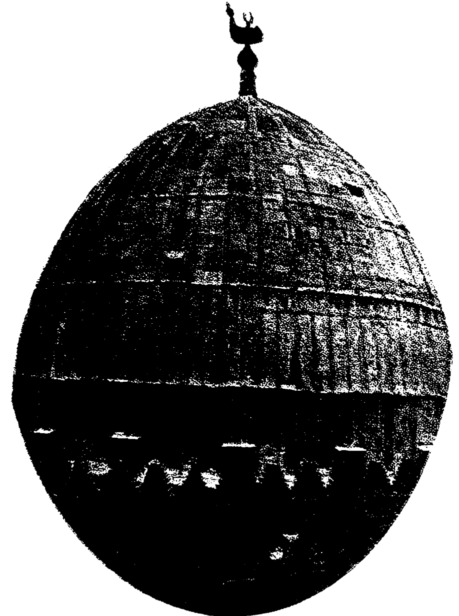
السلطان العثمانى سليم الأول



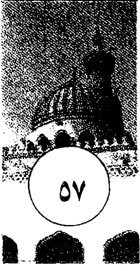
عُملة ذهبية باسم السلطان «سليم الأول» ضرب مصر



السلطان العثمانى «سليمان القانونى»



القبة الخشبية لمقام الإمام الشافعى



وكما رحل علماء من الدولة العثمانية إلى مصر للتدريس فى الجامع الأزهر، والاستفادة من العلوم التى تدرس فيه، فقد رحل بعض علماء الأزهر وشيوخه إلى الآستانة -حاضرة الدولة العثمانية- ولقاء علماء وكبار رجال هذه الدولة، وذلك انبهارا وتقديرا، لما بلغته الدولة العثمانية من انتصارات، رفعت من شأن الإسلام والمسلمين، ووحدت معظم البلاد الإسلامية تحت رايتها، وضمت إلى أرض الإسلام، بلادا جديدة فى أوروبا، بحيث تحولت الدولة العثمانية إلى إمبراطورية آسيوية أوروبية، أنقذت المسلمين مما بلغوه من ضعف ووهن.

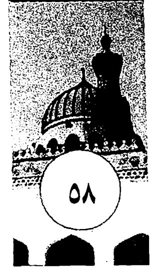
ولما فتح العثمانيون مصر ١٥١٧م، قدروا الجامع الأزهر وقدروا رسالته الدينية الكبيرة، فهو حامى السنة، وواضع الإسلام فى إطاره العلمى السليم والدقيق، ولم يعد ينافسه منافس، بعد سقوط بغداد فى أيدى المغول، وبعد استرداد الأسبان للأندلس، وسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م.


عُملة ذهبية باسم السلطان سليمان القانونى - ضرب الجزائر

ولقى الأزهر تدعيم وتقدير السلاطين العثمانيين، فالسلطان سليم الأول زار الأزهر بعد فتح مصر، والقضاء على دولة المماليك، والتقى فى الأزهر بشيوخه وعلمائه وطلابه، ورحبوا به، وقدموا له بعض طلباتهم، ووعد بالنظر فيها، وزار الجامع الأزهر قبل سفره، وودع علماءه وشيوخه وطلابه، وتبرع للأزهر بمبالغ مالية وعينية كبيرة، ومنع السلطان سليم الأول جنده من التعرض للجامع الأزهر أو للمنطقة التى يقع فيها الجامع، كما تعرضوا للمدارس والمؤسسات الأخرى بالتخريب والتدمير، وأصدر مرسوما يقضى بالمحافظة على الأوقاف التى أوقفها سلاطين المماليك وأهل الخير من أثرياء مصر، والإبقاء على أوجه إنفاقها على إصلاح الأزهر، وعلى رواتب علمائه وطلابه وشيوخه وموظفيه، لا ينتقص منها شيء .

وأصدر السلطان سليمان القانونى، قانون نامة، ويقضى بأن ضريبة الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة فى مصر، ينفق قسم منها على علماء وشيوخ وطلاب الأزهر، وتؤكد المصادر أن الموارد المالية للأزهر كانت ضخمة بحيث تكفى لمعيشة الشيوخ والطلاب، وكان الطلاب الفقراء يجدون من الطعام والكساء ما يكفيهم من أموال الأزهر.

ولم يقتصر الاهتمام بالأزهر على السلاطين فقط، بل إن بعض الباشوات العثمانيين فى مصر، قدموا للأزهر كل ما يمكن حتى يعيش العلماء والطلاب فى رخاء وسعادة، وعنوا بإدارة



الأزهر، وبنظافته، وإصلاحه وترميمه، وتغيير فرشه، وتنظيف أروقته والاهتمام بالإقامة المريحة للشيوخ والطلاب، والاهتمام كذلك بتغذية الطلاب والعلماء، وتقديم الكساء لهم، وخصوصا العمائم والجبب والقفاطين.

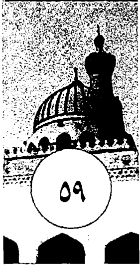
وحاول بعض الملتزمين -وهم جامعو الضرائب- التلاعب فى الأوقاف المخصصة للأزهر، والتباطؤ فى دفع الرواتب المخصصة للعلماء والطلاب والعاملين، مما دفع العلماء إلى الذهاب إلى القلعة، ومقابلة الباشا العثمانى، وتقديم الشكوى له من تأخر معاشاتهم، فأمر الباشا العثمانى الملتزمين بسرعة دفع مستحقات العلماء والطلاب كاملة، وعدم التباطؤ فى أدائها فى المستقبل.

ازداد تفوق علماء الأزهر فى العصر العثمانى حتى أن الشيخ سليمان مصطفى المنصورى، أرسل إلى قاضى القضاة، يستنكر تنفيذه لأمر أصدره السلطان العثمانى، ويتنافى مع الشريعة.

على أن الشيخ على بن أحمد الصعيدى العدوى، (ت:١٧٧٦م) استنكر ظلم على بك الكبير للرعية، وما نُسب إليه من أنه يشرب الخمر وكان هذا الأمير يقضى كل ما يطلبه هذا الشيخ الجليل.

وكان محمد بك أبو الدهب -أمير المماليك فى مصر- ينظر فى كل مطالب الشيخ العدوى، ويزيل الشكاوى التى يرفعها أهل مصر إلى هذا الشيخ. الذى يرفعها بدوره إلى الأمير المملوكى. وحينما تعددت مطالب الشيخ وتردد فى تنفيذها الأمير المملوكى، قال الشيخ للأمير: لا تضجر ولا تأسف على شىء يفوتك بغير حق فى الدنيا، فإن الدنيا فانية، وكلنا نموت، ويوم القيامة يسألنا الرب عن تأخرنا عن نصحك، وإذا تردد الأمير المملوكى فى تنفيذ مطالب الشيخ، يصيح الأخير فى وجهه قائلا اتق النار وعذاب جهنم.

أثبت علماء الأزهر زعامتهم الشعبية، حينما تعددت مظالم المماليك فى مصر، وأصبح الباشا العثمانى غير قادر على حكم البلاد، بسبب تسلط المماليك وزعيمهم إبراهيم بك، فأرسل السلطان العثمانى حملة بقيادة الجزائرلى باشا لتأديب المماليك، وتخليص البلاد منهم، فخرج علماء الأزهر إلى القائد العثمانى، وطلبوا منه حل المشكلة مع المماليك سلميا؛ لأن بيوتهم تجاور المصريين، كما أنهم يعيشون بينهم، وأى تدمير لهم سيصيب المصريين، فوعد القائد العثمانى بعدم التعرض للمصريين، وحينما قدم الجزائرلى باشا إلى القاهرة هرب المماليك إلى الصعيد، فأمر القائد العثمانى ببيع نساء وبنات المماليك فى سوق الرقيق، وصادر أموال وممتلكات المماليك، فذهب إبراهيم بك أمير المماليك إلى الأزهر، وطلب من العلماء التوسط بين المماليك والعثمانيين واجتمع بعلماء الأزهر وعلى رأسهم الشيخ العروسى -شيخ الجامع الأزهر- وطلب منهم منع



الرعية من الثورة ضدهم أى ضد المماليك حتى لا يكونوا بين نارين، العثمانيين من ناحية والشعب المصرى من ناحية أخرى، واستنكر علماء الأزهر فى مقابلتهم للجزائرلى باشا، هتك الحريم وبيع الأحرار وأمهات الأولاد وغضب الجزائرلى باشا من موقف العلماء المتشدد فى الحق، وامتنع عن شكواهم للسلطان العثمانى، بعد أن أظهروا له أنهم لا يخشون إلا الله.

وطلب الجزائرلى باشا من الشيخ السادات سنة ١٧٨٦م، أن يسلمه وديعة أودعها عنده إبراهيم بك، لأن صاحبها على قيد الحياة، وحماه الله ببركة الانتصار للحق ، وقال الجزائرلى باشا: لم يجرؤ أحد على مخالفتى إلا هذا الرجل فى كافة الممالك التى تجولت فيها .

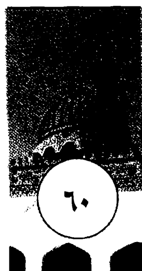
وبذلك نرى أن علماء الأزهر، لعبوا دورا كبيرا فى زعامتهم لشعب مصر، ولجأ أهل مصر إليهم يطلبون منهم رفع الظلم الذى قاسوه من أمراء المماليك. وفى نفس الوقت لجأ زعماء المماليك إلى مشايخ الأزهر، يطلبون منهم التوسط بينهم وبين العثمانيين من ناحية، وبينهم وبين شعب مصر من ناحية أخرى، ومنع المصريين من الانضمام إلى العثمانيين فى موقفهم العدائى من المماليك. وهذا يثبت مكانة الأزهر الكبيرة فى الدولة العثمانية.

ولم تقتصر العناية بالأزهر على سلاطين آل عثمان وباشوات مصر، بل إن حكام بعض البلاد الإسلامية، عرفوا قدر الأزهر ومكانته فى نشر علوم الدين واللغة والأدب، فأرسلوا الهبات المالية إلى الأزهر، لتنفق على شيوخ الأزهر وطلابه وإدارة المسجد.



كان للأزهريين زى مميز، يتكون من العمامة والجبة والقفطان، والعمامة عرفها العرب منذ فجر تاريخهم، وقال العرب: ما زالت العرب عربا مالبست العمائم وتقلدت السيوف، ويقول الجاحظ: وللخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللأبناء عمة، وللروم والنصارى عمة، وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة، وهو الشال، ويسمى الغطرة، وكان علماء بغداد يسمون أصحاب الطيالس، والعمة عبارة عن غطاء للرأس كالقلنسوة أو الطاقية، وملفوفة بالطيلسان، والبعض كان يلقى الطيلسان من رأسه على وجهه، كما يفعل سكان الجزيرة العربية اليوم.

وكان الفقهاء في الدولة العباسية يلبسون بالإضافة إلى العمامة، القباء وهو ثوب طويل يغطى الجسم ومشقوق من الأمام من أعلى إلى أسفل، وانتقل هذا الزى إلى مصر فيما يسمى



الجبة، وبمرور الزمن، غيـرَّ الأزهريون الجبة ولبسوا بدلا منها الـكاكولا، وهى تشبه الجبة، وإن كان لها ياقة تغطى الرقـبة وتأثر الأزهريون فى العصر الفاطمى بالمغاربة، وأصبحت العمامـة البيضاء تتكون من طربوش مغربى يشبه الـطاقية، أحمر داكن له زر، وانتقل هذا الزى إلى سائر المصريين فى عصور المماليك والعثمانيين حتى الوقت الحالى.

إذن الزى الأزهرى عمامة وجبة أو كاكولا وتحت هذه أو تلك القفطان، وهو ثوب مفتوح من الأمام كالجبة، وله حزام من القماش. والزى الأزهرى يعطى لصاحبه مظهرا فخما لأناقته وكماله.

طرق التعليم فى الأزهر:

كان الشيخ يقوم بالتدريس فى وقت معـين، ويجلس وراء عمود محدد، وعلى كرسى عال مصنوع من الخـشب أو الجريد، ولا يلحق بطلابه إلا من امتـحنه وتأكد من مقـدرته على الدراسة عنده، ويجلس الطلاب حول الشيخ فى حلقـة للاستماع إليه، والطالب لا يستـطيع أداء الامتحان التمهيدى لشيخه إلا إذا مر بمراحل تعليمية معروفة، فلا بد وأن يدرس فى الكتاب، ويحفظ القرآن الكريم، ويتعلـم القراءة والكتابة والحـساب ثم يلتحق بإحـدى المدارس فى مصـر، بعدها يحق له اختـيار الشيخ الذى يريد أن يلتـحق بحلقة درسه، ويجلس الشـيخ -كما قلنا- على كـرسى عال وحوله الطلاب، ويلقى الشـيخ درسه، ثم يتيح الفرصة للطلاب للاسـتفسار عمـا يصعب عليهم فهـمه أو يسألونه عـما يغـمض عليهم، والشيخ يـناقش تلاميذه، ويجـيب على أسئلتـهم، وبعد الدرس، ينصرف الشـيخ ويشرح المعيد الدرس للطلاب، ولا يتـركهم إلا بعد أن يفهـموا الدرس جيـدا. وهذا المعيد، إذا رضى عنه أسـتاذه، وأثبت جدارة ، يصـبح شيخـا كأستـاذه ولم تتدخل الدولة العـثمـانية فى منـاهج الدراسة، بل أبقت على دراسـة المذاهب الأربعـة، وعلى الرغم من مذهبـها الحنفى، فكثـر أنصار المذهب الشـافعى فى مـصر؛ لأنه عاش ودُفن بـها، إلا أن الدولة العثـمانية احتـرمت هذا المذهب بل حرص الباشـوات العثمانيـون على زيارة قبر الإمام الشـافعى والصلاة فى مسجده. وأحيانا يلقى الشيخ درسه على طلابه ويشرح أثناء إلقاء الدرس وأحيانا يملى على الطلاب من كتاب معين له قيمته وقدره، والطلاب يكتبون المحاضرة.

والدراسة الأسـاسيـة فى الأزهر، هى علوم الدين كالفـقه والقـراءات والتفـسيـر والحديث والعلوم اللغوية كالبلاغـة والصرف والنحو والشعر وكانت الدراسة تتم باللغة العـربية، كما عرف الأزهر أساتذة درسوا باللغات التركية والفارسية، وتعددت الدراسة فى الأزهر إلى علوم أخرى غير علوم الدين واللغـة، مثل الطب والهندسة والرياضـيات والفلك إلا أن هذه الدراسـة كانت نظرية

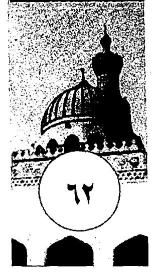


ويفتقر الطلاب فيها إلى الجانب العملى. ومن الأساتذة المعروفين بالأزهر الشيخ محمد بن إسماعيل السكندرى الذى عرف اللغات العربية والفارسية والتركية، (ت:١٧٦٩م)، والشيخ على بن محمد ابن الجزائرى، (ت:١٧٧١م)، والشيخ حسن الجبرتى كان يعرف اللغة الأمهرية، وبرع فى الطب، وكان يحتفظ بتركيبات أدوية، تقى الناس من أمراض كثيرة، وكان عالما فى الرياضيات والفلك.

أروقة الأزهر

ضم الأزهر أروقة لإقامة الطلاب، والرواق عبارة عن غرفة أو أكثر تتضمن كل وسائل الراحة، مثل دورة مياه وخزانة كتب وخزانة لحفظ الأمتعة، والرواق نوعان نوع لإقامة الطلاب المصريين القادمين من أنحاء مصر، ويقيمون فى الرواق إقامة كاملة عدة سنين، حتى ينتهوا من دراستهم، ولهم رواتب، ويقوم الأزهر على راحتهم فلهم وجبات وأكسية تقدم لهم من أوقاف الأزهر، والرواق يقيم فيه الطلاب حسب الأماكن القادمين منها، مثل رواق الصعايدة ورواق الشراقوة ورواق المناصرة، والأروقة الأهم، هى أروقة الطلاب الغرباء، ويقبلون فى الأزهر دون شروط، ويرحب الأزهر بهم ولكل بلد رواق، مثل رواق الشوام ورواق العراقيين ورواق الفرس، ورواق الأتراك.. إلخ، وهؤلاء الغرباء يلقون رعاية كاملة من الأزهر ، ويبقون فى الأزهر سنوات للدراسة، ويعودون بإجازاتهم إلى البلاد، مقدرين ما نالوه من رعاية فى الأزهر الشريف، وهؤلاء الطلاب الذين عادوا إلى أوطانهم شيوخا يحملون العلم الذى تلقوه فى الأزهر، يرسلون طلابهم إلى الأزهر للتزود بالعلم ويراسلون شيوخهم وتلاميذهم، ومن ثم أوجد الأزهر، روابط وثيقة بين أبناء البلاد الإسلامية، وإذا حصل الطالب على إجازة من شيخه، يقرر دراسته فى العلم الذى تلقاه منه بشكل جيد وتتضمن الإجازة توصية من الشيخ لتلميذه بتقوى الله وتحرى الدقة والأمانة فى الفتيا، وأحقيته فى التدريس وفور حصول الطالب على الإجازة، ومغادرة الأزهر يقيم حفلا فى رواقه ويضاء الرواق بالقناديل والشموع، وتقدم للطلاب والشيخ بعض أنواع الحلوى والمشروبات، ويودع الطالب شيخه وطلابه .

وللرواق شيخ يقوم بمباشرة شؤون الطلبة ، وفض المنازعات بينهم ومراقبتهم، واستبعاد عناصر الشغب فى الرواق وهو من مدرسى الأزهر، أما النقيب فهو المدير الإدارى للأزهر،



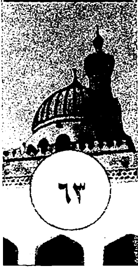
والجابى هو المسؤول المالى، يقدم للطلاب رواتبهم وأطعمتهم وأكسيتهم، وأمين المكتبة عليه تزويد المكتبة بالكتب التى يحتاجها الطلاب، ليعطى الفرص للطلاب للقراءة والاطلاع، ومساعدتهم فى الحصول على الكتاب، والمحافظة على كتب المكتبة.

شيخ الجامع الأزهر

ليس من الواضح فى المصادر التاريخية بداية نشأة منصب شيخ الأزهر وإن كانت مصادر كتب المماليك تتكلم عن شيخ الإسلام والمسلمين، وهو لقب يمنح لمن بلغ مكانة كبيرة من العلماء، ولا ينطبق على شيخ الأزهر، والذى كان يتولى إدارة الأزهر، ناظر الأزهر ويدير شئون المسجد وذلك بالإشراف على عماله وفرشه، وتنظيم أوقات وأماكن الدراسة للشيوخ، ويتولى شيخ الرواق، النظر فى شؤون طلاب الرواق، وحل مشاكلهم، ويتولى قاضى القضاة، الإشراف على الأوقاف الخاصة بالأزهر، وإنفاقها فى أوجهها طبقا لما تضمنه الوقف، وناظر الأزهر عادة من أمراء المماليك أو المقربين إليهم.

ويذكر الجبرتى تراجم لشيوخ الأزهر فى العصر العثمانى دون سواه مما يدل على نشأة هذا المنصب فى ذلك العصر، وأول من يذكره ممن تولى هذا المنصب، الشيخ محمد بن عبد الله الخرشى، (ت: ١٦٩٠م).

وعادة شيخ الأزهر من كبار العلماء ، شيخ له ثقله العلمى، وله مؤلفاته ومصنفاته، بالإضافة إلى قدراته الإدارية والاجتماعية والسياسية، بحيث يستطيع انتزاع مطالب العلماء والطلاب من السلطات الحاكمة، بل وينقل لحكام مصر مطالب الشعب، ويسعى إلى تخفيف الظلم عنهم، ويباشر منصبه الدينى، فهو يدير الحركة العلمية فى الأزهر ويدافع عن الإسلام، وهو المرجع فى مسائل الشريعة والفقه وهو المفتى الأكبر، ويدافع عن الإسلام، ويباشر رسالة الأزهر بكفاءة واقتدار، وعليه أن يستقبل الجماهير ويستمع إلى مطالبهم الاجتماعية والاقتصادية، ويذهب إلى الباشا العثمانى فى القلعة والمطالبة بالعدل بين الرعية. وكلمته مسموعة لدى الحكام، وطلباته مجابة، ويقدِّره الناس ويلتفون حوله وهو مهاب لدى العلماء وطوائف الشعب، فهو زعيم روحى جليل القدر، وكان شيوخ الأزهر يعتدون بأنفسهم، ولا يستسلمون لقرارات السلطات الحاكمة، ويعارضون المظالم التى قد يلحقها الباشوات العثمانيون بالشعب وعلى سبيل المثال، كان



كـايـر بك -ملك الأمـراء- رفع رسوم الزواج والطلاق، فـخـرج طلاب الأزهر فى مظاهرة بقيادة الشيخ اللقانى وطالبوه برفع الظلـم عنهم، وإلغاء الرسوم، فاستجاب لهم، وسعى إلى التقرب من العلماء، وأرسل إلى الطلاب والعلماء مكافآت مالية.

ومن شيوخ الأزهر الذين لا يخشـون فى الحق لومة لائم، الشيخ السنباطى، فقـد قاد مظاهرة من طلاب الأزهر إلى داود باشـا -والى مصـر العثمـانى- يطالب بتحقيق مطالب الطلبة، ولما اشتد داود باشا فى الرد على الشيخ السنباطى، قال له: أنت خصى، ولا يـجوز لمملوك أن يحكم بلدا، فـالحاكم لابد وأن يكون حـرا. ولما علم السلطان العثمانى سليمان القانونى بذلك، أعتق داود باشـا، واحترم وقدر وجهة نظر الشيخ السنباطى، بل حدد له راتبا من خزانة مصر.

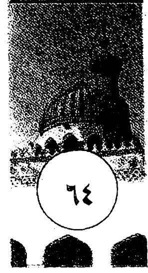
ولما قطع خضر باشا -والى مصر العثمـانى- أرزاق علماء مصر الأزهريين توجه إليه الشيخ أبو السرور البكرى ، (ت:١٥٩٨م) وطالبه بإعـادة حقوق العلماء، فاستجـاب خضر باشا لمطلب الشـيخ. وجدير بالذكـر أن هذا الشيخ كـانت له حلقات علمـية هامـة فى الجامع الأزهـر، وكان الباشوات العثمانيون فى مصر يحضرون حلقاته العلمية.

طريقة اختيار شيخ الجامع الأزهر:

تدل طريقة اختيار شيخ الجامع الأزهر على مدى إجلال العلماء والسلطات الحاكمة فى مصر والسلطان العثمانى، لهذا المنصب.

ترك العـثمـانيون الجـامع الأزهر يؤدى رسـالته دون تـدخل منهم بينما تـدخلوا فى تعيـين القضـاة. فكان شيخ الأزهر يُعين من العلمـاء الذين سبق لهم التـدريس فى الجامع الأزهر، ونال تقدير العلماء من النواحى العلمـية والأخلاقية، ويقوم العلماء بانتـخاب من يصلح لهذا المنصب، ويذهب وفد من العلماء إلى القلعة، ويبلغون البـاشا العثمانى بترشيحهم، فيصـدر الباشا العثمانى مرسومـا بتعيين الشيخ المرشَّـح شيخا للجامع الأزهر. وعلى أثر ذلك يذهـب الشيخ الجديد على رأس وفد من العلماء إلى القلعة فـيستقبله الباشا ويهنئه بالمنصب الجـديد ويخلع عليه خلعة تسمى (الكرك) وراتب شيخ الأزهـر عينا ونقدا وأحـيانا يحدث خـلاف بين العلماء حـول اختيـار شيخ الأزهر، فالعلماء المالكية يعارضون ترشيح شيخ شافعى، والشافعية يرفضون ترشيخ شيخ مالكى، وإذا اشتـد هذا الخلاف، وعرقل ترشيح شـيخ الأزهر يتدخل الباشـا العثمـانى، ويحسم الموقف، ويختار من يراه مناسبا لمشيخة الأزهر. ويصرف راتب شيخ الأزهر من ديوان الروزنامة.

وشيخ الأزهر مهمته -كـما أشرنا- أكاديمية علمية دينية، ويعـتمد الشهادات أو الإجازات، ويباشر انتظام الحلقات العلمية والخطابة والوعظ فى الجامع. وهو أيضا زعيم شعبى، يحقق مطالب



الجماهير. وواسطة بين الشعب والسلطات الحاكمة ونشأ هذا المنصب -كما عرفنا- فى العصر العثمانى.

وسبق هذا المنصب، منصب ناظر الأزهر -أشار إليه المقريزى - وهو من أمراء المماليك، وهو المشرف الإدارى والمالى للأزهر، ويشرف على الأروقة، ويتأكد من حسن سير وسلوك الطلاب فيها، ويتأكد من نظافتها ونظافة المسجد وإضاءته وفرشه وسلامة بنائه، ويشرف على نظافة دورات المياه والميضأة وإمدادها بالماء يوميا. وعليه أداء رواتب العلماء والطلاب والعمال فى المسجد فى مواعيدها من الأوقاف الخاصة بذلك. وعليه أن يشرف على إدارة العمل فى الجامع وأعمال العمال والحرس، وحل المشاكل التى قد تنجم من المقيمين فى الجامع بقصد الهروب من العدالة أو الاعتداء على الناس وسرقتهم.

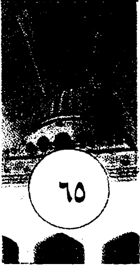
وبالاختصار: المحافظة على الأمن والنظام فى المسجد، وعليه التأكد من الأذان فى موعده ومن إقامة الصلاة فى مواعيدها وخطبة الجمعة من الإمام أو الواعظ المختص. وفى حالة غيابه أو مرضه يعهد إلى أحد ينوب عنه. وعليه مباشرة الشؤون الإدارية والمالية فى المسجد وهو يعمل تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر. وإذا مرض شيخ الأزهر فعلى الناظر أن يعهد إلى أحد العلماء بالقيام بعمله.

وشيوخ الجامع الأزهر، علماء لهم مؤلفاتهم التى أفادت طلاب العلم.

تزعم الأزهر الحركة الفكرية فى العالم الإسلامى، وكان قبلة العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية. وممن وفد على الجامع الأزهر، المقرى: صاحب كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) وهو مصدر من أهم مصادرنا عن تاريخ الأندلس أقام فى رواق المغاربة، وأضاف بعض مؤلفاته إلى مكتبة الأزهر الكبيرة، وسُمح له بتدريس الحديث فى الجامع الأزهر. وتوفى هذا العالم القادم من بلاد المغرب، من تلمسان بالذات سنة ١٦٣٢م.

وكان شيخ الجامع الأزهر عضوا فى الديوان الكبير الذى ينظر فى شؤون مصر السياسية وشؤون الحكم والإدارة والمال.

ومن مواقف الأزهر الهامة فى تاريخ الإسلام أن المماليك الذين كانوا يقومون بجمع الضرائب من المصريين والإنفاق على ما تحتاجه أوجه الإصلاح. وارتكب المماليك الكثير من المظالم مع المصريين، وامتنعوا عن أداء الأموال المقررة للسلطان العثمانى، مما اضطر عابدى باشا -الوالى العثمانى- إلى الالتجاء إلى شيخ الجامع الأزهر وطلب من شيخ الأزهر فتوى بجواز قتال المماليك العصاة الظلمة فاجتمع الشيخ العروسى -شيخ الجامع الأزهر- مع العلماء، ونظروا فى المظالم التى ألحقها المماليك بالمصريين، وتقصيرهم مع الباشا العثمانى والسلطان العثمانى، وأصدروا فتوى بجواز قتال المماليك المتمركزين فى الصعيد، وقرئت الفتوى على منبر الجامع الأزهر، وقد أضعفت هذه الفتوى من شأن المماليك، ووقّع علماء الأزهر على الفتوى، وذهب



الشيخ العروسى على رأس جماعة من العلماء إلى القلعة وسلموا للباشا الفتوى، فأصدر فرمانا بقتال المماليك.

الرواق والدراسة:

كانت الدراسة فى الأزهر مستمرة طوال السنة، ما عدا شهور الإجازات، وهى رجب وشعبان ورمضان وعيدى الفطر والأضحى وموالد السيد البدوى والحسين والسيدة نفيسة والسيدة زينب، ويغادر الطلاب أروقتهم إلى بلادهم، وبعض الطلاب الفقراء يمنعه قلة المال من السفر إلى بلده، فيظل مقيما فى الرواق. والطلاب فى الرواق مسؤولون عن تنظيف رواقهم وغسل ملابسهم. أما طعامهم فيأتيهم بشكل كاف من الجراية وقد يفيض الطعام عن حاجة الطالب، فيبيعه. وقد يعرض الخبز الفائض عنه فى الشمس الساطعة فى صحن الأزهر. وإذا تنازع طالبان، احتكما إلى شيخ الرواق، وإذا لم يستطع فض النزاع احتكما إلى ناظر المسجد، وإذا اشتد واستمر النزاع يفصل المحتسب بينهما. وشيخ الأزهر يحكم فى المسائل الكبيرة إذا تنازع فريقان من الطلاب نزاعا مذهبيا أو طائفيا كأن ينشأ نزاع بين الطلاب الشافعية والمالكية أو طلاب رواق الصعايدة وطلاب رواق المناصرة.

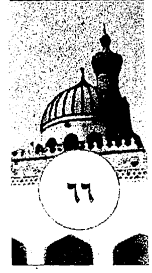
والرواق يسع الطلاب الوافدين من مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية. وإذا ضاقت الأروقة بالطلبة، تقوم إدارة الجامع الأزهر بإقامة أروقة جديدة، وذلك بإلحاق بعض الأبنية بالجامع الأزهر. والأروقة مفروشة بالحصير. وبعض الطلاب الأغنياء أو المتزوجون يعيشون فى دور تؤجَّر لهم، وتُجدد حصر الأروقة كل سنة وأحيانا كل ستة أشهر. وبعض الطلاب يحاول أن يعمل خلال طلبه العلم، كأن يشتغل فى بعض المحلات التجارية، أو قراءة القرآن فى المناسبات أو نسخ الكتب بخط جيد.

ويحمل الطلاب أثناء عودتهم من بلادهم الأطعمة والزاد الذى قد يكفيهم بعض الوقت. ويظل الطالب مقيما فى رواقه حتى يحصل على الإجازة أو يفشل فى طلب العلم.



طلبة الأزهر فى أحد الأروقة

(العصر العثمانى)



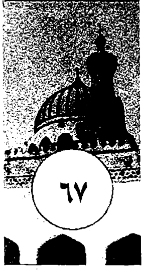
ومعظـم طلاب الأزهر -وهم المجاورون- متزوجون ويتركون أسرهم فى قراهم فى مصر. وغير المصريين يتركون أسرهم فى بلادهم. لذلك حرص المجاورون على العمل والكسب حتى يرسلوا نفقات أسرهم. والطلاب فى الرواق يحضرون دروسهم حسب موعدها. ويخصص لهم شيخ الرواق أوقاتا يقرأ معهم فيها جزءا أو أكثر من القرآن الكريم بشكل جماعى. وعلى الطالب فى الرواق تنظيف ثيابه ومشاركة زملائه فى تنظيف الرواق. وفى وقت فراغ الطلبة يجلسون فى صحن الأزهر للمذاكرة فى الصيف. وفى الشتاء يذاكرون فى داخل الرواق. وعلى الطالب الاطلاع فى مكتبة الرواق أو مكتبة الجامع الأزهر لتزويد معلوماته.

ويرتبط طلاب الأروقة بعلاقات طيبة مع بعضهم البعض، فإذا مرض طالب ذهبوا به إلى البيمارستان، وإذا احتاج إلى المال يساعدونه، وإذا توفى يقوم زملاؤه فى الرواق بتجهيزه وغسله، ويشترك فى تشييع جنازته طلاب الأروقة المختلفة والشيوخ والوعاظ فى الأزهر وأقاربه، ويدفن فى القرافة الكبرى فى مقابر أُعدت للمجاورين. ويتناوب الطلاب فى الرواق قراءة القرآن الكريم من بعد صلاة المغرب حتى العشاء. والطلبة المعاقون يجدون رعاية كاملة فى الأزهر من زملائهم، الطلبة العميان يذاكرون مع زملائهم ويقرأون لهم الكتب، وأحيانا يتفوق هؤلاء العميان على زملائهم، الذين يساعدونهم فى التنقل من مكان إلى آخر. والمعاقون جسديا يجدون من زملائهم المساعدة المخلصة فى الحركة والتنقل.

أما الطلبة الوافدون، فكانوا يفدون إلى الأزهر من بلادهم بعد أن تزودوا بالثقافة الإسلامية، وأقبلوا على الأزهر للدراسات العليا وكان مستواهم المعيشى جيدا، فأروقتهم وأدواتهم وملابسهم نظيفة ولهم وقف يعيشون منه فى مستوى لائق، كما أن أمراء مصر وتجار بلادهم، كانوا يتبرعون لهم بالأموال التى تكفيهم. والطلاب الوافدون يرتبطون بزملائهم المصريين بروابط قوية ومتينة ويقضى طلاب الأزهر أوقات فراغهم فى الألعاب الرياضية فى بولاق أو باب اللوق أو التجول على شواطئ النيل، أو الجلوس فى الحدائق والبساتين للسمر والفكاهة

وإذا انتهى الطالب المغترب من دراسته، واعتزم العودة إلى بلده، يقيم له زملاؤه فى الرواق حفلا كبيرا فى المساء، ويضاء الرواق بالقناديل، ويحضر الحفل الطلاب من الأروقة الأخرى والعلماء والمشايخ، وتقدم للحاضرين الحلوى والمشروبات والمأكولات، ويتلى فى الحفل بعض آيات الذكر الحكيم، ثم يلقى بعض زملائه كلمات يشيدون بالطالب وسمو أخلاقه، ومقدرته العلمية، ويرجون له مستقبلا باسما زاهرا وحياة سعيدة.

وهكذا فإن الأزهر فى العصر العثمانى، زادت مساحته، وازداد عدد طلابه من مصر والبلاد الإسلامية، وتعدد علماؤه وفقهاؤه، فكثرت حلقات الدرس فيه، التى شملت بالإضافة إلى علوم



الدين واللغة، بعض العلوم العلمية، كالطب والفلك والرياضيات والهيئة والفيزياء، وتعددت مؤلفات علماء الأزهر وشيوخه، وساهموا مساهمة فعالة فى ازدهار الفكر الإسلامى.

وإذا كانت مناهج الأزهر لم تشهد تجديدا فى العصر العثمانى، وبالذات قبل الحملة الفرنسية، فهذا ينطبق على العالم الإسلامى فى العصر العثمانى، حيث شهد جمودا وعزلة عن تقدم الفكر الغربى. وهذه فترة مؤقتة، فسنشهد بعد الحملة الفرنسية تغييرا فى الدراسات العلمية وتطورا بعد فك الحصار عن العالم الإسلامى، واتصاله بأوروبا.

موقف الأزهر من الحملة الفرنسية على مصر:

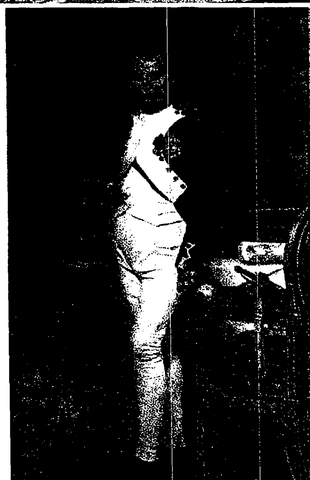
أحاط العثمانيون البلاد الإسلامية التى دخلت فى حوزتهم بسياج منيع من العزلة عن العالم الخارجى، وبينما كانت أوروبا تعيش فى نهضة عملية وفكرية شاملة، ودخلت فى عصر التنوير، ونبذت تخلف العصور الوسطى كانت الدولة العثمانية -بما فيها مصر- تعيش فى تخلف، بل وتزداد تخلفا، والجهل هو سبيل التخلف، لذلك تجمدت الحركة الثقافية والعلمية فى مصر بل وانحدرت إلى الوراء، ولما كان الأزهر رائد الفكر الإسلامى، فقد شهد تدهورا علميا فى العصر العثمانى، فلم نعد نجد علماء مفكرين يؤلفون الكتب الكبيرة والموسوعات، كما كان الحال فى عصر المماليك، بل وأوائل العصر العثمانى، اقتصر عمل علماء الأزهر على نقل كتب السابقين وتلخيصها، وتوقف الابتكار والتجديد فى مجال الدراسة والبحث. وعلى ذلك نقرر أن الأزهر شهد تخلفا كبيرا فى العصر العثمانى، ولم نعد نجد علماء مجددين، واقتصرت دراسة الطلاب على حفظ المتون والحواشى والشروح دون فهمها فى اغلب الأحيان، واصبح العلماء والشيوخ يرددون كتب الأولين دون إضافة أو تجديد.

وظل الحال على ذلك حتى أواخر القرن الثامن عشر، حيث تطلع نابليون بونابرت -القائد الفرنسى- إلى غزو مصر، وذلك لعرقلة الاتصال بين إنجلترا والهند، والاستفادة من موقع مصر واقتصادها كما أن تاريخ مصر ممثلا فى آثارها، جعلت الفرنسيين يتطلعون إلى السيطرة على مصر.

زعم نابليون حينما قدم إلى مصر فى منشوراته التى وزعها على المصريين أنه لم يأت غازيا لمصر، وإنما جاء مخلِّصا لها من ظلم المماليك الغرباء الذين استحوذوا على ثروة البلاد، وارتكبوا أشد أنواع المظالم مع الناس، وأعلن أنه يقدر السلطان العثمانى، ويقدر تبعية مصر للدولة العثمانية، وأنه يحترم المصريين ومشاعرهم الدينية ومقدساتهم، وشيوخهم وأزهرهم الشريف.



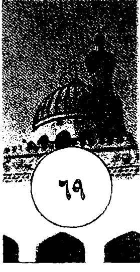
ميناء بولاق



القائد الفرنسى «نابليون بونابرت» لوحة للفنان دافيد

الجيوش الفرنسية تهزم المماليك وتدخل مصر







رسم نادر لنابليون بزى إسلامى مع أحد الباشوات العثمانية من رسوم الحملة الفرنسية على مصر

وفى واقعة الأهرام بين المماليك المدافعين عن مصر والفرنسيين هُزم المماليك، وانتصر الفرنسيون على المماليك، وفر المماليك من مصر، ونزل بونابرت فى قصر مراد بك بالجيزة فى ٢٢ يوليو ١٧٩٨م.

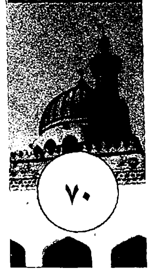
وعلى أثر دخول الفرنسيين مصر، اجتمع العلماء والمشايخ فى الجامع الأزهر، وتدارسوا أحوال مصر فى ظل الغزو الفرنسى واتفقوا على إرسال شيخين إلى نابليون، يطلبون منه الأمان على أرواح المصريين وممتلكاتهم، ويستفسرون من بونابرت عن سبب مقدمه إلى مصر وعن نواياه نحو المصريين.

استقبل بونابرت الشيخين استقبالا طيبا، ولحق بهما كبار مشايخ الأزهر، مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى -شيخ الجامع الأزهر- والشيخ السادات والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومى. وبعد مشاورات بين بونابرت والمشايخ كتب بونابرت أمانا إلى المصريين على أنفسهم وممتلكاتهم، ووعدهم بالعدل والإحسان والإنصاف، واحترام الشريعة، وتطبيقها بدقة وأمانة والمحافظة على الأزهر الشريف، وتمكينه من أداء رسالته العلمية والدينية.



رسم كاريكاتيرى للشيخ عبد الله الشرقاوى

غادر الوالى العثمانى مصر ومعه الشريف عمر مكرم، وإبراهيم بك ودخل الفرنسيون القاهرة فى يوم ٢٣ يوليو، واتفق بونابرت مع شيوخ الأزهر على تأسيس ديوان يضم علماء الأزهر والتجار والأعيان لتدبير أمور مصر،



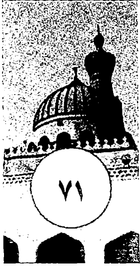
والنظر فى أحوال الرعية وإجراء الشريعة وبذلك أسند بونابرت حكم مصر للمصريين، وهذا لم يحدث فى تاريخ مصر القديم والوسيط.

شكَّل بونابرت ديوانا يتكون من الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوى والشيخ الفيومى والشيخ محمد المهدى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ أحمد العريشى والشيخ محمد الدواخلى والشيخ يوسف الشبراخيتى، وأعضاء الديوان تسعة، ومعظمهم من مشايخ الأزهر، ورفض السيد عمر مكرم الاشتراك فى نظام حكم فرنسى، كما رفض الشيخ السادات، وبعض المشايخ، وإن كان الشيخ السادات رغم معارضته للحكم الفرنسى، إلا أنه نال تقدير بونابرت، وقبل شفاعته فى بعض الأمور، وتشاور معه.

والديوان مسؤول عن الشؤون المدنية فى مصر، وعليه أن ينتخب من أعضائه رئيسا له، وسكرتيرا، واثنين من التراجمة أحدهما يترجم من الفرنسية إلى العربية وآخر يترجم من العربية إلى الفرنسية. وعلى الديوان المحافظة على الأمن والنظام والإشراف على الأسواق والتموين. ودفن الموتى، واجتمع الديوان، وانتخب بالاقتراع السرى، الشيخ عبد الله الشرقاوى، رئيسا، وهذا الاقتراع السرى أو حتى العلنى لم يألفه المصريون ويدل على مدى ما يتمتع به شيخ الجامع الأزهر من نفوذ فى مصر.

منذ أن استمع المصريون إلى مقدم الفرنسيين إلى بلادهم، خرج كل سكان القاهرة، لمقاومة الاحتلال الفرنسى، وبذلوا فى سبيل الدفاع عن بلادهم كل ما يمكن بذله من تضحيات، ولكن هذه المقاومة توقفت بسبب ضعفها أمام هجمات الفرنسيين للقاهرة، واحتل الفرنسيون مصر فعلا، ورغم الأمان الذى حصلوا عليه من الفرنسيين إلا أن المصريين، نظروا إلى المحتلين نظرة ازدراء وكراهية.

كان بونابرت يظهر احترامه للديوان، ولكنه كان يتدخل فى قراراته، وكان أعضاء الديوان - وخصوصا مشايخ الأزهر- يضمرون الكراهية والبغضاء للفرنسيين وللحكم الاستعمارى الدخيل، وتجلى ذلك فى يوم انعقاد الديوان فى بيت بونابرت، وأراد أن يلبسهم شارة الثورة الفرنسية، وهو طيلسان الجمهورية الفرنسية المثلث الألوان، وألبس الطيلسان فعلا للشيخ عبد الله الشرقاوى رئيس الديوان، ولكنه رفض، وألقاه على الأرض، كذلك فعل أعضاء الديوان، فعزل بونابرت الشيخ الشرقاوى من رئاسة الديوان، وبذلك ازدادت كراهية المصريين للحكم الفرنسى وأعلن اعتزاله العمل مع الفرنسيين، وحاول بونابرت استرضاءه، ولكنه رفض التعاون مع هؤلاء الدخلاء.



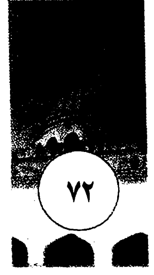
وقد أدى نفور مشايخ الأزهر من الفرنسيين إلى كراهية الشعب المصرى للمستعمر الفرنسى، وقادت القاهرة حركة الثورة ضد الفرنسيين، ولم يخشوا ما بلغته فرنسا من قوة ومجد وانتصارات رائعة فى أوروبا، ومما حفز الشعب المصرى على الثورة التى أدت إلى الاحتكاك بأوروبا بواسطة الفرنسيين، بعض القرارات الإدارية والمالية والسياسية للحكومة الفرنسية فى مصر.

شكَّل المصريون لجنة فى الأزهر لقيادة الثورة ضد الحكم الفرنسى، وكان فى الأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية فى نفوس الناس، ولم ينخدع المصريون بأسلوب بونابرت بالتودد إليهم، فكان يحضر إلى الجامع الأزهر ويشارك فى المناسبات الدينية كمولد الرسول ﷺ، لابسا العمامة والجبة والقفطان. ويذكر الجبرتى أن المعممين قادوا الثورة، ويقصد بهم شيوخ وعلماء وطلاب الأزهر، وانتشروا فى المساجد والطرقات والأسواق يدعون الناس إلى الثورة ضد أعداء البلاد، ونظمت لجنة الثورة فرق المتطوعين للجهاد ضد العدو، وأمدوهم بالسلاح والعتاد، وكانت اللجنة المشرفة على الثورة، تنعقد بصفة مستمرة فى الأزهر، الذى كان مرْكزا للثورة، وقد ظل يشكل هذا العمل الثورى منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى ثورة ١٩١٩ أى أنه -كما يقول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى- المعسكر العام للثورة القومية التى قامت فى مصر فى أثناء الحملة الفرنسية، ومنذ انتهاء الحرب العالمية الأولى.

ولقد اشتعلت الثورة بسبب كراهية المصريين للمستعمر الدخيل يضاف إلى ذلك الضرائب الباهظة التى قررها نابليون على الناس، واستاء منها التجار والصناع وعامة الناس، وأعلن المصريون الثورة فى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨، وذهب وفد من التجار إلى مركز القيادة العامة، يرفعون شكاياتهم من السياسة الظالمة للفرنسيين، وفى أثناء ذلك حدث شغب فى شوارع القاهرة.

احتشد المصريون الساخطون على الحكم الاستعمارى فى الأزقة والطرقات، والأزهريون يثيرون حماسهم، ويخطبون فيهم يحرضونهم على الثورة ضد الظلمة، كما احتشد الطلاب والعلماء فى الجامع الأزهر يعلنون الثورة ضد بونابرت وجنوده، وزحف الثوار إلى بيت القاضى، إبراهيم أفندى، وطلبوا منه أن يصحبهم إلى بونابرت لرفع مطالبهم إليه، ولكنه تقاعس عن الخروج معهم، فانهال عليه الثوار ضربا.

وأشعلت هذه الحادثة نار الثورة، فاجتمعوا فى الجامع الأزهر يصيحون ويهتفون بالقتال، وامتلأت الأزقة والطرق بالمسلحين، وقصدوا أحياء الفرنسيين لقتالهم، وعمت الثورة مدينة القاهرة كلها، وهاجم الثوار معسكرات الفرنسيين وقتلوا بعض الجند.



وزاد حماس الثوار، وهاجموا الجنود الفرنسيين فى كل شوارع وأزقة القاهرة، وقتلوا كل من استطاعوا من الفرنسيين، بل قتلوا الجنرال ديبوى - قمندان القاهرة- أى محافظها.

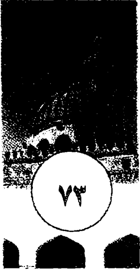
ولما اشتدت هجمات الجند الفرنسى على الثوار فى القاهرة، احتشد فى الجامع الأزهر الألوف منهم، واعتصموا به، ومنع بونابرت أهالى البلاد والضواحى القريبة من القاهرة من دخول العاصمة وبذلك انحصرت الثورة فى مدينة القاهرة، وانعزلت عن غيرها من البلاد. وعمد بونابرت إلى ياوره سلكوسكى - البولونى الأصل -بمنع الناس من القدوم إلى القاهرة، ولكن الثوار فى نواحى بلبيس قتلوه وهو عائد إلى القاهرة، قرب باب النصر.

ولما اشتدت الثورة، واستخدم الفرنسيون العنف فى قمعها، ذهب أعضاء الديوان إلى بونابرت، وطلبوا منه أن يبدأ صفحة جديدة مع المصريين، ويعقد صلحا مع الثوار، ويسعون هم من جانبهم إلى تهدئة البلاد، وعودة الحياة الطبيعية إلى القاهرة، ولكن بونابرت قابلهم بفتور.

وانحصرت الثورة فى شوارع وحارات الأزهر، واحتشد الألوف من الثوار فى الجامع الأزهر، فقام قومندان القاهرة الفرنسى بضرب الجامع الأزهر والبيوت المجاورة له، والجموع المحتشدة حول الجامع بالمدافع، وتم قتل الكثير من المصريين، وهدم الدور والجوانيت، وأبنية الجامع الأزهر.



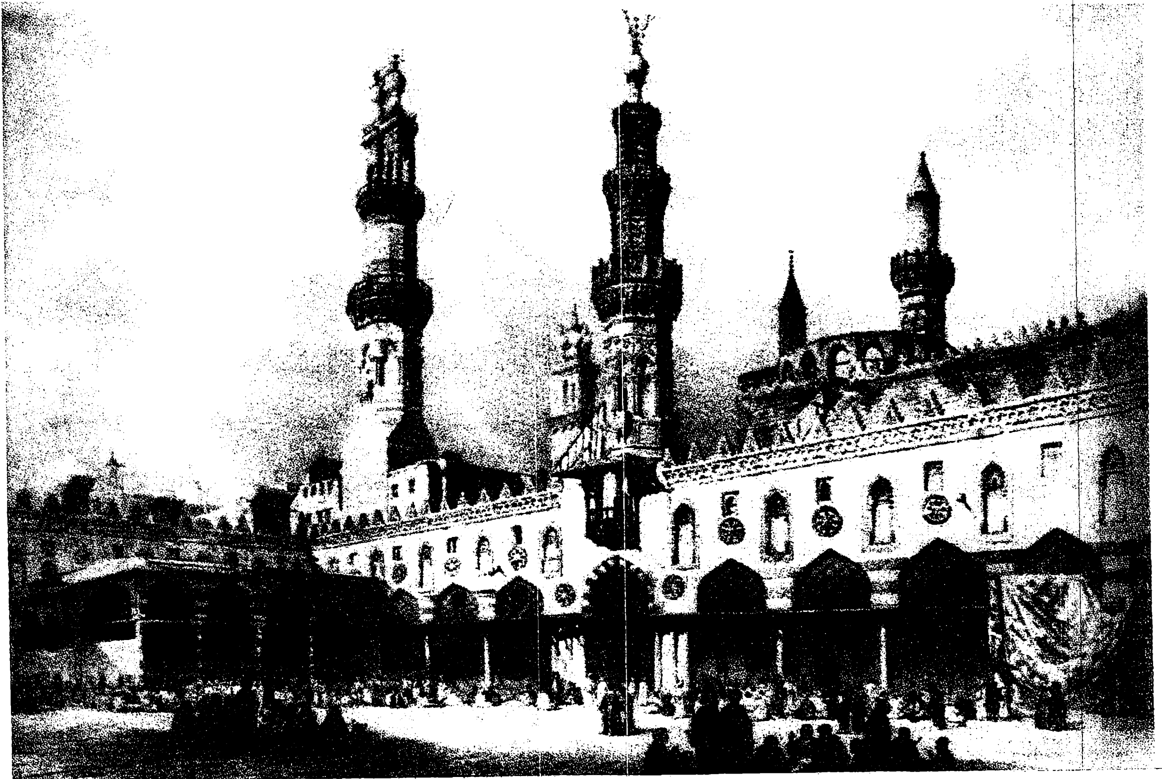
هزيمة الفرنسيين عند بلبيس - من كتاب وصف مصر -

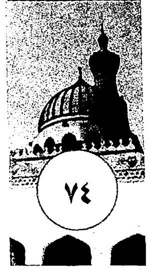


ونصب قومندان القاهرة، المدافع على جبل المقطم، وضرب الجامع الأزهر بالقنابل، وانهالت القنابل على أحياء الأزهر والصنادقية، والغورية، والفحامين والجمالية، وأحدثت القنابل، انفجارات فى هذه الأحياء، وأدت إلى هدم البيوت وإشعال الحرائق وتدمير البضائع فى الدكاكين، ومقتل الكثير من الناس، وألقت هذه القنابل الرعب فى نفوس الناس، وكاد الجامع الأزهر يتداعى بنيانه من شدة الخراب، ومات تحت الأنقاض الكثير من الناس الذين لجأوا إليه، وانحصروا فيه، وظلت الأعمال التخريبية فى الجامع الأزهر وأحيائه حتى لجأ الشيوخ والعلماء إلى بونابرت، واعتذروا له عما حدث، ووعدوا بالمساعدة على إخماد الثورة، فوافقهم، ومنح أهل القاهرة الأمان، وتوقف الجند عن القتال، وباتت القاهرة فى حزن لم يشهده أهلها من قبل، وقُتل من المصريين فى هذه الثورة، ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف رجل، وقُتل من الفرنسيين حوالى مائتى رجل.

وقد وصف الجبرتى ما ألحقه الفرنسيون بالجامع الأزهر والأزقة والحارات الملحقة به والأحياء المجاورة له، فقال: دخل الفرنسيون إلى أحياء القاهرة بعد قمع الثورة التى استمرت أيام ٢١-٢٢-٢٣ أكتوبر، ولما تأكد لهم أن الناس استكانوا ، وخمدت الثورة وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا

حلقات العلم فى الأزهر الشريف - من كتاب وصف مصر





كمين، وتراسلوا إرسالا، ركبانا ورجالا، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها وبنعالهم داسوها، وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عرَّوه ومن ثيابه أخرجوه، حتى النساء خلعوا ملابسهن فى الشوارع، وتركوهن عرايا، مما عرضهم لبطش المصريين، فضربوا المعتدين، ومنعوهم من الاعتداء على النساء، وستروهن بملابسهم.

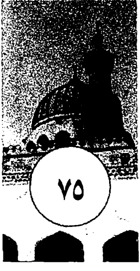
تركز الجند فى شوارع القاهرة، القريبة من الجامع الأزهر وراقبوا تحركات الناس، وفتشوا كل من ارتابوا فيه، واقتحموا البيوت بحجة البحث عما فيها من أسلحة، واعتدوا على سكانها، بل خلعوا ملابس النساء، واعتدوا عليهن اعتداء غاشما فاسقا، ونهبوا أموال الناس والتجار.

وظهر علماء الأزهر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويطلبون من المصلين والطلاب منع المستعمرين من انتهاك الحرمات والسرقة والنهب وكانت بعض النساء العاهرات من المصريات، كالأرمن واليونانيات وبعض الأجنبيات، يتسللن إلى معسكر الفرنسيين فى الأزبكية، ويمارسن مع الجند الفواحش والزنا، فأمر المشايخ بوقف هذه الجرائم الخلقية، فخرج طلاب الأزهر إلى معسكر الفرنسيين، وراقبوا تحركات هؤلاء النساء، ورجموهن بالحجارة، ومازالوا يراقبون المعسكر حتى خشى هؤلاء النسوة من التسلل إلى معسكر الفرنسيين.

وزج الفرنسيون بالكثير من الناس فى السجون دون محاكمة، واعتدوا على الناس بالضرب والتعذيب، وانتهكوا الحرمات، وهتكوا الأعراض وكثير من الناس ذبحوهم، وفى بحر النيل قذفوهم، ومات الكثير من الناس بسبب طغيان الفرنسيين واعتداءاتهم.

وأمر الفرنسيون بالقبض على كل من حامت حوله الشبهات، وأُعدم الكثير منهم، واشتد بطش الفرنسيين بالمصريين، فكانوا يقتلون المشبوه فى اشتراكهم بالثورة، ويلقون جثثهم فى النيل على أن الفرنسيين حاكموا رسميا زعماء الثورة من المشايخ، مثل الشيخ البراوى والشيخ يوسف المصيلحى والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ سليمان الجوسقى.

وفى يوم ٢٤ أكتوبر ذهب وفد من شيوخ الأزهر إلى بونابرت، وطالبوه بالعفو عن المسجونين والكف عن إلحاق الأذى والضرر بالناس، ولكنه سوَّفهم، لأنه أطلق لجنده حرية الاعتداء على المصريين، ثم عاد ووافق على سحب الجند الفرنسى من الأزهر، وأمرهم بمحاصرة الجامع الأزهر، ومراقبة الداخلين إليه والخارجين منه.



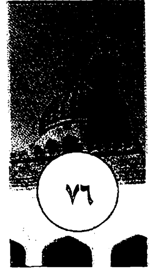
وتحرك المشايخ لمطالبة بونابرت بالإفراج عن زملائهم من العلماء، ولكن بونابرت رفض طلبهم، وحاكم المشايخ بتهمة التحريض على الثورة، وأمر بإعدامهم رمياً بالرصاص فى القلعة ، وألقوا جثثهم من فوق القلعة، ومن بينهم الشيخ أحمد الشرقاوى، الذى خلف أباه فى التدريس بالأزهر، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى الذى كان يدرس الحديث، ويقرأ للطلاب حديث البخارى وحديث مسلم، ويحضر درسه الكثير من الناس. والشيخ يوسف المصيلحى، وكان فصيح اللسان، حسن التعبير، يجذب الطلاب إليه. ومن الشيوخ، الشيخ سليمان الجوسقى -رئيس طائفة العميان- وكان مهابا قويا، صريحا، لا يخشى فى الحق لومة لائم، يدافع عن أفراد طائفته بكل قوة، ويحصل لهم على كل حقوقهم، والشيخ إسماعيل البراوى خلف أباه فى حلقته، يُعبر دون خوف عما يريده، فلا يخشى أحدا.

ويؤكد الشيخ عبد الله الشرقاوى ما كتبه الجبرتى عن الأضرار التى ألحقها الفرنسيون بالمصريين بعد ثورتهم، وقال فى كتابه (تحفة الناظرين) أن الفرنسيين قتلوا ثلاثة عشر عالما من علماء الأزهر ودخلوا بخيولهم الجامع الأزهر، ومكثوا فيه يوما وليلة، وقتلوا بعض العلماء والطلاب، ونهبوا أموالا كثيرة، وكان الناس قد اعتقدوا أن الجند الفرنسى، لا يدخل الجامع الأزهر، فحولوا إليه أموالهم، وأمتعتهم، ولكن الفرنسيين نهبوا هذه الأموال والأمتعة، وفتشوا الكتب، ظنا أن بها مالا.

تولدت الكراهية بين المصريين والفرنسيين بسبب تصرفات الفرنسيين الإرهابية مع السكان الآمنين، وأصدر نابليون بونابرت فى أكتوبر ١٧٩٨ أمرا لجنده بعدم التعرض للأهلين وكان الجند يخشون تنكيل المصريين بهم، فلا يستطيعون الاقتراب من التجمعات البشرية أو المرور بالأسواق. ورفع بونابرت الضرائب على الناس، فساءت أحوالهم، واشتدت كراهيتهم للمستعمرين الفرنسيين.

وأصدر بونابرت منشورات على لسان بعض مشايخ الأزهر إلى القاهرة، والمدن المصرية، قُرئت فى الأسواق والمساجد وألصقت على الجدران، وفيه يدعو بونابرت على لسان المشايخ الناس بالخلود إلى السكينة والطاعة والولاء إلى قائد الحملة الفرنسية وجنده.

شعر نابليون بالفجوة العميقة بين الشعب المصرى والحملة الفرنسية، وقد أساء إلى شعور المصريين بإبطال الديوان، وقرر فى ٢١ ديسمبر إعادة الديوان حتى يمكن النظر فى مطالب المصريين وإصلاح البلاد، وكان الناس قد استاءوا من الفرنسيين بعد أعمالهم الإرهابية معهم



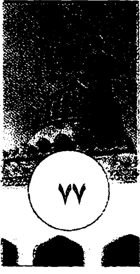
واعتداءاتهم عليهم، ورفع الضرائب، فتعطلت التجارة، وكف الصناع عن العمل، وقل المال تبعا لذلك، وانعكس هذا الوضع على الحملة الفرنسية لمصر، وقبل أن يرحل نابليون إلى سوريا لاحتلالها، أعاد الديوان.

يتألف هذا الديوان من المشايخ والتجار والأعيان، فمن المشايخ، الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى والسيد البكرى، والشيخ مصطفى الصاوى، والشيخ موسى السرسى والشيخ الدمرداش والسيد حسين الرفاعى والشيخ محمد الأمير والشيخ سليمان الفيومى والشيخ مصطفى الدمنهورى والشيخ صالح الحنبلى والشيخ محمد الدواخلى. وحرص نابليون فى تشكيل الديوان، أن يكون ممثلا لسكان القاهرة هذا هو الديوان العمومى، أما الديوان الخصوصى فيتكون من أربعة عشر رجلا من أعضاء الديوان العمومى، ويجتمع كل يوم للنظر فى مصالح الناس، وتحقيق أسباب الرفاهية، لهم ومراعاة مصالح الجمهورية الفرنسية، وأعضاء الديوان الخصوصى من المشايخ، الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ محمد المهدى والشيخ خليل البكرى والشيخ سليمان الفيومى.

قبل أن يرحل نابليون إلى سوريا، أظهر التقرب إلى المصريين وتودد إليهم، وشاركهم فى احتفالاتهم برؤية هلال رمضان، وفى المولد النبوى الشريف وغير ذلك فى المناسبات الدينية والقومية .

وعاد نابليون من سوريا بعد هزيمته، واستقر قليلا فى مصر، ولكن اضطراب الأوضاع السياسية فى فرنسا، وفشل حملته على مصر فى تحقيق أهدافها، جعله ينسحب من مصر، ويعود إلى فرنسا، وينيب كليبر فى قيادة الحملة الفرنسية فى مصر.

استاء كليبر من البقاء فى مصر، كما شاركه جنده فى عدم جدوى البقاء فى هذا البلد الرافض لهم، وحاول كليبر الجلاء عن مصر مع الدولة العثمانية -صاحبة السيادة الشرعية على مصر- وفشلت مفاوضات كليبر مع العثمانيين، وزحف العثمانيون على مصر، ولكن كليبر هزمهم، وتحرك المصريون فور سماعهم بزحف العثمانيين إلى مصر، وتطلعوا إلى تخليصهم من هذا العدو الدخيل، الذى أذاقهم صنوف العذاب والاضطهاد، وتحرك المصريون للثورة، ونشبت فعلا، وعمت أنحاء القاهرة، واتجه الثوار بجموعهم إلى معسكر القيادة العامة للجيش الفرنسى بالأزبكية ودافع الفرنسيون عن معسكرهم، فأطلقوا نيران المدافع على المصريين، مما أدى إلى تقهقرهم، وامتدت الثورة فى أنحاء القاهرة، وامتلأت الشوارع بالثوار يحرض بعضهم بعضا على طرد هذا العدو الغاشم من بلادهم، وقُدر عدد الثوار بحوالى خمسين ألف ثائر يحملون البنادق والعصى والأسلحة، وانضم إلى الثوار النساء والأطفال، وساروا فى الشوارع والأزقة يصيحون ويهتفون بضرورة جلاء العدو الغاشم من ديارهم. وهاجم الثوار مصطفى أغا -محافظ القاهرة- ودمروا بيته وقتلوه ولكن كليبر قمع الثورة بكل عنف وضراوة، ونصب مدافعه على القلعة،



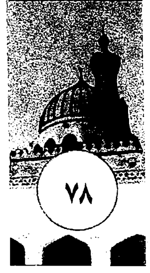
وضرب الثوار فى مـواقعهم بالقنابل، وألحق بهم الأذى وببيـوتهم الدمار والخراب. ٢١ مارس ١٨٠٠.

وقام بثورة القاهرة الثانيـة ثلاثة عناصر، الشعب المصرى والأتراك والمماليك، وتفاوض كليبـر مع المماليك والأتراك، وتجاهل المصريين، وهم العنصـر المتضرر من الاستعمار الفرنسى لبلادهم.

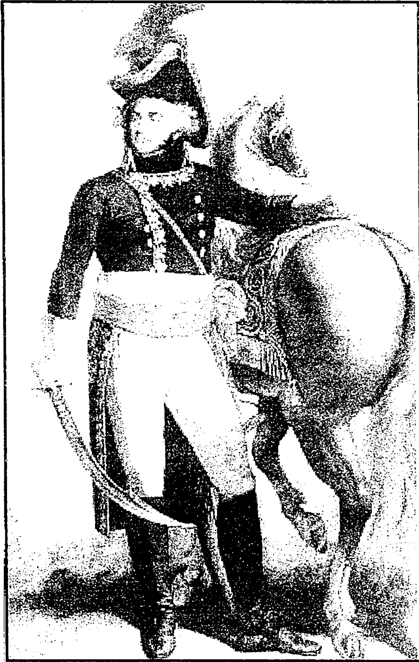
اشتـدت ثورة أهل القاهرة ضد الاسـتعمـار الفرنسى، فأمـر كليبر بمحـاصرة القاهرة، وضـربها بالمدافع يوم ١٢ إبريل، وقـاوم الثوار بكل ما اسـتطاعوا، وألحـقوا بالفرنسـيين خسائر فادحة، واشـتد الكرب وعظم البلاء، بسبب هجمات الفرنسيـين الشرسة، وضعف الثوار، بعد أن قُـتل الكثيـر من الناس، ولحق الخراب والدمـار بممتلكات الناس وبيـوتهم، فخـرج علماء الأزهر لمفاوضة كليبـر على الصلح ومن بينهم الشيخ عبد الله الشرقـاوى والشيخ المهدى، والشيخ السرسى والشيخ الفـيومى وغيرهم، وعقدوا صلحـا مع كليبر يتضمن وقف القتـال، وعودة الحياة الطبيعية والعـفو عن الثوار، ولكن الأهالى والإنكشارية كانوا فى ضيق من الفرنسـيين وغطرستهم وظلمهم وبغيهم وما ألحقوه بهم من الخسائر الفادحة، فرفضوا الصلح الذى عقده العلماء والمشايخ مع الجنرال كليبـر، وسبوا العلمـاء وشتموهـم وضربوا الشرقاوى والسـرسى، وخلعوا عمـائمهم وألقوها على الأرض، وأسمعوهم قبيح الكلام، واتهموا المشايخ بالارتداد عن الإسلام، وأصبحوا فرنسيس، وتكلم السفلة والغوغاء - كما يقول الجبرتى- من أمثال هذا الكلام.

كما رفض الفـرنسيون صلح كليبر مع المشـايخ، لكثرة خسائرهم وبذلك فـشلت محاولات الصلح، وتجددت الحروب بين المصريين الثوار والفرنسيين المستعمرين، وتجدد القتال وسفك الدماء وكثرت أعمـال الحرق والقتل، ثم انتهت ثورة القاهرة، بالتـسليم بعد أن شاهد الناس من الأهوال والعنف ما لم يشهدوه فى تاريخهم، وفى ١٥ إبريل دمَّر كليـبر حى بولاق، الذى تركز فيه الكثير من الثوار، وهُدمت البيـوت والدور على أصحابها، ودمرت الحرائق الدكـاكين والوكالات، ومات العديد من الثوار .

أسرف الفرنسيون فى ارتكاب الفظائع لإخماد الثورة. ويقول الجبرتى: انهدم جميع ما هناك من الدور والمبانى العظيمـة، وانهدمت الدور. . . وصارت كلها تلالا وخـرائب. . . وجنت عليها أيدى الزمان وطوارق الحدثان حتى تبدلت محاسنها وأقـفرت مساكنها وعادت المفاوضات بين ممثلى الشعب المصرى من العلماء والأعيان من ناحيـة، وبين كليبر وقادته من ناحية أخرى. فى يوم ٢١ إبريل ١٨٠٠م، وينص الصلح على جلاء العثمانيين والممـاليك عن مصر، والعفو العام عن سكان القاهرة الذين اشـتركوا فى الثورة، وبذلك انتـهت ثورة القاهرة بعد قتـال دام ثلاثة وثلاثين يوما. ولكن كليبر لم يف بعهده، فـقد فرض غرامة مالية كبيـرة على سكان القاهرة، وشملت الغرامات مبالغ كبيرة، يؤديها العلماء.



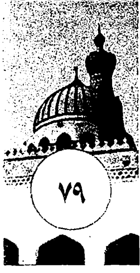
نجح كليبر فى إخماد ثورة القاهرة، وعاد أهل مصر إلى الهدوء والسكينة، واستكانوا إلى ما حدث لهم من ظلم وبؤس من الفرنسيين، ولكن علماء الأزهر وطلابه، لم يتغاضوا عن هذه الأهوال والكوارث، وكثرت تجمعاتهم فى الجامع الأزهر يتدارسون ما حل بالبلاد من الهوان والخراب والدمار وقتل الأنفس، وإذلال الناس بالضرائب التى تفوق مستوى دخولهم، لذلك جلس الطالب الأزهرى السورى سليمان الحلبى مع زملائه، يفكر معهم فى حال مصر والشام، وفى أوضاع المسلمين فى بلادهم، وظلم الدخلاء الفرنسيين أعداء الوطن والدين، وما ألحقوه فى مصر وسوريا، وتحدث كثيرا مع زملائه المجاورين -طلاب الأزهر- وكان شديد الحماس لدينه ووطنه وأزهره، لذلك استقر رأيه على الانتقام من كليبر -قائد الحملة الفرنسية فى مصر-، والذى استخدم أشد أنواع العنف فى قمع ثورة أهل القاهرة.



كليبر

وكان كليبر بعد إخماده لثورة القاهرة، قد شعر بضرورة الاستقرار فى مصر، وتوطيد سلطانه فيها. وفى أول يونيه ١٨٠٠م، انتهى كليبر من الغذاء فى وليمة أعدها له ضباط الحملة، ثم انصرف بعد الظهر مع المهندس بروتان لتفقد أعمال الترميم لمقر القيادة الفرنسية فى الأزبكية فاعترضه سليمان الحلبى، وخدعه حتى تمكن منه، وطعنه عدة طعنات، سقط على أثرها صريعا، كما طعن زميله المهندس بروتان.

أصاب أهل القاهرة، الفزع والهلع بعد أن سمعوا عن مقتل كليبر، وخشوا أن يلحق بهم ما لحق بهم من قبل، فأغلق التجار دكاكينهم، وفر من القاهرة، من استطاع، وشدد الفرنسيون من حراسة الشوارع والطرقات وكانت أصابع الاتهام موجهة إلى شيوخ وعلماء الأزهر، فقد عُرف عنهم كراهيتهم للحكم الفرنسى، وسعيهم إلى التخلص من أعداء الدين ، وقد عثر الجنود الفرنسيون على سليمان الحلبى مختفيا بالقرب من مكان الحادث وقبضوا عليه وحاكموه، واعترف بأنه أفضى إلى أربعة من أصحابه الأزهريين بنواياه، فقبض الفرنسيون على ثلاثة منهم، وفر الرابع خارج مصر، وأصدرت المحكمة حكمها بالإعدام على سليمان الحلبى ورفاقه وصدر الحكم بإحراق يد سليمان الحلبى اليمنى وإعدامه على الخازوق، وترك جثته، يأكلها الطير، وإعدام شركائه الثلاثة، وحرق جثثهم ومصادرة أموال المتهم الرابع الغائب الذى فر من القاهرة.

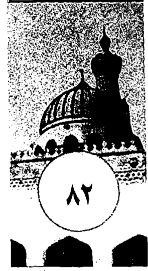


وأدى قتل كليبر، إلى إضعاف الروح المعنوية للفرنسيين، وتطلعهم إلى الجلاء عن مصر. وبذلك فإن الأزهر لعب دورا كبيرا فى إضعاف الحملة الفرنسية على مصر، وتزعم حركة إجلائهم عن ديارهم.

خلف منو، كليبر فى قيادة الحملة الفرنسية، واستهل حكمة بزيارة الجامع الأزهر - مصدر الثورة ضد الفرنسيين- وفتشوه، وحفروا حفرا فى داخله وحوله. بحجة البحث عن أسلحة، وأمروا المشايخ بعدم إدخال غير المصريين فى الجامع الأزهر، وطردوا المجاورون الأتراك وغيرهم من أهل الشام والعراق، وأمروا بكتابة أسماء الطلبة فى كشوف، فلم يشعر المجاورين بالأمان والاطمئنان فنقلوا كتبهم وأمتعتهم خارج الجامع الأزهر، وتضاءل عدد الطلاب لذلك فكر المشايخ فى إغلاق الجامع الأزهر، ويقول الجبرتى: إن المشايخ الشرقاوى والمهدى والصاوى، توجهوا عند كبير الفرنسيين (مينو) واستأذنوه فى إقفال المسجد، وكان قصدهم من ذلك منع الريبة عن الأزهر، وربما فتحه يؤدى إلى إلحاق الأذى والضرر لكل من يدخله أو يأوى إليه، ويؤدى إلى عدم اطمئنان الطلاب المجاورين والمشايخ، فوافق مينو لما فى ذلك من موافقة غرضه باطنا، فأقفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات. وظل مغلقا حتى جلاء الفرنسيين عن مصر.

دور علماء الأزهر فى تولية محمد على حكم مصر

عادت مصر بعد رحيل الفرنسيين عنها إلى الدولة العثمانية، ولكن عودة الحكم العثمانى أثار شكوك المصريين؛ لأن الحملة الفرنسية، أطلعت المصريين على أساليب الحياة الحديثة، وحكم الوالى العثمانى خورشيد باشا مصر حكما غاشما ظالما، ورفع الضرائب، فقامت ضده ثورة من المصريين، واجتمع الأزهريون فى الجامع الأزهر، وعبروا عن سخطهم وغضبهم، وأعلنوا وقف الدراسة فى الأزهر، وطافوا بالشوارع المحيطة بالأزهر، يناشدون الناس بالمشاركة فى الاحتجاج على الوالى الظالم، وذهب وفد منهم لمقابلة الشيخ عبد الله الشرقاوى -شيخ الجامع الأزهر- وطالبوه بالتوسط بينهم وبين الحاكم، فتوجه -أى الشيخ الشرقاوى- مع وفد من العلماء، وقابلوا خورشيد باشا، وطالبوه برفع الظلم عن الشعب، ومنع جنده عن إلحاق الأذى بالمصريين، ولكن خورشيد رفض مطالب علماء الأزهر فقرر العلماء عزله، والمناداة بمحمد على واليا على مصر.



فرنسا إماما وواعظا للبعثة المصرية، وعاد إلى مصر محملا بعلوم الغـرب ومستفيدا من الدراسات الحديثـة، وسعى إلى قيادة حركة التنوير فى مـصر، وإطلاع المصريين على مدى ما بلغته أوروبا من تقدم فى مجال العلم والدراسة، وقاد حركة التخلص من الجمود الذى أضعف المصريين، وقادهم إلى التخلف والانحطاط.

تطور الأزهر فى العصر الحديث

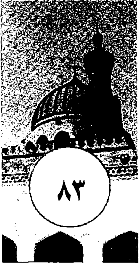
التحق رفاعـة الطهطاوى بالأزهر، وتتلمذ على يدى الشيخ حـسن العطار، الذى عُرف عنه الميل إلى العلم الحديث، وقد عرف المنهج العلمى الحديث من خلال مخالطته لبعض رجال الحملة الفرنسيـة، وظل رفاعة يدْرس فى الأزهر حتى سنة ١٨٢٦م، حين بلغ مرتبـة التدريس فى الجامع الأزهر واشتغل إماما لبعض فرق الجيش.

ولما اعتزم محمد على إرسال بعـثة لنيل العلم فى باريس، أشار عليه الشيخ حسن العطار، بتعيين رفـاعة الطهطاوى، إماما وواعظا لهذه البعثـة وكانت البعثة العلمية بـرئاسة العالم الفرنسى جومار، فوجه رفاعة الطهطاوى إلى دراسة اللغة الفرنسية، ورأى رفاعة الفرصة سانحة له، لدراسة علوم الغرب، وتصنيف كتـاب عن مشاهداته فى باريس وبذلك ينقل علوم الغرب، ويضيـفها إلى علوم الشرق.

قضى رفاعـة فى باريس خمس سنوات، واستـغلها فى الدراسة وتحصـيل العلم، وعاد إلى وطنه مصـر، متطلعا إلى تعليم الشـعب، وتنوير العقول، وعـاد ليدرس ، وينشئ المدارس، التى يتخرج منهـا تلاميذ يعلمون النشء، وينشئ جيـلا جديدا من الدارسين للثقافـة الحديثة، ومن ثم يسعون إلى تكوين مجتمع جديد لا تخلف فيه ولا جمود.

إن رحلة رفاعـة إلى مصر هى أول علاقـة مثيرة بـين الشرق والغرب فى العصـر الحديث، وكان الفرنـسيون فى حملتـهم على مصر، قد جـعلت المصريين ، ينظرون بإعجاب إلى مـا بلغه علماء الحملة الفرنسية من تقدم فى مجـال البحث الحديث، وإضافة الجديد إلى العلم وتطلعوا إلى مواكبة ما يجب أن تصل إليه مصر من تطوير.

وخطت مصر خطواتها السـريعة فى سبيل الاتصال بالغرب عندما تفتـحت عينا رفاعة على بلاد أوروبا، وسجـل رفاعة مـشاهداته فى فـرنسا فى كـتابه (تخليص الإبريز فى تلخـيص باريز) والكتاب فى جـملته تقرير جامع عـن باريس، باعتبارها عـاصمة الحاضـرة الأوروبية، ومن وراء صورة فرنسا، تعرف صـورة مصر، وتعرف حقيقة الوضع فى مصر من خـلال مقارنات رفاعة فى

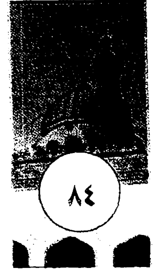


كتابه عن الأوضاع فى فرنسا. والكتاب يتضمن آمالا يريد تحقيقها فى مصر بعد أن شاهد فى فرنسا تقدما حضاريا هائلا. والكتاب يوضح فيه هذا الشيخ الأزهرى، آماله وطموحاته التى يود إدخالها فى مصر حتى تساير تقدم الدول المتحضرة، فهو يعلن انقضاء عصر الركود العثمانى، ويبشر بازدهار العلوم والفنون فى مصر

هذا الرجل الذى تربى فى الأزهر ثم انتقل إلى باريس، فاحتفظ بعد عودته إلى مصر بالتقاليد الإسلامية، وأضاف إليها الثقافة الفرنسية، التحليل العقلى الذى تتميز به الثقافة الفرنسية. عاد إلى مصر، يترجم ثقافة الغرب، ويعلِّم تلاميذه فن الترجمة وأنشأ جيلا حمل لواء ترجمة الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية، ومضى يكتب ويخطب، وينشر الكتب والمصنفات ويكتب فى الصحف، يشرح العلوم وأصول التربية والاقتصاد والسياسة، ويهدم الآراء الفاسدة الجامدة ويدعو إلى الأفكار التقدمية، ويبصِّر أمته بروعة ماضيها وجلال حاضرها، والأمل فى مستقبلها، ولم تفتر همته، ولم تضعف عزيمته على الرغم من القيود التى فرضها عليه محمد على واستياء عباس باشا منه عدو العلم والتقدم الفكرى، والذى نفاه إلى السودان، وقلل من شأن جهوده نحو التقدم والارتقاء. وظل يسعى إلى تحقيق هدفه حتى وفاته سنة ١٨٧٣. ولولا جهود هذا الشيخ الأزهرى وجهود الجيل الذى رباه فى سبيل رفعة مصر وتقدمها، لظلت مصر متخلفة فترة زمنية أخرى.

والخلاصة فإن كتاب (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) تقرير جامع من باريس العاصمة الثقافية للعالم كله ومدينة النور. ومن وراء صورة فرنسا تستشف صورة مصر من خلال مقارنات الطهطاوى والحسرات والآلام التى تظهر فى كتاباته، والآمال التى يتطلع إليها لتخليص مصر من تخلفها. والكتاب يعلن انقضاء عصر التخلف والجمود والركود والجهل الذى يخيِّم على مصر فى ظل الحكم العثمانى، ويبشر بظهور عصر جديد فى مصر، هو عصر التنوير والتقدم الثقافى والحضارى.

ومن شيوخ الأزهر الذين أدوا رسالة الأزهر العالمية، وتركوا أثرا كبيرا عند المستشرقين، الذين تفرغوا لدراسة الثقافة الإسلامية والعلوم العربية، الشيخ محمد طنطاوى، وُلد فى قرية قرب طنطا، بدأ دراسته فى الكُتَّاب، وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف وبعض المتون، ودرس الفقه على أيدى بعض علماء عصره، وحضر الدروس الدينية فى الجامع الأحمدى، واستمع إلى القراءات السبع من مقرئيها، ثم سافر إلى القاهرة مع عمه، ودرس فى الأزهر حتى أكمل دراسته وعاد إلى طنطا حيث اشتغل بتدريس النحو والعروض، وفى نفس الوقت تزوَّد بالعلوم المختلفة، فدرس الفقه والنحو والصرف والبلاغة، وتحوَّل مجرى حياته، وعاشر بعض الأجانب من الأوروبيين المقيمين فى مصر، ومن بينهم قرنيل الذى كان يتقن اللغة العربية، وكان



الشيخ محمد عياد طنطاوى، يقرأ معه الكتب الأدبية -وهو من أهل التحقيق والتدقيق- وكتب عدة رسائل راجعها له الشيخ، واتصل الطنطاوى بوائل النمساوى، وروينر الطبيب بالقصر العينى سابقا، والخواجه بيرون -مدير القصر العينى- وقد قرأ معه الكثير من الكتب الأدبية مثل الأغانى لأبى فرج الأصفهانى وقرأ معه الخواجة نقولا المسكونى، وطلبا منه الذهاب إلى روسيا، فرأى أن هذا السفر يحقق رغبته فى السفر إلى أوروبا لتحقيق رسالة الأزهر هناك.



رفاعة الطهطاوى

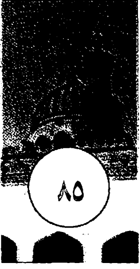
وتأثر الاستشراق فى روسيا تأثرا كبيرا بالشيخ طنطاوى، وكان عدد المستشرقين فى روسيا فى القرن التاسع عشر محدودا جدا، ومع ذلك كان الاهتمام بالشرق وعلومه فى روسيا كبيرا جدا، ومنهم سافيليف وروزن. وابتداءً من يوليو ١٨٤٠م، ألقى الشيخ طنطاوى محاضرات قيمة عن الشرق والعلوم العربية والحضارة الإسلامية، وقدَّر الباحثون الروس هذا الشيخ الجليل بملابسه الشرقية، وهى الزى الأزهرى والعمامة البيضاء واللحية السوداء والملامح التى تنم عن الذكاء والعلم الغزير.



الشيخ - محمد عيّاد الطنطاوى

وجلس مع المستشرقين، وراجع بحوثهم ودراستهم، وذاعت شهرته فى روسيا، وعُهد إلى الشيخ طنطاوى بتدريس اللغة العربية فى جامعة بطرسبورج، وللشيخ طنطاوى عدة مؤلفات نشرها باللغتين الروسية والفرنسية ومن أبرز تلاميذه، كراتشكوفسكى الذى شغل وظيفة أستاذه، أى أستاذ كرسى الدراسات الشرقية فى جامعة بطرسبورج.

وكان كراتشكوفسكى من أكثر تلاميذ الطنطاوى وفاء، ووضع عنه كتابا تُرجم إلى اللغة العربية بواسطة المجلس الأعلى للفنون والآداب، واستفاد هذا المستشرق من تحقيقات ودراسات



ومراجعات أستاذه الطنطاوى، حينما كان يعد كتابه (تاريخ الأدب الجغرافى) وكتابه (بين المخطوطات العربية) بالإضافة إلى كتبه العديدة.

وبذلك أدى هذا الشيخ الأزهرى واجبه العلمى فى نشر الثقافة العربية، والفكر الإسلامى فى الإمبراطورية الروسية.

نشأت علاقة صداقة ومحبة بين رفاعة رافع الطهطاوى والشيخ محمد طنطاوى، ودارت مراسلات بين الشيخين حول أسلوب تطوير مصر، والشيخان متعاصران، ويجمعهما هدف واحد، وهما من مدرسة واحدة، وهى الأزهر، ويعرفان جيدا اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية، ويتطلعان إلى أن تستفيد مصر من التقدم الفكرى فى أوروبا.

وتخرج على يديه الكثير من الدارسين للغة العربية والحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامى، وذاعت شهرة الشيخ ليس فى روسيا وحدها بل وفى أوروبا أيضا، وأقبل عليه الراغبون فى الدراسات الشرقية من روسيا وأوروبا، وراجعوا كتبهم معه، وحققوا بإشرافه بعض الكتب القيمة فى الأدب العربى والتاريخ.

خلف الشيخ طنطاوى سيكوفسكى فى تدريسه فى الجامعة، وكان الشيخ يعلم طلابه قواعد اللغة العربية، وتحقيق المخطوطات وقراءة وتحقيق النصوص الأدبية والتاريخية، ويدرس الترجمة من اللغة الروسية إلى العربية، ومن العربية إلى الروسية ويعلم طلابه المحادثة بالعربية، وكان يدرِّس تاريخ الخلافة منذ نشأتها حتى الغزو المغولى، وظل يدرس مدة خمسة عشر عاما، نال خلالها الرتب والنياشين، وذاع صيت الشيخ فى روسيا وأوروبا، وصادف فى روسيا تقديرا عميقا لا من قبل المستشرقين وحدهم بل من تلاميذ متعطشين إلى الدراسات الشرقية.

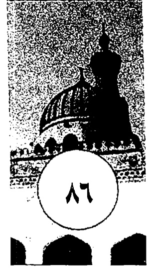
أدى الشيخ خدمات جليلة لتلاميذ الدراسات الشرقية، وكل من يستعصى عليه قراءة مخطوط أو فهم نص عربى فى كتاب، يلجأ إلى الشيخ ويجد منه ترحيبا وإخلاصا فى مهمته العلمية، والشيخ ساعد على تقوية الاستشراق فى روسيا، كما وضع أسس الاستشراق فى فنلندا.

عبد الرحمن الجبرتى -مؤرخ مصر الحديثة- (١٧٥٩-١٨٢٥م):

هو عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتى، ولُد فى القاهرة، حفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة، وتعلم على يد



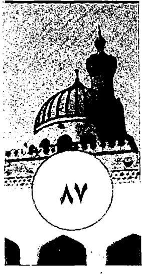
تاجر وضابط من العصر العثمانى



والده الشيخ حسن علوم الدين واللغة، ثم العلوم التى نبغ فيها هذا الشيخ مثل الرياضيات والعلوم العقلية الأخرى، وأبدى عبد الرحمن تفوقا فى دراسته، ثم تولى التدريس فى الجامع الأزهر، وكان يلقى دروسه فى الفقه والفلك والرياضيات، ولما غزا الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨م، سافر إلى بلده إبيار فى الدلتا حيث توجد أملاكه، لأنه فضَّل حياة الريف على صخب القاهرة، وتطور الأحداث فيها، وكان الجبرتى يراقب الأحداث ويدونها يوميا فى مذكراته، وعهد إليه نابليون -بعد أن استدعاه من قريته- بعضوية الديوان العام الذى شكَّله نابليون من كبار شيوخ الأزهر والتجار، ليستعين بهم على تهدئة النفوس فى مصر، وضمان ولاء المصريين للحكم الفرنسى. ولا يذكر الجبرتى تعيينه فى الديوان الأول والديوان الثانى، وإنما يذكر تعيينه فى الديوان الذى شكَّله (منو) وتصدى للإفتاء على مذهب أبى حنيفة فى عهد محمد على. وظل يكتب تاريخ مصر، وخصوصا فترة الحملة الفرنسية على مصر، وعصر محمد على حتى قبل وفاته، حيث أصيب بالعمى، بسبب موت ابنه حيث تعرض لحادث فى شبرا، ومن أهم كتب الجبرتى التاريخية، وأهم كتبه (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) وتُرجم إلى الفرنسية، وله كتاب (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) تُرجم أيضا إلى الفرنسية. وتأتى أهمية الكتاب الأول أن المؤلف شاهد معظم الأحداث التى كتب وأرخ عنها، فكان يخرج كل صباح، لابسا عمامته وجبته وقفطانه ومعه أوراقه وأقلامه، ويجول فى القاهرة، ويزور الإدارات الحكومية، والقلعة مقر الحكم، ويدوِّن ما يشاهده وما يسمعه. لهذا فإن كتابه وثيقة عن تاريخ مصر فى عصر الحملة الفرنسية وعصر محمد على حتى توقفه عن الكتابة.

وتميَّز الجبرتى بالصدق فى روايته، والأمانة فى عرض الأحداث. والكتاب عبارة عن مذكرات نقلها عن أمراء وشيوخ البلاد، ومهد إلى عصره بحوادث وأخبار ووقائع العصر الذى سبقه، ويفرد لذلك مجلدا ضخما، ولهذا المجلد قيمة كبيرة، لأنه مصدر هام عن تاريخ المجتمع المصرى فى العصر العثمانى، واستمد مادته العلمية من الوثائق التى عثر عليها أو من العلماء والمشايخ والأمراء الذين عاصروا الأحداث، ويعرض الجبرتى أحداثه طبقا للسنين على عادة الطبرى وابن الأثير.

والجبرتى لا يكتب فقط عن أمراء المماليك وباشوات العثمانيين ومشايخ الأزهر، وكبار التجار، بل يكتب عن العامة وحركاتهم فى البلاد، أفراحهم وأحزانهم، وثوراتهم وملابسهم وسلوكهم، وبذلك فإن القسم الأول يعطى صورة صادقة عن المجتمع المصرى، والكتاب عرض للحوادث الصغيرة والكبيرة، وأحوال الأفراد العاديين والظواهر الطبيعية.

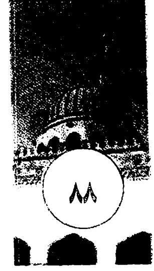


أما القسم الثالث من مجلده، وهو الذى كتبه عن الحملة الفرنسية على مصر فقد كتب عن كل صغيرة وكبيرة عن أحداث هذه الأعوام الثلاثة، النواحى الإدارية والعسكرية والسياسية والاجتماعية، ونشر كل الوثائق التى صدرت عن هذا الحكم أوامر وبيانات تعلق على جدران بعض مبانى القاهرة الهامة، أو تتلى على منابر المساجد الجامعة، أو ينادى بها المنادون فى الأسواق وأماكن التجمع، وكل ما كتبه الجبرتى عن تاريخ الحملة الفرنسية فى مصر، يتميز بالصدق، لأنه كان يستطيع الحصول على المعلومات الصادقة من السلطات الحاكمة، وكان منصفا للأمراء المماليك فكتب عن مواقفهم المخلصة لمقاومة حكم المماليك. وسجّل أخبار الثورات الشعبية التى قام بها المصريون ضد الحكم الفرنسى فى الشوارع والدروب والطرقات، ويعرض مادته دون انفعال، يلتزم بالصدق والأمانة، لأنه باحث عن الحقيقة؛ لذلك فإن الجبرتى فى كتابه (عجائب الآثار) لا يكتب فقط عن الحياة السياسية فى مصر فى عصر المماليك، بل يكتب كتابا عن مصر يصف فيه أحوال المجتمع المصرى وطبقاته العامة والوسطى والحاكمة، ويكتب عن العلماء والشيوخ وسيرهم، وبالجملة تفاصيل حياة الناس فى مصر من كل جوانبها، كما شاهدها -وساعده فى ذلك دقة ملاحظته وذكائه ونفاذ بصيرته، وتتضح فى كتابته خفة روح أهل القاهرة ، وميلهم إلى الفكاهة.

والجبرتى حين يكتب يومياته عن الحكم الفرنسى لمصر، يشيد بالفرنسيين فى المواضع التى يستحقون ذلك، مثل زيادة أجور العمال المصريين الذين استخدموهم فى تمهيد الطرق والأعمال العمرانية، وتحديد ساعات العمل لهم، وبعدالة المحكمة فى تحقيقها فى حادث مقتل كليبر، وهى أمور لم تشهدها مصر من قبل.

ولما كان هذا المؤرخ الأزهرى عالما، فقد أشاد بدور الحملة الفرنسية الثقافى فى مصر، فقد بحثوا فى جغرافية مصر وتاريخها واقتصادها، ومكتبتهم الكبيرة التى أنشأوها فى حى الناصرية بالقاهرة، فيها كتب قيمة وكتب إسلامية مترجمة . ومعمل للكيمياء، تجرى فيه التجارب. ومكتبة التصوير وما شاهده فيها من صور متقنة للمشايخ ورجال الديوان وصور رائعة لمظاهر الطبيعة فى مصر من الآثار والطير والحيوانات ولم ينس تقدير الفرنسيين لكل مفكر مصرى، وترحيبهم بكل باحث أو قارئ، يضيف إليهم معلومات جديدة ومفيدة.

وواصل الجبرتى الكتابة عن تاريخ، ورواية الأحداث التى شاهدها فى عصر محمد على، فوصفه بالظلم للرعية، وتجاهل من أجلسه فى الحكم، والاستبداد برأيه وعدم قبول مشورة الآخرين، وتخلص من كل من اقترب منه، وسعى إلى الحصول على المال من كل سبيل، فرفع الضرائب، وصادر أموال الأغنياء، واشتد فى معاملة الفلاحين، حتى أن بعضهم هجروا قراهم، وتركوا فلاحة الأرض، وارتكب الكثير من المظالم مثل مذبحة المماليك وقتل أحمد أغا لاظ -حاكم قنا- وشيخ طرمونه بالوجه القبلى، أخذ حريته بمناسبة انتصاره على الوهابيين، وضرب عنقه وارتكب غير ذلك من المظالم والأعمال الاستبدادية.

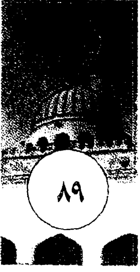


والجبرتى كمؤرخ منصف لا يتردد فى ذكر مقدرة محمد على الإصلاحية وبعد نظره ومقدرته السياسية والإدارية ويقول: لو أوتى شيئا من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة، لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه.

على أن سياسته المالية ، فى فرض الضرائب الباهظة، أدت إلى تجويع وتشريد الفلاحين وتمكينا لأسافل القوم من الجند الإنكشارية والأرناءوطى وغيرهم من الاستعلاء على المصريين. ومن أسباب كراهية الجبرتى لمحمد على موقفه السيئ من علماء الأزهر الذين أجلسوه على كرسى الحكم فى القلعة ، وفى الجزء الرابع من كتابه (عجائب الآثار) يسمي الجبرتى محمد على : بالقولى، أى الرجل الوضيع الذى وفد إلى مصر من قولة.

وكان الجبرتى يرى أن محمد على لا تتوفر فيه الشروط التى يجب أن تتوفر فى الحاكم، وهى العدل والعلم. وكتب فى الجزء الرابع عن مظالم محمد على، وتسربت كتاباته بين العلماء، فرأى محمد على عقابه بشدة، فأوعز إلى أحد رجاله بقتل ابنه خليل سنة ١٨٢٢م، وقد حزن حزنا شديدا حتى فقد بصره، وتوقف عن الكتابة ومرض ومات بعد ذلك بقليل، وقيل: إن بعض رجال محمد على خنقوه.

مذبحة القلعة - من كتاب وصف مصر



ولم يترك علماء الأزهر زميلهم الجبرتى فى أحزانه وبكائه ومرضه، بل كانوا يجالسونه، ويقضون الأوقات الطويلة معه لمواساته وتسليته.

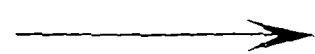
وكان إبراهيم باشا الذى خلف محمد على فظا مع العلماء يسىء استقبالهم، ويتجاهل وجودهم فى المناسبات المختلفة.

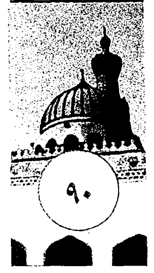
فقد الأزهر زعامته الشعبية فى عهد محمد على، وظل الحال كذلك طوال القرن التاسع عشر، وفى مجال الحياة العلمية فى الأزهر، نافست الدراسات الحديثة التى نقلها محمد على إلى مصر، وتنوعت منذ عهد الخديوى إسماعيل، الأزهر، فاتسم طابع الدراسة فى الأزهر بالجمود والتخلف، وضعف مشايخ الأزهر والطلاب، وقلت إيراداتهم بسبب تناقص إيرادات الأوقاف المخصصة للأزهر وعلمائه وطلابه.


الخديوى إسماعيل


إبراهيم باشا

الشيخ محمد عبده


صورة «أحمد عرابى» سنة ١٨٨٢


ولكن عاد إلى الأزهر نشاطه السياسى فى الثورة العرابية التى حدثت فى عهد الخديوى توفيق، وثار طلاب الأزهر، ودعا الشيوخ إلى الثورة والجهاد، ودعا الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الله النديم علماء وطلاب الأزهر إلى مناهضة الخديوى، ومشاركة عرابى فى ثورته، وانتهت الثورة العرابية، باحتلال الإنجليز لمصر سنة ١٨٨٢م، وتدارس رجال الإصلاح والفكر المستنير فى مصر من شيوخ الأزهر، ما آل إليه أمر البلاد من ضعف وتدهور، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده وسعد زغلول.

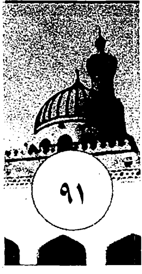
وكان الأزهر فى أواخر القرن التاسع عشر، يتعرض لتيارين أحدهما: يرى الإبقاء على الأزهر، كما هو دون تجديد، والأخر يرى ضرورة التجديد، وتنظيم الإدارة وأوقات العمل ومواعيد الامتحانات وشروطها، دون المساس بجوهر التعليم من موضوعات الدروس وكتب التدريس وأشخاص التدريس، وتزعم الشيخ محمد عبده حركة الإصلاح، وتزعم الشيخ عليش حركة الإبقاء على نظام التعليم فى الأزهر كما هو، ولكن وكيل الأزهر الشيخ حسونة النواوى، كان يميل إلى آراء الشيخ محمد عبده، وسعى إلى تطوير الأزهر، وهو من العلماء المجددين، وقد حرص على عدم تعطيل مشروعات إصلاح الأزهر بعد صدور القرارات والمراسيم الخاصة بها.

واشتغل محمد عبده بالكتابة فى الصحف، وعبر فى مقالاته عن أفكاره وآرائه فى تطوير الأزهر، والتعليم فى مصر ومحو أمية الشعب، وكل هذه وسائل للنهضة بالبلاد، ويؤدى ذلك بالضرورة إلى تحرير البلاد من المستعمر الغاشم.

وأخذت الحكومة بمقالاته عن تطوير التعليم فى الأزهر، فتم تنظيم إدارة الأزهر. ولكن إجراءات الإصلاح تعطلت بسبب انضمام الكثير من شيوخ الأزهر إلى الثورة العرابية، وبرزت شخصية الإمام محمد عبده، الذى نُفى خارج مصر عدة سنوات وأصدر مجلة العروة الوثقى التى تدعو إلى التحرر من الاستعمار الإنجليزى، ومحو الأميه، والأخذ بالأساليب الحديثة، ورفع المستوى الثقافى للشعب المصرى.

لما عاد الشيخ من منفاه، قام بالتدريس فى الأزهر، وتولى الإفتاء، وعضوية المجلس الأعلى للأزهر، وقد هيأت له هذه المناصب، إجراء الإصلاحات الضرورية لتطوير الأزهر.

وضع محمد عبده مشروعات جيدة لإصلاح الأزهر، منها تحديد موعد الدراسة لطلاب العلم، وتحديد جراياتهم، وكان فى استطاعة الطالب أن يبقى فى الأزهر إلى سن الستين يتقاضى جراية، ويتردد على الأزهر من وقت لآخر، وتم تحديد الرواتب، وكان المشايخ يحصلون على

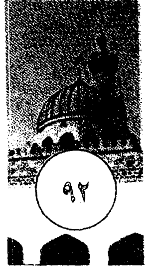


الأموال من الوقف، وينفقونها كيفما شاءوا على أهل مذهبهم، ومن يلوذ بهم، ويحتفظون لأنفسهم بالأموال الطائلة، وحُددت مناهج الأزهر، فلم يعد هناك حرج من تدريس الجغرافيا، وإثبات أن الأرض كروية، ولم يعد هناك حرج من دراسة علوم المعتزلة وأقوال علماء الكلام. وكانت الرعاية الصحية غير مكفولة فى الأزهر، فحينما يحدث وباء، يغلق الجامع، ويختلط الطالب السليم بالطالب المريض فى الرواق، والشيخ أو الطالب إذا مرض لا يجد من يعالجه، لأن الله هو الشافى ولا داعى للطبيب، وألغى هذا القول، وعُيِّن طبيب فى الأزهر، وأنشئت صيدلية فيه وقابل محمد عبده المسئول الإنجليزى عن ميزانية مصر وأقنعه باعتماد مبالغ مالية من الميزانية للإنفاق منها على رواتب المدرسين فى الأزهر، وخريجى الأزهر، من الأئمة والوعاظ والمدرسين والقضاة وغيرهم، ووافق المسؤول الإنجليزى، واعتمدت الميزانية الخاصة بالمرتبات وأسس الشيخ الجليل الجمعية الخيرية الإسلامية، لخدمة الإسلام وأهل الإسلام وتقويته أمام خصومه بالتربية الصالحة والفكر المستنير .

وقد تردد الخديوى توفيق فى تنفيذ هذه الإصلاحات، ولكنه عاد ووافق عليها وقال فى الاحتفال بتنصيب الشيخ عبد الرحمن الشربينى - شيخا للأزهر- : إن الجامع الأزهر قد أُسس وشُيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية، تنشر علوم الدين الحنيف فى مصر وجميع الأقطار الإسلامية. وأول شىء أطلبه أنا وحكومتى أن يكون الهدوء سائدا فى الأزهر الشريف والشعب بعيدا عنه، فلا يشتغل علماؤه وطلبته إلا بتلقى العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد والأفكار الباطلة.

واختار الخديوى لمشيخة الأزهر، شيخا لا يؤمن بالسياسة الإصلاحية للشيخ محمد عبده، وإنما يؤمن بالمحافظة على الأزهر فى وضعه القديم، وهو الشيخ عبدالرحمن الشربينى، الذى رأى أن الأزهر مسجد للعبادة وتلقى العلوم الشرعية -كما ورثناها من السلف- ولا علاقة للأزهر بعلوم العصر، فالأزهر ليس مدرسة فلسفة وكيمياء وغيرهما، مما يؤدى إلى تدهوره فى مصر والبلاد الإسلامية، وإن ما يسميه الشيخ محمد عبده حركة إصلاح فإنها تؤدى إلى انتشار الفوضى فى ربوعه.

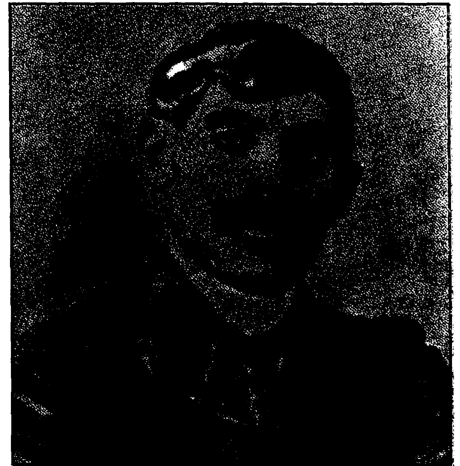
وعلى الرغم من هذه الآراء الجامدة كان لابد من إصلاح الأزهر وتطوير الدراسة فيه، ورعاية خريجى الأزهر، فالأزهريون يقضون فى الأزهر سنوات طويلة، ويعودون إلى بلادهم بلا عمل، والمحاكم الشرعية، تحتاج إلى قضاة تخصصوا فى أحكام المواريث وفى الفقه والأحكام الشرعية والوصاية على التركات.

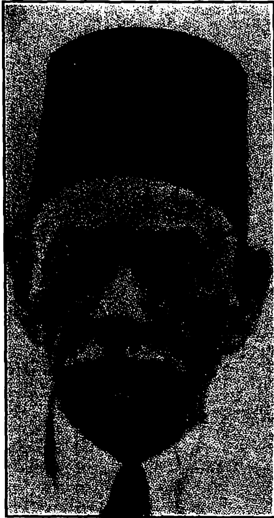


وقد أثمرت جهود الشيخ محمد عبده الإصلاحية فى إنشاء مجلس إدارة للأزهر، ولكن أعداء الإصلاح تصدوا للشيخ الإمام فاستقال، ولم يوافق الخديوى على ترشيحه شيخا للجامع الأزهر حتى ينفذ سياسته الإصلاحية فى الأزهر، وعُيِّن مفتيا للديار المصرية، وبجهوده وضع لائحة مدرسة القضاء الشرعى، التى أسسها تلميذه سعد زغلول، وقد ترك محمد عبده تلاميذ نبغوا فى تنفيذ سياسته الإصلاحية، مثل قاسم أمين الذى حمل آراءه وأفكاره، ودعا إلى تحرير المرأة، ومثل سعد زغلول الذى قام بتعريب التعليم فى المدارس، وهو شيخ أزهرى وقاد ثورة مصر سنة ١٩١٩م، للمطالبة باستقلال مصر من الاستعمار الإنجليزى.

وواصل الأزهر مسيرته طوال القرن العشرين، ونافسته منافسة قوية إنشاء مدرسة دار العلوم وانتشار المدارس الإعدادية والثانوية، وإنشاء الجامعة المصرية القديمة، ثم جامعة القاهرة، والجامعات الأخرى، وأدى انتشار التعليم الإلزامى أو الابتدائى فى قرى مصر ومدنها إلى إغلاق الكتاتيب تدريجيا، ومن ثم توقف دورها الكبير فى إعداد طلاب الأزهر، وفى القرن العشرين نبغ من الأزهر، علماء كبار ، مثل طه حسين -عميد الأدب العربى- وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وأحمد حسن الباقورى، وغيرهم كثير.

وقام جمال عبد الناصر بإصلاح الأزهر، أى إدخال علوم المدارس جنبا إلى جنب مع علوم الأزهر، فأثقلت هذه المناهج كاهل طلاب الأزهر وأدى إلى تخرج أجيال ضعيفة فى علوم الدين واللغة والعلوم العصرية، فضلا عن أنهم لم يحفظوا القرآن جيدا، بسبب إغلاق الكتاتيب التى كانت تتولى هذه المسؤولية بقوة ومقدرة رفيعة.


قاسم أمين


سعد زغلول



أحمد حسن الباقورى



مصطفى لطفى المنفلوطى كاتب

منشور ثورة ١٩١٩



د. طه حسين - عميد الأدب العربى



الرئيس

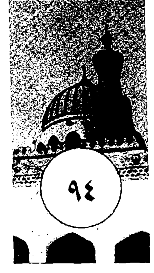
جمال عبد الناصر



الرئيس أنور السادات



الرئيس حسنى مبارك



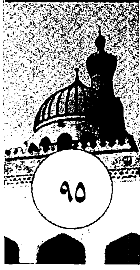
وتضيف إلى ذلك أن الاستعمار ألقى فى نفوس العوام من المصريين السخرية من رجال الدين وأصحاب العمائم، فسخروا من العمامة والزى الأزهرى، فضلا عن أن بعض الأزهريين، لم يجاروا العصر وتطوره فى سلوكهم وتصرفاتهم، كما أن وسائل الإعلام تظهر المعمم وهو يتكلم اللغة الغربية بطريقة تبعث على السخرية، ونتيجة لكل ذلك كره رجال الدين الزى الأزهرى، وخلعوه، ولبسوا الملابس الحديثة، وأنشئت جامعة الأزهر فى مبان حديثة مستقلة، وفقد الجامع الأزهر شخصيته كجامعة يجلس فيها شيوخ العلم للتدريس فى حلقات طوال اليوم.

ولكن الأزهر فيه عبق التاريخ، ففى كل أزمة يمر بها المسلمون يحتشد المصلون فى الجامع الأزهر وينادون بالحرية والاستقلال، وتخليص المسلمين مما هم فيه من أزمات، حدث هذا فى ثورات ١٩١٩م، وما بعدها وفى العدوان الثلاثى على مصر ١٩٥٦م، وفى حرب يونيه ١٩٦٧م، وحرب التحرير ١٩٧٣م، والاعتداءات الإسرائيلية والاستعمارية ، وخطب زعماء الأمة فى الناس، مثل سعد زغلول ومصطفى النحاس وعلى ماهر وعبد الناصر والسادات ومبارك وغيرهم، وحاصر الإنجليز الجامع الأزهر فى سنة ١٩١٩م، وأطلقوا الرصاص على المتظاهرين من الطلاب، وسقط الطلاب صرعى وتعانق الهلال مع الصليب فى الجامع الأزهر فى ثورة ١٩١٩م، ومن نتيجة ثورة ١٩١٩م، جلاء الإنجليز عن مصر.

والأزهر فى العصر الحديث يفتح أبوابه لطلاب العلم من جميع أنحاء العالم، انطلاقا من تأدية رسالته العلمية التى تبناها منذ تأسيسه، ووفد على مصر الطلاب من أنحاء القارة الإفريقية، من السودان والصومال ونيجيريا وساحل العاج وموزمبيق وأوغندا وزنجبار، ومن آسيا طلاب من الهند وباكستان والصين والجمهوريات الإسلامية التى كانت تتبع الاتحاد السوفيتى، هذا فضلا عن وفود الطلاب من البلاد العربية، مثل فلسطين وسوريا والأردن ولبنان والعراق واليمن والحجاز.

يفد الطلاب الوافدون إلى معهد البعوث، ويقدمون أوراقهم إلى إدارتها، وتُجرى لهم امتحانات عامة، تحدد مستوى الطلاب العلمى، لوضعهم فى الفرقة الدراسية المناسبة لمستواهم العلمى، ولا تحدد إدارة البعوث سنا معينا للقبول، بل المستوى الثقافى، هو الأساس لقبولهم فى المرحلة الدراسية المناسبة والفرقة الملائمة.

وأقامت مصر فى العصور الحديثة مدينة البعوث، يقيم فيها طلاب الأزهر الوافدون إقامة دائمة، من مأكل وإقامة ورعاية صحية، بالإضافة إلى تهيئة استاد رياضى لهم يمارسون فيه هواياتهم الرياضية، ويتقاضى الطالب راتبا شهريا، ويظل مقيما فى مدينة البعوث حتى ينتهى من



دراسته، ويعـود إلى وطنه حاصلا على الشهـادة الأزهرية التى تؤهله لمواصلة رسالة الأزهر، فى نشـر الفكر الديـنى المعـتدل، وبـعضـهم وصل فـى بلادهم إلى أعلى المناصب.

شيوخ الأزهر

تحدثنا عن طريقة اختيار شيخ الجامع الأزهر، والشروط التى يجب أن تتوفر لمن يقع ترشيحه لهذا المنصب. والآن نتـحدث عن شيوخ الأزهر منذ نشـأة هذا المنصب فى العصر العثـمانى حتى العصر الحديث.

أول من تولى مشـيخة الأزهر -كمـا يذكر الجبرتـى- الشيخ محمـد الخرشى المالكى، وهو وارث علوم سيد المرسلين ﷺ، روى عن والده الشيخ عبد الله الخرشى، وغيره من المشايخ، وهو من محافظة البحـيرة، وأهم مؤلفاته: (فتح الجليل)، وهو شرح لمختـصر خليل، فى الفقه المالكى (الشرح الكبيـر) فى الفقه أيضا (الفوائد السنيـة فى حل ألفاظ السنوسية) وهى رسالة فى التـوحيد (الأنوار القدسية فى الفـرائد الخرشية) وهى رسالة فى التوحيد أيضا . وكـان هذا الشيخ حجة فى الفقه المالكى، وتوفى سنة ١٦٩٠م.

وتولى بعده الشيخ **إبراهيم البرماوى**، وهو من فقـهاء الشافعـية ظل يدرس فى الأزهر، حتـى ولى منصب شيخ الأزهر، وهو من أهل الـتصـوف والزهد، وله العديد من المؤلفـات، فى الفقه الشافعـى وفى التوحيد مثل (الدلائل الواضحات فى إثبات الكرامـات والتوسل بالأولياء بعد الممات).

وخلفه **الشيخ النشرتى** ، (ت:١٧٠٩م) ثم **الشيخ عبد الباقى القلينى** -وهو من قلين فى محافظة كـفر الشيخ، ت:١٧١١م، حضر إلى القاهـرة، وتعلم فى الأزهر ودرس على أيدى كبار علماء عـصره، الشيخ إبراهيم البـرماوى، والشيخ النشـرتى. وبعد أن أتم دراستـه، وحصل على الإجازة، جلس للتدريس فى الجامع الأزهر وانتظم فى حلقته طلاب كثيرون، ووجه الشيخ تلاميذه إلى الدراسة من المصادر الأصلية والكتب القديمة، وكان يشـرح لهم ما صعب فهمه عليهم ويملى عليهم الحواشى كعادة علماء عصره. والشيخ عبد الباقى القلينى من كبار فقهاء المالكية.

تولى القلينى مشيخة الأزهر بعد فتنة كـبيرة فى الأزهر، وانقسم المشايخ إلى فريقين، فريق يرشح للمشيخة الشيخ القلينى، وفـريق يرشح النفراوى، ودار قتال بالبنادق فى الجامع الأزهر بين



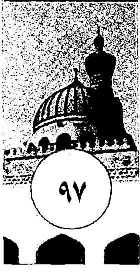
الفريـقين، وقُتـل وجُرح جمـاعة من الفـريقين، ونُهـبت الخزائن، وأغلـق الجامع الأزهر، وحـضر الوالى العـثمـانى فأخـرج القـتلى، وأخرج المجـاورين، ولم يبق بالجامع أحد، وتوقفت الصلاة، وأمر الباشا العثمانى، بلزوم النفراوى بيته، وتدخل المشايخ فى الـصلح على أن يلى الشيخ القلينى المشـيخـة، ويليه الشيـخ النفراوى، ووليـها فـعلا بعـد القلينى، تصـدى للتدريـس فى الجامع الأزهر، واتسـعت دائرة حلقتـه، وهو من أعلم معاصـريه بفقه الإمـام مالك، ونبغ كذلـك فى علوم اللغة والأدب ونبغ من حلقته شيوخ، تولى بعضهم مشيخة الأزهر، مثل **الشيخ الدمنهورى** وله العديد من المؤلفات، وخلفه **الشيخ محمد شنن**، وهو من علماء الفقه المالكى، ومن أكثر أهل زمانه ثراءً يمتلك عددا من الضياع والجوارى والمماليك، (ت: ١٧٢١م).

وخلفه **الشيخ إبراهيم الفيومى**، وهو من كبار الفقهاء، وعُرف عنه الورع والتقوى، توفى سنة ١٧٢٥، وظل يدرس فى الأزهر طوال حياته، وكان يفـضل التدريس على سائر الأعمال وله العديد من المؤلفات منها (العزية) فى الصرف، ويقع فى مجلدين.

وتولى مشيـخة الأزهر من بعده **الشيخ عبـد الله الشبراوى** وهو شافعى، بخلاف معظم مشايخ الأزهر السـابقين، كانوا مالكية، ويقـول الجبرتى عن الشيخ الشبـراوى: هو الشيخ الإمام المحدث الفقـيه الأصولى المتكلم، الشاعر الأديب، وهو من بيت علم، حـصل جده على الإجازة من الشيخ عبد الله الخرشى، والشيخ الشبراوى أول شـيخ للجامع الأزهر، استطاع انتزاع المشيخة من المالكية وتحويلها إلى الشافعية وظلت كذلك طوال العصر العثمانى.

ومن أشعار الشيخ الشبراوى:

وحـــــقك أنت المنى والطلب	وأنـــــت المــــراد وأنــــت الأرب
ولى فـــيك يـا هاجــرى صبـــوة	تحـيــر فى وصـــفــهـــا كل صب
أبيت أســامـــر نجم الســـمـــا	إذا لاح لى فى الدجى أو غـــــرب
مـــتى يا جـــمـــيل المحــيـــا أرى	رضـــاك ويذهب هذا الغـــضـب
أشــاهد فـــيك الجـــمـــال البـديع	فــــيــــأخـــذنى عند ذاك الطرب
ويعـــجـــبنى منك حـسن القـــوام	ولـين الـكـلام وفـــــــرط الأدب
وأثبـت فى الخـــد روض الجـــمـــال	ولـكـن ســـقــــاه بماء اللـهـب
لـئن جـــدت أوجـــرت أنت المراد	ومــــا لى ســـــواك مليح يجب



وظل الشيخ الشبراوى يلقى دروسه على طلاب العلم طوال حياته، حتى ارتفعت مكانته عند الأمراء وكبار رجال الدولة، وقُبلت شفاعته، واحتُرمت كلمته، وصارت لأهل العلم فى عهده رفعة ومقام ومهابة عند الخاص والعام، وأهدوه بأنفس ما عندهم، وشيَّد دارا فخمة على بركة الأزبكية، وكان يقتنى الطرائف والتحف من كل شىء، والكتب الغالية النفيسة المخطوطة بالخط الحسن، وكان طلاب العلم فى عهد الشيخ الشبراوى يتمتعون بالتقدير والاحترام، ومن آثاره كتاب (مفاتح الألطاف فى مدائح الأشراف) وله (شرح الصدر فى غزوة بدر) شرح فى آخرها نبذة عن تاريخ ولاة مصر الإسلامية ، وله مؤلفات فى النحو والصرف والبلاغة والحديث والتفسير، وله ديوان شعر يحتوى على موضوعات مختلفة فى الغزل والتصوف والمدائح النبوية والمميزات الأخلاقية والقدرة الإلهية، (ت:١٧٥٧م).

وخلفه **الشيخ محمد الحفنى**، وهو شافعى، ت:١٧٦٧م، وله مؤلفات قيمة (الثمرة الإلهية فى أسماء الصحابة البدرية) - حاشية على شرح الأشمونى - حاشية على شرح الهمزية، وبالإضافة إلى العديد من الحواشى والرسائل فى الفقه وأصوله والحديث والنحو والصرف واللغة. وخلفه الشيخ عبد الرءوف السجينى، وهو من بيت علم لازم عمه الشيخ عبد الرحمن بن أحمد السجينى، وحضر كل دروسه فى الأزهر، وتابعها جيدا، كما تابع دروس بعض العلماء، ولما مات عمه تصدَّر مكانه للتدريس، وتولى مشيخة الأزهر فترة محدودة حتى توفى سنة ١٧٦٨م، وتميَّز بحسن إدارته للجامع الأزهر، والسعى إلى حل مشاكل المجاورين، وانتظام حلقات العلم والدرس فى الجامع الأزهر.

وتولى بعده **الشيخ الدمنهورى**. ويقول عنه الجبرتى هو الشيخ العلامة أوحد الزمان، فريد الأوان أحمد بن عبد المنعم بن يوسف بن صيام الدمنهورى، وُلد بدمنهور، قدم إلى القاهرة بعد حفظه للقرآن الكريم، واشتغل بالعلم، واجتهد فى تحصيله، وهو صغير يتيم لم يكفله أحد وأجازه علماء المذاهب الأربعة، وكانت له حافظة وذاكرة فى فنون عديدة، وكان يلقى دروسه فى شهر رمضان فى المسجد الحسينى، وولى مشيخة الأزهر، بعد وفاة الشيخ محمد الحفنى، وهابه الأمراء، لأنه لا يقول إلا الحق، ولا يخشى فيه لومة لائم، وكان يأمر بالمعروف دينهى عن المنكر، سمحا بما عنده من الدنيا، وقصدته الملوك من الأطراف وسائر ولاة مصر، وأهدوه بالهدايا النفيسة. وكان عظيم الهيبة رائع الصيت، (ت:١٧٦٧م).

وهو علامة فى علوم اللغة والدين والمنطق والهيئة والطب. ومن أهم مؤلفاته (نهاية التعريف بعلوم الحديث) (إيضاح المبهم فى معانى السلم فى المنطق) (منتهى الإرادات فى تحقيق الاستعارات) (سبيل الرشاد إلى نفع العباد فى الأخلاق) (القول الصريح فى علم التشريح فى الطب) (منهج السلوك فى نصيحة الملوك).



وتولى مشيخة الأزهر بعده **الشيخ العروسى**، جامع المزايا والمناقب الشهاب الثاقب الإمام العلامة الشيخ أحمد بن موسى بن داود أبو الصلاح العروسى، الشافعى الأزهرى، تتلمذ على يد الشيخ أحمد الملوى والشيخ عبد الله الشبراوى، وحفظ كتب جلال الدين السيوطى، وابن حجر العسقلانى، وغيرهما، واستمع إلى الشبراوى والحفنى والعزيزى والبراوى والأجهورى وغيرهم، وتلقى بغية الفنون من الشيخ على الصعيدى، ولازمه السنين الطوال، وكان معيدا لدروسه، وسمع منه الصحيح بجامع مرزه ببولاق.

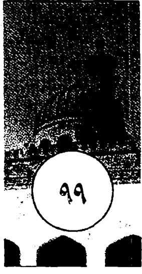
تولى الشيخ العروسى المشيخة بعد سبعة أشهر من موت الشيخ الدمنهورى ، وهذه الشهور السبعة، اشتد فيها النزاع بين الشيخ العريشى والشيخ العروسى حول المشيخة؛ ذلك لأن الدمنهورى لما شعر بدنو أجله، وأقعده المرض عن مباشرة مهام منصبه، اعتمد على مفتى الأحناف الشيخ العريشى فى إدارة الأزهر، وجعله وكيلا له، فتطلع العريشى إلى شغل هذا المنصب بعد وفاة الدمنهورى، وكاد يتم له الأمر بمساعدة بعض أنصاره من العلماء والأمراء.

غضب الشافعية من محاولة الشيخ العريشى تولية المشيخة، لأن هذا المنصب من نصيب الشافعية وليس الأحناف، ورفعوا شكواهم إلى إبراهيم بك شيخ البلد.

على أن الأمراء رفضوا مطالب الشيوخ الشافعية، ورفضوا القول بأن المنصب من نصيب الشافعية، فالمماليك أحناف والباشا العثمانى والسلطان العثمانى من الأحناف، والإمام أبو حنيفة أستاذ وشيخ الإمام الشافعى.

وفى محاولة لفض النزاع، اتفق المماليك على أن يتولى الشيخ العريشى مشيخة الحنفية، وانضم إلى هذا الفريق الأتراك والمغاربة، ويتولى الشيخ العروسى المشيخة على الشافعية والشيخ الدردير مشيخة المالكية، ولكن هذا التقسيم لم يحل مشكلة اختيار شيخ الأزهر، وانقسم العلماء والطلاب، وبدأ النزاع يحتدم بين الفريقين، واعتصم الشافعية فى مقام الإمام الشافعى، ومنعهم الحنفية من دخول الجامع الأزهر، وتطور النزاع إلى نزاع بين الشوام والأتراك، فانحاز العريشى إلى الشوام بنى جلدته مما أضعف مركزه، وأغلق رواق الشوام، وضعفوا أمام الأتراك، وضعف معهم شيخهم الذى اتهم بالتحريض على النزاع، فعُزل من منصب مفتى الأحناف وهرب من مصر بعد أن ساءت أحوال أهل بلده، وبذلك أتاح الفرصة لتولية الشيخ أحمد العروسى مشيخة الأزهر. وكان هذا انتصارا للشافعية سنة ١٧٧٩م.

والشيخ العروسى أعد نفسه علميا فى فترة شبابه أو حينما كان مجاورا ولم يكتف بدراسة علوم الدين واللغة، بل تعلم من والده الجبر والرياضيات والهيئة، وتعلم التصوف من السيد مصطفى البكرى، ولازم ولى عصره الشيخ أحمد العريان، وأحبه، وتزوج ابنته.

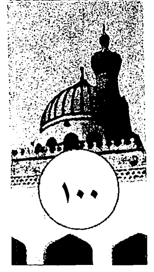


ظل هذا الشيخ الجليل طوال حياته يدرس ويملى ويعيد ويفيد، وشرح للطلاب التفسير والحديث والفقه، ومن المصادر الأصلية وكان متواضعا، يراعى أصحابه القدامى، وله خدمات جليلة ومواقف نبيلة نحو الناس. ويقول الجبرتى: لقيت من لطفه ما ينعش ويسر وتوفى ودُفن إلى جوار صهره الشيخ العريان سنة ١٧٩٣م.

ومن مؤلفاته (شرح على نظم التنوير فى إسقاط التدبير) للشيخ الملوى (حاشية على الملوى على السمرقندى فى البلاغة) وأولاده الأربعة علماء، أحدهم شغل منصب والده فى التدريس فى الأزهر وهو شمس الدين محمد والأخر شهاب الدين السيد أحمد، وقد أدى الشيخ أحمد العروسى رسالة شيخ الأزهر فى الجوانب الدينية والسياسية، فله مواقف كثيرة فى منع ظلم المماليك للشعب المصرى، وكثيرا ما حمل شكاوى الجماهير المصرية، ورفعها إلى المماليك، وحملهم على رفع الظلم عن المصريين.

ومن أشهر وأبرز علماء الأزهر الشيخ **عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشرقاوى**، وهو من أبرز فقهاء مصر، وُلد فى قرية من قرى الشرقية بمصر، وتعلم بالأزهر، وظل يلى التدريس فى الأزهر، حتى ذاع صيته، وعرف الأزهريون قدره ، ورشحوه شيخا للأزهر. ولما ولى أنشأ لأهل بلده الشراقوة، رواقا فى الأزهر، عُرف باسمهم، درس فى الأزهر على كبار شيوخ عصره، وحصل على الإجازة، وتفقه فى الدين وتصدى للإفتاء والتدريس، وتميز فى الإلقاء والتحرير.

وبدأ الشيخ الشرقاوى حياته فى القاهرة، فقيرا، وأغدق عليه أهل الخير الأموال وقدروا علمه وفضله، فسكن فى بيت فخم وامتلك الأملاك الكثيرة وكبرت عمامته وطالت لحيته، وتولى مشيخة الأزهر، وفترة مشيخته فترة مثيرة فى تاريخ مصر، وتزعم الشيخ الشرقاوى الشعب المصرى، وكثيرا ما رفع ظلم المماليك عن مصر، وقاد حركة المقاومة ضد الحكم الفرنسى، وحدثت ثورتا القاهرة الأولى والثانية فى عهده، وهو الذى اتفق مع الفرنسيين على رفع الأذى عن المصريين. اعتقله مينو -قائد الحملة الفرنسية فى مصر- بتهمة إيواء قاتل كليبر وزملائه فى الأزهر، وتزعم حركة اختيار محمد على حاكما على مصر بعد أن تدهورت البلاد بسبب حكم الباشوات العثمانية بتهمة الاشتراك فى الثورة ضدهم. ولهذا الشيخ مواقف جليلة طوال فترة مشيخته للأزهر. وقد نُسب إليه مهادنة الفرنسيين بعض الوقت. ولم يتم ذلك إلا بسبب ضغط الظروف وتلاحق الأحداث الجسيمة، والشيخ الشرقاوى دُفن فى ضريح أعده لنفسه فى الخانكاه يزوره محبوه وعارفو فضله وخصوصا من الأزهريين. ومن مؤلفاته: (التحفة البهية فى طبقات الشافعية) (العقائد الشرقية فى التوحيد) (الجواهر السنية على العقائد المشرقية) (تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من السلاطين) (شرح على حِكَم ابن عطاء السكندرى) (منهج الفؤاد فى آداب الطريق وترتيب الأوراد).. فى التصوف . وكتابه فى التاريخ (تحفة الناظرين) موجز لتاريخ مصر. وحينما يتكلم



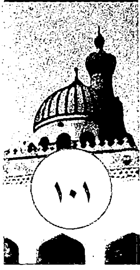
عن الفراعنة، يغلب عليه الخيال والمعلومات غير الحقيقية. التى لم يحصل عليها من مصادر موثوق بها. توفى سنة ١٨١٢م.

وخلفه الشيخ **محمد الشنوانى**، وهو من أهل الزهد والتقـوى من محافظة المنوفـية، تـولى التدريس فى الأزهـر، واشتـرك فى ثورات الأزهريين ضـد الحكم الفرنسى، وتردد كثيرا فى قبول المنصب، وتوفى سنة ١٨١٨م.

عكف الشيخ مـحمـد الشنوانى على الـتدريس فى الجـامع الأزهر وجـامع الفاكهانى، وكان مخلصا فى عمله، وإذا فـرغ من دراسته، غَيَّر ملابسه، ويكنس الجامع، وينظف دورات المياه، ويغـسل القناديل، ويضع فيها الـزيت، حتى يعدها لإضاءة الجـامع ليلا، ولما توفى الشيخ عبد الله الشرقاوى، طلب محمد على من علماء الأزهر اختيار شيخ له، وتعدد المرشحون، واختفى الشنوانى زهدا فى المنصب، ورشح الحاضرون الشيخ محمد المهدى، ورأوا أن الشنوانى لا يصلح للمنصب، وأرسلوا نسخـة من محضر اجتمـاعهم إلى محمد على . لكن الأخيـر اعترض وأصدر مرسـوما بتعيين الشنوانى شـيخا للأزهر، اعترافا من البـاشا بتميزه وتقـواه وورعه وعلمه فضلا عن تأكده، أى الباشا، من أن الشيخ لن يتـدخل فى السياسة وشؤون الحكم. ولما كان بيت الشيخ مـتواضعـا فقد تبـرع له أحد التجار بـبيت كبيـر مجهـز بالأثاث الفاخر والخـدم والجوارى والعبيد.

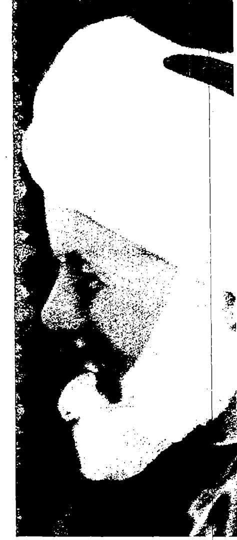
وظل الشيخ على عادته فى الزهد ملازما لجامع الفاكهانى، ينظفه ويضيئه حتى وفاته، ودُفن فى مقـبرة المجاورين بأيدى طلابه وزملائه العلمـاء بعد أن صلوا عليه فى الجـامع الأزهر. وخلفه الشيخ **محمد أحمد العروسى** الذى تلقى العلم من والده الشيخ أحمد العروسى -شيخ الأزهر- وجلس مكانه للتدريس، وكان الشيخ مـحمد العروسى محبوبا من الطلبـة والشعب والوالى وكبار رجال الدولة، وكان يؤدى واجبه كشيخ أزهرى خيـر أداء ويتولى التدريس منذ الصباح حتى صلاة العشاء وتوفى سنة ١٨٢٩م، وخلفه **الشيخ أحمـد الدمهوجى** ثم الشيخ **حسن العطار** وهو من المغرب، ولما احـتل الفرنسـيون مصـر، لجأ إلى الصـعيد حـتى لا يضطر إلى التعـامل مع هؤلاء المحتلين، ثم عـاد إلى مصر ورحل إلى الشام وأتقن عـدة لغات، وشُغف بدراسة العلـوم الحديثة كالفلك والرياضيات والطب، وتولى مشيخة الأزهر وظل كذلك حتى وفاته سنة ١٨٣٤م وكان من رأيه تطوير علوم الأزهر، لتشمل العلوم الحديثة، حتى يمكن تخـليص مصر والمسلمين عموما من الجمود والتـخلف واللحاق بركب الحضارة، فـهو الذى أشار بإرسال الشيخ رفـاعة الطهطاوى إلى فرنسا، وشجع الشيخ محمد طنطاوى على السفر إلى روسيا. وللشيخ العطار العديد من المؤلفات (رسالة فى كيفية العمل بالأسطرلاب) (كتاب فى الإنشاء والمراسلات).

وتولى مشـيخة الأزهر، **الشيخ حـسن القويسنى** وخلفه الشيخ **أحمد عـبد الجواد**، ثم الشيخ **إبراهيم البـيجـورى**، يليه الـشيخ **مـصطفى محـمد العـروسى** وهو ثالث ثلاثة من آل العـروسى الذين تولوا هذا المنصب، وخلف الشـيخ مصطفـى العروسى والده وجـده وتوفى سنة



١٨٧٦م، وقد حارب هذا الشيخ البدع والأهواء، وزيارة القبور والتبرك بمقامات الأولياء، والاستجداء بقراءات آيات من كتاب الله ، وراقب حركة التدريس فى الجامع الأزهر بحزم، واستاء من المستوى العلمى لبعض أعضاء هيئة التدريس، وقرر عقد امتحان لهم قبل شغلهم لهذا المنصب، ولكنه عُزل قبل تنفيذ قراره.

وله مؤلفات بارزة منها: (شرح على الرسالة القشيرية) فى التصوف. وخلفه الشيخ **محمد العباسى** ثم الشيخ **شمس الدين الإمبابى**، ت:١٨٩٦.

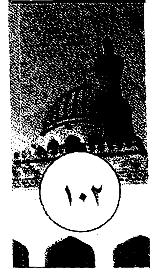

الشيخ
حسونة النواوى

ومن شيوخ الأزهر البارزين، الشيخ **حسونة النواوى** تولى مشيخة الأزهر مرتين، وتولى الإفتاء، ووضع قانون تطوير الأزهر الذى تبناه الشيخ محمد عبده. ويتضمن القانون تنظيم مجلس إدارة الأزهر، وأحكام الانتظام فى الدراسة، والتعليم ومناهجه، وعدم قراءة الحواشى على الطلبة خلال السنوات الدراسية الأربعة الأولى، وتطوير نظم الامتحانات، يلى ذلك أحكام عامة، وتوفى الشيخ النواوى سنة ١٩٢٤م، وعُرف عنه الصلاح والتقوى، وقام بالتدريس فى الأزهر سنوات طويلة، وتولى المشيخة مرتين، حيث خلفه ابن عمه الشيخ عبد الرضى النواوى، الذى توفى فى نفس السنة، وخلفه الشيخ **سليم البشرى**، تولى المشيخة مرتين، وهو مالكى المذهب، وفى عهده طُبق نظام الامتحانات لمن يرغب فى التدريس فى الأزهر، وكان حازما فى إدارته. وظل يدرس فى الأزهر، رغم أعبائه الكثيرة كشيخ للأزهر.


الشيخ
سليم البشرى

وشيخ الأزهر يتمتع بمهابة كبيرة بين الناس، فإذا مر فى طريقه فى الأزهر، راكبا بغلته يغلق النجار محلاتهم ويهرعون إليه، يقبلون يديه ويلقونه منه الدماء والبركة، ويرفقون إليه شكاياتهم من السلطات الحاكمة.

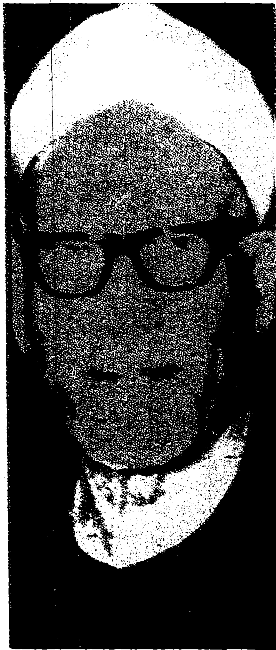
ومن شيوخ الأزهر، الشيخ **عبد الرحمن الشربينى** والإمام الشيخ / **محمد مصطفى المراغى**، وضع مشروع قانون الأزهر وله عدة مؤلفات، وتولى المشيخة أكثر من مرة وتوفى سنة ١٩٤٥م، وكان لا



يخشى فى الحق لومة لائم، وعارض الملك فاروق حين أراد أن يستصدر منه فتوى تتعارض مع الشريعة، وهو معلمه وأستاذه، وكان يتكلم مع الإنجليز فى ضرورة الجلاء عن مصر، ويقوم بالتدريس فى الجامع الأزهر، وإلقاء خطب الجمعة أحيانا، ومن مؤلفاته (تفسير لبعض آيات القرآن الكريم) (بحث فى جواز ترجمة القرآن الكريم) (بحوث فى الفقه والتشريع الإسلامى) وقدم كتاب حياة محمد للأستاذ محمد حسين هيكل.

وخلفه الشيخ **مصطفى عبد الرازق**، الذى حصل على دكتوراه الفلسفة من فرنسا، وشغل وظيفة أستاذ الفلسفة فى كلية الآداب جامعة القاهرة وتدرج حتى أصبح شيخا للأزهر، وله مؤلفات قيمة مثل سيرة الإمام محمد عبده.

الشيخ أحمد الفحام



وتعاقب الشيوخ على الأزهر، مثل الشيخ / **عبد المجيد سليم**، الذى اختلف مع الملك فاروق، ومع رجال الثورة حول ميزانية الأزهر.

وخلفه الشيخ محمود شلتوت، عُرف عنه سعة العلم، وأول من ألقى أحاديث إذاعية قيمة، استمع إليها الناس بشغف شديد، ووضع كتابا فى تفسير القرآن الكريم، لم يتمه بسبب المرض الذى هاجمه، وعاصر جمال عبد الناصر، وتولى الشيخ **حسن مأمون** مشيخة الأزهر، ثم وليها الشيخ الدكتور **أحمد الفحام**، وخلفه الشيخ الدكتور **عبد الحليم محمود**، حصل على الدكتوراه -كسابقه- من فرنسا فى الفكر الصوفى، وله العديد من المؤلفات تتجلى فيها آراؤه الصوفية وزهده فى الحياة، وكان عالما جليل القدر، نال تقدير الجماهير ليس فى مصر فقط بل فى أنحاء العالم الإسلامى. وخلفه شيوخ أجلاء مثل الشيخ **عبد الرحمن بيصار** والشيخ **جاد الحق على جاد الحق** وهو رجل شجاع لا يخشى فى الله لومة لائم وآخرهم الشيخ **سيد طنطاوى**.

وظهر من علماء الأزهر، الشيخ **محمد حسنين مخلوف** -مفتى الديار المصرية السابق- قضى هذا الشيخ الجليل حياته الطويلة والتى اقتربت من مائة عام، قضاها فى الدعوة إلى الإسلام، فكان يظهر فى المساجد الكبرى، مثل مسجد الحسين، ومسجد السيدة زينب، ومسجد السيدة نفيسة وغير ذلك من المساجد، ويعرفه الناس فى المسجد،



شيخ الأزهر

محمد سيد طنطاوى




الشيخ

محمد الغزالى

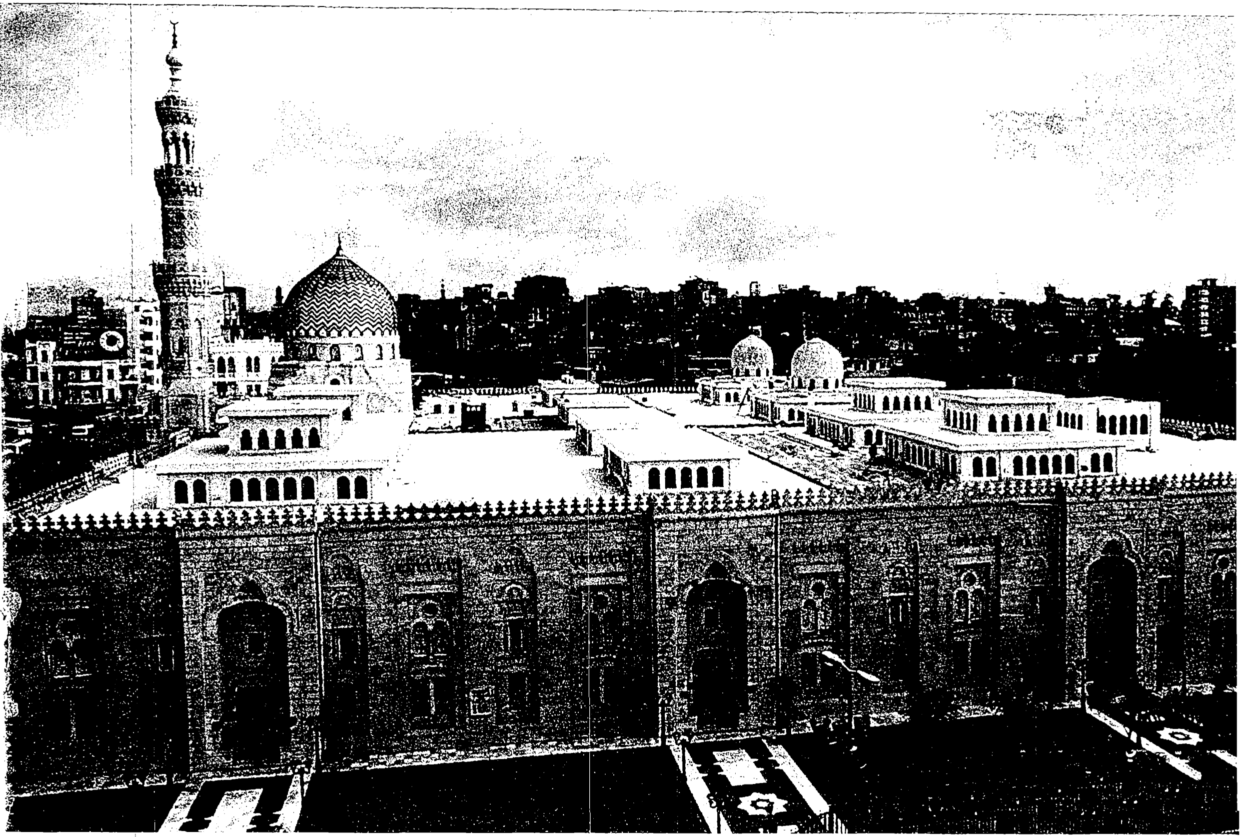
ويلتفـون حـوله على شكـل حلقـة ويعظهم، ويفسر لهم القرآن الكريم.

ومن علمـاء الأزهر البـارزين الشيخ **محمـد الغزالى**، له العديد من الكتب مـثل عـقـيدة المسلم، خلق المسلم، همـوم داعـية، فـقـه السيـرة النبوية، وله العديد من الأحاديث الإذاعية التى أفادت المستمعين، وتجول فى أنحاء العالم الإسلامى، يحمل فكرا مـعـتـدلا ويدعـو إلى الله بـالحكمـة والموعظة الحـسنة، وقـضى فى الجـزائر عـدة سنوات، وحـزن الشيخ لما رأى تغلب الثقافة الفرنسية على سكان الجزائر، وجهل الناس بشؤون دينهم وباللغة العربية، لذلك طاف بلاد الجـزائر من أقصاها إلـى أقصاها، وعلَّم أهلهـا شؤون الدين، وأخذ المسـؤولون عنه تدريس المواد التعليمية باللغة العربية، وبصَّـر الشيخ الجليل أهل الجزائر بشؤون دينهم، وتعلموا منه مبادئ الإسلام، وعـمل مديرا لجامعـة قطنطينية، فعلَّم الشـباب ووعظهم، وصلى بهم، وزار جامـعات الجزائر، وألقى فيـها المحاضرات الهامة الـتى خلق منها شبابا يؤمن بالإسلام، وينبـذ الفرنجة التى نقلها الفرنسيون إليهم، لإبعـادهم عن الإسلام ولغته العربية،
ومازال الشيخ يؤدى رسالته كاملة حتى وفاته.


الشيخ

محمد متولى الشعراوى

ومن الشيوخ الدعاة، الشيخ **محمد متولى الشعراوى**، وهو عـالم أزهرى، تقلد بعض المناصب حـتى شـغل منصب وزير الأوقـاف، وكان هذا الشـيخ مـوسوعـة فى علوم الدين واللغة والعلوم الحديثـة، وفسَّر القرآن الكريم بأسلوب يفـهمه الخاص والعام، فـهو متمكن فى اللغة العربيـة، وساعده ذلك على تفسير آيات كتاب الله تفسيرا لغويا، ثم دينيا، ثم عقليا، وكان فى مقدوره، استخراج مظاهر الإعجاز فى كتاب الله من خـلال فـهـمـه الـعـمـيق لـعلوم الطب والزراعـة والفلك والرياضـيـات، وسـاعـده التطور الحـديـث على فـهم الناس لتفسيـره، فهو يتكلم بأسلوب بسيط سهل، يفـهمه العوام، وفى أثناء حديثـة تنهال عليه المعانى التى تـتمشى مع إشراقتـه الإيمانية وصفائه الروحى.



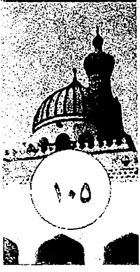
جامع السيدة زينب

ويحدث الناس فى التليفـزيون حديث المعلم، وعنده المقدرة على توصيل المعانى لمستـمعيه، وهم جالسـون فى بيوتهم، وظهر هذا الشـيخ فى وقت قلّ إقبال الناس عـلى القراءة، فكأنه أغنى الناس عن قراءة كتب التفسير، وما قد يكون فيها من صعاب.

إذن استطاع الشيخ تفسير القرآن الكريم لجمـاهير الناس، وأوجد جيلا واعيا بشؤون الدين، ونضيف إلى ذلك رسالة الشيخ العالمية، فقد تجول فى أنحاء العالم حاملا للناس فكره، وداعيا إلى الله، ومازال يدعو إلى الإسلام حتى وفاته.

ولا يمكن حصر الشيوخ الذين تخرجوا من الأزهر، وأدوا رسالته بإخلاص.

وأسس الشيخ **مصطفى المراغى** سنة ١٩٢٨م، قسـما للوعظ والإرشاد، يقـوم بالدعوة إلى الإسلام، ويخطب الـوعاظ فى المساجـد والتجمـعات الشـعبيـة داعين الناس إلى التـخلق بأخلاق الإسلام، والتمـييز بين الحلال والحـرام، ويجيبون على اسـتفسارات المواطنين، والإفـتاء، وكل ما يتعلق بالدعوة إلى كـتاب الله ودينه، ولا يقبل لشغل وظيـفة الواعظ، إلا من تثبت كفاءته ولـياقته لهـذا العمل الكبـير، وتطور عـمل الدعاة أو الوعـاظ، وسافـروا إلى البلاد الـعربيـة والإسلامـية والأجنبيـة، يدعون الناس إلى الإسـلام، ويبلغونهم رسـالة الأزهر كاملة، وضُـرب المثل فى بعض البلاد التى وصل إليها صوت الأزهر، وقيل لكل رجل فصيح اللسان قوى البيان، إنه (أزهرى).



ونبغ من علماء الوعظ والإرشاد شيوخ أجلاء، سُجِّل تاريخهم بأحرف من نور، مثل الشيخ عبد الرؤوف الفقى، والشيخ محمد عابد والشيخ حسن صفر والشيخ عبد المعبود سلام وغيرهم.

وحاربوا البدع والخرافات والاعتقاد فى كرامات الأولياء وزيارة القبور.

تعرضت البلاد الإسلامية لتيارات فكرية متطرقة ومتناقضة، مصدرها الشرق والغرب، وبعضها تيارات إلحادية تتخذ من الشيوعية مبدأً لها، وتدعو إلى الإلحاد والسخرية من الدين -الذى هو أفيون الشعوب- على حسب عقيدتهم ويجب على الإنسان الانصراف إلى العمل والإنتاج. وعلى الإنسان ألا يفكر إلا فى دنياه، وانتشر الفكر الشيوعى الإلحادى بين المسلمين فى عالمنا، وسخروا من الدين ورجاله، وتكوَّن جيل يؤمن بالشيوعية، وينبذ الدين، ولا يفكر إلا فى طعامه وشرابه وملذاته، ولا يفكر فيما وراءه. وهذا جيل ضال، عاش كالحيوان دون فكر فلسفى، ودون نظر فى قدرة الله الماثلة أمامنا، فهى واضحة كل الوضوح فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وفى الإنسان والحيوان الذى يبدأ طفلا صغيرا، وينتهى كهلا. فالموت حق، والإنسان تتجلى له فى حياته قدرة الله من خلال النظر والتدبر والفكر.

واجتذب هذا التفكير الضال الكثير من الشباب، وأهملوا الدين وسخروا منه، ووقف الأزهر وعلماؤه وشيوخه ضد هذا التيار الجارف الذى حوَّل الإنسان إلى آلة لا يفكر ولا يتأمل فيما حوله، وفيما وراءه. لذلك سقط هذا التيار بفشل وسقوط دولته الشيوعية، الاتحاد السوفيتى.

وتعرضت مصر لأفكار العقيدة البهائية الوافدة من إيران وهى عقيدة ملحدة، تبناها بعض المثقفين فى مصر وآمنوا بها، وتدعو إلى الإباحية والفوضى، فحاربها شيوخ الأزهر، حتى ألغاها نهائيا محمود فهمى النقراشى باشا - رئيس الوزراء - سنة ١٩٤٨.

الشيخ عبد الرءوف الفقى شيخ الوعاظ يدعو المسلمين فى الجامع الأزهر سنة ١٩٥٩





وألغى جمال عبد الناصر الماسونية، وأغلق أنديتهم، وتضم الماسونية طائفة من الملحدين يقفون إلى جانب الصهيونية العالمية والاستعمال العالمى ويسخرون من الإسلام وأهله.


الشيخ حسن البنا

وتبنى بعض المثقفين المصريين أفكار المستشرقين، وروجوا لها فى مصر، وجاهروا بالإلحاد، ولكن بعد مناقشات مع رجال الأزهر، عادوا إلى الإسلام الصحيح.

وواجه المسلمون تيارا إلحاديا آخر، وفد مع الاستعمار الأوروبى، ويحمل السخرية من كل ما هو ومن هو شرقى، ويدعو إلى الفرنْجة أى الأخذ بأساليب الحياة الأوروبية فى الملبس والمظهر الاجتماعى والحديث وغيره، وتبنى هذا التيار بعض الشباب، ووجدوا فى رجال الدين رمزا للرجعية والتخلف فسخروا منهم، بل شنَّعوا على زعمائهم وقادتهم، وتصدى لهذا التيار بشدة جماعة الإخوان المسلمين الذين دعوا بقيادة إمامهم حسن البنا إلى العمل بالإسلام الصحيح وإلى التصدى للاستعمار وأساليبه الإلحادية ونشطت هذه الجماعة بدخول الكثير من علماء الأزهر فيها. وتصدت بقوة لأعداء الإسلام، ولم يترك الاستعمار وسيلة إلا استغلها ضد رجال الدين، حتى أن شيخ الأزهر الدكتور أحمد الفحام، ألقى محاضرة فى مقر الجماعة الماسونية التى ترى أن الأخوة بين الناس تحل محل الدين، ونسبوا إلى الشيخ الجليل تهمة الإلحاد، ونسوا أن محاضرته كانت تدور حول مبادئ الإسلام، وعالمية هذا الدين وسماحته وجوانبه الأخلاقية المشرقة التى تؤدى إلى سعادة البشرية فى كل زمان ومكان.

ورحل رجال الأزهر إلى أنحاء العالم يناظرون رؤساء الديانات فيما يُسمى الحوار بين الأديان.

وضعفت جماعة الإخوان المسلمين وانحلت. ولكن مبادئها ظلت ماثلة أمام الناس، وتبنى بعض المثقفين أفكارها، وظهرت من جديد فى ثوب آخر. جماعات إسلامية تدعو إلى الإسلام المعتدل القائم على العلم والفكر ودراسة العلوم المختلفة أوروبية وغير أوروبية. أما هذه الجماعات فقد دخلها بعض المتطرفين تدعو إلى الإرهاب والعنف وتعطى لأعضائها الحق فى شن الحملات الإرهابية على خصومهم من المسلمين وعلى أهل الديانات الأخرى. والإسلام برىء من ذلك، وكثر الشباب المتحمس دون علم أو فقه فى الدين فى هذه الجماعات المتطرفة، وأساءت إلى الإسلام بأعمالهم التخريبية، واعتقدوا أن غيرهم ليس مسلما وأنهم أهل العلم، وعارضوا أهل الذكر أى رجال العلم من الأزهر، وأفتوا فتاوى تخل بالدين، وفهموا الدين فهما خاطئا يناسب



تفكيرهم الضـال، وسخروا من رجال الأزهر. وفى النهاية لا يـصح إلا الصحيح. فقد ضعفت هذه الجماعات، ولم يعد لها من أنصار إلا أهل التطرف والفكر المغلق. وبقى الأزهر شامخا برجاله وشيوخه الذين فهـموا الإسلام جيدا، وعبروا عنه تعبيرا معتدلا.



لا نستطيع أن نخـتم بحثنا عن شـيوخ الأزهر دون إشارة تفـصيلية إلى كـبار مشايخ الأزهر الذين أثَّروا فى الفكر الإسلامى والثـقافة الإسـلامية، وبذلوا جـهدا كبيرا فى نشر رسـالة الأزهر فى العالم كله ووضعوا المؤلفات والمصنفات القيـمة فى خدمة الإسلام وأهله.

وهم على التوالى:

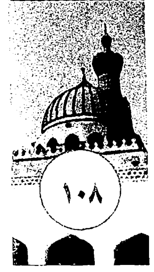
١- الشيخ محمد مصطفى المراغى.

٢- الشيخ مصطفى عبد الرازق.

٣- الشيخ عبد المجيد سليم.

٤- الشيخ محمود شلتوت.

٥- الشيخ عبد الحليم محمود.



الشيخ محمد مصطفى المراغى

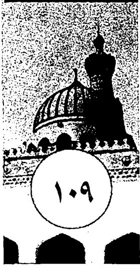

الشيخ
مصطفى المراغى

وُلد الشيخ المراغى بمراغة محافظة سوهاج سنة ١٨٨١م، حفظ القرآن الكريم فى صباه، والتحق بالأزهر، وكان طالبا متفوقا فى دراسته وتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، وتأثر به وأفاد من علمه ومنهجه فى الإصلاح، وحصل على العالمية بتفوق سنة ١٩٠٤م، وأقبل على قراءة الكتب فى مختلف فروع العلم، وأقبل على كل مصادر المعرفة وعُيِّن قاضيا فى السودان، وحارب البدع والخرافات التى سادت وانتشرت بين المسلمين فى السودان. وبذل جهدا كبيرا وناجحا فى السودان لتنقية الفكر الإسلامى والعقيدة الإسلامية من الشوائب والبدع والضلالات.

وفى سنة ١٩٢٢م عُين رئيسا للمحكمة الشرعية العليا فى مصر، وفى سنة ١٩٢٨م شغل منصب شيخ الأزهر لمدة عام، ثم عاد إلى مشيخة الأزهر سنة ١٩٣٥م، وبقى بها حتى وفاته سنة ١٩٤٥م.

بذل الشيخ المراغى جهودا مضنية لإصلاح الأزهر والقضاء، وشكَّل لجنة لتنظيم الأحوال الشخصية لا تتقيد بمذهب أبى حنيفة السائد فى مصر، وتوسَّع فى الاجتهاد متأثرا بمذهب أستاذه الإمام محمد عبده فى الإصلاح والاجتهاد، وأعاد تشكيل هيئة كبار العلماء، ووضع شروطا لعضويتها منها: وضع المرشح للعضوية أبحاثا جديدة وقوية فى علوم الدين، ودعا إلى توحيد المذاهب الدينية، وشكَّل لجنة من العلماء للفتوى فيما يعرض عليها من أمور المسلمين. كذلك، أسس لجنة لمراقبة البحوث والثقافة الإسلامية. وألَّف لجنة لدراسة قوانين الأزهر والعمل على إصلاحها، واهتم بنشر الثقافة الإسلامية والترجمة والعلاقات الإسلامية والبحوث الإسلامية، واهتم بالإشراف على الكتب التى تترجم معانى القرآن، وسعى إلى توحيد المذاهب الإسلامية حرصا على وحدة المسلمين.

إن التكوين العلمى والإصلاحى للشيخ المراغى يرجع إلى تأثره بأستاذه الإمام محمد عبده فى الإصلاح والتجديد والاجتهاد، ودعا إلى دراسة الأديان المقارنة حتى يتخرج جيل من الأزهريين يستطيعون محاورة غير المسلمين بالحجة والدليل القاطع.



وله مواقف شجاعة، ففى السودان حدث خلاف بينه وبين الحاكم الإنجليزى، تتعلق بمطالبة الأخير بمساعدته فى استقرار الاستعمار الإنجليزى فى مصر والسودان، واستقال لأسباب مشابهة من مشيخة الأزهر سنة ١٩٢٨م بسبب وجود عقبات أمام مشروعه لإصلاح الأزهر، وكرهه الملك فؤاد ولكن طلاب الأزهر والعلماء تظاهروا مطالبين بعودة الشيخ إلى منصبه، فأعاده الملك فؤاد كرها سنة ١٩٣٥، وظل بالمشيخة حتى وفاته.

ومن أبرز أعماله الإصلاحية فى مجال القضاء، تشكيل لجنة برئاسته لإعداد قانون يكون هو الركيزة الأساسية للأحوال الشخصية فى مصر، وعدم التقيد فى القانون المزمع عمله بمذهب أبى حنيفة - المذهب السائد فى مصر - وإنما الأخذ بكل الآراء التى يقع الاختيار عليها من المذاهب الأخرى، والتى تتفق مع المصلحة العامة للمجتمع.

وضع الشيخ المراغى قوانين لإصلاح الأزهر ومناهج الدراسة فيه، وكان الأزهر يتبع الملك فؤاد مباشرة، واعتبر مشروع قانون إصلاح الأزهر تحديدا لرئاسته للأزهر، فرفض المشروع، واستقال الشيخ المراغى.

لما عاد الشيخ المراغى إلى المشيخة سنة ١٩٣٥م، أسس ثلاث كليات وهى كلية اللغة العربية وكلية أصول الدين وكلية الشريعة. وهذا تطور كبير فى التعليم العالى بالأزهر الذى كان الطلاب يلتحقون بحلقات الدرس فى الجامع الأزهر. . . ودعا الشيخ إلى دراسة اللغات الأجنبية حتى يتخرج رجال ينشرون الدعوة خارج مصر، وأسس لجنة فتوى من كبار العلماء مقرها الجامع الأزهر.

وللشيخ المراغى مواقف شجاعة منها أنه عارض اشتراك مصر فى الحرب العالمية الثانية لأنها حرب بين الإنجليز المستعمرين لمصر والألمان ولن تستفيد مصر من اشتراكها فى هذه الحرب، ودعا إلى عدم اشتراك مصر وغضب الإنجليز من موقفه، وغضب منه حسين سرى باشا رئيس الوزراء الذى طلب منه تعديل موقفه فهدده الشيخ بمعارضة أزهرية لا يستطيع لها دفعا. وانتهى الأمر بأن سكت الإنجليز والوزارة المصرية عن موقف المراغى.

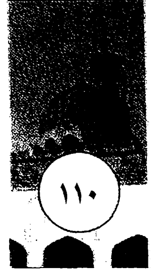
ومن مواقفه معارضته محاولة الملك فاروق استصدار فتوى من الشيخ تحرم زواج الملكة فريدة بعد طلاق الملك فاروق لها. وكان الملك فاروق يخشاه، فهو أستاذه وشيخه علمه علوم الدين واللغة العربية.

من أهم مؤلفاته:

١- بحث فى وجوب ترجمة القرآن الكريم.

٢- الزمالة الإنسانية. بحث كتبه لمؤتمر الأديان فى لندن.

٣- بحوث فى التشريع الإسلامى (مباحث لغوية بلاغية).



٤- دروس دينية فى الجامع الأزهر نُشرت فى مجلة الأزهر، وحضر الملك فاروق بعضها.

وظل الشيخ يعمل على الإصلاح والمحافظة على الدين حتى مرض، وتوفى سنة ١٩٤٥م، وأحدثت وفاته ضجة كبيرة فى العالم الإسلامى، ونعاه الملك فاروق، فهو أستاذه وشيخه، ودعا المسلمين فى مسجد من مساجد الإسكندرية إلى صلاة الغائب عليه وقراءة الفاتحة والترحم عليه.

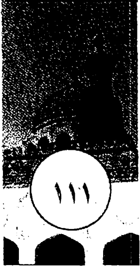
الشيخ مصطفى عبد الرازق


الشيخ
مصطفى عبد الرازق

ينتمى شيخنا إلى أسرة عريقة، اشتغل رجالها بخدمة القضية الوطنية المصرية. وُلد شيخنا سنة ١٨٨٨م فى قرية أبو جرج - بنى مزار محافظة المنيا، شغل أبوه وبعض أفراد عائلته عضوية المجالس النيابية فى عهد الخديوى إسماعيل.

حفظ شيخنا القرآن فى صباه فى كُتَّاب القرية، ثم التحق بالأزهر ودرس علوم الدين واللغة، ودرس فقه الإمام الشافعى، وقد تأثر شيخنا بالإمام محمد عبده، وحضر دروسه فى الرواق العباسى، وقد ظل وفيا له، وكتب عنه فى الصحف وحاضر عنه، وكتب مؤلفات قيمة عن سيرته ومنهجه وأُعجب بفكر الإمام محمد عبده فى الإصلاح والتوفيق بين العقل والنقل، لأن النظر العقلى هو أساس الإيمان الصحيح، وانضم إلى الجمعية الأزهرية التى أنشأها محمد عبده لإصلاح الأزهر والتعليم فيه.

حصل الشيخ مصطفى عبد الرازق على العالمية سنة ١٩٠٨م. وفى سنة ١٩١١م سافر إلى فرنسا لدراسة العلوم الشرعية والإنسانية، وتعلم اللغة الفرنسية فى جامعة السوربون، وحضر دروس الفلسفة والاجتماع وأصول الشريعة وتاريخ الأدب، وحصل على شهادة الدكتوراه عن الإمام الشافعى أكبر مشرعى الإسلام، وعاد إلى مصر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م.



تدرج الشيخ فى سلك الوظائف، ففى سنة ١٩١٥م عُـيِّن موظفا فى المجلس الأعلى للأزهر ثم سكرتيرا له، ثم انتقل إلى القضاء الـشرعى سنة ١٩٢٠م، مفتشا فى المحاكم الشرعية، ودخل مع أفراد أسـرته فى حزب الأحرار الدستوريين، إلا أنه لم يشغل نفسه كـثيرا فى العمل السياسى، وإنما شغل كـل وقته فى العلم والكتابة، فكان يكتب المقـالات الأدبيـة والدينية والاجـتمـاعـية فى جـريدة الحزب. جـريدة السياسة.

وعُيِّن أستاذا للفلسفة الإسلامـية فى كلية الآداب سنة ١٩٢٧م ثم وزيرا للأوقاف عدة مرات من سنة ١٩٣٧م-١٩٤٤م، فكان أول شـيخ أزهرى يلى الوزارة وحـصل على مـرتبـة الباشـوية، وحافظ هذا الشيخ الباشا على زيه الأزهرى طوال حياته.

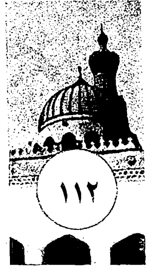
والشـيخ مصطفى عـبد الرازق رائد الفكر الفلـسفى فى مـصر الحديـثة، وهو أول مـصرى يتصدى لتـدريس الفلسفة الإسلامـية من وجهة نظر إسـلامية بعد أن كـان المستشرقـون يدرسونها مرتبطة بالفكر اليونانى.

وأرجع الشيخ أصول الفلسـفة الإسلامية إلى المسلمين أولا وليـس إلى الفكر اليونانى، دعا إلى دراسة علم الكلام والتصوف فى كليـة الآداب، ودعا إلى الكشف عن أوجه الأصالة والابتكار فى الفكر الفلسـفى الإسلامى. وواصل تلاميـذ الشيخ دراسة الفلـسفة الإسـلامية مـتأثرين بمنهج شيخهم.

واستـنكر الشيخ دعـاوى المستـشرقين وبعض تلامـذتهم من المسلمين بأن الفكر الإسـلامى مقتبس من الفكر اليونانى. وهذا يناقض ما لدى الفلاسفة المسلمين من فكر فلسفى عميق تجلى فى كتابات فلاسفة الإسلام مثل الفارابى، وابن سينا، وابن رشد وغيرهم. وأوضح الشيخ فى دراساته المكانة الرفيعة التى يتبوأها العقل فى الإسلام من خلال دراسته للنظر العقلى فى الفكر الإسلامى. ورفض أقوال فلاسفة الغرب التى تقلل من شأن العقلية الإسلامية فى الفكر الفلسفى.

ترك الشيخ تلاميذ حملوا فكره وعلمه، وقدموا دراسات جديدة للكشف عن ملامح الفلسفة الإسلامية الحقيقية فى عصورها المختلفة. وقدم تلميذه محمد عبد الهادى أبو ريدة دراسة رائدة عن المعتـزلة، وأثبت عدم قبول المفكرين المسلمين لـمنطق أرسطو ومحاربتهم له، وأنهم وضـعوا المنهج الاستقـرائى كاملا، وهو المنهج التجريبى، وأثبـت أبو ريدة أن المسلمين استخدموا طرق التـحقيق التجريبية فى دراستهم للطب والعلوم الطبيعـية والكيميائية والفلكية والنباتية، وأثبت أن هذا المنهج استفـاد منه الأوروبيون فى بناء نهضتهم الفكرية. كـذلك كتـب تلميذه د. سامى النشـار كتابا من ثلاثة أجزاء بعنوان نشأة التفكير الفلسفى فى الإسلام، تتبع فيه نشأة هذا الفكر وتطور بنائه.

ومن تلاميذ هذه المدرسة، محمود قاسم، وعبد الحليم محمود، وعبد الرحمن البيصار.

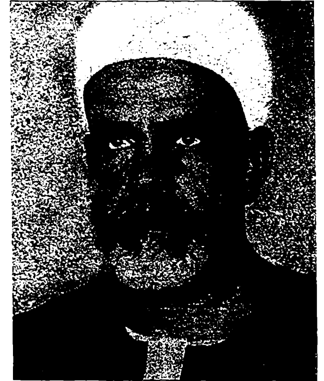


وللشيخ مصطفى عبد الرازق مؤلفات قيمة عن فلاسفة الإسلام مثل الكندى والفارابى وله كتاب «الإمام الشافعى» وكتاب الشيخ «محمد عبده» ركز فيه على الجوانب الإصلاحية والفلسفية لأستاذه الإمام، وترجم رسالة شيخه محمد عبده «التوحيد» إلى الفرنسية بالاشتراك مع برنارد ميشيل. ومن بحوثه «معنى الدين ومعنى الإسلام» بالفرنسية - التمهيد لتاريخ الفلسفة - فيلسوف العرب والمعلم الثانى الفارابى - الإمام الشافعى - الإمام محمد عبده - حياة البهاء زهير وشعره.

وقد أصدر أخوه على عبد الرازق سنة ١٩٥٧م مجموعة من مقالاته وبحوثه التى نشرها فى الصحف والدوريات بعنوان «من آثار مصطفى عبد الرازق».

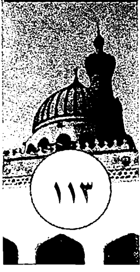
ونال تقدير الهيئات العلمية فعُين عضوا بمجمع اللغة العربية، وتقلد منصب شيخ الجامع الأزهر سنة ١٩٤٥م وتنازل عن لقب « باشا». وصادفت الشيخ مشاكل وصعابا عندما حاول تطبيق منهجه فى إصلاح الأزهر، ومضى فى طريقه إلى الإصلاح والتف حوله العلماء، ولكنه توفى سنة ١٩٤٧م.

الشيخ عبد المجيد سليم


الشيخ
عبد المجيد سليم

وُلد فى قرية ميت شهالة مركز الشهداء بالمنوفية سنة ١٨٨٢م حفظ القرآن الكريم فى صباه، وشغف بالعلم والتزود به، فتعلم فى الأزهر وظهر نبوغه فى سنى دراسته، وحضر مجالس العلم لكبار العلماء مثل الإمام محمد عبده والشيخ حسن الطويل والشيخ أبى خطوة، وحصل على شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة ١٩٠٨م.

قام بالتدريس فى المعاهد الدينية ثم بمدرسة القضاء الشرعى، وولى القضاء وتدرج فى سلكه، حتى وصل إلى عدة مناصب. وبرزت شخصيته كرجل من كبار العلماء، فعُين مفتيا للديار المصرية سنة ١٩٢٨م، وظل يشغل منصب الافتاء قرابة عشرين عاما، وكانت فتاواه يعتمد عليها المسلمون فى أنحاء



العالم الإسلامى، ولا زالت حتى يومنا هذا، وهى ١٥ ألف فتوى. ويشبهه البعض بشيخ الإسلام المشهور ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية. وهو صاحب التصانيف القيمة فى علوم الإسلام والفتاوى والآراء القيمة فى الفقه والتفسير والحديث وتوفى سنة ٧٥١ هـ.

تولى مشيخة الأزهر سنة ١٩٥٠م، وسعى النحاس باشا رئيس الوزراء لدى الملك فاروق لإقالته، لأنه انتقد المسؤولين فى الدولة لإسرافهم الشديد، وعدم موافقتهم تحسين ميزانية الأزهر، وكان الملك فاروق وحاشيته فى إيطاليا ينفق ببذخ شديد فقال الشيخ عبد المجيد سليم: تقتير هنا وإسراف هناك، وجمع أوراقه من مكتبه ولزم بيته، فأقاله الملك.

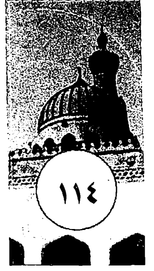
ولكن على ماهر باشا أعاده إلى مشيخة الأزهر ١٠/٢/١٩٥٢م وقدم استقالته ١٧/٩/١٩٥٢م للواء محمد نجيب رئيس جمهورية مصر العربية، فقبلها على تقديره العميق لعلمه وفضله، وتوفى فى أكتوبر ١٩٥٤م.

كان الشيخ عبد المجيد سليم من العلماء القلائل الذين شهدهم الأزهر من سعة الأفق وجلال الخلق وعظمة النفس، والشجاعة وكان لا يخشى فى الحق وفى الدين لومة لائم.

تتلمذ على أيدى الشيخ محمد عبده، وبرز بين زملائه العلماء فى قدرته العلمية. وكان لآرائه الدينية صداها فى العالم الإسلامى، أشرف على الدراسات العليا فى الأزهر ورئاسة لجنة الفتاوى. وله لمسات واضحة فى إصلاح الأزهر فى شتى أطواره المختلفة فى العصر الحديث، وله آراء وتوجيهات قيمة فى إصلاح الأزهر ورفع شأنه والمحافظة على رسالته ودفعها إلى الأمام.

والشيخ عبد المجيد سبق عصره فيما بذله من جهد فى التقريب بين المذاهب المختلفة، وإحلال التفاهم بين الطوائف الإسلامية محل الخلاف بينها، والانصراف بدلا من هذه الخلافات إلى بحث ما ينفع المسلمين ونسيان الخلاف والضغائن بينهم. وله فى هذه الناحية كتابات ومراسلات وبحوث ورسائل إلى علماء العالم الإسلامى.

عُرف عن الشيخ عبد المجيد سليم الصلابة فى الحق، وله فتاوى استنكر فيها الحفلات الراقصة التى يقيمها الملك فى قصره، وغضب منه الملك. كما أغضب الملك فؤاد من معارضته لاستبدال أرض قاحلة يملكها بأرض خصبة من ممتلكات الفلاحين.



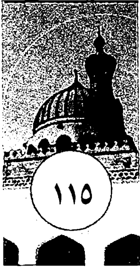
الشيخ محمود شلتوت

وُلد بإيتاى البارود محافظة البحيرة سنة ١٨٩٣م، حفظ القرآن الكريم فى صباه، ودخل معهد الإسكندرية، والتحق بالتعليم العالى فى الأزهر ونال شهادة العالمية سنة ١٩١٨م، وعُيِّن مدرسا بمعهد الإسكندرية وشارك فى ثورة ١٩١٩م بقلمه ولسانه، قدَّره الشيخ مصطفى المراغى، ونقله لتدريس الفقه فى المعهد العالى بالأزهر، وطالب بإصلاح الأزهر، وله فى ذلك مواقف شجاعة، اعتبره المسؤولون مناهضا لهم، وفصلوه من منصبه واشتغل بالمحاماة، وأعاده المراغى إلى الأزهر سنة ١٩٣٥م، وظهرت موهبته ومقدرته العلمية حين انضم إلى الوفد المصرى فى مؤتمر لاهاى للقانون الدولى سنة ١٩٣٧م، وألقى فيه بحثا تحت عنوان «المسؤولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية»، وكان لهذا البحث تأثيره على أعضاء المؤتمر، فاعترفوا بصلاحية الشريعة الإسلامية للتطور، واعتبروها مصدرا من مصادر التشريع الحديث وأنها أصيلة وليست مقتبسة من غيرها من الشرائع - وقد نال عضوية جماعة كبار العلماء بهذا البحث القيم. ونادى الشيخ بتكوين لجنة مهمتها الرد على افتراءات أعداء الإسلام، وتنقية كتب الدين من البدع والضلالات، ومهد بذلك لإنشاء مجمع البحوث الإسلامية.

تدرج الشيخ فى المناصب - مراقبا عاما للبحوث الإسلامية فوثق الصلات بالعالم الإسلامى. وفى سنة ١٩٥٧م اختير سكرتيرا عاما للمؤتمر الإسلامى ثم وكيلا للجامع الأزهر. وفى سنة ١٩٥٨م ولى مشيخة الأزهر. سعى جاهدا للتقريب بين المذاهب الإسلامية - زار الكثير من بلاد العالم الإسلامى. صدر قرار جمهورى من جمال عبد الناصر بتطوير الأزهر وانضمام كليات حديثة إليه - مثل كليات الطب والهندسة والعلوم والصيدلة والزراعة. وتضمن تطوير الأزهر إدخال اللغات والعلوم الحديثة فى مناهج التعليم الابتدائى والثانوى بالأزهر، وزاره فى المشيخة بالقاهرة رؤساء الدول الإسلامية وغير الإسلامية.

والشيخ محمود شلتوت أحد أفراد مدرسة التجديد والإصلاح التى أرسى الإمام محمد عبده قواعدها.

والشيخ شلتوت صاحب مدرسة فكرية خاصة تقوم على أساس الإحياء والتجديد ورفض الجمود والتقليد. وتتميز مدرسته بالوسطية التى هى من مبادئ الإسلام التى تدعو إلى الاعتدال فى الفكر والعقيدة، وتتميز بالوعى فى سنن الله فى الكون والمجتمع والشورى والعدالة الاجتماعية.



وسعى الشيخ إلى التـقريب بين المذاهب، ولم يجد غضـاضة فى الأخذ بآراء المذاهب الأخرى طالما أنها لا تتـعارض مع مبادئ الإسلام فأخذ ببـعض آراء الشيعة الإمامية أتبـاع جعفر الصادق، ولـم يكترث بمعارضـة بعض العلماء له. ودعا الشيخ بالأخـذ بآراء الأئمة الأربعـة من السنة والجعـفـرية والزيدية والإباضيـة والظاهرية. وكانـت له مواقف شـجاعة مع مـعارضـيه مـثل الملك فؤاد والملك فـاروق وبعض العلمـاء، وكـان لا يخـشى فى الحق لومـة لائم، وتعـرض للاضطهـاد من الملكين السابقين وصبر على البلاء ولكن الله نصره.

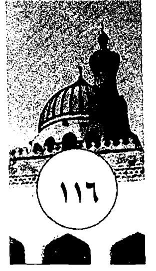
وفى مشيخته للأزهر أقبلت الوفود شرقية وغير شرقية، إسلامية وغير إسلامية لزيارة الأزهر وشيخـه، ودُعى لزيارة أندونيسيا والفلبين وجمـهوريات أمريكا اللاتينية، وحـصل على الدكتوراه الفخرية من بعض جامعاتها ووسام الشرف من الملك محمد الخامس - ملك المغرب.

وفى تطوير الأزهر، حُدد اختصاص منصب شيخ الأزهر، فاقتصر على النواحى الدينية ولم يقبل الشيخ هذا التـحديد، ورفع استقالته، ولكن لسـمعته الكبيرة ومكانتـه فى العالم الإسلامى، رفض عبـد الناصر الاسـتقالة، وضـعف الشيخ ومـرض، وسعى رؤساء العـالم الإسلامى وغـير الإسلامى لـزيارته، ولكن المسؤولين فى الدولة اعـتذروا بحـجة مـرض الشيخ وعدم قـدرته على استقبال الزوار.

وتولى الشيخ شلتوت عضوية هيئات علمية عديدة مثل الإذاعة والتليفزيون.

توفى الشيخ شلتوت فى ديسمبر سنة ١٩٦٣م بعد أن حقق إنجازات علمية كبيرة وآثارا فكرية واجتماعية خالدة، وثروة علمية تضم آراءه فى الاجتهاد والتجديد. ومن أهم أعماله العلمية:

١- فقه القرآن والسنة.
٢- مقارنة المذاهب.
٣- القرآن والقتال.
٤- القرآن والمرأة.
٥- تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام.
٦- الإسلام والوجود الدولى للمسلمين.
٧- تنظيم النسل.
٨- رسالة الأزهر.
٩- إلى القرآن الكريم.
١٠- الإسلام عقيدة وشريعة.
١١- من توجيهات الإسلام.
١٢- الفتاوى.
١٣- تفسير القرآن الكريم.



١٤- يسألونك: الإجابة على أسئلة إذاعية.

ولقد ضمت دار الشروق معظم مؤلفاته فى مجلد كبير.

والخلاصة: أن الشيخ محمود شلتوت كان رائدا من رواد الإسلام، وعالما مجددا أو مصلحا ومجتهدا ومبدعا، وترك آثارا كبيرة فى الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية، ولكنه واجه فى أواخر أيامه وفى شيخوخته مواقف رجال الثورة؛ ثورة ٢٣ يوليو المتأثرين بالاشتراكية المناهضة للدين والمتحدية للأزهر ورسالته وواجه هذه التيارات بكل ما استطاع من جهد.

الشيخ عبد الحليم محمود

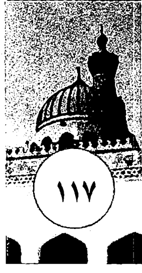


الإمام الدكتور
عبد الحليم محمود

وُلد فى قرية «أبو الحمد» مركز بلبيس - محافظة الشرقية فى ١٢ مايو ١٩١٠م، وحفظ القرآن الكريم فى صباه، وتعلم فى الأزهر مواصلا رسالة أفراد أسرته الذين تعلموا فى الأزهر دون إتمام لدراسته.

حصل عبد الحليم محمود على الشهادة العالمية سنة ١٩٣٢، وسافر إلى باريس للدراسة، وحصل على درجة الدكتوراه فى التصوف الإسلامى عن الحارث المحاسبى سنة ١٩٤٠م.

عاد الشيخ إلى مصر وعُين مدرسا فى كلية أصول الدين، وتدرج فى سلك التدريس، حتى أصبح عميدا للكلية سنة ١٩٦٤م، ثم اختير عضوا فى مجمع البحوث الإسلامية ثم أمينا عاما له ثم أُختير وكيلا للأزهر سنة ١٩٧٠م ثم وزير للأوقاف وشؤون الأزهر.



تولى الشيخ عبد الحليم محمود مشيخة الأزهر سنة ١٩٧٣م فى وقت تقلصت فيه سلطات شيخ الأزهر، وانتقلت اختصاصاته إلى وزارة الأوقاف والأزهر، وكان على الشيخ أن يعيد للأزهر مكانتـه وللمشيخة اختصاصاتهـا واستطاع الشيخ بصفاء نفسه ونقاوة روحه استعادة هيبة الأزهر وتخطى الصعاب التى واجهته.

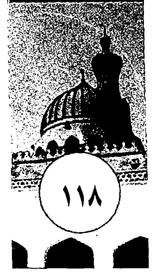
فوجئ الشيخ عبد الحليم بصدور قرار من أنور السادات رئيس الجمهورية بزيادة تحديد اختصاص شيخ الأزهر وإسناد اختصاصاته إلى وزراء الأوقاف والأزهر، فقدم الشيخ استقالتـه، ولزم بيته، ورفض استلام راتبـه، وسعى إلى تسوية معـاشه. ولكن أحد المحامين الغيورين على الدين رفع قضية ضد رئيس الجمهورية بـرفض قرار تحديد اختصاص شيخ الأزهر فما كان من أنور السادات إلا أن أعـاد للأزهر مكانته، وجاء فى القرار أن شيخ الأزهر هو الإمام الأكبر وصاحب الرأى فى كل ما يتصل بالشؤون الدينية والمشتغلين بالقرآن وعلوم الإسلام، وله الرياسة والتوجيه فى كل ما يتصل بالشؤون الدينية والدراسات العربية والإسلامية بالأزهر، وتضمن القرار معـاملة شيخ الأزهر معاملة الوزير من حيث المرتب والمعـاش، وشيخ الأزهر يتقدم الوزراء، ثم أصبح فى درجة رئيس وزراء. وبذلك انتهت الأزمة، وعاد الشيخ إلى ممارسة عمله.

قوى شأن الأزهر فى عـهد شيخه فأصبح للأزهر رأى فى كل قضية وموضوع يتعلق بأمر المسلمين، وعارض قانون الأحوال الشخصية الذى أصدرته الوزيرة عائشة راتب، ونجح الإمام فى وقف هذا القانون.

واعترض الشيخ على انتقاد جمال عـبد الناصر لشيوخ الأزهر وفتاواهم، وتهكمه على الزى الأزهرى، فتحدى الشيخ هو وزملاؤه وارتدوا الزى الأزهرى الذى تهكم منه الرئيس. وتصدى الشيخ لكل المحاولات التى كانت تُبذل لتغيير قانون الأحوال الشخصية. وأدخال بنود تتعارض مع الشريعة.

وأضاف الشيخ إلى مجمع البحوث الإسلامية مكتبة ضخمة تضم أمهات الكتب. وضم الشيخ كفاءات علميـة عالية إلى مجمع البحوث وبذل جهدا مع المسؤولين لتخصيص قطعة أرض فى مدينة نصـر تضم المجمع ومكتبتـه وإدارته، كمـا نجح فى تخصيص قـطعة أرض بالأزهر لنقل مكتبة الأزهر إليها.

وأنشأ بعض المسـاجد وجدد المساجـد التاريخية مـثل جامع عمرو بن العـاص وأسند خطبة الجمعة إلى الشيخ العـالم الجليل محمد الغزالى، فعاد إلى المسجد هيـبته وأقبل الناس على الصلاة فيه والاستماع إلى شيخه، كما استـرد أراضى الأوقاف لينفق من ريعها على تجديد وتشييد المساجد والأعمـال الخيـرية وفتح المـساجد لتـلقى الدروس فى المراحل التعليـميـة. وبذلك ربط الشـباب بالمساجد.



وواجه الشيخ مواقف كثيرة بكل شجاعة، مثل محاولة الدولة بالاتفاق مع البابا شتودة على عمل كتب دينية لتلاميذ المدارس تضم الإسلام والمسيحية، واعترض كذلك على مهاجمة المحكمة العسكرية التى انعقدت لمحاكمة جماعة التكفير والهجرة والتى أنكرت على الأزهر دوره السلبى فى التصدى لهذه الجماعة.

توسع الشيخ فى إنشاء المعاهد الأزهرية بعد أن قل عددها، وقل تبعا لذلك عدد طلاب الأزهر، مما اضطر الأزهر إلى قبول طلاب من الثانوية العامة غير مزودين بعلوم الأزهر، واستطاع بصلاته الكثيرة بالمسؤولين ورجال الأعمال جمع التبرعات وإنشاء العديد من المعاهد الدينية.

ودعا الشيخ إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وبذل فى ذلك جهودا مضنية حتى تشكَّل لجنة من مجمع البحوث الإسلامية لتقنين الشريعة الإسلامية فى صيغة مواد قانونية تيسر استخراج الأحكام الفقهية على غرار القوانين الوضعية، فأتمت اللجنة تقنين القانون المدنى كله فى كل مذهب من المذاهب الأربعة.

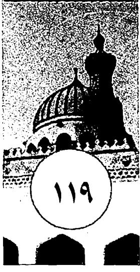
وكان الشيخ يؤدى رسالته كإمام للمسلمين جميعا، يدرس أحوال المسلمين فى كل بلاد العالم، ويقدم المنح الدراسية لكل الشباب المسلم فى العالم، ممن يرغب فى التعلم فى الأزهر، ويدرس أحوال المسلمين فى كل مكان، وأصدر بيانا دعا فيه اللبنانيين إلى ضبط النفس والتوقف عن سفك الدماء والتعاون معا مسلمين ومسيحيين لنهضة بلادهم، ودعا إلى حل مشكلة فلسطين وتقديم العون للفلسطينيين من البلاد الغنية، ودعا المسلمين إلى النظر فى أحوال الجماعات الإسلامية فى العالم التى تواجه الفقر والاضطهاد والبؤس، ودعا إلى حل المشكلة المغربية الجزائرية التى كادت أن تؤدى إلى حرب بين الدولتين الإسلاميتين، ودعا أنور السادات إلى التدخل لتسوية المشاكل المعلقة بين البلدين.

وظل الشيخ مجاهدا فى سبيل عزة الإسلام وأهله حتى وفاته سنة ١٩٧٨م.

من مؤلفات الشيخ:

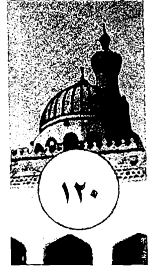
التصوف والفلسفة:

أوروبا والإسلام - التوحيد الخالص - الإسلام والعقل - أسرار العبادات فى الإسلام - التفكير الفلسفى فى الإسلام - القرآن والنبى - المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها أبو الحسن الشاذلى. وللشيخ مؤلفات باللغة الفرنسية.



قال الشاعر أحمد شوقى عن الأزهر:

قم فى فم الدنيـــا وحى الأزهرا ... وانثـر على سـمع الزمـان الجـوهرا
واجـعل مكان الدر - إن فـصلتـه ... فى مـدحـه - خـرز السـمـاء النيـرا
واذكـره بـعـد المسـجـدين، مـعظمًـا ... لمسـاجـد الله الثـلاثة مكبـرا
واخــشع مليــا، واقض حق أئمــة ... طلعـوا به زهرا، ومــاجـوا أبحـرا
كـــانوا أجل من الملوك جـــلالة ... وأعــز سلطانًـا، وأفـخـم مظهـرا
زمن المخـاوف كـان فـيـه جنابهم ... حـرم الأمـان، وكـان ظلهم الذرا
من كـل بحـر فى الشـريعـة زاخـر ... ويريكـه الخُلق العظيم غـضـنفـرا
العلم فـيـه مناهلا ومـجـانيـا ... يأتى له النُّزاع يبـغـون القـرى
يا فـتـيـة المعـمـور، سـار حديثكم ... نـدا بـأفــواه الركـاب وعنبـرا
المعـهــد القـدسى كـان نديه ... قطبـا لدائرة البـلاد ومـحـورا
ولدت قـضـيتـهـا على مـحـرابه ... وحبت به طفلا، وشبت مـعـصرا
وتقدمت تزجى الصـفـوف، كـأنهـا ... (جـاندرك) فى يدها اللواء مظفـرا
هزوا القـرى من كـهـفهـا ورقيـمـهـا ... أنتم - لعمـر الله - أعصـاب القرى
الغــــافل الأمـى عـندكـم ... كـالبـبـغـاء، مـرددا، ومكـررا
يمسى ويصـبح فى أوامــر دينه ... وأمـور دنيـاه بكم مـستبـصـرا
لو قلتم: اخـتـر للنيـابة جـاهلا ... أو للخطابة باقــلا، لتـخـيـرا
ذكـر الرجـال له، فـألَّه عـصـبـة ... منهم، وفـسق آخـرين، وكـفـرا
آباؤكم قــرأوا عليـــه، ورتلوا ... بـالأمس تاريخ الرجـال مـزوَّرا
حـتى تلفت عن مـحـاجـر رومـة ... فرأى (عرابى) فى المواكب قيصرا
ودعـــا لمخلوق، وألـه زائـلا ... وارتد فى ظلم العـصـور القـهـقـرى
وتفـيـئـوا الدسـتـور تحت ظلاله ... كنفـا أهش من الرياض وأنضـرا
لا تجـعلوه هوى، وخلقـا بينكم ... ومـجـر دنيـا للنفـوس، ومـتجـرا
اليـوم صـرحت الأمـور، فـأظهـرت ... ما كان من خدع السياسة مضمرا
قـد كـان وجـه الرأى أن نبـقى يدا ... ونـرى وراء جنـودها إنكلتـــرا
فـإذا أتتنا بالصـفـوف كـثـيـرة ... جـئنا بصف واحـد لن يكسـرا



خاتمة

نخلص من ذلك أن الأزهر الذى أسسه الفاطميون، تطور منذ إنشائه إلى جامعة، تؤدى فيها الصلوات وخطبة الجمعة وفى نفس الوقت تُعقد فيه مجالس العلم، وتحوَّل إلى جامعة عالمية، وعلى الرغم من إغلاقه فى العصر الأيوبى، إلا أن السلاطين المماليك أعادوه لإقامة الطلاب، وعُقدت فيه مجالس العلم من الصباح حتى المساء. وكان له وقف يُنفق على إدارة المسجد وبنيانه، ورواتب العلماء والطلاب، وتقديم الوجبات الغذائية لهم. ولجأ الناس إلى الأزهر فى أيام الفتن والمجاعات والمصائب والكوارث يلتمسون من مشايخه الدعاء لإنقاذهم مما يقاسونه.

وتزعم شيخ الأزهر الرئاسة الدينية فى مصر، وأصبح زعيما شعبيا يلجأ إليه الجماهير ليطالب السلطات الحاكمة برفع الظلم عنهم، وقاد الأزهر المصريين ضد الحكم الفرنسى، ولا تزال المظاهرات تنطلق منه للمطالبة بحرية البلاد واستقلالها.

وتخرج من الأزهر العديد من العلماء الذين ساهموا فى المحافظة على الفكر الدينى المعتدل، وعلى تخليص البلاد من التخلف والجمود، ومسايرة ركب الحضارة.

وهكذا فإن الأزهر هو تاريخ مصر منذ قيام الدولة الفاطمية فى مصر حتى يومنا هذا، أكثر من ألف وثلاثين عاما، إن الإنسان يشيخ والكائنات الحية تشيخ والجماد يبلى وينتهى، ولكن الأزهر يمثل الخلود، يتحدى الزمان والدهر، بُنِى ليبقى، لم يمت ولم يتوقف عن تأدية رسالته، لا يزال شامخا، مدافعا عن الإسلام واللغة، حريصا على وضع الإسلام والدعوة له ودراسته فى إطار سليم معتدل. ولا يزال يدافع عن الإسلام ويناهض الظلم الذى يلحق بالمسلمين من وقت لآخر. ولجأ إليه الناس للتعبير عن كل خطر تتعرض له مصر أو غيرها من بلاد الإسلام.

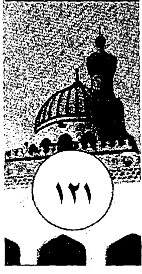
الأزهر يفد إليه طلاب من أنحاء مصر وبلاد العالم للدراسة والبحث -الأزهر مصدر الثقافة الإسلامية، ومصدر الفكر الإسلامى المعتدل.

وقف على منبر الأزهر خطيبا، الخلفاء الفاطميون والعلماء المسلمون الكبار مثل ابن خلدون وابن حجر العسقلانى وابن دقيق العيد، وقام بالتدريس فيه علماء لايمكن حصرهم بسهولة، ومن أبرزهم شيوخ الأزهر، مثل الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ عبد الله الشبراوى، والشيخ حسونة النواوى والشيخ مصطفى المراغى والشيخ عبد الحليم محمود، ومن العلماء الكبار الشيخ الغزالى والشيخ أحمد حسن الباقورى والإمام محمد عبده والشيخ إسماعيل العدوى.

ونستطيع الآن أن نتخيل الشيوخ والطلاب فى كل يوم يدخلون ويخرجون ويتعلمون ويقيمون فى الجامع الأزهر بعمائمهم وجببهم يوما بعد يوم وسنة بعد سنة وقرنا بعد قرن -أجيال تتعاقب تمثل الحياة الدنيا الفانية، شيوخ وطلاب يفدون إلى الجامع فى شبابهم وشيوخهم، حتى يتعرضوا للمصير الحتمى وهو الفناء، ويأتى بعد هؤلاء أجيال وأجيال، ومقابر المجاورين تمتلئ بجثث العلماء وطلبة العلم الأزهريين، وهكذا فإن حركة الحياة تتمثل جيدا فى الأزهر تتعاقب الأجيال ويفنى جيل ويأتى بعده آخر، والأزهر باق عبر التاريخ ممثلا فكرة الخلود.

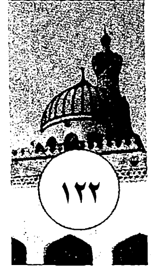
وإذا كانت القاهرة بلد الألف مئذنة، فإن مئذنة الجامع الأزهر تقف شامخة مهابة متميزة عن سائر المآذن، وتطل من فوق جامعها الشريف على القاهرة من جميع جوانبها، وكأنها تتابع حركة الحياة فى القاهرة قوم يمارسون نشاطهم فى حركة الحياة، وآخرون يرحلون إلى المقابر، والزمن يمر بأيامه ولياليه.

د. عصام الدين الفقى

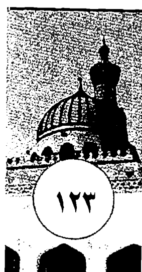


المصادر والمراجع

- إبراهيم على طرخان: مصر فى عهد عصر دولة المماليك الجراكسة.
- ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور.
- ابن تغرى بردى - أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.
- ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة.
- ابن خلكان : وفيات الأعيان.
- أبو وردة عبد الوهاب السعدنى: الجامع الأزهر وشيوخه فى العصر العثمانى.
- ابن ميسَّر: تاريخ مصر.
- كراتشكوفسكى : الشيخ محمد عياد الطنطاوى.
- أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم فى عصر محمد على.
- سيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين.
- توفيق الطويل : التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى.
- جمال الدين الشيال : تاريخ الترجمة والحركة العلمية فى عصر محمد على.
- جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى. الفاطميون فى مصر.
- حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية فى مصر.
- حسن عثمان : تاريخ مصر فى العصر العثمانى.
- حسين مؤنس : عالم الإسلام.
- رفاعة رافع الطهطاوى : تخليص الإبريز فى تلخيص باريز.

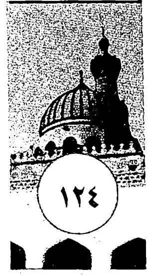


- السخاوى: الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع.
- سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون.
- سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر المماليك.
- سيدة إسماعيل الكاشف: مصر فى فجر الإسلام.
- السيوطى: حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة.
- عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الأثار فى التراجم والأخبار.
- عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية.
- عبد العزيز محمد الشناوى : الأزهر جامع وجامعة.
- عبد المتعال الصعيدى : تاريخ الإصلاح فى الأزهر.
- على مبارك : الخطط التوفيقية.
- عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : تاريخ الفكر الإسلامى.
- القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا.
- الكندى : الولاة والقضاة. تاريخ الشيخ محمد عياد طنطاوى.
- لين بول: سيرة القاهرة.
- محمد أنيس : مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى.
- محمد عبد الغنى حسن : حسن العطار.
- محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر.
- محمد عبد المنعم خفاجى : الأزهر فى ألف عام.
- المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والأثار ، إتعاظ الحنفا فى ذكر الأئمة الخلفا.
- وزارة الأوقاف وشئون الأزهر: الأزهر تاريخه وتطوره بالإضافة إلى دوائر المعارف الإسلامية والبريطانية والفرنسية.



المحتويات

الموضوع	الصفحة
- المقدمة.	١
- تمهيد.	٢
- الغزو الفاطمى لمصر.	٧
- القاهرة حاضرة الفاطميين.	١٣
- تأسيس الجامع الأزهر.	١٨
- الحركة الثقافية فى الأزهر فى العصر الفاطمى.	٢١
- الأزهر والمناسبات الدينية فى العصر الفاطمى.	٢٥
- الأزهر فى عصر الأيوبيين.	٢٩
- عودة الأزهر فى عصر المماليك.	٣٢
- عمارة الأزهر فى عصر المماليك.	٣٢
- ازدهار الفكر الإسلامى فى الأزهر فى عصر المماليك.	٣٥
- المكانة الدينية والاجتماعية للأزهر فى عصر المماليك.	٤٩
- الأزهر فى العصر العثمانى.	٥٥
- الزى الأزهرى.	٥٩
- طرق التعليم فى الأزهر.	٦٠
- أروقة الأزهر.	٦١



الموضوع	الصفحة
- شيخ الجامع الأزهر.	٦٢
- طريقة اختيار شيخ الجامع الأزهر.	٦٣
- الرواق والدراسة.	٦٥
- موقف الأزهر من الحملة الفرنسية على مصر.	٦٧
- دور علماء الأزهر فى تولية محمد على حكم مصر.	٧٩
- تطور الأزهر فى العصر الحديث.	٨٢
- شيوخ الأزهر.	٩٥
- خاتمة.	١٢١
- المصادر والمراجع.	١٢٢
- المحتويات.	١٢٤

Abstract

The Fatimids established the Holy Azher in Cairo in order to propagate their Ismailite Doctrines. It became a center for learning and the Fatimid Caliphs were very generous to both students and instructors in this university. However the Holy Azher was closed for about one hundred years during the Ayyubid dynasty, but when the Mamluk Sultan Baybars came to power, he reopened Al Azher in order to re-establish the Sunni Teachings.

Scholars from all over the Islamic world flocked into Al Azher El Sherif to pursue their studies and research work, then the position of Sheikh Al Azher came into prominence, and he became the symbol of Islamic solidarity, and staunch supporter of the people against oppressive rulers.

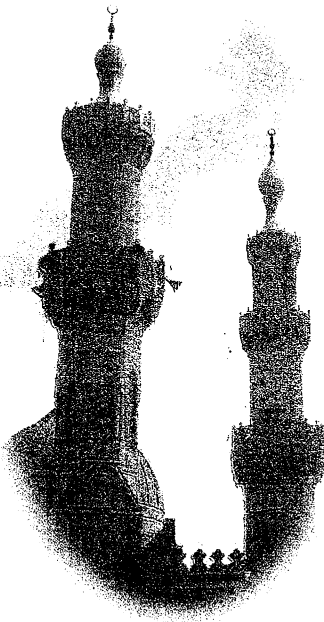
In modern times it was Al Azher that challenged the French Expedition of Bonaparte, and one of its students, Soliman Al Halabi killed general Cleber. After the evacuation of the French Expedition, Al Azher Ulma were behind the nomination of Mohamed Ali to become the Wali of Egypt. It should be noted also that the 1919 revolution was trigged from Al Azher. Al Azher records are glorious ones, rich with celebrities like, Sheikh Mohamed Abdo, Sheikh Mahmoud Shaltut, Sheikh Metwali Al Sharawi, and many others.

Dr. Essam El-Dine Abdel Raouf

(15)

The Holy Azhar, The Lighthouse of Islamic knowledge

Dr. Essam El-Din Abdel Raouf



Encyclopaedia Introductory to the Islamic History

Islamic Ages extend from the birth of the Prophet " Peace be upon him" in the year 571 A.D., until the Ottoman conquest to Egypt in 1517 A.D.

This period covers the various epochs starting from the age of the Prophet himself, and passing through the age of the Rightly Guided Caliphs, Ummayid and Abbasid Caliphates, and the small independent dynasties here and there.

During that period, the Muslims contributed a lot to the Europeans in the diverse branches of knowledge, and thus Medieval Europe managed to step forward from barbarism, and feudalism into a new dawn of history.

Dr. Essam El -dine Abdel Raouf

CONSULTATIVE COMMITTEE FOR:
THE ENCYCLOPAEDIA OF HISTORY, ARCHAEOLOGY AND CIVILIZATION

Correspondence & Communications:

Dar El-Fikr El - Arabi

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

94 Abbas Al-Akkad St., Nasr City - Cairo - Egypt

Tel.: 22752984 Fax: 22752735

www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com

CONTENTS

The Islamic Conquest of Egypt.

Dr. Hamid Zayan

Islamic Egypt: from the Arab Conquest till the beginning of the Fatimid Period.

Dr. Essam El-Din Abdel Raouf

The Fatimid Dynasty.

Dr. Saber Diab

Cairo Its Foundation,and Role in Islamic Civilization.

Dr. Attia El - Qossi

The Holy Azhar, The Lighthouse of Islamic knowledge.

Dr. Essam El-Din Abdel Raouf

The Encyclopaedia of History, Archaeology and Civilization

Islamic History

Volume (3)

Islam and Muslims in Egypt

Publisher
Dar Al-Fikr Al-Arabi
94 Abbas El - Akkad St. Nasr City - Cairo
tel 22752794 . Fax : 22752735
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com